

الباب الثاني

إســـهامات المسلمين

في جانب الأخلاق والقيم



تُمَثِّل الأخلاق والقيم الجانب المعنوي أو الرُّوحي في الحضارة الإنسانيَّة، وأيضًا الجوهر والأساس الذي تقوم عليه أي حضارة، وفي ذات الوقت تضمن سرَّ بقائها وصمودها عبر التاريخ والأجيال، وهو الجانب الذي إذا اختفى يومًا فإنه يُؤْذِنُ بزوال الدفء المعنوي للإنسان، الذي هو رُوح الحياة والوجود؛ فيصير وقد غادرت الرحمة قلبه، وضعف وجدانه وضميره عن أداء دوره، ولم يَعُدْ يعرف حقيقة وجوده فضلاً عن حقيقة نفسه، وقد بات مُكَبَّلاً بقيود مادية لا يعرف منها فِكَاكًا ولا خلاصًا.

وللأسف فإن الحضارات السابقة -كما سبق أن رأينا- والمعاصرة لم تَحْظَ بإسهام كبير ولا دور بارز في هذا الجانب، ويشهد على ذلك علماء الغرب ومُفَكِّريهم؛ فيقول الكاتب الإنجليزي جود: «إن الحضارة الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق؛ فالأخلاق متأَخِّرَة جدًّا عن العلم، فقد منحتنا العلوم الطبيعية قوَّة هائلة، ولكننا نستخدمها بعقل الأطفال والوحوش... فالانحطاط هو خطأ الإنسان في فهم حقيقة مكانته في الكون، وفي إنكاره عالم القيم، الذي يشمل قيم الخير والحقِّ والجمال»[1]. وتقول ألكسيس كارليل: «في المدينةِ العصرية قَلَّما نشاهد أفرادًا يتبعون مَثَلاً أخلاقيًّا، مع أن جمال الأخلاق يفوق العلم والفنَّ من حيث أنه أساس الحضارة»[2].

والحقيقة أيضًا أن هذا الجانب -جانب الأخلاق والقيم- لم يُوَفَّ حقُّه إلا في حضارة المسلمين، تلك التي قامت في الأساس على القيم والأخلاق، وبُعث رسولها خاصة لِيُتَمِّمَ مكارم الأخلاق ويكملها، وذلك بعد أن تشرذمت وتفرَّقت وأُهْمِلَتْ بين الأمم والحضارات.

تلك الأخلاق والقيم التي لم تكن يومًا نتاج تطور فكري على مرِّ العصور، وإنما كانت وحيًا أوحاه الله ﷻ وشرَّعه رسول الإسلام محمد ﷺ، فكان مصدرها التشريع الإسلامي منذ خمسة عشر قرنًا من الزمان.

---

(١) نقلاً عن أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج ٤/ ٧٧٠.

(٢) ألكسيس كارليل: الإنسان ذلك المجهول ص١٥٣.

وفي هذا الباب نعرض لطرف محدود من إسهامات المسلمين في جانب الأخلاق والقيم، تلك التي تُعَبِّرُ عن جوهر الحضارة الإنسانية، والذي ليس غرضنا فيه الاستقصاء بقدر ما هو مجرَّد فتح صفحات، وإلقاء الضوء وليس الشرح والتفصيل؛ وذلك على النحو التالي:

- الفصل الأول: في جانب الحقوق
- الفصل الثاني: في جانب الحريات
- الفصل الثالث: في جانب الأسرة
- الفصل الرابع: في جانب المجتمع
- الفصل الخامس: المسلمون والعلاقات الدولية

****

الفصل الأول
في جانب الحقوق

يقول نيتشه فيلسوف الغرب: «الضعفاء العجزة يجب أن يُفْنَوْا! هذا هو أول مبدأ من مبادئ حُبِّنَا للإنسانية! ويجب أيضًا أن يُساعَدوا على هذا الفناء»[1]!

لكن فلسفة الإسلام وشريعته لم تكن يومًا لتَحِيد عن القيم والأخلاق، والتي تمثَّلَتْ في إقرار مجموعة من الحقوق التي شملت كل بني الإنسان، دون تمييز بين لون أو جنس أو لغة، وشملت أيضًا محيطه الذي يتعامل معه، وتمثَّلَتْ كذلك في صيانة الإسلام لهذه الحقوق بسلطان الشريعة، وكفالة تطبيقها، وفرض العقوبات على مَنْ يَعْتَدِي عليها.

وتتَّضح أهمُّ هذه الحقوق من خلال المباحث التالية:

- المبحث الأول: حقوق الإنسان.
- المبحث الثاني: حقوق المرأة.
- المبحث الثالث: حقوق الخدم والعمال.
- المبحث الرابع: حقوق المرضى وذوي الاحتياجات الخاصة.
- المبحث الخامس: حقوق اليتيم والمسكين والأرملة.
- المبحث السادس: حقوق الأقليات.
- المبحث السابع: حقوق الحيوان.
- المبحث الثامن: حقوق البيئة.

(١) نقلاً عن الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب ص٣١٨.

المبحث الأول

حقوق الإنسان

ينظر الإسلام إلى الإنسان نظرة راقية فيها تكريم وتعظيم، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1]. وهذه النظرة جعلت لحقوق الإنسان في الإسلام خصائص ومميزات خاصَّة؛ مِن أهمِّها شموليَّة هذه الحقوق؛ فهي سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية.. كما أنها عامَّة لكل الأفراد؛ مسلمين كانوا أو غير مسلمين، دون تمييز بين لون أو جنس أو لغة، وهي كذلك غير قابلة للإلغاء أو التبديل؛ لأنها مرتبطة بتعاليم ربِّ العالمين.

وقد قرَّرَ ذلك رسول الله ﷺ في خطبة الوداع، التي كانت بمنزلة تقرير شامل لحقوق الإنسان، حين قال ﷺ: «... فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ..»[2]. حيث أكَّدت هذه الخطبة النبويَّة جملة من الحقوق؛ أهمُّها: حرمة الدماء، والأموال، والأعراض.. وغيرها.

وقال ﷺ أيضًا يُعظِّم من شأن النفس الإنسانيَّة عامَّة، فيحفظ لها أعظم حقوقها وهو حقُّ الحياة، فيقول ﷺ عندما سُئِل عن الكبائر: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ.. وَقَتْلُ النَّفْسِ..»[3]. فجاءت كلمة النفس عامَّة لتشمل أيَّ نَفْسٍ تُقتل دون وجه حقٍّ.

ثم ذهب الرسول ﷺ إلى أكثر من ذلك حين شرع حفظ حياة الإنسان من نفسه، وذلك بتحريم الانتحار، فقال ﷺ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ؛ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»[4].

---

(١) (الإسراء: ٧٠).

(٢) البخاري عن أبي بكرة: كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (١٦٥٤)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩).

(٣) البخاري عن أنس بن مالك: كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور (٢٥١٠)، والنسائي (٤٠٠٩)، وأحمد (٦٨٨٤).

(٤) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث (٥٤٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه... (١٠٩).

هذا، وقد حرَّم الإسلام كل عمل ينتقص من حقِّ الحياة؛ سواء أكان هذا العمل تخويفًا، أو إهانة، أو ضربًا، فعن هشام بن حكيم، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا**»(١).

وبعد تكريم الإنسان بصفة عامَّة، وتقرير حرمة الدماء والأعراض والأموال، وحقِّ الحياة، أكَّد على حقِّ المساواة بين الناس جميعًا؛ بين الأفراد والجماعات، وبين الأجناس والشعوب، وبين الحُكَّام والمحكومين، وبين الولاة والرعيَّة، فلا قيود ولا استثناءات، ولا فَرْقَ في التشريع بين عربي وأعجمي، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين حاكم ومحكوم، وإنما التفاضل بين الناس بالتقوى، فقال ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لآدَمَ**(٢)**، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ فَضْلٌ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلاَّ بِالتَّقْوَى**»(٣). ولننظر إلى تعامله ﷺ مع مبدأ المساواة؛ لندرك عظمته ﷺ، فعن أبي أُمامة أنه قال: عَيَّر أبو ذرٍّ بلالاً بأُمِّه، فقال: يابن السوداء. وأنَّ بلالاً أتى رسول الله ﷺ، فأخبره فغضب، فجاء أبو ذرٍّ ولم يشعر، فأَعْرَضَ عنه النبي ﷺ، فقال: ما أعرضكَ عنِّي إلاَّ شيءٌ بلغكَ يا رسول الله. قال: «**أَنْتَ الَّذِي تُعَيِّرُ بِلالاً بِأُمِّهِ؟**» وقال النبي ﷺ: «**وَالَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى مُحَمَّدٍ - أَوْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَحْلِفَ - مَا لأَحَدٍ عَلَيَّ فَضْلٌ إِلاَّ بِعَمَلٍ، إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ كَطَفِّ الصَّاعِ**(٤)»(٥).

ويرتبط بحقِّ المساواة حقٌّ آخر وهو العدل، ومن روائع ما يُروى في هذا الصدد قول الرسول ﷺ لأسامة بن زيد عندما ذهب ليشفع في المرأة المخزوميَّة التي سرقت: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»(٦).

---

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق (٢٦١٣)، وأبو داود (٣٠٤٥)، وأحمد (١٥٣٦٦).

(٢) كلكم لآدم: كل الناس جميعًا يرجعون إلى أب واحد هو آدم عليه السلام.

(٣) أحمد (٢٣٥٣٦) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير (١٤٤٤)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

(٤) طَفُّ الصاع: أي كلكم قريبٌ بعضُكم من بعض؛ فليس لأحد فضلٌ على أحد إلا بالتقوى؛ لأنَّ طَفَّ الصاع قريب من ملئه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة طفف ٩/ ٢٢١.

(٥) البيهقي: شعب الإيمان (٥١٣٥).

(٦) البخاري عن عائشة رضي الله عنها: كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ (الكهف: ٩) (٣٢٨٨)، ومسلم: كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف... (١٦٨٨).

وكان ﷺ ينهى كذلك عن مصادرة حقِّ الفرد في الدفاع عن نفسه تحرِّيًا للعدالة، فيقول: «... **فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً...**»[١]. ويقول لمن يتولَّى الحُكْم والقضاء بين الناس: «... **فَإِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الْخَصْمَانِ فَلاَ تَقْضِيَنَّ حَتَّى تَسْمَعَ مِنَ الآخَرِ كَمَا سَمِعْتَ مِنَ الأَوَّلِ؛ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ الْقَضَاءُ**»[٢].

وفي حقٍّ فريد تختصُّ به شريعة الإسلام، لم يتطرَّق إليه نظام وضعي ولا ميثاق من مواثيق حقوق الإنسان، يأتي حقُّ الكفاية، ومعناه أن يحصل كل فرد يعيش في كنف الدولة الإسلامية على كفايته من مقوِّمات الحياة؛ بحيث يحيا حياة كريمة، ويتحقَّق له المستوى اللائق للمعيشة، وهو يختلف عن حدِّ الكفاف الذي تحدَّثت عنه النُّظُم الوضعيَّة، والذي يعني الحدَّ الأدنى لمعيشة الإنسان[٣].

وحقُّ الكفاية هذا يتحقَّق بالعمل، فإذا عجز الفرد فالزكاة، فإذا عجزت الزكاة عن سدِّ كفاية المحتاجين تأتي ميزانية الدولة لسداد هذه الكفاية، وقد عبَّر الرسول ﷺ عن ذلك بقوله: «... **مَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا**[٤] **فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ**»[٥]. ثم قال ﷺ مؤكِّدًا على هذا الحقِّ: «**مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا**[٦] **وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ**»[٧]. وقال مادحًا: «**إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ**»[٨].

---

(١) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الوكالة، باب الوكالة في قضاء الديون (٢١٨٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب من استلف شيئًا فقضى خيرًا منه... (١٦٠١).

(٢) أبو داود عن عليٍّ ﷺ: كتاب الأقضية، باب كيف القضاء (٣٥٨٢)، والترمذي (١٣٣١)، وأحمد (٨٨٢) وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (١٣٠٠).

(٣) انظر: خديجة النبراوي: موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام ص٥٠٥-٥٠٩.

(٤) ضياعًا: أي ترك أولادًا صغارًا ضائعين لا مال لهم، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ضيع ٨/ ٢٢٨.

(٥) البخاري: كتاب التفسير، سورة الأحزاب (٤٥٠٣)، ومسلم عن جابر بن عبد الله: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧)، واللفظ له.

(٦) شبعانًا هكذا مصروفًا في رواية الطبراني، وهي صحيحة على لغة بني أسد.

(٧) الحاكم: كتاب البر والصلة (٧٣٠٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والطبراني عن أنس بن مالك: المعجم الكبير (٧٥٠) واللفظ له، والبيهقي: شعب الإيمان (٣٢٣٨)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (١٤٩).

(٨) البخاري عن أبي موسى الأشعري: كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض (٢٣٥٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل الأشعريين ﷺ (٢٥٠٠).

وإن حقوق الإنسان لتَصِلُ إلى أوج عظمتها حين تتعلَّق بحقوق المدنيين والأسرى أثناء الحروب، فالشأن في الحروب أنها يغلب عليها رُوح الانتقام والتنكيل، لا رُوح الإنسانيَّة والرحمة، ولكن الإسلام كان له منهجٌ إنسانيٌّ تحكمه الرحمة، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**لا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَلا امْرَأَةً وَلا شَيْخًا**»[1].

وهكذا، فهذا بعض ممَّا قَنَّنَه الإسلام ووَضَعَهُ كحقوق للإنسان على ظهر البسيطة، وهي في مجملها تعكس النظرة الإنسانية التي هي رُوح حضارة المسلمين.

* * *

(١) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث... (١٧٣١)، والطبراني عن عبد الله بن عباس: المعجم الأوسط (٤٣١٣) واللفظ له.

المبحث الثاني

حقـــــوق المـــــرأة

أحاط الإسلام المرأة بسياج من الرعاية والعناية، وارتفع بها وقدَّرها، وخصَّها بالتكريم وحُسْن المعاملة ابنةً وزوجةً وأختًا وأُمًّا، فقرَّر الإسلام أوَّلاً أنَّ المرأة والرجل خُلِقَا من أصل واحد؛ ولهذا فالنساء والرجال في الإنسانيَّة سَوَاء، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[1]، وهناك آيات أخرى كثيرة تُبَيِّن قضاء الإسلام على مبدأ التَّفْرِقَة بين الرجل والمرأة في القيمة الإنسانيَّة المشتَرَكة.

وانطلاقًا من هذه المبادئ، وإنكارًا لعادات الجاهليَّة والأمم السابقة فيما يخصُّ وضع المرأة، جاء الإسلام يدافع عن المرأة ويُنزلها المكانة التي لم تبلغها في ملَّة ماضية، ولم تُدْرِكْها في أُمَّة تالية؛ حيث شرع لها - كأمٍّ وأخت وزوجة وابنة - من الحقوق - منذ أربعةَ عَشَرَ قرنًا - ما تزال المرأة الغربيَّة تُصارع الآن للحصول عليه، ولكن هيهات!

فَقَرَّرَ الإسلام بدايةً أن النساء يُماثِلن الرجال في القَدْر والمكانة، ولا يَنْتَقِصُ منهنَّ أبدًا كونُهنَّ نساء، وفي ذلك قال الرسول ﷺ يؤصِّل لقاعدة مهمَّة: «إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»[2]. كما ثبت عنه ﷺ أنه كان دائم الوصيَّة بالنساء، وكان يقول لأصحابه: «... اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»[3]. وتكرَّرت منه هذه النصيحة في حجَّة الوداع وهو يخاطب الآلاف من أُمَّته.

وإذا ما أردنا أن نتبيَّن ما أصَّله الإسلام وما جاء به من دعائم لرفعة المرأة وتكريمها، فيهمُّنا أن ندرك أوَّلاً وضع المرأة في الجاهليَّات القديمة والمعاصرة[4]؛ لنرى الظلام الحقيقي الذي عاشته، والذي ما زالت تعيشه، ومن ثَمَّ يتبيَّن لنا حقيقة وضع ومكانة المرأة

---

(١) (النساء: ١).

(٢) الترمذي: أبواب الطهارة، باب ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللاً... (١١٣)، وأبو داود (٢٣٦)، وأحمد (٢٦٢٣٨)، وأبو يعلى (٤٦٩٤)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (١٩٨٣).

(٣) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء (٤٨٩٠)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء (١٤٦٨).

(٤) أشرنا إلى ذلك في الحديث عن الحضارات السابقة.

في ظلِّ تعاليم الإسلام والحضارة الإسلامية.

فإذا كان العرب - كما مرَّ بنا في الباب الأول - يَئِدُون بناتهم فيحرمونهن حقَّ الحياة، إذا بالقرآن الكريم يتنزل يُجرِّم ويُحرِّم ذلك الفعل؛ حيث قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[١]، بل وجعله النبي ﷺ من أعظم الذنوب؛ فعن ابن مسعودٍ ﷺ أنه قال: سألتُ رسول الله ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قلت: ثُمَّ أَيُّ؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ». قال: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»[٢].

فالأمر في الإسلام لم يقف عند الحفاظ على حقِّ المرأة في الحياة فقط، وإنما رغَّب الإسلام في الإحسان إليها صغيرة؛ فقال الرسول ﷺ: «مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ؛ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»[٣].

ثم أمر الرسول ﷺ بتعليمها فقال: «أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا.. فَلَهُ أَجْرَانِ»[٤]. وكان ﷺ يجعل للنساء يومًا ليعظَهُنَّ، ويذكِّرَهُنَّ، ويأمرَهُنَّ بطاعة الله تعالى[٥].

وما أن تشِبَّ البنت وتصير فتاة بالغة؛ حتى يُعْطِيَها الإسلام الحقَّ في الموافقة على الخاطب أو رفضه، ولا يجوِّز إجبارها على الاقتران برجل لا تريده، وقد قال في ذلك الرسول ﷺ: «الأَيِّمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْذَنُ فِي نَفْسِهَا، وَإِذْنُهَا صُمَاتُهَا»[٦]. وقال أيضًا: «لا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، وَلا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ». قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «أَنْ تَسْكُتَ»[٧].

---

(١) (التكوير: ٨، ٩).
(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه (٥٦٥٥)، والترمذي (٣١٨٢)، وأحمد (٤١٣١).
(٣) البخاري عن عائشة رضي الله عنها: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٦٤٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات (٢٦٢٩).
(٤) البخاري عن أبي موسى الأشعري: كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوجها (٤٧٩٥).
(٥) عن أبي سعيد الخدري: قالت النساء للنبي ﷺ غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك. فوعدهن يومًا لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن. رواه البخاري: كتاب العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حده في العلم (١٠١)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه (٢٦٣٣).
(٦) مسلم عن عبد الله بن عباس: كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت (١٤٢١).
(٧) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النكاح، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها (٤٨٤٣).

ثم لَمَّا تصير زوجةً يحثُّ الشرع الحنيف على حُسْن معاملتها وعشرتها؛ مبيِّنًا أن حُسْن عِشْرَة النساء دليل على نُبْل نفس الرجل وكريم طباعه، فيقول الرسول ﷺ - مثلاً - مرغِّبًا: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا سَقَى امْرَأَتَهُ مِنَ الْمَاءِ أُجِرَ**»[(١)]. ويقول مرهبًا: «**اللَّهُمَّ، إِنِّي أُحَرِّجُ**[(٢)] **حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ**»[(٣)].

وقد كان الرسول ﷺ قدوة عملية في ذلك؛ فكان في غاية الرقَّة واللُّطف مع أهله، يروي في ذلك الأسود بن يزيد النخعي، فيقول: سألتُ عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في أهله؟ قالت: «**كَانَ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ** - أي يساعدها في مهنتها - **فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ، قَامَ إِلَى الصَّلاةِ**»[(٤)].

وإذا ما كرهت الزوجة زوجها ولم تُطِق الحياة معه، فقد سنَّ لها الإسلام حقَّ مفارَقة الزوج، وذلك عن طريق الخُلْع؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ما أَنْقِم على ثابت في دِينٍ ولا خُلُق، إلاَّ أنِّي أخاف الكفر. فقال رسول الله ﷺ: «**فَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟**» فقالت: نعم. فردَّتْ عليه حديقته، وأمره ففارقها[(٥)].

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد أثبت الإسلام للمرأة ذِمَّة ماليَّة مستقلَّة تمامًا كالرجل؛ فلها أن تبيع وتشتري، وتستأجر وتؤجِّر، وتوكل وتهب، ولا حِجْر عليها في ذلك ما دامت عاقلة رشيدة، وذلك انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**﴾[(٦)].

---

(١) أحمد عن العرباض بن سارية (١٧١٩٥) وقال شعيب الأرناءوط: صحيح بشواهده..، وقال الألباني: حسن لغيره. انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٩٦٣).

(٢) أحرِّج: أي ألحق الحرج والإثم بمن ضيعها، فأحذره من ذلك تحذيرًا بليغًا، وأزجره زجرًا أكيدًا، انظر: المناوي: فيض القدير ٣/ ٢٧.

(٣) ابن ماجه عن أبي هريرة (٣٦٧٨)، وأحمد (٩٦٦٤) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي، والحاكم (٢١١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم. والبيهقي (٢٠٢٣٩)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (١٠١٥).

(٤) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج (٦٤٤)، وأحمد (٢٤٢٧٢)، والترمذي (٢٤٨٩).

(٥) البخاري: كتاب الطلاق، باب الخلع وكيفية الطلاق فيه (٤٩٧٣)، وأحمد (١٦١٣٩).

(٦) (النساء: ٦).

ولما أَجَارَتْ أُمُّ هانئ بنت أبي طالب رجلاً من المشركين، وأبى أخوها عليٌّ ﷺ إلاَّ أنْ يقتله، كان قضاء الرسول ﷺ في هذه الحادثة قوله: «أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ»(١). فأعطاها الحقَّ في أن تُعْطِيَ الأمان والجوار في الحرب أو السلم لغير المسلمين.

وهكذا تعيش المرأة المسلمة عزيزة أبيَّة كريمة مصونة في ظِلِّ تعاليم الإسلام وفي ظِلِّ الحضارة الإسلامية السامية.

* * *

(١) البخاري عن أم هانئ بنت أبي طالب: أبواب الجزية والموادعة، باب أمان النساء وجوارهن (٣٠٠٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى (٣٣٦).

المبحث الثالث

حقوق الخدم والعمال

أعزَّ الإسلام الخدم والعمَّال ورعاهم وكرَّمهم، واعترف بحقوقهم لأوَّل مرَّة في التاريخ - بعد أن كان العمل في بعض الشرائع القديمة معناه الرقُّ والتبعية، وفي البعض الآخر معناه المذلَّة والهوان - قاصدًا بذلك إقامة العدالة الاجتماعيَّة، وتوفير الحياة الكريمة لهم؛ وقد كانت سيرة الرسول ﷺ خيرَ شاهد على عظمة نظرة الحضارة الإسلامية للخدم والعمال، وكانت إقرارًا منه ﷺ بحقوقهم.

فقد دعا ﷺ أصحاب الأعمال إلى معاملة خدمهم معاملة إنسانيَّة كريمة، وإلى الشفقة عليهم، والبرِّ بهم وعدم تكليفهم ما لا يطيقون من الأعمال، فقال ﷺ: «... **إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ**[1]**، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**»[2]. فجاء تصريح رسول الله ﷺ: «**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ**». ليرتفع بدرجة العامل الخادم إلى درجة الأخ! وهذا ما لم يسبق أبدًا في حضارة من الحضارات.

وألزم الرسول ﷺ كذلك صاحب العمل أن يُوَفِّيَ للعامل والخادم أجره المكافئ لجُهده دون ظلم أو مماطلة، فقال: «**أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ**»[3].

وحَذَّر الإسلام من ظلم العمال، فقال الرسول ﷺ في الحديث القدسي عن ربِّ العزَّة ﷻ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ**»[4]. ليعلم كل مَنْ ظلم عاملاً أو خادمًا أن الله رقيب عليه وخصم له يوم القيامة.

كما يجب على صاحب العمل عدم إرهاق العامل إرهاقًا يضرُّ بصحَّته، ويجعله عاجزًا

---

(١) خولكم: خدمكم، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١١٥.

(٢) البخاري: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (٣٠)، ومسلم: كتاب الأيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل (١٦٦١).

(٣) ابن ماجه عن عبد الله بن عمر (٢٤٤٣)، وقال الألباني: صحيح. انظر: مشكاة المصابيح (٢٩٨٧).

(٤) البخاري عن أبي هريرة: كتاب البيوع، باب إثم من باع حُرًّا (٢١١٤)، وابن ماجه (٢٤٤٢)، وأبو يعلى (٦٤٣٦).

عن العمل، ولقد قال رسول الله ﷺ في ذلك: «**مَا خَفَّفْتَ عَنْ خَادِمِكَ مِنْ عَمَلِهِ كَانَ لَكَ أَجْرًا فِي مَوَازِينِكَ**»(١).

ومن الحقوق التي تُعتبر علامة مضيئة في الشريعة الإسلاميَّة حقُّ الخادم في التواضع معه، وفي ذلك يُرَغِّب الرسول ﷺ أُمَّته قائلاً: «**مَا اسْتَكْبَرَ مَنْ أَكَلَ مَعَهُ خَادِمُهُ، وَرَكِبَ الْحِمَارَ بِالأَسْوَاقِ، وَاعْتَقَلَ الشَّاةَ فَحَلَبَهَا**»(٢).

ولأن حياته ﷺ كانت تطبيقًا لكل أقواله، فإن السيدة عائشة - رضي الله عنها - تروي فتقول: «**مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ خَادِمًا...**» (٣).

كما نجده ﷺ يقول لأبي مسعود الأنصاري ﷺ عندما ضرب غلامًا له فيقول: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ**». قال: فَالْتَفَتُّ فإذا هو رسول الله ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله، هو حُرٌّ لِوَجْهِ الله. فَقَالَ: «**أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ**». أَوْ «**لَمَسَّتْكَ النَّارُ**»(٤).

فالضرب أو الصفع أو اللطم أو الركل هو إهانة للخادم يأباها الله ورسوله؛ ولهذا فإن أفضل عقاب للسيِّد القاسي القلب هو أن يُحْرَم فورًا من مِلْكِيَّتِهِ، وهذه هي عظمة الإسلام وعظمة الحضارة الإسلامية.

وهذا أنس بن مالك ﷺ خادم رسول الله ﷺ يشهد شهادة حقٍّ وصدق فيقول: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لاَ أَذْهَبُ - وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللهِ ﷺ- قَالَ: فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَابِضٌ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «يَا أُنَيْسُ، اذْهَبْ حَيْثُ أَمَرْتُكَ». قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ أَنَسٌ: وَاللهِ! لَقَدْ خَدَمْتُهُ سَبْعَ سِنِينَ أَوْ تِسْعَ سِنِينَ مَا عَلِمْتُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا. وَلاَ**

---

(١) صحيح ابن حبان عن عمرو بن حريث (٤٣١٤)، وأبو يعلى (١٤٧٢) وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات.

(٢) البخاري: الأدب المفرد ٢/ ٣٢١ (٥٦٨)، والبيهقي: شعب الإيمان (٨١٨٨)، وقال الألباني: حسن. انظر: صحيح الجامع (٥٥٢٧).

(٣) مسلم: كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام... (٢٣٢٨)، وأبو داود (٤٧٨٦)، وابن ماجه (١٩٨٤).

(٤) مسلم: كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (١٦٥٩)، وأبو داود (٥١٥٩)، والترمذي (١٩٤٨)، وأحمد (٢٢٤٠٤)، والبخاري: الأدب المفرد ١/ ٢٦٤ (١٧٣)، والطبراني: المعجم الكبير (٦٨٣).

لِشَيْءٍ تَرَكْتُ: هَلاَّ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا[١].

بل إن الرسول ﷺ كان يهتمُّ برعاية خَدَمِه إلى الدرجة التي يحرص فيها على زواجهم، فعن ربيعة بن كعب الأسلمي، قال: كنتُ أخدم النبي ﷺ فقال لي النبي ﷺ: «يَا رَبِيعَةُ، أَلاَ تَتَزَوَّجُ؟» قال: فقلتُ: لا والله يا رسول الله، ما أريد أن أتزوَّج؛ ما عندي ما يُقيم المرأة، وما أحبُّ أن يشغلني عنك شيء. قال: فأعرض عنِّي، ثم قال لي بعد ذلك: «يَا رَبِيعَةُ، أَلاَ تَتَزَوَّجُ؟» قال: فقلتُ: لا والله يا رسول الله، ما أريد أن أتزوَّج، وما عندي ما يُقيم المرأة، وما أحبُّ أن يشغلني عنك شيء. فأعرض عنِّي. وقال: ثم راجعتُ نفسي، فقلتُ: والله يا رسول الله أنت أعلم بما يُصلحني في الدنيا والآخرة. قال: وأنا أقول في نفسي: لئن قال لي الثالثة لأقولن: نعم. قال: فقال لي الثالثة: «يَا رَبِيعَةُ، أَلاَ تَتَزَوَّجُ؟» قال: فقلتُ: بلى يا رسول الله، مُرْنِي بما شئتَ، أو بما أحببت. قال: «انْطَلِقْ إِلَى آلِ فُلانٍ». إلى حيٍّ من الأنصار...[٢].

وتتجلَّى عظمة الحضارة الإسلامية في معاملة الخدم والعمال حين نرى امتداد رحمته ﷺ بخدمه لتشمل غير المؤمنين به أصلاً، وذلك كما فعل مع الغلام اليهودي الذي كان يعمل عنده خادمًا، فقد مرض الغلام مرضًا شديدًا، فظلَّ النبي ﷺ يزوره ويتعهَّده، حتى إذا شارف على الموت عاده وجلس عند رأسه، ثم دعاه إلى الإسلام، فنظر الغلام إلى أبيه متسائلاً، فقال له أبوه: أطِعْ أبا القاسم. فَأَسْلَمَ، ثم فاضت رُوحه، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»[٣]!

وهذه بعضُ بعض حقوق الخدم والعمال التي أصَّلها الإسلام الحنيف، والتي طَبَّقَهَا رسول الإسلام الكريم بالقول والعمل، في زمن لم يكن يعرف غير الظلم والقهر والاستبداد.. لتُعَبِّرَ بصدق عمَّا وصلت إليه حضارة الإسلام والمسلمين من سموٍّ وعظمةٍ وإنسانية.

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقًا (٢٣١٠)، وأبو داود (٤٧٧٣).

(٢) أحمد (١٦٦٢٧)، والحاكم (٢٧١٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. والطيالسي (١١٧٣).

(٣) البخاري عن أنس بن مالك: كتاب الجنائز، إذا أسلم الصبي فمات؛ هل يُصَلَّى عليه، وهل يُعْرَض على الصبي الإسلام (١٢٩٠).

المبحث الرابع
حقوق المرضى وذوي الاحتياجات الخاصة

للإسلام والحضارة الإسلامية نظرةٌ خاصَّةٌ في رعاية المرضى وذوي الاحتياجات، تلك النظرة التي تبدأ من التخفيف عليهم في بعض الالتزامات الشرعيَّة، وذلك كما في قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1]، وتنتهي ببثِّ الأمل في نفوسهم، ومراعاة حقوقهم الجسمانيَّة والنفسيَّة.

فها هو ذا النبي ﷺ كان إذا سمع بمريض أسرع لعيادته في بيته؛ مع كثرة همومه ومشاغله، ولم تكن زيارته هذه مُتكَلَّفة أو اضطراريَّة، وإنما كان يَشعر بواجبه ناحية هذا المريض.. كيف لا وهو الذي جعل زيارة المريض حقًّا من حقوقه؟! فقال ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ... وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ...»[2].

فكان ﷺ - وهو المُرَبِّي والقدوة - يُهَوِّن على المريض أزمته ومرضه، ويُظهِر له - دون تَكَلُّف - مُوَاساته له، وحرصه عليه، وحبَّه له، فيُسعد ذلك المريضَ وأهلَه، وفي ذلك يروي عبد الله بن عمر فيقول: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود ﷺ، فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله[3]، فقال: «قَدْ قَضَى؟». قالوا: لا يا رسول الله. فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بَكَوْا، فقال: «أَلاَ تَسْمَعُونَ؟! إِنَّ اللهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلاَ بِحُزْنِ الْقَلْبِ؛ وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ يَرْحَمُ[4]»[5].

كما كان ﷺ يدعو للمريض ويُبشِّره بالأجر والمثوبة نتيجة المرض الذي لحق به؛

(١) (النور: ٦١)، و(الفتح: ١٧).

(٢) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز (١١٨٣)، ومسلم في السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام (٢١٦٢).

(٣) غاشية أهله: أي الذين يغشونه للخدمة وغيرها. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٣/ ١٧٥.

(٤) يُعَذِّبُ بهذا: أي إن قال سوءًا. أو يرحم: أي إن قال خيرًا. انظر المصدر السابق.

(٥) البخاري: كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض (١٢٤٢)، ومسلم في الجنائز، باب البكاء على الميت (٩٢٤).

فيُهَوِّن بذلك عليه الأمر، ويُرْضيه به؛ تروي أُمُّ العلاء[١] فتقول: عادني رسول الله ﷺ وأنا مريضة، فقال: «**أَبْشِرِي يَا أُمَّ الْعَلاَءِ، فَإِنَّ مَرَضَ الْـمُسْلِمِ يُذْهِبُ اللهُ بِهِ خَطَايَاهُ كَمَا تُذْهِبُ النَّارُ خَبَثَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**»[٢].

وكان الرسول ﷺ حريصًا على أن يُخَفِّف عن المريض وألاَّ يشقَّ عليه، وقد روى في ذلك جابر بن عبد الله ﷺ فقال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجرٌ، فشجَّه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التَّيَمُّم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات؛ فلمَّا قدمنا على النبي ﷺ أُخبِرَ بذلك، فقال: «**قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، أَلاَ سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؛ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ**[٣]، **إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ أَوْ يَعْصِبَ** - شَكَّ أحد رُوَاة الحديث - **عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ**»[٤].

بل إنه ﷺ كان يُلَبِّي حاجة المريض، ويسير معه حتى يقضي حاجته، ولقد جاءته ذات مرَّة امرأة في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة. فقال: «**يَا أُمَّ فُلاَنٍ، انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ؛ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ**». فخلا معها[٥] في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها[٦].

كما جعل النبي ﷺ للمرضى وذوي الاحتياجات الخاصَّة الحقَّ في التداوي؛ لأن سلامةَ البدن ظاهرًا وباطنًا مقصدٌ من مقاصد الإسلام؛ لذلك قال ﷺ للأعراب عندما سألوه عن

---

(١) أم العلاء: أسلمت وبايعت النبي ﷺ، عمة حزام بن حكيم. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٧/ ٤٠٥، وابن حجر العسقلاني: الإصابة الترجمة ٨/ ٢٦٥ (١٢١٧٦).

(٢) أبو داود: كتاب الجنائز، باب عيادة النساء (٣٠٩٢)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٧٨٥١).

(٣) شفاء العي أي: يسألوا حين لم يعلموا؛ لأن شفاء الجهل السؤال. انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ١/ ٣٦٨.

(٤) أبو داود: كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم (٣٣٦)، وابن ماجه (٥٧٢)، وأحمد (٣٠٥٧)، والدارمي (٧٥٢)، والدارقطني (٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٠١٦)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٤٣٦٢).

(٥) أي وقف معها في طريق مسلوك ليقضي حاجتها ويفتيها في الخلوة، ولم يكن ذلك من الخلوة بالأجنبية؛ فإن هذا كان في ممرِّ الناس ومشاهدتهم إيَّاه وإيَّاها، لكن لا يسمعون كلامها؛ لأن مسألتها ممَّا لا يظهره. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم ١٥/ ٨٣.

(٦) مسلم عن أنس بن مالك: كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٢٣٢٦)، وأحمد (١٤٠٧٨)، وابن حبان (٤٥٢٧).

التداوي: «تَدَاوَوْا عِبَادَ الله، فَإِنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً إِلا الْهَرَمَ...»[١].

كذلك لم يكن يمانع أن تعالِج المرأةُ المسلمة رجلاً من المسلمين؛ حيث جَعَلَ ﷺ رُفَيْدة - وهي امرأة من قبيلة أسلم - تعالِج سعد بن معاذ حين أصابه سهم بالخندق، وكانت رضي الله عنها تُداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين[٢].

وفي صورة تطبيقية، كان الرسول ﷺ يتعامل مع عمرو بن الجموح رضي الله عنه تعاملاً راقيًا، وكان عمرو من ذوي الاحتياجات الخاصَّة، إذ كان أَعْرَج شديد العَرَج، وقد حدث أن بنيه الأربعة الذين كانوا يشهدون المشاهد مع رسول الله ﷺ، أرادوا حبسه يوم أُحُدٍ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال: إن بنيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال رسول الله ﷺ مخاطبًا عَمْرًا: «أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ عَذرَكَ اللهُ فَلا جِهَادَ عَلَيْكَ». وقال لبنيه: «مَا عَلَيْكُمْ أَلاَّ تَمْنَعُوهُ، لَعَلَّ اللهُ يَرْزُقُهُ شَهَادَةً». فخرج مع النبي ﷺ فقُتِلَ يوم أُحُدٍ، ثم قال ﷺ عنه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ، مِنْهُمْ: عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَطَأُ فِي الْجَنَّةِ بِعَرْجَتِهِ»[٣].

وهكذا كان حال المرضى وذوي الاحتياجات الخاصة في الإسلام وفي ظِلِّ الحضارة الإسلامية.

***

(١) أبو داود: كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد (١٨٤٧٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين..، وصححه الألباني، انظر: غاية المرام (٢٩٢).

(٢) البخاري: الأدب المفرد ١/ ٣٨٥ (١١٢٩)، وابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٣٩، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٢٣٣، وقال الألباني: إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات. انظر: السلسلة الصحيحة (١١٥٨).

(٣) ابن حبان عن جابر بن عبد الله: كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة (٧٠٢٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده جيد. وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٤٢٣، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٤/ ٢١٤.

المبحث الخامس

حقوق اليتيم والمسكين والأرملة

تميَّزت الشريعة الإسلاميَّة بأنها حفظت حقوق اليتامى والمساكين والأرامل، وجعلتهم في أمانٍ ورعاية المجتمع المسلم بتكافله لهم معنويًّا وماديًّا؛ وقد أمر الله ﷻ بالرحمة باليتيم فقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾[1]، كما أمر بإعطاء المسكين حقَّه المفروض له من قِبَلِ الله تعالى، فقال ﷻ: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[2].

وزيادة في تدعيم حقِّ المساكين[3] والأرامل[4] رَغَّب الرسول ﷺ الأُمَّة كلها بالسعي في قضاء حوائجهم؛ حيث رفع قدر الذي يرعى شئونهما إلى درجة لا يتخيَّلها أَحَد، فقال ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوِ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ»[5]. فأيُّ أجر وأيُّ ثواب أعظم من ذلك؟!

كما حثَّ الرسول ﷺ على الإحسان إلى اليتيم واعدًا بالأجر العظيم؛ وذلك تأصيلاً لحقوق اليتامى في الرعاية والكفالة، فقال ﷺ: «أَنَا وكَافِلُ الْيَتِيمِ[6] فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ». وأشار بأصبعيه، يعني السَّبَّابة والوسطى[7].

بل بلغت درجة الرفق والرحمة باليتيم أنه ﷺ رغَّب أفراد الأُمَّة أن يَضُمُّوا اليتامى إلى أولادهم، فقال ﷺ: «مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا بَيْنَ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ

---

(١) (الضحى: ٩).

(٢) (الإسراء: ٢٦).

(٣) المسكين: الذي ليس له من المال ما يسدُّ حاجته، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سكن ١٣/ ٢١١.

(٤) الأرملة: التي مات عنها زوجها، ويطلق على المحتاجة، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١٢٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة رمل ١١/ ٢٩٤.

(٥) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل (٥٠٣٨)، ومسلم: كتاب الزهد والرقاق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٢٩٨٢).

(٦) كافل اليتيم: القائم بأموره من نفقة وكسوة وتأديب وتربية، وغير ذلك، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٠/ ٤٣٦.

(٧) البخاري عن سهل بن سعد: كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيمًا (٥٦٥٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقاق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٢٩٨٣).

وَجَبَتْ لَهُ الْـجَنَّةُ الْبَتَّةَ»[١].

فترى المنهج الإسلامي لا ينظر إلى اليتامى والمساكين والأرامل على أنهم يحتاجون إلى متطلَّبات الحياة الماديَّة فقط؛ بل ينظر إليهم على أنهم بَشَرٌ حُرِمُوا من العطف والحنان؛ ولذلك أوصى الرسول ﷺ أصحابه برحمة المساكين واليتامى والتخفيف عنهم، ويظهر ذلك حين قال الرسول ﷺ لرجل أتى إليه يشكو قسوة قلبه: «أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ، وتُدْرِكَ حَاجَتَكَ؟ ارْحَمِ الْيَتِيمَ، وامْسَحْ رَأْسَهُ، وأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ؛ يَلِنْ قَلْبُكَ، وتُدْرِكْ حَاجَتَكَ»[٢].

ومن ناحية أخرى حذَّر الشرع الإسلامي من ظلم اليتامى وأَكْلِ حَقِّهم، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْـمُوبِقَاتِ[٣]... وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ»[٤].

وأكثر من ذلك حين حثَّ الإسلام ورَغَّبَ في إنفاق المال على المسكين واليتيم، فقال الرسول ﷺ في ذلك: «... وَإِنَّ هَذَا الْـمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ[٥]، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْـمُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ الْـمِسْكِينَ، وَالْيَتِيمَ، وَابْنَ السَّبِيلِ...»[٦].

وفي الناحية المعنوية فإن الإسلام يذهب أبعد من ذلك؛ وذلك حين يَذُمُّ النبي ﷺ طعام الوليمة الذي يحضره الأغنياء ولا يُدْعَى إليه الفقراء من اليتامى والمساكين، فيقول ﷺ: «بِئْسَ الطَّعَامُ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ؛ يُدْعَى إِلَيْهِ الأَغْنِيَاءُ، وَيُتْرَكُ الْـمَسَاكِينُ، فَمَنْ لَمْ يَأْتِ

---

(١) أحمد (١٩٠٤٧) وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح لغيره...، والبخاري: الأدب المفرد ١/ ٤١ (٧٨)، والطبراني: المعجم الكبير (٦٧٠)، وأبو يعلى (٩٢٦)، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى والسياق له وأحمد باختصار والطبراني، وهو حسن الإسناد. انظر: مجمع الزوائد ٨/ ٢٩٤، وصححه الألباني انظر: السلسلة الصحيحة (٢٨٨٢).

(٢) أحمد (٧٥٦٦)، والبيهقي: السنن الكبرى (٦٨٨٦)، ومسند عبد بن حميد (١٤٢٦)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٨٠).

(٣) الموبقات: المهلكات، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وبق ١٠/ ٣٧٠.

(٤) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا...﴾، [النساء: ١٠] (٢٦١٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

(٥) خَضِرَة حُلْوَة: شبهه بالرغبة فيه والميل إليه وحرص النفوس عليه بالفاكهة الخضراء المستلذة؛ فإن الأخضر مرغوب فيه على انفراده بالنسبة إلى اليابس، والحلو مرغوب فيه على انفراده بالنسبة للحامض، فالإعجاب بهما إذا اجتمعا أشد، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٣/ ٣٣٦.

(٦) البخاري عن أبي سعيد الخدري: كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى (١٣٩٦)، والنسائي (٢٥٨١)، وأحمد (١١١٧٣).

الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ»[١].

وأعظم من ذلك حين نجد الرسول ﷺ، كحاكم دولة، يُنَصِّب نفسه الشريفة مسئوليَّة ولاية اليتامى والفقراء والمحتاجين، فيقول معلنًا: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ، فَأَيُّكُمْ مَا تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيْعَةً[٢] فَادْعُونِي فَأَنَا وَلِيُّهُ...»[٣].

وكان ﷺ أسرعَ الناس إلى تطبيق ما يقول، فقد روى عبد الله بن أبي أَوْفَى ﷺ أن النبي ﷺ كان لا يَأْنَفُ وَلا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ؛ فَيَقْضِي لَهُمَا حَاجَتَهُمَا[٤].

وهكذا حفظ الإسلام حقوقًا جمَّة، ماديَّة ومعنوية، لليتامى والأرامل والمساكين، تعكس وضعهم في الحضارة الإسلامية الإنسانية.

* * *

(١) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النكاح، باب من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله (٤٨٨٢)، ومسلم: كتاب النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة (١٤٣٢).

(٢) الضيعة: العيال المحتاجون الضائعون، انظر: النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١١/ ٦١.

(٣) البخاري: كتاب الفرائض، باب ابني عم أحدهما أخ للأم والآخر زوج (٦٣٦٤)، ومسلم عن أبي هريرة: كتاب الفرائض، باب من ترك مالاً فلورثته (١٦١٩) واللفظ له.

(٤) النسائي: كتاب الجمعة، باب ما يستحب من تقصير الخطبة (١٤١٤)، الدارمي (٧٤)، وابن حبان (٦٤٢٣) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والطبراني في الصغير (٤٠٥)، وقال الألباني: صحيح. انظر: مشكاة المصابيح (٥٨٣٣).

المبحث السادس
حقوق الأقليات

في ظلِّ التشريع الإسلامي حظيت الأقلِّيَّة غير المسلمة في المجتمع المسلم بما لم تحظَ به أقلِّيَّة أخرى في أي قانون وفي أي بلد آخر من حقوق وامتيازات؛ وذلك أن العَلاقة بين المجتمع المسلم والأقلِّيَّة غير المسلمة حكمتها القاعدة الربَّانيَّة التي في قوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(١).

فقد حدَّدت هذه الآية الأساس الأخلاقي والقانوني الذي يجب أن يُعامِل به المسلمون غيرهم، وهو البرُّ والقسط لكل مَن لم يناصبهم العداء، وهي أُسُس لم تعرفها البشريَّة قبل الإسلام، وقد عاشت قرونًا بعده وهي تقاسي الويل من فقدانها، ولا تزال إلى اليوم تتطلَّع إلى تحقيقها في المجتمعات الحديثة فلا تكاد تصل إليها؛ بسبب الهوى والعصبيَّة والعنصريَّة.

وعلى ذلك فقد كفل التشريع الإسلامي للأقليات غير المسلمة حقوقًا وامتيازات عِدَّة، لعلَّ من أهمِّهَا كفالة حرية الاعتقاد، وذلك انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(٢)، وقد تجسَّد ذلك في رسالة الرسول ﷺ إلى أهل الكتاب من أهل اليمن التي دعاهم فيها إلى الإسلام؛ حيث قال ﷺ: «... وَإِنَّهُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لَهُ مَا لَهُمْ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ، وَمَنْ كَانَ عَلَى يَهُودِيَّتِهِ أَوْ نَصْرَانِيَّتِهِ فَإِنَّهُ لا يُفْتَنُ عَنْهَا...»(٣).

ولم يكن التشريع الإسلامي لِيَدَعَ غير المسلمين يتمتَّعون بحرِّيَّة الاعتقاد ثم من ناحية

---

(١) (الممتحنة: ٩).

(٢) (البقرة: ٢٥٦).

(٣) أبو عبيد: الأموال ص٢٨، وابن زنجويه: الأموال ١/ ١٠٩، وابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٥٨٨، وابن كثير: السيرة النبوية ٥/ ١٤٦، وقال ابن حجر العسقلاني: ورواه ابن زنجويه في «الأموال» عن النَّضر بن شميل، عن عوف، عن الحسن قال: كتب رسول الله.. فذكره، وهذان مرسلان يقوِّي أحدهما الآخر. انظر: ابن حجر العسقلاني: التلخيص الحبير ٤/ ٣١٥.

أخرى لا يسنُّ ما يحافظ على حياتهم، باعتبارهم بَشَرًا لهم حقُّ الحياة والوجود، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا[١] لم يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»[٢].

وقد حذَّر ﷺ مِن ظُلمهم أو انتقاص حقوقهم، وجعل نفسه الشريفة خصمًا للمعتدي عليهم، فقال: «مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ حَقًّا، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ؛ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٣].

ومن روائع مواقفه ﷺ في هذا الشأن ما حدث مع الأنصار في خيبر؛ حيث قُتِل عبد الله بن سهل الأنصاري ﷺ، وقد تمَّ هذا القتل في أرض اليهود، وكان الاحتمال الأكبر والأعظم أن يكون القاتل من اليهود، ومع ذلك فليست هناك بيِّنة على هذا الظنِّ؛ لذلك لم يُعاقِب رسولُ الله ﷺ اليهود بأي صورة من صور العقاب، بل عرض فقط أن يحلفوا على أنهم لم يفعلوا! فيروي سهل بن أبي حَثْمَةَ ﷺ أنَّ نفرًا من قومه انطلقوا إلى خيبر، فتفرَّقوا فيها، ووجدوا أحدَهم قتيلاً، وقالوا للذين وُجِدَ فِيهِمْ: قَدْ قَتَلْتُمْ صاحبنا. قالوا: ما قتلنا ولا عَلِمْنَا قاتلاً. فانطلقوا إلى النَّبيِّ ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، انطلقنا إلى خَيْبَرَ فوجدْنَا أحدَنا قتيلاً. فقال: «الْكُبْرَ الْكُبْرَ[٤]». فقال لهم: «تَأْتُونَ بِالْبَيِّنَةِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ؟» قالوا: ما لنا بيِّنةٌ. قال: «فَيَحْلِفُونَ». قالوا: لا نرضى بِأَيْمَانِ اليهود. فكَرِهَ رسول الله ﷺ أن يُبْطِلَ دمه، فَوَدَاهُ[٥] مائةً من إبل الصَّدقة[٦].

وهنا قام الرسول ﷺ بما لا يتخيَّله أحدٌ.. فقد تولَّى بنفسه دَفْعَ الدِّيَةِ من أموال المسلمين؛ لكي يُهَدِّئ من روع الأنصار، ودون أن يظلم اليهود؛ فلتتحمَّل الدولة الإسلاميَّة العِبْءَ في سبيل ألاَّ يُطَبَّق حَدٌّ فيه شُبْهَةٌ على يهودي!

---

(١) المعاهد كما قال ابن الأثير: أكثر ما يطلق على أهل الذمة، وقد يطلق على غيرهم من الكفار إذا صولحوا على ترك الحرب. انظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٦١٣.

(٢) البخاري عن عبد الله بن عمرو: أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم (٢٩٩٥)، وأبو داود (٢٧٦٠)، والنسائي (٤٧٤٧).

(٣) أبو داود: كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٢)، والبيهقي (١٨٥١١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٤٤٥).

(٤) الكبر الكبر: أي قدِّموا في الكلام أكبركم. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١٧٧.

(٥) وداه: أي دفع دِيَتَه، والدية هي حقُّ القتيل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ودي ١٥/ ٣٨٣.

(٦) البخاري: كتاب الديات، باب القسامة (٦٥٠٢)، ومسلم في كتب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب القسامة (١٦٦٩).

وكذلك تكفَّل الشرع الإسلامي بحقِّ حماية أموال غير المسلمين؛ حيث حرَّم أخذها أو الاستيلاء عليها بغير وجه حقٍّ، وذلك كأنْ تُسْرَق أو تُغْصَب أو تُتْلَف، أو غير ذلك ممَّا يقع تحت باب الظلم، وقد جاء ذلك تطبيقًا عمليًا في عهد النبي ﷺ إلى أهل نجران، حيث جاء فيه: «**وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهِمْ جِوَارُ اللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللهِ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَبِيَعِهِمْ، وَكُلِّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ...**»[١].

وأروع من ذلك حقُّ الأقلية غير المسلمة في أن تَكْفُلَهَا الدولةُ الإسلاميَّة من خزانة الدولة - بيت المال - عند حال العجز أو الشيخوخة أو الفقر؛ وذلك انطلاقًا من قول الرسول ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[٢]. على اعتبار أنهم من رعاياها كالمسلمين تمامًا، وهي مسئولة عنهم جميعًا أمام الله ﷻ.

وفي ذلك روى أبو عبيد[٣] في (الأموال) عن سعيد بن المسيب[٤] أنه قال: «**إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الْيَهُودِ فَهِيَ تُجْرَى[٥] عَلَيْهِمْ**»[٦].

ومما يُعَبِّرُ عن عظمة الإسلام وإنسانية الحضارة الإسلامية في ذلك الصدد، ذلك الموقف الذي تناقلته كتب السُّنَّة النبويَّة؛ وذلك حين مَرَّتْ على الرسول ﷺ جنازة فقام لها، فقيل له: إنه يهودي. فقال ﷺ: «**أَلَيْسَتْ نَفْسًا**»[٧]!

وهكذا كانت حقوق الأقليات غير المسلمة في الإسلام وفي الحضارة الإسلامية؛ فالقاعدة هي: احترام كل نفس إنسانيَّة طالما لم تَظلم أو تُعادِ.

* * *

---

(١) البيهقي: دلائل النبوة، باب وفد نجران ٥/ ٤٨٥، وأبو يوسف: الخراج ص٧٢، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٨٨.

(٢) البخاري عن عبد الله بن عمر: كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق (٢٤١٦)، ومسلم: في الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٩).

(٣) أبو عبيد: هو أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (١٥٧- ٢٢٤هـ/ ٧٧٤- ٨٣٨م) من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، وكان مُؤَدِّبًا، ولد بهراة، وتعلم بها، ورحل إلى بغداد ومصر، وتوفي بمكة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٩٠-٤٩٢.

(٤) سعيد بن المسيِّب: هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن القرشي (١٣- ٩٤هـ/ ٦٣٤- ٧١٣م) سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع. انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ١١٩-١٤٣.

(٥) تجرى عليهم: أي ترسل إليهم.

(٦) أبو عبيد: الأموال ص٦١٣، وقال الألباني: سنده صحيح إلى سعيد بن المسيب. انظر: تمام المنة ص٣٨٩.

(٧) مسلم عن قيس بن سعد وسهل بن حنيف: كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة (٩٦١)، وأحمد (٢٣٨٩٣).

المبحث السابع
حقوق الحيـــوان

ينظر الإسلام إلى الحيوان إجمالاً نظرة واقعيَّة؛ ترتكز على أهمِّيَّته في الحياة، ونفعه للإنسان، وتعاونه معه في عمارة الكون واستمرار الحياة، ولا أدلَّ على ذلك من أن عِدَّة سور في القرآن الكريم وضع الله لها أسماء من أسماء الحيوان؛ مثل: سورة البقرة، والأنعام، والنحل.. وغيرها.

وقد نصَّ القرآن الكريم على تكريم الحيوان، وبيان مكانته، وتحديد موقعه إلى جانب الإنسان، فقال تعالى: ﴿**وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾(١).

ومن أهمِّ الحقوق التي أصَّلها التشريع الإسلامي للحيوان عدم إيذائه؛ فقد روى جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرَّ على حمار قد وُسِمَ(٢) في وجهه، فقال: «**لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ**»(٣). وعن عبد الله بن عمر، قال: «**لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ مَثَّلَ بِالْحَيَوَانِ**»(٤). وهذا يعني أن إيذاء الحيوان وتعذيبه وعدم الرفق به يُعتبر جريمة في نظر الشريعة الإسلاميَّة.

وكذلك شَرَع الإسلام في تأصيله لحقوق الحيوان تحريمَ حبسه وتجويعه، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ؛ لَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَسْقِهَا، وَلَمْ تَتْرُكْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**(٥)»(٦). وروى سهل ابن الْحَنْظَلِيَّةِ قال: مرَّ رسول الله ﷺ ببعيرٍ قد لَحِقَ

---

(١) (النحل: ٥-٧).

(٢) وَسَمَه: إذا أثَّر أو علَّم فيه بكَيٍّ، والوسم والسمة العلامة المميزة للشيء، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وسم ١٢/ ٦٣٥.

(٣) مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه (٢١١٧).

(٤) البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة (٥١٩٦)، والنسائي (٤٤٤٢)، والدارمي (١٩٧٣).

(٥) خشاش الأرض: المراد هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٦/ ٣٥٧، والنووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٤/ ٢٤٠.

(٦) البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء (٢٢٣٦)، ومسلم عن أبي هريرة: كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة (٢٢٤٢)، واللفظ له.

ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ[١]، فقال: «اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ... فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً»[٢].

كما أَمَرَ الرسول ﷺ أن يُستخدم الحيوان فيما خُلِقَ له، وحدَّد الغرض الرئيس من استخدام الدوابِّ، فقال: «إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ؛ فَإِنَّ اللهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ»[٣].

ومِمَّا أرسته الشريعة الإسلامية من حقوق للحيوان أيضًا أنها نَهَتْ عن اتخاذه غرضًا، فها هو ابن عمر رضى الله عنهما يمَرُّ بِفِتْيَانٍ من قريش قد نَصَبُوا طيرًا وهم يرمونه، فقال لهم: لعن الله مَنْ فعل هذا؛ إن رسول الله ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا[٤].

ومن أهمِّ ما أَصَّلَتْهُ الشريعة الإسلامية من حقوق للحيوان - أيضًا - ما كان من وجوب الرحمة والرفق به، وقد تجسَّد ذلك في قول الرسول ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ[٥]، يَأْكُلُ الثَّرَى[٦] مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي. فَنَزَلَ الْبِئْرَ، فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»[٧]. قالوا: يا

---

(١) لحق ظهره ببطنه: أي ظهر عليه الهزال من الجوع، انظر: العظيم آبادي: عون المعبود في شرح سنن أبي داود ٥/ ٤٤٨.

(٢) أبو داود: كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم (٢٥٤٨)، وأحمد (١٧٦٦٢) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح. وابن حبان (٥٤٦)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٣).

(٣) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الوقوف على الدابة، (٢٥٦٧)، والبيهقي: السنن الكبرى (١٠١١٥)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢). والمعنى: لا تجلسوا على ظهورها فَتُوقِفُونَهَا وَتُحَدِّثُونَ بالبيع والشراء وغير ذلك، بل انزلوا واقضوا حاجاتكم ثم اركبوا. والنهي مخصوص باتخاذ ظهورها مقاعد لغير حاجة، أما لحاجة لا على الدوام فجائزة؛ بدليل أن المصطفى ﷺ خطب على ناقته وهي واقفة. انظر العظيم آبادي: عون المعبود ٧/ ١٦٩، والمناوي: فيض القدير ٣/ ١٧٤.

(٤) البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة (٥١٩٦)، ومسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب النهي عن صبر البهائم (١٩٥٨).

(٥) يلهث: يرتفع نفسه بين أضلاعه، أو يخرج لسانه من شدة العطش والحَرِّ، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة لهث ٢/ ١٨٤.

(٦) الثرى: التراب الندي، وقيل: أي يَعَضُّ الأرض. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ثرا ١٤/ ١١٠.

(٧) شكر الله له: أي أثنى عليه فجزاه على ذلك بأن قَبِلَ عمله وأدخله الجنة. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٢٧٨.

رسول الله، وإنَّ لنا في البهائم لأجرًا[١]؟ فقال: «**فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**[٢]»[٣].

وروى عبد الله بن عمر ﷺ قائلاً: «كُنَّا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرَة[٤] معها فرخان، فأخذنا فَرْخَيْهَا، فجاءت الحُمَّرَة فجعلت تُعَرِّشُ[٥]، فجاء النبي ﷺ فقال: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا**»[٦].

كما أَمَرَتِ الشريعة الإسلامية في حرصها على حقوق الحيوان بأن يُختار لها المَرَاعي الخِصْبَة، وإن لم تُوجَدْ فيجب أن يُنتقل بها إلى مكان آخَر، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيَرْضَى بِهِ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ مَا لا يُعِينُ عَلَى الْعُنْفِ، فَإِذَا رَكِبْتُمْ هَذِهِ الدَّوَابَّ الْعُجْمَ فَأَنْزِلُوهَا مَنَازِلَهَا، فَإِنْ كَانَتِ الأَرْضُ جَدْبَةً فَانْجُوا عَلَيْهَا بِنِقْيِهَا**[٧]...»[٨].

على أن هناك درجة أخرى أعلى من الرحمة وأثمن أوجبها التشريع الإسلامي في معاملة الحيوان؛ وهي: الإحسان إليه واحترام مشاعره، وإنَّ أعظم تطبيق لهذا الخُلُق حين نهى الرسول ﷺ عن تعذيبه أثناء الذَّبح لأكل لحمه، سواء كان التعذيب جسديًّا بسُوءِ اقتياده للذبح، أو برداءة آلة الذبح، أو كان التعذيب نفسيًّا برؤية السكين؛ ومن ثَمَّ يجمع عليه أكثر من مَوْتة!

---

(١) يعنون: أيكون لنا في سقي البهائم والإحسان لها أجر؟!

(٢) كل كبد رطبة أجر: أي حية يعني بها رطوبة الحياة. فيها أجر عام مخصوص بحيوان محترم، وهو ما لم يؤمر بقتله، ونبَّه بالسقي على جميع وجوه الإحسان من الإطعام... وفيه أن الإحسان إلى الحيوان مما يغفر الذنوب، وتعظم به الأجور، ولا يناقضه الأمر بقتل بعضه أو إباحته؛ فإنه إنما أمر به لمصلحة راجحة، ومع ذلك فقد أمرنا بإحسان القتلة. انظر: المناوي: فيض القدير ٤/ ٦٠١.

(٣) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٦٦٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٤).

(٤) الحُمَّرَة: طائر صغير كالعصفور، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حمر ٤/ ٢٠٨.

(٥) أي: ترفرف، والتَّعْرِيش أن ترتفع وتظلَّل بجناحيها على من تحتها، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عرش ٦/ ٣١٣.

(٦) أبو داود: كتاب الأدب، باب في قتل الذرِّ (٥٢٦٨)، والحاكم: (٧٥٩٩)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٥).

(٧) النقي: الشحم والودك، والمعنى أن ينجو عليها وهي في عافيتها؛ حتى يحصل في بلد الخصب، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نقا ١٥/ ٣٣٨.

(٨) الموطأ – رواية يحيى الليثي عن خالد بن معدان يرفعه: كتاب الاستئذان، باب ما يؤمر به من العمل في السفر (١٧٦٧)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٦٨٢).

فقد روى شَدَّاد بن أوس قال: ثِنْتَانِ حفظتُهما عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[1].

كما رَوَى عبد الله بن عباس -رضى الله عنهم- أن رجلاً أضجع شاة يُريد أن يذبحها وهو يَحِدُّ شَفْرته، فقال النبي ﷺ: «أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَاتٍ، هَلاَّ حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا»[2].

وهكذا كان حقُّ الحيوان في الإسلام؛ فله أن يَنْعَمَ بالأمن والأمان، والراحة والاطمئنان، ما إن كان في بيئة رفرفت عليها الحضارة الإسلامية.

* * *

(١) مسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥)، وأبو داود (٢٨١٥)، والترمذي (١٤٠٩).

(٢) الحاكم: كتاب الأضاحي (٧٥٦٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٤).

المبحث الثامن

حقوق البيئـــــة

خَلَقَ اللهُ تعالى البيئة نقيَّة، سليمة، نافعة، وسخَّرها للإنسان، وأوجب عليه ضرورة المحافظة عليها؛ كما دعاه إلى ضرورة التفكُّر في آيات الله الكونيَّة، التي خُلِقَتْ في أحسن صورة، فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُل زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[١]، [٢].

وعلى هذا نشأتْ عَلاقة حُبٍّ ووُدٍّ بين الإنسان المسلم والبيئة المحيطة به من جماد وأحياء، وأدرك أن المحافظةَ على البيئة نفعٌ له في دنياه؛ لأنه سيَحْيَا حياة هانئة، وفي آخرته حيث ثواب الله الجزيل.

وقد جاءت رؤية النبي ﷺ للبيئة تأكيدًا لتلك النظرة القرآنيَّة الشاملة للكون، التي تقوم على أن هناك صلةً أساسيَّة وارتباطًا متبادَلاً بين الإنسان وعناصر الطبيعة، ونقطة انطلاقها هي الإيمان بأنه إذا أساء الإنسان استخدام عنصر من عناصر الطبيعة أو استنزفه استنزافًا فإن العالم برُمَّته سوف يُضَارُّ أضرارًا مباشرة.

من أَجْلِ ذلك جاء التشريع الإسلامي بقاعدة عامَّة لكل البشر الذين يَحْيَوْنَ على ظهر الأرض؛ وهي عدم إحداث ضرر من أي نوع لهذا الكون، فقال الرسول ﷺ: «لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ...»[٣].

ثم تتابعت التشريعات الإسلامية التي تُحذِّر من تلويث البيئة أو إفسادها، فقال الرسول ﷺ في مثل ذلك: «اتَّقُوا الْمَلاَعِنَ الثَّلاَثَةَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَالظِّلِّ»[٤].

---

(١) (ق: ٦، ٧).

(٢) البهيج: الشيء الجميل الذي يُدخل البهجة والسعادة والسرور إلى مَنْ نظر إليه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة بهج ٢/ ٢١٦.

(٣) أحمد عن ابن عباس (٢٧١٩)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن. والحاكم (٢٣٤٥) وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٤) صفة إلى الموصوف، أي الطريقة المقروعة، وهي وسط الطريق. والمراد بالظل: ظل الشجرة وغيرها. انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ١/ ٣١.

وقد جعل الرسول ﷺ إماطة الأذى من حقوق الطريق، فروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ**»، فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ؛ إِنَّمَا هي مجالسنا نَتَحَدَّثُ فيهَا. فقال ﷺ: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا**». قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال: «... **وَكَفُّ الأَذَى**...»[1]. و«كفُّ الأذى» هذه كلمة جامعة لكل ما فيه إيذاء الناس الذين يستعملون الشوارع والطرقات.

وأكثر من ذلك أن الرسول ﷺ ربط بين الأجر والمحافظة على البيئة فقال: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي؛ حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لاَ تُدْفَنُ**»[2].

ثم هو ﷺ يأمر صراحة بنظافة المساكن فيقول: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ... فَنَظِّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ، وَلا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ**»[3].

فما أروع تلك التعاليم والتشريعات التي تحثُّ على الحياة الطيِّبة الخالية من أي نوع من أنواع الملوِّثات؛ فتحافظ بذلك على راحة الإنسان النفسيَّة والصحِّيَّة.

وفي صورة أكثر تصريحًا وتعبيرًا في الحثِّ على المحافظة على البيئة وجمالها، ما ظهر في قول الرسول ﷺ حين سأله أحدُ الصحابة: أَمِنَ الكِبْرِ أن يكون ثوبي حَسَنًا ونعلي حَسَنة؟ فقال له الرسول ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»[4]. ولا شكَّ أن من الجمال الحرصَ على مظاهر البيئة التي خلقها الله تعالى زاهية بهيجة.

كما نجد في إرشاده ﷺ إلى حُبِّ الروائح الطيِّبة وإشاعتها بين الناس، وتهاديها، وتجميل البيئة بها؛ محاربةً للبيئة الملوَّثة؛ وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ، فَلاَ يَرُدُّهُ؛ فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ طَيِّبُ الرِّيحِ**»[5].

---

(١) البخاري عن أبي سعيد الخدري: كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات (٢٣٣٣)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه (٢١٢١).

(٢) مسلم عن أبي ذرٍّ: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهى عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها (٥٥٣)، وأحمد (٢١٥٨٩)، وابن ماجه (٣٦٨٣).

(٣) الترمذي عن سعد بن أبي وقاص: كتاب الأدب، باب ما جاء في النظافة (٢٧٩٩)، وأبو يعلى (٧٩٠)، وقال الألباني: صحيح. انظر: مشكاة المصابيح (٤٤٥٥).

(٤) مسلم عن عبد الله بن مسعود: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، وابن حبان (٥٤٦٦).

(٥) مسلم عن أبي هريرة: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب استعمال المسك... (٢٢٥٣)، والترمذي (٢٧٩١).

ومن عظمة الإسلام فيما سَنَّهُ من تشريعات تخصُّ البيئة أيضًا، ما جاء في الحثّ على استنبات الأرض وزراعتها، فيقول الرسول ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلاَّ كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلاَ يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ**[1] **إِلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ**»[2]. وفي رواية: «**إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**».

فمِن عظمة الإسلام أن ثواب ذلك الغرس - المفيد للبيئة بمن فيها - موصول ما دام الزرع قد استُفيد منه، حتى ولو انتقل إلى مِلْكِ غيره، أو مات الغارس أو الزارع!

وقد نوَّه التشريع الإسلامي إلى المكاسب التي يجنيها الإنسان من إحياء الأرض البور؛ إذ جعل زرع شجرة، أو غرس بذرة، أو سَقْي أرض عطشى من أعمال البرِّ والإحسان، فقال الرسول ﷺ: «**مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَلَهُ مِنْهَا - يَعْنِي أَجْرًا - وَمَا أَكَلَتِ الْعَوَافِي**[3] **مِنْهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ**»[4].

ولأن الماء أحدُ أهمِّ الثروات البيئيَّة الطبيعيَّة، فكان الاقتصاد فيه والمحافظة على طهارته قَضِيَّتَيْنِ مهمَّتين في الإسلام، وها هو ذا الرسول ﷺ ينصح بالاقتصاد في استعمال الماء حتى عندما يكون الماء متوافِرًا، يروي في ذلك عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ مَرَّ بسعد[5] وهو يتوضَّأ فقال: «**مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ؟**» قَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ سَرَفٌ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ**»[6].

كما نهى ﷺ عن تلويث المياه، وذلك بمنع التبوُّل في الماء الراكد[7].

فهذه هي نظرة الإسلام والحضارة الإسلامية للبيئة، تلك النظرة التي تُؤْمِنُ بأن البيئة بجوانبها المختلفة يتفاعل ويتكامل ويتعاون بعضها مع بعض وَفْق سُنَنِ الله في الكون الذي خلقه ﷻ في أحسن صورة، ووجب على كل مسلم أن يحافظ على هذا الجمال.

---

(١) يرزأه أحد: أي لا ينقصه ويأخذ منه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة رزأ ١/ ٨٥.

(٢) مسلم عن جابر بن عبد الله: كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع (١٥٥٢)، وأحمد (٢٧٤٠١).

(٣) العوافي: الطير والسباع، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عفا ١٥/ ٧٢.

(٤) النسائي عن جابر بن عبد الله: كتاب إحياء الموات، باب الحث على إحياء الموات (٥٧٥٦)، وابن حبان (٥٢٠٥)، وأحمد (١٤٣١٠) وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح.

(٥) سعد بن أبي وقاص بن وهيب الزهري، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وآخرهم موتًا. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٤٣٣، وابن حجر العسقلاني: الإصابة ٣/ ٧٣ (٣١٩٦).

(٦) ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصر وكراهية التعدي فيه (٤٢٥)، وأحمد (٧٠٦٥)، وحسنه الألباني انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢٩٢).

(٧) مسلم عن جابر بن عبد الله: كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد (٢٨١)، وأبو داود (٦٩)، والترمذي (٦٨).

الفصل الثاني

في جانب الحريات

أُقِرَّت الحريات كمبدأ من السماء مع نزول الإسلام؛ ليرتفع بها أهل الأرض، وترتقي بها الإنسانية، ولم تكن يومًا وليدة تطوُّر في المجتمع، أو نتيجة ثورة طالب بها المحْرُومُونَ منها، كما هو الحال عند كثير من الأمم المعاصرة.

وهذا ما تُوضحه المباحث التالية:

- المبحث الأول: حرية العقيدة
- المبحث الثاني: حرية التفكير
- المبحث الثالث: حرية الرأي
- المبحث الرابع: حرية النفس
- المبحث الخامس: حرية التملُّك

المبحث الأول

حرية العقيدة

في قاعدة أساسية صريحة بالنسبة للحرية الدينية أو حرية الاعتقاد في الإسلام يقول الله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(١)، فلم يأمر الرسول ﷺ - والمسلمون مِنْ بَعْدِه- أحدًا باعتناق الإسلام قسرًا، كما لم يُلْجِئُوا الناس للتظاهر به هربًا من الموت أو العذاب؛ إذ كيف يصنعون ذلك وهم يعلمون أن إسلام المُكرَه لا قيمة له في أحكام الآخرة، وهي التي يسعى إليها كل مسلم؟!

وقد جاء في سبب نزول الآية السابقة: عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلاتًا (هي المرأة التي لا يعيش لها ولد) فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أُجْلِيَتْ بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا. فأنزل الله ﷻ: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(٢).

وقد جعل الإسلام قضية الإيمان أو عدمه من الأمور المرتبطة بمشيئة الإنسان نفسه واقتناعه الداخلي؛ فقال سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(٣). ولَفَتَ القرآنُ نظر النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة، وبَيَّنَ له أن عليه تبليغ الدعوة فقط، وأنه لا سلطان له على تحويل الناس إلى الإسلام فقال: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٤)، وقال: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾(٥)، وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾(٦)، ومن ذلك يَتَّضِح أن دستور المسلمين يُقَرِّرُ حرية الاعتقاد، ويرفض رفضًا قاطعًا إكراه أَحَدٍ على اعتناق الإسلام(٧).

وإقرار الحرية الدينية يعني الاعتراف بالتَّعَدُّدِيَّة الدينية، وقد جاء ذلك تطبيقًا عمليًا

---

(١) (البقرة: ٢٥٦).
(٢) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الأسير يكره على الإسلام (٢٦٨٢)، وانظر: الواحدي: أسباب نزول القرآن ص٥٢، والسيوطي: لباب النزول ص٣٧، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح وضعيف سنن أبي داود ٦/ ١٨٢.
(٣) (الكهف: ٢٩).
(٤) (يونس: ٩٩).
(٥) (الغاشية: ٢٢).
(٦) (الشورى: ٤٨).
(٧) انظر: محمود حمدي زقزوق: حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك ص٣٣.

حين أقرَّ النبي ﷺ الحرية الدينية في أوَّل دستور للمدينة، وذلك حينما اعترف لليهود بأنهم يُشَكِّلُون مع المسلمين أُمَّةً واحدة، وأيضًا في فتح مكة حين لم يُجْبِر الرسول ﷺ قريشًا على اعتناق الإسلام، رغم تمكُّنه وانتصاره، ولكنه قال لهم: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[1]. وعلى دربه أعطى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب للنصارى من سكان القدس الأمان «على حياتهم وكنائسهم وصلبانهم، لا يُضَارُّ أحدٌ منهم ولا يرغم بسبب دينه»[2].

بل إن الإسلام كفل حرية المناقشات الدينية على أساس موضوعي بعيد عن المهاترات أو السخرية من الآخرين، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3]. وعلى أساس من هذه المبادئ السمحة ينبغي أن يكون الحوار بين المسلمين وغير المسلمين، وقد وَجَّه القرآن هذه الدعوة إلى الحوار إلى أهل الكتاب فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[4]. ومعنى هذا أن الحوار إذا لم يَصِلْ إلى نتيجة فلكلٍّ دينه الذي يقتنع به، وهذا ما عَبَّرَتْ عنه أيضًا الآية الأخيرة من سورة (الكافرون) التي خُتِمَتْ بقوله تعالى للمشركين على لسان محمد ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[5]، [6].

* * *

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤١١، والطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٥، وابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٠١.
(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٣/ ١٠٥.
(٣) (النحل: ١٢٥).
(٤) (آل عمران: ٦٤).
(٥) (الكافرون: ٦).
(٦) محمود حمدي زقزوق: حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك ص٨٥، ٨٦.

المبحث الثاني

حرية التفكير

كفل الإسلام حرية التفكير، وقد جاء ذلك واضحًا جليًّا حين دعا الإسلام إلى إعمال العقل والفكر في أرجاء الكون كُلِّه؛ بسمائه وأرضه، وحثَّ على ذلك كثيرًا، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[1]. وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2].

بل إنَّ الإسلام عاب على الذين يُعَطِّلُونَ قواهم العقلية والحسِّيَّة عن أداء وظيفتها، وجَعَلَهُمْ في مرتبةٍ أحطَّ من مرتبة الحيوانات، فقال الله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[3].

وحمل الإسلام حملة شعواء على الذين يَتَّبِعُون الظنون والأوهام، فقال الله ﷻ: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا﴾[4]. وحمل أيضًا على الذين يُقَلِّدُونَ الآباء أو الرؤساء دون النظر إلى كونهم على الحق أم على الباطل، فقال مُقَلِّلاً من شأنهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾[5].

واعتمد الإسلام في إثبات العقيدة الإسلامية على الأدلَّة العقليَّة؛ ولهذا قال علماء الإسلام بأن العقل أساس النقل، فقضية وجود الله قامت بإثبات العقل، وقضية نُبُوَّة محمد ﷺ ثبتت أيضًا عن طريق العقل أوَّلاً، ثم دلَّت المعجزات على صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ، وهذا هو احترام الإسلام للعقل وللفكر.

فالتفكير في نظر الإسلام يُعَدُّ فريضة دينية لا يجوز للمسلم أن يَتَخَلَّى عنها بأي حال

---

(١) (سبأ: ٤٦).
(٢) (الحج: ٤٦).
(٣) (الأعراف: ١٧٩).
(٤) (النجم: ٢٨).
(٥) (الأحزاب: ٦٧).

من الأحوال، وقد فتح الإسلام الباب واسعًا لممارسة التفكير في الأمور الدينية، وذلك من أَجْلِ البحث عن حلول شرعية لكلِّ ما يُسْتَجَدُّ من مسائل الحياة، وهذا ما يُطْلِقُ عليه علماء الإسلام: (الاجتهاد)، بمعنى الاعتماد على الفكر في استنباط الأحكام الشرعية[١].

وقد كان لمبدأ الاجتهاد - والذي يُجَسِّدُ حرية التفكير في الإسلام - أثره العظيم في إثراء الدراسات الفقهية لدى المسلمين، وإيجاد الحلول السريعة للمسائل التي لم يكن لها نظير في العهد الأوَّل للإسلام، وقد نَشَأَتْ عنه مذاهب الفقه الإسلامي المشهورة، التي لا يزال العالم الإسلامي يسير على تعاليمها حتى اليوم، وهكذا كان اعتماد المسلم على عقله وتفكيره -فيما يُشْكِلُ عليه من أمور الدين والدنيا، ممَّا لم يَرِدْ في شأنه نصوصُ شريعة- هو الدِّعَامة الأُولَى في الموقف العقلي الراسخ للإسلام، وكان هذا الموقف بمنزلة الأساس الذي بنى عليه المسلمون حضارتهم الزاهرة على امتداد تاريخ الإسلام[٢].

***

(١) راجع في ذلك: محمود حمدي زقزوق: حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك ص٥٣.

(٢) محمود حمدي زقزوق: الإنسان خليفة الله - التفكير فريضة، مقال بجريدة الأهرام، عدد غرة رمضان ١٤٢٣هـ، نوفمبر ٢٠٠٢م.

المبحث الثالث

حـــــرية الــرأي

تعني حريَّة الرأي حقَّ الفرد في اختيار الرأي الذي يراه في أمر من الأمور العامَّة أو الخاصَّة، وإبداء هذا الرأي وإسماعه للآخرين، وهي حقُّ الشخص في التعبير عن أفكاره ومشاعره باختياره وإرادته؛ ما لم يكن في ذلك اعتداءٌ على حقِّ الآخرين.

وحرية الرأي بهذا المعنى حقٌّ مكفولٌ للمسلم وثابتٌ له؛ لأن الشريعة الإسلامية أَقَرَّتْهُ له، وما أَقَرَّهُ الشرع الإسلامي للفرد لا يملك أحدٌ نَقْضَهُ أو سلبه منه أو إنكاره عليه، بل إن حُرِّيَّة الرأي واجب على المسلم لا يجوز أن يتخلَّى عنه؛ لأن الله تعالى أوجب عليه النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يمكن القيام بهذه الواجبات الشرعية ما لم يتمتَّع المسلم بحقِّ إبداء الرأي وحريته فيه، فكانت حرية الرأي له وسيلة إلى القيام بهذه الواجبات، وما لا يَتَأَتَّى الواجب إلاَّ به فهو واجب.

وقد أجاز الإسلام حرية الرأي في كافَّة الأمور الدنيوية؛ مثل الأمور العامَّة والاجتماعيَّة، وفي مثال يُجسِّد ذلك، ما ظهر من سعد بن معاذ وسعد بن عبادة -رضى الله عنهما- حين استشارهما الرسول ﷺ في مهادنة غطفان على ثلث ثمار المدينة حتى يخرجوا من التحالف يوم غزوة الأَحْزَاب.

عن أبي هريرة قال: جاء الحارث الغطفاني إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، شاطرنا تمر المدينة. قال: «**حَتَّى أَسْتَأْمِرَ السُّعُودَ**». فبعث إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وسعد بن خيثمة، وسعد بن مسعود، رحمهم الله، فقال: «**إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَأَنَّ الْحَارِثَ يَسْأَلُكُمْ أَنْ تُشَاطِرُوهُ تَمْرَ الْمَدِينَةِ، فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِ عَامَكُمْ هَذَا حَتَّى تَنْظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ بَعْدُ**». قالوا: يا رسول الله، أوحيٌ من السماء فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك، فرأينا تبع لهواك ورأيك؟ فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا؛ فوالله! لقد رأيتنا وإياهم على سواء ما ينالون منا تمرة إلا بشرى أو قرى[1].

---

(١) رواه الطبراني: المعجم الكبير (٥٤١٦)، وقال الهيثمي: ورجال البزار والطبراني فيهما محمد بن عمرو وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٦/ ١١٩، وانظر: ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٢٤٠.

هذا، ومن النصوص التي وردت في النصيحة وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[(١)]، وقول الرسول ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ». قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «للهِ وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ»[(٢)].

قال الإمام النووي[(٣)] في شرحه لهذا الحديث: «وأمَّا النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحقِّ، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، ونهيهم عن مخالفته، وتذكيرهم برفق، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين»[(٤)].

كما قال الرسول ﷺ: «لا يَمْنَعَنَّ رَجُلاً هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ»[(٥)]. وقال أيضًا: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[(٦)].

وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستلزم تمتُّعُهُمْ بحرِّيَّة الرأي؛ وحيث قد أمرهم الله بهذا الواجب، فهذا يعني مَنْحهم حقَّ إبداء رأيهم فيما يَرَوْنَه معروفًا أو منكرًا، وفيما يأمرون به وينهون عنه، وكذلك واجب المشاورة على ولي الأمر يستلزم تمتُّع مَنْ يُشَاورهم بحرية إبداء آرائهم.

وقد طُبِّقَتْ حرِّيَّة الرأي على طُولِ التاريخ الإسلامي تطبيقًا رائعًا؛ فهذا الصحابي الجليل الحباب بن المنذر يُبْدِي رأيه الشخصي في موقف المسلمين في غزوة بَدْر على غير ما كان قد رآه النبي ﷺ، فيأخذ النبي ﷺ برأيه، كما أبدى بعض الصحابة رأيهم في حادثة الإفك، وكان منهم مَنْ أشار على النبي ﷺ بتطليق زوجته السيدة عائشة رضي الله عنها،

---

(١) (التوبة: ٧١).

(٢) مسلم عن تميم الداري: كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٨٢)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي (٤١٩٧)، وأحمد (١٦٩٨٢).

(٣) النووي: هو أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، محيي الدين (٦٣١- ٦٧٦هـ/ ١٢٣٣- ١٢٧٧م): علامة بالفقه والحديث. مولده ووفاته في نوا بسوريا وإليها نسبته. من أشهر كتبه: المنهاج في شرح صحيح مسلم، ورياض الصالحين. انظر: البداية والنهاية ١٣/ ٢٧٨، والزركلي: الأعلام ٨/ ١٤٩.

(٤) النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٢/ ٣٨.

(٥) الترمذي عن أبي سعيد الخدري: كتاب الفتن، باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة (٢١٩١)، وابن ماجه (٣٩٩٧)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٦٨).

(٦) الترمذي عن أبي سعيد الخدري: كتاب الفتن، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر (٢١٧٤)، وأبو داود (٤٣٤٤)، والنسائي (٤٢٠٩)، وابن ماجه (٤٠١١)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٢٢٠٩).

إلاَّ أن القرآن بَرَّأَهَا، وغير ذلك من المواقف الكثيرة التي كان الصحابة ومن جاءوا بعدهم يُبْدُونَ فيها آراءهم.

هذا، وإذا كانت حُرِّيَّة الرأي والتعبير عنه وإبداؤه من الحقوق المُقَرَّرَة في الشريعة الإسلامية، فلا يجوز إيذاء الشخص لقيامه بإبداء رأيه؛ لأن الشرع أَذِنَ له بذلك، وقد رَدَّتِ امرأةٌ على عمر بن الخطاب وهو يخطب في المسجد في مسألة المُهُورِ، فلم يمنعها، بل اعترف بأن الصواب معها، وقال قولته: «أصابت امرأة وأخطأ عمر»[1]!

وممَّا ينبغي للمسلم وهو يستعمل حقَّه في إبداء رأيه أن يتوخَّى في ذلك الأمانة والصدق؛ فيقول ما يراه حقًّا، وإن كان هذا الحقُّ أمرًا صعبًا عليه؛ لأن الغرض من حرية الرأي إظهار الحقِّ والصواب وإفادة السامع به، وليس الغرض منه التمويه وإخفاء الحقيقة، وأن يَقْصِدَ بإعلام رأيه إرادة الخير، وأن لا يبغي برأيه ولا بإعلانه الرياء أو السمعة، أو التشويش على المُحِقِّ، أو إلباس الحقِّ بالباطل، أو بخس الناس حقوقهم، أو تكبير سيئات ولاة الأمور، وتصغير حسناتهم، وتصغير شأنهم، والتشهير بهم، وإثارة الناس عليهم؛ للوصول إلى مغنم.

وعلى هذا تكون حرية الرأي كما أَقَرَّتْهَا الشريعة الإسلامية، وهي بذلك وسيلة مهمَّة من وسائل التقدُّم الحضاري، كما أنها وسيلة للتعبير عن الذات.

* * *

(١) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٩٥.

المبحث الرابع

حرية النفس

جاء الإسلام ليَرُدَّ للبشر -على اختلاف أجناسهم وألوانهم- كرامتهم، فساوى بين بني البشر جميعًا، وجعل مبدأ التقوى هو عِلَّة المفاضلة بينهم، وحَطَّمَ الرسول ﷺ بعد فتح مكة فوارق اللون والجنس، وقضى على التمييز العنصري قضاءً تامًّا؛ عندما رفع بلالَ بن رباح على ظهر الكعبة صادحًا بكلمة التوحيد، وآخى قبل ذلك بين عَمِّه حمزة ومولاه زَيْدٍ.

وأعلن رسول الله ﷺ في حجَّة الوداع هذه المبادئ، فقال: «**أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، وَأَنَّهُ لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، وَلا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى**»[1]. فكانت الدعوة إلى حرية النفس، وإلى القضاء على العبودية.

فالأصل في الإسلام أن الناس أحرار وليسوا عبيدًا، وذلك بحكم انتمائهم لأبٍ واحد، وبطبيعة ولادتهم هم أحرار.. وقد جاء الإسلام بإقرار هذا الأصل في زمنٍ كان الناس فيه مُسْتَعْبَدِينَ، وقد ذاقوا من أصناف الذُّلِّ والاستعباد ألوانًا!

فقد عاشت البشريَّة قبل ظهور الإسلام في ظِلِّ مجتمعات وحضارات تشوبها نُظُمُ المواطنة الباغية، المستندة إلى النظرة القبليَّة الضيِّقة الأفق، والتباين الطبقي الصارخ الذي يُقَسِّم الجماعات الإنسانية إلى طبقات مُتَعَدِّدَة، يَتَرَبَّع على قِمَّتِهَا الأحرار المتمتِّعون بكافَّة حقوق السيادة والسلطان، ويُسْحَقُ العبيدُ -مسلوبو حقِّ الحرية والعيش الكريم- تحتها دون رحمة أو شفقة.

وجاء الإسلام يحضُّ المؤمنين على عتق العبيد، ويحسِّن إطلاقهم، ويُسَمِّيه منًّا وعفوًا، ويعتبر العتق من أَجَلِّ الأعمال، ويدعو المؤمنين إلى تحرير الأرقَّاءِ بأموالهم الخاصَّة، وجَعَلَ كَفَّارة ظلم المملوك أو ضربه إعتاقه، وندب عتق المملوك، وجعل تحريره كفَّارة لجناية القتل الخطأ، والظهار، والحنث في اليمين، والإفطار في رمضان، وأمر بمساعدة من طلب

---

(١) أحمد (٢٣٥٣٦) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير (١٤٤٤٤)، والبيهقي: شعب الإيمان (٤٩٢١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

المكاتبة من الأرقَّاء، وجَعَلَ في الرقاب أَحَدَ مصارف الزكاة، وحرَّر أُمَّ الولد بعد وفاة سيِّدِهَا.

ويمكن تلخيص خُطَّة الإسلام الحكيمة في معالجة هذه المشكلة الإنسانيَّة في نقاط ثلاث؛ أولها: أنه سَدَّ منابع الرقِّ وحَرَّمه سوى رِقِّ الحرب. وثانيها: أنه وسَّع مصارف العتق. وثالثها: أنه صان حقوق الرقيق بعد الإعتاق.

فقد جاء التشريع الإسلامي بحثِّ المجتمع المسلم الناشئ على عتق العبيد وتحريرهم، واعدًا إيَّاهم بالجزاء العظيم في الآخرة، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ**»[1].

وقد رغَّب النبي ﷺ في عِتق الأَمَةِ وتزوُّجها، فيُروى عن أبي موسى الأشعري ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ...**»[2]. وقد أعتق الرسول ﷺ السيدة صفيَّة بنت حُيَيٍّ بن أخطب، وجعل عتقها صداقها[3].

وقد كانت وصايا الرسول ﷺ بالعبيد مِفتاحًا من مفاتيح تأهيل المجتمع لتقبُّل تحريرهم وعتقهم، فقد حضَّ الرسول ﷺ على المعاملة الحسنة لهم، حتى لو كان ذلك في الألفاظ والتعبيرات فقال: «**لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي. كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلاَمِي وَجَارِيَتِي، وَفَتَايَ وَفَتَاتِي**»[4].

كما أوجب الإسلام إطعام العبيد وإلباسهم من نفس طعام ولباس أهل البيت، وألاَّ يُكَلَّفوا ما لا يطيقون، فيَرْوِي جابرُ بن عبد الله فيقول: كان النبي ﷺ يوصي

(١) البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ (المائدة: ٨٩) وأي الرقاب أزكى (٦٣٣٧)، ومسلم: كتاب العتق، باب فضل العتق (١٥٠٩).

(٢) البخاري: كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري... (٤٧٩٥).

(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٩٦٥)، ومسلم: كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاق أمة ثم يتزوجها (١٣٦٥).

(٤) البخاري عن أبي هريرة: كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله: عبدي وأمتي (٢٤١٤)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة (٢٢٤٩).

بالمملوكين خيرًا، ويقول: «... **أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِنْ لَبُوسِكُمْ، وَلا تُعَذِّبُوا خَلْقَ الله** ﷻ...»[١]. وغير ذلك من الحقوق التي جَعَلَتْ من العبد كائنًا إنسانيًّا له كرامة لا يجوز الاعتداء عليها.

وفي مرحلة أخرى مهمَّة جعل الإسلام عقوبة تعذيب العبيد وضربهم العتق والتحرُّر؛ لينتقل بالمجتمع إلى مرحلة التحرُّر الواقعي، فيُرْوَى أن عبد الله بن عمر كان قد ضرب غلامًا له، فدعاه فرأى بظهره أثرًا، فقال له: أوجعتُك؟ قال: لا. قال: فأنت عتيق. قال: ثمَّ أخذ شيئًا من الأرض، فقال: ما لي فيه من الأجر ما يزن هذا، إنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ ضَرَبَ غُلامًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ، أَوْ لَطَمَهُ؛ فَإِنَّ كَفَّارَتَهُ أَنْ يُعْتِقَهُ**»[٢].

وجعل الإسلامُ أيضًا التلفُّظَ بالعتق من العبارات التي لا تحتمل إلاَّ التنفيذ الفوري، فقال الرسول ﷺ في ذلك: «**ثَلاثٌ جَدُّهُنَّ جَدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جَدٌّ: الطَّلاقُ وَالنِّكَاحُ وَالْعِتَاقُ**»[٣].

كما جعل الإسلام عتق العبيد وسيلة من وسائل التكفير عن الخطايا والآثام؛ وذلك للعمل على تحرير أكبر عدد ممكن منهم، فالذنوب لا تنقطع، وكُلُّ ابن آدم خطَّاء، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا كَانَ فَكَاكَهُ مِنَ النَّارِ؛ يُجْزِئُ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ، وَأَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأَتَيْنِ مُسْلِمَتَيْنِ كَانَتَا فَكَاكَهُ مِنَ النَّارِ؛ يُجْزِئُ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُمَا عُضْوًا مِنْهُ، وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أَعْتَقَتِ امْرَأَةً مُسْلِمَةً كَانَتْ فَكَاكَهَا مِنَ النَّارِ؛ يُجْزِئُ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْهَا**»[٤].

وقد مكَّن الإسلامُ العبيد من استعادة حُرِّيَّتهم بالمكاتبة، وهي أن يُمْنَح العبدُ حُرِّيَّته مقابل مبلغ من المال يتَّفق عليه مع سيِّده، وأوجب أيضًا إعانته؛ لأن الأصل هو الحرِّيَّة، أمَّا العبوديَّة فطارئة، فكان الرسول ﷺ القدوة في ذلك؛ حيث أدَّى عن جُوَيْرِيَة بنت الحارث ما كُوتبت عليه وتزوَّجها، فلمَّا سمع المسلمون بزواجه منها أَعْتَقُوا ما بأيديهم من

---

(١) مسلم: كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل... (١٦٦١)، وأحمد (٢١٥٢١)، والبخاري: الأدب المفرد ١/ ٧٦ واللفظ له.

(٢) مسلم: كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده (١٦٥٧)، وأبو داود (٥١٦٨)، وأحمد (٥٠٥١).

(٣) مسند الحارث (٥٠٣)، رواه البيهقي عن عمر بن الخطاب موقوفًا ٧/ ٣٤١.

(٤) مسلم: كتاب العتق، باب فضل العتق (١٥٠٩)، والترمذي عن أبي أمامة (١٥٤٧)، واللفظ له، وابن ماجه (٢٥٢٢).

السبي، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ. فأُعتق بسببها مائة أهل بيت من بني المصطلق[(١)].

وأكثر من ذلك، حيث شرع الإسلام عتق العبيد من مصارف الزكاة؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ﴾[(٢)].

وقد ورد أن الرسول ﷺ أعتق ٦٣ نسمة، وأعتقت عائشة رضي الله عنها ٦٩، وأعتق أبو بكر رضي الله عنه كثيرًا، وأعتق العباس رضي الله عنه سبعين عبدًا، وأعتق عثمان رضي الله عنه عشرين، وأعتق حكيم بن حزام رضي الله عنه مائة، وأعتق عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- ألفًا، وأعتق عبد الرحمن بن عوف ثلاثين ألف نسمة[(٣)].

وقد نجحت هذه السياسة الإسلامية في تقليل تجارة الرق كثيرًا، حتى توقفت تمامًا بعد ذلك، بل إنه في العهود الإسلامية المتأخرة ارتقى الإسلام بالأرقاء من العبودية إلى قمة السلطة السياسية والعسكرية، ولعلَّ خير مثال على ذلك هو حكم دولة المماليك لقطاع كبير من الأمة الإسلامية لمدة قاربت الثلاثمائة عام! وليس لهذا -دون شك- مثيل في تاريخ الدنيا.

***

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ١١/ ٢١٠، والسهيلي: الروض الأنف ٤/ ١٨، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٣٠٣.

(٢) (التوبة: ٦٠).

(٣) أحصى ذلك الكتاني في كتابه: التراتيب الإدارية ص٩٤، ٩٥.

المبحث الخامس

حرية التملك

حار العالم القديم والحديث في مسألة الملكية أو التملك[1]، ونشأت جرَّاء ذلك مذاهب شتى وأفكار متباينة؛ فكانت هناك الشيوعية التي أهدرت قيمة الفرد وحريته؛ إذ ليس لأحد أن يتملك أرضًا أو مصنعًا أو عقارًا، أو غير ذلك من وسائل الإنتاج، بل يجب عليه أن يعمل أجيرًا للدولة التي تملك كل مصادر الإنتاج وتُديرها، وتُحَرِّم عليه أن يحوز رأس مال وإن كان حلالاً!

كما كانت هناك الرأسمالية، والتي تقوم على تقديس حرية التملك لدى الفرد، وإطلاق العنان له، ليمتلك ما شاء، وينمي ما ملك بما شاء، وينفقه كما شاء، دون قيود تُذكر على وسائل تملكه وتنميته وإنفاقه، ودون أي حقوق للمجتمع في ذلك.

وبين تطرُّف الرأسمالية في تضخيم شأن الملكية الفردية، وتطرُّف الشيوعية في إلغاء هذه الملكية، وما في النظامين من مساوئ ومفاسد جمة، يأتي الإسلام بطريق وسط يجمع بين مصلحة الفرد والجماعة؛ حيث أباح الملكية الفردية مع وضع قيود معينة لها لحماية الآخرين، كما حرَّم حق التملك في أمور معينة؛ رعايةً لحقوق البشر، فجعلها ملكية جماعية، ومعنى ذلك أن الإسلام أَقَرَّ حرية التملُّك للفرد، وحرية التملُّك الجماعية في توازن واعتدال.

فقد أعطى الإسلام للفرد حقَّ التملُّك في حيازة الأشياء، والانتفاع بها على وجه الاختصاص والتعيين؛ لأن ذلك من مقتضيات الفطرة ومن خصائص الحرية، بل من خصائص الإنسانية، وأيضًا لأن ذلك أقوى دافع لزيادة الإنتاج وتحسينه، وجَعَل الإسلام هذا الحقَّ قاعدة أساسية للاقتصاد الإسلامي، ثم رتَّبَ عليه نتائجه الطبيعية، في حفظه لصاحبه، وصيانته له عن النهب والسرقة والاختلاس، ونحوه، ووَضَعَ عقوبات رادعة لمن اعتدى عليه؛ ضمانًا لهذا الحقِّ، ودَفْعًا لِمَا يُهدِّد الفرد في حقِّه المشروع، كما أن الإسلام

---

(١) يُقْصَدُ بالتملُّك: حيازة الإنسان للشيء وامتلاكه له، وقدرته على التصرُّف فيه، وانتفاعه به عند انتفاء الموانع الشرعية.

رتَّبَ على هذا الحقِّ - أيضًا - نتائجه الأخرى؛ وهي: حُرِّيَّة التصرُّف فيه بالبيع، والشراء، والإجارة، والرهن، والهبة، والوصية، وغيرها من أنواع التعاملات المباحة.

غير أن الإسلام لم يترك التملُّك الفردي مطلقًا من غير قيد، ولكنه وضع له قيودًا كي لا يصطدم بحقوق الآخرين؛ كمنع الربا، والغش، والرشوة، والاحتكار، ونحو ذلك ممَّا يصطدم ويُضَيِّع مصلحة الجماعة، وهذه الحرية لا فرق فيها بين الرجل والمرأة؛ مصداقًا لقول الله ﷻ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾[1].

ومن هذه القيود كذلك: مداومة الشخص على استثمار المال؛ لأن في تعطيله إضرارًا بصاحبه، وبنماء ثروة المجتمع. وأيضًا أداء الزكاة على هذا المال إذا بلغ النصاب وحال عليه الحول؛ لأن الزكاة حق المال.

ثم كان التملُّك الجماعي في الإسلام، وهو الذي يستحوذ عليه المجتمع البشري الكبير، أو بعض جماعاته، ويكون الانتفاع بآثاره لكل أفراده، ولا يكون انتفاع الفرد به إلاَّ لكونه عضوًا في الجماعة، دون أن يكون له اختصاص مُعَيَّنٌ بجزء منه؛ ومثاله: المساجد، والمستشفيات العامَّة، والطرق، والأنهار، والبحار، ونحو ذلك، ويكون ملكًا عامًّا يُصْرَفُ في المصالح العامَّة، وليس لحاكم أو من ينوب عنه أن يتحكَّم فيه، ولكن يقع عليهم مسئولية إدارته، وتوجيهه التوجيه الصحيح، اللذان يُحَقِّقَان مصالح المجتمع المسلم.

هذا، وقد حَدَّد الإسلام طرقًا ووسائل لاكتساب الملكية وحَرَّمَ ما سواها، فجعل لوسائل الملكية الفردية مظهران: المظهر الأول: الأموال المملوكة، أي المسبوقة بملك، وهذه الأموال لا تخرج من ملك صاحبها إلى غيره إلاَّ بسببٍ شرعي؛ كالوراثة، أو الوصية، أو الشفعة، أو العقد، أو الهبة، أو نحوها. المظهر الثاني: الأموال المباحة، أي غير المسبوقة بملك شخص مُعَيَّنٍ، وهذه الأموال لا يتحقَّقُ للفرد تملُّكُهَا إلاَّ بِفِعْلٍ يُؤَدِّي إلى التملُّك ووضع اليد، كإحياء موات الأرض والصيد، واستخراج ما في الأرض من معادن، أو إقطاع ولي الأمر جزءًا منها لشخص مُعَيَّنٍ.

---

(١) (النساء: ٣٢).

أمَّا مظاهر وسائل الملكية الجماعية في الإسلام فهي كثيرة، ومن أهمها:

المظهر الأول: الموارد الطبيعية العامَّة، وهي التي يتناولها جميع الناس في الدولة دون جهد أو عمل؛ كالماء، والكلأ، والنار، وملحقاتها.

المظهر الثاني: الموارد المحمية، أي التي تحميها الدولة لمنفعة المسلمين أو الناس كافَّة؛ مثل: المقابر، والدوائر الحكومية، والأوقاف، والزكوات، ونحوها.

المظهر الثالث: الموارد التي لم تقع عليها يد أَحَدٍ، أو وقعت عليها ثم أهملتها مُدَّةً طويلة، كأرض الموات[1].

وفي سبيل حفظ الملكية فقد أمر الله بحراسة الأموال، كما حافظت الشريعة الإسلامية على حرية التملُّك بما شرع الله من الحدود؛ كقطع يد السارق، وغير ذلك.

وهذا التملُّك ينبغي أن يكون من الحلال الطيِّب، ولا يكون على حساب الآخرين؛ فلا يُخْدَع الأيتام وتُؤْخَذ أموالهم، ولا يُسْتَغَلُّ فَقْرُ الفقير، وحاجة المحتاج فتُؤْكَل أموالهم بالربا، ولا القمار الذي يُسَبِّبُ العداوة بين المجتمع، والتفكُّك بين أفراده، كما قال الله تعالى: **﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾**[2]. وقال أيضًا: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾**[3].

وإذا جاءت الملكية من طريق أو وجه غير شرعي فإن الإسلام لا يعترف بها ولا يحميها، بل يأمر بنزعها من يد حائزها وردِّها إلى مالكها الأصلي؛ كالمال المسروق أو المغصوب، فإن لم يكن له مالكٌ وُضِعَ في بيت المال.

كما حدَّد الإسلام سُبُلَ المال ونماءَه بالقيود والتصرُّفات المشروعة، ولم يعترف بالنماء الناتج عن سبيل باطل حرام؛ كالنماء الناتج عن بيع الربا، أو بيع الخمور والمخدرات، أو فتح نوادٍ للقمار، كما أوجب في حقِّ الملكية قدرًا مُعَيَّنًا لمصلحة الجماعة، يَتَمَثَّل في الزكاة والنفقات الشرعية، وعدم جواز الوصية بأكثر من الثُّلُثِ؛ حفظًا لحقِّ الوارثين في الثلثين.

---

(١) انظر الحرية على موقع الإسلام اليوم، الرابط: http://www.islamtoday.net/toislam/11/11.3.cfm.

(٢) (البقرة: ١٨٨).

(٣) (النساء: ٢٩).

وكذلك قيَّده بالاعتدال في الإنفاق دون إسراف أو تقتير، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[١]، كما قيَّده أيضًا بتحريم الإنفاق فيما حَرَّمَتْهُ الشريعة الإسلامية، وقيَّده بجواز نزعه عند الضرورة للمصلحة العامَّة مع تعويض صاحب المِلْكِ التعويضَ العادلَ، كنزع المِلْكِ لتوسعة الطريق العامِّ[٢].

هذا، وقد تمتع الأفراد في الدولة الإسلامية بهذا النظام الفريد القويم -مسلمين كانوا أو غير مسلمين- حتى استطاعوا أن يتملكوا الأموال الكثيرة، وحتى كان بختيشوع بن جبرائيل النصراني طبيب المتوكل (الخليفة العباسي العاشر) وصاحب الحظوة لديه -على سبيل المثال- يضاهي الخليفة في اللباس وحُسن الحال، وكثرة المال[٣]، وفي الوقت ذاته ينعم هؤلاء الأفراد بما تفيض به الملكية العامة وما تُوَفِّره لهم.

هذه هي حُرِّيَّة التملُّك في الإسلام؛ فهي حقٌّ مكفول للجميع، ولكن بشرط ألا يَضُرَّ هذا الحق بالصالح العامِّ، ولا بالمصلحة الفردية أو الشخصية للآخرين.

***

---

(١) (الفرقان: ٦٧).

(٢) الحقيل: حقوق الإنسان ص٥٧.

(٣) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٦٨.

الفصل الثالث

في جانب الأسرة

تُمَثِّلُ الأسرة المسلمة لبنة أساسية في صرح المجتمع الإسلامي، وهي حصن هذا المجتمع وقلعته وصمام أمنه وأمانه.

وقد اعتنى الإسلام أعظم العناية بالأسرة، وشرع لها نظامًا دقيقًا مُحْكَمًا، بَيَّنَ فيه حقوق وواجبات أفرادها، ونَظَّمَ معاملات الزواج، والنفقة، والميراث، وتربية الأولاد، وحقوق الآباء، كما غرس بينهم المحبَّةِ والمودَّة والرحمة؛ وذلك لأنَّ في تقوية الأُسْرَةِ وضبط سلوك أفرادها تقويةً للمجتمع وضبطًا لحركته، ونشرًا للقيم الإنسانية والاجتماعية الرفيعة بين أبنائه، وهكذا يرتقي الإسلام بالمجتمع في صورة حضارية لا مثيل لها، ويبعد به عن الفوضى والتحلُّلِ الخُلُقي وضياع الأنساب.

وإن معالم هذه الصورة الحضارية في جانب الأخلاق والقيم في ناحية الأُسْرَةِ تَتَّضِحُ من خلال المباحث التالية:

- **المبحث الأول: الزوجان**
- **المبحث الثاني: الأبناء**
- **المبحث الثالث: الوالدان (الأسرة الصغيرة)**
- **المبحث الرابع: الرحم (الأسرة الكبيرة)**

المبحث الأول

الزوجـــــان

تقوم الأسرة على دِعامتين مهمَّتَيْنِ هما أساس تكوينها: الرجل والمرأة؛ أي الزوج والزوجة، فهما الأساس في تكوين الأسرة وإنجاب الذُّرِّيَّة، وتناسُلِ البشريَّة التي تتكوَّن منها الأُمَّة والمجتمع؛ يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[١]، ويقول أيضًا: ﴿واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[٢].

ولقد اعتنى الإسلام عناية فائقة بهاتين الدِّعامتين الأساسيتين، فوضع تشريعًا مُحْكَمًا للعَلاقات الزوجيَّة، ورسم حدودًا واضحة لكل واحد منهما بما له وما عليه، وقسَّمَ الأدوار بين الزوجين؛ ليقوم كل واحد منهما بدوره الكامل في بناء الأسرة، والمساهمة في بناء المجتمع الإنساني على امتداده.

فَسَنَّ الإسلام أوَّلاً أمر الزواج، وهدف من ورائه حفظ النوع الإنساني وإمداد المجتمع بأفراد صالحين يُستخلفون في الأرض، ويقومون بمسئولية البناء والإعمار التي هي مقتضى الخلافة فيها، وكذلك هدف من ورائه إلى حصانة الفرد والمجتمع من الرذيلة والتردِّي الأخلاقي؛ حتى إن الرسول ﷺ قال مخاطبًا الشباب: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[٣].

ولما فَكَّر بعض الشباب في التفرُّغ للعبادة واعتزال النساء، زجرهم الرسول ﷺ ونهاهم عن ذلك، وهو ما جاء في القصة التي يرويها أنس بن مالك رضي الله عنه حيث يقول: جاء **ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النَّبيِّ ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلمَّا أُخْبِرُوا كأنَّهم**

(١) (النساء: ١).

(٢) (النحل: ٧٢).

(٣) البخاري عن عبد الله بن مسعود: كتب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم (٤٧٧٩)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (١٤٠٠).

تَقَالُّوهَا فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؛ قد غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنبه وما تأخَّر؟ قال أحدهم: أمَّا أنا فإنِّي أصلِّي الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدَّهر ولا أُفْطِرُ. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوَّج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

ولقد جَنَتِ الإنسانية على نفسها الكثير جَرَّاء هذا التفكير القاصر ممن ترهبنوا وحَرَّمُوا الزواج من تلقاء أنفسهم؛ حتى إن العقلاء في أوربا لَمَّا رَأَوُا الرهبنة لا تُنْتِجُ إلاَّ الفساد في الظلام، حرموها بعد تجارِب خمسة عشر قرنًا من الاضطراب والخلل؛ حيث آل الأمر بالكثير من الكُهَّان والقساوسة، إلى ممارسة اغتصاب الأطفال من الذكور والإناث، حتى إنه شاع هذا في أوربا وأمريكا، واستقال أو فُصِلَ المئات منهم، واضطربت الكنيسة وفزعت لِهَوْلِ هذه الانحرافات والاعتداءات الجنسية، وقد جَنَّبَنَا دينُنَا الحنيف هذا كله، وأراحنا من تجارِب بائسة ومن آلام مريرة[2].

كما هَدَفَ الإسلام من وراء الزواج - أيضًا - حصول السكن النفسي للفرد؛ مما يجعله يُفرغ ما يعتمل في نفسه من مشاعر وعواطف تدفعه إلى العطاء والإبداع، ويُعَدُّ الزواج - أيضًا - ملاذًا لكلٍّ من الزوجين؛ يُفْضِي أحدهما إلى الآخر، ويكون له نِعْمَ الأنيس ساعة الوحدة، ونِعْمَ الجليس ساعة الغربة، قال الله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]، وبهذه الأركان الثلاثة الواردة في الآية (السكن والمودة والرحمة) تتحقَّق السعادة الزوجية التي أرادها الإسلام.

وقد أمر الإسلامُ الزوجين بأن يُحْسِنَ كلُّ واحد منهما اختيار صاحبه، فقال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾[4]، وقال النبي ﷺ - يأمر

---

(١) البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٤٧٧٦)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (١٤٠١).

(٢) انظر: محمد بن أحمد بن صالح: حقوق الإنسان في القرآن والسنة وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية ص١٣٤.

(٣) (الروم: ٢١).

(٤) (النور: ٣٢).

الزوجَ باختيار الزوجة الصالح ذات الدين: «**تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**»[١]. وقال ﷺ - كذلك يأمر الزوجة باختيار زوجها على نفس المعيار والأساس: «**إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ؛ إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ**»[٢].

ولا ريب في أن هذا الاختيار وذاك الأساس من شأنه أن يَعُودَ بالنفع على المجتمع الإنساني؛ إذ من شأنه أن يُخْرِجَ جيلاً صالحًا هو ثمرة هذين الزوجين الصالحين؛ لينشأ بعد ذلك في أسرة وَدُودَةٍ متحابَّة، تعيش في ظلِّ المبادئ والقيم الأخلاقية الإسلامية.

ولَمَّا كان عقد الزواج من العقود ذات الشأن الكبير؛ لَزِمَ أن تسبقه مقدِّمات تُمَهِّدُ له، وتضمن بقاءه ودوامه، بل إن الشريعة الإسلامية لم تعتنِ بمقدِّمات أي عقد من العقود سواه، فقد اعتنت بها وجعلت لها أحكامًا خاصَّة، ومقدِّمَاتُ عقد الزواج هي ما يُعْرَفُ بالخِطبة، وهي مرحلة تستهدف التفاهم والتقارب، وتُتيح للطرفين معرفة بعضهما بصورة أكبر، وعلى ضوء ذلك يتمُّ تحديد الاستمرار في مشروع الزواج أو العدول عنه.

كما تشترط الشريعة الإسلامية لصحَّة عقد النكاح: وجوب إشهاره؛ والحكمة في ذلك أن له شأنًا عظيمًا في نظر الإسلام؛ لما يُحَقِّقُهُ من المصالح الدينية والدنيوية، فهو جدير بأن يَظْهَرَ شَأْنُهُ ويُذَاعَ أَمْرُه؛ وذلك منعًا للظنون ودفعًا للشبهات.

هذا، وقد أحاط الإسلام عقد الزواج بأوثق الضمانات التي تَكْفُلُ سعادة الزوجين، وتأتي بالخير لأسرتيهما؛ فجعل الرجال قوَّامين على النساء بما أعطى كل واحد منهما من الإمكانات والقدرات، فقال تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾[٣]، وبهذه القوامة أوجب الإسلام مهرًا على الزوج،

---

(١) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين (٤٨٠٢)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين (١٤٦٦).

(٢) الترمذي: كتاب النكاح عن رسول الله، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه (١٠٠٤)، وابن ماجه (١٩٦٧)، والحاكم (٢٦٩٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٠٢٢).

(٣) (النساء: ٣٤).

وجعله من حقِّ الزوجة، فقال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[١]، كما جعل من حقوقها - أيضًا - النفقة عليها، ويُقْصَدُ به ما تحتاجه المرأة من طعام، وكسوة، وسكن، وعلاج، وغيره، وكذلك معاشرتها بالمعروف؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٢]، وفي مقابل ذلك جعل الإسلام للزوج على زوجته حقَّ الطاعة، وهو من أهم حقوقها عليه.

وهكذا جعل الإسلام لكلٍّ من الزوجين حقوقًا نحو الآخر، وواجبات يُؤَدِّيهَا له، وطالبهما بحُسْنِ العشرة والاعتدال في المعاملة، والتعاون في الحياة المشتركة بينهما، ثم رسم الطريق القويم لعلاج ما قد ينشأ بينهما من خلاف ومشكلات، وشرع الطلاق أخيرًا حين تستعصي على الزوجين إقامة حدود الله، والوقوف على ما رسمه الشارع للسير في عَلاقة الزوجية[٣].

* * *

(١) (النساء: ٤).

(٢) (النساء: ١٩).

(٣) انظر: محمد بن أحمد بن صالح: حقوق الإنسان في القرآن والسنة وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية ص١٣٥-١٣٨.

المبحث الثاني

الأبنـــــــاء

الأبناء في الإسلام هم زهرة الحياة الدنيا وزينتها، وهم بهجة النفوس وقُرَّة الأعين، وقد اعتنى الإسلام بالأبناء عناية خاصَّة، فقرَّرَت الشريعة الإسلامية أنَّ لهم على الآباء حقوقًا وواجبات.

فالابن تتشكَّل في نفسه أوَّل صُوَرِ الحياة متأثِّرًا ببيئة والديه، لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»(١). فالوالدان لهما أثر كبير في دين وخُلُقِ الأبناء؛ لذا فإن صلاح الآباء يتوقَّفُ عليه مصلحة الأبناء ومستقبل الأُمَّة، وعليه فإن حقوق الأبناء ترجع إلى ما قبل الولادة؛ حيث اختيار الأُمِّ الصالحة والأب الصالح، كما سبق أن بَيَّنَّا.

وإذا ما وُفِّقَ كُلٌّ من الزوجين في اختيار صاحبه، يأتي حقُّ الولد عليهما في تحصينه من الشيطان؛ وذلك عند وضع النطفة في الرحم، ويظهر ذلك في التوجيه النبوي الشريف في الدعاء عند الجماع، والذي يحفظ الجنين من الشيطان؛ فعن ابن عباس -رضى الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا. فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ، لَمْ يَضُرُّهُ**»(٢).

وإذا ما صار جنينًا في رحم أُمِّه فمن حقِّه الذي أقرَّه الإسلام له حقُّه في الحياة؛ وذلك بتحريم إجهاضه وهو جنين؛ حيث تُحَرِّمُ الشريعة الإسلامية على الأُمِّ إسقاط الجنين قبل ولادته؛ لأنه أمانة أودعها الله في رحمها، ولهذا الجنين حقٌّ في الحياة، فلا يجوز الإضرار به أو إيذاؤه، كما اعتبرته الشريعة نفسًا لا يجوز قتلها متى مَضَتْ له أربعة أشهر ونُفِخَتْ فيه الرُّوح، وأوجبت على قاتله الدِّيَةُ، فعن المغيرة بن شعبة قال: إن امرأتين كانتا تحت رجل من هذيل فضربت إحداهما الأخرى بعمود فقتلتها وجنينها، فاختصموا إلى النبي ﷺ،

---

(١) البخاري عن أبي هريرة: كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين (٦٢٢٦)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٢).

(٢) البخاري: كتاب النكاح، باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله (٤٧٦٧)، ومسلم: كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (٢٥٩١).

فقال رجل من عصبة القاتلة: أنغرم دية من لا أكل ولا شرب ولا استهل؟! فقال ﷺ: «أَسَجْعٌ كَسَجْعِ الأَعْرَابِ[١]»[٢]. فقضى فيه بغُرَّة[٣]، وجعله على عاقلة المرأة.

كما أن الشريعة الإسلامية أجازت الفطر في رمضان للمرأة الحامل حفاظًا على صحَّة الجنين، كما أجازت تأجيل حدِّ الزنا حتى يُولد وينتهي من الرضاع.

وأمَّا بعد الولادة فقد وضع الإسلام للأبناء أحكامًا تتعلَّق بولادتهم، منها: استحباب **الاستبشار بهم عند ولادتهم**؛ وذلك على نحو ما جاء في قوله تعالى في ولادة سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٤]، وهذه البشارة للذَّكرِ والأنثى على السواء من غير تَفرِقَةٍ بينهما.

ومنها أيضًا **الأذان في أُذُنِهِ** اليمنى، والإقامة في أُذُنِهِ اليسرى، وفي هذا اقتداء بالنبي ﷺ؛ فقد أذَّن النبي ﷺ في أُذُنِ الحسن بن علي رضى الله عنهما عند ولادته، روى ذلك عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَذَّنَ فِي أُذُنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ - حِينَ وَلَدَتْهُ فَاطِمَةُ- بِالصَّلَاةِ»[٥].

ومن حقوق الأبناء كذلك عند ولادتهم **استحباب تحنيكهم بتمر**[٦]، وذلك كما فعل

---

(١) قال العلماء: إنما ذم سجعه لوجهين؛ أحدهما: أنه عارض به حكم الشرع ورام إبطاله، والثاني: أنه تكلفه في مخاطبته وهذان الوجهان من السجع مذمومان. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١١/ ١٧٨.

(٢) البخاري: كتاب الطب، باب الكهانة (٥٤٢٦)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجاني (١٦٨٢) واللفظ له، وأبو داود: كتاب الديات، باب دية الجنين (٤٥٦٨)، والنسائي (٤٨٢٥)، وابن حبان (٦٠١٦)، وصححه الألباني، انظر: إرواء الغليل (٢٢٠٦).

(٣) الغُرَّة: المقصود بها العبد أو الأمة. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١١/ ١٧٥، ١٧٦.

(٤) (آل عمران: ٣٩).

(٥) أبو داود: كتاب الآداب، باب في الصبي يولد فيؤذن في إذنه (٥١٠٧)، وقال الألباني: حديث حسن، انظر: صحيح وضعيف سنن أبي داود (٥١٠٥).

(٦) لا يخفى أن في تحنيك الأطفال المواليد بالتمر حكمة بالغة؛ فقد أثبتت الدراسات الطبية أن معظم أو كل المواليد يحتاجون للسكر الجلوكوز بعد ولادتهم مباشرة، حيث إن مستوى السكر (الجلوكوز) في الدم بالنسبة للمولودين حديثًا يكون منخفضًا، وبما أن التمر يحتوي على السكر (الجلوكوز) بكميات وافرة،، فإن إعطاء المولود التمر المذاب يقي الطفل بإذن الله من مضاعفات نقص السكر الخطيرة، وبذلك ففي تحنيك المولود بالتمر علاج وقائي له، وهو إعجاز طبي لم تكن البشرية تعرفه أو تعرف مخاطر نقص السكر (الجلوكوز) في دم المولود. للمزيد من المعلومات حول أوجه هذا الإعجاز انظر: د. محمد علي البار: مقال من رعاية الطفولة في الإسلام، تحنيك المولود وما فيه من إعجاز علمي، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي للقرآن والسنة، الرابط: http://www.nooran.org/O/4/4O11.htm.

النبي ﷺ، فقد روى أبو موسى[1] ﷺ، قال: «وُلِدَ لِي غُلَامٌ فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَسَمَّاهُ إِبْرَاهِيمَ فَحَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ، وَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ، وَدَفَعَهُ إِلَيَّ»[2].

ومنها كذلك حَلْق شعر رأسهم والتصدُّق بوزنه فضة، وفي ذلك فوائد صحِّيَّة واجتماعيَّة؛ فمن الفوائد الصحِّيَّة: تفتيح مسامِّ الرأس، وإماطة الأذى عنه، وقد يكون ذلك إزالةً للشعر الضعيف؛ لينبت مكانه شعر قويٌّ، أمَّا الفائدة الاجتماعية فتعود إلى التصدُّق بوزن هذا الشعر فضة، وفي ذلك معنَى التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، ومِمَّا يُدْخِل السرور على الفقراء، وفي ذلك فقد روى محمد بن علي بن الحسين أنه قال: «وَزَنَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَعَرَ حَسَنٍ وَحُسَيْنٍ فَتَصَدَّقَتْ بِزِنَتِهِ فِضَّةً»[3].

ومن أهمِّ حقوق الأبناء كذلك عند ولادتهم حَقُّهم في التسمية الحَسَنَة؛ فالواجب على الوالدين أن يختارا للمولود اسمًا حَسَنًا يُنادى به بين الناس، يبعث الراحة في النفس والطمأنينة في القلب، وكان الرسول ﷺ يكره كلمة حرب ولا يحب أن يسمعها، وفي الحديث عنه ﷺ: «أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ: عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا: حَارِثٌ وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا: حَرْبٌ وَمُرَّةُ»[4].

وعن علي ﷺ قال: لما وُلِدَ الحَسَنُ سميته حربًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أَرُونِي ابْنِي، مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟ قال: قلت: حربًا. قال: «بَلْ هُو حَسَنٌ». فلما وُلِدَ الحسين سميته حربًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أَرُونِي ابْنِي، مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟» قال: قلت: حربًا. قال: «بَلْ هُوَ حُسَيْنٌ». فلما وُلِدَ الثالث سميته حربًا، فجاء النبي ﷺ فقال: «أَرُونِي ابْنِي، مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟» قلت: حربًا. قال: «بَلْ هُوَ مُحَسِّنٌ». ثم قال: «سَمَّيْتُهُمْ بِأَسْمَاءِ وَلَدِ هَارُونَ: شَبَّر وَشَبِير وَمُشَبِّر»[5].

---

(١) أبو موسى الأشعري: هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر، صاحب رسول الله ﷺ، استعمله النبي ﷺ ومعاذًا على زبيد وعدن، وولي إمرة الكوفة. انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤/ ١٠٥، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٨٠.

(٢) البخاري: كتاب العقيقة، باب تسمية المولود غداة يولد لمن لم يعق عنه وتحنيكه (٥٠٤٥)، ومسلم: كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه (٣٩٩٧).

(٣) مالك: الموطأ، كتاب العقيقة، باب ما جاء في العقيقة (١٨٤٠).

(٤) أبو داود (٤٩٥٠)، والنسائي (٣٥٦٨)، وأحمد (١٩٠٥٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٨١٤)، وقال الألباني: صحيح. السلسلة الصحيحة (١٠٤٠).

(٥) أحمد (٧٦٩)، واللفظ له، ومالك (٦٦٠)، وابن حبان (٦٩٥٨)، والحاكم (٤٧٧٣)، وقال: صحيح الإسناد. ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٣)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن.

وكذلك من حقِّ الأبناء بعد الولادة **العقيقة**، ومعناها ذبح الشاة عن المولود يوم السابع من ولادته، وحُكْمُهَا سُنَّةٌ مؤكَّدة، وهي نوع من الفرح والسرور بهذا المولود، وقد سُئِل رسول الله ﷺ عن العقيقة فقال: «**لاَ أُحِبُّ الْعُقُوقَ، وَمَنْ وُلِدَ لَهُ مَوْلُودٌ فَأَحَبَّ أَنْ يَنْسُكَ عَنْهُ فَلْيَفْعَلْ عَنِ الْغُلاَمِ شَاتَانِ مُكَافَأَتَانِ، وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ**»(١).

ومن حقوق الأبناء كذلك بعد الولادة حَقُّهم في **الرضاعة**، والرضاعة عملية لها أثرها البعيد في التكوين الجسدي والانفعالي والاجتماعي في حياة الإنسان وليدًا ثم طفلاً، وهو ما أدركته الشريعة الإسلاميَّة، فكان على الأمِّ أن تُرضع طفلها حولين كاملين، وجُعِلَ ذلك حقًّا من حقوق الطفل، قال تعالى: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾(٢).

ولقد أثبتت البحوث الصحيَّة والنفسيَّة الحديثة أن فترة عامين ضروريَّة لنمُوِّ الطفل نموًّا سليمًا من الوجهتين الصحيَّة والنفسيَّة(٣)، بَيْدَ أن نِعْمَةَ الله وكرمه على الأُمَّة الإسلاميَّة لم تنتظر نتائج البحوث والتجارِب التي تُجْرَى في معامل علم النفس وخلافها من قِبَلِ العلماء النفسيِّين والتربويِّين، بل سبقت ذلك كُلَّه، ونلاحظ مدى اهتمام الشريعة بالرضاعة وجَعْلِهَا حقًّا من حقوق الطفل، إلاَّ أنَّ ذلك الحقَّ لم يكن مقتصرًا على الأُمِّ فقط؛ إذ إنَّ هناك مسئولية تقع على كاهل الأب، وتتمثَّل هذه المسئولية في وجوب إمداد الأُمِّ بالغذاء والكساء؛ حتى تتفرَّغ لرعاية طفلها وتغذيته، وبذلك فكُلٌّ منهما يُؤَدِّي واجبه ضمن الإطار الذي رسمته له الشريعة السمحة، محافِظًا على مصلحة الرضيع المُسْنَدَةِ إليه رعايته وحمايته، على أن يتمَّ ذلك في حدود طاقتهما وإمكانياتهما، قال تعالى: ﴿**لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾(٤).

---

(١) أبو داود: كتاب الضحايا، باب العقيقة (٢٨٤٤)، وأحمد (٦٨٢٢) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والمستدرك (٧٥٩٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة، (١٦٥٥).

(٢) (البقرة: ٢٣٣).

(٣) الرضاعة الطبيعية لمدة ١٢ شهرًا على الأقل، وأن الأولى من ذلك اتباع توصيات منظمة الصحة العالمية بالرضاعة لحولين كاملين. انظر: حسن شمسي باشا: الرضاعة من لبن الأم لحولين كاملين، مقال على الرابط:
http://dvd4arab.maktoob.com/showthread.php?t/60832

(٤) (البقرة: ٢٣٣).

ومن حقوق الأبناء على أبويهم كذلك حَقُّهم في الحضانة والنفقة؛ فقد أوجبت الشريعة على الأبوين رعاية الأبناء والمحافظة على حياتهم وصِحَّتِهم والنفقة عليهم، فقال النبي ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ...**»(١).

ثم كان حَقُّهم - أيضًا - في حُسْنِ التربية وتعليم الضروريات من أمور الدين، وفي طريقةٍ عملية في تربية الأبناء يقول الرسول ﷺ: «**مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلاَةِ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»(٢). كما أمرنا الله ﷻ أن نحمي أنفسنا وأبناءنا من النار يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾(٣).

هذا بالإضافة إلى رعاية هؤلاء الأبناء وجدانيًّا؛ وذلك بالإحسان إليهم ورحمتهم، وملاعبتهم وملاطفتهم، وقد ورد في ذلك أن الرسول ﷺ قَبَّل الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلتُ منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال: «**مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ**»(٤).

كما روى شداد بن الهاد ﷺ عن أبيه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء، وهو حامل حَسَنًا أو حسينًا، فتقدَّم رسول الله ﷺ فوضعه، ثم كبر للصلاة، فصلَّى، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، قال أبي: فرفعت رأسي وإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلمَّا قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه

---

(١) البخاري عن عبد الله بن عمر: كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق (٢٤١٦)، ومسلم: في الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٩).

(٢) أبو داود: كتاب الصلاة، باب يؤمر الغلام بالصلاة (٤٩٥)، وأحمد (٦٦٨٩)، والحاكم (٧٠٨)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٤٠٢٦).

(٣) (التحريم: ٦).

(٤) البخاري كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٦٥١)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان والعيال... (٢٣١٨).

قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك. قال: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ»[١].

وروى أيضًا أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنِّي لأَدْخُلُ فِي الصَّلاَةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ»[٢]!

هذا، وإن لِحُسْنِ تربية البنات ورعايتهن أهمية خاصة؛ حتى إن الرسول ﷺ كان يُعظِّم من أجر الذي يحسن تربيتهنَّ بصفة خاصة، فقال ﷺ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ». وضمَّ أصابعه[٣].

وعلى هذا فثَمَّة حقوق مهمَّة للأبناء على الآباء كَفَلَهَا الإسلام لهم، وقد فاقت في شمولها ومراحلها كل الأنظمة والقوانين الوضعيَّة قديمها وحديثها؛ حيث اهتمَّ الإسلام بالأبناء في كل مراحل حياتهم؛ أَجِنَّةً، ورُضَّعًا، وصبيانًا، ويافعين، إلى أن يَصِلُوا إلى مرحلة الرجولة والأنوثة، بل اهتمَّ الإسلام بهم قبل أن يكونوا أَجِنَّةً في بطون أُمَّهَاتهم! وذلك بالحضِّ على حسن اختيار أمهاتهم وآبائهم.. وذلك كُلُّه بهدف إخراج رجال ونساء أسوياء لمجتمع تَسُودُهُ الأخلاق والقيم الحضارية النبيلة.

***

---

(١) النسائي (١١٤١)، وأحمد (٢٧٦٨٨)، الحاكم (٤٧٧٥)، وصححه ووافقه الذهبي، وابن خزيمة (٩٣٦)، وابن حبان (٢٨٠٥)، واستدل به الألباني في إطالة الركوع. انظر: صفة صلاة النبي للألباني ص١٤٨.

(٢) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب من أَخَفَّ الصلاة عند بكاء الصبي (٦٧٧)، وابن ماجه (٩٨٩)، وابن خزيمة (١٦١٠)، وابن حبان (٢١٣٩)، وأبو يعلى (٣١٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٠٥٤).

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والأدب، باب الإحسان إلى البنات (٢٦٣١)، واللفظ له، والترمذي (١٩١٤)، والحاكم (٧٣٥٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٩٤).

المبحث الثالث

الوالدان (الأسرة الصغيرة)

الوالدان هنا هما الزوجان بعد أن مَنَّ الله عليهما بالْوَلَدِ، وصار لهما أبناء وذُرِّيَّة، كَدَّا مِنْ أَجْلِهم، وسَهِرَا على راحتهم، وأعطياهم من الحقوق ووفَّرَا لهم من سبل الحياة ما ذكرناه سابقًا.

فَكَنَوْعٍ من ردِّ الجميل، والاعتراف بحُسْنِ الصنيع، ومجازاة الإحسان بالإحسان، أَقَرَّ الإسلام جملة من الحقوق للآباء على الأبناء، وخاصَّة في حال كِبَرِهما وضَعْفِهما؛ حيث خَصَّهُما الله بالإحسان والعطف عليهما والبِرِّ بهما؛ تمامًا كما كانا يفعلان بأبنائهما في صغرهم.

فكان من أهمِّ هذه الحقوق؛ حقُّ الْبِرِّ والطاعة والإحسان، وليس هناك أعظم إحسانًا، وأكبر تَفَضُّلاً بعد الله ﷻ من الوالدين؛ ولذلك قَرَنَ سبحانه الإحسان إليهما وحُسْن الرِّعَايَةِ بهما بعبادته والإخلاص له، فقال سبحانه: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾[1].

فجاء الأمر بالإحسان إليهما والنهي عن عقوقهما ولو بجرح مشاعرهما بكلمة «**أُفٍّ**» كعلامة على الضجر منهما، كما أن الله سبحانه لم يمدح الذُّلَّ ولم يَقْبَلْ من عباده أن يقع منهم على بعض إلاَّ في مقام الوالدين؛ فقال تعالى كما جاء في الآية الأخيرة السابقة: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**﴾.

على أن أعظم البرِّ يكون في حال بلوغ الوالدين الكِبَرَ أحدهما أو كلاهما، وهو حال الضعف البدني والعقلي، الذي ربما يُؤَدِّي إلى العجز؛ فأمر الله ﷻ بأن نَقُولَ لهما قولاً كريمًا، ونخاطبهما مخاطبة لَيِّنَة؛ رحمة بهما، وإحسانًا إليهما، مع الدعاء لهما بالرحمة كما رحمانا في

(١) (الإسراء: ٢٣، ٢٤).

الصِّغَرِ وقت الضعف، ثم الإكثار من إسماعهما عبارات الشكر، الذي قرنه الله بشكره سبحانه؛ حيث قال: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[1].

وبِرُّ الوالدين من أعظم أبواب الخير، وقد جاء ذلك في الحديث الذي سأل فيه عبد الله بن مسعود ﷺ النبي ﷺ قائلاً: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى الله؟ قَالَ ﷺ: «**الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا**». قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «**ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**». قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله**»[2].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: **أَقْبَلَ رجلٌ إلى نبيِّ الله ﷺ، فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله. قال ﷺ: «فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟» قال: نعم، بل كلاهما. قال: «فَتَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ الله؟» قال: نعم. قال: «فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا»**[3]. وفي رواية قال: «**فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ**»[4].

ومن أعظم ما شرعه الإسلام من حقوق للآباء على الأبناء، ما جاء في حديث جابر ابن عبد الله والذي فيه: **أَنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّ لي مالاً وولدًا، وإنَّ أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال: «أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ»**[5].

قال أبو حاتم بن حبان[6]:

«معناه أنه ﷺ زجر عن معاملته أباه بما يُعَامِلُ به الأجنبيين، وأمر ببِرِّهِ والرفق به في القول والفعل معًا إلى أن يصل إليه ماله، فقال له: «**أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ**». لا أن مال الابن

---

(١) (لقمان: ١٤).

(٢) البخاري: كتاب الآداب، باب البر والصلة (٥٦٢٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (١٣٧).

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به (٦)، وأبو داود (٢٥٢٨)، والنسائي (٤١٦٣)، وأحمد (٦٤٩٠)، وابن حبان (٤١٩).

(٤) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد بإذن الأبوين (٢٨٤٢)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به (٢٥٤٩).

(٥) ابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده (٢٢٩١)، وأحمد (٦٩٠٢)، وابن حبان (٤١٠)، وصححه الألباني، انظر: إرواء الغليل (١٦٢٥).

(٦) أبو حاتم بن حبان البستي: هو أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) مؤرخ، علامة، جغرافي، محدث. ولد وتوفي في (بُست) من بلاد سجستان. من كتبه: «المسند الصحيح» في الحديث. انظر: السبكي: طبقات الشافعية ٣/ ١٣١.

يملكه الأبُ في حياته من غير طيب نفس من الابن به»[1].

والأحاديث والآثار في البِرِّ بالوالدين والإحسان إليهما والتحذير من عقوقهما أكثر من أن تُحْصَى، وهي تُعَبِّرُ عَمَّا بَلَغَتْهُ الشريعة الإسلامية الغَرَّاء في حفظ القيم الأصيلة في المجتمع من أن تُنْتَهَكَ أو تتهاوى.

* * *

(١) صحيح ابن حبان ٢/ ١٤٢.

المبحث الرابع

الرحم (الأسرة الكبيرة)

من عظيم ما أتى به الإسلام أن الأسرة فيه لا تقف عند حدود الوالدين وأولادهما، بل تَتَّسع لتشمل ذوي الرحم وأُولِي القربى من الإخوة والأخوات، والأعمام والعمَّات، والأخوال والخالات، وأبنائهم وبناتهم؛ فهؤلاء جميعًا لهم حقُّ البرِّ والصِّلَة التي يحثُّ عليها الإسلام، ويَعُدُّهَا من أصول الفضائل، ويَعِدُ عليها بأعظم المثوبة، كما يَتَوَعَّدُ قاطعي الرحم بأعظم العقوبة، فمَنْ وَصَلَ رحمه وَصَلَهُ الله، ومَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ الله.

وقد وضع الإسلام من الأحكام والأنظمة ما يُوجِبُ دوام الصلة قوية بين هذه الأسرة المُوَسَّعة، بما فيها الأقارب، بحيث يَكْفُلُ بعضهم بعضًا، ويأخذ بعضهم بِيَدِ بعضٍ، كما يُوجب ذلك نظام النفقات، ونظام الميراث، ونظام (العاقلة)؛ ويُرَادُ به توزيع الدِّيَةِ في قتل الخطأ وشبه العمد على عَصَبَةِ القاتل وأقاربه[1].

وَصِلَةُ الرحم - بدءًا - تعني الإحسان إلى هؤلاء الأقربين، وإيصال ما أمكن من الخير إليهم، ودفع ما أمكن من الشرِّ عنهم؛ فتشمل زيارتهم والسؤال عنهم، وتَفَقُّدِ أحوالهم، والإهداء إليهم، والتصدُّق على فقيرهم، وعيادة مرضاهم، وإجابة دعوتهم، واستضافتهم، وإعزازهم وإعلاء شأنهم، وتكون أيضًا بمشاركتهم في أفراحهم، ومواساتهم في أتراحهم، وغير ذلك ممَّا من شأنه أن يزيد ويُقَوِّيَ من أواصر العَلاقات بين أفراد هذا المجتمع الصغير.

فهي إذن باب خير عميم؛ فيها تتأكَّد وَحْدَة المجتمع الإسلامي وتماسكه، وتمتلئ نفوس أفراده بالشعور بالراحة والاطمئنان؛ إذ يبقى المرء دومًا بمنأى عن الوَحْدَة والعُزْلَة، ويتأكَّد أن أقاربه يُحِيطُونَه بالمودَّة والرعاية، ويمدُّونه بالعون عند الحاجة.

وقد أمر الله سبحانه بالإحسان إلى ذوي القربى، وهم الأرحام الذين يَجِبُ وَصْلُهم، فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى

(١) انظر: يوسف القرضاوي: الإسلام حضارة الغد ص١٨٥.

وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾(١).

وجعل الله ﷻ صِلَةَ الرحم توجب صِلَتَه سبحانه للواصل، وتتابع إحسانه وخيره وعطائه عليه، وذلك كما دَلَّ الحديث القدسي الذي رواه عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: قال الله: «أَنَا الرَّحْمَنُ وَهِيَ الرَّحِمُ، شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنَ اسْمِي، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ»(٢).

وبَشَّرَ الرسولُ ﷺ الذي يَصِلُ رحمه بسعة الرزق والبركة في العمر، فروى أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ(٣)؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(٤).

وقد فَسَّرَ العلماء ذلك بأن هذه الزيادة بالبركة في عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع في غير ذلك(٥).

وفي المقابل فقد جاءت النصوص الصريحة في التحذير من قطيعة الرحم وَعَدِّها ذنبًا عظيمًا؛ إذ إنها تفصم الروابط بين الناس، وتُشِيعُ العداوة والبغضاء، وتعمل على تَفَكُّكِ التماسُكِ الأُسَرِيِّ بين الأقارب؛ فقال الله تعالى محذرًا مِنْ حلول اللعنة، وعمَى البصرِ والبصيرة: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾(٦).

وعن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ»(٧). وقَطْعُ

---

(١) (النساء: ٣٦).

(٢) أبو داود: كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم (١٦٩٤)، وأحمد (١٦٨٠)، وابن حبان (٤٤٣)، والحاكم (٧٢٦٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) يُنْسَأ: أي يُؤَخَّر له، والأثر هنا: الأجل وبقية العمر. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٤/ ٣٠٢، ١٠/ ٤١٦.

(٤) البخاري: كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق (١٩٦١)، وكتاب الآداب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم (٥٦٣٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢١).

(٥) انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٦/ ١١٤.

(٦) (محمد: ٢٢، ٢٣).

(٧) البخاري: كتاب الآداب، باب إثم القاطع (٥٦٣٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (١٩).

الرَّحِمِ هو تَرْكُ الصِّلَةِ والإحسان والْبِرِّ بالأقارب، والنصوصُ كثيرة ومتضافرة على عِظَمِ هذا الذنب، وذلك كُلُّه من شأنه أن يَخْلُقَ مجتمعًا متعاونًا متآلفًا متماسكًا، يَتَحَقَّقُ فيه قول رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْـمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْـجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْـجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْـحُمَّى»[1].

***

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٦٦٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦)، واللفظ له.

الفصل الرابع
في جانب المجتمع

المجتمع الإسلامي هو تلك الأسرة الكبيرة التي تربطها أواصر المحبَّة والتكافل والتعاون والرحمة، وهو مجتمع رباني إنساني أخلاقي متوازن؛ يتعايش أفراده بمكارم الأخلاق، ويتعاملون بالعدل والشورى، يرحم الكبيرُ فيه الصغير، ويعطف فيه الغنيُّ على الفقير، ويأخذ القويُّ بيد الضعيف، بل هو كالجسد الواحد، الذي إذا اشتكى منه عضو تألَّمَ له سائر الأعضاء، وكالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا، وفي المباحث التالية تَتَّضِحُ أبرز مُقَوِّمَات ودعائم المجتمع الإسلامي:

- المبحث الأول: المؤاخاة
- المبحث الثاني: التكافل
- المبحث الثالث: العدل
- المبحث الرابع: الرحمة

المبحث الأول

المؤاخاة

يقول آتووتر[١]، وهو أحد الرموز البارزة في إدارة الرئيس ريجان[٢]، في عدد فبراير (١٩٩١م) من مجلة Life: «... لقد ساعدني مرضي على أن أُدْرِكَ أن ما كان مفقودًا في المجتمع كان مفقودًا في داخلي أنا أيضًا: قليل من الحُبِّ والمودة، وقليل من الأُخُوَّة..»[٣].

فالمؤاخاة أو الإخاء أو الأخوة من أروع القيم الإنسانية التي أرساها الإسلام للمحافظة على كيان المجتمع، وهي التي تجعل المجتمع وَحْدَةً متماسكة، وهي قيمة لم تُوجَدْ في أيِّ مجتمع؛ لا في القديم ولا في الحديث، وتعني: «أن يعيش الناس في المجتمع متحابِّينَ، مترابطين، متناصرين، يجمعهم شعور أبناء الأسرة الواحدة، التي يُحِبُّ بعضها بعضًا، ويشدُّ بعضها أزر بعضٍ، يحسُّ كلٌّ منها أن قوَّةَ أخيه قوَّةٌ له، وأن ضعفَه ضعفٌ له، وأنه قليل بنفسه كثيرٌ بإخوانه»[٤].

وقد تضافرت النصوص على صقل هذه القيمة وإبراز مكانتها وأثرها في بناء المجتمع المسلم، كما حثَّتْ على كل ما من شأنه تقويتها، ونَهَتْ عن كل ما من شأنه أن ينال منها؛ فقال تعالى مُقَرِّرًا عَلاقة الأُخُوَّة بالإيمان: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٥]، وذلك دون اعتبار لجنسٍ أو لون أو نسب، فاجتمع وتآخى بذلك سلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي مع إخوانهم العرب.

كما وصف القرآن الكريم هذه الأُخُوَّة بأنها نعمة من الله، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[٦].

---

(١) آتووتر: Lee Atwater (١٩٥١ - ١٩٩١م) مستشار سياسي واستراتيجي للحزب الجمهوري الأمريكي، وكان مستشارًا سياسيًّا للرئيس ريجان وبوش الأب.

(٢) رونالد ريجان: Ronald Reagan (١٩١١ - ٢٠٠٤م): هو الرئيس الأربعون للولايات المتحدة الأمريكية في الفترة ما بين (١٩٨١ - ١٩٨٩م)، كان ممثلاً سينمائيًّا ثانويًّا فاشلاً قبل أن يدخل في الحياة السياسية، وكان رئيسًا محبوبًا وشعبيًّا، أُعِيد انتخابه بالأغلبية المطلقة للمرة الثانية عام ١٩٨٤م.

(٣) نقلاً عن عبد الحي زلوم: إمبراطورية الشر الجديدة ص٣٩٧.

(٤) يوسف القرضاوي: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ص١٣٨.

(٥) (الحجرات: ١٠).

(٦) (آل عمران: ١٠٣).

وها هو ذا الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة - لَـمَّا كانت بداية المجتمع المسلم - بدأ بعد بناء المسجد مباشرة **بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار**، وقد سَجَّل القرآن الكريم هذه المؤاخاة التي ضربت المثل الرائع للحُبِّ والإيثار، فقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾**(١).

وفي بيان لصورة من تلك المُثُل الرائعة في الحُبِّ والإيثار جَرَّاء هذه المؤاخاة، تلك التي يعرض فيه أخ أنصاري على أخيه المهاجر نصف ماله وإحدى زوجتيه بعد أن يُطَلِّقَهَا له! وهو ما رواه أنس بن مالك ﷺ حيث قال: قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ المدينة فَآخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلَّنِي عَلَى السُّوقِ..»(٢).

ولدورها العظيم في تماسك بنيان المجتمع كان تحذير الله ﷻ واضحًا جليًّا لكل عمل يُوهِنُ الأُخُوَّة الإسلامية، فَحَرَّم التعالي والسخرية، فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾**(٣).

كما حرَّم التعريض بالعيوب والتفاخر بالأنساب، فقال تعالى: **﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**(٤).

وحرَّم كذلك الغيبة والنميمة وسوء الظنِّ؛ وهي من أسوأ عوامل هدم المجتمعات، فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ**

---

(١) (الحشر: ٩).

(٢) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه (٣٧٢٢)، والترمذي (١٩٣٣)، والنسائي (٣٣٨٨)، وأحمد (١٢٩٩٩).

(٣) (الحجرات: ١١).

(٤) (الحجرات: ١١).

الله تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[١].

وإذا ما حَدَثَ خصام أو مهاجرة، فإن الإسلام راح يُرَغِّبُ في كُلِّ ما يجمع القلوب ويدعم الوَحْدَة؛ وذلك بالدعوة إلى الإصلاح بين المتخاصمين؛ حيث قال ﷺ مُعَظِّمًا ومُرَغِّبًا في ذلك: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ؟!» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ»[٢].

بل إن الإسلام أباح الكذب للإصلاح بين المتخاصمين؛ لما في ذلك من جبر كيان المجتمع الإسلامي من أن يَتَصَدَّعَ، فقال ﷺ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»[٣].

وفوق ذلك رتَّبَ الإسلام على الأُخُوَّةِ مجموعة من الحقوق والواجبات، يلتزمها كل مسلم بمقتضى تلك العَلاقة، ويُكَلَّفُ بها على أنها دَيْنٌ يُحَاسَبُ عليه، وأمانة لا بُدَّ من أدائها، فقال النبي ﷺ يُوَضِّح ذلك: «لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا؛ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ... بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[٤].

ففي قوله ﷺ: «وَلاَ يَخْذُلُهُ». قال العلماء: الخذل ترك الإعانة والنصر، ومعناه: إذا استعان به في دفع ظالم ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه، ولم يكن له عذر شرعي[٥].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». فقال رجلٌ: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا، كيف أنصره؟ قال: «تَحْجُزُهُ أَوْ

---

(١) (الحجرات: ١٢).

(٢) أبو داود: كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين (٤٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩)، وأحمد (٢٧٥٤٨) وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح. وابن حبان (٥٠٩٢)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٢٥٩٥).

(٣) البخاري عن أم كلثوم بنت عقبة: كتاب الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس (٢٥٤٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه (٢٦٠٥).

(٤) مسلم عن أبي هريرة: كتاب الصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧١٣)، والبيهقي: السنن الكبرى (١١٨٣٠).

(٥) النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٦/ ١٢٠.

تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»(١).

فهل نرى مجتمعًا إنسانيًّا يقوى على أن يُلْزِمَ كلَّ فرد فيه بأن يسعى في حاجة أخيه، وأن ينصره مظلومًا، ويَرُدَّه عن ظلمه إن كان ظالمًا؟!

إنه فقط في المجتمع الإسلامي؛ حيث هذه الدرجة العالية من الأخوة وتَوَحُّد الإحساس، فيعمل كل فرد على تفريج ضوائق أخيه وحلِّ مشكلاته، ويقف منه موقف العون والمساندة، لا موقف التحاسد والتباغض، ويكون ملتزمًا بالإيجابية، وعلى هذا تكون المؤاخاة أساسَ وعنوانَ بناء وتماسُكِ المجتمع الإسلامي.

* * *

(١) البخاري: كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه (٦٥٥٢)، والترمذي (٢٢٥٥)، وأحمد (١١٩٦٧)، والدارمي (٢٧٥٣).

المبحث الثاني

التكافل

تفرض شريعة الإسلام على أتباعها المسلمين أن يَسُود بينهم التعاون والتكافل والتآزر في المشاعر والأحاسيس، فضلاً عن التكافل في الحاجات والمادِّيات، ومن ثَمَّ كانوا بهذا الدين كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا، كما روى أبو موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[1]. أو كالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، كما قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[2].

ومن ثَمَّ فإن التكافل الاجتماعي في الإسلام ليس مقصورًا على النفع المادِّي، وإن كان ذلك ركنًا أساسيًّا فيه، بل يتجاوزه إلى جميع حاجات المجتمع، أفرادًا وجماعات؛ مادِّيَّة كانت تلك الحاجة أو معنوية أو فكرية، على أوسع مدًى لهذه المفاهيم؛ فهي بذلك تتضمن جميع الحقوق الأساسية للأفراد والجماعات داخل الأُمَّة.

وتعاليم الإسلام كلها تؤكِّد التكافل بمفهومه الشامل بين المسلمين؛ ولذلك تجد المجتمع الإسلامي لا يَعْرِف فردية أو أنانية أو سلبية، وإنما يعرف إخاءً صادقًا، وعطاء كريمًا، وتعاونًا على البِرِّ والتقوى دائمًا[3].

والتكافل الاجتماعي في الإسلام ليس معنيًّا به المسلمين المنتمين إلى الأُمَّة المسلمة فقط، بل يشمل كل بني الإنسان على اختلاف مللهم واعتقاداتهم داخل ذلك المجتمع؛ كما قال الله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ

---

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا (٥٦٨٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٥).

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٦٦٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٦٥).

(٣) انظر: محمد الدسوقي: الوقف ودوره في تنمية المجتمع الإسلامي، سلسلة قضايا إسلامية، العدد (٤٦)، يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القسم الأول ص٥.

﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[(١)]؛ ذلك أن أساس التكافل هو كرامة الإنسان؛ حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[(٢)].

ومن تلك الآيات الجامعة في سياق التكافل والترابط بين أفراد المجتمع الإسلامي قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[(٣)]. قال القرطبي[(٤)]: «هو أمْرٌ لجميع الخَلْقِ بالتعاون على البرِّ والتقوى، أي لِيُعِن بعضكم بعضًا»[(٥)]. وقال الماوردي[(٦)]: «ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبِرِّ وقَرَنَه بالتقوى له؛ لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البرِّ رضا الناس، ومَنْ جَمَعَ بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمَّت سعادته وعمَّت نعمته»[(٧)].

وقد ذَكَرَ القرآنُ الكريم صراحة أنَّ في أموال الأغنياء حقًّا محدَّدًا يُعْطَى للمحتاجين؛ فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[(٨)]، ولقد تولَّى الشارع بنفسه تحديد هذا الحقِّ وبيانه، ولم يترك ذلك لجُود الموسرين، وكرم المحسنين، ومدى ما تنطوي عليه نفوسهم من رحمة، وما تحمله قلوبهم من رغبةٍ في البرِّ والإحسان، وحُبِّ فعل الخير[(٩)].

وهؤلاء المُحتاجون قد حدَّدتهم الآيات القرآنية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[(١٠)].

---

(١) (الممتحنة: ٨).

(٢) (الإسراء: ٧٠).

(٣) (المائدة: ٢).

(٤) القرطبي: (ت ٦٧١ هـ/ ١٢٧٣م) محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي المالكي القرطبي، من كبار المفسرين، وهو صاحب التفسير المشهور (الجامع لأحكام القرآن). مات بمنية بني خصيب من الصعيد الأدنى في مصر (شمال أسيوط). انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٣٢٢.

(٥) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٤٦، ٤٧.

(٦) الماوردي: (٣٦٤-٤٥٠ هـ/ ٩٧٤-١٠٥٨ م) هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، أقضى القضاة، كان إمامًا في الفقه والأصول والتفسير، ولي قضاء بلاد كثيرة. من مؤلفاته: «أدب الدنيا والدين»، و«الأحكام السلطانية». انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٦٥، والزركلي: الأعلام ٤/ ٣٢٧.

(٧) انظر: الماوردي: أدب الدنيا والدين ص١٩٦، ١٩٧.

(٨) (المعارج: ٢٤، ٢٥).

(٩) حسين حامد حسان: التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية ص٨.

(١٠) (التوبة: ٦٠).

ومن هنا تأتي أهمية الزكاة من حيث شمولها لمعظم أفراد المجتمع، وباعتبارها المنبع الأساسي الأوَّل لتغطية جانب التكافل والتعاون؛ فهي الفريضة الثالثة من فرائض الإسلام، ولا يُقبَل الإسلام بدونها، والزكاة تُطَهِّرُ نفس صاحبها وتزكِّيه؛ فهي منفعة له قبل أن تكون منفعةً لمن تُنفَق عليه، قال الله ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[١]. وما مِن شَكٍّ أن الزكاة كما تَنْزِع من نفس المزكِّي الحرصَ والبُخْلَ والشُّحَّ؛ تَنْزِعُ كذلك من نفس الفقير والمحتاج والمستحقِّ للزكاة الحقدَ والضغينةَ والبُغْضَ للأغنياء وأصحاب الثراء، وتُوجِدُ جَوًّا من الألفة والمحبَّة والتعاون والتراحم بين أفراد المجتمع الذي تُؤدَّى فيه هذه الفريضة العظيمة.

والشرع يُجِيزُ لِوَلِيِّ الأمر أن يأخذ من أموال الأغنياء ما يكفي حاجات الفقراء، كلٌّ بحسب قدرته المالية، ولا يجوز في مجتمع مسلم أن يبيت بعضهم شبعان ممتلئ البطن، وجاره إلى جنبه جائع، فعلى المجتمع ككل أن يُشَارِك بعضه بعضًا في الكفاف، كما قال الرسول ﷺ: «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ»[٢]. وقد قال الإمام ابن حزم[٣] في ذلك: «وفرض على الأغنياء من أهل كلِّ بلدٍ أن يقوموا بفقرائهم، ويُجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تَقُمِ الزكوات بهم، ولا في سائر أموال المسلمين، فيُقَام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بُدَّ منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنُّهم من المطر، والصيف والشمس، وعيون المارَّة»[٤].

ونظرة الإسلام للتكافل المادِّيِّ لا تتوقَّف بتوفير حدِّ الكفاف للمحتاجين، ولكنها تَعَدَّت ذلك إلى تحقيق حدِّ الكفاية، وهذا ما ظهر في قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: «كرِّروا عليهم الصدقة، وإن راح على أحدهم مائة من الإبل»[٥].

---

(١) (التوبة: ١٠٣).

(٢) الحاكم (٧٣٠٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والطبراني عن أنس بن مالك: المعجم الكبير (٧٥٠) واللفظ له، والبيهقي: شعب الإيمان (٣٢٣٨)، والبخاري: الأدب المفرد (١١٢)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٤٩).

(٣) ابن حزم الأندلسي: هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الظاهري (٣٨٤- ٤٥٦هـ/ ٩٩٤- ١٠٦٤م) أحد أئمة الإسلام، كان عالمًا بالفقه ملمًّا به، وهو من أتباع داود الظاهري يأخذ بظواهر النصوص. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٠/ ٩٣.

(٤) ابن حزم: المحلى ٦/ ٤٥٢، المسألة (٧٢٥).

(٥) المصدر السابق نفسه.

ومن الأحاديث النبوية التي تُوَضِّح فضل التكافل في المجتمع المسلم والحثّ عليه، ومكانة ذلك في الإسلام ما رواه أبو موسى الأشعري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا[١] فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»[٢]. قال ابن حجر في الفتح: أي هم مُتَّصِلُون بي[٣]. وذلك غاية الشرف للمسلم.

كما كان منها - أيضًا - ما رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٤].

قال النووي رحمه الله: «في هذا فضل إعانة المسلم وتفريج الكرب عنه وستر زَلاَّته، ويدخل في كشف الكربة وتفريجها مَنْ أزالها بماله أو جاهه أو مساعدته، والظاهر أنه يدخل فيه مَنْ أزالها بإشارته ورأيه ودلالته»[٥]. وهذا هو معنى التكافل في المجتمع المسلم.

فهو يعني أن يكون آحاد الشعب في كفالة جماعتهم، وأن يكون كلّ قادر أو ذي سلطان كفيلاً في مجتمعه يُمِدُّه بالخير، وأن تكون كل القوى الإنسانية في المجتمع متلاقية في المحافظة على مصالح الآحاد، ودفع الأضرار، ثم في المحافظة على دفع الأضرار عن البناء الاجتماعي وإقامته على أسس سليمة[٦]. كما يعني أن يعيش الناس بعضهم مع بعض في حالة تعاضد وترابط بين الأفراد والجماعة، وبين كل إنسان مع أخيه الإنسان[٧].

---

(١) أرملوا: أي: فني زادهم، وأصله من الرَّمْل كأنهم لصقوا بالرمل من القلَّة. انظر ابن حجر: فتح الباري ٥/ ١٣٠.

(٢) البخاري: كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض (٢٣٥٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأشعريين ﷺ (٢٥٠٠).

(٣) ابن حجر: فتح الباري ٥/ ١٣٠.

(٤) البخاري: كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه (٢٣١٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨٠).

(٥) النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم ١٦/ ١٣٥.

(٦) محمد أبو زهرة: التكافل الاجتماعي في الإسلام ص٧.

(٧) عبد العال أحمد عبد العال: التكافل الاجتماعي في الإسلام ص١٣.

هذا، وقد عدَّ الرسول ﷺ مساعدة المحتاجين والشعور بالمسئوليَّة تجاه أفراد المجتمع الذي نعيش فيه من أنواع الصدقات على النفس، فروى أبو ذرٍّ ﷺ: «عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ صَدَقَةٌ مِنْهُ عَلَى نَفْسِه». قلت: يا رسول الله، من أين أتصدَّق وليس لنا أموالٌ؟ قال: «لأَنَّ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ... تَهْدِي الأَعْمَى، وَتُسْمِعُ الأَصَمَّ وَالأَبْكَمَ حَتَّى يَفْقَهَ، وَتُدِلُّ الْمُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَةٍ لَهُ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهَا، وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ إِلَى اللَّهْفَانِ الْمُسْتَغِيثِ، وَتَرْفَعُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ...»[1]!

وإن مثل هذه القيم لتُعَدُّ عَلامات حضاريَّة بارزة سبق بها الإسلام كُلَّ النُّظُمِ والقوانين التي أَوْلَت هذا الأمر اهتمامًا بعد ذلك؛ فمَنْ كان يَسْمَع عن هداية الأعمى، وإسماع الأصمِّ والأبكم؟!

وقد حذَّر الرسول ﷺ من تقصير القادرين في قضاء حوائج الناس، فقد قال عمرو ابن مرة لمعاوية: إنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ إِمَامٍ يُغْلِقُ بَابَهُ دُونَ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْخَلَّةِ[2] وَالْمَسْكَنَةِ إِلاَّ أَغْلَقَ اللهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ دُونَ خَلَّتِهِ وَحَاجَتِهِ وَمَسْكَنَتِهِ»[3]. قال: فجعل معاوية رجلاً على حوائج النَّاس.

وعن جابر بن عبد الله وأبي طلحة الأنصاري رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنِ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ؛ إِلاَّ خَذَلَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنِ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ؛ إِلاَّ نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ»[4].

وفي تأصيل ذلك من أقوال الفقهاء المسلمين ما يدعو إلى العجب؛ فإنهم قد شرعوا أنه يَجِبُ على كل مسلم محاولة دفع الضرر عن غيره، فيجب قطع الصلاة لإغاثة ملهوف

---

(١) رواه أحمد (٢١٥٢٢) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وابن حبان (٣٣٧٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٦١٨)، والنسائي: السنن الكبرى (٩٠٢٧)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٤٠٣٨).

(٢) الخَلَّة: هي الحاجة والفقر.

(٣) الترمذي (١٣٣٢)، وأحمد (١٨٠٦٢)، وأبو يعلى (١٥٦٥)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٥٦٨٥).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٤٧٣٥)، والأوسط (٨٦٤٢)، وأبو داود (٤٨٨٤)، وأحمد (١٦٤١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٦٣٢)، وحسنه الألباني، انظر صحيح الجامع (٥٦٩٠)، والجامع الصغير وزيادته (١٠٦٢٧).

وغريق وحريق، فيُنقِذه من كلِّ ما يُعرِّضه للهلاك، فإن كان الشخص قادرًا على ذلك دون غيره فُرِضَتْ عليه الإغاثة فَرْض عَيْنٍ، أمَّا إذا كان هناك مَن يقدر على ذلك، كان ذلك عليه فرض كفاية، وهذا لا خلاف فيه بين الفقهاء(١).

وعلى هذا فالتكافل دِعَامَة أساسية من دعائم المجتمع الإسلامي، وهو يشمل صورًا كثيرة من التعاون والتآزر والمشاركة في سدِّ الثغرات؛ تتمثَّل بتقديم العون والحماية والنصرة والمواساة، وذلك إلى أن تُقضى حاجة المضطر، ويزول هَمُّ الحزين، ويندمل جرحُ المصاب، ويبرأ الجسدُ كاملاً من الآلام والأسقام.

* * *

---

(١) الشربيني الخطيب: مغني المحتاج ٤/ ٥، وابن قدامة: المغني ٧/ ٥١٥، ٨/ ٢٠٢.

المبحث الثالث

العدل

يُعَدُّ العدل من القيم الإنسانية الأساسية التي جاء بها الإسلام، وجعلها من مُقَوِّمَاتِ الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية، حتى جعل القرآنُ إقامةَ القسط - أي العدل - بين الناس هو هدف الرسالات السماوية كلها، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1]، وليس ثمة تنويه بقيمة القسط أو العدل أعظم من أن يكون هو المقصود الأول من إرسال الله تعالى رُسُله، وإنزاله كتبه؛ فبالعدل أُنْزِلَتِ الكتب، وبُعِثَتِ الرسل، وبالعدل قامت السموات والأرض[2].

وفي تقرير واضح وصريح لإحقاق العدل وتطبيقه ولو كُنَّا مبغضين لمن نَحْكُم فيهم، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[3]، ويقول أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[4]، قال ابن كثير[5]: «أي لا يحملنَّكم بُغْض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كُلِّ أَحَدٍ؛ صديقًا كان أو عدوًّا»[6].

فالعدل في الإسلام لا يتأثر بحُبٍّ أو بُغْضٍ، فلا يُفَرِّقُ بين حَسَب ونَسَب، ولا بين جاهٍ ومالٍ، كما لا يُفَرِّقُ بين مسلم وغير مسلم، بل يتمتَّعُ به جميعُ المقيمين على أرضه من المسلمين وغير المسلمين، مهما كان بين هؤلاء وأولئك من مودَّة أو شنآنٍ.

ولمَّا حاول أسامة بن زيد أن يتوسَّط لامرأة من قبيلة بني مخزوم ذات نسب؛ كي لا

---

(١) (الحديد: ٢٥).

(٢) يوسف القرضاوي: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ص١٣٣.

(٣) (النساء: ١٣٥).

(٤) (المائدة: ٨).

(٥) ابن كثير: هو أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٠١- ٧٧٤هـ/ ١٣٠٢- ١٣٧٣م) حافظ، مؤرخ، فقيه، ولد في قرية من أعمال بُصرى الشام، وتوفي بدمشق، من كتبه: «البداية والنهاية». انظر: الحسيني: ذيل تذكرة الحفاظ ص٥٧، ٥٨.

(٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٣.

تُقطَعَ يَدُها في جريمة سرقة، ما كان من رسول الله ﷺ إلاَّ أن غضب غضبًا شديدًا، ثم خطب خطبة بليغة أوضح فيها منهج الإسلام وعدله، وكيف أنه سوَّى بين كل أفراد المجتمع رؤساء ومرءوسين، فكان ممَّا قاله في هذه الخطبة: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ! لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»[١].

وقد روى الإمام أَحمد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه قال: أفاء الله ﷻ خيبر على رسول الله ﷺ، فأقرَّهم رسول الله ﷺ كما كانوا، وجعلها بينه وبينهم؛ فبعث عبد الله بن رواحة فخرصها[٢] عليهم، ثم قال لهم: «يا معشر اليهود، أنتم أبغض الخَلْقِ إليَّ، قتلتم أنبياء الله ﷻ، وَكَذَبْتُمْ على الله، وليس يحملني بغضي إيَّاكم على أن أحيف عليكم؛ قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر، فإن شئتم فلكم،وإن أبيتم فَلِي».فقالوا:بهذا قامت السموات والأرض، قد أخذنا[٣].

فرغم بُغض عبد الله بن رواحة ﷺ لليهود إلاَّ أنه لم يظلمهم، بل أعلنها لهم صريحة أنه لا يحيف عليهم، وما شاءوا أَخْذَهُ من أي القسمين من التمر فليأخذوه.

وهذا هو العدل في الإسلام، الذي هو ميزان الله على الأرض، به يُؤْخَذُ للضعيف حَقُّه، ويُنْصَفُ المظلومُ ممن ظلمه، ويُمَكَّن صاحب الحقِّ من الوصول إلى حَقِّه من أقرب الطرق وأيسرها، وهو واحد من القيم التي تنبثق من عقيدة الإسلام في مجتمعه؛ فلجميع الناس في مجتمع الإسلام حَقُّ العدالة وحقُّ الاطمئنان إليها.

وإذا كان الإسلام قد أَمَرَ بالعدل مع الناس - كُلِّ الناسِ كما رأينا في الآيات الأُوَلِ - العدل الذي لا يَعْرِفُ العاطفة؛ فلا يتأَثَّرُ بحُبٍّ أو بُغْضٍ، فإنه قد أمر بالعدل ابتداءً من

---

(١) البخاري: كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ (الكهف: ٩) (٣٢٨٨)، ومسلم: كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره (١٦٨٨).

(٢) خَرَصَ: أي قَدَّر وحزَّر ما على النخيل من الثمار تخمينًا، انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ٤/ ٣٤٤، وابن منظور: لسان العرب، مادة خرص ٧/ ٢١.

(٣) مسند أحمد (١٤٩٩٦)، وابن حبان (٥١٩٩) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والبيهقي: السنن الكبرى (٧٢٣٠)، والطحاوي: شرح معاني الآثار (٢٨٥٦)، وعبد الرزاق: المصنف (٧٢٠٢)، وصححه الألباني، انظر: غاية المرام (٤٥٩).

النفس، وذلك حين أمر المسلم بالموازنة بين حقِّ نفسه وحقِّ ربِّه وحقوق غيره، ويظهر ذلك حين صدَّق رسول الله ﷺ سلمان الفارسي لَمَّا قال لأخيه أبي الدرداء الذي جار على حقِّ زوجته بِتَرْكِها، ومداومة صيام النهار، وقيام الليل: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا؛ فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»[1].

وأَمَرَ الإسلامُ كذلك بالعدل في القول، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[2]، كما أمر بالعدل في الحكم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[3]، كما أمر بالعدل في الصُّلح، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[4].

وبقدر ما أَمَرَ الإسلامُ بالعدل وحثَّ عليه، حَرَّمَ الظلم أشدَّ التحريم، وقاومه أشدَّ المقاومة، سواء ظُلْم النفس أم ظُلْم الآخرين، وبخاصة ظُلْم الأقوياء للضعفاء، وظُلْم الأغنياء للفقراء، وظُلْم الحُكَّام للمحكومين، وكلَّما اشتدَّ ضعف الإنسان كان ظلمه أشدَّ إثمًا[5]؛ ففي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا»[6]. ويقول الرسول ﷺ لمعاذ: «... وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[7]. وقال: «ثَلاثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَالإِمَامُ الْعَادِلُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الْغَمَامِ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»[8]. وهكذا هو العدل.. ميزان السماء في مجتمع الإسلام.

---

(١) البخاري: كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له (١٨٣٢)، والترمذي (٢٤١٣).

(٢) (الأنعام: ١٥٢).

(٣) (النساء: ٥٨).

(٤) (الحجرات: ٩).

(٥) انظر: يوسف القرضاوي: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ص١٣٥.

(٦) مسلم من حديث أبي ذر ﷺ: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧)، وأحمد (٢١٤٥٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٠)، وابن حبان (٦١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٠٨٨)، والسنن الكبرى (١١٢٨٣).

(٧) البخاري: كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (٤٠٠٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (٢٧).

(٨) الترمذي: كتاب الدعوات، باب في العفو والعافية (٣٥٩٨) وقال: هذا حديث حسن. وابن ماجه (١٧٥٢)، وأحمد (٨٠٣٠) وقال شعيب الأرناءوط: صحيح بطرقه وشواهده.

المبحث الرابع

الرحمـــــة

إن أول ما يلفت الأنظار في كتاب الله ﷻ - وهو دستور المسلمين، وأهم مصادر التشريع - أن كل السور فيه - باستثناء سورة التوبة - قد صُدِّرت بالبسملة، وأُلحِق بالبسملة صفتا الرحمن الرحيم.. وليس يخفى على أحد أن تصدير كل السور بهاتين الصفتين أمر له دلالته الواضحة على أهمية الرحمة في التشريع الإسلامي، ولا يخفى على أحدٍ أيضًا التقارب في المعنى بين الرحمن والرحيم، والعلماء لهم تفصيلات كثيرة وآراء متعددة في الفرق بين اللفظين(١)، وكان من الممكن أن يجمع الله ﷻ مع صفة الرحمة صفة أخرى من صفاته، كالعظيم أو الحكيم أو السميع أو البصير، وكان من الممكن أن يجمع مع الرحمة صفة أخرى تحمل معنى آخر يُحقِّق توازنًا عند القارئ؛ بحيث لا تطغى عنده صفة الرحمة؛ وذلك مثل: الجبار أو المنتقم أو القهار، ولكن الجمع بين هاتين الصفتين المتقاربتين في بداية كل سور القرآن الكريم يعطي الانطباع الواضح جدًّا، وهو أن الرحمة مُقدَّمَة بلا منازع على كل الصفات الأخرى، وأن التعامل بالرحمة هو الأصل الذي لا ينهار أبدًا، ولا يتداعى أمام غيره من الأصول.

ويُؤَكِّد هذا المعنى ويُظهره أنَّ أول السور التي نراها في ترتيب القرآن الكريم(٢)، وهي الفاتحة، قد افتُتِحت بالبسملة - وفيها صفتا الرحمن الرحيم - كبقية السور، ثم نجد فيها صفتي الرحمن الرحيم قد تكرَّرَتا في السورة ذاتها، وهذا التصدير للقرآن الكريم بهذه السورة بالذات له دلالته الواضحة أيضًا، وكما هو معلوم فسورة الفاتحة هي السورة التي يجب على المسلم أن يقرأها في كل ركعة من ركعات صلاته كل يوم، ومعنى ذلك أن المسلم يُرَدِّدُ لفظ الرحمن مرتين على الأقل، ويُرَدِّدُ لفظ الرحيم مرتين على الأقل، فهذه أربع مرات يتذكَّر فيها العبد رحمة الله ﷻ في كل ركعة من ركعات الصلاة، وهذا يعني

(١) ابن حجر: فتح الباري، ١٣/ ٣٥٨، ٣٥٩.

(٢) ترتيب سور القرآن الكريم توقيفي، بمعنى أن الله ﷻ أوحى لرسوله ﷺ أن يرتب القرآن هذا الترتيب الذي بين أيدينا اليوم، مع أن الآيات والسور نزلت بترتيب مختلف. انظر: أبو عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٦٠.

ترديد صفة الرحمة في كل يوم ثمانٍ وستين مرة في خلال سبع عشرة ركعة تُمَثِّل الفروض التي على المسلم؛ مما يُعْطِي تصوُّرًا جيدًا لمدى الاحتفال بهذه الصفة الجليلة: صفة الرحمة.

وإن هذا يُفَسِّر لنا الكثير من الأحاديث التي ذكرها الرسول ﷺ، والتي تصف رحمة ربِّ العالمين، ومنها ما يرويه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ**»[(١)].

وهذا إعلانٌ واضح على أن الرحمة مقدمة على الغضب، وأن الرفق مُقَدَّم على الشدَّة.

وإضافة إلى ذلك كله فإن الله ﷻ قد بعث رسول الإسلام ﷺ رحمة للإنسانية ورحمة للعالمين، فقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[(٢)]، وقد أوضح ذلك في شخصه ﷺ وفي تعاملاته مع أصحابه وأعدائه على السواء؛ حتى إنه ﷺ قال محفِّزًا ومرغِّبًا على التَّخَلُّقِ بهذا الخُلُقِ وتلك القيمة النبيلة: «**لاَ يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ**»[(٣)]. وكلمة الناس لفظة عامَّة تشمل كُلَّ أَحَدٍ، دون اعتبارٍ لجنس أو دين، وفي ذلك قال العلماء: هذا عامٌّ يتناول رحمة الأطفال وغيرهم[(٤)]. وقال ابن بطال[(٥)]: «فيه الحضُّ على استعمال الرحمة لجميع الخَلْقِ؛ فيدخل المؤمن والكافر والبهائم؛ المملوك منها وغير المملوك، ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام والسقي والتخفيف في الحمل وترك التعدِّي بالضرب»[(٦)].

وقد أقسم الرسول ﷺ في حديث آخر قائلاً: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَضَعُ اللهُ رَحْمَتَهُ إِلاَّ عَلَى رَحِيمٍ**». قالوا: يا رسول الله، كلنا يرحم. قال: «**لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ صَاحِبَهُ؛ يَرْحَمُ النَّاسَ كَافَّةً**»[(٧)]. فالمسلم يرحم الناس كافَّة، أطفالاً ونساءً وشيوخًا، مسلمين وغير مسلمين.

---

(١) البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (البروج: ٢١، ٢٢) (٧١١٥)، واللفظ له، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى (٢٧٥١)، وفي رواية غلبت بدلاً من سبقت، البخاري: كتاب بدء الخلق (٣٠٢٢).

(٢) (الأنبياء: ١٠٧).

(٣) البخاري: كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٦٩٤١)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٩).

(٤) النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٥/ ٧٧.

(٥) ابن بطال: هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال، ويعرف أيضًا بابن اللجام، كان من أهل العلم والمعرفة والفهم، مليح الخط، حسن الضبط. شرح صحيح البخاري في عدَّة مجلدات، وتوفي سنة (٤٤٩هـ). انظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ٨٥، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٧.

(٦) المباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٦/ ٤٢.

(٧) مسند أبي يعلى (٤٢٥٨)، والبيهقي: شعب الإيمان (١١٠٦٠)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٦٧).

وقال أيضًا ﷺ: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[١]. وكلمة «مَنْ» تشمل كل مَن في الأرض.

وهكذا هي الرحمة في مجتمع المسلمين، تلك القيمة الأخلاقية العملية التي تُعَبِّرُ عن تعاطف الإنسان مع أخيه الإنسان، بل هي رحمة تتجاوز الإنسان بمختلف أجناسه وأديانه إلى الحيوان الأعجم، إلى الدواب والأنعام، وإلى الطير والحشرات!

فقد أعلن النبي ﷺ أن امرأة دخلت النار لأنها قَسَتْ على هِرَّةٍ ولم ترحمها، فقال ﷺ: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا؛ فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»[٢].

كما أعلن ﷺ أن الله ﷻ غفر لرجل رحم كلبًا فسقاه من العطش، فقال ﷺ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ؛ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي. فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ». قالوا: يا رسول الله، وإنَّ لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[٣].

بل إن الرسول ﷺ أعلن لأصحابه أن الجنة فَتَحَتْ أبوابها لزانية تحرَّكَتِ الرحمة في قلبها نحو كلب! فقال ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ[٤] بِرَكِيَّةٍ[٥] كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ[٦] مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا[٧]، فَسَقَتْهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»[٨].

---

(١) الترمذي عن عبد الله بن عمرو: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين (١٩٢٤)، وأحمد (٦٤٩٤)، والحاكم (٧٢٧٤)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٣٥٢٢).

(٢) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (٣١٤٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٦١٩).

(٣) البخاري: كتاب المساقاة والشرب، باب فضل سقي الماء (٢٢٣٤)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٤).

(٤) يُطيف: يدور، طاف بالمكان وأطافَ به اسْتدار وجاء من نواحِيه وحامَ حَوْله، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة طوف ٩/ ٢٢٥.

(٥) رَكِيَّة: البئر مطوية أو غير مطوية، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ركا ١٤/ ٣٣٣.

(٦) بَغِيّ: الزانية، وتطلق على الأَمَةِ مطلقًا، لأن الإماء كنَّ يَفْجُرْنَ، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة بغا ١٤/ ٧٥.

(٧) المُوقُ: الذي يُلبس فوق الخف، وهي كلمة فارسية معربة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة موق ١٠/ ٣٥٠.

(٨) البخاري: كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ (٣٢٨٠)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٥).

وإن المرء ليدهش: وما كلب ارتوى إلى جانب جريمة زنا؟! لكن الحقيقة تكمن فيما وراء الفعل، وهي الرحمة التي في قلب الإنسان، والتي على ضوئها تأتي أفعاله وأعماله، ومدى أثرِ وقيمةِ ذلك في المجتمع الإنساني بصفة عامَّة.

وممَّا جاء به الإسلام من الرحمة كذلك دعوته إلى رحمة الحيوان الأعجم من أن يُجوَّع أو يُحمَّل فوق طاقته! فقد قال ﷺ في رحمة بالغة حين مَرَّ على بعير قد لحقه الهزال: «**اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ... فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً**»[1].

وقال رجل: يا رسول الله، إنِّي لأرحم الشَّاة أن أذبحها. فقال: «**وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ**»[2].

ويتجاوز الإسلام الرحمة بالبهائم إلى الرحمة بالطيور الصغيرة التي لا ينتفع بها الإنسان كنفعه بالبهائم، فتراه ﷺ يقول في عصفور: «**مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ إِلَى اللهِ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّ فُلاَنًا قَتَلَنِي عَبَثًا، وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ**»[3]!

ويروي المؤرخون أن عمرو بن العاص في فتح مصر نزلت حمامة بفسطاطه (خيمته) فاتخذت من أعلاه عُشًّا، وحين أراد عمرو الرحيل رآها، فلم يشأ أن يهيجها بتقويضه، فتركه وتكاثر العمران من حوله، فكانت مدينة (الفسطاط).

كما يروي ابن عبد الحكم[4] في سيرة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أنه نهى عن ركض الفرس إلاَّ لحاجة، وأنه كتب إلى صاحب السِّكَكِ أن لا يحملوا أحدًا بلجام ثقيل، ولا ينخس بمقرعة في أسفلها حديدة. وكتب إلى واليه بمصر: أنه بلغني أن بمصر إبلاً نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا، فلا أعرفن أنه يحمل على

---

(١) أبو داود: كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم (٢٥٤٨)، وأحمد (١٧٦٦٢) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح. وابن حبان (٥٤٦)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٣).

(٢) أحمد (١٥٦٣٠)، والحاكم (٧٥٦٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والطبراني: المعجم الكبير (١٥٧١٦). وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦٤).

(٣) النسائي عن الشريد بن سويد (٤٤٤٦)، وأحمد (١٩٤٨٨)، وابن حبان (٥٩٩٣)، والطبراني: المعجم الكبير ٦/ ٤٧٩، وقال الشوكاني: هو حديث مروي من طرق قد صحح الأئمة بعضها. انظر: الشوكاني: السيل الجرار ٤/ ٣٨٠.

(٤) ابن عبد الحكم: (١٨٧هـ - ٢٥٧هـ) محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو القاسم، مؤرخ وفقيه مالكي. مصري المولد والوفاة. انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ٢٨٢.

البعير أكثر من ستمائة رطل[١].

وهكذا هي الرحمة في المجتمع الإسلامي.. حيث تمكَّنت من قلوب أفراده وبنيه، فتراهم يَرِقُّوَن للضعيف، ويألمون للحزين، ويَحِنُّونَ على المريض، ويَئِنُّونَ للمحتاج، وإن كان حيوانًا أعجمًا.. وبهذه القلوب الحيَّة الرحيمة يصفو المجتمع، ويَنْبُو عن الجريمة، ويُصبح مَصْدَرَ خيرٍ وبِرٍّ وسلام لِمَا حوله ومَنْ حوله.

* * *

(١) انظر: محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ١/ ١٤١.

الفصل الخامس

المسلمون والعلاقات الدولية

لم تقتصر الأنظمة في الحضارة الإسلامية على معالجة شئون المسلمين وشئون غير المسلمين في الدولة الإسلامية فقط، وإنما اهتمَّت -كذلك- بتنظيم عَلاقة المسلمين بغيرهم من الشعوب والدول الأخرى، وقد كان لها في ذلك أسس ومبادئ لما يجب أن تكون عليه هذه العَلاقات، وذلك حالَ السِّلْمِ والحرب على السواء، تلك الحالات التي تَتَجَلَّى فيها عظمة الحضارة الإسلامية، وتعلو إنسانيتها خَفَّاقة.

ونستطيع أن نتلمَّس بعضًا من ذلك من خلال المباحث التالية:

- المبحث الأول: السلام الأصل في الإسلام
- المبحث الثاني: المعاهدات مع غير المسلمين
- المبحث الثالث: أسباب وأهداف الحرب في الإسلام
- المبحث الرابع: أخلاقيات الحرب في الإسلام

***

المبحث الأول

السلام الأصل في الإسلام

السلام هو حقًّا الأصل في الإسلام، وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين به المصدِّقين برسوله قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[١]، والسلم هنا هو الإسلام[٢]، وقد عبَّر عن الإسلام بالسلم لأنه سلام للإنسان؛ سلامٌ له في نفسه، وفي بيته، وفي مجتمعه، ومع من حوله؛ فهو دين السلام.

ولا غَرْوَ حين نجد أن كلمة الإسلام مُشْتَقَّة من (السلم)، وأن السلام من أَبْرَزِ المبادئ الإسلامية، إن لم يكن أبرزها على الإطلاق، بل من الممكن أن يرقى ليكون مُرَادِفًا لاسم الإسلام نفسه؛ باعتبار أصل المادَّة اللغوية[٣].

فالسلم في الإسلام هو الحالة الأصلية التي تُهَيِّئُ للتعاون والتعارف وإشاعة الخير بين الناس عامَّة، وإذا احتفظ غير المسلمين بحالة السلم، فهم والمسلمون في نظر الإسلام إخوان في الإنسانية[٤]، فالأمان ثابتٌ بين المسلمين وغيرهم، لا ببذل أو عقد، وإنما هو ثابت على أساس أن الأصل السلم، ولم يطرأ ما يهدم هذا الأساس من عدوان على المسلمين[٥].

ومن الواجب على المسلمين حينذاك أن يُقيموا عَلاقات المودَّة والمحبَّة مع غيرهم من أتباع الديانات الأخرى والشعوب غير المسلمة؛ نزولاً عند هذه الأُخُوَّة الإنسانية، وانطلاقًا من الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[٦]، فتَعَدُّد هذه الشعوب ليس للخصومة والهدم؛ وإنما هو مَدْعَاة للتعارف والتوادِّ والتحابِّ[٧].

---

(١) (البقرة: ٢٠٨).

(٢) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٦٥.

(٣) انظر: محمد الصادق عفيفي: الإسلام والعلاقات الدولية ص١٠٦، وظافر القاسمي: الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام ص١٥١.

(٤) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة ص٤٥٣.

(٥) انظر: صبحي الصالح: النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ص٥٢٠.

(٦) (الحجرات: ١٣).

(٧) جاد الحق: مجلة الأزهر ص٨١٠ ديسمبر ١٩٩٣م.

ويشهد لهذا الاتجاه العديدُ من الآيات القرآنية التي أَمَرَتْ بالسِّلْم مع غير المسلمين إنْ أَبْدَوُا الاستعداد والميل للصُّلْحِ والسلام؛ فيقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[1]، وهذه الآية الكريمة تُبَرْهِنُ بشكل قاطع على حُبِّ المسلمين وإيثارهم لجانب السِّلْم على الحرب، فمتى مال الأعداء إلى السِّلْمِ رَضِيَ المسلمون به، ما لم يكن من وراء هذا الأمر ضياعُ حقوقٍ للمسلمين أو سلبٍ لإرادتهم.

قال السُّدِّي[2] وابن زيد[3]: معنى الآية: إن دَعَوْكَ إلى الصلح فأجبهم[4]. والآية التالية لهذه الآية تُؤَكِّد حرص الإسلام على تحقيق السلام، حتى لو أظهر الأعداء السلم وأبطنوا الخيانة، يقول تعالى يخاطب رسوله الكريم: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[5]، أي أن الله يتولَّى كفايتك وحياطتك[6].

وقد كان الرسول ﷺ يعتبر السلام من الأمور التي على المسلم أن يحرص عليها ويسأل الله أن يرزقه إيَّاها، فكان يقول ﷺ في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ..»[7]. بل خطب ذات يوم في الصحابة قائلاً: "لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا"[8]. كما كان ﷺ يكره كلمة حرب، فقال: «أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ: عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا: حَارِثٌ وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا: حَرْبٌ وَمُرَّةُ»[9].

---

(١) (الأنفال: ٦١).

(٢) السدي: هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي (ت ١٢٨هـ/ ٧٤٥م) تابعي، حجازي الأصل، سكن الكوفة، قال فيه ابن تغري بردي: «صاحب التفسير والمغازي والسير، وكان إمامًا عارفًا بالوقائع وأيام الناس». انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١/ ٣٩٠.

(٣) ابن زيد: هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت نحو ١٧٠هـ/ ٧٨٦م) فقيه، محدث، مفسر، له من الكتب: «الناسخ والمنسوخ»، و«التفسير». توفي في أول خلافة هارون الرشيد. انظر: ابن النديم: الفهرست ١/ ٣١٥.

(٤) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣٩٨، ٣٩٩.

(٥) (الأنفال: ٦٢).

(٦) راجع في هذا المعنى القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٠٠.

(٧) أبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٧٤)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وأحمد (٤٧٨٥) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات. وابن حبان (٩٦١)، ورواه البخاري في الأدب المفرد (١٢٠٠)، والطبراني في الكبير (١٣٢٩٦)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٤٠١)، وصححه الألباني، انظر: صحيح وضعيف سنن أبي داود (٥٠٧٤).

(٨) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر... (٢٨٠٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء (١٧٤٢).

(٩) أبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء (٤٩٥٠)، والنسائي (٣٥٦٨)، وأحمد (١٩٠٥٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٨١٤)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٠٤٠).

المبحث الثاني
المعاهدات مع غير المسلمين

من منطلق السلم والسلام كانت معاهدات المسلمين مع غيرهم، والتي بها ومن خلالها يصير الفريقان - المسلمون مع غيرهم - في مرحلة سلم، أو مهادنة وموادعة.

«وإذا كان الأصل في العَلاقة هو السلم، فالمعاهدات تكون إمَّا لإنهاء حربٍ عارضة والعود إلى حال السلم الدائم، أو أنها تقرير للسلم وتثبيت لدعائمه؛ لكيلا يكون من بعد ذلك العهد احتمال اعتداء، إلاَّ أن يكون نقضًا للعهد»[١].

وعبر عصور طويلة مارست الدول الإسلامية توقيع الاتفاقيات والمعاهدات مع الدول غير الإسلامية، وتضمنت تلك الاتفاقيات التزامات وقواعد وشروطًا ومبادئ عديدة، بشكل يُمَثِّلُ تَطَوُّرًا في القانون الدولي الإسلامي.

والمعاهدات هي تلك الاتفاقات أو العهود أو المواثيق التي تعقدها الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول في حالتي السلم والحرب، وتُسَمَّى المعاهدة في الحالة الأخيرة موادعة أو مصالحة أو مسالمة، ويُقَرَّرُ بمقتضاها الصلحُ على تَرْك الحرب، لقوله ﷻ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[٢].

ومن المعاهدات التي وُقِّعَتْ بين الدول الإسلامية وغيرها ما عاهد عليه رسول الله ﷺ يهود المدينة عند قُدُومِهِ إليها، وجاء في هذا العهد: إن اليهود يُنْفِقُون مع المؤمنين، ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أُمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم؛ مواليهم وأنفسهم، إلاَّ مَنْ ظَلَمَ وأَثِمَ، فإنه لا يُوتِغُ[٣] إلاَّ نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار، وبني الحارث، وبني ساعدة، وبني جشم، وبني الأوس، وبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن بطانة يَهُودَ كأنفسهم، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على مَنْ حارب هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة

(١) محمد أبو زهرة: العلاقات الدولية في الإسلام ص٧٩.
(٢) (الأنفال: ٦١).
(٣) يوتغ: أي يُهْلك، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وتغ ٨/ ٤٥٨.

والبِرُّ دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن الجار كالنفس غير مضارٍّ ولا آثم، وإن الله على أتْقَى ما في هذه الصحيفة وأَبَرّه، وإن بينهم النصر على مَنْ دَهَمَ يثرب، وإذا دُعُوا إلى صلح فإنهم يُصَالِحون، وإذا دُعُوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلاَّ مَنْ حارب في الدين على كل أناس حِصَّتَهم من جانبهم الذي قِبَلَهُمْ، وإنه لا يَحُولُ هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإن الله جارٌ لمن بَرَّ واتَّقى»[١].

ويتبين من هذا العهد أنه كان لتقرير حالة السلم بين اليهود والمسلمين، كما أنه أمان بينهم لضمان عدم وقوع الحروب، كما يظهر من هذه المعاهدة أنها كانت «لحُسْنِ الجِوَارِ، ولتثبيت دعائم العدل، ويلاحظ أن فيها نصًّا صريحًا على نصر المظلوم، فهو عهد عادل لإقامة السلم وتثبيته بالعدل ونصر الضعيف»[٢].

وقد أوردت كتب السيرة كنوزًا عِدَّة من أمثال هذه المعاهدات، وكان منها على سبيل المثال المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع نصارى نجران، والتي جاء فيها: «**وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا جِوَارُ اللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَأَرْضِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ وَتَبَعِهِمْ... وَكُلِّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ..**»[٣].

وكذلك معاهدته ﷺ مع بني ضَمْرَة[٤]، وكان على رأسهم آنذاك مخشي بن عمرو الضمري، وأيضًا عاهد رسول الله ﷺ بني مدلج، الذين يعيشون في منطقة ينبع، وذلك في جُمَادى الأُولَى من السنة الثانية من الهجرة[٥]، وفعل نفس الشيء أيضًا مع قبائل جهينة، وهي قبائل كبيرة تسكن في الشمال الغربي للمدينة المنورة[٦].

ومن المعاهدات الإسلامية أيضًا عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ لأهل إيلياء (بيت المقدس)[٧].

---

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٠٣، ٥٠٤، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ٣٢٣.
(٢) محمد أبو زهرة: العلاقات الدولية في الإسلام ص٨١.
(٣) البيهقي: دلائل النبوة، باب وفد نجران ٥/ ٤٨٥، وأبو يوسف: الخراج ص٧٢، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٨٨.
(٤) قبيلة بني ضمرة: من القبائل العربية من بطون عدنان، والتي تسكن في منطقة ودان غرب المدينة المنورة.
(٥) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٤٣.
(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٧٢.
(٧) وللاطلاع على نص المعاهدة انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٤٤٩، ٤٥٠.

وبالنظر إلى هذه المعاهدات وغيرها نجد أن المسلمين إنما يحاولون العيش في جَوٍّ هادئ مسالمٍ مع مَنْ يجاورونهم، وأنهم لم يَسْعَوْا لقتال قَطُّ، بل كانوا دائمًا مؤْثِرين السلم على الحرب، والوفاق على الشقاق.

هذا، وقد أنشأ الإسلام ضوابط وشروطًا للمعاهدات تَضْمَنُ لها أن تكون موافِقَةً للشريعة، وللهدف الذي مِنْ أَجْلِهِ أُجِيزَت.

يقول الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت[1] رحمه الله: والإسلام حينما يترك للمسلمين الحقَّ في إنشاء المعاهدات - لِمَا يَرَوْنَ من أغراض - يشترط في صحَّة المعاهدة ثلاثة شروط:

أوَّلاً: ألاَّ تمسَّ قانونه الأساسي وشريعته العامَّة، التي بها قِوَامُ الشخصية الإسلامية، وقد جاء في ذلك قوله ﷺ: «**كُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ**»[2]. ومعناه أن كتاب الله يرفضه ويأباه.

ومن خلال هذا الشرط لا يَعْتَرِفُ الإسلامُ بشرعية معاهدةٍ تُسْتَبَاحُ بها الشخصية الإسلامية، وتفتحُ للأعداء بابًا يُمَكِّنُهم من الإغارة على جهات إسلامية، أو يُضْعِفُ من شأن المسلمين؛ بتفريق صفوفهم، وتمزيق وَحْدَتهم.

ثانيًا: أن تكون مبنية على التراضي من الجانبين، ومن هنا لا يرى الإسلام قيمة لمعاهدة تنشأ على أساس من القهر والغلبة وأزيز (النفاثات)، وهذا شرط تُمْلِيهِ طبيعة العقد؛ فإذا كان عقد التبادل في سلعة ما - بيعًا وشراءً - لا بُدَّ فيه من عنصر الرضا: ﴿**إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ**﴾[3]، فكيف بالمعاهدة، وهي للأُمَّة عقد حياة أو موت.

ثالثًا: أن تكون المعاهدة بيِّنة الأهداف، واضحة المعالم، تُحَدِّدُ الالتزامات والحقوق تحديدًا لا يَدَعُ مجالاً للتأويل والتخريج واللعب بالألفاظ، وما أُصِيبت معاهدات الدول

---

(١) محمود شلتوت (١٣١٠ - ١٣٨٣هـ/ ١٨٩٣ - ١٩٦٣م): فقيه مفسر مصري، ولد بالبحيرة، وتخرج بالأزهر، عُيِّن وكيلاً لكلية الشريعة، ثم شيخًا للأزهر (١٩٥٨م) إلى وفاته.

(٢) البخاري: كتاب الشروط، باب المكاتب وما لا يحل من الشروط التي تخالف كتاب الله (٢٥٨٤)، ومسلم: كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق (١٥٠٤)، وابن ماجه عن عائشة (٢٥٢١) واللفظ له.

(٣) (النساء: ٢٩).

المتحضِّرة -التي تزعم أنها تسعى إلى السلم وحقوق الإنسان- بالإخفاق والفشل، وكان سببًا في النكبات العالمية المتتابعة، إلاَّ عن هذا الطريق، طريق الغموض والالتواء في صوغ المعاهدات وتحديد أهدافها. وفي التحذير من هذه المعاهدات يقول الله تعالى: ﴿وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾[1]، والدخل هو الغش الخفيُّ يدخل في الشيء فيفسده[2].

وقد أَكَّدَتِ الآيات القرآنية وأحاديث الرسول ﷺ على وجوب الوفاء بالعهد، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا﴾[4]، وأيضًا: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[5]، وغيرها الكثير من الآيات التي تشير إلى هذا المعنى العظيم.

وأمَّا ما جاء في أحاديث الرسول ﷺ فمنه ما رواه عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعُ خِلاَلٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا»[6]. وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[7]. وثبت عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلاَ يَحُلَّنَّ عَهْدًا، وَلاَ يَشُدَّنَّهُ، حَتَّى يَمْضِيَ أَمَدُهُ، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ»[8]. وفي سنن أبي داود[9]

---

(١) (النحل: ٩٤).

(٢) توفيق علي وهبة: المعاهدات في الإسلام ص١٠٠، ١٠١.

(٣) (المائدة: ١).

(٤) (الأنعام: ١٥٢).

(٥) (الإسراء: ٣٤).

(٦) البخاري: كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر (٣٠٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٥٨).

(٧) البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم الغادر للبر والفاجر (٣٠١٥)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر (١٧٣٥).

(٨) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد (٢٧٥٩)، والترمذي عن عمرو بن عبسة (١٥٨٠) واللفظ له، وأحمد (١٩٤٥٥)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٦٤٨٠).

(٩) أبو داود: هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني المشهور بأبي داود (٢٠٢- ٢٧٥هـ)، إمام أهل الحديث في زمانه، وهو صاحب كتابه المشهور بسنن أبي داود. ولد في سجستان من بلاد فارس، وتوفي بالبصرة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٠٣.

عن رسول الله ﷺ قَالَ: «أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

والفقهاء -وهم يَرَوْنَ أن الجهاد يكون مع الأمير الصالح والفاسق- يذهب أكثرُهم إلى أنَّ الجهادَ لا يكون مع الأمير الذي لا يلتزم الوفاء بالعهود، وعلى خلاف القانون الدولي في الحضارة المعاصرة فإن تَغَيُّرَ الظروف لا يُبَرِّر نكث العهد، وحتى إذا عجز المسلمون في ظروف مُعَيَّنَة عن الوفاء بالتزاماتهم يجب عليهم مراعاة التزامات الطرف الثاني، ومن هذا الباب القصة المشهورة عندما استولى القائد المسلم أبو عبيدة بن الجراح على حمص، وأخذ من أهلها الجزية، ثم اضطر إلى الانسحاب منها فردَّ الجزية التي أخذها من السكَّان، وقال: «إنما رددنا عليكم أموالكم؛ لأنه بلغنا ما جُمِعَ لنا من الجموع، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك.. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم»(٢).

والأمثلة كثيرة من هذا النوع في التاريخ الإسلامي؛ فتغيُّر الظروف والمصلحة القومية لا تبرِّر في الإسلام نقض العهد، كما لا يُبرِّره أن يرى المسلمون أنفسهم في مركز القوة تجاه الطرف الثاني، وقد ورد النص الصريح في القرآن يؤكِّد ذلك، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(٣)، مع الأخذ في الاعتبار بأن ذلك التشديد على المسلمين بالوفاء بالعهد كان في وقت وفي بيئة لم تكن القاعدة فيهما الوفاء بالعهود(٤).

هذا هو حُكْمُ الإسلام في المعاهدات التي تُوَقِّعُها الدولة الإسلامية مع الدول الأخرى لحفظ السلام؛ فنحن مطالَبُون بالوفاء بها، والمحافظة عليها، وعدم نقضها، إلاَّ إذا نقضها العدوُّ، أمَّا إذا لم ينقضها، ولم يُظَاهِر على عداء المسلمين، فعلى المسلمين الوفاء لهم لقوله ﷻ: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ

---

(١) أبو داود: كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٢)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٢٦٥٥).

(٢) أبو يوسف: الخراج ص٨١.

(٣) (النحل: ٩١).

(٤) صالح بن عبد الرحمن الحصين: العلاقات الدولية بين منهج الإسلام والمنهج الحضاري المعاصر ص٥١.

أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾[١].

يقول الشيخ محمود شلتوت: إن «الوفاء بالمعاهدة واجب ديني، يُسأل عنه المسلم فيما بينه وبين الله، ويكون الإخلال بها غدرًا وخيانة»[٢].

وبهذا يكون الإسلام قد سبق كل الأمم الأخرى بتشريعاتها في مجال تقنين المعاهدات الدولية، بل وتميَّز عنها في عدالته وسماحته مع أعدائه، والأهمُّ أن ذلك السبق كان عمليًّا ولم يكن مجرَّد تنظير، ويدلُّ على ذلك ما وَقَّعَه المسلمون من معاهدات مع أعدائهم بداية من عصر الرسول ﷺ مرورًا بعصر الخلفاء الراشدين، ثُم من بعدهم من عصور إسلامية.

وأمَّا في **تأمين الرسل** فقد جاء التشريع الإسلامي غاية في الوضوح في هذا الأمر، ودلَّت النصوص الصريحة والأفعال التي قام بها النبي ﷺ على عدم جواز قتل الرسل بأي حال من الأحوال، وقد ألزم فقهاء الشريعة الإسلامية إمام المسلمين بتوفير الحماية لشخص الرسول، وضمان تمتُّعه بحُرِّيَّة العقيدة وأداء أعماله بحُرِّيَّة تامَّة[٣].

ويترتَّب على ضمان حماية شخص الرسول عدم جواز القبض عليه كأسير، كما لا يجوز تسليمه لدولته إذا طلبته ورفض هو ذلك، حتى وإن هُدِّدت دار الإسلام بالحرب؛ لأن تسليمه يُعَدُّ غدرًا به، ولأنه يتمتَّع بالحماية في دار الإسلام[٤].

ولمهمَّة الرسول دور كبير في عقد الصلح أو التحالف أو منع حدوث حرب، ولهذا فإنه ينبغي أن تتوافر له السبل والمستلزمات كافَّة، لا لشخصه، وإنما من أَجْلِ أداء مُهِمَّته المكلَّف بها، فهو يُعَبِّر عن مُرْسِلِهِ، وإن كان له رأي آخر ما دام قد قَبِلَ أداء هذه المهمَّة، وعلى المُرْسَل إليه مراعاة هذه الحالة.

فقد روى أبو رافع فقال: بعثتني قريش إلى النبي محمد ﷺ، فلمَّا رأيتُه وقع في قلبي الإسلام، فقلتُ: يا رسول الله، والله لا أرجع إليهم أبدًا. فقال ﷺ: «**إِنِّي لا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ،**

---

(١) (التوبة: ٤).

(٢) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة ص٤٥٧.

(٣) انظر: ابن حزم: المحلى ٤/ ٣٠٧.

(٤) عبد الكريم زيدان: الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام ص١٦٩.

وَلاَ أَحْبِسُ الْبُرُدَ[١]، وَارْجِعْ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِيهِ الآنَ فَارْجِعْ»[٢].

وقد أورد الهيثمي[٣] في كتابه (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) مجموعة من الأحاديث تحت باب سمَّاه: (باب النهي عن قتل الرسل)، منها: ما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ قال حين قتل ابن النواحة: إن هذا وابن أثال كانا أتَيا النبي ﷺ رسولين لمسيلمة الكذاب فقال لهما رسول الله ﷺ: «أَتَشْهَدَانِ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟». فقالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله. قال: «لَوْ كُنْتُ قَاتِلاً رَسُولاً لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا»[٤]. قال الهيثمي: فَجَرَتِ السُّنَّة أن الرسل لا تُقْتَلُ[٥].

وبذلك يكون الإسلام قد سبق المجتمعات الغربية بأكثر من ١٤٠٠ سنة في وضع القواعد الإنسانية الحضارية للرُّسُلِ، تلك المجتمعات التي لم تعترف بهذه القاعدة حتى وقت قريب[٦]!

***

---

(١) أخيس أي: لا أنقض العهد ولا أفسده، من قولهم: خاس الشيء إذا فسد. البرد: جمع بريد وهو الرسول، انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ٧/ ٣١١.

(٢) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الإمام يستجن به في العهود (٢٧٥٨)، وأحمد (٢٣٩٠٨) وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح.

(٣) ابن حجر الهيثمي: هو أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الشافعي المصري (٧٣٥- ٨٠٧هـ/ ١٣٣٥- ١٤٠٥م)، الحافظ المحدث، أشهر كتبه مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. انظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ٢٦٦.

(٤) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الرسل (٢٧٦١)، وأحمد (٣٧٠٨)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح. والدارمي (٢٥٠٣)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن، ولكن الحديث صحيح.

(٥) الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٥/ ٣٧٨.

(٦) انظر: سهيل حسين القتلاوي: دبلوماسية النبي محمد ﷺ دراسة مقارنة بالقانون الدولي المعاصر ص١٨٢.

المبحث الثالث
أسباب وأهداف الحرب في الإسلام

كما مَرَّ بنا فالسلم هو الأصل في الإسلام، وقد كان الرسول ﷺ يُعَلِّمُ أصحابه ويوجِّهَهُم فيقول لهم مربيًا: «لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ..»[(١)].

فالمسلم بطبيعة تربيته الأخلاقية التي يتربَّى عليها من خلال القرآن الكريم وسُنَّة النبي ﷺ يَكْرَهُ القتل والدماء، ومن ثَمَّ فهو لا يبدأ أحدًا بقتال، بل إنه يسعى بِكُلِّ الطرق لتَجَنُّبِ القتال وسفك الدماء، وفي آيات القرآن الكريم ما يُؤَيِّد هذا المعنى جيِّدًا، فالإذن بالقتال لم يأتِ إلاَّ بعد أن بُدِئَ المسلمون بالحرب، وحينئذٍ لا بُدَّ من الدفاع عن النفس والدين، وإلاَّ كان هذا جُبْنًا في الخُلُق، وخورًا في العزيمة، قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾[(٢)]، وعلَّة القتال واضحة في الآية، وهي أن المسلمين ظُلِموا وأُخرِجوا من ديارهم بغير حقٍّ.

ويقول ﷻ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[(٣)]، يقول القرطبي: هذه الآيةَ أَوَّل آية نَزَلَتْ في الأمر بالقتال، ولا خلاف في أن القتال كان محظورًا قبل الهجرة بقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾[(٥)]، وما كان مثله ممَّا نزل بمكة، فلمَّا هاجر إلى المدينة أُمِرَ بالقتال[(٦)].

والملاحَظُ أن الأمر بالقتال هنا إنما جاء لمحاربة مَنْ بدأ بالقتال فقط، دون المسالِم، وجاء التأكيد الشديد على ذلك المعنى بقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾، ثم التحذير

---

(١) البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى: كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمس (٢٨٠٤) واللفظ له، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء (١٧٤٢).

(٢) (الحج: ٣٩، ٤٠).

(٣) (البقرة: ١٩٠).

(٤) (فصلت: ٣٤).

(٥) (المائدة: ١٣).

(٦) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٧١٨.

للمؤمنين: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، فالله ﷻ لا يُحِبُّ الاعتداء، ولو كان على غير المسلمين، وفي هذا تحجيم كبير لاستمرار القتال، وهذا فيه من الرحمة بالإنسانية جميعًا ما فيه.

ويقول الله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾[١]، فالقتال هنا مقيَّد، وبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرضُ اجتماعِنا لهم[٢]، وعِلَّة قتال المشركين كَافَّة أنهم يقاتلون المسلمين كافَّة، ومن هنا فإنه لا يجوز للمسلم أن يُقَاتِلَ مَنْ لم يقاتِلْه إلاَّ بِعِلَّة واضحة، كَسَلْبٍ أو نهبٍ أو اغتصابٍ لحقوقِ المسلمين، أو بسبب ظلم أوقعوه بأحدٍ، والمسلمون يُرِيدون رفع هذا الظلم، أو بسبب منعهم للمسلمين من نَشْرِ دينهم، أو إيصال هذا الدين للآخرين.

ومثل الآية السابقة يقول الله تعالى أيضًا: ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٣]، والمقصود بمن نكثوا أيمانهم كُفَّار مكة، وكان منهم سبب خروج النبي ﷺ فأضيف الإخراج إليهم، وقيل: أخرجوا الرسول ﷺ من المدينة لقتال أهل مكة للنكث الذي منهم، وعن الحسن: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ﴾ بالقتال، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي نقضوا العهد، وأعانوا بني بكر على خزاعة، وقيل: بدءوكم بالقتال يوم بَدْر؛ لأن النبي ﷺ خرج للعِيرِ، ولَمَّا أحرزوا عيرهم كان يمكنهم الانصراف، فأبوا إلاَّ الوصول إلى بدر، وشُرْب الخمر بها.. وقيل: إخراجهم الرسول ﷺ: منعهم إياه من الحج والعمرة والطواف، وهو ابتداؤهم[٤]. وبقطع النظر عن حقيقة متى كانت البداية فإن عِلَّة القتال عند المسلمين واضحة، وهي أن أعداءهم بدءوهم بالقتال.

فهذه هي الأسباب والدوافع التي تدعو المسلمين إلى الحرب، وواقع المسلمين في زمان الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول ﷺ يُصَدِّق ذلك؛ فالمسلمون في فتوحاتهم لم

---

(١) (التوبة: ٣٦).

(٢) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٧٤.

(٣) (التوبة: ١٣).

(٤) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٣٤.

يُقَاتِلوا أو يَقْتُلُوا كل المشركين الذين قابلوهم في هذه الفتوحات، بل على العكس لم يقاتلوا إلاَّ مَنْ قاتلهم من جيش البلاد المفتوحة، وكانوا يتركون بقية المشركين على دينهم.

وهي - كما نرى - أسباب ودوافع لا يُنْكرها منصف، ولا يعترض عليها محايد؛ فهي تشمل رَدَّ العدوان، والدفاع عن النفس والأهل والوطن والدين، وكذلك تأمين الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم، وأيضًا حماية الدعوة حتى تُبَلَّغ للناس جميعًا، وأخيرًا تأديب ناكثي العهد[1]، ومَنْ في العالم يُنْكِرُ مثل هذه الأسباب والأهداف للحرب؟!

***

(١) انظر: أنور الجندي: بماذا انتصر المسلمون ص٥٧-٦٢.

المبحث الرابع
أخلاقيات الحرب في الإسلام

«إنَّ حُسْنَ الخُلُق، ولين الجانب، والرحمة بالضعيف، والتسامح مع الجار والقريب تفعله كل أُمَّة في أوقات السّلْمِ مهما أوغلت في الهمجية، ولكن حُسْن المعاملة في الحرب، ولين الجانب مع الأعداء، والرحمة بالنساء والأطفال والشيوخ، والتسامح مع المغلوبين، لا تستطيع كل أُمَّة أن تفعله، ولا يستطيع كل قائد حربي أن يتَّصِفَ به؛ إن رؤية الدم تُثِيرُ الدم، والعداء يؤجِّج نيرانَ الحقدِ والغضب، ونشوة النصر تُسْكِرُ الفاتحين؛ فتوقعهم في أبشع أنواع التشفِّي والانتقام، ذلك هو تاريخ الدول قديمها وحديثها، بل هو تاريخ الإنسان منذ سفك قابيل دم أخيه هابيل: ﴿**إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[١]، وهنا يضع التاريخ إكليل الخلود على قادة حضارتنا؛ عسكريين ومدنيين، فاتحين وحاكمين؛ إذ انفردوا من بين عظماء الحضارات كلها بالإنسانية الرحيمة العادلة في أشدِّ المعارك احتدامًا، وفي أحلك الأوقات التي تحمل على الانتقام والثأر وسفك الدماء، وأُقْسِم لولا أن التاريخ يتحدَّث عن هذه المعجزة الفريدة في تاريخ الأخلاق الحربية بصِدْقٍ لا مجال للشكِّ فيه لقلتُ إنها خرافة من الخرافات وأسطورة لا ظلَّ لها على الأرض!»[٢].

فإذا كان السلم هو الأصل في الإسلام، وإذا شُرِعَتِ الحرب في الإسلام للأسباب والأهداف التي ذكرناها سابقًا؛ فإن الإسلام كذلك لم يترك الحرب هكذا دون قيود أو قانون، وإنما وضع لها ضوابط تحدُّ ممَّا يُصَاحبها، وبهذا جعل الحروب مضبوطة بالأخلاق ولا تُسَيِّرُهَا الشهوات، كما جعلها ضدَّ الطغاة والمعتدين لا ضدَّ البرآء والمسالمين، وتتمثَّل أبرز هذه القيود الأخلاقية فيما يلي:

١ - **عدم قتل النساء والشيوخ والأطفال**: فكان رسول الله ﷺ يوصي قادة الجند بالتقوى ومراقبة الله ﷻ؛ ليدفعهم إلى الالتزام بأخلاق الحروب، ومن ذلك أنه ﷺ

---

(١) (المائدة: ٢٧).

(٢) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٧٣.

يأمرهم بتجنُّب قتل الولدان؛ فيروي بُرَيْدَةُ ﷺ فيقول: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيشٍ أو سريَّةٍ أوصاه في خاصَّته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، وكان مما يقوله: «.. وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا..»[1]. وفي رواية أبي داود: يقول رسول الله ﷺ: «وَلاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلاَ طِفْلاً، وَلاَ صَغِيرًا، وَلاَ امْرَأَةً...»[2].

٢- عدم قتال العُبَّاد: فكان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه يقول لهم: «لاَ تَقْتُلُوا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ»[3]. وكانت وصيته ﷺ للجيش المتجه إلى مؤتة: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا، وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تُمَثِّلوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا، أَوِ امْرَأَةً، وَلا كَبِيرًا فَانِيًا، وَلا مُنْعَزِلاً بِصَوْمَعَةٍ»[4].

٣- عدم الغدر: فكان النبي ﷺ يودِّع السرايا موصِيًا إياهم: «.. وَلاَ تَغْدِرُوا..»[5]. ولم تكن هذه الوصية في معاملات المسلمين مع إخوانهم المسلمين، بل كانت مع عدوٍّ يكيد لهم، ويجمع لهم، وهم ذاهبون لحربه! وقد وصلت أهمية هذا الأمر عند رسول الله ﷺ أنه تبرَّأ من الغادرين، ولو كانوا مسلمين، ولو كان المغدورُ به كافرًا؛ فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ أَمَّنَ رَجُلاً عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ، فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ القَاتِلِ، وَإِنْ كَانَ المَقْتُولُ كَافِرًا»[6]. وقد ترسَّخت قيمة الوفاء في نفوس الصحابة حتى إن عمر بن الخطاب ﷺ بلغه في ولايته أنَّ أحد المجاهدين قال لمحارب من الفرس: لا تَخَفْ. ثم قتله، فكتب ﷺ إلى قائد الجيش: «إنه بلغني أنَّ رجالاً منكم يَطْلُبُونَ العِلْجَ (الكافر)، حتى إذا اشتدَّ في الجبل وامتنع، يقول له: «لا تَخَفْ». فإذا أدركه قتله، وإني والذي نفسي بيده! لا يبلغنِّي أن أحدًا فعل ذلك إلاَّ قطعتُ عنقه»[7].

(١) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيره (١٧٣١).

(٢) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في دعاء العدو (٢٦١٤)، وابن أبي شيبة ٦/ ٤٨٣، والبيهقي في سننه الكبرى (١٧٩٣٢).

(٣) ٣٨١.

(٤) أخرج الحديثَ بدون ذكر قصة أهل مؤتة الإمامُ مسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها (١٧٣١)، وأبو داود (٢٦١٣)، والترمذي (١٤٠٨)، والبيهقي (١٧٩٣٥).

(٥) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الأمير الأمراء على البعوث (١٧٣١)، وأبو داود (٢٦١٣)، والترمذي (١٤٠٨)، وابن ماجه (٢٨٥٧).

(٦) البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٣٢٢، واللفظ له، وابن حبان (٥٩٨٢)، والبزار (٢٣٠٨)، والطبراني في الكبير (٦٤)، وفي الصغير (٣٨)، والطيالسي في مسنده (١٢٨٥)، وأبو نعيم في الحلية ٩/ ٢٤ من طرق عن السدي عن رفاعة بن شداد. وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٦١٠٣).

(٧) الموطأ: رواية يحيى الليثي (٩٦٧)، والبيهقي: معرفة السنن والآثار (٥٦٥٢).

٤- **عدم الإفساد في الأرض**: فلم تكن حروب المسلمين حروب تخريبٍ كالحروب المعاصرة، التي يحرص فيها المتقاتلون من غير المسلمين على إبادة مظاهر الحياة لدى خصومهم، بل كان المسلمون يحرصون أشدَّ الحرص على الحفاظ على العمران في كل مكان، ولو كان ببلاد أعدائهم، وظهر ذلك واضحًا في كلمات أبي بكر الصديق ﷺ، وذلك عندما وصَّى جيوشه المتجهة إلى فتح الشام، وكان مما جاء في هذه الوصية: «**وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ..**». وهو شمول عظيم لكل أمر حميد، وجاء أيضًا في وصيته: «**وَلا تُغْرِقُنَّ نَخْلاً وَلا تَحْرِقُنَّهَا، وَلا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً، وَلا شَجَرَةً تُثْمِرُ، وَلا تَهْدِمُوا بَيْعَةً..**»[1].

وهذه تفصيلات تُوَضِّح المقصود من وصية عدم الإفساد في الأرض، لكيلا يظنُّ قائد الجيش أن عداوة القوم تُبيح بعض صور الفساد؛ فالفساد بشتَّى صوره أمر مرفوض في الإسلام.

٥- **الإنفاق على الأسير**: إن الإنفاق على الأسير ومساعدته مما يُثَاب عليه المسلمُ؛ وذلك بحكم ضَعْفِه وانقطاعه عن أهله وقومه، وشِدَّة حاجته للمساعدة، وقد قرن القرآن الكريم بِرَّهُ بِبِرِّ اليتامى والمساكين؛ فقال ﷻ في وصف المؤمنين: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾[2].

٦- **عدم التمثيل بالميت**: فقد نهى رسول الله ﷺ عن الْمُثْلَة، فروى عبد الله بن زيد ﷺ قال: «**نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ النُّهْبَى، وَالْمُثْلَةِ**[3]»[4]. وقال عمران بن الحصين ﷺ: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَةِ، وَيَنْهَانَا عَنِ الْمُثْلَةِ**»[5]. ورغم ما حدث في غزوة أُحُد من تمثيل المشركين بحمزة عمِّ الرسول ﷺ، فإنه ﷺ لم يُغيِّر مبدأه، بل إنه ﷺ هدَّد المسلمين تهديدًا خطيرًا إن قاموا بالتمثيل بأجساد قتلى الأعداء، فقال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ:**

---

(١) البيهقي في سننه الكبرى (١٧٩٠٤)، والطحاوي: شرح مشكل الآثار ٣/ ١٤٤، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٢/ ٧٥.

(٢) (الإنسان: ٨).

(٣) النُّهْبَى: أخذ المرء ما ليس له جهارًا، والْمُثْلَة: التنكيل بالمقتول، بقطع بعض أعضائه.

(٤) البخاري: كتاب المظالم، باب النهبى من غير إذن صاحبه (٢٣٤٢)، والطيالسي في مسنده (١٠٧٠)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٤٤٥٢).

(٥) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في النهي عن المثلة (٢٦٦٧)، وأحمد (٢٠٠١٠)، وابن حبان (٥٦١٦)، وعبد الرزاق (١٥٨١٩)، وقال الألباني: صحيح. انظر: إرواء الغليل (٢٢٣٠).

رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، وَإِمَامُ ضَلالَةٍ، وَمُمَثِّلٌ مِنَ الْمُمَثِّلِينَ»[1]. ولم تَرِدْ في تاريخ رسول الله ﷺ حادثةٌ واحدة تقول بأن المسلمين مثَّلوا بأَحَدٍ من أعدائهم.

هذه هي أخلاق الحروب عند المسلمين.. تلك التي لا تُلْغِي الشرف في الخصومة، أو العدل في المعاملة، ولا الإنسانية في القتال أو ما بعد القتال.

***

(١) أحمد (٣٨٦٨)، واللفظ له، وحسنه شعيب الأرناءوط، والطبراني في الكبير (١٠٤٩٧)، والبزار (١٧٢٨)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٨١).

الباب الثالث

المؤسسة العلميـــــة

قدمت الحضارة الإسلامية للعالم مجموعة من النظم والمؤسسات التي تميزت بالدقة والتنظيم وتقديم كل ما هو جديد للبشرية كلها، وقد كانت المؤسسة العلمية الإسلامية إحدى روائع الحضارة الإسلامية؛ سواء على الناحية التنظيمية أو التطبيقية؛ ولذلك كان لزامًا علينا أن نُفرد لهذه المؤسسة الراقية بابًا مستقلاً، سنتناوله من خلال الفصول الآتية:

- **الفصل الأول: الإسلام ورؤية جديدة للعلم**
- **الفصل الثاني: الإسلام وتغيير تفكير العلماء**
- **الفصل الثالث: المؤسسة التعليمية**
- **الفصل الرابع: المكتبات في الحضارة الإسلامية**
- **الفصل الخامس: هيئة العلماء**

الفصل الأول

الإسلام ورؤية جديدة للعلم

مع أن العالَمَ شهد عِدَّة حضارات قبل الإسلام، ومع أن هذه الحضارات اشتهرت بإسهامات واضحة في أكثر من مجال من مجالات العلوم؛ وذلك مثل: الحضارة الرومانيَّة، والفارسيَّة، والصينيَّة، والهنديَّة، والمصريَّة، وغيرها؛ مع كل هذا إلاَّ أن الإسلام أضاف مفاهيم ومبادئ جوهريَّة غيَّرت رؤية العالم تمامًا لقضية العلم، وبإمكاننا أن نشير إلى بعضها في المبحثين التاليين:

- المبحث الأول: لا نزاع بين العلم والدين
- المبحث الثاني: العلم لكل أفراد الشعب

المبحث الأول

لا نزاع بين العلم والدين

باتت الحقيقة الأولى التي ظهرت في الأرض عند نزول جبريل عليه السلام لأوَّل مرَّة على رسول الله ﷺ أن هذا الدين الجديد (الإسلام) دينٌ يقوم على العلم ويرفض الضلالات والأوهام جملةً وتفصيلاً؛ حيث نزل الوحي أوَّل ما نزل بخمس آيات تتحدَّث حول قضية واحدة تقريبًا، وهي قضية العلم، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

وإن هذا النزول الأوَّل بهذه الكيفيَّة ليُعَدُّ عجيبًا؛ وذلك من عِدَّة وجوه: فهو عجيب لأن الله ﷻ قد اختار موضوعًا معيَّنًا من آلاف المواضيع التي يتضمَّنها القرآن الكريم وبدأ به، مع أن الرسول ﷺ الذي يتنزل عليه القرآن أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، فكان واضحًا أن هذا الموضوع الأوَّل هو مِفتاح فَهْمِ هذا الدِّين، ومفتاح فهم هذه الدنيا، بل وفهم الآخرة التي سيئول إليها الناس كلهم.

ثم هو عجيب كذلك لأنه نزل يتحدَّث عن قضية ما اهتم بها العرب كثيرًا في تلك الآونة، بل كانت الخرافات والأباطيل هي التي تحكم حياتهم من أوَّلها إلى آخرها، فكانوا يفتقرون إلى العلم في كل المجالات، اللهم إلا في مجال البلاغة والشعر، فكان هذا هو الميدان الذي تفوَّق فيه العرب وبرعوا، ولذلك نزل القرآن -وهو الأعجب- يتحدَّاهم في هذا الذي برعوا فيه، معلنًا لهم أنه ينادي بالعلم والتفوُّق فيه في كل الجوانب، بما فيها تلك التي يجيدونها.

فكان ظهور الإسلام إذن بمنزلة ثورة علميَّة حقيقيَّة في بيئة ما أَلِفَتْ رُوح العلم وما تعوَّدت عليه، لدرجة أن المرحلة السابقة لنزول أولى كلمات القرآن صارت تُعْرَف باسم (الجاهلية)! فصفة الجهل ترتبط بما هو قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام ليبدأ العلم، ولِتُنَار الدنيا بنور الهداية الربانيَّة، فقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2].

---

(١) (العلق: ١-٥).

(٢) (المائدة: ٥٠).

فليس هناك مكانٌ في هذا الدين للجهل أو الظنِّ أو الشكِّ أو الرِّيبَة.

ولم تكن البداية فقط في هذا الكتاب المعجز (القرآن) هي التي تتحدَّث عن العلم وقيمته وأهميته، بل كان هذا منهجًا ثابتًا في هذا الدستور الخالد، فلا تكاد تخلو سورة من سوره من الحديث عن العلم، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ولقد فوجِئتُ مفاجأة كبيرة عندما قمت بإحصاء عدد المرات التي جاءت فيها كلمة (العلم) بمشتقاتها المختلفة في كتاب الله ﷻ؛ إذ وجدتها -بلا مبالغة- قد بلغت ٧٧٩ مرَّة، أي بمعدَّل سبع مرَّاتٍ -تقريبًا- في كل سورة!

وهذا عن كلمة (العلم) بمادَّتها الثلاثية (ع ل م)، إلا أن هناك كلمات أخرى كثيرة تشير إلى معنى العلم ولكن لم تُذكر بلفظه؛ وذلك مثل: اليقين، والهدى، والعقل، والفكر، والنظر، والحكمة، والفقه، والبرهان، والدليل، والحجة، والآية، والبينة، وغير ذلك من معانٍ تندرج تحت معنى العلم وتحثُّ عليه. أمّا السُّنَّة النبويَّة فإحصاء هذه الكلمة فيها يكاد يكون مستحيلاً.

بل إن الملاحظ أن اهتمام القرآن بقضيَّة العلم لم يتبدَّ في أولى لحظات نزوله فقط، وإنما كان ذلك منذ بداية خلق الإنسان نفسه، كما حكى ذلك القرآن الكريم في آياته؛ فالله ﷻ خلق آدم وجعله خليفة في الأرض، وأمر الملائكة أن تسجد له، وكرَّمه وعظَّمه ورفعه، ثم ذكر لنا وللملائكة سبب هذا التكريم والتعظيم والرِّفعة، فعيَّن أنه (العلم)؛ يقول تعالى في تقرير ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

---

(١) (البقرة: ٣٠-٣٤).

ومن هنا لم يكن الأمر من باب المبالغة حين أشار الرسول ﷺ في حديثه إلى أن الدنيا بكاملها لا قيمة لها -بل هي ملعونة- إلا إذا ازدانت بالعلم وذِكْر الله ﷻ، فقد قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ: ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالاَهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا»[(١)].

وقد كان لذلك كله أثر بعيد المدى في الدولة الإسلاميَّة بعد ذلك، حيث ولَّد نشاطًا علميًّا واسعًا في مختلَف ميادين العلم والمعرفة، نشاطًا لم يعهد له التاريخ مثيلاً، ممَّا جعله يحقِّق ازدهارًا حضاريًّا عظيمًا على أيدي علماء المسلمين، ويمدُّ التراث الإنساني بذخيرة علميَّة رائعة، يظلّ العالم بأسره مدينًا لها.

ولو عقدنا **مقارنة بين مكانة العلم في الإسلام ومكانته في المسيحية** المحرَّفة لوجدنا أن الكنيسة في العصور الوسطى كانت معادية تمامًا للعلم؛ فالكنيسة المسيحية منذ بداية عهدها بروما قد عزلت نفسها عن الثقافتين الإغريقيَّة والرومانيَّة، وكانت الحضارة الرومانيَّة تحتضر إذ أتت عليها غارات القوط؛ على أن الكنيسة الكاثوليكيَّة الشرقيَّة حين بلغت كامل عنفوانها قد شنَّت اضطهادها على الفلاسفة والعلماء الوثنيين، وأغلقت مدرسة أثينا، وضربت بيد من حديد على الفلسفة الإغريقيَّة في الإسكندريَّة، ورأت الكنيسة أن الطريق الوحيد لتطهير الرُّوح هو طريقها إلى الله، والضلال هو البحث عن الحقيقة في غير الكتاب المقدَّس والتفكير والتمحيص في أمور دنيويَّة[(٢)].

وتؤكِّد هذه الحقيقة المستشرقة الألمانيَّة زيجريد هونكه[(٣)] حين قارنت بين العلم في نظر الإسلام والعلم في نظر النصرانيَّة في الغرب الأوربي خلال العصور الوسطى، فذكرت كيف أن الرسول ﷺ أوصى كل مؤمن -رجلاً كان أو امرأة- بطلب العلم، وجعل من ذلك واجبًا دينيًّا، وكيف أنه ﷺ كان يرى في تعمُّق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها

---

(١) الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله (٢٣٢٢) وقال: حديث حسن غريب. والدارمي (٣٢٢)، والطبراني في الأوسط (٤٠٧٢)، والبزار (١٧٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٠٨)، وقال الألباني: حسن. انظر: صحيح الجامع (١٦٠٩).

(٢) نادية حسني: العلم ومناهج البحث ص١٣.

(٣) زيجريد هونكه: Dr. Sigris hunke (١٩١٣- ١٩٩٩م) مستشرقة ألمانية، ولدت في هامبورج، ودرست علم أصول الأديان ومقارنة الأديان والفلسفة وعلم النفس والصحافة، وحصلت على شهادة الدكتوراه عام ١٩٤١م. زارت العديد من البلدان العربية، من مؤلفاتها (شمس العرب تسطع على الغرب) و(الله ليس كذلك).

وسيلة للتعرُّف على قدرة الخالق، لافتًا أنظارهم إلى علوم كل الشعوب، ثم أتبعت ذلك بقولها: «وعلى النقيض تمامًا يتساءل بولس الرسول مقرًّا: ألم يصف الربُّ المعرفة الدنيويَّة بالغباوة؟» (١).

كما ذكرت تعريف القديس أوغسطينوس (٢) محور المعرفة قائلاً: «أمَّا الربُّ والرُّوح فإني أبغي معرفتهما، فالبحث عن الحقيقة هو البحث عن الله، وهذا لا يستدعي معونة من الخارج، والمصدر الوحيد لتلك المعرفة هو الكتاب المقدَّس» (٣).

وأوضحت زيجريد هونكه كيف وصل بهم الأمر إلى اعتبار كل من ينادي بفكرة علميَّة جديدة -ككُرَوِيَّة الأرض مثلاً- أنه كافر ضال، واستدلَّت على ذلك بأقوال لاكتانتيوس (٤) معلِّم الكنيسة معلِّقًا على ما يدَّعيه البعض من أن الأرض كُرَوِيَّة، حيث قال متسائلاً مستنكرًا: «هل هذا من المعقول؟! أيُعقل أن يجنَّ الناس إلى هذا الحدِّ؛ فيدخل في عقولهم أن البُلدان والأشجار تتدلَّى من الجانب الآخر من الأرض، وأن أقدام الناس تعلو رءوسهم؟!». ملعون من كان يقتنع أو يقبل تفسيرًا علميًّا لحوادث الطبيعة، خارج عن طاعة الربِّ من يشرح أسبابًا طبيعيَّة لبزوغ كوكب أو فيضان نهر، بل لمن يعلِّل علميًّا شفاء قدم مكسورة أو إجهاض امرأة؛ فتلك كلها عقوبات من الله أو من الشيطان، أو هي معجزات أكبر من أن ندركها (٥)!

وقد حدث لذلك صراعٌ بين الدين والعلم في أوربا، شُلَّت فيه حركة العلم، في أواسط القرن السادس عشر الميلادي، ولم يتوقف ذلك إلا عند بداية النهضة العلمية والثورة العلمية الأوربية، والانقلاب على الكنيسة.

---

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٦٩.

(٢) القديس أوغسطين: (٣٥٤- ٤٣٠م) أحد أهم الشخصيات في تاريخ المسيحية على اختلاف مذاهبها، نشأ في شمال إفريقيا مسيحيًّا، ثم تحول إلى المانوية ثم عاد إلى المسيحية، ورقي حتى أصبح أسقفًا إلى أن توفي. يعتبره بعض المؤرخين شخصية فارقة في تاريخ المسيحية.

(٣) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٧٠.

(٤) لاكتانتيوس الإفريقي: من أشهر القديسين المسيحيين، ولد ونشأ بإفريقيا في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، وعُرف بالمُدافع عن المسيحية، وحاول إثبات المسيحية عن طريق الفلسفة والمنطق، وعهد إليه الإمبراطور قسطنطين الكبير برعاية ولده الأكبر.

(٥) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٧٠.

ومن أمثلة ذلك أن كوبرنيكس[١] توصَّل عام (١٥٤٣م) إلى دوران الأرض، وأن الشمس هي مركز الكون وليس الأرض كما كان معتقَدًا قبل ذلك، إلاَّ أن هذه النتيجة العلميَّة كانت كارثة في أوربا، فقد رفضت الكنيسة بميزان «الحقائق» الإنجيليَّة، فرأت أنه يتناقض مع معتقداتهم؛ لأن الأرض إذ تتحول من أن تكون مركز الكون إلى أن تكون بقعة صغيرة في كل هذا الكون ليس مجرد اكتشاف علمي، بل هو ضربة قاسية لصميم العقيدة المسيحية التي تقول بأن الله تجسد في هذه الأرض ليمنح أهلها الخلاص، لا تستوعب أن تتحول هذه الأرض إلى مجرد جرم صغير وسط أجرام أخرى أكبر منها، فضلاً عن أن تكون تابعة للشمس؛ ولذا «كانت نظرية مركزية الأرض تلائم بصورة معقولة لاهوتًا يفرض أن كل الأشياء خلقت لمنفعة البشر. أما الآن فقد شعر هؤلاء البشر أنهم يترنحون فوق كوكب صغير اختزل تاريخه إلى مجرد فقرة محلية في أخبار الكون... لا بد أن الناس حين توقفوا للتأمل في المعاني التي تتضمنها النظرية الجديدة راحوا يتساءلون عن صواب القول بأن خالق هذا الكون الهائل المنظم قد أرسل ابنه ليموت على هذا الكوكب المتوسط الحجم. وبدا أن كل شعر المسيحية الجميل، "يتصاعد دخانًا" (كما قال جوته[٢] فيما بعد) تحت لمسة هذا الكاهن البولندي. وأجبر الفلك القائل بمركزية الشمس الناس على أن يتصوروا الخالق من جديد في صورة أقل ضيقًا في الأفق وأقل تجسدًا، وواجه اللاهوت أقوى تحدٍّ في تاريخ الدين[٣]! فاضطُهد كوبرنيكس ولم يقوَ على مواجهة المعارضة العنيفة وعاش بعيدًا، ومات في نفس السنة التي نشر فيها كتابه بعد تحمس أحد معجبيه، وبعد أن أدخل تعديلات يُقِرُّ فيها بأن نظريته مجرد فروض تحتمل الخطأ[٤]، ولكن حين تبنى برونو[٥] نظرية كوبرنيكس، بعد موته بثمانين عامًا، باعتبارها حقيقة

---

(١) كوبرنيكس: هو نيكولاس كوبرنيكس (١٤٧٣ - ١٥٤٣م) ولد في مدينة ثورن في مقاطعة بروسيا، درس في بولندا وأكمل دراسته في جامعة بولونيا الإيطالية، كان فلكيًّا ماهرًا، يُعتبر أول من صاغ نظرية مركزية الشمس، وكون الأرض جرمًا يدور في فلكها.

(٢) جوته: (١٧٤٩ - ١٨٣٢م) هو أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين، تأثر جوته بالفكر الأدبي العربي، له قصيدة بعنوان (الهجرة)، و(الديوان الشرقي للشاعر الغربي).

(٣) انظر: ول ديورانت: قصة الحضارة ٢٧/١٣٨-١٣٩.

(٤) المصدر السابق ٢٧/ ١٣١-١٣٤.

(٥) برونو: جيوردانو برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠م) أحد أشهر الفلاسفة الغربيين الإيطاليين في عصر النهضة الأوربية، يُعدّ فكره خليطًا من الفلسفة والتصوف والسِّحر. وقد أدى به قلقه الروحي ونقده الفكري إلى الشك في تعاليم الكنيسة؛ فحكمت عليه محكمة التفتيش العليا بالموت عام ١٦٠٠م، وأُحرِق حيًّا في روما.

سارعت محكمة التفتيش إلى تحريم قراءة كتاب كوبرنيكس[١] وإلى إعدام برونو -الذي طور آراء كوبرنيكس وأضاف إليها من عنده- حرقًا في ميدان عامٍّ[٢]. وأفكار كوبرنيكس كانت هي البداية والأساس لأفكار جاليليو[٣]، ولأجلها تمت محاكمته وهو على مشارف السبعين من عمره، وهي محاكمة تعمدت إذلاله حتى تراجع بصراحة عن كل آرائه، ثم أعطته حكمًا بالسجن مدة مفتوحة، وأجبرته على قراءة مزامير الكفارة السبعة يوميًّا لمدة سبع سنوات[٤].

وهذا غيض من فيض، والأمثلة على ذلك جِدُّ كثيرة، ولم تتوقَّف فقط على محاكمات كوبرنيكس وجاليليو وغيرهما مما ذكرناه، حتى إنهم توسَّعوا في تشكيل محاكم التفتيش ضدَّ العلماء. قامت المحكمة بأعمالها حق القيام؛ ففي مدة ثماني عشرة سنة -من سنة ١٤٨١م إلى سنة ١٤٩٩م- حكمت على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصًا بأن يُحرقوا وهم أحياء فأحرقوا، وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا، وعلى سبعة وتسعين ألفًا وثلاثة وعشرين شخصًا بعقوبات مختلفة[٥]. كما أصدرت قرارات تُحرِّم قراءة كتب جاليليو، وجيوردا نويرنو، ونيوتن[٦] لقوله بقانون الجاذبيَّة، وتأمر بحرق كتبهم، وقد أَحرق بالفعل الكاردينال إكيمنيس في غرناطة ٨٠٠٠ كتاب مخطوط لمخالفتها آراء الكنيسة[٧]!

وهذا الواقع الرهيب والمظلم عاشته أوربا قرونًا طويلة، سُمِّيت بالعصور المظلمة، وتُسمَّى أيضًا بالقرون الوسطى، حيث استغرقت نحو ألف عام من الزمان، وقد رسَّخ

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢٧/ ١٣٨.

(٢) انظر قصة برونو في: قصة الحضارة ٢٧/ ٢٨٨-٣٠٠.

(٣) جاليليو: (١٥٦٤- ١٦٤٢م) عالم فلكي، وفيزيائي إيطالي، كان يُدعى مؤسس العلوم التجريبية المعاصرة. استدعته الكنيسة الرومانية مرتين للتحقيق معه في صحة مناصرته لنظرية كوبرنيكس، وحكمت عليه عام ١٦٣٣م بالسجن المؤبد.

(٤) انظر قصة جاليليو في: قصة الحضارة ٢٧/ ٢٦٤-٢٨٠.

(٥) الإمام محمد عبده: الاضطهاد في النصرانية والإسلام. مقال بمجلة المنار، المجلد الخامس، ص٤٠١.

(٦) نيوتن: السِّير إسحاق نيوتُن (١٦٤٢- ١٧٢٧م) عالم رياضيات وفلكي إنجليزي اكتشف نظرية جاذبية الأرض، كما اكتشف أسرار الضوء والألوان، وابتكر فرعًا من الرياضيات يسمَّى حساب التفاضل والتكامل.

(٧) مانع بن حماد الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢/ ٦٠٤.

هذا الواقع في أذهان العلماء والفلاسفة (أمثال ديكارت[١] وفولتير[٢]) وعموم الناس أنه لا أمل في طلب العلم والابتكار إلا بهدم سلطان الكنيسة، وإلا بمحو الدين تمامًا من الصدور، والاتجاه إلى الإلحاد بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ؛ فأعلنوا صراحة معارضتهم للكتب المقدَّسة كالتوراة والإنجيل؛ لاحتوائهما على ما يتعارض مع الحقائق العلميَّة، ولاعتقادهم بأن الدين -كما رأوا- هو اضطهاد العلم والعلماء، وهو الحَجْر على العقول. وقد راحوا يَدْعُون بعد ذلك إلى إعلاء العقل في مقابلة النصوص الرئيسية، وحُجَّتهم أن العقل يستطيع إدراك الحقائق العلميَّة، ويستطيع التمييز بين الخير والشرِّ.

وقد ساعدت الجمعية الوطنيَّة الفرنسيَّة في أعقاب الثورة الفرنسية على هذا التحرُّر، وذلك بإصدار قرارات سنة (١٧٩٠م)، كان من شأنها أن قصمت ظهر الكنيسة، حيث سرَّحت الرهبان والراهبات، وأجبرت رجال الكنيسة على الخضوع للدستور المدني، وأخذت تعيِّن هي رجال الكنيسة بدلاً من البابا، ثم جاء القانون الذي أقرَّته الحكومة الفرنسيَّة عام (١٩٠٥م) بفصل الدين عن الدولة على أساس التفريق بينهما، وإعلان حياد الدولة تجاه الدين، كقاصمة أخرى شجَّعت المعارضين للكنيسة على نقد نصوص الكتاب المقدَّس والكنيسة بحرِّيَّة، كما أجبر هذا القانون رجال الكنيسة على أن يُقْسِموا يمين الولاء للطاعة والشعب والملك والدستور المدني الجديد. وقد توالت القرارات بعد ذلك لتعمَّ دول أوربا كلها؛ ليتقلَّص بذلك دور الكنيسة من محاولة السيطرة على أمور العلم والسياسة، ولتنزوي تمامًا داخل الجدران، فتمارس فقط الوعظ والترانيم[٣]!

لكن الدين الإسلامي لم يكن يومًا كالكنيسة، ولم يقف أبدًا معارضًا أو عائقًا في طريق المسلمين للعلم، سواء في الجانب النظري أو في الجانب العملي التطبيقي، وإنما دعا إلى العلم وحثَّ عليه، مطلِقًا للعقل عنان الحرية، ومطلق النظر والتفكر والتدبُّر، بعيدًا عن

---

(١) ديكارت: رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) فيلسوف ورياضي وعالم فرنسي كثيرًا ما يُلَقَّب بأبي الفلسفة الحديثة. وقد اخترع ديكارت الهندسة التحليلية، وكان أول فيلسوف وصف الكون المادي من حيث المادة والحركة.

(٢) فولتير: (١٦٩٤ - ١٧٧٨م) واحد من أشهر الكتاب والفلاسفة الفرنسيين وأكثرهم تأثيرًا، ويعتبر كتابه كانديد (١٧٥٩م) أشهر أعماله؛ إذ ترجم إلى أكثر من مائة لغة.

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي، فصل بعنوان الكاثوليك، ٢/ ٦٠٤، ٦٠٥.

سطوة العادات والتقاليد والأهواء والميول، وكيف لا وقد شرّف الله سبحانه العقل بالخطاب وجعله مناط التكليف!

فكان ثَمَّة بونٌ شاسع بين الفكر الإسلامي القائم على الحرية الفكرية والصلة بين الله وبين العبد دون وسيط -ذلك الفكر الذي يمجّد العقل ويخاطبه- وبين الفكر المسيحي في العصور الوسطى الذي يصادر حرية الفكر ويضع السلطان الكنسي بين العباد وبين الرب، وهذا يوضح تمامًا لماذا احتاجت الحضارة الأوربية في الغرب ألف عام قبل أن تأخذ في الازدهار التدريجي، مع أنها كانت لديها الفرصة المناسبة لتبدأ قبل الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة بقرنين أو ثلاثة، ثم تقوم نهضتها بعد ذلك على أكتاف المسلمين(١).

* * *

(١) انظر زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٧٢، ٣٧٣.

المبحث الثاني
عمومية قضيـــة العلم

لقد كان العلماء قبل الإسلام منعزلين عن العامَّة، وكانت الفجوة بينهما كبيرة، فالعلماء في فارس أو في روما أو عند اليونان كانوا يعيشون في عزلة تامَّة، تقوم بينهم المناظرات والنقاشات، ويتوارثون العلم فيما بينهم، بينما تعيش العامَّة في جهل مُطبِق، وبُعدٍ تامٍّ عن أي صورة من صور العلم، لكن الإسلام كان شيئًا آخر!

فقد جاء رسول الله ﷺ ليقول بالحرف الواحد: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»[1]. لتصبح القضية واجبًا دينيًّا، وقضيَّة شعبيَّة مفروضة على الجميع؛ إذ يجب أن يطلب الجميعُ العلمَ، ليصبحوا جميعًا متعلِّمين، لم يُستثنَ من ذلك رجل أو امرأة.

وقام رسول الله ﷺ بالتطبيق العملي لهذا المنهج عندما وافق أن يُطلِق سراح أسرى غزوة بَدْر في نظير أن يقوم كل منهم بتعليم عشرة من أهل المدينة المنورة القراءة والكتابة، فكان هذا فكرًا حضاريًّا لم يكن معروفًا البتَّة في العالم في ذلك الوقت، ولا حتى بعد ذلك الوقت بقرونٍ.

وقد أمر الإسلام أتباعه في ذلك بأن يجعلوا قضية العلم قضية أساسيَّة في حياتهم، وأمرهم أن يرفعوا من قدر العلماء، إلى الدرجة التي قال فيها رسول الله ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[2].

ولقد استمرَّت هذه الحركة العلميَّة الشعبيَّة بعد وفاة الرسول ﷺ، فظهرت آثارها ومظاهرها الرائعة، والتي كانت تُعَدُّ أحلامًا بالنسبة للأوربيين. ونكتفي هنا بذكر ثلاثة

---

(١) ابن ماجه (٢٢٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والسيوطي في الجامع الصغير (٧٣٦٠). قال الشيخ الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٣٩١٣).

(٢) أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٢١٧٦٣)، وابن حبان (٨٨)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث حسن. وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٦٢٩٧).

مظاهر لهذه الحركة العلميَّة الشعبيَّة التي أَسَّس لها الإسلام:

١- المكتبات العامة: فانطلاقًا من هذا الحثِّ وذاك التشجيع الذي بات من صميم الدين، أَسَّس المسلمون المكتبات العامَّة المفتوحة لعموم الناس، فكانوا يقرءون فيها بالمجَّان، وينسخون ما يريدون من صفحات العلم المختلفة، بل وكان كبار الخلفاء والأمراء يستضيفون في هذه المكتبات طلاَّب العلم من البلاد المختلفة، ويُنْفِقون عليهم من أموالهم الخاصَّة. وقد وُجِدَتْ هذه المكتبات بكثرة في كل مدن العالم الإسلامي[1]، ولعلَّ من أشهرها مكتبات: بغداد، وقرطبة، وإشبيلية، والقاهرة، والقدس، ودمشق، وطرابلس، والمدينة، وصنعاء، وفاس، والقيروان.

٢- ظهور مجالس العلم الضخمة: فقَبْلَ الإسلام لم يكن هناك من يتكلَّم من العلماء مع عامَّة الناس، أمَّا بعد ظهور هذا الدين العظيم فقد انتشرت حلقات العلم في كل ربوع العالم الإسلامي، وكانت تصل في بعض الأحيان إلى أرقام غير متخيَّلة؛ فمجلس ابن الجوزي[2] مثلاً كان يحضره أكثر من مائة ألف إنسان! كلهم من عامَّة الشعب، وكذلك مجالس الحسن البصري، وأحمد بن حنبل، والشافعي، وأبي حنيفة، والإمام مالك، بل وكان هناك أحيانًا في داخل كل مسجد أكثر من حلقة علم في وقت واحد؛ فهذه في تفسير القرآن، وهذه للفقه، وأخرى للحديث النبوي، ورابعة للعقيدة، وخامسة لدراسة الطبِّ، وهكذا.

٣- اعتبار أن الإنفاق على العلم صدقة وقربة إلى الله ﷻ: وهذا جعل الموسرين من أبناء الأُمَّة يُنْفِقون أموالهم على بناء المدارس ودور العلم، بل ويُوقفون الأوقاف الكثيرة لرعاية طلاَّب العلم، وبناء المكتبات، وتطوير المدارس، فصار هذا الإنفاق على العلم بابًا من أبواب الخير لرجال الاقتصاد كذلك، وليس لرجال العلم فقط.

وهكذا كانت قضية العلم عامَّة، تهم وتخص الجميع؛ حيث طلب العلم واجب وفريضة على كل مسلم، ومِن ثَمَّ انتشرت المكتبات وكثرت مجالس وحلق العلم، وانمحت الأمية أو كادت!

---

(١) ستتعرض لذلك في فصل خاص عن التعليم والمكتبات في الحضارة الإسلامية.

(٢) ابن الجوزي: هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي التيمي (٥١٠- ٥٩٢هـ) فقيه حنبلي، ومؤرخ، وموسوعي، صنَّف في الكثير من العلوم والفنون، ولد وتوفي في بغداد. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٦٥.

الفصل الثاني

الإسلام وتغيير تفكير العلماء

كما رأينا في الفصل السابق فإن الإسلام قد جاء برؤية جديدة للعلم مغايرة لما كانت عليه الحضارات السابقة، على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، حيث ساقت هذه الرؤية الجديدة للعلم المسلمين ودفعتهم دفعًا إلى التوصل إلى أصول علمية جوهرية هي من صميم البحث العلمي لم تكن أيضًا موجودة من قبل!

وبإمكاننا أن نشير إلى بعض هذه المبادئ وتلك الأصول في المباحث التالية:

- المبحث الأول: المنهج التجريبي
- المبحث الثاني: الجانب العملي
- المبحث الثالث: الفرق العلميَّة
- المبحث الرابع: الأمانة العلميَّة

المبحث الأول
المنهـــج التجريبي

يُعَدُّ التوصُّل إلى المنهج العلمي التجريبي الرصين في البحث -والقائم على القياس والاستقراء، والمستند إلى المشاهدة والتجربة والتمثيل- يُعَدُّ إضافةً إسلاميَّة هائلة لمسيرة العلم في العالم.

وهو منهج مخالف تمامًا لما كان عليه اليونانيون أو الهنود أو غيرهم؛ فهذه الحضارات كانت تكتفي في كثير من الأحيان بافتراض النظريات دون محاولة إثباتها عمليًّا، فكانت في أغلبها فلسفات نظريَّة، لا تطبيق لها في الكثير من الأحايين، حتى وإن كانت صحيحة، وكان يؤدِّي هذا إلى الخلط الشديد بين النظريات الصحيحة والباطلة، إلا أن جاء المسلمون فابتكروا الأسلوب التجريبي في تناولهم للمعطيات العلمية والكونية من حولهم، وهو ما أدَّى إلى تأسيس قواعد المنهج العلمي التجريبي، الذي ما زال العلم المعاصر يسير على هَدْيِه.

وقد أدَّى تطبيق المسلمين للمنهج التجريبي على النظريات السابقة، ودون اعتبار إلى اسم صاحب النظرية مهما كان مشهورًا، أدَّى إلى اكتشاف الكثير من الأخطاء التي توارثها العلماء على مدار قرون متتالية.

فلم يكن العلماء المسلمون يكتفون بنقد النظريات السابقة واختبارها، ولكن كانوا كثيرًا ما يفترضون الافتراضات الجديدة، ثم يختبرونها حتى يتحوَّل الافتراض إلى نظرية -إذا أُثبت قربه من الحقيقة- ثم يختبرون النظريَّة حتى يثبت لهم في النهاية أنها أصبحت حقيقة وليست نظريَّة، وفي سبيل هذا كانوا يُجْرُون الكثير من التجارِب دون ملل.

ومن العلماء المسلمين الذين كان لهم باع طويل في هذا المجال جابر بن حيان[1]،

---

(١) جابر بن حيان: هو أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي (ت ٢٠٠هـ/ ٨١٥م) فيلسوف كيميائي، كان يُعرف بالصوفي. من أهل الكوفة، وأصله من خراسان، وتوفي بطوس. انظر: ابن النديم: الفهرست ص٤٩٨-٥٠٣، والزركلي: الأعلام ٢/ ١٠٣.

والخوارزمي، والرازي[١] والحسن بن الهيثم[٢]، وابن النفيس[٣]، وغيرهم كثير.

فهذا جابر بن حيان شيخ الكيميائيين يقول: «ومِلاك كمال هذه الصنعة العمل والتجرِبة؛ فمَنْ لم يعمل ولم يجرِّب لم يظفر بشيء أبدًا»[٤]. وفي كتاب (الخواصّ الكبير) المقالة الأولى يقول: «إننا نذكر في هذه الكتب خواصَّ ما رأيناه فقط دون ما سمعناه، أو قيل لنا وقرأناه، بعد أن امتحنَّاه وجرَّبناه، فما صحَّ أوردناه، وما بَطَل رفضناه، وما استخرجناه نحن أيضًا قايسناه على أحوال هؤلاء القوم»[٥].

ولذلك يُعَد جابر أوَّل مَنْ أدخل التجربة العلميَّة المخبريَّة في منهج البحث العلمي الذي أرسى قواعده، وكان أحيانًا ما يُسمِّي التجرِبة بالتدريب، فكان يقول: «فمَنْ كان دَرِبًا كان عالمًا حقًّا، ومن لم يكن دَرِبًا لم يكن عالمًا، وحسبُك بالدُّرْبَة في جميع الصنائع أن الصانع الدَّرِب يحذق، وغير الدَّرِب يعطل»[٦]!!

وعليه يكون جابر قد قطع خطوة أبعد مما قطع علماء اليونان قبله في وضع التجرِبة أساس العمل لا اعتمادًا على التأمُّل الساكن. يقول قدري طوقان: يمتاز جابر على غيره من العلماء بكونه في مقدِّمة الذين عملوا التجارِب على أساس علمي، وهو الأساس الذي نسير عليه الآن في المعامل والمختبرات؛ إذ دعا إلى الاهتمام بالتجرِبة وحثَّ على إجرائها مع دقَّة الملاحظة، كما دعا إلى التأنِّي وترك العجلة، وقال: إن واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة، وإن المعرفة لا تحصل إلاَّ بها[٧].

---

(١) الرازي: هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٢٥١- ٣١٣هـ/ ٨٦٥- ٩٢٥م) الطبيب الفيلسوف، ولد في الرَّيِّ، وتوفي ببغداد. من كتبه: «الحاوي في الطب». انظر: ابن النديم: الفهرست ص٤١٥-٤١٧، والصفدي: الوافي بالوفيات ٣/ ٦٢.

(٢) الحسن بن الهيثم: هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم (٣٥٤- ٤٣٠هـ/ ٩٦٥- ١٠٣٩م)، ويلقَّب ببطليموس الثاني، رياضي، مهندس، طبيب، حكيم. ولد بالبصرة، وتوفي بالقاهرة. انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٣/ ٣٧٢-٣٧٦، وكحالة: معجم المؤلفين ٩/ ٢٢٥، ٢٢٦.

(٣) ابن النفيس: هو علاء الدين علي بن أبي الحزم القَرْشي (ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)، أعلم أهل عصره بالطب. أصله من بلدة قَرْش (في ما وراء النهر)، ومولده في دمشق، وتوفي بمصر. انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٤٠٠، ٤٠١.

(٤) جابر بن حيان: كتاب التجريد، ضمن مجموعة حققها ونشرها هولميارد بعنوان: مصنفات في علم الكيمياء للحكيم جابر ابن حيان، باريس ١٩٢٨م.

(٥) جابر بن حيان: كتاب الخواص الكبير ص٢٣٢.

(٦) جابر بن حيان: كتاب السبعين ص٤٦٤.

(٧) قدري طوقان: مقام العقل عند العرب ص٢١٧، ٢١٨.

ولعل الرازي يكون هو أول طبيب في العالم يستخدم هذا المنهج التجريبي، وذلك من خلال إجراء تجاربه على الحيوانات، وخاصةً القرود، لاختبار طرق العلاج الجديدة قبل أن يُجْرِيَها على الإنسان، وهو منهج علمي رائع لم يُقِرَّه العالَم إلاَّ منذ فترة وجيزة؛ ففي منهجه الذي سار عليه تراه يقول: «عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة مع النظريَّة السائدة يجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظريات السائدة تأييدًا لمشاهير العلماء»[1]! فهو يقرِّر أن الجميع قد ينبهر بآراء العلماء المشهورين الكبار، ويتوقَّف عند نظرياتهم، إلاَّ أن التجرِبة أحيانًا ما تتعارض مع النظرية، فهنا يجب علينا رفض النظرية -وإن كانت لمشاهير العلماء- وقَبول التجرِبة والواقعة، والبدء في تحليلها والاستفادة منها.

وبسبب المنهج التجريبي أيضًا حفلت كتب ابن الهيثم بانتقادات كثيرة لنظريات إقليدس[2] وبطليموس[3]، مع علوِّ قدرهما العلمي، ويتَّضح منهج ابن الهيثم العلمي إجمالاً من مقدِّمة كتابه (المناظر)، فقد بيَّن فيه بإيجاز الطريقة التي هداه تفكيره إلى أنها الطريقة المثلى في البحث، والتي اتَّبعها في بحوثه، يقول ابن الهيثم: «... ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفُّح أحوال المبصرات، وتمييز خواصِّ الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخصُّ البصر في حال الإبصار، وما هو مطَّرد لا يتغيَّر، وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس، ثم نرتقي في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد المقدِّمات والتحفُّظ في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفَّحه استعمال العدل لا اتِّباع الهوى، ونتحرَّى في سائر ما نميِّزه وننتقده طلب الحقِّ لا الميل مع الآراء»[4].

فابن الهيثم أخذ في بحوثه بالاستقراء والقياس، واعتنى في البعض منها بالتمثيل، وهي عناصر البحوث العلميَّة العصريَّة، وابن الهيثم -كواحد من علماء المسلمين الذين

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٧٧، ٧٨.

(٢) إقليدس: (٣٢٥ ق.م - ٢٦٥ ق.م) هو رياضي يوناني، يعدّ مؤسس علم الهندسة، وأشهر كتبه كتاب الأصول.

(٣) بطليموس: هو كلاوديوس بطليموس (بين ٨٣- ١٦١م) أشهر الفلكيين الإغريق، وهو فلكي ورياضي وفيلسوف، ويعرف ببطليموس الحكيم، اختلف في نسبته إلى اليونان أو مصر، أشهر كتبه المجسطي في الفلك.

(٤) ابن الهيثم: المناظر، تحقيق د. عبد الحميد صبره ص٦٢.

أسَّسوا للمنهج التجريبي- لم يسبق فرنسيس بيكون[١] إلى طريقته الاستقرائيَّة فحسب، بل سما عليه سموًّا كبيرًا، وكان أوسع منه أفقًا وأعمق تفكيرًا، وإن لم يَعْنِ كما عَنِيَ بيكون بالتفلسف النظري.

ويذهب الأستاذ مصطفى نظيف[٢] إلى أكثر من هذا فيقول: «بل وإن ابن الهيثم قد عمَّق تفكيره إلى ما هو أبعد غورًا بما يظن أول وهلة، فأدرك ما قال من بعد (ماك) و(كارل بيرسون[٣]) وغيرهما من فلاسفة العلم المحدَثِين في القرن العشرين، وأدرك الوضع الصحيح للنظريَّة العلميَّة، وأدرك وظيفتها الحقَّة بالمعنى الحديث»[٤].

بل إن بعض علماء المسلمين اعتبر الكتابة غير دقيقة إن لم تسبقها تجارِب، فقال الجلدكي[٥] أحد أعلام الكيمياء من علماء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) عن الطغرائي[٦] (ت ٥١٣هـ) الكيميائي المعروف: «كان الطغرائي رجلاً على جانب عظيم من الذكاء، ولكنه لم يعمل إلاَّ قليلاً من التجارِب، وهذا أمر يجعل كتاباته غير دقيقة»[٧].

وهكذا يكون المسلمون قد توصَّلوا إلى المنهج العلمي التجريبي، والذي من خلاله تعلَّمت البشريَّة كيف تصل إلى الحقيقة العلميَّة بثقةٍ واقتدار، بعيدًا عن الظنون والأوهام والأهواء.

---

(١) فرانسيس بيكون Francis Bacon: (١٥٦١-١٦٢٦م) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، معروف في الغرب بأنه مؤسس العلم التجريبي القائم على الملاحظة والاستنتاج، والرافض لأنْ يكون منطق أرسطو صالحًا للحكم العلمي.

(٢) مصطفى نظيف: (١٨٩٣- ١٩٧١م) من أبرز العلماء المصريين في القرن العشرين، تخصص في الطب والفيزياء، وكان له اهتمام عظيم بالتراث العلمي للحضارة الإسلامية، وأولى اهتمامًا خاصًّا بتراث الحسن بن الهيثم، وكان من أوائل المطالبين بتعريب العلوم.

(٣) كارل بيرسون Karl Pearson: (١٨٥٧- ١٩٣٦م) هو محام ورياضي إنجليزي، يعدّ واضع أسس الإحصاء الرياضي. أسس أول قسم للإحصاء في العالم في كلية لندن عام ١٩١١م.

(٤) قدري طوقان: مقام العقل عند العرب ص٢٢٣.

(٥) الجلدكي: (ت بعد ٧٤٢هـ- بعد ١٣٤١م) هو عز الدين علي بن محمد بن أيدمر الجلدكي، كيميائي وفيلسوف، أحد أشهر علماء الكيمياء. ينسب إلى «جلدك» بخراسان. من كتبه: «كنز الاختصاص في معرفة الخواص». انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون ٢/ ١٥١٢، والزركلي: الأعلام ٥/ ٥.

(٦) الطُّغرائي: هو أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد الأصبهاني (٤٥٣- ٥١٣هـ/ ١٠٦١- ١١١٩م)، المعروف بالطغرائي، أديب، خبير بصناعة الكيمياء. ولد بأصبهان، وولي ديوان الإنشاء والوزارة، وقُتل. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٨٥-١٩٠، والصفدي: الوافي بالوفيات ١٢/ ٢٦٨، ٢٦٩.

(٧) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص٢١٨.

المبحث الثاني
الجانب العملي

يُعَدُّ «الجانب العملي» طريقة جديدة أيضًا ظهرت في عصر المسلمين، وخاصة إذا قورنت حضارة المسلمين فيها بحضارة الإغريق واليونان.

فكثيرًا ما كان العلماء الأقدمون قبل الإسلام يبتكرون النظريات المختلفة، وكثيرًا ما تكون هذه النظريات صحيحة، بل عبقريَّة، ومع ذلك فإن أغلبها -مع صحَّته ودقَّته- كان يظلُّ حبيس الأوراق والمجلدات، ولم يجد التطبيق العملي في واقع الناس، وهذا هو ما نعنيه بالجانب العملي في العلوم، حيث تطبيق النظريات بما يخدم ويفيد الإنسانيَّة، حتى إذا كان في وسائل الترفيه.

فعندما جاء المسلمون، ومن منطلق إعمار الأرض وإصلاحها بدأ العلماء المسلمون في تحويل كل نظريَّة صحيحة إلى عمل مفيد يتحقَّق منه الخير للناس.

وقد كان من أمثلة ذلك ما قام به أولاد موسى بن شاكر[1] من اختراعٍ لآلات الريِّ، وآلات رفع الماء إلى أعالي الجبال، وكذلك اختراع الساعات الدقيقة، معتمدين في ذلك على نظريَّات قديمة، إضافةً إلى نظريات استحدثوها، جعلتهم في النهاية ينفعون مجتمعهم، بل والإنسانية كلها، بدلاً من الاعتكاف للتفكير فقط!

كذلك فعل الزهراوي[2] فاخترع عددًا هائلاً من الآلات الجراحيَّة، وكان على سبيل المثال يعلم نظريًّا أن الدواء إذا اختلط بالدم مباشرة فإنه يُحدِث أثرًا أسرع، فأدَّى هذا إلى اختراعه الحقنةَ، لكي يصل فعلاً بالدواء إلى الدم بصورة أسرع، وهكذا[3].

---

(١) موسى بن شاكر: والد المهندسين الثلاثة المعروفين ببني موسى. كان في شبابه من قُطَّاع الطرق، وتاب فدخل في خدمة المأمون، وتعلم التنجيم وهيئة الأفلاك. مات (نحو ٢٠٠هـ/ نحو ٨١٥م) وأبناؤه صغار، فجُعلوا في بيت الحكمة، ونبغوا. انظر: ابن العبري: مختصر الدول ص٢٦٤، والزركلي: الأعلام ٧/ ٣٢٣.

(٢) الزهراوي: هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي (ت ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م) طبيب، عالم، يعدّ أول من ألّف في الجراحة، وأول من استعمل ربط الشريان لمنع النزيف. ولد في الزهراء (قُرب قرطبة)، وإليها نسبته. انظر: ابن بشكوال: الصلة ١/ ٢٦٤، والزركلي: الأعلام ٢/ ٣١٠.

(٣) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٣١، ٣٣٢.

وكذا فعل ابن البيطار[١] عندما أدخل أكثر من ثمانين دواءً مفيدًا إلى ساحة الطبِّ[٢]، وكذلك جابر بن حيان الذي استغلَّ بعض المعادلات الكيميائيَّة لاختراع (معطف) للمطر لا يتأثَّر بالماء، ولاختراع أوراق لا تحترق يُكتب عليها المعلومات المهمَّة جدًّا[٣].

ولعلنا ندرك بعدُ قيمة بحوث علماء المسلمين عندما نرى النظريات الفلسفيَّة الكثيرة التي أَلَّفها علماء الإغريق واليونان لكنهم لم يسقطوها على الواقع، وبالتالي لم يستفيدوا منها، ولم تستفد كذلك البشريَّة.

* * *

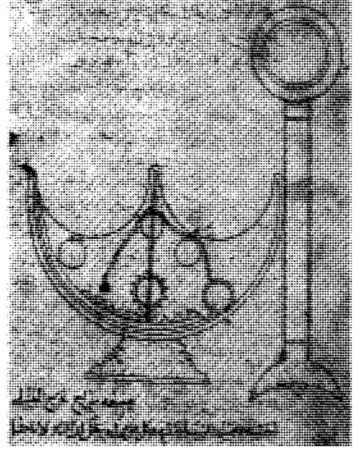
(١) ابن البيطار: هو أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، إمام النباتيين وعلماء الأعشاب، وهو صاحب كتاب «الأدوية المفردة». توفي بدمشق. انظر: الكتبي: فوات الوفيات ٢/ ١٥٩، ١٦٠.

(٢) المقري: نفح الطيب ٢/ ٦٩٢.

(٣) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٧٥، ٤٧٦.

المبحث الثالث
الفـــــرق العلميَّـــة

«الفرق العلمية» أساس جديد كذلك غيَّر به المسلمون من نمط وطريقة تفكير العلماء السابقين؛ فلأوَّل مرَّة في التاريخ يُكوِّن المسلمون فريقًا علميًّا متكاملاً، فيه أكثر من عالم في أكثر من مجال؛ ليُخرِجوا لنا في النهاية عملاً متكاملاً مفيدًا، لم يكن ليرى النور إلا باعتماده على أكثر من تخصُّص من العلوم.



صورة (١) كتاب الحيل لأولاد موسى بن شاكر

ويُنسب إلى أولاد موسى بن شاكر (محمد والحسن وَأحمد) أنهم أوَّل وأشهر فريق علمي جماعي في التاريخ؛ حيث كان محمد عالمًا في الهندسة، وَأحمد عالمًا في الفلك، والحسن عالمًا في الميكانيكا، وقد ألَّفوا معًا كتاب (الحيل) الذي اتَّضحت فيه رُوح الفريق العلمي بشكل مباشر، وتجسَّد فيه مبدأ العمل الجماعي القائم على المشاركة والتعاون؛ فالكتاب من أوَّله إلى آخره ينطق بصيغة الجماعة.

ومن قبيل ذلك: «قال محمد والحسن وَأحمد: الشكل الأول، نريد أن نبيِّن كيف نعمل كأسًا يصبّ فيه مقدار من الشراب أو الماء، فإن زيد عليه زيادة بقدر مثقال من الشراب أو الماء خرج كل شيء فيه»[1]. «ونريد أن نبيِّن كيف نعمل جرَّة لها بُزَال مفتوح، إذا صُبَّ فيها الماء لم يخرج من البُزَال شيء، فإذا انقطع الصب خرج الماء من البُزَال، فإذا أُعِيدَ الصبُّ انقطع أيضًا، وإن قطع الصبُّ خرج الماء، وهكذا لا يزال..»[2]. «ونريد أن نبيِّن كيف نعمل فوَّارتين يفور من أحدهما شبه القناة ومن الآخر شبه السوسنة مدَّة من الزمان، ثم يتبادلان فيخرج من التي كانت تفور قناة سوسنة، ومن التي كانت تفور سوسنة قناة

(١) بنو موسى بن شاكر: كتاب الحيل، تحقيق أحمد يوسف الحسن وآخرون، معهد التراث العلمي العربي، ١٩٨١م، مقدمة المحقق، ص٥٧.
(٢) المصدر السابق ص٩.

مقدار ذلك من الزمان، ولا يزال على هذا ما دام الماء ملصقًا فيها»[1].

وغير ذلك كثير، مما يدل على نضج عقليَّة أولاد موسى بن شاكر كفريق علمي متكامل، كما تبرز أهمية وقيمة العمل الجماعي، أو فريق العمل في المجال العلمي.

ولا ريب أن هذا التكامل وذاك المزيج من مختلف التخصُّصات بين هؤلاء الإخوة قد أدَّى إلى الوصول إلى حقائق علميَّة كان من الصعب التوصُّل إليها إلاَّ باشتراك أكثر من عالم في أكثر من تخصُّص؛ وذلك مثل القياس الدقيق لقُطْر الأرض، أو صناعة الأَسْطُرْلاَب الضخم الذي يُمَكِّن من حساب حركة الأجرام بدقَّة كبيرة.

على أن هذا الأمر لم يكن مقصورًا على هذا الفريق العلمي المتميِّز، بل تكرَّر في علوم كثيرة، ووجدنا تعاونًا لافتًا للنظر بين علماء الطبِّ والصيدلة والنبات والحيوان، وكذلك بين علماء الجيولوجيا والجغرافيا والفَلَك، وهكذا.

وقد تجسَّد ذلك مع الرازي الطبيب المشهور، بين تلامذته؛ فترى ابن النديم يصفه فيقول: «أوحد دهره، وفريد عصره، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء وسِيَّما الطب، وكان يتنقل في البُلدان... وكان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذه، ودونهم تلاميذهم، ودونهم تلاميذ أخر، وكان يجيء الرجل المريض فيصف ما يجد لأوَّل من تلقَّاه، فإن كان عندهم علم وإلاَّ تعدَّاهم إلى غيرهم، فإن أصابوا وإلاَّ تكلم الرازي في ذلك، وكان كريمًا متفضِّلاً بارًّا بالناس، وحَسَنَ الرأفة بالفقراء والأعِلاَّء (المرضى)، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم»[2].

فكان تلاميذ الرازي بمنزلة فرق علمية، كل فريق منهم يدلي برأيه ودلوه في المسألة المطروحة، حتى يصلون فيها إلى نتيجة، وعلى رأسهم جميعًا يجلس الرازي الذي يسمع ويتابع ويصوِّب، ثم يقف معهم في معضلات المسائل فيبسطها هو معهم!

على أن الأمر لم يكن مقتصرًا فقط على العلوم الحياتية، بل رأينا كذلك الفِرَق العلمية في المجالات الشرعية؛ فرأينا المجامع الفقهية التي تجتمع لبحث قضية معينة مستعينة في ذلك بمجموعة كبيرة من العلماء في مجالات القرآن والحديث والفقه والعقيدة وغير ذلك؛ مما أثرى جدًّا الحركة العلمية، وأدَّى إلى سرعة نضوجها.

---

(١) كتاب الحيل ص٣٥٦.

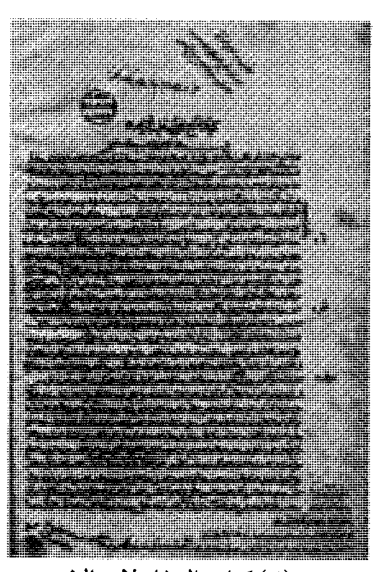
(٢) ابن النديم: الفهرست ص٣٥٦.

المبحث الرابع
الأمـــــانة العلميَّة

مبدأ الأمانة العلميَّة مبدأ جديد كذلك لم يُعرف إلا بعد ظهور الإسلام، وذلك أنه في ظلِّ غياب الدين والخُلُق لن يتورَّع إنسان عن نسبة الاكتشافات المختلفة لنفسه بُغْيَة التربُّح والشهرة.

وإن كانت الأمانة العلميَّة تقتضي احترام الحقوق الفكريَّة والعلميَّة، ونسبة الجُهد والاكتشاف لصاحبه وأهله، إلاَّ أن علماء المسلمين عانوا كثيرًا من سرقة أبحاثهم واكتشافاتهم، ونسبتها إلى غيرهم من علماء الغرب ممن وُلِدُوا بعدهم بعشرات أو مئات السنين.

وليس خافيًا على أحد الآن تلك السرقة الشنيعة التي حدثت لعالمنا الجليل ابن النفيس مكتشف الدورة الدمويَّة الصغرى (Pulmonar Circulation)، حيث قام بتسجيلها بدقَّة في كتابه (شرح تشريح القانون)، غير أن هذه الحقيقة ظلَّت مختفية قرونًا طويلة، ونُسِبت فيما بعد وهمًا إلى الطبيب الإنجليزي وليام هارفي[1] الذي بحث في دورة الدم بعد وفاة ابن النفيس بأكثر من ثلاثة قرون، وظلَّ الناس يتداولون هذا الوهم حتى أبان عن الحقيقة الدكتور المصري محيي الدين التطاوي.


صورة (٢) كتاب الشفاء لابن النفيس

وكان الطبيب الإيطالي ألباجو قد ترجم في سنة (٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م) أقسامًا من كتاب ابن النفيس (شرح تشريح القانون) إلى اللاتينيَّة، وهذا الطبيب أقام ما يقرب من ثلاثين عامًا في (الرُّها)، وأتقن اللغة العربيَّة لينقل منها إلى اللاتينيَّة، وكان القسم

(١) وليام هارفي: William Harvey (١٥٧٨ - ١٦٥٧م) طبيب إنجليزي، يعرف في الغرب على أنه مكتشف حقيقة الدورة الدموية، وعمل القلب كمضخّة.

المتعلق بالدورة الدمويَّة في الرئة ضمن ما ترجمه من أقسام الكتاب، غير أن هذه الترجمة فُقِدَت، واتُّفِقَ أن عالمًا إسبانيًّا ليس من رجال الطبِّ كان يُدْعَى (سيرفيتوس) كان يدرس في جامعة باريس اطَّلع على ما ترجمه ألباجو من كتاب ابن النفيس، ونظرًا لاتهام سيرفيتوس في عقيدته، فقد طُرِد من الجامعة، وتشرَّد بين المدن، وانتهى به الحال إلى الإعدام حرقًا هو وأكثر كُتُبِه في سنة (١٠٦٥هـ/ ١٥٥٣م)، وشاء الله أن تبقى بعض كتبه دون حرق، وكان من بينها ما نقله من ترجمة ألباجو عن ابن النفيس فيما يخصُّ الدورة الدموية، واعتقد الباحثون أن فضل اكتشافها يعود إلى هذا العالم الإسباني ومِنْ بعده هارفي حتى سنة (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م)، حتى صحَّح الطبيب المصري الدكتور محيي الدين التطاوي هذا الوهم، وأعاد الحقَّ إلى صاحبه؛ وذلك حين عثر على نسخة من مخطوطة (شرح تشريح القانون) لابن النفيس في مكتبة برلين، وقام بإعداد رسالة في الدكتوراه عنها، وعُنِيَ فيها بجانب واحد من جوانب هذا الكتاب العظيم، ألا وهو موضوع: (الدورة الدموية تبعًا للقرْشي)، وذلك سنة (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م).

وقد ذُهل أساتذتُه والمشرفون على الرسالة، وأصابتهم الدهشة حين اطَّلعوا على ما فيها، وما كادوا يصدقونه! ولجهلهم باللغة العربيَّة بعثوا بنسخة من الرسالة إلى المستشرق الألماني الدكتور (مايرهوف)[1] الذي كان آنذاك مقيمًا في القاهرة، وطلبوا رأيه فيما كتبه الباحث، وكانت النتيجة أن أيَّد مايرهوف الدكتور التطاوي، وكتب في أحد بحوثه عن ابن النفيس: «إن ما أذهلني هو مشابهة، لا بل مماثلة، بعض الجمل الأساسيَّة في كلمات سيرفيتوس لأقوال ابن النفيس التي تُرجِمت ترجمة حرفيَّة... أي أن سيرفيتوس، وهو رجل دين متحرِّر وليس طبيبًا، قد ذكر الدورة الدمويَّة في الرئة بلغة ابن النفيس الذي عاش قبله بما يزيد على القرن والنصف». ثم أبلغ مايرهوف حقيقة ما كشفه من جهود ابن النفيس إلى المؤرِّخ (جورج سارتون)[2]، فنشر هذه الحقيقة في آخر جزء من كتابه المعروف

(١) ماكس مايرهوف Max Meyerhof: (١٢٩١- ١٣٦٤هـ/ ١٨٧٤- ١٩٤٥م) مستشرق وطبيب عيون ألماني، وأحد أبرز المستشرقين الغربيين، تعلم العربية وزار مصر عام ١٩٠٣م واستقر بها، وتوفي بالقاهرة. اهتم اهتمامًا خاصًّا بتاريخ الطب والصيدلة في الحضارة الإسلامية.

(٢) جورج سارتون George Sarton: (١٨٨٤- ١٩٥٦م) من أبرز مؤرخي العالم، بلجيكي الأصل، متخصص في العلوم الطبيعية والرياضية، حاضر في الجامعات الأمريكية وفي الجامعة الأمريكية في بيروت، أشهر كتبه (تاريخ العلم).

(تاريخ العلم) [١]!!

وقد اطلع (ألدو ميلي)[٢] على المَتْنَيْنِ فقال: «إن لابن النفيس وصفًا للدوران الصغير تُطابِق كلماتُه كلمات سيرفيتوس تمامًا، وهكذا فمن الحق الصريح أن يُعْزَى كشف الدوران الرئوي إلى ابن النفيس لا إلى سيرفيتوس أو هارفي»[٣].

وإن مثل هذه السرقات وانعدام مبدأ الأمانة العلميَّة في حقِّ العلماء المسلمين ليست بالشيء القليل، ويكفي أن نسرد سريعًا هنا الحقائق التالية:

- نُسب علم الاجتماع إلى دوركايم[٤] اليهودي الفرنسي، بينما الذي اكتشف هذا العلم وأسَّسه -كما سيأتي بيانه- هو العلاَّمة المسلم ابن خلدون.

- نُسبت قوانين الحركة لإسحاق نيوتن، بينما الذي اكتشف هذه القوانين -كما سيتَّضح ذلك أيضًا فيما بعد- عالمان مسلمان هما: ابن سينا، وهبة الله بن مَلْكا[٥].

- وجدنا في كتاب روجر بيكون[٦] المعروف بـ (Cepus Majus) فصلاً كاملاً، هو الفصل الخامس، ما هو إلا ترجمة حرفية لكتاب المناظر لابن الهيثم، وذلك دون أن يشير بتاتًا إلى المؤلِّف الأصلي للمادَّة.

لقد حدث كل ذلك مع المسلمين، أمَّا المسلمون فكان دَيْدَنُهم منهجًا آخر، إنه منهج الأمانة العلميَّة، ونسبة الجُهد والفضل لأهله، وهو المنهج الذي لم يجعل عالمًا منهم يدَّعي

---

(١) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٠٨، وعلي عبد الله الدَّفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٤٥١.

(٢) ألدو ميلي Aldo Mieli: (١٨٧٩- ١٩٥٠م) مستشرق إيطالي، وصاحب كتاب (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي).

(٣) راجع علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٤٥١.

(٤) دوركايم Durkheim: (١٨٥٨- ١٩١٧م) عالم اجتماع فرنسي، عمل محاضرًا لعلم الاجتماع في جامعة بوردو، وفي السوربون في باريس، يعرف في الغرب بأنه مؤسس علم الاجتماع.

(٥) هبة الله بن مَلْكا: هو أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكا البَلَدي (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)، المعروف بأوحد الزمان، طبيب، من سكان بغداد. كان يهوديًّا وأسلم في آخر عمره، وكان في خدمة المستنجد بالله العباسي، وحظي عنده. انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ٣١٣- ٣١٦، والزركلي: الأعلام ٨/ ٧٤.

(٦) روجر بيكون: (١٢١٤- ١٢٩٢م) كان فيلسوفًا وعالمًا إنجليزيًّا، وهو يعدّ واحدًا من الشخصيات الرائدة في تطوير العلوم في القرون الوسطى. عُرف في الغرب بصفته مؤسسًا للعلوم التجريبية، وبأنه أحد الباحثين الأوائل في دراسة علم البصريات.

اكتشافًا أو سبقًا علميًّا نقله من عالم آخر من علماء الحضارات الأخرى، بل امتلأت كتبهم بأسماء العلماء الذين نقلوا عنهم، وذلك مثل: أبقراط[١] وجالينوس[٢] وسقراط وأرسطو وغيرهم، وقد أنزلوهم منزلتهم، وأعطوهم التقدير الكافي والتبجيل الواضح، ولم يكن يُغْفَل اسم واحد منهم، حتى ولو كان إسهامه في الكتاب قليلاً.

وعلى سبيل المثال فقد ذكر أولاد موسى بن شاكر في كتابهم (معرفة مساحة الأشكال البسيطة والكريَّة) ما نصُّه: «فكل ما وصفنا في كتابنا فإنه من عملنا، إلا معرفة المحيط من القطر؛ **فإنه من عمل أرشميدس**[٣]**، وإلا معرفة وضع مقدارين بين مقدارين لتتوالى على نسبة واحدة؛ فإنه من عمل مانالاوس**[٤]»[٥].

ولك أن تستمع أيضًا إلى كلام العلاّمة الإسلامي الطبيب المشهور أبي بكر الرازي صاحب كتاب (الحاوي) -من أعظم الكتب في تاريخ الطب- وهو يقول: «.. ولقد جمعتُ في كتابي هذا جملاً وعيونًا من صناعة الطبِّ مما استخرجتُه من كتب (أبقراط)، و(جالينوس)، و(أرماسوس)... ومَنْ دونهم من قدماء فلاسفة الأطباء، ومَنْ بعدهم من المحدَثِين في أحكام الطبِّ مثل: (بولس)، و(آهرون)، و(حنين بن إسحاق)[٦]، و(يحيى ابن ماسويه)[٧]... وغيرهم»[٨].

---

(١) أبقراط: هو أبقراط بن أيراقليدس (٤٦٠ ق.م - ٣٥٥ ق.م)، يلقب بأبي الطب، من أشهر الشخصيات العلمية في التاريخ، تعلم الطب على أبيه وبرع فيه، وينسب إليه فكرة القسم الذي يقسمه الأطباء.

(٢) جالينوس: (١٣٠ - ٢٠٠م) طبيب يوناني من أشهر الأطباء في التاريخ، ويعدّ من مؤسسي الطب الكبار، خصوصًا علم التشريح.

(٣) أرشميدس: (٢٨٧ ق.م - ٢١٢ ق.م) عالم طبيعة ورياضيات، يعدّ من أعظم علماء الرياضيات في العصور القديمة، وهو أبو الهندسة.

(٤) مانالاوس: هو آكر مانالاوس، عاش في حدود القرن الأول الميلادي، من أعلام الهندسة اليونانيين، له مؤلفات اعتنى بها المسلمون في الأشكال الكرية وفي الأسطرلاب. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ١٤٢.

(٥) بنو موسى بن شاكر: كتاب معرفة مساحة الأشكال، بتحرير نصير الدين الطوسي، ص٢٥.

(٦) حنين بن إسحاق: هو أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي (١٩٤ - ٢٦٠هـ/ ٨١٠- ٨٧٣م) طبيب، مؤرخ، مترجم، من أهل الحيرة بالعراق، كان عالمًا باللغة اليونانية والسريانية والفارسية، اتصل بالخليفة المأمون فجعله رئيسًا لديوان الترجمة. انظر: ابن النديم: الفهرست ص٤٠٩، وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٢٨-١٣٧.

(٧) يحيى بن ماسويه (يوحنا): هو أبو زكريا يوحنا بن ماسويه، طبيب خبير بصناعة الطب. سرياني الأصل، عربي المنشأ. خدم الرشيد والمأمون ومن بعدهما إلى أيام المتوكل، بمعالجتهم وتطبيب مرضاهم. توفي بسامرَّاء سنة (٢٤٣هـ/ ٨٥٧م). انظر: ابن النديم: الفهرست ص٤١١، وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٠٩-١٢٢.

(٨) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ٧٠.

وفوق هذا فإننا كنا نجد في المكتبة الإسلاميَّة كتب العلماء الأجانب مترجمة في نسخ منفصلة منسوبة لأصحابها، وكان كثيرًا ما يقوم عالم من علماء المسلمين بالتعليق عليها دون أن يتدخَّل في مَتْنِهَا؛ لكي يحافظ على فكرة المؤلِّف دون تحريف، وهذا مثل تعليق العالم المسلم الفارابي[1] على كتاب (ما بعد الطبيعة) لأرسطو.

فهذه الأمانة العلميَّة المشرِّفة كانت بالفعل من أعظم مناقب علماء المسلمين، ومن أهمِّ الأُسُس التي غيَّر بها المسلمون من نمط وطريقة تفكير العلماء السابقين، وخاصَّة أن المعاصرين من أبناء الأمم الأخرى لم يكونوا يعرفون تاريخ أجدادهم، وبالتالي فقد كان من السهل جدًّا أن تُسرق أبحاثهم، لولا البُعد الأخلاقي العميق عند علماء المسلمين.

***

(١) الفارابي: هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي (٢٦٠- ٣٣٩هـ/ ٨٧٤- ٩٥٠م) التركي الحكيم المشهور، وهو أكبر فلاسفة المسلمين. ولد في فاراب، وتوفي بدمشق. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٥٣-١٥٦.

الفصل الثالث

المؤسسة التعليمية

ساعدت المؤسسات التعليمية على ازدهار الحضارة الإسلامية ورقيها، وكانت لجميع المراحل العمرية، بدءًا من الكُتَّابِ وانتهاءً بالأكاديمية العلمية، وقد تأسَّست في العالم الإسلامي المعاهد، والجامعات، والكليات، والمراصد، والمكتبات الكبرى، وكلها كانت أماكن للبحث والدرس والتأليف الأصيل.

ومن دون شك، فإن ظهور الإسلام كان بمنزلة ثورة علمية حقيقية في بيئة ما أَلِفَتْ رُوح العلم، وما تَعَوَّدَتْ عليه؛ لدرجة أن المرحلة السابقة لنزول أوَّل كلمات القرآن صارت تُعْرَفُ باسم (الجاهلية)! فصفة (الجهل) ترتبط بما هو قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام ليبدأ العلم، ولِتُنَار الدنيا بنور الهداية الربانية.

فقد اقترن ظهور الإسلام بالدعوة إلى التعليم منذ بداية التنزيل، «فالرسالة لم تبدأ بالدعوة إلى إقامة الشعائر -بمعناها الخاصّ من صوم وصلاة وحج وزكاة- ولا بالحديث عن أركان الإسلام وأسس بنائه، ولا ببيان نظام التعامل الاقتصادي، ولا بمرتكزات الحياة السياسيَّة ومقوماتها، ولا ببيان القيم الأخلاقيَّة، ولا حتى ببيان أركان العقيدة، وإنما بدأ بمِفْتَاح ذلك كلِّه، ومحورِ ذلك كلِّه -كما سبق أن ذكرنا- بدأ بـ ﴿ اقْرَأْ﴾»[1].

ولهذا كان لا بُدَّ من وجود أَمْكِنَة للتعليم، ينهل منها طلاب العلم، ويتمكَّنُونَ من لقاء الشيوخ والعلماء، وتُعْقَدُ فيها حلقات العلم والمناظرات، في جوٍّ يتلاءم مع الحياة العلمية. وعلى هذا فيُمْكِنُ عرضُ بعضٍ من المؤسسات التعليمية التي كانت مراكز تعليم في الحضارة الإسلامية في المباحث الآتية:

- المبحث الأول: الكتاتيب
- المبحث الثاني: المساجد
- المبحث الثالث: المدارس

(١) د. قطب مصطفى سانو: النظم التعليمية الوافدة في إفريقيا ص١٧.

المبحث الأول

الكتـــــاتيب[1]

يُعَدُّ الكُتَّاب من أقدم المراكز التعليمية عند المسلمين، وقيل بأن العرب عَرَفُوه قبل الإسلام، ولكن على نطاق محدود جدًّا، وكانت مكانة الكُتَّاب في القرون الهجرية الأولى عالية الشأن؛ إذ يُعِدُّ لبداية تعليم أعلى، «فكان الكُتَّاب يشبه المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر، وكان من الكثرة بحيث عدَّ ابن حوقل[2] ثلاثمائة كُتَّاب في مدينة واحدة من مدن صقلية»[3].

وكان الهدف من إنشاء الكتاتيب قد تمثّل في تعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، وقد اهتم النبي ﷺ بتعليم الأطفال والشباب، إذ أمر ﷺ أسرى المشركين عقب بَدْر، أن يُعلِّم كل واحد منهم «عشرةً من الغلمان الكتابة، ويخلِّي سبيله، فيومئذٍ تعلّم الكتابةَ زيدُ بن ثابتٍ في جماعةٍ من غلمة الأنصار»[4].

وكان الأطفال في الكتاتيب يُعلَّمون احترام اللغة العربية، خاصةً إذا كتبوا في ألواحهم آيات من القرآن الكريم، أو أحاديث النبي ﷺ؛ فقد قيل لأنس بن مالك الصحابي الجليل رضي الله عنه (ت ٩٣هـ): «كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضى الله عنهم؟ قال أنس: كان المؤدب له أجانة[5]، وكل صبي يأتي كل يوم بنوبته (بترتيبه) ماء طاهرًا، فيصبُّونه فيها، فيمحون به ألواحهم. قال أنس: ثم يحفرون حُفرة في الأرض، فيصبون ذلك الماء فيها فينشف. قلت: أفترى أن يلعط[6]؟ قال: لا بأس به، ولا يُمسح بالرجل، ويُمسحُ بالمنديل وما أشبهه. قلت: فما ترى فيما يكتب الصبيان في الكتاب من المسائل؟ قال: أما ما كان من ذكر الله فلا يمحوه برجله، ولا بأس أن يمحو

---

(١) الكَتَاتِيبُ جمع كُتَّاب: وهو موضع تعليم الكُتَّاب أي الصبيان. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كتب ١/ ٦٩٨.

(٢) ابن حوقل: هو أبو القاسم محمد بن حوقل (ت ٣٥٠هـ) رحّالة وجغرافي ومؤرخ، أشهر مؤلفاته هو التعليق والتنقيح لكتاب المسالك والممالك للإصطخري، وتعليقه بنفس الاسم. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ١١١.

(٣) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١٠٠.

(٤) السهيلي: الروض الأنف ٣/ ١٣٥.

(٥) إناء من فخار يُوضع فيه الماء.

(٦) يلعط أي يلحس، ولعل المراد هنا انطباع الأحبار على الأيدي أو الأرجل.

غير ذلك مما ليس في القرآن»[١].

فهذه الصورة الرائعة تعبر أصدق تعبير عما كان في نفوس أبناء ذلك العصر من احترام للحرف العربي عندما يكتب به الوحي الإلهي، فيختارون الماء الطاهر لمسحه، ويحفرون له في الأرض ويصبونه لينشف[٢].

وقد اشتهر عدد من المعلِّمين في الكتاتيب وذاع صيتهم، فكان الحجاج بن يوسف الثقفي[٣] مُعَلِّمًا بأحد الكتاتيب؛ يُعَلِّم الصبيان ويأجرونه خبزًا[٤]، وعُرِفَ عن الضحاك ابن مزاحم أنه كان مُؤَدِّبًا للصبيان في أحد كتاتيب الكوفة، وكان لديه ثلاثة آلاف صبي[٥]! ويَرْوِي ياقوت الحموي[٦] في (معجم الأدباء) أن كُتَّاب أبي القاسم البلخي كان به ثلاثة آلاف تلميذ، وكان فسيحًا جدًّا يَتَّسِعُ لهذا العدد؛ لذا احتاج البلخي أن يركب حمارًا ليتردَّدَ بين هؤلاء وأولئك، ويُشْرِفَ على جميع تلاميذه[٧].

وقد تعلم كثير من كبار الفقهاء والعلماء في الكتاتيب في صغرهم، فيحكي الإمام الشافعي عن مرحلة الكُتَّاب في صغره فيقول: «كنت يتيمًا في حجر أُمِّي، فدفعتني في الكُتَّاب، فلمَّا خَتَمْتُ القرآن دخلتُ المسجد فكنتُ أُجَالِس العلماء»[٨].

وظهرت الكتاتيب في الشام بعد الفتح مباشرة، وتعلم فيها أبناء الفاتحين، يقول أدهم بن محرز الباهلي الحمصي[٩]: «أنا أول مولود ولد بحمص -يعني من المسلمين- وأول

---

(١) ابن سحنون: آداب المعلمين ص٤٠، ٤١.

(٢) انظر: أكرم العمري: عصر الخلافة الراشدة ص٢٨١.

(٣) الحجاج بن يوسف الثقفي: هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي (٤٠- ٩٥هـ/ ٦٦٠- ٧١٤م)، قائد، داهية، خطيب. ولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف ثم العراق. ولد ونشأ في الطائف، وتوفي بواسط (بين الكوفة والبصرة). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١١/ ٢٣٦-٢٤١، والزركلي: الأعلام ٢/ ١٦٨.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٣٠.

(٥) الذهبي: العبر ١/ ٩٤.

(٦) ياقوت الحموي: هو أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي (٥٧٤- ٦٢٦هـ/ ١١٧٨- ١٢٢٩م) مؤرخ ثقة، من أئمة الجغرافيين. من أشهر مصنفاته: (معجم البلدان)، و(إرشاد الأريب). انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦/ ١٢٨.

(٧) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١/ ٤٩١.

(٨) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١/ ٤٧٣.

(٩) أدهم بن محرز: هو أدهم بن محرز بن أسيد الباهلي (نحو ١٠٠هـ/ ٧١٨م) تابعي فارس، وقائد عسكري كبير، وشاعر من أهل حمص. كان فارس أهل الشام ورجلهم في أيامه. انظر: الزركلي: الأعلام ١/ ٢٨٢.

مولود رُئِي في كتف -يعني يحمل كتفًا مكتوبًا فيه القرآن- وأنا أختلف إلى الكُتَّاب أتعلم الكتاب -يعني القرآن-»[١]. وممن تعلم في كتاتيب الشام وهو صبي إياس بن معاوية المزني قاضي البصرة الشهير[٢].

وقد كان الآباء يحرصون على أن يذهب أبناؤهم إلى المعلمين المجيدين، الذين لهم باع ودُربة على تعليم الأطفال، فكان من جملة هؤلاء، المسلم بن الحسين بن الحسن أبو الغنائم، (ت ٥٤٤ هـ) الذي قال عنه ابن عساكر: «اشتغل بتأديب الصبيان، فحسن أثره في ذلك، وظهر له اسم في إجادة التعليم والحذق بالحساب حتى كثر زبونه»[٣].

وقد كان الأمراء والخلفاء يحترمون المعلمين والمؤدبين، وينزلون على آرائهم؛ احترامًا لهم، ولذلك كان المعلمون يتمتعون بالاحترام الوافي من قبل الناس جميعًا، فقد بعث هارون الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله يستحضره؛ «ليسمع منه ابناه الأمين والمأمون، فأبى عليه، وقال: إن العلم يُؤتى، لا يأتي. فبعث إليه ثانيًا، فقال: أبعثهما إليك يسمعان مع أصحابك. فقال مالك: بشريطة أنهما لا يتخطيان رقاب الناس، ويجلسان حيث ينتهي بهما المجلس. فحضراه بهذا الشرط»[٤].

وقد شاركت المرأة في نشر التعليم في الكتاتيب منذ وقت مبكر، قال التابعي عبد ربه ابن سليمان: كتبت لي أم الدرداء في لوحي فيما تعلمني: «تعلموا الحكمة صغارًا تعملوا بها كبارًا»، وقالت: «إن لكل حاصد ما زرع من خير أو شر»[٥].

ولم تكن مُقَرَّرَات وموادُّ التعليم واحدة في العالم الإسلامي، بل اختلفت من قُطْرٍ لآخر، وإن كانت تشتمل على القرآن الكريم، والقراءة والكتابة، وأحاديث الأخبار[٦]، وبعض الأحكام الدينية، والشعر، وبعض مبادئ الحساب، وبعض قواعد اللغة العربية، وكانت مدَّة بقاء الطفل في الكُتَّاب خمسة أو ستة أعوام على الأكثر، وتكون في الغالب ابتداءً من السَّنَةِ الخامسة أو السادسة، ويحفظ الطفل خلال هذه الفترة القرآن كله أو

---

(١) ابن بدران: تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ٢/ ٣٦٧.
(٢) ابن بدران: السابق ٣/ ١٨٠.
(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٥٨/ ٧٤.
(٤) ابن عساكر: السابق ٨/ ٢٦٩.
(٥) ابن عساكر: السابق ٧٠/ ١٥٨.
(٦) أي الأخبار التاريخية والقصص.

بعضه، وعندما يُتِمُّ الطفل مدَّة الدراسة في الكُتَّاب، ويحفظ القرآن؛ يمتحنه المعلِّمُ ليتأكَّد منه، فإذا اجتاز الامتحان احتفل بالختمة[١].

ولأهمية تعليم الأطفال وتأديبهم، اهتم كثير من فقهاء ومؤلفي الإسلام بتربية الأطفال، وإرساء القواعد التربوية المهمَّة التي تُعين المدرسين والآباء على تعليم أبنائهم، فهذا الإمام الحجة أبو حامد الغزالي[٢] يضع فصلاً في كتابه القيم «إحياء علوم الدين» بعنوان «بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم»، ومما جاء فيه: «اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبيان أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يُمال به إليه، فإن عُوِّد الخير وعُلِّمَهُ نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب، وإن عُوِّد الشر، وأهمل إهمال البهائم، شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القَيِّم عليه والوالي له»[٣].

ونتيجة لمهارة بعض هؤلاء المعلمين والمؤدبين؛ فقد ترقَّى بعضهم في وظائف الدولة حتى صار وزيرًا، مثل إسماعيل بن عبد الحميد الذي كان يعلِّم الصبيان، ثم تقلبت به الأحوال إلى أن صار وزيرًا لمروان بن محمد[٤]، وكذلك الحجاج بن يوسف الثقفي الذي صار كبيرًا لوزراء عبد الملك بن مروان.

وكان كثير من هؤلاء المعلمين يأخذون أجرة نظير تعليمهم للصبيان، ولكن الأعجب من ذلك، أننا وجدنا الشيخ أبا عبد الله التاودي (ت ٥٨٠هـ)، وهو من أهل مدينة فاس بالمغرب، أنه «كان يعلِّم الصبيان، فيأخذ الأجر من أولاد الأغنياء، فيردُّه على أولاد الفقراء!»[٥].

وكانت أوقات الدراسة في الكتاتيب تحدد بعلامات طبيعية، فشروق الشمس كان

---

(١) انظر: رحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٤٧-١٤٩.

(٢) الغزالي: هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (٤٥٠- ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨- ١١١١م) الملقب حُجَّة الإسلام، الفقيه الشافعي، الفيلسوف المتصوف. مولده ووفاته في الطابران بخراسان. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢١٦-٢١٨، والسبكي: طبقات الشافعية ٦/ ١٩١-٢١١.

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/ ٧٢.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٦٠.

(٥) أبو العباس الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢/ ٢١٠.

بدء اليوم الدراسي، يطول ويقصر تبعًا لشروق الشمس، وأذان العصر»[١].

وقد كان الأطفال يتعلمون في المساجد، إلا أن ذلك لم يكن بصورة منتظمة، فحينما كثر الهرج في المساجد؛ بسبب الأطفال عام ٤٨٣هـ، فقد «استُفْتِي على معلمي الصبيان أن يُمنعوا من المساجد صيانةً لها، فأفتوا بمنعهم...»[٢].

وأما بالنسبة للراحة والعطلات المدرسية، فقد لوحظ اهتمام المسلمين بإعطاء الصبي قسطًا من الراحة بعد عناء الدراسة، فهذا ابن الحاج العبدري - وهو من علماء المالكية بفاس في بلاد المغرب (ت ٧٣٧هـ) - يقول: «إن ذلك مستحب لقوله ﷺ: «رَوِّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ»[٣]. فإذا استراحوا يومين في الجمعة[٤] نشطوا لباقيها»[٥]. وهناك تعطيل في أيام الأعياد، وحالات المرض، والرياح والعواصف والبرد والمطر الشديد.

وأما المعلم فإذا تغيّب لشغل طارئ «فعليه أن يستأجر للصبيان من يكون فيهم بمثل كفايته إذا لم تطل مدة ذلك... كذلك إن هو سافر فأقام من يوفيهم كفايته لهم، إن كان سفرًا لا بد منه، قريبًا اليوم واليومين وما أشبههما، فيستخف ذلك إن شاء الله، وأما إن بَعُد أو خيف بعد القريب لما يعرض في الأسفار من الحوادث، فلا يصلح له ذلك»[٦].

وقد وصف لنا ابن جبير[٧] في رحلته، مدى التقدم المنهجي الذي وصل إليه تعليم الصبيان في دمشق، فقال: «وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويُعلَّمون الخط في الأشعار وغيرها؛ تنزيهًا لكتاب الله ﷻ عن ابتذال الصبيان له بالإثبات

---

(١) حسن عبد العال: التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري ص١٨٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٦٨.

(٣) مسند الشهاب القضاعي (٦٢٩)، والأصبهاني: حلية الأولياء ٣/ ١٠٤، ويشهد له حديث: «يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً». مسلم: كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة... (٢٧٥٠).

(٤) يقصد في الأسبوع.

(٥) ابن الحاج العبدري: المدخل ٢/ ٣٢١.

(٦) حسن حسني عبد الوهاب: مقدمة كتاب آداب المعلمين ص٥٧، وعلي بن نايف الشحود: الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل ص٣٨.

(٧) ابن جبير: هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (٥٤٠- ٦١٤هـ/ ١١٤٥- ١٢١٧م) رحّالة أديب، زار المشرق ثلاث مرات، ألّف في إحداها كتابه «رحلة ابن جبير». ولد في بلنسية، ومات بالإسكندرية. انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٣١٩، ٣٢٠.

والمحو، وقد يكون في أكثر البلاد الملقِّن على حدة، والمُكَتِّب على حدة، فينفصل من التلقين التكتيب، لهم في ذلك سيرة حسنة، ولذلك ما يتأتّى لهم حسن الخط؛ لأن المعلم له لا يشتغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم، والصبي في التعلُّم كذلك، ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوه»[١].

إذن، وصل تعليم الصبيان في الكتاتيب إلى أعظم مراحله؛ فقد عرف المسلمون نظام الفصل في المواد، وجعلوا لكل مادة دراسية معلمًا متخصصًا فيها، بل اهتم المشارقة بتحسين خطوط أبنائهم، وهذا ما انتبه إليه ابن جبير، وجعله من أهم ما يميِّز مؤسسة التعليم في المشرق الإسلامي.

وقد ظل نظام تعليم الأطفال في المشرق ينتهج ذات النهج الذي أخبر به ابن جبير في العام ٥٨٠هـ، فقد وجدنا ابن بطوطة[٢] في رحلته الشهيرة، يُخبر عما أخبر به ابن جبير من قبله بما يزيد على مائة وخمسين عامًا، فقال عن معلمي المسجد الأموي في دمشق: «وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله، يستندُ كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد يُلقِّن الصبيان ويُقرِئُهُم، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهًا لكتاب الله تعالى، وإنما يقرءون القرآن تلقينًا، ومُعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك جادَ خطُّه؛ لأن المعلِّم للخط لا يُعلِّم غيره»[٣]. ومما يُلاحظ أن الأطفال كانوا يتعلمون في المساجد القرآن الكريم، ثم ينتقلون من بعده إلى دراسة التكتيب والخط؛ ليتعلموا على يد المُكتِّب صحيحَ القراءة والكتابة.

وأما تأديب الأطفال والصبيان عن طريق الضرب، فقد وضع الفقهاء لذلك مجموعة من الضوابط، مما يعني أن المسلمين قد اهتموا بتربية الأطفال وتأديبهم منذ فترة مبكرة؛ فقد ذكر ابن مفلح المقدسي (ت ٧٦٣) في «الآداب الشرعية» قوله: «سئل أبو عبد الله (أحمد بن حنبل) عن ضرب المعلِّم الصِّبيان، فقال: على قدر ذنوبهم، ويتوقَّى بجهده

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص٢٤٥.

(٢) ابن بطوطة: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي (٧٠٣- ٧٧٩هـ/ ١٣٠٤ - ١٣٧٧م) رحّالة، مؤرخ. ولد ونشأ بغرناطة، وطاف بلادًا كثيرة، وتوفي في مراكش. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٣٥.

(٣) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ص٨٧.

الضَّرب، وإن كان صغيرًا لا يعقل فلا يضربه»[١].

وقد حذّر كثير من الفقهاء والعلماء، المؤدِّبين والمعلمين من الإسراف والتفنن في ضرب الأطفال، أو معاملتهم معاملة قاسية، فقد قال العبدري: «وليحذرِ الحذرَ الكُلِّي من فعل بعض المؤدبين في هذا الزمان (القرن الثامن الهجري)، وهو أنهم يتعاطون آلة اتخذوها لضرب الصبيان مثل: عصا اللوز اليابس، والجريد المشرح، والأسواط النوبية، والفلقة، وما أشبهُ ذلك مما أحدثوه، وهو كثير ولا يليق هذا بمن ينسب إلى حمل الكتاب العزيز؛ إذ إنه كما ورد في الحديث: «**مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ فَكَأَنَّمَا أُدْرِجَتِ النُّبُوَّةُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يُوحَى إِلَيْهِ**»[٢]. وينبغي له أن يُعلِّمهمُ الخطّ والاستخراجَ، كما يعلِّمهم حفظ القرآن؛ لأنهم بذلك يتسلَّطُون على الحفظ والفَهْم، فهو أكبر الأسباب المعينة على مطالعة الكتب وفهم مسائله»[٣].

ولم تكن مهام الكتاتيب تربوية أو تعليمية فقط، بل كان لها دور اجتماعي مهم جدًّا، فلم يسمح المسلمون أن تقوم عزلة وحواجز بين الكُتَّاب والمجتمع، ولذلك فهو يتفاعل مع مجتمعه، ويشارك في حياته اليومية، «فإذا مات عالم جليل أفاد العباد بعلومه، أو رئيسٌ نفع البلاد بآرائه وأعماله، أو أميرٌ عادل أنصف في أحكامه، أغلقت الكتاتيب أبوابها، وعطّل الأحداث دراستهم يوم دفنه؛ مشاركةً في المصاب العمومي، وإظهارًا للتأسي، وإجلالاً لخدمة الصالح العام»[٤].

ولما كان والي مصر أحمد بن طولون[٥] قد اشتدت علة مرضه، وزادت عليه أوجاعه، قرر معلمو الصبيان في مصر الخروج بصبيانهم إلى الصحراء؛ ليدعوا الله أن يشفي ابن طولون[٦].

---

(١) ابن مفلح: الآداب الشرعية ٢/ ٦١.

(٢) روي بلفظ: "مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدِ اسْتَدْرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يُوحَى إِلَيْهِ". رواه الحاكم (٢٠٢٨)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) ابن الحاج العبدري: المدخل ٢/ ٣١٧.

(٤) حسن حسني عبد الوهاب: مقدمة كتاب آداب المعلمين لابن سحنون ص٥٧.

(٥) أحمد بن طولون: (ت ٢٧٠هـ) أمير الشام والثغور ومصر ولاه المعتز بالله مصر. وكان عادلاً، جوادًا، شجاعًا، متواضعًا، حَسَنَ السيرة، يباشر الأمور بنفسه، ويعمر البلاد، ويتفقد أحوال زعاياه، ويحب أهل العلم. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ٨٧٠.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم ٥/ ٧٣.

ولذلك حرص المعلمون والمؤدبون على إشراك الصبيان في القضايا العامة التي تلم بالمجتمع، فيقول ابن سحنون[1]: «إذا أجدب الناس، واستسقى الإمام، فأُحِبُّ للمعلم أن يخرج بهم من يعرف الصلاة منهم، وليبتهلوا إلى الله بالدعاء ويرغبوا إليه، فإنه بلغني أن قوم يونس -صلى الله على نبينا وعليه السلام- لما عاينوا العذاب خرجوا بصبيانهم، فتضرعوا إلى الله بهم»[2].

واللافت للنظر اهتمام الفقهاء المربين بصحة الصبيان في الكُتَّاب، فنصحوا بعزل الصبي المريض عن رفاقه حتى لا ينتشر المرض بينهم، يقول ابن الحاج العبدري: «ينبغي إذا اشتكى أحد من الصبيان وهو بالمكتب بوجع عينيه، أو شيء من بدنه، وعُلِم صدقُه أن يصرفه (المعلم) إلى بيته ولا يتركه يقعد في المكتب»[3]؛ وذلك ليترك لأهله الاهتمام به، والعمل على معالجته؛ خوفًا من انتشار عدوى المرض بين الصبيان.

وطلب إلى معلم الصبيان منعهم من أكل الطعام والحلوى المكشوفة والمعروضة من قِبل الباعة الجوَّالين «فلا يدع المعلم أحدًا من البياعين يقف على المكتب ليبيع للصبيان؛ إذ فيه المفاسد إن اشترى منه»[4]، وبلغ الحرص عندهم لدرجة «ترتيب طبيب يحضر بالمكتب في كل شهر»[5].

إن اهتمام الحضارة الإسلامية بالأطفال منذ النبي ﷺ، ليُدلل على أن هذه الحضارة لم تفرق بين الكبير والصغير، بل على العكس؛ فقد عَلِمَتْ أن صغار اليوم هم قادة الغد، فعملت على تنشئتهم تنشئة صالحة نافعة، عن طريق إقامة الكتاتيب التي هي بمنزلة المدارس الابتدائية في عصرنا الحاضر، فتخرج من هذه الكتاتيب العلماء الأجلاّء، الذين أضافوا للبشرية العلم النافع، ومِن ثَمَّ الرخاء والتقدُّم.

---

(١) ابن سحنون: هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام (سحنون) بن سعيد بن حبيب التنوخي (٢٠٢- ٢٥٦هـ/ ٨١٧- ٨٧٠م)، فقيه مالكي مناظر، كثير التصانيف. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٠٤.

(٢) ابن سحنون: آداب المعلمين ص١١١.

(٣) ابن الحاج العبدري: المدخل ٢/ ٣٢٢.

(٤) ابن الحاج العبدري: السابق ٢/ ٣١٣.

(٥) عبد الغني محمود عبد العاطي: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ص١٤٥، ومحمد منير سعد الدين: بحث بعنوان «دور الكتّاب والمساجد عند المسلمين» ص٣.

المبحث الثاني

المســـــاجد

ارتبط تاريخ التعليم في المجتمع الإسلامي بالمسجد ارتباطًا وثيقًا؛ فهو المركز الرئيسي لنشر الثقافة الإسلامية، وهو أحد أهمِّ دور التعليم.

وقد اتخذ الرسول ﷺ مسجد المدينة مكانًا للدراسة؛ حيث كان يجتمع مع الصحابة فيتلو عليهم ما ينزل من القرآن، ويُعَلِّمهم أحكام الدِّينِ بالقول والعمل، وظلَّ المسجد يُؤَدِّي رسالته زمن الخلفاء الراشدين، واستمرَّ في عهد الأمويين والعباسيين، وبعد ذلك؛ حيث كان يجلس العلماء يُحَدِّثون ويُفَسِّرون آيات الكتاب المبين، وكان المحدِّثُونَ يَرْوُونَ أحاديث رسول الله ﷺ، وكان من بينهم الإمام مالك بن أنس ﷺ، وكذلك مسجد دمشق؛ حيث كان مركزًا مهمًّا من مراكز الثقافة، فكانت تُعْقَد فيه حلقات العلم[١]، وكان فيه «عِدَّة زوايا يتَّخِذُها الطلبة للنسخ والدرس، كما كان للخطيب البغدادي[٢] حلقة كبيرة يُلقي فيها الدروس، ويجتمع إليه الناس كل يوم»[٣].

وقد كان للصحابة رضى الله عنهم حلقات للعلم في المسجد النبوي، فقد ذكر مكحول عن رجل أنه قال: «كنا جلوسًا في حلقة عمر بن الخطاب ﷺ في مسجد المدينة نتذاكر فضائل القرآن، فذُكِر الحديثُ في أعجوبة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»[٤].

وكان لأبي هريرة ﷺ حلقة في المسجد النبوي يُعلِّم فيها حديث رسول الله ﷺ، وكانت هذه الحلقة تعكس سعة حفظ أبي هريرة ﷺ، كما كانت تجيش بعواطفه الصادقة تجاه النبي ﷺ؛ فقد دخل رجل على معاوية ﷺ فقال: «مررت بالمدينة، فإذا أبو هريرة جالس في المسجد، حوله حلقة يحدثهم، فقال: حدثني خليلي أبو القاسم ﷺ. ثم استعبر، فبكى. ثم عاد، فقال: حدثني خليلي ﷺ نبي الله أبو القاسم. ثم استعبر، فبكى، ثم قام!»[٥].

---

(١) عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص٥٤.

(٢) الخطيب البغدادي: هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي (٣٩٢- ٤٦٣هـ/ ١٠٠٢- ١٠٧٢م) أحد الحفاظ المؤرخين المقدَّمين، عارفًا بالأدب، يقول الشعر، ولوعًا بالمطالعة والتأليف. من مصنفاته: «تاريخ بغداد». انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٣/ ٣١١- ٣١٣.

(٣) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٩١.

(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٧/ ٢١٦.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ٦١١.

وقد وصف أبو إسحاق السبيعي تنظيم الحلقة العلمية في مجلس الصحابي البراء بن عازب، فقال: «كنا نجلس عند البراء بعضنا خلف بعض»[(١)]، وهو نص يشير أيضًا إلى سعة الحلقة. ومن الحلقات المعروفة آنذاك في المسجد النبوي حلقة الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري[(٢)].

وكذلك كان لمعاذ بن جبل ﷺ حلقة شهيرة في مسجد دمشق، وصفها لنا أبو إدريس الخولاني، فقال: «دخلت مسجد دمشق فإذا أنا بفتى براق الثنايا، طويل الصمت، وإذا الناس معه، فإذا اختلفوا في الشيء، أسندوه وصدروا عن رأيه، فسألت عنه، فقيل هذا معاذ بن جبل»[(٣)].

ولذلك كانت حلق العلم في المساجد بمنزلة نظام التعليم العالي في وقتنا الحاضر، وقد كانت كل طوائف المجتمع الإسلامي حريصة على الإقبال على العلم، حتى المجتهدون والعلماء وعِلية القوم منهم كانوا يُقبلون على هذه الحلق، ومِن ثَمَّ ذكر ابن كثير أن علي بن الحسين كان «إذا دخل المسجد تخطى الناس حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم، فقال له نافع بن جبير بن مطعم: غفر الله لك! أنت سيِّد الناس وقريش، تأتي تخطي حلق أهل العلم حتى تجلس مع هذا العبد الاسود؟! فقال له علي بن الحسين: إنما يجلس الرجل حيث ينتفعُ، وإن العلم يُطلب حيث كان»[(٤)].

وقد اشتهرت كثير من الحلقات في تاريخ الإسلام، فقد كانت أشهر حلقة في المسجد الحرام لحبر الأمة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، فلما مات كانت هذه الحلقة لعطاء بن أبي رباح[(٥)].

ولم يكن يؤبه لسن الُمعلم في هذه الحلقات، وإنما كان يُنظر لفقهه وعلمه وورعه، سواءٌ كان كبيرًا أم صغيرًا؛ فقد ذكر الحافظ المؤرخ الفسوي (ت ٢٨٠) عن أحد روَّاد

---

(١) الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ١٧٤.

(٢) أكرم العمري: عصر الخلافة الراشدة ص٢٧٨.

(٣) الفسوي: المعرفة والتاريخ ٢/ ١٨٥.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١٢٤.

(٥) المصدر السابق ٩/ ٣٣٧.

حلق العلم في المساجد أنه قال: «أدركتُ هذا المسجد وما فيه حلقة يذكر فيها الفقه إلا حلقة مسلم بن يسار. قال: إن في الحلقة من هو أسن منه غير أنها كانت تنسب إليه»[١].

وقد كان المعلمون في حلق العلم يبعثون -في بعض الأحيان- بطلب من له الخبرة الكافية، والعلم العميق، فقد ذكر ابن عساكر[٢] أن رجلاً رأى «أبا إدريس عائذ الله بن عبد الله الخولاني[٣] في زمان عبد الملك بن مروان، وأن حلق المسجد بدمشق يقرءون القرآن يدرسون جميعًا، وأبو إدريس جالس إلى بعض العُمُد، فكلما مرت حلقة بآية سجدة بعثوا إليه يقرأ بها، وأنصتوا له وسجد بهم وسجدوا جميعًا بسجوده، وربما سجد بهم ثنتي عشرة سجدة، حتى إذا فرغوا من قراءتهم قام أبو إدريس يقصُّ»[٤].

ولا نعجب من هذه القصة إذا عرفنا أن أبا إدريس الخولاني كان أعلم الناس بالقراءات في دمشق، ومن ثَمَّ كان المعلمون في مسجد دمشق يتحرجون من قراءة آية سجدة، وأبو إدريس بجوارهم يسمع، بل كانوا يشركونه في حلقهم؛ إجلالاً له، وتعظيمًا لعلمه، واستفادة منه.

ولشهرة بعض هذه الحلق، فقد كان طلاب العلم يؤمونها من كافة بقاع العالم الإسلامي، وقد كانت حلقة نافع بن عبد الرحمن القارئ[٥] في مسجد رسول الله ﷺ من أشهر الحلقات يومئذٍ في قراءة وتعلم كتاب الله؛ ولذلك كان الطلاب يفدون إليه من كل مكان، وقد حكى الإمام ورش المصري[٦] عن تجربته في حلقة الإمام نافع في المسجد النبوي، فقال: «خرجتُ من مصر لأقرأ على نافع، فلما وصلتُ إلى المدينة صرتُ إلى مسجد نافع، فإذا هو لا تُطاق القراءة عليه من كثرتهم، وإنما يُقْرِئ ثلاثين، فجلستُ خلف

---

(١) الفسوي: المعرفة والتاريخ ٢/ ٤٩.

(٢) ابن عساكر: هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (٤٩٩- ٥٧١هـ/ ١١٠٥- ١١٧٦م) المؤرخ الحافظ الرحّالة، كان محدث الديار الشامية. من كتبه: «تاريخ دمشق الكبير». انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٠٥.

(٣) أبو إدريس الخولاني: هو عائذ الله بن عبد الله بن عمرو الخولاني العوذي الدمشقي (٨- ٨٠هـ/ ٦٣٠- ٧٠٠م) تابعي، فقيه. كان واعظ أهل دمشق، وقاصهم في خلافة عبد الملك. وتولى القضاء. انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ٢٣٩.

(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٢٦/ ١٦٣.

(٥) نافع القارئ: هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني القارئ (ت ١٦٩هـ/ ٧٨٥م)، أحد القراء السبعة الأعلام، وأصله من أصبهان.

(٦) ورش: هو عثمان بن سعيد بن عدي المصري (١١٠- ١٩٧هـ/ ٧٢٨- ٨١٢م)، من كبار القراء. غلب عليه لقب «ورش» لشدة بياضه. أصله من القيروان، ومولده ووفاته بمصر. انظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ٢٠٥.

الحلقة، وقُلتُ لإنسان: من أكبر الناس عند نافع؟ فقال لي: كبير الجعفريين. فقلتُ: فكيف به؟ قال: أنا أجيء معك إلى منزله. وجئنا إلى منزله، فخرج شيخٌ، فقُلتُ: أنا من مصر، جئتُ لأقرأ على نافع فلم أصل إليه، وأُخبرتُ أنك من أصدق الناس له، وأنا أريد أن تكون الوسيلة إليه. فقال: نعم وكرامة. وأخذ طيلسانه ومضى معنا إلى نافع، وكان لنافع كنيتان أبو رويم وأبو عبد الله فبأيهما نودي أجاب، فقال له الجعفري: هذا وسيلتي إليك جاء من مصر، ليس معه تجارة ولا جاء لحج، إنما جاء للقراءة خاصة. فقال: تُرى ما ألقى من أبناء المهاجرين والأنصار؟ فقال صديقه: تحتال له. فقال لي نافع: أيمكنك أن تبيت في المسجد. قلت: نعم. فبتُّ في المسجد، فلما أن كان الفجر، جاء نافع فقال: ما فعل الغريب؟ فقلت: ها أنا، رحمك الله. قال: أنت أولى بالقراءة. قال: وكنتُ مع ذلك حسن الصوت، مدادًا به. فاستفتحت فملأ صوتي مسجد رسول الله ﷺ فقرأتُ ثلاثين آية، فأشار فسكَتُّ، فقام إليه شابٌّ من الحلقة، فقال: يا معلم -أعزك الله- نحن معك، وهذا رجل غريب، وإنما رحل للقراءة عليك، وقد جعلت له عشرًا، واقتصر على عُشرين. فقال: نعم وكرامة. فقرأتُ عُشرًا. فقام فتى آخر فقال كقول صاحبه، فقرأتُ عُشرًا وقعدتُ، حتى لم يبق له أحد ممن له قراءة، فقال لي: اقرأ. فأقرأني خمسين آية، فما زلتُ أقرأ عليه خمسين في خمسين حتى قرأتُ عليه ختمات قبل أن أخرج من المدينة»[1].

وهذه الحكاية من التلميذ المجتهد الإمام ورش، تعطي لنا صورة واضحة عن حلقات العلم في القرن الثاني الهجري؛ من اجتهاد، وتحمل عناء السفر ومشقته من مصر إلى المدينة المنورة لأخذ القراءة من إمام المدينة الإمام نافع، كما تعكس لنا صورة صادقة عن العَلاقة بين المعلم وطلابه من احترام وتقدير، ثم هي تحدد أن اليوم الدراسي في حلقة الإمام نافع كان يبدأ عقب صلاة الفجر.

وقد كانت حلق العلم كثيرة، وكانت كثرتها تبعًا لتخصص كل حلقة في علم من العلوم، وكانت بعض حلق العلم عظيمة العدد، ومن ثَمَّ فإنها كانت تلفت أنظار الوافدين عليها، وهذا ما حدث للإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله إذ قال: «ولدت سنة

---

(١) الذهبي: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ١/ ١٥٤، ١٥٥.

ثمانين، وحججت مع أبي سنة ست وتسعين، وأنا ابن ست عشرة سنة، فلما دخلتُ المسجد الحرام رأيتُ حلقة عظيمة فقلت لأبي: حلقة من هذه؟ قال: حلقة عبد الله بن جزء الزبيدي صاحب النبي ﷺ. فتقدمت فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ تَفَقَّهَ فِي دِينِ اللهِ كَفَاهُ اللهُ هَمَّهُ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ...**»[(١)].

وكان بمسجد بغداد ما يزيد على أربعين حلقة، وقد اختُزلت كلها في حلقة الإمام الشافعي لعلمه الغزير، وأصل هذه القصة ما يرويه اللغوي الشهير الزجاج[(٢)]؛ إذ قال: «لما قدم الشافعي إلى بغداد، وكان في المسجد إما نَيِّف وأربعون أو خمسون حلقة، فلما دخل بغداد ما زال يقعد في حلقة حلقة ويقول لهم: قال الله، وقال الرسول، وهم يقولون: قال أصحابنا. حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره»[(٣)].

كذلك الحال في مصر؛ حيث كان الإمام الشافعي يلتقي مع طلبة العلم في مسجد عمرو بن العاص، وإلى جانب ذلك، فقد اشتهرت بعض الجوامع بتدريس مختَلَفِ أنواع العلوم، وتَخَصَّصَ بعض المدرِّسِينَ للتدريس فيها، كما كان الولاة يُعَيِّنُون البعض الآخر.



صورة (٣) مَسجد عمرو بن العاص

وكان من حق العامة أن يعترضوا على الحلق والمجالس العلمية التي لا تتوافق مع حالة المجتمع وما يمر به من مصائب وأحداث؛ إذ أولوية تنبيه الناس بواقعهم، وما يُفيدهم في حالهم مقدَّم

(١) ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد ١/ ٤٩.
(٢) الزجاج: هو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل (٢٤١- ٣١١هـ/ ٨٥٥- ٩٢٣م) عالم بالنحو واللغة، ولد ومات في بغداد. من كتبه: «معاني القرآن». انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٥/ ٢٢٨.
(٣) المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٧٥.

على أي شيء آخر، فقد حدّث أحمد بن سعيد الأموي، فقال: «كانت لي حلقة وأنا بمكة، أجلس فيها في المسجد الحرام ويجتمع إليّ فيها أهل الأدب، فإنّا يومًا لنتناظر في شيء من النحو والعروض، وقد علت أصواتنا وذلك في خلافة المهتدي (ت ٢٥٦هـ) إذ وقف علينا مجنون[1] فنظر إلينا ثم قال:

أما تستحون الله يا معدن الجهل شُغلتم بذا والناس في أعظم الشُّغل

إمامكم أضحى قتيلاً مُجَدّلاً وقد أصبح الإسلام مفترق الشمل

وأنتم على الأشعار والنحو عُكَّفًا تصيحون بالأصوات في استٍ أم ذا العَقْل

فانصرف المجنون وتفرقنا، وقد أفزعنا ما ذكره المجنون وحفظنا»[2].

وكان سبب هذه الأشعار أن قائلها أراد أن يُنبه العلماء وأهل الحلق، بما يدور في مجتمعهم، فقد كانت الفتنة على أشُدِّها في العاصمة بغداد، بين قادة الأتراك ومؤسسة الخلافة التي كان على رأسها الخليفة المهتدي، فكأنه أراد منهم أن يُشاركوا بقوَّة في أحداث المجتمع من حولهم.

وقد اشتهرت حلق الإمام أبي الوليد الباجي[3] في كافة أنحاء الأندلس، بعد رحلته إلى المشرق؛ حيث «أصبحت له شخصية المحدِّث الحافظ، وتأهل بحق ليكون إمام المحدثين بالأندلس، حتى بعُد صيته واستدعي لميورقة؛ ليناظر ابن حزم في اتباع المذهب المالكي، فاستوطنها ودرس العلم بها وبإشبيلية، والموطأ بمرسية، كما حدث عن نفسه بذلك قائلاً: «وكان لي في ذلك الوقت مجلس يجتمع إلي فيه للمذاكرة في الموطأ بمسجد الموضع الذي كنت أسكن فيه...»، وسمع منه الجم الغفير صحيح البخاري بدانية، وفي رجب سنة (٤٦٣هـ) بسرقسطة وفي سنة (٤٦٨هـ) بمسجد رحبة القاضي ببلنسية، وغيرها من المدن. ومما يبرز شخصية أبي الوليد الحافظ، تسابق طلاب الحديث من الشرق

---

(١) لعله إنسان رثّ الهيئة، غريب الأطوار، إذ ليس من المعقول أن يقول هذا الشعر الرصين مجنون غير مدرك لما يمر به، أو يحدث حوله.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٤/ ٥٥٧، ٥٥٨.

(٣) أبو الوليد الباجي: هو سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي (٤٠٣ - ٤٧٤هـ/ ١٠١٢ - ١٠٨١م)، محدث وفقيه مالكي كبير، أصله من بطليوس، ومولده في باجة بالأندلس، وتولى القضاء. انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ١٢٥.

والغرب وتنافسهم في الأخذ عنه، فقد قصده أكثرهم من أبعد الأقاليم فضلاً عن أدناها، داخل بلده وخارجها، كأريولة، وإشبيلية، ولشبونة، ورندة، وبلنسية، وبغداد، وتطيلة، وحلب، ودانية، وطرطوشة، وطليطلة، والكوفة، ولورقة، ومالقة، ومرباطر، ومرجيق، ومرسية...»[١].

وقد كان للمرأة دور لا ينكره أحد في التدريس في حلقات المساجد، وقد سجلت المصادر التاريخية عشرات المعلمات اللاتي جلسن للتدريس، وكان لهنّ حلق خاصة بهن، وكانت أم الدرداء، واسمها هُجيمة بنت حُيي، صاحبة حلقة في مسجد دمشق، وقد روت عن أبي الدرداء، وعن سلمان الفارسي، وفضالة بن عبيدة رضى الله عنهم، واللافت أن عبد الملك بن مروان قد أخذ العلم عنها، وكان مواظبًا على حضور درسها حتى بعد كونه أميرًا للمؤمنين، حيث كان يجلس «في مؤخر المسجد بدمشق، فقالت له: بلغني أنك شربت الطِّلا بعد العبادة والنسك.

فقال: أيْ والله، والدِّمَا أيضًا قد شربتها. ثم جاءه غلامٌ كان قد بعثه في حاجة، فقال: ما حبسك لعنك الله؟ فقالت أم الدرداء: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإني سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَعَّانٌ**...»[٢].

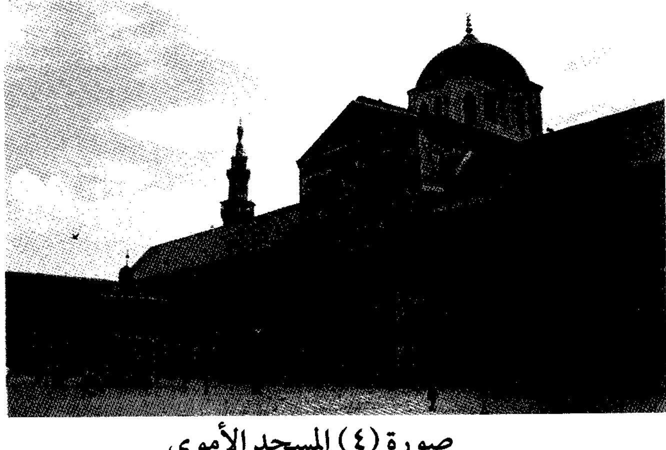
كما ذكر ابن بطوطة في رحلته أنه سمع صحيح الإمام مسلم في الجامع الأموي في دمشق على يد الشيخة المعلمة زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم (ت ٧٤٠هـ)، كما أجازت له الشيخة الجليلة عائشة بنت محمد بن مسلم الحراني (ت ٧٣٦هـ) التي كانت تروي فضائل الأوقات للإمام البيهقي[٣].

وقد كان طلبة العلم يُقبِلُون على هذه الجوامع من كل صوب، حيث هُيِّئَتْ لهم جميع الوسائل لأَجْلِ مواصلة دراستهم والتفرُّغ لها، فكانت تُجْرَى عليهم الأرزاق، وتُبْنَى لهم المساكن، وتُنْفَقُ عليهم الأموال[٤]، ومن بين هذه الجوامع:

---

(١) سليمان بن خلف الباجي: التعديل والتجريح ١/ ١٠٦.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٦٦.
(٣) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ص٧٠، والصفدي: الوافي بالوفيات ١٦/ ٣٤٨.
(٤) انظر عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص٥٤.

الجامع الأموي بدمشق، والذي بناه الوليد بن عبد الملك، وكانت حلقات الدرس فيه مختلفة؛ إذ كان للمالكية فيه زاوية، وكذلك للشافعية، وكان للخطيب البغدادي حلقة يجتمع الناس إليه ليقرأ لهم دروسًا في الحديث، ولم يقتصر المنهج فيه على العلوم الدينية، بل شمل العلوم اللغوية والأدب، والحساب والفلك.



صورة (٤) المسجد الأموي

وجامع عمرو بن العاص بالفسطاط بمصر، وكان به أكثر من أربعين حلقة دراسية يَؤُمُّهَا الطلبة للدراسة والبحث؛ منها حلقة الإمام الشافعي، وفي منتصف القرن الرابع الهجري بَلَغَتْ حلقاته مائة وعشر حلقات، خُصِّصَ بعضها للنساء، ثم ظهر نظام الإجازة (الشهادات العالية)؛ حيث يُسْتَخْدَم الطالب بعد الإجازة كُتُبَ أستاذه، ويمكنه الرواية عنه[١].

والجامع الأزهر الذي اكتمل بناؤه في سنة (٣٦١هـ)، وأصبح منارة للطلاب من البلاد الإسلامية، وقد أوقف الخلفاء الأوقاف للأزهر، وعَيَّنُوا به المدرِّسِينَ في مختَلَفِ أنواع العلوم؛ ونتيجة للشهرة الفائقة التي امتاز بها جامع الأزهر، وللتسهيلات

صورة (٥) الجامع الأزهر

(١) رحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٥٠.

الجمَّة التي كان يجدها طلاب العلم، فقد كان الطلبة يُقبِلُونَ على هذا الجامع من كل صوب، حتى قد بلغ عدد الملازمين للجامع سنة (٨١٨هـ/ ١٤١٥م) -كما يذكر المقريزي[(١)]- سبعمائة وخمسين رجلاً، ما بين عجم وزيالعة[(٢)]، ومن أهل ريف مصر، ومغاربة، ولكل طائفة رواق[(٣)] يُعْرَفُ بهم.

وقد استمرَّ هذا الجامع مركزًا علميًّا مُشِعًّا، يُؤَدِّي رسالته عَبْرَ التاريخ؛ فيُخْرج العلماء، وتُؤَلَّف به المؤلَّفات، فكان بحقٍّ مدرسة جامعة للعلم وأهله[(٤)].



صورة (٦) مسجد الزيتونة

وجامع الزيتونة بتونس، الذي تمَّ بناؤه زمن خلفاء بني أمية؛ حيث كان المؤسِّس الأوَّل لجامع الزيتونة الأمير عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية من قبل هشام بن عبد الملك، ثم حصلت زيادات عديدة في الجامع سنة (٢٥٠هـ/ ٨٦٤م)؛ حيث قام زيادة الله بن الأغلب -في عهد دولة الأغالبة- بتوسعته، وكان لهذا الجامع منزلة سامية لتدريس مختَلَفِ أنواع العلوم، قام بتدريسها كبار العلماء؛ أمثال: عبد الرحمن بن زياد المعافري[(٥)]، حيث كان من كبار المحدِّثِينَ، وكذلك أبو سعيد سحنون

(١) المقريزي: هو تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (٧٦٦- ٨٤٥هـ) ، شيخ المؤرخين المصريين، عاش زمن المماليك، من أشهر كتبه: السلوك لمعرفة دول الملوك، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط و الآثار (المعروف بخطط المقريزي) .

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣١٠.

(٣) الرواق: مُقَدَّم البيت، أو ما بين يديه، وهو بيت كالفُسطاط يُحمل على عمود واحد في وسَطه، أو سقيفة للدراسة في مسجد. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة روق ١٠/ ١٣١، والمعجم الوسيط، مادَّة روق ١/ ٣٨٣.

(٤) راجع عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص٥٧.

(٥) عبد الرحمن بن زياد (بن أنعم) : هو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري الإفريقي (٧٥- ١٦١هـ/ ٦٩٤- ٧٧٨م)، اشتهر بالجرأة على الملوك وزجرهم عن الجور والعسف. ولد ببرقة، ونشأ بها، وولي قضاء القيروان مرتين.

التنوخي، ومنهم الإمام المازري[(١)]، وغيرهم[(٢)].

وكان طلاب العلم يُقْبِلُون على هذا الجامع من كل صوب لطلب العلم؛ حيث كانت تُدَرَّس فيه كتب التفسير، والحديث، والفقه، واللغة، ويَصِفُ الحشائشي[(٣)] الحالة العلمية في جامع الزيتونة فيقول: «كان مستبحرًا بالعلوم على اختلاف أنواعها؛ عقليّة ونقليّة، مقاصد ووسائل، حتى كان يقال: إن حذاء كل سارية من غالب سواريه مُدَرِّسًا، وفي خزانته ما ينيف على المائتي ألف مجلد»[(٤)].

وجامع القرويين، وتم تأسيس هذا الجامع بمدينة فاس بالمغرب، في عهد دولة الأدارسة، سنة (٢٤٥هـ/ ٨٥٩م)، وفي سنة (٣٢٢هـ/ ٩٣٤م)، تعهد الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي - من الأمراء الزناتيين- توسعته وزيادته، ومع أوائل القرن السادس الهجري، تمَّ توسعة الجامع وزيادة مساحته حتى اكتسب شهرة فائقة، وكان الجامع يمتاز بمكانته العلمية الفائقة، فكان طلاب العلم يُقْبِلُون عليه من كل صوب؛ للتزوُّد من مَعِينِه، وكان لهذا الجامع ميزانية خاصَّة، نتيجة للأموال الموقوفة، إضافةً إلى الأموال التي كان يتبرَّع بها الأمراء وغيرهم؛ ونتيجة للشهرة

صورة (٧) مسجد القرويين

---

(١) المازري: هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر المازري (٤٥٣- ٥٣٦هـ/ ١٠٦١- ١١٤١م) محدث، حافظ، فقيه، أديب. من مؤلفاته: «نظم الفرائد في علم العقائد». انظر الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٥٢، وكحالة: معجم المؤلفين ١١/ ٣٢.

(٢) انظر: محمد بن عثمان الحشائشي: تاريخ جامع الزيتونة ص٣٦.

(٣) الحشائشي: هو محمد بن عثمان الحشائشي الشريف فاضل (١٢٧١- ١٣٣٠هـ/ ١٨٥٥- ١٩١٢م) من أهل تونس. كان عمله تفقد خزائن الكتب العلمية بجامع الزيتونة. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٦٣.

(٤) عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص٥٥.

الفائقة التي اشتهر بها الجامع، فقد كان طلاب العلم يَفِدُون إليه من البلاد الأخرى، بل إن طلاب أوربا أخذوا يُقْبِلُون على هذا المعهد العلمي، ومما يُذْكَر أن الأسقُفَّ جيربير[١] الذي أصبح فيما بعدُ بابا في رومية باسم سلفستر الثاني سنة (٩٩٩- ١٠٠٣م)- تعلَّم في جامع القرويين بعد أن تعلَّم في جامعة قرطبة[٢].

***

(١) انظر تفصيلاً: عبد الهادي التازي: أحد عشر قرنًا في جامعة قزوين ص١٩.

(٢) عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص٥٦.

المبحث الثالث

المدارس

بدأت الحضارة الإسلامية تعرف المدارس منذ القرن الخامس الهجري، وكان الداعي لذلك كثرة الحلق التي غاصت بها المساجد، وأول مسجد قد حوِّل إلى مدرسة كان الجامع الأزهر عام ٣٧٨هـ، وقد ملأت المدارس مدن العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، وهي التي قامت على الأوقاف الكثيرة التي تبرَّع بها الأغنياء من قادة، وعلماء، وتجار، وملوك، وأمراء.

والحق أن المدارس في الحضارة الإسلامية قديمةٌ قدم هذه الحضارة، وقد ذكر ابن كثير في حوادث عام ٣٨٣هـ، أن الوزير أبا نصر سابور بن أردشير[١]، قد اشترى «دارًا بالكرخ، وجدد عمارتها، ونقل إليها كتبًا كثيرة، ووقفها على الفقهاء، وسمّاها دار العلم، وأظنُّ (ابن كثير) أن هذه أول مدرسة وقفت على الفقهاء، وكانت قبل النظامية بمدة طويلة»[٢].

وما لبث إنشاء المدارس، أن أخذ طريقه نحو التوسع والانتشار؛ فقد بُنيت أول مدرسة في دمشق في عام ٣٩١هـ، بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله[٣]، وسميت بالمدرسة الصادرية[٤]، وتبعه بعد ذلك مقرئ دمشق: رشأ بن نظيف[٥]، حيث قام بتأسيس المدرسة الرشائية في حدود الأربعمائة، وإلى هذه المدارس خرج الطلبة من الحلق التي كانت تعقد في المسجد إلى مكان يختص بتلقي علم معين، فيوقف عليهم وعلى شيوخهم المال، وتوفر لهم أسباب التعليم[٦].

---

(١) سابور بن أردشير: هو أبو نصر سابور بن أردشير (ت ٤١٦هـ) وزير بهاء الدولة أبي نصر بن عضد الدولة؛ كان من أكابر الوزراء. وكان شهمًا مهيبًا كافيًا، جوادًا ممدحًا، له دار علم ببغداد. انظر: الذهبي: سير الأعلام ١٧/ ٣٨٧، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٣٥٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣١٢.

(٣) صادر بن عبد الله: هو صاحب المدرسة الصادرية داخل باب البريد على باب الجامع الأموي الغربي، أنشأها بدمشق سنة ٤٩١هـ. انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٢/ ٤٦.

(٤) عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٤١٣.

(٥) رشأ بن نظيف: هو أبو الحسن رشأ بن نظيف بن ما شاء الله الدمشقي (٣٧٠- ٤٤٤هـ/ ٩٨٠- ١٠٥٢م) مقرئ، من العلماء، أصله من المعرة، تعلم في مصر وسوريا والعراق، وعاش في دمشق. انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ٢١.

(٦) عارف عبد الغني: نظام التعليم عند المسلمين ص٨٩.

وقد كانت هذه المدارس في أول أمرها أهليَّة، ثم تدخلت في إنشائها وإدارتها مؤسسة الحكم والخلافة، بدءًا من الوزير الشهير نظام الملك الطوسي[(١)]، الذي أضحت المدارس منذ عصره حكومية، تنفق مؤسسة الحكم عليها، وتُجلِب المعلمين والمدرسين إليها.

وقد أسدى هذا الوزير للحضارة الإسلامية ما خلّد ذكره، وفاق كل أعماله في دنيا الحكم والسياسة، بإنشائه عددًا من المدارس في أنحاء الدولة نسبت إليه، فسميت بـ«المدارس النظامية»، وهي تعدّ أول نوع من المؤسسات العلمية والمدارس التعليمية النظامية ظهر في تاريخ الإسلام، وقد هيأ لطلابها أسباب العيش والتعليم. وقد خصصت المدارس النظامية لتعليم الفقه والحديث، وكان الطلاب يتناولون فيها الطعام، وتجري على كثير منهم رواتب شهرية.

ونتيجة لتحمس نظام الملك، وتبنيه إنشاء المدارس في المناطق المختلفة، فقد ترتّب على ذلك أن امتلأت بلاد العراق وخراسان بعشرات المدارس؛ حتى قيل فيه: إنَّ له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة، وكان ينشئ المدارس حتى في الأماكن النائية، وكان كلَّما وَجَدَ في بلدةٍ عالمًا قد تميَّز وتبحَّر في العلم بنى له مدرسة، ووقف عليها وقفًا، وجعل فيها دارَ كُتبٍ، وكان التلاميذ يتعلَّمُون فيها بالمجَّان، وللطالب الفقير فوق كل ذلك شيءٌ معلوم يتقاضاه من الريع المُخَصَّصِ لذلك[(٢)].

ومن أهم المدارس التي أنشأها نظام الملك: المدرسة النظامية ببغداد التي بُدئ في بنائها سنة ٤٥٧هـ وانتهى بناؤها في عام ٤٥٩هـ[(٣)]، وبلغ من اهتمام الخليفة العباسي بها أنه كان يعيِّن الأساتذة فيها بنفسه، وكان يدرّس فيها الفقه والحديث، وما يتصل بهما من علوم، وقد درّس فيها مشاهير الفكر والثقافة مثل حُجَّة الإسلام أبي حامد الغزالي صاحب إحياء علوم الدين[(٤)]، في الوقت الذي كان يدرّس في نظامية نيسابور إمام

---

(١) نظام الملك الطوسي: هو أبو علي الحسن بن علي الطوسي، الملقب نظام الملك (٤٠٨- ٤٨٥هـ/ ١٠١٨- ١٠٩٢م)، أصله من نواحي طوس، اشتغل بالأعمال السلطانية، فاتصل بالسلطان ألب أرسلان، فاستوزره، أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد وغيرها. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٩٤، والزركلي: الأعلام ٢/ ٢٠٢.

(٢) انظر: مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١٠٣، ١٠٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٩٢.

(٤) المصدر السابق ١٢/ ١٦٩.

الحرمين «أبو المعالي الجويني[(١)]»[(٢)].

وقد أسهمت هذه المدارس التي انتشرت في بغداد وأصفهان ونيسابور ومرو في تثبيت قواعد المذهب السني والدفاع عنه ضد مختلف البدع والمذاهب المنحرفة التي انتشرت في ذلك الوقت، وقد بلغ ما ينفقه نظام الملك في كل سنة على أصحاب المدارس والفقهاء والعلماء ثلاثمائة ألف دينار، فلما راجعه السلطان السلجوقي ملكشاه في هذا الأمر؛ قال له الوزير العالم: «قد أعطاك الله تعالى وأعطاني بك ما لم يعطه أحدًا من خلقه، أفلا نعوضه عن ذلك في حَمَلة دينه وحَفَظة كتابه ثلاثمائة ألف دينار»[(٣)].

ولذلك، فإن انتشار المدارس في الحضارة الإسلامية منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ليُدلل على أسبقية الحضارة الإسلامية على نشر العلم بين طبقات المجتمع المختلفة، وهو ما لم تعرفه حضارات الشرق والغرب، وجدير بالذكر أن أوربا في هذه الآونة كانت لا تملك من حطام المعرفة إلا النذر اليسير، بل كانت الكنيسة وقتئذٍ محتكرة لأسباب المعرفة، وقد ترتّب على ذلك أن عاش الأوربيون في ظلام وجهل وتخلف، وحروب طاحنة بين



صورة (٨) المدرسَة المستنصرية

(١) أبو المعالي الجويني: هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (٤١٩- ٤٧٨هـ/ ١٠٢٨- ١٠٨٥م) أبو المعالي ابن ركن الإسلام أبي محمد الجويني، إمام الحرمين، فخر الإسلام، إمام الأئمة على الإطلاق. انظر: تقي الدين الصيرفيني: المنتخب ١/ ٣٦١.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٦٧.

(٣) عبد الهادي محمد رضا: نظام الملك ص١٥٦.

القبائل المختلفة، خاصة القبائل الجرمانية التي كانت تصارع الدولة الرومانية حينًا، وتصارع القبائل الأخرى في أحيانٍ أخرى. كما أن النظام الطبقي كان له وضعه المقدس في أوربا، مما نتج عنه اضمحلال وإهمال النظام التعليمي الأوربي(١).

والعجيب أنه حتى في زمن الضعف السياسي والعسكري للدولة الإسلامية، فإن الحركة العلمية لم تتأثر بذلك، بل على النقيض؛ فقد بُنِيَتْ المدرسة المستنصرية في سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م)، وكان التتار في ذلك الوقت يجتاحون شرق العالم الإسلامي، ويهدِّدُون الخلافة العباسية تهديدًا مباشرًا، وقد وصلت الخلافة العباسية إلى أضعف درجاتها، ومع ذلك تمَّ إنشاء هذه المدرسة الخالدة، وقد علّق ابن كثير رحمه الله على هذه المدرسة بقوله: «ولم يُبنَ مدرسةٌ قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيهًا، وأربعة معيدين، ومدرِّس لكل مذهب وشيخ حديث وقارئان، وعشرة مستمعين، وشيخ طبٍّ، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطبِّ، ومكتب للأيتام، وقدّرَ للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد، ولما كان يوم الخميس خامس رجب حضرت الدروس بها، وحضر الخليفة المستنصر بالله -بنفسه الكريمة- وأهلُ دَوْلَتِه من الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والصوفية والشعراء، ولم يَتَخَلَّف أحد من هؤلاء، وعُمِلَ سماط عظيم بها؛ أَكَلَ منه الحاضرون، وحُمِلَ منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواصِّ والعوامِّ، وخُلِعَ(٢) على جميع المدرسين بها والحاضرين فيها وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين، وكان يومًا مشهودًا، وأَنْشَدَتِ الشعراءُ الخليفةَ المدائح الرائقة والقصائد الفائقة، وقد ذكر ذلك ابن الساعي(٣) في تاريخه مُطَوَّلاً مبسوطًا شافيًا كافيًا، وقدّرَ لتدريس الشافعية بها الإمام محيي الدين أبو عبد الله بن فضلان(٤)، وللحنفية الإمام العلامة رشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد

---

(١) انظر: يوهان هويزنجا: اضمحلال العصور الوسطى ص١٧٥.

(٢) خلع: أعطاهم أموالاً من خِيار المال، وهي من الخُلْعةُ أي خِيار المال. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة خلع ٨/ ٧٦.

(٣) ابن الساعي: هو أبو طالب علي بن أنجب بن عبد الله (٥٩٣- ٦٧٤هـ/ ١١٩٧- ١٢٧٥م)، من كبار المصنفين في التاريخ. مولده ووفاته ببغداد. كان خازن كتب المستنصرية. من تصانيفه: الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير. انظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ٢٦٥.

(٤) ابن فضلان: هو محيي الدين أبو عبد الله بن فضلان البغدادي الشافعي، مدرِّس المستنصرية، قاضي القضاة. برع في المذهب، ورحل إلى خراسان، وناظر علماءها. تُوُفِّي في شوال سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٥/ ١٣٢.

الفرغاني[١]، وللحنابلة الإمام العالم محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي[٢]، ودَرَّس عنه يومئذٍ ابنه عبد الرحمن[٣] نيابة لغيبته في بعض الرسالات إلى الملوك، ودَرَّس للمالكية يومئذ الشيخ الصالح العالم أبو الحسن المغربي المالكي نيابة أيضًا، حتى يُعَيَّنَ شيخٌ غيره، ووُقِفَتْ خزائن كتب لم يُسْمَعْ بمثلها في كثرتها وحُسْنِ نسخها، وجودة الكتب الموقوفة بها»[٤].

وقد كثرت المدارس في ظل الدولة الأيوبية كثرة لافتة للانتباه؛ إذ كان الغرض من إنشاء هذه المدارس، القضاء على المذهب الشيعي الذي كان متأصلاً في مصر منذ الدولة العبيدية التي سبقت الأيوبيين، ومِن ثَم اهتمت مؤسسة الحكم بإقامة المدارس ذات الاختصاصات المختلفة في جميع أنحاء مصر، والغريب أن صلاح الدين كان يُقيم هذه المدارس بُغية نشر العدل والفضيلة والأمن بين الناس، فقد ذكر ابن الأثير[٥] في حوادث عام ٥٦٦هـ أنه «كان بمصر دار للشحنة (الشرطة) تسمى دار المعونة يُحبس فيها من يريد حبسه، فهدمها صلاح الدين، وبناها مدرسة للشافعية، وأزال ما كان فيها من الظلم»[٦]، وقد كان صلاح الدين أول من اهتم ببناء المدارس في تاريخ مصر الإسلامية، فقد بنى المدرسة الصلاحية والناصرية والقمحية[٧].

وكان الأمراء والأغنياء والتجار -أيضًا- يتسابقون في بناء المدارس والوقفِ عليها بما يضمن استمرارها وإقبال الطلاب عليها، وكثيرون جدًّا جعلوا بيوتهم مدارس،

(١) الفرغاني: هو عمر بن محمد بن الحسين بن أبي عمر بن محمد بن أبي نصر الأندكاني، تُوُفِّي سنة (٦٣٢هـ). انظر: ابن أبي الوفاء القرشي: الجواهر المضية في طبقات الحنفية ٢/ ٦٦٢، ٦٦٣.

(٢) يوسف بن الجوزي: هو محيي الدين يوسف بن الجوزي القرشي البغدادي (٥٨٠- ٦٥٦هـ/ ١١٨٥- ١٢٥٨م)، وهو ابن العلامة أبي الفرج بن الجوزي، تفقه على أبيه وغيره، ولي الحسبة ببغداد، والنظر في الوقوف. قتله التتار شهيدًا صَبْرًا، هو وأولاده الثلاثة. انظر: الزركلي: الأعلام ٨/ ٢٣٦.

(٣) عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزي: توفي شهيدًا مع والده، قتل ببغداد عند دخول هولاكو إليها سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) وقد جاوز الخمسين. من آثاره: ديوان شعر. انظر: كحالة: معجم المؤلفين ٥/ ٢٠٠.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٣٩، ١٤٠.

(٥) ابن الأثير: هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (٥٥٥- ٦٣٠هـ/ ١١٦٠- ١٢٣٣م) مؤرخ متبحر، ولد في جزيرة ابن عمر، وتوفي بالموصل. من مصنفاته: «الكامل في التاريخ». انظر: الذهبي: سير الأعلام ٢٢/ ٣٥٤-٣٥٦.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٣١، ٣٢.

(٧) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٥/ ١٧٣. وعرفت باسم المدرسة القمحية؛ لأن القمح كان يوزع على فقهائها من ضيعة بالفيوم أوقفها صلاح الدين عليها. ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ١٩٧، ١٩٨.

وجعلوا ما فيها من كُتب وما يتبعها من عقار وقفًا على طلاب العلم الدارسين فيها؛ وبذلك كثرت المدارس في المشرق كثرة هائلة مدهشة، حتى إن ابن جبير الرحّالة الأندلسي هاله ما رأى في المشرق من كثرة المدارس والغلاَّت الوافرة التي تَغُلُّها أوقافها، فدعا المغاربة أن يرحلوا للمشرق لتلقِّي العلم، وكان ممَّا قاله: «وتكثر الأوقاف على طلاب العلم في البلاد المشرقية كلها وبخاصة دمشق...، فمن شاء الفلاح من أبناء مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد، فيَجِد الأمورَ المُعِينَة على طلب العلم كثيرةً، وأوَّلها فراغ البال من أمر المعيشة»[١].

ومما يُدلل على تسابق السلاطين والأمراء لبناء المدارس والعناية بها، أن السلطان إبراهيم بن محمد بن مسعود سُلطان غزنة وأطراف الهند، لم يكن يبني لنفسه بيتًا إلا وسبقه ببناء مدرسة والاعتناء بها[٢]!

وقد كان من حق النساء في الحضارة الإسلامية أن يُقمن المدارس النافعة لأبناء وبنات هذه الحضارة، فقد أنشأت السيدة ربيعة خاتون بنت أيوب -وهي أخت صلاح الدين- المدرسة الصاحبية لتدريس المذهب الحنبلي على سفح جبل قاسيون في دمشق[٣].

أمَّا في وصف المدارس في بغداد فيقول عنها ابن جبير أيضًا: «والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة إلاَّ وهي يقصرُ القصرُ البديع عنها، وأعظمها وأشهرها النظامية، وهي التي ابتناها نظام الملك، وجُدِّدَتْ سنة أربعة وخمسمائة، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة، وعقارات مُحْبَسة، تتصَيَّر إلى الفقهاء المدرِّسين بها، ويُجْرُونَ بها على الطلبة ما يَقُومُ بهم»[٤].

وأمَّا في مصر فيصف ابن بطوطة عدد مدارسها فيقول: «أمَّا المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها»[٥]. وقد ذكر المقريزي ما يَزِيدُ على سبعين مدرسة كانت منتشرة في مصر[٦].

---

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص٢٥٨.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٥٧.
(٣) المصدر السابق ١٢/ ٣١٧.
(٤) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص٢٠٥.
(٥) رحلة ابن بطوطة ص٢٠.
(٦) انظر: الخطط المقريزية ٢/ ٣٦٢-٤٠٠.

ويصف (هلام) حالة المدارس في العالم الإسلامي في ذلك الوقت فيما ينقله عنه بطرس البستاني[1] قائلاً: «كان للعرب مدارس زاهرة العلوم، منتشرة من بغداد إلى قرطبة، وكان لهم سبع عشرة مدرسة كلية، كانت مدرسة قرطبة أشهرها، ويقال: إنه كان فيها مكتبة تحتوي على ٦٠٠ ألف مجلد. وكانوا يدرسون الصرف، والنحو، والشعر، والتاريخ، والجغرافيا، وعلم الهيئة[2]، وعلم النجوم، والكيمياء، والرياضيات، والطب... وكان لهم مدرسة ابتدائية بجانب كل مسجد يُعَلّمون فيها القراءة والكتابة»[3].

والملاحظ هنا أيضًا أن الدراسة في هذه المدارس لم تقتصر على العلوم الدينية، بل كانت تُدَرَّس بجانبها العلوم الطبيعية؛ كالهندسة، والطب، والرياضيات، بل كانت هناك مدارس خصوصية تُدَرَّس فيها هذه العلوم، وفي ذلك يقول هلام: «وكان للعلوم الطبيعية مدارس خصوصية، وكانوا يُعَلّمون الطبَّ في المستشفيات»[4].

وفي الأندلس كانت المدارس الابتدائية كثيرة العدد، بَيْدَ أنها كانت تتقاضى أجورًا نظير التعليم، ولذلك أضاف الخليفة الأموي الحكم الثاني (ت ٣٦٦هـ) إليها سبعًا وعشرين مدرسة لتعليم أبناء الفقراء بالمجّان، وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء، وكان التعليم العالي يقوم به أساتذة مستقلون يُلقون محاضراتهم في هذه المدارس، وقد كوّنت المناهج التي كانت تُدرّس العمود الفقري لجامعة قرطبة في عهد الخلافة الأموية في الأندلس، كما أُنشئت الكليات في كل من غرناطة وطليطلة وإشبيلية ومرسية وألمرية وبلنسية وقادس[5].

وقد اهتم أمراء وسلاطين المغرب ببناء المدارس، فقد خرَّجت المدارس التي بناها المرابطون في المدن والبوادي وخاصة في منطقة سوس مجموعة من العلماء النابهين في

---

(١) بطرس البستاني: هو بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣م)، عالم مشارك في أنواع من العلوم. ولد في الدبية من إقليم الخروب بلبنان. انظر: كحالة: معجم المؤلفين ٣/ ٤٨.

(٢) علم الهيئة: هو تعيين الأشكال للأفلاك وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من السيارة، والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها. ابن خلدون: المقدمة ص٤٧٩.

(٣) دائرة المعارف ٦/ ١٦١، ١٦٢ نقلاً عن عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص٥٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٣٠٦.

تخصصات عِدَّة رفعتهم إلى مصافّ رجال الفكر في العالم الإسلامي. وقد بلغت مدارس سوس نحو أربعمائة مدرسة، تحدث محمد المختار السوسي[(١)] في كتابه «سوس العالمة» عن خمسين مدرسة منها[(٢)]، وفي «مدارس سوس العتيقة» عن مائة مدرسة منها[(٣)].

وكانت القبائل هي التي تمول هذه المدارس عن طريق تخصيص بعض أعشار محصولاتها الزراعية لها، وتحبيس بعض الأملاك من أجل الصيانة والتموين وتحمُّل تكاليف المدرسة، وكانت القبائل السوسية تتنافس في بناء المدارس بالجبال والسهول، وكانت لكل قبيلة مدرسة أو مدرستان أو ثلاث مدارس، ومن أبرز المدارس التي شيِّدت في عصر المرابطين -إضافةً إلى ما سبق- نذكر «مدارس سبتة، وقد كانت هناك عدة مدارس أخرى بطنجة، وأغمات، وسجلماسة، وتلمسان، ومراكش. وكانت هذه المدارس تأوي علم القيروان وثقافة الأندلس المشهورة، حيث نبغ فيها أعلام كبار، منهم القاضي عياض[(٤)]، وأبو الوليد بن رشد[(٥)] مؤلف كتاب المقدمات الأوائل للمدونة، والبيان والتحصيل، إلى آخر كتبه القيِّمة»[(٦)].

والذي يجب أن ننبه عليه أن الطلبة في هذه المدارس -في المشرق والمغرب- كانوا يُكفون المؤنة، من الطعام والشراب والأموال والسُّكنى، ولذلك عرفت الحضارة الإسلامية نظام المدن الجامعية قبل الغرب بمئات السنين؛ ففي عام ٧٢١هـ أمر سلطان الدولة المرينية في المغرب أبو سعيد عثمان بن يعقوب (ت ٧٣١هـ) ببناء «المدرسة التي بفاس الجديدة، فبنيت أتقن بناء وأحسنه، ورتّبَ فيها الطلبة لقراءة القرآن، والفقهاء

---

(١) المختار السوسي: هو محمد المختار بن علي بن أحمد الإلغي السوسي (١٣١٨- ١٣٨٣هـ/ ١٩٠٠- ١٩٦٣م) مؤرخ، فقيه، أديب، يقول الشعر، ويُعرف بوزير التاج. من كتبه كتاب «المعسول في تاريخ سوس». انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ٩٣.

(٢) محمد المختار السوسي: سوس العالمة ص١٥٤-١٦٧.

(٣) محمد المختار السوسي: مدارس سوس العتيقة ص٩٣-١٣٤.

(٤) القاضي عياض: هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (٤٧٦- ٥٤٤هـ/ ١٠٨٣- ١١٤٩م)، كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، وتوفي بمراكش. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٤٨٣، ٤٨٥.

(٥) ابن رشد: هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (٥٢٠- ٥٩٥هـ/ ١١٢٦- ١١٩٨م) العلامة الفيلسوف، المعروف بابن رشد الحفيد. ولد بقرطبة، وتوفي بمراكش. انظر: الذهبي: سير الأعلام ٢١/ ٣٠٧-٣٠٩، وابن العماد: شذرات الذهب ٤/ ٣٦٧.

(٦) الحسن السائح: الحضارة المغربية ٢/ ٦٤.

لتدريس العلم، وأجرى عليهم المرتبات والمؤن في كل شهر، وحبس (أوقف) عليها الرِّباع والضياع؛ ابتغاء ثواب الله ورغبة فيما عنده»[١].

وقد كان السلطان أبو سعيد من أشهر سلاطين المرينيين الذين اهتموا ببناء المدارس، ففي عام ٧٢٣هـ «في فاتح شعبان منها، أمر السلطان أبو سعيد ببناء المدرسة العظمى بإزاء جامع القرويين بفاس وهي المعروفة اليوم بمدرسة العطارين، فبُنيت على يد الشيخ أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار، وحضر السلطان أبو سعيد بنفسه في جماعة من الفقهاء وأهل الخير حتى أسست، وشرع في بنائها بمحضره، فجاءت هذه المدرسة من أعجب مصانع الدول بحيث لم يبنِ ملكٌ قبله مثلها، وأجرى بها ماء معينًا من بعض العيون هنالك، وشحنها بالطلبة، ورتب فيها إمامًا ومؤذنين وقَوَمة يقومون بأمرها، ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم، وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية، واشترى عِدَّة أملاك ووقفها عليها احتسابًا بالله تعالى»[٢].

واشتهر العصر المملوكي بكثرة المدارس التي بنيت فيه، فقد تسابق أمراء وسلاطين المماليك في بناء المدارس الشرعية والعلمية، فتفننوا في بنائها وعمارتها، بل اهتموا بتعيين أفاضل العلماء وكبرائهم في هذه المدارس، فقد «درَّس الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام[٣] بالمدرسة الصالحية بين القصرين»[٤] وذلك في عام ٦٥٠هـ، كما درّس في هذه المدرسة تقي الدين بن بنت الأعز[٥] في عام ٦٨٠هـ، وسراج الدين البُلقيني[٦] في المدرسة الناصرية ٧٧٩هـ، والعلامة المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون في المدرسة القمحية في سنة

---

(١) أبو العباس الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٣/ ١١١، ١١٢.

(٢) الناصري: المصدر السابق ٣/ ١١٢.

(٣) العز بن عبد السلام: هو عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي (٥٧٧- ٦٦٠هـ/ ١١٨١- ١٢٦٢م)، ولقبه عز الدين، وهو المعروف بسلطان العلماء، فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد، ولد ونشأ في دمشق، وتولى القضاء في مصر. من كتبه: التفسير الكبير. انظر الزركلي: الأعلام ٤/ ٢١.

(٤) المقريزي: السلوك ٥/ ٤٨٥.

(٥) تقي الدين بن بنت الأعز: محمد بن أحمد بن عبد الوهاب بن خلف العلائي (ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م) القاضي شهاب الدين ابن القاضي علاء الدين ابن قاضي القضاة تاج الدين، المعروف بابن بنت الأعز المصري الشافعي. انظر: الفاسي: ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد ١/ ٥٢.

(٦) سراج الدين البلقيني: هو أبو حفص عمر بن رسلان بن صالح الكناني (٧٢٤- ٨٠٥هـ/ ١٣٢٤- ١٤٠٣م)، مجتهد حافظ للحديث، وُلِدَ في بلقينة من غربية مصر، وتعلم بالقاهرة. وولي قضاء الشام سنة ٧٦٩هـ، وتوفي بالقاهرة. انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٤٦.

٧٨٦هـ، وغيرهم من كبار العلماء على مدار تاريخ المماليك[١].

وقد كان العلماء والفقهاء والرعية ومعهم السلاطين، يحتفلون غاية الاحتفال عند افتتاح مدرسة من المدارس، ففي عام ٦٦١هـ افتتح الملك الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية، فاجتمع أهل العلم في هذه المدرسة بين القصرين عند تمام عمارتها، «وحضر القُرّاء وجلس أهل كل مذهب في إيوانهم. وفوض تدريس الحنفية للصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين بن العديم، وتدريس الشافعية للشيخ تقي الدين محمد ابن الحسن بن رزين، والتصدير لإقراء القرآن للفقيه كمال الدين المحلِّي، والتصدير لإفادة الحديث النبوي للشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي. وذكروا الدروس ومدت الأسمطة، وأنشد جمال الدين أبو الحسين الجزار[٢]...، وأنشد عدة من الشعراء أيضًا، ومنهم السراج الوراق، والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب، فخلع عليهم، وكان يومًا مشهودًا، وجعل السلطان بهذه المدرسة خزانة كتب جليلة، وبنى بجانبها مكتبًا للسبيل، وقرر لمن فيه من أيتام المسلمين الخبز في كل يوم، والكسوة في فصل الشتاء والصيف»[٣].

وكان هناك من أمراء المماليك من يبني المدارس بجوار بيته؛ حبًّا فيها، ورغبة في نشر العلم بين أهله وجيرانه، ففي عام ٧٣٠هـ بنى الأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي[٤] مدرسة بجوار داره، قريبًا من درب ملوخيا بالقاهرة، ووقف عليها أوقافًا جليلة[٥].

وقد كانت هناك وظيفة أخرى لبعض المدارس المملوكية، بجوار التدريس، فقد كانت بعض هذه المدارس بمنزلة دار للقضاء والمحاكمة، والنظر في الجرائم الكبرى، كما حدث مع أحد المجرمين العتاة ويُسمى بابن سبع، حينما حكم عليه فقهاء الشافعية بحقن

---

(١) المقريزي السلوك ٤/ ٣٤٧، ٥/ ١٦٣.

(٢) الجزار: هو يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد (٦٠١- ٦٧٩ هـ/ ١٢٠٤- ١٢٨٠م) شاعر مصري ظريف. انظر: الزركلي: الأعلام ٨/ ١٥٣.

(٣) المقريزي السلوك ٢/ ٣..

(٤) مغلطاي: هو أبو عبد الله علاء الدين مغلطاى بن قليج بن عبد الله المصرى الحنفي (٦٨٩- ٧٦٢هـ/ ١٢٩٠- ١٣٦١م) كان نقادة، له مآخذ على المحدثين وأهل اللغة. صنف أكثر من مائة مؤلف، منها (شرح البخاري). انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ٢٧٥.

(٥) المقريزي: السلوك ٣/ ١٣٣.

دمه، ومن ثَمَّ سجنه، خلافًا لما ارتأه المالكية بإراقة دمه وقتله، وقد حدثت هذه المحاكمة في المدرسة الصالحية بين القصرين في عام ٧٩١هـ[١].

وقد كانت هناك مدارس متخصصة للعلوم التجريبية والتطبيقية: كالمدارس المخصصة لتدريس الطب وعلومه، مثل المدرسة الظاهرية البرانية في دمشق، التي كانت تستقطب أعظم العلماء المتخصصين في هذه الصنعة؛ ففي عام ٧٢٤هـ استوفد عالم الطب الشهير في عصره نجم الدين عبد الرحيم بن الشحام الموصلي[٢]، للتدريس في المدرسة الظاهرية البرانية بعدما تعلَّم الطب وفنونه من بلاد الأزبك[٣] عبر رحلة علمية استغرقت بضع سنين[٤].

وكانت المدرسة الدخوارية -كانت قبلي الجامع الأموي في دمشق- من أشهر مدارس وكليات الطب في الشام، وقد أنشئت في عام ٦٢١هـ، أنشأها الطبيب الدمشقي الشهير المهذب الدخوار عبد الرحيم بن علي حامد[٥]، شيخ الطب، وواقف هذه المدرسة، وقد مدحه الطبيب الشهير ابن أبي أصيبعة[٦] فقال: «كان أوحد عصره، وفريد دهره، وعلاّمة زمانه، وإليه انتهت رئاسة الطب على ما ينبغي، أتعبَ نفسه في الاشتغال؛ حتى فاق أهل زمانه، وحظي عند الملوك»[٧].

وكانت بعض المدارس في مصر بمنزلة جامعة متعددة الفروع والأقسام، كالمدرسة المنصورية التي أنشأها سلطان مصر المنصور قلاوون الألفي بين القصرين في القاهرة،

(١) المقريزي: السلوك ٥/ ٢٤١.

(٢) عبد الرحيم بن الشحام الموصلي: هو نجم الدين بن الشحام الشافعي (٦٥٣- ٧٣٠هـ) تعلم الفقه، ثم قدم دمشق سنة ٧٢٤هـ، وولي مشيخة خانقاه القصرين، وكان يعرف الفقه على مذهب الشافعي والطب. انظر الحافظ العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣/ ١٥٠.

(٣) بلاد في آسيا الوسطى، موقعها الآن دولة أوزبكستان.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٢٦١.

(٥) مهذب الدين الدخوار: هو عبد الرحيم بن علي بن حامد الدخوار (٥٦٥- ٦٢٨هـ/ ١١٧٠- ١٢٣٠م)، ولد ونشأ في دمشق، واتصل بالملك العادل الأيوبي. من كتبه: «الجنينة» في الطب، و«مختصر الأغاني» للأصفهاني. انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ٣٤٧.

(٦) ابن أبي أصيبعة: هو أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة (٥٩٦- ٦٦٨هـ/ ١٢٠٠- ١٢٧٠م) الطبيب المؤرخ، صاحب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء». توفي في صَرْخد بسوريا. انظر: محمد الخليلي: أدباء الأطباء ١/ ٥٢.

(٧) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤/ ٣١٨.

فكانت مقسمة لتدريس المذاهب الفقهية، لكل مذهب مدرس مخصص، ومكان معين، كما خُصص فيها قسم لتدريس العلوم الطبية، وقسم لدراسة الحديث النبوي، وقسم لتفسير القرآن الكريم، «وكانت هذه التداريس لا يليها إلاّ أجلُّ الفقهاء المعتبرين»[(١)].

وقد اهتمت بعض المؤلفات التاريخية بحصر المدارس المذكورة في كل بلد على حدة، فقد ألف عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت ٩٢٧هـ) كتابه الشهير «الدارس في تاريخ المدارس» وتناول هذا الكتاب الأبواب التالية: دور القرآن - دور الحديث - ثم دور القرآن والحديث معًا - المدارس ومنها مدارس الطب - الخوانق - الرباطات - الزوايا - الترب - المساجد والجوامع، وأما أسلوبه، فكان يذكر اسم المدرسة مثلاً ويحدد موقعها ويذكر ترجمة بانيها، ويعدِّد ما أوقف عليها، ثم يذكر المدرِّسين الذين تعاقبوا فيها إلى زمن المؤلف وسيرهم، ومن المعلوم أن هذا الكتاب قد خُصّص لمدارس مدينة دمشق فقط.

وقد فعل المقريزي مثل ذلك في موسوعته الشهيرة «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» فقدم للدارسين خدمة كبيرة، حيث ذكر مدارس القاهرة في العصرين الأيوبي والمملوكي[(٢)].

إن اهتمام المسلمين بإنشاء المدارس في كافة أنحاء المجتمع الإسلامي، ليُدلل على أن هذه الحضارة، قد أخذت بعين الاعتبار أن العلم أساس كل تقدُّم، بل قدمت للعالم نموذجًا فريدًا في نشر العلم بين الفقير والغني، والكبير والصغير، والرجل والمرأة حتى أصبحت الحضارة الإسلامية متربّعة على قمة التطور العلمي طوال قرون متعددة.

***

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣/ ٤٨٠.

(٢) انظر: فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ص٢٢٤.

الفصل الرابع
المكتبات في الحضارة الإسلامية

لم يكن غريبًا أن يهتمَّ الخلفاء المسلمون بتأسيس المكتبات العامَّة، ويجمعوا فيها الكتب العربية والمترجمة عن اللغات الأخرى؛ إذ إن الإسلام - كما رأينا - حضَّ على العلم، ودعا إلى المعرفة وإلى التعلُّم، وإلى إنارة العقول بالقراءة والكتابة، كما حثَّ على تفعيل العقل في أمور الحياة.

والحقيقة أن تاريخ المكتبات في الإسلام جزءٌ لا يتجزَّأ من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية والفكر الإسلامي؛ ارتقت بارتقائه، وساعدت على ازدهاره، ونضجت معه، وتاريخ الكتب عند المسلمين أساس ومهمٌّ جدًّا لاستقصاء تطوُّر المعرفة الإنسانية عندهم؛ ذلك أنه لم تتفوَّقْ على المسلمين أُمَّة من الأمم في حُبِّهِمْ للكتب والعناية بالمكتبات والمعرفة عامَّة، والمكتبات من أهمِّ وسائل نشر المعرفة على مدى العصور، وقد انتشرت المكتبات في الإسلام انتشارًا واسعًا، فكانت ثمرة من ثمار هذه الحضارة الإسلامية الخالدة؛ فالأطوار التي مرَّت بها هي أطوار الحضارة الإسلامية بشكل عامٍّ[1].

هذا، وقد عرفت الحضارة الإسلامية أنواعًا عدَّة من المكتبات، سنتعرف على هذه الأنواع من خلال المباحث التالية:

- **المبحث الأول: المكتبات وأنواعها**
- **المبحث الثاني: مكتبة بغداد (جامعة إسلامية متطورة)**

(١) انظر: سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي ص٢.

المبحث الأول

المكتبات وأنواعها

عرفت الحضارة الإسلامية أنواعًا متعددة من المكتبات لم تعرفها أي حضارة أخرى، ولقد انتشرت هذه المكتبات في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، فوُجدت المكتبات في قصور الخلفاء، وفي المدارس، والكتاتيب، والجوامع، وكما وُجدت في عواصم الإمارات وُجدت كذلك في القرى النائية، والأماكن البعيدة؛ مما يؤكد على تأصُّل حُبِّ العلم لدى أبناء هذه الحضارة، وكان من جملة ما عرفته الحضارة الإسلامية من مكتبات:

١) المكتبات الأكاديمية: وهي من أشهر المكتبات في الحضارة الإسلامية؛ ومن أهمِّها مكتبة بغداد (بيت الحكمة)، وسنتحدَّث عنها في المبحث القادم.

٢) المكتبات الخاصَّة: وقد انتشر هذا النوع من المكتبات في جميع أنحاء العالم الإسلامي بشكل واسع وجيِّدٍ؛ ومن أمثلتها مكتبة الخليفة المستنصر[١]، ومكتبة الفتح بن خاقان، الذي «كان يمشي والكتاب في كُمِّه ينظر فيه»[٢]. ومكتبة ابن العميد وزير آل بويه الشهير، وقد ذكر ابن مسكويه المؤرخ الشهير أنه كان خازنًا لمكتبة ابن العميد، فذكر واقعة سرقة تعرَّض لها بيته، وكانت فيه مكتبته، وقد حزن ابن العميد أكثر الحزن على مكتبته؛ ظنًّا منه أنها سُرِقَتْ مع باقي المسروقات، وفي معرض حديثه عن هذه الواقعة نرى أن هذه المكتبة كانت كثيرة الكتب، عظيمة القدر، فقد قال ابن مسكويه: «اشتغل قلب الوزير ابن العميد بدفاتره، ولم يكن شيء أعزَّ عليه منها، وكانت كثيرة، فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب، يُحمل على مائة وِقْر[٣]، فلما رآني سألني عنها فقلتُ: هي بحالها لم تمسسها يد. فسُرِّي عنه، وقال: أشهد أنك ميمون النقيبة، أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض، وهذه الخزانة هي التي لا عوض منها. ورأيته قد أسفر وجهه، وقال: باكر بها غدًا إلى الموضع الفلاني. ففعلتُ،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٨٦.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ١٨/ ٣٧٥.

(٣) الوِقْر: الثِّقْلُ يُحمل على ظهر أو على رأس. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وقر ٥/ ٢٨٩.

وسلِمت بأجمعها من بين جميع ماله»[١]. ومكتبة القاضي أبي المطرف، الذي «جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس»[٢].

٣) المكتبات العامَّة: وهي مؤسسات ثقافية يُحْفَظُ فيها تراث الإنسانية الثقافي وخبراتها؛ ليكون في متناول المواطنين من كافَّة الطبقات، والأجناس، والأعمار، والمهن، والثقافات؛ وكان من أمثلتها: مكتبة قرطبة التي أَسَّسَهَا الخليفة الأموي الحكم المستنصر سنة (٣٥٠هـ/ ٩٦١م) في قرطبة، وقد أقام لها موظَّفِين مخصَّصِين للعناية بشئونها، وجمع فيها النسَّاخ، وعيَّن لها عددًا كبيرًا من المجلِّدِين، وقد ظلَّتْ محطَّ أنظار العلماء وطلاب العلم في الأندلس، وقد وفد إليها الأوربيون للنهل من مَعِينِهَا، والتزوُّد من علومها، وقد كانت عدة الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعًا وأربعين فهرسة، في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط[٣]. وأيضًا مكتبة بني عمار في طرابلس الشام، وكان لهم وكلاء يجوبون العالم الإسلامي؛ بحثًا عن الروائع لضمِّها إلى المكتبة، وكان بها خمسة وثمانون ناسخًا، يشتغلون بها ليل نهار في نسخ الكتب.

٤) المكتبات المدرسية: حيث أَوْلَتِ الحضارة الإسلامية اهتمامها لإنشاء المدارس من أَجْلِ تعليم الناس جميعًا، وقد أُلْحِقَت المكتبات بهذه المدارس، وهو الشيء الطبيعي المكمِّل لهذا الرقي والازدهار، وبشكل عامٍّ فقد انتشرت المدارس في الإسلام انتشارًا واسعًا في مدن العراق وسوريا ومصر وغيرها، وقد أُلحقت بمعظم المدارس الإسلامية مكتبات، فنور الدين محمود بنى مدرسة في دمشق وألحق بها مكتبة، وكذلك فعل صلاح الدين، أما القاضي الفاضِل وزير صلاح الدين فقد أسس مدرسة في القاهرة سماها الفاضلية، وأودع فيها حوالي مائتي ألف مجلد مما أخذه من خزائن العبيديين، ويذكر ياقوت الحموي عدة مدارس كانت في مرو، كانت تحوي في زمانه مكتبات ضخمة، وكانت أبوابها مفتوحة للجميع[٤].

---

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٢٨٦.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٢٨/ ٦١.

(٣) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة ١/ ١٩٠.

(٤) ربحي مصطفى عليان: المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية ص١٣٤.

٥) مكتبات المساجد والجوامع: ويُعْتَبَرُ هذا النوع من المكتبات الأوَّل في الإسلام؛ حيث نشأت المكتبات في الإسلام مع نشأة المساجد، ومن أمثلتها: مكتبة الجامع الأزهر، ومكتبة الجامع الكبير في القيروان[١].

هذا، وكان «الإنفاق على المكتبات بصفة عامَّة من ريع الأوقاف التي تُوقَف عليها؛ حيث كانت الدولة تُخَصِّصُ لها أوقافًا مُعَيَّنَة، ويُقَدِّمُ لها بعض الأغنياء وأهل الخير أوقافًا تساعد في الإنفاق عليها»[٢].

***

(١) انظر: سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي ص١٨-٧٨ بتصرف.
(٢) محمد حسين محاسنة: أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين ص١٦١.

المبحث الثاني

مكتبة بغداد (جامعة إسلامية متطورة)

كان للمكتبات العلمية الإسلامية تأثير بالغ في نموِّ الحضارة الإنسانية وتطوُّرها حتى ظهرت بصورتها الحديثة، لكن أشهر تلك المكتبات بلا ريب كانت مكتبة بيت الحكمة ببغداد، التي تُعَدُّ أعظم دُورِ العِلْـمِ في الأرض بلا أدنى مبالغة، وأَحَدَ الكنوز العلمية التي أنتجها الفكر الإسلامي قديمًا، كما أنتج غيرها من المكتبات العلمية في سائر الأقطار الإسلامية، والتي تناسى الناس دَوْرَها على الرغم من أنها كانت بمنزلة جامعة علمية عالمية، يقصدها الطلاب على اختلاف أجناسهم وأديانهم من الشرق والغرب؛ لدراسة فنون العلم المختلفة، وبلغات متعدِّدَة، وظلَّ نورها يُضِيء للبشرية طريقها قرابة خمسة قرون، حتى دُمِّرَتْ على أيدي التتار.

وقد قام على إنشاء هذه المكتبة الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في عاصمة الخلافة بغداد؛ حيث خَصَّصَ بِنَاية مستقلَّة جمع فيها نفائس الكتب ونوادرها من المؤلفات العربية والمترجمة عن اللغات المختلفة، ولَمَّا تولَّى الخليفة هارون الرشيد (حكم من سنة ١٧٠ إلى سنة ١٩٣ هـ)، وكان من أعظم خلفاء بني العباس وأكثرهم ذِكْرًا في التاريخ، اتَّجه إلى إخراج الكتب والمخطوطات - التي كانت تُحْفَظُ في قصر الخلافة بعد أن تَضَخَّمَ رصيدها - من التراث المدوَّن والمخطوطات المؤلَّفَة المترجمة، وإفرادها بمبنًى خاصٍّ بها، يصلح لاستيعاب أكبر عدد من الكتب، ويكون مفتوحًا أمام كل الدارسين وطلاب العلم، فأسس دارًا رحبة ضخمة، نقل إليها كل الذخائر وسمَّاها: (بيت الحكمة)؛ تقديرًا لجلال رسالتها، والتي تطوَّرَتْ فيما بعدُ وأصبحت أشهر أكاديمية علمية عُرِفَتْ في التاريخ[١]، ثم كان التطور الأكبر لها في عهد المأمون الذي استطاع أن يجلب لها كبار المترجمين والناسخين والعلماء المؤلفين، بل كان يُرسل بعثات علمية إلى بلاد الروم، التي كان لها أعظم الأثر في نهضة وعلو هذه الجامعة العلمية الفريدة[٢].

---

(١) عن مكتبة بغداد انظر: خضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين ص٢٩.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ٤/ ٣٣٦.

فنشأ بيت الحكمة - أَوَّل ما نشأ - كمكتبة خاصَّة، ثم أصبح مركزًا للترجمة، ثم مركزًا للبحث والتأليف، ثم ما لبث أن أصبح دارًا للعلم يتمُّ إعطاء الدروس فيها ومنح الإجازات العلمية، ثم أُلحق بها بعد ذلك مرصد فلكيٌّ، وعلى هذا فإن هذه الدار كانت تنقسم إلى عدة أقسام كما يلي:

المكتبة:

كان قسم المكتبة هو المنوط به اقتناء الكتب من كل حدب وصوب، وتنظيمها على الرفوف ومناولتها لمن يطلبها، ويلحق بذلك قسم النسخ والتجليد الذي كان يُنَاط به بطبيعة الحال استنساخ الكتب وتجليدها، وترميم ما يفسد ممَّا هو موجود، وكانت طرق تزويد بيت الحكمة بالكتب كثيرة منها: الشراء؛ حيث كان المأمون يُرْسِلُ بعثات إلى القسطنطينية لإحضار الكتب أيًّا كان نوعها، وكان في بعض الأحوال يسافر هو بنفسه ويشتري الكتب ويُرسلها إلى بيت الحكمة، ومنها - أيضًا - الاستهداء؛ حيث كان الخلفاء يبعثون وفودًا إسلامية إلى الدول الأجنبية، فكانت تهديهم من الكتب الموجودة لديهم، ومنها - أيضًا - أنه كان في بعض الأوقات يقبل الجزية ممَّن تجب عليهم كُتُبًا! كما كان يحضر مئات النُّسَّاخ، والشُّرَّاح، والمترجمين من شتى اللغات؛ لتعريب ونقل الكتب من لغتها الأصلية، وكذلك كان منها التأليف، وهكذا تجمَّعَتْ لهذه المكتبة طرق مختلفة ومتعدِّدَة لِتَصِلَ بكتبها إلى حدٍّ لم تبلغه مكتبة قبلها عددًا ونوعًا.

وفي أمر البعثات كتب الخليفة المأمون إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما عنده من العلوم القديمة المخزونة الموروثة عن اليونان، وكانت تقاليد الروم وقتها تمنع من مطالعتها، ثم أجابه إلى ذلك بعد امتناع، فجهز المأمون بعثة علمية، وزوَّدَها بنفر من المترجمين، وجعل على رأسها المشرف على مكتبة بيت الحكمة، وتجوَّلَتْ تلك البعثة في كثير من الأماكن المختلفة التي يُظَنُّ أن فيها مخازن للكتب اليونانية القديمة، وعادت إليه بطرائف الكتب، وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والطب والفلك، وغير ذلك من العلوم، كما راسل المأمون باقي الملوك في عصره؛ يسألهم أن يسمحوا لبعثاته بالبحث والتنقيب عن الكتب في المخازن القديمة، ومن أطرف ما حُكِيَ في ذلك أن إحدى هذه

البعثات العلمية وَجَدَتْ تحت حصن قديم ببلاد فارس صناديق، بها كتب كثيرة قد تعفَّنَتْ حتى فاحت منها رائحة نتنة، فأخذها رجال البعثة، وحملوها إلى بغداد وبَقِيَتْ حولاً كاملاً حتى جَفَّتْ وتَغيَّرَتْ، وزالت الرائحة عنها، ثم أقبلوا بعد ذلك على دراسة ما فيها[1]!

مركز الترجمة:

اجتمعت لدى المأمون ثروة هائلة من الكتب القديمة، فَشَكَّل لها هيئة من المترجمين المهرة والشُّرَّاح والوَرَّاقين،؛ للإشراف على ترميمها ونقلها إلى العربية، وعَيَّنَ مسئولاً لكل لغة يُشْرِفُ على مَنْ يترجمون تراثها، وأجرى عليهم الرواتب العظيمة،؛ حيث جعل لبعضهم خمسمائة دينار في الشهر[2]، (أي ما يساوي اثنين من الكيلو جرامات ذهبًا تقريبًا)!

وكان قسم الترجمة منوطًا به ترجمة الكتب من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، وأحيانًا من العربية إلى لغات أخرى، وكان يُعَيَّنُ في هذا القسم نَقَلَة يختلفون من الناحية العملية والإدارية عن الخَزَنَة الذين يُعَيَّنُونَ في قسم المكتبة، وكان من هؤلاء: يوحنا بن ماسويه، وجبريل بن بختيشوع[3]، وحنين بن إسحاق الذي أُرسل في رحلة إلى بلاد الروم ليتَمَكَّنَ من اللغة اليونانية، وكانت الكتب الأجنبية تُجْلَبُ إلى المكتبة وتُتَرْجَم فيها، كما كان بعض النقلة يُترجم خارج المكتبة ويمدُّ المكتبة بترجماته، وكان الخليفة المأمون يُقَدِّم مكافآت سخية للمترجمين إلى حدِّ وزن الترجمة بقيمتها ذهبًا[4]!

وقد ذكر ابن النديم في كتابه (الفهرست) أسماء لعشرات ممن كانوا يقومون بالترجمة من اللغات الهندية، واليونانية، والفارسية، والسريانية، والنبطية، وهؤلاء لم يقوموا بترجمة الكتب إلى العربية فقط، وإنما إلى سائر اللغات الحية المنتشرة داخل المجتمع الإسلامي؛

---

(١) انظر: ابن النديم: الفهرست ص ٣٠٤، وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص١٧٢.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٣٣.

(٣) جبريل بن بختيشوع: هو جبريل أو جبرائيل بن بختيشوع الجنديسابوريّ (ت ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م) طبيب حاذق، خدم الرشيد والمأمون وغيرهما. من آثاره: «رسالة إلى المأمون في المطعم والمشرب»، و«المدخل إلى صناعة المنطق». انظر: القفطي: أخبار الحكماء ٩٣-١٠١، وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٤-٣٥، وكحالة: معجم المؤلفين ٣/ ١١٣.

(٤) انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص١٧٢.

كي ينتفع بها جميع من يعيش داخل البلاد الإسلامية على اختلاف جنسياتهم، وبعضهم كان يقوم بترجمة الأصل إلى لغته هو، ثم يقوم مترجم آخر بنقله إلى العربية وغيرها، كما كان يفعل يوحنا بن ماسويه الذي كان ينقل الكتاب إلى السريانية، ثم يُكَلِّف غيره بنقله إلى العربية، مع الاحتفاظ بالأصل بعد صيانته وتجليده[١].

ومَنْ يُرَاجِع كتب الفهارس التي نقلت عن هذه المكتبة يجد إشارات كثيرة تدلُّ على أن الكثير من الكتب كان يوجد منها نسخ نبطية، وقبطية، وسريانية، وفارسية، وهندية، ويونانية، وقد قَدَّمَ علماء المسلمين بذلك خدمة جليلة للبشرية كلها؛ بنقلهم لهذا التراث الذي كان مُهَدَّدًا بالزوال، ولولاهم ما عرف الناس في العصر الحديث شيئًا عن المصنفات اليونانية والهندية الثمينة القديمة؛ حيث كان يُحَرَّمُ الاطلاع عليها في كثير من البلدان التي جُلِبَتْ منها، وكان يُحْرَق منها ما يُعْثَرُ عليه، كما فُعِلَ بكتب أرشميدس العالم الشهير؛ إذ أَحْرَق الرومُ منها خمسة عشر حِمْلاً[٢]!

وبالطبع لم يقتصر دور هؤلاء العلماء على الترجمة، وإنما قاموا بالتعليق على هذه الكتب، وتفسير ما فيها من نظريات، ونقلها - كما سبق أن رأينا - إلى حَيِّزِ التطبيق، وإكمال ما فيها من نقص، وتصويب ما فيها من خطأ؛ حيث كان عملهم يشبه ما يُسَمَّى بالتحقيق الآن، كما يُفْهَمُ من تعليقات ابن النديم على بعض تلك الكتب[٣].

وقد ذكر القاضي صاعد الأندلسي في كتابه «طبقات الأمم» أطوار عملية الترجمة في بيت الحكمة، واهتمام الخليفة المأمون بهذه المكتبة الرائعة، فقال: «لما أفضت الخلافة إلى الخليفة السابع منهم (من العباسيين) عبد الله المأمون بن هارون الرشيد... تمم ما بدأ به جدُّه المنصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه، واستخراجه من معادنه، بفضل همته الشريفة، وقوة نفسه الفاضلة، فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة، وسألهم صِلَتَهُ بما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون، وأرسطاطاليس، وأبقراط، وجالينوس، وأوقليدوس، وبطليموس، وغيرهم من الفلاسفة، فاستجاد لها مهَرَة التراجمة، وكَلَّفهم إحكام ترجمتها، فتُرجمت له على غاية ما

(١) انظر: ابن النديم: الفهرست ص٣٠٤ وما بعدها.
(٢) المصدر السابق ص٤٣.
(٣) المصدر السابق ٣٣٩، وما بعدها.

أمكن، ثمَّ حضَّ الناس على قراءتها، ورَغَّبهم في تعليمها، فنفقت[١] سوق العلم في زمانه، وقامت دولة الحكمة في عصره، وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من إحصائه لمنتحليها، واختصاصه لمتقلديها، فكان يخلو بهم، ويأنس بمناظرتهم، ويلتذُّ بمذاكرتهم، فينالون عنده المنازل الرفيعة، والمراتب السنية»[٢].

إن هذا النص من القاضي صاعد الأندلسي يُدلل على أن الخليفة المأمون أنشأ أكاديمية مختصة لترجمة العلوم المختلفة، واستطاع أن يجلب لها كبار المترجمين من كافة بقاع الأرض، فاستوفد أبا يحيى بن البطريق وهو من علماء الإغريق، وكذلك حنين بن إسحاق، وكان من بين المترجمين العالم الشهير ابن ماسويه[٣].

وما أن انتهى عصر المأمون حتى كانت معظم الكتب اليونانية، والفارسية، وغيرها من الكتب القديمة في علوم الرياضة، والفلك، والطب، والكيمياء، والهندسة موجودة بصورتها العربية الجديدة بمكتبة (بيت الحكمة)، وفي ذلك يقول ول ديورانت صاحب كتاب (قصة الحضارة): «لقد ورث المسلمون عن اليونان معظم ما ورثوه من علوم الأقدمين، وتأتي الهند في المرتبة الثانية بعد بلاد اليونان»[٤].

مركز البحث والتأليف:

وهو من أهمِّ روافد المكتبة؛ حيث كان المؤَلِّفون يُؤَلِّفون كُتبًا خاصة لهذه المكتبة، وكان هؤلاء المؤلفون يقومون بذلك داخل قسم التأليف والبحث في المكتبة، أو يقومون بذلك خارج المكتبة، ثم يُقَدِّمُون نتاج تأليفهم إليها، وكان المؤلف يُثَاب على ذلك بمكافأة سخية من قِبَلِ الخليفة[٥]، بل كان النسَّاخون في بيت الحكمة يُنتقون حسب معايير خاصة، وذلك تلافيًا لأي خلط يحدث منهم، ومن ثم وجدنا علان الشعوبي - وهو من علماء القرن الثالث - ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون[٦].

---

(١) نَفَق البيع: راج ونفقت السلعة غَلَتْ ورغب فيها. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نفق ١٠/ ٣٥٧.
(٢) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص٤٩.
(٣) منصور سرحان: المكتبات في العصور الإسلامية ص٥٦.
(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤/ ٤٠.
(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٣/ ١٣١.
(٦) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩/ ٣٦٧.

المرصد الفلكي:

أنشأ المأمون هذا المرصد في حي الشماسية بالقرب من بغداد ليكون تابعًا لبيت الحكمة؛ وذلك ليكون تعليم الفلك فيها تعليمًا عمليًا؛ حيث يُجرِّب فيها الطلاب ما يدرسونه من نظريات علمية، وكان يعمل فيه علماء الفلك والجغرافيا والرياضيات[١]؛ مثل: الخوارزمي، وأولاد موسى بن شاكر، والبيروني ومن خلال هذا المرصد استطاع المأمون بفريقين من العلماء أن يحسب محيط الأرض[٢].

المدرسة:

قرَّب الخلفاءُ الذين جاءوا من بَعْدِ الرشيد العلماء الذين اشتهروا في عصرهم، وأوكلوا إليهم تعليم أبنائهم وتأديبهم، فأجزلوا لهم العطاء؛ ومن أمثال هؤلاء: الكسائي علي بن حمزة[٣] الذي حَظِيَ[٤] عند المأمون، وعهد إليه بتعليم ابنيه النحو، وله مؤلفات عظيمة في النحو واللغة، وابن السكيت[٥]، وكان يؤدِّب ولد جعفر المتوكل[٦]، وارتفعت ثقافة بعض العلماء وتنوَّعَتْ، فسُجِّلَتْ أسماؤهم مع الفقهاء، وكان البعض يأخذ أرزاقًا في هذه الطوائف كلها، كالزجاج الذي كان له رزق في الفقهاء وفي العلماء، ومبلغ ذلك ٢٠٠ دينار كل شهر[٧]، وقد أجرى الحاكم المقتدر على ابن دريد[٨] خمسين دينارًا في كل شهر، حينما قَدِمَ بغداد فقيرًا[٩].

---

(١) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول ص٧٥.

(٢) إدوارد فندك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص٢٣٥.

(٣) الكِسَائي: هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله الكوفي، إمام في النحو واللغة، وأحد القرّاء السبعة المشهورين. وهو مؤدب الأمين بن هارون الرشيد. ولد بالكوفة، وتوفي بالرَّيِّ سنة (١٨٩هـ/ ٨٠٥م). انظر: الحموي: معجم الأدباء ٤/ ١٧٣٧-١٧٥٢، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٩٥، ٢٩٦.

(٤) حَظِيَ عنده: علا شأنه وأحبه، وبالرزق نال حظًّا منه. المعجم الوسيط مادة حظي ص١٨٣.

(٥) ابن السِّكِّيت: هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (١٨٦- ٢٤٤هـ/ ٨٠٢- ٨٥٨م)، إمام في اللغة والأدب. اتصل بالمتوكل العباسي، فعهد إليه بتأديب أولاده، وجعله في عداد ندمائه، ثم قتله. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦/ ٣٩٥-٤٠١.

(٦) السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ٢/ ٣٤٩.

(٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٦٠.

(٨) ابن دريد: هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد البصري (٢٢٣- ٣٢١هـ/ ٨٣٨- ٩٣٣م)، إمام عصره في اللغة والآداب. ولد بالبصرة، وتوفي ببغداد. من كتبه: «جمهرة اللغة». انظر: الحموي: معجم الأدباء ٦/ ٢٤٨٩-٢٤٩٦، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٣٢٣-٣٢٨.

(٩) الزركلي: الأعلام ٦/ ٨٠.

وعندما أنشئت المدارس، وعُيِّنَ المدرسون بها أصبحت لهم مرتبات شهرية منتظمة من الخزانة العامة، أو من إيراد الأوقاف التي كانت عادة تُعَيَّنُ لِيُنْفَق من ريعها على هذه المنشآت، وقد كانت هذه المرتبات تختلف باختلاف مكانة المدرِّس وريع الوقف، ولكنها كانت على العموم أميل إلى الجود والسخاء[1].

وقد حظي بيت الحكمة في عهدي الرشيد والمأمون بجعله دار إقامة للطلاب والأساتذة على حَدٍّ سواء[2].

وأمَّا عن المنهج المتَّبَع في الدراسة في بيت الحكمة، فكان يتمُّ من خلال نظامين: نظام المحاضرات، ونظام الحوار والمناظرة والمناقشة، وكان المدرس يُحَاضِرُ في بعض العلوم العالية في قاعات كبيرة، يساعده المعيد؛ فيجتمع بفئة من الطلاب، ويشرح لهم ما استغلق من المحاضرة، ويناقشهم في مادتها، والأستاذ أو الشيخ هو المرجع الأخير في موضوعه، وكان الطلاب ينتقلون من حلقة إلى أخرى؛ يعالجون في كلٍّ منها فرعًا من فروع العلم[3].

وكان التدريس يشمل من العلوم الفلسفة، والفلك، والطب، والرياضيات، واللغات المختلفة؛ كاليونانية، والفارسية، والهندية، إلى جانب اللغة العربية، وعندما يُنْهِي خِرِّيج بيت الحكمة دراسة عِلْمٍ من العلوم يمنحه أستاذه إجازةً، تشهد بأنه قد أتقن ذلك العلم، فإذا كان من الممتازين نَصَّتِ الشهادة على أنه قد أجيز له تدريسه، فكان حقُّ مَنْحِ الشهادة للأستاذ دون غيره، وكانت طريقة المنح أن يكتب الأستاذ للخرِّيج إجازة يَذْكُر فيها اسم الطالب، وشيخه، ومذهبه الفقهي، وتاريخ الإجازة[4].

إدارة بيت الحكمة:

تَعَاقَبَ على إدارة بيت الحكمة في بغداد عدد من المديرين العلماء، وكان يُطْلَقُ على المدير لقب (صاحب)، فكان مدير بيت الحكمة يُسَمَّى (صاحب بيت الحكمة)، وأوَّل

---

(١) انظر: النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٤١٨، ٢/ ١٨، ٥٢، ٣٠٦.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ٣١٩، وأحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص١٨٤، وخضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين ص٢٤٦.

(٣) خضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين ص١٤٠.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤/ ٣٦.

مدير لبيت الحكمة هو سهل بن هارون الفارسي (ت ٢١٥هـ/ ٨٣٠م)، وقد ولاّه هارون الرشيد القيام بخزانة كتب الحكمة، وكان ينقل من الفارسي إلى العربي ما يجده من الحكمة الفارسية، وحين تولَّى المأمون الخلافة عَيَّنَهُ مديرًا لبيت الحكمة[١]، وكان يُعاونه في هذا المنصب شخص آخر، هو سعيد بن هارون الملقب بابن هريم[٢]، وكان ممَّن تولَّى إدارة بيت الحكمة أيضًا الحسن بن مرار الضبي[٣].

هذا، وقد قال القلقشندي في وصف مكتبة بغداد: «إن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن: إحداها: خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد؛ فكان فيها من الكتب ما لا يُحْصَى كثرة، ولا يقوم عليه نفاسة...»[٤]. وكانت الخزانة الثانية هي التي بالقاهرة، والثالثة هي التي بقرطبة.

على أنه كان ثمة الكثير من المكتبات التي لم تَقِلَّ شأنًا عن مكتبة بغداد في العالم الإسلامي؛ وذلك لأن الخلفاء والأمراء المسلمين كانوا يتنافسون في جمع الكتاب، حتى إن الحكم بن عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس كان يبعث رجالاً إلى جميع بلاد المشرق؛ ليشتروا له الكتب عند أوَّل ظهورها[٥].

وقد أدَّت مكتبة بغدَاد - مع كثير من المكتبات الإسلامية الأخرى - دورًا كبيرًا في حدوث نهضة علمية في سائر المجالات عند المسلمين الأوائل، ومَنْ تتلمذ على أيديهم من أبناء الأمم الأخرى، نهضة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً قبل العصر الحديث، مما كان له بالغ الأثر على الحضارة الإنسانية، في الوقت الذي كانت أوربا في حال مزرية من البداوة والتخلُّف[٦].

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن تلك المكتبة هي التي عَمِلَتْ على نبوغ كثير من العلماء الذين صاروا أصحاب الريادة في علوم شتى، نذكر منهم: الخوارزمي مُبْتَكِر علم الجبر، وقد حكى ابن النديم عن ذلك وعن دوره الواسع في علم الفلك فقال: «وكان منقطِعًا إلى

(١) انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ١٤٤.
(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ٥/ ٨٦.
(٣) انظر: الكتبي: فوات الوفيات ١/ ١٢٢.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ١/ ٥٣٧.
(٥) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة ١/ ٢٢٦.
(٦) انظر: قدري طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص٢٥٠.

خزانة الحكمة للمأمون، وهو من أصحاب علوم الهيئة، وكان الناس قبل الرصد وبعده يُعَوِّلُونَ على زِيجَيْهِ الأول والثاني، ويُعْرَفَان بالسند هند»[١].

وكذلك كان الرازي، وابن سينا، والبيروني، والبتَّاني[٢]، وابن النفيس، والإدريسي[٣]، ومئات غيرهم ممن أنتجهم الفكر الإسلامي، الذي أرست قواعده مكتبة بغداد وغيرها من المكتبات الإسلامية.

وممَّا يَحْزَنُ له القلب، ويندى له الجبين أن هذا المَعْلَمَ الحضاري وتلك المنارة، قد أُبِيدَتْ تحت وقع هجمات التتار الذين عَلَتْهُم الهمجية، لقد حمل التتار الكتب الثمينة، ملايين الكتب الثمينة، وفي بساطة شديدة- لا تخلو من حماقة وغباء- ألقوا بها جميعًا في نهر دجلة!

لقد كان الظن أن يحمل التتار هذه الكتب القيمة إلى «قراقورم» عاصمة المغول ليستفيدوا - وهم لا يزالون في مرحلة الطفولة الحضارية - من هذا العلم النفيس.. لكن التتار أمة همجية.. لا تقرأ ولا تريد أن تتعلم.. يعيشون للشهوات والملذات فقط، ألقى التتار بمجهود القرون الماضية في نهر دجلة، حتى تحوَّل لون مياه نهر دجلة إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب، وحتى قيل أن الفارس التتري كان يعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفة إلى ضفة أخرى! وكان هذا جريمة في حق الإنسانية كلها[٤].

ومن العجب أن القليل من المؤلَّفات العلمية - التي نَجَتْ من الدمار على أيدي هؤلاء الغزاة وغيرهم - كانت من أهمِّ أسباب النهضة العلمية الحديثة في أوربا، وقد شهد بذلك كثير من العلماء المنصفين في الغرب.

وعلى هذا، فقد أَدَّت مكتبة بيت الحكمة ببغداد عَظِيمَ الفضل للحضارة الإنسانية، وكانت حلقة وصل مهمَّة من حلقاتها.

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص٣٣٣.

(٢) البتَّاني: هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحراني (ت ٣١٧هـ/ ٩٢٩م)، فلكي مهندس، وتوفي بسامراء. انظر: القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٨٤، ١٨٥، والصفدي: الوافي بالوفيات ٢/ ٢٠٩.

(٣) الإدريسي: هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (٤٩٣- ٥٦٠هـ/ ١١٠٠- ١١٦٥م) من علماء الجغرافية، رحل إلى صقلية، فنزل على روجار الثاني، ووضع له كتابًا سمّاه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٣٨.

(٤) راغب السرجاني: قصة التتار من البداية إلى عين جالوت ص١٦١، ١٦٢.

الفصل الخامس

هيئـــة العلمـــاء

خرَّجت الحضارة الإسلامية آلافًا من العلماء الأجلاء الذين كان لهم الفضل في تقدم هذه الحضارة ورقيها، وبالطبع فإن كل حضارة إنسانية كان لها من العلماء ما خلَّدُوا ذكرها، ورفعوا قدرها بين الأمم.

على أن أكثر ما يجذب الانتباه في الحضارة الإسلامية، أنها وضعت لنفسها نظامًا منهجيًّا رائعًا، استطاعت أن تسير عليه طيلة مسيرتها العامرة، وكان تقدم هذا النظام مطردًا مع تقدم الحالة العلمية التي شهدتها هذه الحضارة.

ولم يكن تربع علماء المسلمين للمكانة العلمية المرموقة التي وصلوا إليها من فراغ، بل كان عبر رحلة طويلة من قصص المعاناة والصبر، وتحمل كافة الأعباء المادية والمعنوية للوصول إلى المكانة العلمية الفريدة التي وصلوا إليها، وسنعرض لهذا الموضوع من خلال المباحث التالية:

- المبحث الأول: طلب العلم وتنشئة العلماء
- المبحث الثاني: مكانة العلماء في الدولة الإسلامية
- المبحث الثالث: الإجازة

***

المبحث الأول

طلب العلم وتنشئة العلماء

إن أول ما يجب التنبيه عليه أن طلاب العلم في الحضارة الإسلامية، كانوا يضعون نُصب أعينهم غاية عظيمة، تتمثل في تقدُّم وإعلاء حضارتهم إلى مصافّ الحضارات العالمية، ولم تكن هذه الغاية مطلبًا في حد ذاتها بقدر ما كانت طريقًا لإرضاء رب العالمين.

ويعجب الإنسان حينما يقرأ أن العلماء في الحضارة اليونانية القديمة كانوا أضحوكة للعوام، ومثلاً صارخًا لمن أراد أن يُستهزأ به في تلك الحضارة التالدة[١]!

غير أن الحضارة الإسلامية قد أعلنتها صريحة منذ نزول الوحي على النبي ﷺ، أن أكثر الناس خشية لله تعالى هم العلماء، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [٢]، ومن ثَمَّ غُرست تلك القيم الربانية عند كل فرد من أفراد هذه الحضارة، فعرف المسلمون أن العلماء هم السادة الحقيقيون لهذه الأمة؛ لأن «الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ»[٣].

ومن هذا المنطلق، نهض آلاف من أبناء هذه الحضارة -منذ نعومة أظفارهم- لطلب العلم، وتلقيه من كل حدبٍ وصوب، فكانت تنشئة هؤلاء العلماء مثالاً يُحتذى، وقَصصًا خالدًا.

ولقد استعان طلاب العلم في هذه الحضارة بالتواضع والمثابرة في تحصيل العلوم، فقد رَوَى حَبْر هذه الأمة، وعالمها عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه «لما قُبض رسول الله ﷺ قلتُ لرجل من الأنصار: هَلُمَّ فلنسألْ أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير. فقال: واعجبًا لك يابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم[٤]؟ قال: فتركَ ذلك، وأقبلتُ أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل، فآتي بابه وهو قائلٌ[٥] فأتوسَّد ردائي على

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٣٢٧.

(٢) (فاطر: ٢٨).

(٣) سنن أبي داود (٣٦٤١)، وسنن الترمذي (٢٦٨٢).

(٤) أي أن أصحاب رسول الله ﷺ كثير، والناس يلجئون إليهم، ولن يلجئوا إليك.

(٥) نائم وقت الظهيرة.

بابه تَسْفِي عليَّ الرياح من التراب، فيخرج فيراني فيقول: يابن عم رسول الله، ما جاء بك؟ ألا أرسلتَ إليَّ فآتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث. فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألوني. قال: هذا الفتى كان أعقل مني»[١].

ولذلك كانت المنافسة بين الخلاّن في تحصيل العلم سمة من سمات هذه الحضارة، ولا نكاد نقرأ في عصر من عصور الحضارة الإسلامية إلا ووجدنا المنافسة بين الصديقين في تحصيل العلم قائمة، وفيها من المواقف والقصص ما يلفت الانتباه، ويجذب المتلقي؛ فقد روى فقيه المدينة صالح بن كيسان (ت ١٤٠هـ) أنه قال: «اجتمعتُ أنا والزُّهري (محمد ابن شهاب) ونحن نطلب العلم فقلنا: نحن نكتبُ السنن. فكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ، ثم قال لي: هَلُمَّ فلنكتب ما جاء عن أصحابه؛ فإنه سُنَّة. فقلتُ: إنه ليس بسُنَّة فلا نكتب. قال: فكتب ما جاء عنهم ولم أكتب، فأَنْجَحَ وضَيَّعْتُ»[٢].

والعجيب أن الخلفاء والأمراء كانوا يحرصون على طلب العلم وتحصيله منذ صغرهم، بل رأينا منهم من كان يتشوَّق للعودة لهذه الأيام الجليلة، ويغبط طلبة العلم الفقراء، السُّعاة دون كلل أو ملل؛ فقد «كان المنصور (ت ١٥٨هـ) في شبيبته يطلبُ العلم من مظانّه، والحديث والفقه، فنال جانبًا جيدًا، وطرفًا صالحًا، وقد قيل له يومًا: يا أمير المؤمنين، هل بقي شيء من اللذات لم تنله؟ قال: شيء واحد. قالوا: وما هو؟ قال: قولُ المحدِّثِ للشيخ من ذكرتَ رحمك الله. فاجتمع وزراؤه وكُتَّابه وجلسوا حوله وقالوا: ليُمل علينا أمير المؤمنين شيئًا من الحديث. فقال: لستم بهم، إنما هم الدَّنِسةُ ثيابهم، المشققة أرجلُهم، الطويلةُ شعورهم، روّاد الآفاقِ، وقُطّاعِ المسافات، تارةً بالعراق، وتارة بالحجاز، وتارة بالشام، وتارة باليمن، فهؤلاء نقلة الحديث»[٣].

وقد اهتم الآباء بتعليم أبنائهم، وتوجيههم ناحيته منذ صغرهم؛ وتربيتهم على الرحلة في طلب العلم، فهذا علامة الأندلس الحميدي (المولود قبل عام ٤٢٠هـ) يحمله

(١) الفسوي: المعرفة والتاريخ ١/ ٢٩٨.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٣٧٦، ٣٧٧.
(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٣٢/ ٣٣٠.

والده على كتفه لسماع الحديث وذلك في عام ٤٢٥هـ، ورحل سنة ٤٤٨هـ، وقدم مصر، وكان قد سمع بالأندلس من ابن عبد البر[١] وابن حزم ولازمه وقرأ عليه مصنّفاته وأكثر من الأخذ عنه، وشهر بصحبته، وصار على مذهبه إلاّ أنّه لم يكن يتظاهر به، وسمع بدمشق وغيرها، وروى عن الخطيب البغدادي وكتب عن أكثر مصنّفاته، وسمع بمكة من الزنجاني، وأقام بواسط مدة بعد خروجه من بغداد، ثم عاد إلى بغداد واستوطنها، وكتب بها كثيرًا من الحديث والأدب وسائر الفنون، وصنّف مصنّفات كثيرة، وكان إمامًا من أئمة المسلمين في حفظه ومعرفته وإتقانه وثقته وصدقه ونبله وديانته وورعه ونزاهته، حتى قال بعض الأكابر ممّن لقي الأئمة: لم تر عيناي مثل أبي عبد الله الحميدي في فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثه في أهله[٢].

بل الأعجب من ذلك أن الآباء كانوا يشتركون مع أبنائهم في الخروج لطلب العلم، وهو ما حدث مع عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصّامت وأبيه الوليد، حيث قال: «خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحيّ من الأنصار، قبل أن يهلكوا، فكان أوّل من لقينا أبو اليسر صاحب النبي ﷺ ومعه غلام له. فذكر الحديث»[٣].

ومِن ثَم كانت الرحلة في طلب العلم مع الأبناء إضافة إسلامية جديدة في مسار الحضارة الإنسانية، لم تتميز بها طائفة على أخرى، فقد رحل أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك إلى عطاء هو وابناه، «فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما انفتل إليهما، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج، وقد حوّل قفاه إليهم، ثم قال سليمان لابنيه: قوما. فقاما، فقال: يا بَنيَّ، لا تنيا في طلب العلم»[٤]. وكذلك رحل خليفة المسلمين هارون الرشيد بولديه الأمين والمأمون لسماع موطأ الإمام مالك في المدينة المنورة[٥].

وقد كان بعض الآباء يمنعون أبناءهم من طلب العلم؛ نظرًا لشظف العيش، وضيق

---

(١) ابن عبد البر: هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي المالكي (٣٦٨- ٤٦٣هـ/ ٩٧٩- ١١٧١م)، إمام عصره في الحديث والأثر، يقال له: حافظ المغرب. من مصنفاته: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب». انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٧/ ٦٦-٧١، والذهبي: تذكرة الحفاظ ٣/ ٢١٧، ٢١٨.

(٢) المقري: نفح الطيب ٢/ ١١٣.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ٣٤١.

(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٤٠/ ٣٧٥.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٠/ ٤١.

ذات اليد، بَيْدَ أنَّ المجتمع كان يحرص على مساعدة هؤلاء النُّجباء من الطلاب على الاستمرار في تلقي العلم، وتحصيله، وقد روى ابن كثير أن «هاشم بن بشير بن أبي حازم القاسم أبو معاوية السلمي الواسطي، كان أبوه طباخًا للحجاج بن يوسف الثقفي، ثم كان بعد ذلك يبيع الكوامخ[١]، وكان يمنع ابنه من طلب العلم ليساعده على شغله، فأبى إلا أن يسمع الحديث. فاتفق أن هاشمًا مرض، فجاءه أبو شيبة قاضي واسط عائدًا له ومعه خلق من الناس، فلما رآه بشير فَرِح بذلك، وقال: يا بُنيَّ، أبلَغَ من أمرك أن جاء القاضي إلى منزلي؟ لا أمنعك بعد هذا اليوم من طلب الحديث. وكان هاشم من سادات العلماء، وحدّث عن مالك وشعبة[٢] والثوري[٣] وخلق غير هؤلاء، وكان من الصُّلحاء العُبَّاد»[٤].

لا ريب أن هذه المسئولية الاجتماعية التي تجعل قاضي المدينةِ، وكثيرًا من أعيانها يأتون لشابٍّ يافع فقير مغمور، لا يملك من حطام الدنيا إلا المثابرة على تحصيل العلم، والمجاهدة في التفوق فيه، ليؤكد لدينا أن الحضارة الإسلامية تحترم العلم وكل المشتغلين به، بدءًا من طلابه، وانتهاءً بالعلماء والمدرسين. ومن دون شك فإن هذا الموقف وأمثاله ليعمِّق لدينا أن الحضارة الإسلامية وضعت طلبة العلم في مكانة متقدمة في منظومتها الاجتماعية، وهو ما لم نجده عند أي أُمَّة من الأمم الأخرى، التي كانت تجعل الأمور المادية من المال والملك والقوَّة والسلطان والخرافة، مقدَّمة على أي شيء آخر.

وقد كان للأمهات دور غير منكور في حض الأبناء على طلب العلم في هذه الحضارة، وقد ضربت بعضهن أروع الأمثلة الدالة على الوعي التام الذي تمتعت به المرأة في تلك العصور الخالدة، فمن أُولاء الأمهات الجليلات، كانت أم «ربيعة الرأي»[٥]، شيخ

---

(١) مفردها الكامخ، وهو إدام يؤتدم به، وخصه بعضهم بالمخللات التي تستعمل لتشهي الطعام.

(٢) شعبة بن الحجاج: هو أبو بسطام شُعبة بن الحجاج بن الورد الأزدي البصري (٨٢- ١٦٠هـ/ ٧٠١- ٧٧٦م)، من أئمة الحديث والشعر والأدب، قال الشافعي: «لولا شعبة ما عُرِف الحديث بالعراق». انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ١٦٤.

(٣) سفيان الثوري: هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (٩٧- ١٦١هـ/ ٧١٦- ٧٧٨م)، أمير المؤمنين في الحديث، ولد ونشأ بالكوفة ومات بالبصرة، ألف (الجامع الكبير) و(الجامع الصغير) في الحديث. انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ١٠٤.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٩٨.

(٥) ربيعة الرأي: هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن التيمي مولاهم أبو عثمان المدني المعروف بربيعة الرأي، يقول ابن حجر عنه: ثقة فقيه مشهور. مات سنة ١٣٦هـ على الصحيح. انظر تقريب التهذيب، ص ٢٠٧ - تاريخ بغداد ٨/ ٤٢٠ - الباجي: التعديل والتجريح ٢/ ٥٧٣.

الإمام مالك، حيث خرج زوجها فرُّوخ في البعوث إلى خراسان أيام بنى أمية، وترك ربيعة حملاً في بطنها، لتقوم هي على تنشئته وتربيته وتعليمه، وقد ترك عندها ثلاثين ألف دينار.. ولما رجع بعد سبعٍ وعشرين سنة، دخل مسجد المدينة، فنظر إلى حلقة وافرة، فأتاها فوقف عليها، وإذا فيها مالك والحسن وأشراف أهل المدينة، ولما سأل عن صاحب هذه الحلقة، أجابوه بأنه ربيعة بن أبي عبد الرحمن (ابنه)!!

فرجع إلى منزله وقال لزوجته وأم ولده: «لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحدًا من أهل العلم والفقه عليها». فقالت له: فأيُّهما أحب إليك: ثلاثون ألف دينار، أم هذا الذي هو فيه؟! فقال: لا -والله- بل هذا. فقالت: أنفقتُ المال كله عليه. قال: فوالله ما ضيَّعتيه[1]!!

وإنَّا لَنَعجَبُ حين نعلم أنَّ سفيان الثوري رحمه الله - فقيه العرب ومحدثهم، وأمير المؤمنين في الحديث، والذي قال فيه زائدة[2]: «الثوري سيِّد المسلمين»[3]. وقال فيه الأوزاعي[4]: «لم يبقَ من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان»[5]- كان وراءه أمٌّ صالحة، تكفلت بتربيته والإنفاق عليه، فكان هو ثمرتها.

يصوِّر ذلك بنفسه فيقول: «لما أردت أن أطلب العلم؛ قُلتُ: يا ربِّ، لا بد لي من معيشة. ورأيت العلم يَدْرُس (أي: يذهب ويندثر) فقلت: أُفرِّغ نفسي في طلبه. قال: وسألتُ الله الكفاية»، يعني أن يكفيه أمر الرزق، فكان من كفاية الله له في ذلك الشأن أن قيَّض له أُمَّه التي قالت له: «يا بُنَيَّ، اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي»[6].

فكانت -رحمها الله- تعمل بالمغزل، وتقدم لولدها نفقة الكتب والتعلُّم؛ ليتفرغ هو للعلم، بل والأكثر من ذلك أنها كانت كثيرًا ما تتخوله بالموعظة والنصيحة لتحضه على

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٨٩،٢٩٠.

(٢) زائدة بن قدامة الثقفي: هو أبو الصلت الكوفي، من كبار أتباع التابعين، قال الذهبي: ثقة حُجّة صاحب سُنَّة، توفي غازيًا بالروم سنة (١٦١هـ). انظر: الذهبي: الكاشف ١/ ٤٠٠، وابن حجر: تقريب التهذيب ص٢١٣.

(٣) ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ١/ ١١٨.

(٤) أبو عمرو الأوزاعي: هو عبد الرحمن بن عمرو (٨٨- ١٥٧هـ)، إمام أهل الشام في زمانه في الحديث والفقه، كان ثقة مأمونًا، سكن بيروت، وبها مات. انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ٤٨٨، والمزي: تهذيب الكمال ١٧/ ٣٠٨.

(٥) الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٤.

(٦) أبو نعيم: حلية الأولياء ٦/ ٣٧٠.

تحصيل العلم، فكان مما قالته له ذات مرة: «يا بُنيَّ، إذا كتبت عشرة أحرف فانظرْ هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تَرَ ذلك فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك»(١).

وهكذا كانت أمه فكان هو.. تَبوَّأ السيادة في العلم والإمامة في الدين!!

ولا يفوتنا هنا أن ننوِّه بدور الأم في حياة الأئمة المشهورين، مثل البخاري أمير أهل الحديث، فقد نشأ البخاري يتيمًا في حِجْر أمه، لتقوم هي على تربيته أفضل تربية، فتتعهده بالرعاية والدعاء، وتدفعه إلى التعلم والصلاح، وتزين له أبواب الخير، بل وترحل به وهو في سن السادسة عشرة إلى مكة للحج، ثم تتركه هناك وترجع، ليطلب العلم بلسان قومه.. ليرجع ويكون هو البخاري، ولتُعلِّم أمهات المسلمين -والأرامل منهن خاصَّة- كيف تكون تربية الأبناء، وما دور الأمهات في جهادهن لرفعة الأمة والنهوض بها!

أما أم الشافعي فقد ارتحلت به حين بلغ عامين من عمره من غزَّة -مسقط رأس الشافعي- إلى مكة، حيث العلم والفضل، وحيث البادية حولها، والتي فيها يقوِّم لسان الغلام وتصح لغته(٢)، وكان الشافعي هو ثمرة جهود تلك المرأة الفاضلة.

وقد كانت الرحلة في طلب العلم أمرًا محببًا لمن أراد أن يتلقى العلم من ينابيعه، ومن ثَمَّ كان مكحول الدمشقي -وهو تابعي جليل- يقول مفتخرًا: «طفتُ الأرض كلها في طلب العلم»(٣). ولذلك صار مكحول رحمه الله من أكابر علماء المسلمين، وهو ما جعل الإمام الكبير محمد بن شهاب الزُّهري يقول في حقه: «العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالحجاز، والحسن البصري بالبصرة، والشعبي بالكوفة، ومكحول بالشام»(٤).

وقد كان هؤلاء العلماء يُعانون أشد المعاناة في مرحلة طلبهم للعلم، فقد ذكر ابن أبي حاتم الرازي في تقدمة كتابه «الجرح والتعديل»، ما لاقاه والده أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي(٥)

---

(١) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٣/ ١٨٩.

(٢) راجع في قصة أم الشافعي: مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص١٠، ١١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٣٣٤.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٣٣٤.

(٥) أبو حاتم الرازي: هو محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران (١٩٥- ٢٧٧هـ/ ٨١٠- ٨٩٠م)، ولد بالري وتوفي ببغداد، له «طبقات التابعين»، و«تفسير القرآن العظيم»، و«أعلام النبوة». انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٧.

في طلبه للعلم، فقد نقل عنه أنه قال: «أول سنة خرجتُ في طلب الحديث أقمتُ سبع سنين، أحصيتُ ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ[١]، لم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته، وأمَّا ما سرتُ أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصى كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مراتٍ كثيرة، وخرجت من البحرين من قرب مدينة صلا إلى مصر ماشيًا، ومن مصر إلى الرملة ماشيًا، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى أنطاكية، ومن أنطاكية إلى طرسوس، ثم رجعت من طرسوس إلى حمص، وكان بقي عليَّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعتُ، ثم خرجت من حمص إلى بيْسان، ومن بيسان إلى الرَّقة، ومن الرَّقة ركبتُ الفرات إلى بغداد، وخرجتُ قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل، ومن النيل إلى الكوفة، كل ذلك ماشيًا، كل هذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة، أجول سبع سنين، خرجت من الرّي سنة ثلاث عشرة ومائتين...، ورجعت سنة إحدى وعشرين ومائتين، وخرجتُ المرة الثانية سنة اثنتين وأربعين، ورجعتُ سنة خمس وأربعين، أقمت ثلاث سنين»[٢].

وقد كانت الرحلة عند الأندلسيين أمرًا مهمًّا جدًّا، وعاملاً من عوامل أفضلية بعض العلماء على بعض، ولذلك قال المقري[٣] عن أبي عمرو الداني[٤] إنه «من الراحلين من الأندلس إلى المشرق، وهو الأحق بالتقديم والسبق، الشهير عند أهل الغرب والشرق، الحافظ المقرئ الإمام الرباني، ولد سنة ٣٧١هـ، وابتدأ بطلب العلم سنة ٣٨٧هـ، ورحل إلى المشرق سنة ٣٩٧هـ، فمكث بالقيروان أربعة أشهر، ودخل مصر في شوَّالها، فمكث بها سنةً، وحجَّ، ورجع إلى الأندلس في ذي القعدة سنة ٣٩٩هـ»[٥].

---

(١) يقدر الفرسخ بـ ٨,٤ كم.

(٢) أبو حاتم الرازي: الجرح والتعديل ١/ ٣٥٩، ٣٤٠.

(٣) المقري: هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر القرشي التلمساني (ت ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م)، صاحب كتاب نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ولد ونشأ في تلمسان، وتوفي بمصر. انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ٣٧.

(٤) أبو عمرو الداني: هو عثمان بن سعيد بن عثمان، ويقال له ابن الصيرفي (٣٧١- ٤٤٤هـ/ ٩٨١- ١٠٥٣م)، من موالي بني أمية، أحد حفاظ الحديث، ومن الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٠/ ٢٠، والزركلي: الأعلام ٤/ ٢٠٦.

(٥) المقري: نفح الطيب ٢/ ١٣٥.

مما سبق نستيقن أن هذه الحضارة قد ربَّتْ أبناءها على ضرورة طلب العلم، مهما كان مصدره، ولذلك وجدنا آلافًا من أبناء هذه الحضارة كالنحل في نشاطه، لا يتوقف عند حدود قُطر بعينه، أو شيخ محدد، وهذا ما لم نجده عند أبناء أي حضارة أخرى؛ إذ كان العلم قضية عامة عند المسلمين، وهو ما ميزهم عن غيرهم طيلة قرون عِدَّة.

* * *

المبحث الثاني
مكانة العلماء في الدولة الإسلامية

لا يقِلُّ دور الدولة في تنشئة العلماء عن دور الأسرة، بل إن دورها قد يفوق دور الأسرة في أحيانٍ كثيرة.. وقد يكون لزامًا على الدولة في سبيل بناء نهضتها، وفي سبيل قيادة مسيرتها نحو التقدم والاستقلالية، والبعد عن ذُلِّ التبعية، أن تحوز نصيب الأسد في كفالة العلماء، ورعايتهم وتنشئتهم، وتفقد أحوالهم.

والحقيقة أن الدولة الإسلامية لم تغفل يومًا دورها المحوري في هذا المجال، بل ربما كان هو الدور الغالب عليها، حتى إنك لتجد المدارس، والمعاهد العليا، والمكتبات العامة، وكذلك الخاصة، وقد ازدانت بها مدن العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.. وفي ذلك يذكر التاريخ بكثير من الإكبار والإعجاب جمًّا غفيرًا من خلفاء المسلمين وأمرائهم، الذين كان لهم دورٌ كبير في رعاية العلماء وطلاّب العلم.

ويأتي في مقدمة هؤلاء الخلفاء، الخليفة العباسي هارون الرشيد، الذي قال عنه عبد الله بن المبارك[1]: «ما رأيتُ عالمًا، ولا قارئًا للقرآن، ولا سابقًا للخيرات، ولا حافظًا للحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء الراشدين والصحابة، أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه، لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثماني سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعِلم، ويروي الحديث، ويجمع الدواوين، ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة»[2]؛ ولم يكن ذلك إلا بكثرة إنفاقه، واهتمامه بالعلم والعلماء وطلابه منذ الصغر!!

ونظرة واحدة على عدد المدارس على اختلاف أقسامها، والبيمارستانات التي شُيِّدَت في عصر النهضة والحضارة الإسلامية تُوقِفُك على ما كان من دور الدولة في رعاية العلماء وتنشئتهم منذ الصغر.. فقد كانت هناك مدارس لتدريس القرآن الكريم وتفسيره،

---

(١) عبد الله بن المبارك: هو أبو جعفر محمد بن عبد الله بن المبارك القرشي بالولاء (ت ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م)، قاضي حلوان (في العراق)، من حفاظ الحديث الثقات. انظر: ابن ماكولا: الإكمال ٧/ ٢٣٩، والزركلي: الأعلام ١/ ٢٢٢.

(٢) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، وهو المعروف بتاريخ الخلفاء، ٢/ ١٥٧.

ومدارس للحديث الشريف، ومدارس للفقه، وأخرى للطب، كما كان هناك مدارس خاصة بالأيتام، كما مرّ بنا في الفصل الثالث من هذا الباب.

وبعد مرحلة الصغر كان للدولة الدور البارز أيضًا في الاهتمام بأبنائها العلماء ورعايتهم بما يليق ومكانتهم، فكانت أولاً توفر لهم من المرتبات ما يكفي لمعيشتهم عيشة هانئة، وهذا عدا ما كان يُعطَون من رواتب أخرى كحاجات معاشية، فقد كان الشيخ نجم الدين الخبوشاني ممن عيَّنه السلطان صلاح الدين ليدرِّس في مدرسته الصلاحية، وقد جعل له كل شهر أربعين دينارًا عن التدريس، وعشرة دنانير للإشراف على أوقاف المدرسة، وستين رطلاً مصريًّا من الخبز كل يوم، وراويتين من ماء النيل كل يوم[1].

وكان من رواتب شيوخ الأزهر الشهرية، راتب يأخذه الشيخ لنفقات بغلته، إذْ كان من أوقاف الأزهر وقف خاص لبغلة الشيخ ونفقاتها[2].

ومثل هذا يُعَدُّ من أبواب تفريغ العلماء للتأليف والابتكار، وأيضًا تعليم الناس، وإفادتهم، دينيًّا ودنيويًّا، ومما يستحق التنويه به، أنه كان للمعلمين في ذلك الوقت المبكر نقابة خاصة بهم، وكان جماعة المعلمين هم الذين يختارون النقيب، وما كان يتدخل السلطان إلا إذا وقع خلاف بين الأعضاء فيصلح بينهم..

وفي ذلك يروي أبو شامة[3] في الروضتين عن مقلد الدولعي أنه قال: لما مات الحافظ المرادي، وكُنّا جماعة الفقهاء قسمين: العرب والأكراد؛ فمنّا مَن مال إلى المذهب، وأراد أن يستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون[4]، وكان بالموصل، ومنّا من مال إلى علم النظر والخلاف، وأراد أن يستدعي القطب النيسابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدس، ثم عاد إلى بلاد العجم؛ فوقع بيننا كلام بسبب ذلك، ووقعت فتنة بين الفقهاء،

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ٢/ ٥٧.

(٢) انظر مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١٠٢.

(٣) أبو شامة: هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (٥٩٩- ٦٦٥هـ/ ١٢٠٢- ١٢٦٦م)، محدث ومفسر وفقيه وأصولي ومقرئ. وُلد بدمشق ونشأ فيها، وتولى مشيخة دار الحديث الأشرافية. انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٦/ ٣، والشاطبي: إبراز المعاني من حرز الأماني ١/ ١.

(٤) ابن أبي عصرون: هو عبد الله بن محمد بن هبة الله التميمي (٤٩٢- ٥٨٥هـ/ ١٠٩٩- ١١٨٩م)، فقيه شافعي، ولد بالموصل، وانتقل إلى بغداد، واستقر في دمشق، فتولى بها القضاء سنة ٥٧٣هـ. وإليه تنسب المدرسة «العصرونية» في دمشق.

فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجد الدين بن الدّاية نائبًا عنه، وقال لهم: ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع، وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق. وقد قال المولى نور الدين: نُرضي الطائفتين، ونستدعي الشيخين. فاستدعاهما جميعًا، وولَّى شرف الدين المدرسة التي سُمِّيَت باسمه، وولى قطب الدين مدرسة النفري[١].

وفي مرحلة أخرى فإن دور الدولة في التعامل مع العلماء المبدعين كان له شأنٌ آخر، فهذا الخليفة الموحدي الثالث المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يُنشئ «بيت الطلبة» للنابغين ويشرف عليه بنفسه، حتى إن بعض حاشيته حسدوا هؤلاء الطلبة على موضعهم منه، وتقريبه إياهم، وخلوته بهم دونهم، ولما بلغ ذلك المنصور الموحدي فزع وخاطبهم قائلاً: «يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه منكم أمرٌ فزع إلى قبيلته، وهؤلاء الطلبة لا قبيلة لهم إلا أنا، فمهما نابهم من أمرٍ فأنا ملجأهم، وإليَّ فزعهم، وإليَّ يُنسَبون...»[٢]، فكان أن قامت دولة الموحدين، وسادت وعمَّت الأرجاء.

ولأبي عُبَيد القاسم بن سلام[٣] قصة طريفة مع عبد الله بن طاهر[٤] تدل على تقدير الأمراء لعقول العلماء، وتكريم النابغين منهم، فإنه لما وضع أبو عبيد القاسم بن سلام كتاب «غريب الحديث» عرضه على عبد الله بن طاهر، فاستحسنه وقال: «إن عقلاً بعث صاحبه على عمل هذا الكتاب حقيقٌ أن لا يُحْوَجَ إلى طلب المعاش»، ثم أجرى له كل شهر عشرة آلاف درهم[٥].

وقد اشتهر أمر الجوائز العظيمة والهبات الجزيلة التي كان يمنحها الخلفاء والحكام

---

(١) انظر: أبو شامة المقدسي: الروضتين في أخبار النورية والصلاحية ص١٧.

(٢) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٨١.

(٣) أبو عبيد القاسم بن سلام: هو أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (١٥٧- ٢٢٤هـ/ ٧٧٤- ٨٣٨م) من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، ولد بهراة، وتعلم بها، ورحل إلى بغداد ومصر، وتوفي بمكة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٩٠-٤٩٢.

(٤) عبد الله بن طاهر: هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي (١٨٢- ٢٣٠هـ/ ٧٩٨- ٨٤٤م)، من أشهر الولاة في العصر العباسي، ولي الشام ومصر وخراسان وطبرستان وكرمان والري. توفي بنيسابور، وقيل: بمرو.

(٥) انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٢/ ٤٠٦، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٩/ ٧٤، وابن حجر: تهذيب التهذيب ٨/ ٢٨٤.

للعلماء بهدف التشجيع على تحصيل العلوم، وكانت هذه الجوائز في صورة أقرب إلى الخيال، وكان من ذلك إعطاء وزن الكتاب المُترجَم -من لغة غير العربية إلى اللغة العربية- ذهبًا للعالِم الذي يقوم بترجمته(١)!!

وقد كان من جرَّاء ذلك أن نشطت حركة الترجمة، ونُقِلَت علوم هائلة على إثرها إلى المسلمين.

وأروع من ذلك ما قامت به الخلافة العثمانية، وذلك حين نجحت في تجميع النابغين من جميع القرى والأمصار، ووفرت لهم الرعاية التي جعلت كل نابغة يعطي ما عنده من فنٍّ وعلم؛ وهو الأمر الذي ساعد على ازدهار الدولة حضاريًّا وعسكريًّا حتى باتت الدولة الأولى في العالم.

ولم يكن اهتمام الدولة يقتصر على رعاية العلماء من أبنائها، بل كان الحكام يستدعون العلماء من شتى الأمصار ليستفيدوا من علومهم، ويسعدوا برعايتهم، فها هو الأمير المعز بن باديس، أحد أمراء دولة الصنهاجيين في المغرب الإسلامي، كان لا يسمع بعالم جليل إلا أحضره عنده، بل وجعله من خاصَّته، وبالغ في إكرامه، وعوَّل على آرائه، ومنحه أسمى الرُّتب(٢).

وها هو السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم في مكانه أصابه عوز وإملاق إلا بادر إلى مساعدته، وبذَل له ما يستعين به على أمور دنياه(٣).

وإن هذه الصورة لتتضح في وصيته لابنه وهو على فراش الموت؛ فقد جاء فيها: «... وبما أن العلماء هم بمنزلة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فعظِّم جانبهم وشجعهم، وإذا سمعت بأحدٍ منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك، وأكرمه بالمال»(٤).

وهذا ما وجدناه في تعامل الدولة مع كافة العلماء، لا فرق في ذلك بين المسلمين

---

(١) انظر: ابن صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص٤٨، ٤٩.
(٢) انظر في ذلك ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ص١٢٩.
(٣) علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ص١٤٠.
(٤) المصدر السابق ص١٤٨.

وغيرهم من أبناء الملل والعقائد الأخرى، فهذه أسرة بختيشوع النسطورية، كان أبناؤها أطباء الأسرة العباسية لقُرَابة ٧٠ سنة، من زمن المنصور إلى المعتمد، فكانت لهم الرعاية والاهتمام الخاص[١]. وكان من هذه الأسرة جبرائيل بن بختيشوع بن جرجس (ت ٢١٣هـ)، والذي كان طبيب هارون الرشيد وجليسه وخليله، حتى إنه ليقال: إن منزلته ما زالت تقوى عند الرشيد حتى قال لأصحابه: من كانت له حاجة إليَّ فليخاطب بها جبرائيل[٢]!!

وكذلك كان ابن ميمون اليهودي الأندلسي له رعاية واهتمام خاص عند صلاح الدين الأيوبي، وكان طبيبه الخاص[٣]!!

على أن الحكام والأمراء كانت لهم وسائل أخرى إذا لم يستطيعوا أن يجتذبوا العلماء، وكان من هذه الوسائل: شراء مؤلَّفات العلماء العلمية فور انتهاء أصحابها من تأليفها.

وعلى سبيل المثال فإنه لما سمع الحكم الخليفة الأموي بالأندلس بكتاب «الأغاني» المشهور الآن في الأدب، ما كان منه إلا أن أرسل إلى مؤلِّفه أبي الفرج الأصفهاني[٤] ألف دينار من الذهب ثمن نسخة منه ليرسله إليه في بلده، وكان له ما أراد؛ حيث أرسل إليه أبو الفرج بنسخة من كتابه المذكور، فكان أن قُرِئ الكتاب في الأندلس قبل أن يُقرَأ في العراق موطن المؤلف!!

إن اهتمام الخلفاء والأمراء وأصحاب الجاه والمكانة في الحضارة الإسلامية بالعلماء، والاعتناء بهم، والتخفيف من آلامهم، وتفريغهم لنشر العلم، ليُدلل على أسبقية هذه الحضارة في احتضانها للعلماء، وهذا -بلا ريب- نقيض لما رأيناه في أوربا؛ من تقتيلٍ للعلماء، وحرق لمصنفاتهم، وإجبار المؤسسات الحاكمة للشعب -بمختلف طوائفه- للانصياع خلف خُرافات الكنيسة.

---

(١) الزركلي: الأعلام ٢/ ٤٤، ٤٥.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١١١.

(٣) الزركلي: الأعلام ٧/ ٣٢٩.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني: هو علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي الأصبهاني الكاتب، مصنف كتاب «الأغاني»، يذكر أنه من ذرية الخليفة هشام بن عبد الملك، وهو أصبهاني الأصل، بغدادي المنشأ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٠١، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٣٠٧.

المبحث الثالث

الإجـــــازة

تُعرّف الإجازة بأنها الإذن بالإفتاء أو التدريس[١]، وتعريفها عند المحدِّثين وغيرهم: الإذن بالرواية، سواء رواية حديث أم رواية كتاب[٢].

وقد وضع علماء المسلمين مجموعة من المعايير التي من خلالها يستطيع طالب العلم أن يترقى في هذه المنظومة التعليمية؛ ليصل في نهاية المطاف إلى سُدَّة التدريس أو الإفتاء، ومن ثَمَّ كانت «الإجازة» هي المعيار الرئيسي الذي من خلاله يُقرّ المدرس أن تلميذه أصبح قادرًا على الجلوس للتدريس في حلقة مستقلة، ولقسمٍ معين من أقسام العلوم المختلفة.

وأما طريقة الإجازة، فتتمثل في السماح في نقل العلم إلى الآخرين، وذلك أن يعطي الشيخ كتبه أو بعضها لتلميذه، أو لأحد العلماء مؤكدًا لهم أنها بخط يده، ويخبرهم باسم الشيخ الذي نقل عنه، وأخذ منه هذا العلم، ثم يُجيزهم بإعطائها للآخرين[٣].

وقد عرفت الحضارة الإسلامية طريقة الإجازة منذ فترة مبكرة جدًّا، وقد كان الهدف منها في بداية الأمر، الاحتراز من الوقوع في الخلط بين الأحاديث الشريفة، فوضع علماء الحديث طريقة الإجازة، وكانت نوعًا من أنواع الثقة المتبادلة بين الأساتذة وتلاميذهم.

والإجازة في حقيقة الأمر إضافة إسلامية مهمَّة في مسار الحضارة الإنسانية عبر آلاف السنين؛ إذ إنها بمنزلة الشهادة الموثَّقة التي يحصل عليها طلاب العلم الآن.

ولذلك ما خلا عصر من العصور الإسلامية المتفاوتة إلا ووجدنا الإجازة شرطًا من الشروط المهمَّة في تعيين أحد العلماء في مكان من الأماكن الحساسة في الدولة.

فقد أجاز إمام أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل رحمه الله لابنه عبد الله؛ حيث «روى عنه

---

(١) حاشية ابن عابدين ١/ ١٤.

(٢) وزارة الأوقاف المصرية: الموسوعة الإسلامية العامة ص٤٣.

(٣) كرم حلمي فرحات: التراث العلمي للحضارة الإسلامية في الشام والعراق خلال القرن الرابع للهجري ص٦٩.

المسند ثلاثين ألفًا، والتفسير مائة ألف حديث وعشرون ألفًا»[١]، وقد أجاز الإمام محمد بن شهاب الزهري للإمام ابن جريج[٢] رحمهما الله[٣].

وقد كان من حق النساء في الحضارة الإسلامية أن يتعلمن العلم، ويُعلِّمنه، وكانوا كالرجال في ذلك سواء بسواء، فلم يكن يُسمح أن تتصدر امرأة للتعليم من دون الحصول على إجازات من العلماء، ومن اللافت للنظر أن مرضعة الإمام الذهبي[٤] «وعمته ست الأهل بنت عثمان، قد حصلت على الإجازة من ابن أبي اليسر، وجمال الدين بن مالك، وزهير بن عمر الزرعي، وجماعة آخرين، وسمعت من عمر بن القواس وغيره، وروى الذهبي عنها»[٥].

ولم تكن الإجازة في العلوم الشرعية فقط، بل كانت تشمل كافة العلوم الشرعية والحياتية، ومن ثَمَّ كانت الإجازة من الأمور المأخوذ بها في تدريس العلوم الطبية؛ فقد أجاز رئيس الأطباء في القرن الرابع الهجري سنان بن ثابت[٦] لكل من يرغب في أن يعمل في مهنة الطب، بعد اجتياز امتحان يُعقد له في التخصص الذي يُريد العمل به[٧]. وكذلك أجاز مؤسس المدرسة الدخوارية في دمشق، مهذب الدين الدخوار، للعلامة علاء الدين ابن النفيس، الذي استطاع بعد هذه الإجازة أن يعمل في كبرى مستشفيات عصره، وهي المستشفى النوري في دمشق[٨]، بل كان الرازي يقول في كتابه الحاوي: يمتحن المتقدم للإجازة الطبية في التشريح أولاً، فإذا لم يعرفه فلا حاجة بك أن تمتحنه على المرضى[٩].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٠٩.

(٢) ابن جريج: هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي (٧٠- ١٥٠هـ)، مولى بني أمية، كان أحد أوعية العلم، وهو أول من صنَّف التصانيف في الحديث. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩/ ١١٩، ١٢٠، وانظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ١٦٠.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٣٢.

(٤) الذهبي: هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (٦٧٣- ٧٤٨هـ/ ١٢٧٤- ١٣٤٨م) حافظ، مؤرخ، علامة محقق، تركماني الأصل، مولده ووفاته في دمشق، تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المائة. انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٣٢٦.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، مقدمة التحقيق ١/ ١٧

(٦) سنان بن ثابت: هو أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة الحراني (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٣م) طبيب عالم، كان رفيع المنزلة عند المقتدر العباسي، وجعله رأسًا للأطباء، وقد توفي في بغداد. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٥/ ١٥٢.

(٧) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ٢٠٤.

(٨) الذهبي: تاريخ الإسلام ٥١/ ٣١٢.

(٩) الرازي: الحاوي في الطب ٧/ ٤٢٦.

وقد كانت الإجازة من كبار العلماء فخرًا للتلميذ، يتذكره طوال عمره، فهذا القلقشندي يأتي بنص الإجازة التي أخذها من علامة عصره سراج الدين بن الملقن في الفقه الشافعي، يأتي بها في كتابه الموسوعي «صبح الأعشى» مدللاً على حبِّه وافتخاره لهذه الإجازة، فمِمَّا جاء فيها: «استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام العلامة الحبر الفهامة فريد دهره، ونسيج وحده، جمال العلماء، أوحد الفضلاء، عمدة الفقهاء والصلحاء سراج الدين مفتي الإسلام والمسلمين أبو حفص عمر...، وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه (القلقشندي) -أدام الله تعالى معاليه- أن يدرس مذهب الإمام المجتهد المطلق العالم الرباني أبي عبد الله محمد بن إدريس المطلبي الشافعي ﷺ وجعل الجنة متقلبه ومثواه، وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبيه حيث حل وأقام كيفما شاء، ومتى شاء، وأين شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطًّا ولفظًا على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه لعلمه بديانته وأمانته ومعرفته ودرايته وأهليته لذلك وكفايته...»[1].

ومن هنا، ندرك أن «الإجازة» كانت سبقًا إسلاميًّا فريدًا في مسيرة الإنسانية كلها، فقد سبقت كبرى الكليات والجامعات الأوربية بما يزيد على عشرة قرون كاملة؛ مما يُدلل على عظمة الحضارة الإسلامية في هذا الشأن، وإضافتها لشيء تنظيمي جديد، لطالما سارت جميع الأمم على نهجه حتى يومنا هذا.

* * *

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ١٤/ ٣٦٦، ٣٦٧.





الباب الرابع

إسهامات المسلمين في علوم الحياة



يُطْلَق على هذه العلوم تسميات أخرى مثل: العلوم الكونية، العلوم التقنية، العلوم التطبيقية، العلوم التجريبية.. وقد آثرتُ تسميتها بعلوم (الحياة) وذلك في مقابل علوم الشرع؛ لأني أرى أن بها تنصلح الحياة على الأرض، وهي تعني: العلوم النافعة التي يهتدي إليها الناس بعقولهم وتجارِبهم ومشاهداتهم، ويستطيعون من خلالها عمران الأرض وإصلاحها وتسخير إمكانياتها، واستكشاف الكون والبيئة، وهي مثل علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والفيزياء والجغرافيا، وعلوم الأرض والنبات والحيوان، وغير ذلك من العلوم التي تشمل الماديات المبثوثة في الكون، والتي يحتاج إليها البشر في إصلاح حياتهم.

ولقد بلغت مكانة علوم الحياة في ظلِّ الإسلام مبلغًا عظيمًا، حتى أصبح المسلمون فيها سادة، وقد ملكوا ناصيتها كما ملكوا ناصية العالم، فغدت جامعاتهم مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا من بلادهم لطلب تلك العلوم، وطفق ملوك أوربا وأمراؤها يَفِدُون إلى بلاد المسلمين ليعالَجوا فيها، وهو ما دعا العلاّمة الفرنسي جوستاف لوبون يتمنى لو أن المسلمين استولوا على فرنسا؛ لتغدو باريس مثل قرطبة في إسبانيا المسلمة[1]! وقال أيضًا تعبيرًا عن عظمة الحضارة العلميَّة في الإسلام: «إن أوربا مدينة للعرب (المسلمين) بحضارتها»[2].

وفي هذا الباب نتناول جوانب من إسهامات المسلمين في علوم الحياة، ونبرز عظمة هذه الإسهامات، ومكانة ذاك التغيير الذي أثّر -ولا يزال- في مسيرة الإنسانيَّة، وذلك في الفصلين التاليين التالية:

- الفصل الأول: **تطوير العلوم المتداولة**
- الفصل الثاني: **ابتكار علوم جديدة**

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ص١٣، ٣١٧.
(٢) السابق ص٥٦٦.

الفصل الأول

تطوير العلوم المتداوَلَة

لا شكَّ أنه كانت هناك علوم كثيرة متداولة قبل المسلمين، ساهمت فيها الحضارات السابقة بآثار طيِّبة، وهو ما اتَّكأ عليه المسلمون -ولهم الفخر في إعلان ذلك والتصريح به- عند بدء نهضتهم وقيام حضارتهم، غير أنهم -وهذا هو المعيار والأساس- لم يقتصروا على مجرَّد النقل عن غيرهم ممن سبقوهم، وإنما توسَّعوا وأضافوا إضافات باهرة من ابتكاراتهم واكتشافاتهم، واستطاعوا أن يسطروا في تلك العلوم التي كانت متداولة قبلهم تاريخًا ناصعًا مشرِّفًا، وهو ما نتبيَّنه ونتلمَّسه من خلال المباحث التالية:

- المبحث الأول: الطب
- المبحث الثاني: الفيزياء
- المبحث الثالث: البصريات
- المبحث الرابع: الهندسة
- المبحث الخامس: الجغرافيا
- المبحث السادس: الفلك

***

المبحث الأول

الطب

يُعدُّ علم الطب من أوسع مجالات العلوم الحياتية التي كان للمسلمين فيها إسهامات بارزة على مدار عصور حضارتهم الزاهرة، وكانت تلك الإسهامات على نحو غير مسبوق شمولاً وتميُّزًا وتصحيحًا للمسار؛ حتى ليُخيَّل للمطَّلع على هذه الإسهامات الخالدة كأن لم يكن طبٌّ قبل حضارة المسلمين!!

ولم يقتصر الإبداع على علاج الأمراض فحسب، بل تعدَّاه إلى تأسيس منهج تجريبي أصيل انعكست آثاره الراقية والرائعة على كافَّة جوانب الممارسة الطبيَّة وقايةً وعلاجًا، أو مرافق وأدوات، أو أبعادًا إنسانية وأخلاقية تحكم الأداء الطبي.

وإن روعة الإسهامات الإسلامية في الطبِّ لتتجلَّى في تخريج هذا الحشد من العبقريات الطِّبِّيَّة النادرة، التي كان لها -بَعْدَ الله ﷻ- الفضل الكبير في تحويل مسار الطبِّ إلى اتجاه آخر، تابعت المسير على نهجه أجيالُ الأطباء إلى يوم الناس هذا.

وإن بدايات تلك الصنعة تكمن في أن الإنسان منذ وُجِدَ على ظهر الأرض وهو يهتدي -بإلهام ربِّه- إلى أنواع من التطبيب تتَّفِق مع مستواه العقلي وتطوُّره الإنساني، وكان ذلك النوع من الطبِّ يُعرف بالطبِّ (البدائي) انسجامًا مع المستوى الحضاري للإنسان، ولذلك نجد ابن خلدون يذكر أن: «... للبادية من أهل العمران طبًّا يبنونه في أغلب الأمر على تجربة قاصرة، ويتداولونه متوارثًا عن مشايخ الحيِّ، وربما صحَّ منه شيء، ولكنه ليس على قانون طبيعي»[1].

ولما جاء الإسلام كان للعرب في الجاهلية مثل هذا الطب، فحثَّ رسول الله ﷺ على التداوي فقال - كما روى أسامة بن شريك رضي الله عنه: «**تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ: الْهَرَمُ**»[2]. وعُرف عن رسول الله ﷺ التداوي بالعسل والتمر

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٦٥٠.

(٢) أبو داود: كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد (١٨٤٧٧)، والحاكم (٨٢٠٦)، وقال: حديث صحيح. ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٢٩٣٠).

والأعشاب الطبيعية، وغيرها مما عُرف بـ «الطب النبوي».

غير أن المسلمين لم يَقِفُوا عند حدود ذلك الطبِّ النبوي، بل أدركوا منذ وقت مبكر أن العلوم الدنيوية -والطبّ أحدها- تحتاج إلى دوام البحث والنظر، والوقوف على ما عند الأمم الأخرى منها؛ وذلك تطبيقًا لهدي الإسلام الدافع دومًا للاستزادة من كل ما هو نافع، والبحث عن الحكمة أنّى وُجدت.. فنرى أطباء المسلمين يأخذون في التَّعَرُّفِ على الطبِّ اليوناني من خلال البلاد الإسلامية المفتوحة، كما أن الخلفاء بدءوا يستقدمون الأطباء الروم، الذين سرعان ما أخذ عنهم الأطباء المسلمون، ونشطوا في ترجمة كل ما وقع تحت أيديهم من مؤلَّفات طبية، ولعلَّ هذا يُعْتَبَرُ من أعظم أحداث العصر الأموي.

وقد تميَّز علماء الطبِّ المسلمون بأنهم أوَّل مَنْ عَرَفَ التخصُّص؛ فكان منهم: أطباء العيون، ويسمَّون (الكحَّالين)، ومنهم الجراحون، والفاصدون (الحجَّامون)، ومنهم المختصُّون في أمراض النساء، وهكذا. وكان من عمالقة هذا العصر المبهرين أَبو بكر الرازي، والذي يُعْتَبَرُ من أعظم علماء الطبِّ في التاريخ قاطبةً، وله من الإنجازات ما يعجز هذا الكتاب عن ضمِّه!

وما كادت عجلة الأيام تدور في العصر العباسي حتى أجاد المسلمون في كل فرع من فروع الطبِّ، وصحَّحوا ما كان من أخطاء العلماء السابقين تجاه نظريات بعينها، ولم يَقِفُوا عند حَدِّ النقل والترجمة فقط، وإنما واصلوا البحث وصوَّبوا أخطاء السابقين.

فقد تطوَّر طبُّ العيون (الكحالة) عند المسلمين، ولم يُطاوِلهم فيه أحدٌ؛ فلا اليونان من قَبْلِهِمْ، ولا اللاتين المعاصرون لهم، ولا الذين أَتَوْا من بعدهم بقرون بلغوا فيه شَأْوَهم؛ فقد كانت مؤلَّفاتهم فيه الحُجَّة الأُولَى خلال قرون طِوَال، ولا عجب أن كثيرين من المؤلِّفين كادوا يَعْتَبِرُون طبَّ العيون طبًّا عربيًّا، ويُقَرِّر المؤرِّخون أن **علي بن عيسى الكحال**[1] كان أعظم طبيب عيون في القرون الوسطى برُمَّتِهَا، ومؤلَّفه (التذكرة) أعظم مؤلَّفاته[2].

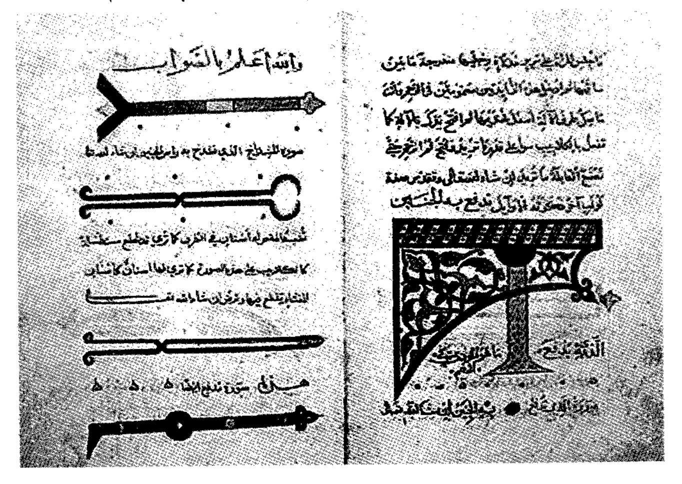
---

(١) علي بن عيسى الكَحّال: هو علي بن عيسى بن علي الكَحّال، (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م). طبيب حاذق في أمراض العين ومداواتها. وكانوا يسمونها «صناعة الكحل»، اشتهر بكتابه «تذكرة الكحالين». انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ٢٦٣، والزركلي: الأعلام ٤/ ٣١٨.

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ٢٦٣.

وإذا طوينا تلك الصفحة المشرقة للرازي وابن عيسى الكحال فإننا نجد أنفسنا أمام عملاق آخر يُعْتَبَرُ من أعظم الجرَّاحين في التاريخ، إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق، وهو **أبو القاسم الزهراوي** (ت ٤٠٣هـ) الذي تمكّن -كما أشرنا قبل ذلك- من اختراع أُولَى أدوات الجراحة كالمشرط والمقصّ الجراحي، كما وَضَع الأُسُس والقوانين للجراحة، والتي من أهمّها ربط الأوعية لمنع نزفها، واخترع خيوط الجراحة، وتمكَّن من إيقاف النزف بالتخثير.

وقد كان الزهراوي هو الواضع الأوَّل لعلم (المناظير الجراحية) وذلك باختراعه واستخدامه للمحاقن والمبازل الجراحية، والتي عليها يقوم هذا العلم، وقام بالفعل بتفتيت حصوة المثانة بما يشبه المنظار في الوقت الحاضر، إلى جانب أنه أوَّل مخترع ومستخدم لمنظار المهبل، ويُعْتَبَرُ كتابه **(التصريف لمن عجز عن التأليف)**، والذي قام بترجمته إلى اللاتينية العالم الإيطالي جيراردو[1] تحت اسم (ALTASRIF)، موسوعة طبية متكاملة لمؤسسي علم الجراحة بأوربا، وهذا باعترافهم، ولقد حلَّ الجزء الذي تكلَّم فيه الزهراوي عن الجراحة محلَّ كتابات القدماء، وظلَّ العمدةَ في فنِّ الجراحة حتى القرن السادس عشر (أي لما يزيد على خمسة قرون من زمانه)، ويشتمل على صور توضيحية للعديد من آلات الجراحة (أكثر من مائتي آلة جراحية!) كان لها أكبر الأثر فيمن أتى مِنْ بعده من الجرَّاحين الغربيين، وكانت بالغة



صورة (٩) صفحة من كتاب التصريف

(١) جيراردو دا كريمونا Gerardo da Cremona (١١١٤ - ١١٨٧م): مستشرق إيطالي، مولده ووفاته في (كريمونا) من مدن إيطاليا الشمالية، أقام زمنًا في طليطلة (بالأندلس)، فترجم عن العربية إلى اللاتينية أكثر من سبعين كتابًا في مختلف العلوم.

الأهمية على الأخصِّ بالنسبة لأولئك الذين أصلحوا فنَّ الجراحة في أوربا في القرن السادس عشر؛ يقول عالم وظائف الأعضاء الكبير هالر: «إن جميع الجراحين الأوربيين الذين ظهروا بعد القرن الرابع عشر قد نهلوا واستقوا من هذا المبحث»[١].

وقد برزت شخصيات إسلامية أخرى لامعة في ميدان علم الطب من أمثال ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) الذي استطاع أن يُقَدِّم للإنسانية أعظم الخدمات بما توصَّل إليه من اكتشافات، وما يسَّره الله له من فتوحات طبية جليلة؛ فقد كان أوَّل من اكتشف العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن، فهو الذي اكتشف لأوَّل مَرَّة طُفَيْل (الإنكلستوما)، وسمَّاها الدودة المستديرة، وهو بذلك قد سبق العالم الإيطالي (دوبيني) بنحو ٩٠٠ سنة، كما أنه أوَّل من وصف الالتهاب السحائي، وأوَّل من فرَّق بين الشلل الناجم عن سبب داخلي في الدماغ، والشلل الناتج عن سبب خارجي، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، مخالفًا بذلك ما استقرَّ عليه أساطين الطبِّ اليوناني القديم، فضلاً عن أنه أوَّل من فرَّق بين المغص المعوي والمغص الكلوي[٢]، كما كشف ابن سينا -لأوَّل مَرَّة أيضًا- طُرُقَ العدوى لبعض الأمراض المعدية كالجُدَرِيِّ والحصبة، وذكر أنها تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحيَّة الدقيقة في الماء والجوِّ، وقال: «إن الماء يحتوي على حيوانات صغيرة جدًّا لا تُرى بالعين المجرَّدة، وهي التي تسبِّب بعض الأمراض»[٣]. وهو ما أكَّدَهُ (فان ليوتهوك) في القرن الثامن عشر والعلماء المتأخِّرون من بعده بعد اختراع المجهر.

ولهذا فإن ابن سينا يُعَدُّ أوَّل من أرسى (علم الطفيليات) الذي يحتلُّ مرتبة عالية في الطبِّ الحديث؛ فقد وَصَفَ لأوَّل مَرَّة (التهاب السحايا الأولي) وفرَّقه عن (التهاب السحايا الثانوي) -وهو الالتهاب السحائي- وغيره من الأمراض المماثلة، كما تحدَّث عن طريقة استئصال (اللوزتين)، وتناول في آرائه الطبية أنواعًا من السرطانات كسرطان الكبد، والثدي، وأورام العقد الليمفاوية، وغيرها[٤].

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٥٩١.

(٢) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٣٢، ١٣٣.

(٣) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٢٩٨.

(٤) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٣٣، وانظر: فوزي طوقان: العلوم عند العرب ص١٧.

وكان ابن سينا جرَّاحًا بارعًا؛ فقد قام بعمليات جراحية دقيقة للغاية، مثل استئصال الأورام السرطانية في مراحلها الأولى[١]، وشقّ الحنجرة والقصبة الهوائية، واستئصال الخرَّاج من الغشاء البلوري بالرئة، كما عالج البواسير بطريقة الربط، ووصف -بدقَّة- حالات النواسير البولية، إلى جانب أنه توصَّل إلى طريقة مُبْتَكَرَة لعلاج الناسور الشرجي لا تزال تُسْتَخْدَم حتى الآن! وتعرَّض لحصاة الكُلَى وشرح كيفية استخراجها والمحاذير التي يجب مراعاتها، كما ذَكَرَ حالات استعمال القسطرة، وكذلك الحالات التي يُحذر استعمالها فيها[٢].

كما كان له باعٌ كبير في مجال الأمراض التناسلية؛ فوصف بدقَّة بعض أمراض النساء؛ مثل: الانسداد المهبلي، والإسقاط، والأورام الليفية، وتحدث عن الأمراض التي يمكن أن تصيب النفساء؛ مثل: النزيف، واحتباس الدم، وما قد يُسَبِّبُه من أورام وحُمِّيَّات حادَّة، وأشار إلى أن تَعَفُّنِ الرحم قد ينشأ من عُسْرِ الولادة، أو موت الجنين، وهو ما لم يكن معروفًا من قبل، كما تعرَّض أيضًا للذكورة والأنوثة في الجنين، وعَزَاهَا إلى الرجل دون المرأة، وهو الأمر الذي أَكَّدَه مؤخَّرًا العلم الحديث[٣].

وإلى جانب كل ما سبق كان ابن سينا على دراية واسعة بطبِّ الأسنان، وكان واضحًا دقيقًا في تحديده للغاية والهدف من مداواة نخور الأسنان حين قال: «الغرض من علاج التآكل منع الزيادة على ما تآكل؛ وذلك بتنقية الجوهر الفاسد منه، وتحليل المادَّة المؤدية إلى ذلك». ونلاحظ أن المبدأ الأساسي لمداواة الأسنان هو المحافظة عليها، وذلك بإعداد الحفرة إعدادًا فنيًّا ملائمًا، مع رفع الأجزاء النخرة منها، ثم يعمد إلى مَلْئِهَا بالمادَّة الحاشية المناسبة؛ لتعويض الضياع الماديِّ الذي تعرَّضَتْ له السِّنُّ؛ ممَّا يُعِيدُهَا بالتالي إلى أداء وظيفتها من جديد[٤].

ولم تكن تلك حالات استثنائية للعبقرية الإسلامية في مجال الطبِّ، فقد حفل سجلُّ الأمجاد الحضارية الإسلامية بالعشرات، بل المئات من الروَّاد الذين تتلمذتْ عليهم البشرية قرونًا طويلة[٥].

---

(١) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص١٤٨.

(٢) انظر: ابن سينا: القانون ٣/ ١٦٥.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٥٨٦.

(٤) انظر: ابن سينا: القانون ١/ ١٩٢.

(٥) سنتعرض في فصل آخر -بعون الله- للمؤسسة الصحية في الحضارة الإسلامية بصفة عامة، ومدى ما قدمته من نزعة إنسانية بلغت الذروة في السمو والعالمية.

المبحث الثاني

الفيزيـــــاء

شأن كل العلوم التي تتقدَّم وتتطوَّر مع تعاقب الأمم والحضارات، قامت العلوم الطبيعيَّة عند المسلمين في بدئها على مؤلَّفات اليونان، تلك التي استند فيها اليونانيُّون إلى الفلسفة المجرَّدة في محاولاتهم فَهْم الطبيعة، ودون أن يكون للتجربة دور يُذْكَر في تلك المحاولات، غير أن العلماء المسلمين ما لبثوا أن طوَّروا هذا الأساس، وخاضوا غمار علم الفيزياء ببراعة وذكاء منقطعَي النظير، حتى لكأنهم أنشئوا علمًا جديدًا، وذلك حين جعلوا علم الفيزياء عِلمًا يستند إلى التجربة والاستقراء، عوضًا عن الاعتماد على الفلسفة أو التأمُّلات والأفكار المجرَّدة.

فكان من جرَّاء ذلك أنهم استنتجوا نظريات جديدة وبحوثًا مبتكرة، مثل: قوانين الحركة، والقوانين المائية، وقانون الجاذبية الأرضيَّة، كما بحثوا في الوزن النوعي للمعادن والسوائل، واستطاعوا قياس الوزن النوعي للسوائل، والذي يُعَدُّ في هذا العصر، بما فيه من وسائل متطوِّرة، أمرًا عسيرًا!

فقد اتَّكأ المسلمون في البدء على كتب السابقين، مثل كتاب (الطبيعة) لأرسطوطاليس الذي تحدث فيه عن علم الحركة، وكذلك مؤلفات أرشميدس التي تحوي معلومات عن الأجسام الطافية في الماء والوزن النوعي لبعض الموادِّ، ومصنفات أكتسبيوس التي تتضمَّن نتائج علميَّة عن المضخَّة الرافعة والساعات المائيَّة، وكذلك هيرون السكندري[(١)] الذي تحدَّث عن البكرة والعجلة وقانون الشغل[(٢)]. ثم ما لبث العلماء المسلمون أن طوَّروا نظريات وأفكار السابقين الفيزيائية، واستطاعوا أن يخرجوها من طور النظريَّة المجرَّدة إلى طور التجربة العمليَّة، والتي هي عماد هذا العلم.

فبحث العلماء المسلمون في علم الصوت وفي منشئه وكيفيَّة انتقاله، فكانوا أول من

---

(١) هيرون السكندري: (ت ١٥٠ م) عالم رياضيات ومهندس مصري، يعدّ أول من اخترع الإبر، وجهازًا لتوليد طاقة الرياح ومولدًا يعمل بالطاقة الحرارية.

(٢) علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص١١٥.

عرف أن الأصوات تنشأ عن حركة الأجسام المحدِثة لها، وانتقالها في الهواء على هيئة موجات تنتشر على شكل كروي، وهم أول من قسَّم الأصوات إلى أنواع، وعلَّلوا سبب اختلافها عن الحيوانات باختلاف طول أعناقها، وسعة حلاقيمها وتركيب حناجرها، وكانوا أول من علَّل الصدى وقالوا: إنه يحدث عن انعكاس الهواء المتموِّج من مصادفة عالٍ كجبل أو حائط، ويمكن أن لا يقع الحسُّ بالانعكاس لقرب المساحة؛ فلا يُحَسُّ بتفاوت زمانَي الصوت وانعكاسه[1].

وفي علم السوائل ألَّف العلماء المسلمون فصولاً متخصِّصة في كيفية حساب الوزن النوعي لها؛ إذ ابتدعوا طرقًا عديدة لاستخراجه، وتوصَّلوا إلى معرفة كثافة بعض العناصر، وكان حسابهم دقيقًا ومطابقًا -أحيانًا- لما هو عليه الآن، أو مختلفًا عنه بفارقٍ يسير[2].

وكان من علماء المسلمين الذين اشتهروا بالفيزياء أبو الريحان البيروني، وهو الذي «عيَّن الكثافة النوعيَّة لثمانية عشر نوعًا من أنواع الحجارة الكريمة، ووضع القاعدة التي تنصُّ على أن الكثافة النوعيَّة للجسم تتناسب مع حجم الماء الذي يزيحه... وشرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعيَّة، والآبار الارتوازية بنظرية الأواني المستطرَقة»[3].

وقد أبدع الخازني[4] في حقل الفيزياء أيَّما إبداع، وخاصَّة موضوعَي الحركي (الديناميكا) وعلم السوائل الساكنة (الهيدروستاتيكا)، لدرجة أدهشت الباحثين الذين أتوا بعده، ولا تزال نظرياته تدرَّس في حقل الحركيَّة في المدارس والجامعات إلى يومنا هذا، ومن هذه النظريات نظرية الميل والانحدار ونظريَّة الاندفاع، وهاتان النظريتان أدَّتا دورًا مهمًّا في علم الحركيَّة، ويَعتبر الكثير من المؤرِّخين في تاريخ العلوم الخازنيَّ أستاذ الفيزياء لجميع العصور، وقد خصَّص الخازني جُلَّ وقته لدراسة موضوع السوائل الساكنة، فاخترع آلة لمعرفة الوزن النوعي للسوائل، وناقَش ضمن دراسته موضوع المقاومة التي

(١) رحاب خضر عكاوي: موسوعة عباقرة الإسلام ٤/ ٥٧.
(٢) انظر الموسوعة العربية العالمية على الرابط: http://www.alargam.com/general/arabsince/7.htm
(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٨٦، وانظر محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٣٣.
(٤) الخازني: هو أبو الفتح عبد الرحمن الخازن أو الخازني، حكيم فلكي مهندس، كان غلامًا روميًّا لعلي الخازن المروزي، فنسب إليه، حصّل علوم الهندسة والمعقولات، وصنف (ميزان الحكمة) و(الزيج). انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ٣٠٥.

يعانيها الجسم من أسفل إلى أعلى عندما يغمر في سائل، واستخدم الخازني نفس الجهاز الذي استخدمه أستاذه الكبير أبو الريحان البيروني في تعيين الثقل النوعي لبعض الموادِّ الصلبة والسائلة، ووصل الخازني في مقاديره إلى درجة عظيمة من الدقَّة، لفتت انتباه معاصريه ومَنْ تَبِعَهُم[١].

وقد ناقش روبرت هول في مقالة عن الخازني في قاموس الشخصيات البارزة في العلوم كيفية إيجاد الخازني لكثافة الأجسام الصلبة والسائلة، واختراعه ميزانًا لوزن الأجسام في الهواء والماء له خمس كفات تتحرك إحداها على ذراع مدرَّج، ويقول كلٌّ من حميد موراني وعبد الحليم منتصر في كتابهما (قراءات في تاريخ العلوم عند العرب): «لقد سبق الخازني تورشيللي في الإشارة إلى مادَّة الهواء ووزنه، وأشار إلى أن للهواء وزنًا وقوَّة رافعة كالسوائل، وأن وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي، وأن مقدار ما ينقصه من الوزن يتوقَّف على كثافة الهواء، وبيَّن أن قاعدة أرشميدس لا تسري فقط على السوائل، ولكن تسري أيضًا على الغازات، وكانت مثل هذه الدراسات هي التي مهَّدت لاختراع البارومتر (ميزان الضغط)، ومفرغات الهواء والمضخَّات، وما أشبه؛ وبهذا يكون الخازني قد سبق تورشيللي، وباسكال[٢]، وبويل[٣]، وغيرهم»[٤].

وغير ما سبق، وإذا ما عددنا قوانين الحركة والجاذبيَّة من بحوث علم الفيزياء، فإن لعلماء المسلمين الفضل في اكتشاف هذه القوانين، وتوضيح ذلك كما يلي:

قوانين الحركة

تكمن أهمية قوانين الحركة في أنها تُعَدُّ صُلب الحضارة المعاصرة؛ حيث إن كل علوم الآلات المتحرِّكة في العصر الحاضر، ابتداءً من السيارة والقطار والطائرة إلى صواريخ

---

(١) علي عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية ص٣٣١.

(٢) باسكال: بليس باسكال (١٦٢٣- ١٦٦٢م) فيزيائي، ورياضي، وفيلسوف فرنسي اشتهر بتجاربه على السوائل في مجال الفيزياء، وبأعماله الخاصة بنظرية الاحتمالات في الرياضيات. انظر: الموسوعة العربية الكبرى.

(٣) بويل: روبرت بويل (١٦٢٧-١٦٩١م) عالم أيرلندي، يعتبر مؤسس الكيمياء الحديثة. ساعد في ترسيخ دعائم الطريقة التجريبية في الكيمياء والفيزياء. وأكثر ما اشتهر به (بويل) تجاربه على الغازات التي أدت إلى إرساء قانون بويل. انظر الموسوعة العربية الكبرى.

(٤) علي عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية ص٣٣١.

الفضاء والصواريخ العابرة للقارَّات وغيرها، إنما تقوم وترتكز عليها، وبقوانين الحركة غزا الإنسان الفضاء الخارجي، واستطاع أن يهبط على سطح القمر. وقوانين الحركة تُعَدُّ كذلك أساس جميع العلوم الفيزيائية التي تقوم على الحركة؛ فالبصريات هي حركة الضوء، والصوت هو حركة الموجات الضوئية، والكهرباء هي حركة الإلكترونات... إلخ. والمشهور عند عموم الناس في الشرق والغرب أن مكتشف هذه القوانين هو العالم الإنجليزي إسحاق نيوتن، وذلك منذ أن نشرها في كتابه المسمَّى (الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية).

وقد ظلَّت هذه هي الحقيقة المعروفة في العالم كله، بل وفي جميع المراجع العلمية - ومنها بالطبع مدارس المسلمين- حتى مطلع القرن العشرين، وذلك حين تصدَّى للبحث جماعة من علماء الطبيعة المسلمين المعاصرين، وكان في مقدمتهم الدكتور مصطفى نظيف أستاذ الفيزياء، والدكتور جلال شوقي أستاذ الهندسة الميكانيكية، والدكتور علي عبد الله الدفاع أستاذ الرياضيات.. فتوفَّروا على دراسة ما جاء في المخطوطات الإسلاميَّة في هذا المجال، فاكتشفوا أن الفضل الحقيقي في اكتشاف هذه القوانين إنما يرجع إلى علماء المسلمين، وأن ما كان دور نيوتن وفضله فيها إلا تجميع مادَّة هذه القوانين وصياغتها، وتحديده لها في قالب رياضي!

وبعيدًا عن العاطفة والكلام النظري المجرَّد؛ فإن جُهد علماء المسلمين في ذلك جاء واضحًا وصريحًا، تدعمه النصوص الكثيرة الموثَّقة في مخطوطاتهم، والتي أَلَّفوها قبل مجيء نيوتن بسبعة قرون، ولنحتكم إلى تلك النصوص:

القانون الأوَّل للحركة: يشير القانون الأول للحركة في علم الفيزياء إلى أنه إذا كان مجموع الكَمِّيَّات الموجَّهة من القوى التي تؤثِّر على جسم ما صفرًا، فسوف يظلُّ هذا الجسم ساكنًا، وبالمثل فإن أي جسم متحرِّك سيظلُّ على حركته بسرعة ثابتة في حالة عدم وجود أيَّة قوى تؤثِّر عليه، مثل قوى الاحتكاك. وقد جاء ذلك في قالب نيوتن الرياضي حيث قال: «إن الجسم يبقى في حالة سكون أو في حالة حركة منتظمة في خطٍّ مستقيم ما لم تُجبره قوى خارجيَّة على تغيير هذه الحالة».

وإذا جئنا إلى علماء المسلمين ودورهم في ذلك؛ فإن الشيخ الرئيس ابن سينا في كتابه (الإشارات والتنبيهات) صاغ ذلك بلفظه فقال: «إنك لتعلم أن الجسم إذا خُلِّي وطباعه، ولم يَعْرِضْ له من خارجٍ تأثيرٌ غريبٌ، لم يكن له بُدٌّ من موضع معيَّن وشكل معيَّن، فإن في طباعه مبدأ استيجاب ذلك، وليست المعاوقة للجسم بما هو جسم، بل بمعنى فيه يطلب البقاء على حاله».

والواضح لنا من النصِّ السابق أن تعبير ابن سينا للقانون الأول للحركة يمتاز عن تعبير إسحاق نيوتن الذي جاء بعده بأكثر من ستَّة قرون؛ وفيه يؤكِّد على أن الجسم يبقى في حالة سكون أو حركة منتظمة في خطٍّ مستقيم ما لم تجبره قوى خارجيَّة على تغيير هذه الحالة؛ بما يعني أن ابن سينا هو أول من اكتشف هذا القانون!

القانون الثاني للحركة: وهذا القانون يربط بين مجموع القوى المؤثِّرة على الجسم وعلى زيادة سرعته، وهو ما يُعرف بالعجلة، وتكون العجلة متناسبة مع حجم القوَّة وفي نفس اتجاهها، ويُعتبر ثابتُ هذا التناسب بمنزلة كتلة الجسم (ك).

وقد جاء ذلك في قالب نيوتن الرياضي حيث قال: «إن القوَّة اللازمة للحركة تتناسب تناسبًا طرديًّا مع كلٍّ من كتلة الجسم وتسارعه، وبالتالي فإنها تُقاس كحاصل ضرب الكتلة × التسارع، بحيث يكون التسارع في نفس اتجاه القوَّة وعلى خطِّ ميلها».

وإذا جئنا إلى علماء المسلمين، فلك أن تتأمل -مثلاً- قول هبة الله بن ملكا البغدادي (٤٨٠-٥٦٠هـ / ١٠٨٧-١١٦٤م) في كتابه (المعتبر في الحكمة)؛ حيث يقول: «وكل حركة ففي زمان لا محالة، فالقوة الأشدُّ تُحرِّك أسرع وفي زمن أقصر... فكلَّما اشتدَّت القوَّة ازدادت السرعة فقصر الزمان، فإذا لم تتناهَ الشدَّة لم تتناهَ السرعة، وفي ذلك تصير الحركة في غير زمان أشدَّ؛ لأن سلب الزمان في السرعة نهاية ما للشدَّة». وفي الفصل الرابع عشر الموسوم (الخلاء) قال بلفظه: «تزداد السرعة عند اشتداد القوَّة، فكلما زادت قوَّة الدفع زادت سرعة الجسم المتحرِّك، وقصر الزمن لقطع المسافة المحدَّدة». وهو بالضبط ما نسقه نيوتن في قالبه الرياضي، وأسماه القانون الثاني للحركة!!

القانون الثالث للحركة: وهو يعني أنه إذا تفاعل جسيمان، فإن القوَّة التي يؤثِّر

بها الجسيم الأول في الجسيم الثاني (تسمَّى قوَّة الفعل) تساوى بالقيمة المطلقة، وتعاكس بالاتجاه القوَّة التي يؤثِّر بها الجسيم الثاني في الأول (تسمَّى قوَّة رد الفعل). وقد صاغ نيوتن ذلك القانون في قالبه الرياضي فقال: «لكل فعل ردُّ فعل، مساوٍ له في المقدار ومضادٌّ له في الاتجاه».

وقبله بقرون، وفي كتابه (المعتبر في الحكمة) أورد أبو البركات هبة الله بن ملكا ما نصُّه: «إن الحلقة المتجاذبة بين المصارعين لكل واحد من المتجاذبين في جذبها قوة مقاومة لقوة الآخر، وليس إذا غلب أحدهما فَجَذَبَهَا نحوه يكون قد خلت من قوة جذب الآخر، بل تلك القوة موجودة مقهورة، ولولاها لما احتاج الآخر إلى كل ذلك الجذب».

وهو نفس المعنى الذي ورد أيضًا في كتابات الإمام فخر الدين الرازي[1] في كتابه (المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات) حيث يقول: «الحلقة التي يجذبها جاذبان متساويان حتى وقفت في الوسط، لا شكَّ أن كل واحد منهما فعل فيها فعلاً معوَّقًا بفعل الآخر».

بل إن ابن الهيثم كان له نصيب منه أيضًا، حيث قال في كتابه (المناظر): «المتحرِّك إذا لقي في حركته مانعًا يمانعه، وكانت القوة المحرِّكة له باقية فيه عند لقائه الممانع، فإنه يرجع من حيث كان في الجهة التي منها تحرَّك، وتكون قوَّة حركته في الرجوع بحسب قوَّة الحركة التي كان تحرَّك بها الأوَّل، وبحسب قوَّة الممانعة».

ولا ريب بعدُ في أن ما أورده علماء المسلمين في هذه النصوص هو أصل القانون الثالث للحركة، والذي صاغه نيوتن بطريقته بعد أن استولى على مادَّته!!

قانون الجاذبية

متابعة لإنجازات المسلمين السابقة وجهودهم في اكتشاف أهمِّ قوانين الفيزياء، وهي قوانين الحركة الثلاثة، وتنويهًا باكتشافاتهم الباهرة في الفيزياء، والتي ما فتئت تُنسب

(١) فخر الدين الرازي: هو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن (٥٤٤ - ٦٠٦هـ/ ١١٥٠ - ١٢١٠م) من أئمة المفسرين، وأحد أعلم أهل زمانه في المنقول والمعقول وعلم الأوائل، ولد بالري، وتوفي بهراة، له: (مفاتيح الغيب) في تفسير القرآن الكريم. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٨-٢٥٢.

لغيرهم ممن أتوا بعدهم بقرون وقرون.. كان هناك أيضًا «قانون الجاذبية»، والذي تكمن أهميته في أنه يربط الأجرام السماويَّة ويحفظ تماسكها وانتظامها في مداراتها، وباكتشافه استطاع العلماء تفسير سقوط الأجسام نحو الأرض، وفَهْم المزيد عن حركة الكواكب حول الشمس في مدارات دائريَّة تقريبًا، وذلك بفرض أن التجاذب بين الشمس وكواكبها هو السبب في تلك الحركة الدورانيَّة.

والمشهور عند عموم الناس أيضًا في الشرق والغرب، ويدرسه طلاب المدارس والجامعات أن مكتشف هذا القانون هو إسحاق نيوتن، وذلك عندما سقطت عليه يومًا تفاحة من شجرة كان يجلس تحتها، وحينها أخذ يفكر في سبب سقوطها حتى توصَّل إلى قانون الجاذبية هذا ووضع صياغته، والذي يُثْبت فيه أن كل جسم مادِّي يجذب غيره من الأجسام المادِّيَّة، بقوَّة تزيد أو تنقص حسب الكتلة والمسافة بينهما!

لكن هل هذه هي الحقيقة؟ إن طبيعة العلم التراكميَّة لَتُؤَكِّد أنه ما كان يمكن لنيوتن أن يتوصَّل إلى صياغة قانونه الشهير هذا -كما كان الحال مع قوانين الحركة الثلاثة- لولا أنه وقف على أكتاف سابقيه من جهابذة العلماء، وعلى مرِّ العصور، ولعلَّ في سرد الدكتور أحمد فؤاد باشا للقصَّة من أولها ما يُظْهِر هذه الحقيقة المهمَّة.

يقول الدكتور أحمد فؤاد باشا بعد أن أشار إلى محاولةِ الفيلسوف اليوناني أرسطو النظريةِ لتفسير السقوط الحرِّ للأجسام: «وقد اهتدى علماء المسلمين -بفضل دينهم الحنيف- إلى المنهج العلمي السليم في تحصيل العلوم والمعارف، فلم يقبلوا تمامًا البراهين الفلسفيَّة للآراء التي يمكن اختبار صحَّتها تجريبيًّا، وفطنوا إلى أن التفسير العلمي لظواهر الكون يكتسب دقَّته من مدى تعبيره عن الحقيقة العلميَّة الكامنة وراء سلوك هذه الظواهر، وقدَّموا لأول مرَّة في تاريخ العلم أساسًا مقبولاً لتفسير السقوط الحرِّ للأجسام تحت تأثير الجاذبيَّة الأرضيَّة»[1].

وقد بدأ الهمداني[2] هذه الثورة العلميَّة بقوله في كتابه (الجوهرتين العتيقتين المائعتين

(١) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي؟ ص٩٠.

(٢) الهمداني: هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (٢٨٠- ٣٣٤هـ/ ٨٩٣- ٩٤٥م)، مؤرخ، عالم بالفلك والفلسفة والأدب، شاعر مكثر، من أهل اليمن، ولد ونشأ بصنعاء. انظر: السيوطي: بغية الوعاة ١/ ٤٩٨، والزركلي: الأعلام ٢/ ١٧٩.

من الصفراء والبيضاء) في سياق حديثه عن الأرض وما يرتبط بها من مياه وهـواء: «فمن كان تحتها[١] فهو في الثابت في قامته كمن فوقها، ومسقطه وقدمه إلى سطحها الأسفل كمسقطه إلى سطحها الأعلى، وكثبات قدمه عليه، فهي بمنزلة حجر المغناطيس الذي تجذب قواه الحديد إلى كل جانب...»[٢].

وبهذا التوضيح يكون الهمداني قد أرسى أول حقيقة جزئيَّة في فيزياء ظاهرة الجاذبيَّة، وهي ما يُعرف -كما يقول الدكتور أحمد فؤاد باشا- بـ (طاقة الموضع) أو (طاقة الكمون) الناتجة أصلاً عن ارتفاع الأجسام عن الأرض، وإن لم يقل في النصِّ صراحة أن الأجسام تجذب بعضها البعض، وهو المعنى الأساسي الشامل لقانون الجذب العام لنيوتن.

صورة (١٠) كتاب ميزان الحكمة

ويأتي بعده **أبو الريحان البيروني** ويؤكِّد ما سبق إليه الهمداني من أن الأرض تجذب ما فوقها نحو مركزها وذلك في كتابه (القانون المسعودي)، كما ذَكَر الخازني في كتابه (ميزان الحكمة) أن الجسم هو الذي يتحرَّك بقوَّة ذاتية أبدًا إلى مركز الأرض فقط، وكذلك فطن الرازي إلى تعميم فكرة الجاذبيَّة على جميع الأجسام الموجودة في الكون، ثم نجح **هبة الله بن ملكا البغدادي** في تصحيح الخطأ الجسيم الذي وقع فيه أرسطو، عندما قال بسقوط الأجسام الثقيلة أسرع من الأجسام الخفيفة، وسبقَ جاليليو في إثبات الحقيقة العلميَّة المهمَّة التي تقضي بأن سرعة الجسم

---

(١) أي تحت الأرض عند الأسفل.

(٢) الحسن بن أحمد الهمداني: الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء، تحقيق ودراسة د. أحمد فؤاد باشا، نقلاً عن أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي؟ ص٩٠.

الساقط سقوطًا حُرًّا تحت تأثير الجاذبيَّة الأرضية لا تتوقَّف إطلاقًا على كتلته، وذلك عندما تخلو الحركة من أي معوقات خارجيَّة، ويعبِّر عن هذه الحقيقة بكلماته في كتابه (المعتبر في الحكمة) فيقول: «... وأيضًا لو تحرَّكت الأجسام في الخلاء لتساوت حركة الثقيل والخفيف، والكبير والصغير، والمخروط المتحرِّك على رأسه الحاد، والمخروط المتحرك على قاعدته الواسعة في السرعة والبطء؛ لأنها إنما تختلف في الملاء بهذه الأشياء بسهولة خرقها لما تخرقه من المقاوم المخروق كالماء والهواء وغيرهما»[1].

ومن ناحية أخرى، أضاف البغدادي حقائق جديدة عن ظاهرة الجاذبيَّة من خلال دراسته لحركة المقذوفات، من حيث إن حركتها إلى أعلى عند القذف تعاكس فعل الجاذبيَّة الأرضيَّة، أو أن القوَّة القسرية التي قُذِف بها الجسم إلى أعلى تعمل في تضادٍّ مع قوَّة الجاذبيَّة الأرضيَّة، فهو يقول: «... فكذلك الحجر المقذوف فيه ميل مقاوم للميل القاذف؛ إلا أنه مقهور بقوة القاذف؛ ولأن القوة القاسرة عرضية فيه، فهي تضعف لمقاومة هذه القوة والميل الطبيعي ولمقاومة المخروق... فيكون الميل القاسر في أوَّله على غاية القهر للميل الطبيعي، ولا يزال يضعف ويُبطِئ الحركة ضعفًا بعد ضعف وبطئًا بعد بطء حتى يعجز عن مقاومة الميل الطبيعي، فيغلب الميل الطبيعي فيحرك إلى جهته».

يقول الدكتور أحمد فؤاد باشا معلِّقًا: وهنا تجدر الإشارة إلى أن البغدادي لا يستخدم مفهوم (الميل) كقوة خفيَّة أو (وحشيَّة) طبيعيَّة في اتجاه الحنين إلى حضن الأمِّ كوكب الأرض، مثلما قال أرسطو، ولكنه عنى به القوة الماديَّة التي تتحكم علميًّا في حركة المقذوف صعودًا ضدَّ الجاذبيَّة وهبوطًا في اتجاهها، والسؤال الذي طرحه البغدادي فيما يتعلَّق بهذه القضية العلميَّة هو: هل يتوقف الحجر المقذوف عند أعلى نقطة يصل إليها حين يبدأ في الارتداد إلى سطح الأرض؟ ويجيب هو نفسه بالنصِّ الواضح الصريح: «مَنْ تَوَهَّم أن بين حركة الحجر علوًّا المستكرِهة بالتحليق وبين انحطاطه وقفةً فقد أخطأ، وإنما تضعف القوَّة المستكرِهة له وتقوى قوى ثقله، فتصغر الحركة، وتخفى حركته على الطرف، فيتوهَّم أنه ساكن».

---

(١) انظر: أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي؟ ص٩١.

ويتابع الدكتور أحمد فؤاد باشا فيقول: «وتحدَّث الخازن عن التسارع (أو العجلة) في سقوط الأجسام نحو الأرض، وضمن كتابه (ميزان الحكمة) ما يدلُّ على معرفته بالعَلاقة الصحيحة بين السرعة التي يسقط بها الجسم نحو سطح الأرض والبُعد الذي يقطعه والزمن الذي يستغرقه، وهي العَلاقة التي تنصُّ عليها المعادلات الرياضية المنسوبة لجاليليو في القرن السابع عشر الميلادي. وهكذا يتَّضح أن علماء الحضارة الإسلاميَّة قد نجحوا في التوصُّل إلى حقائق جزئيَّة على طريق استكمال التصوُّر الإنساني لظاهرة الجاذبيَّة، بعيدًا عن الآراء الفلسفيَّة القديمة، واستنادًا إلى ما أثبتوه من أن مناهج البحث في المعرفة تعتمد على طبيعة موضوعاتها، ولولا هذه الثورة الهائلة التي أحدثوها في منهجيَّة التفكير والبحث العلمي السليم لظلَّت خرافات القدماء قائمة حتى وقتنا هذا، ولما وجد إسحاق نيوتن مَنْ يقف على أكتافهم من عمالقة العلماء لكي يصنع مجده وشهرته»[1].

وإذا كان من قول أو تعليق فإنما هو إعادة النظر في تاريخ قوانين الحركة، وأيضًا قانون الجاذبيَّة، وردّ الحقِّ إلى أصحابه.

* * *

(١) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي؟ ص٩٢.

المبحث الثالث

البصريـــــــات

كغيره من العلوم التي ظهرت قبل المسلمين، كان لليونانيين وغيرهم من الشعوب القديمة اهتمام بعلم البصريات، وكان لهم فيه آثار طيبة اتَّكأ عليها المسلمون عند ممارستهم لهذا العلم، فقد نقلوا عن اليونان آراءهم في انكسار الضوء، والمرايا المحرِقَة وغيرها، ولكنهم لم يقتصروا على مجرَّد النقل بل توسَّعوا وأضافوا إضافات باهرة من ابتكاراتهم، واستطاعوا أن يسطِّروا في علم البصريات تاريخًا مشرِّفًا.

ففي أوَّل الأمر كانت البصريَّات الإغريقيَّة تحوي رأيين متعارضين؛ الأول: هو الإدخال، أي دخول شيء ما يمثل الجسم إلى العينين، والثاني: الانبعاث، أي حدوث الرؤية (الإبصار) عندما تنبعث أشعة من العينين وتعترضها الأجسام المرئية. وقد ظلَّت الحضارة الإغريقيَّة تتناول البصريات بأخذٍ وردٍّ بين هذين الرأيين، وكانت مجهودات أرسطو تفتقر إلى تفصيل حتميٍّ، وكذلك إقليدس رغم مجهوداته الملموسة، إلاَّ أن نظرياته كانت مقصورة على تقديم شرح كامل للإبصار؛ لأنها أغفلت العناصر الفيزيائيَّة والفسيولوجيَّة والسيكولوجيَّة للظواهر البصريَّة، حيث ذهب إلى أن العين تُحْدِث في الجسم الشفاف المتوسِّط بينها وبين المبصَرَات شعاعًا ينبعث منها، وأن الأشياء التي يقع عليها هذا الشعاع تُبْصَر، والتي لا يقع عليها لا تُبْصَر، وأن الأشياء التي تُبْصَر من زاوية كبيرة تُرى كبيرة، والتي تبصر من زاوية صغيرة ترى صغيرة. أما بطليموس فرغم إبداعه في التوفيق بين التناول الهندسي والتناول الفيزيائي إلا أنه فشل في نهاية الأمر؛ لأن استخدامه كان مقصورًا على دعم استنتاجات سبق التوصُّل إليها فعلاً، بل إن معالجة النتائج التجريبيَّة كانت تجري أحيانًا بجواز مروره لهذه الاستنتاجات[1].

وقد ظلَّت البحوث في علم البصريات تدور في هذا الفلك السابق دون تقدُّم أو رقيٍّ، وبقيت على ذلك حتى جاءت الحضارة الإسلاميَّة، فكان لإسهامات المسلمين في علم البصريات

(١) انظر: دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا ص١٠٢.

نسق آخر متطوِّر وفريد؛ وذلك نظرًا لنبوغهم في العديد من العلوم المرتبطة بهذا العلم مثل الفلك والهندسة الميكانيكيَّة وغيرهما، إذ إن ابتكاراتهم قد تتداخل فيها هذه العلوم.

فقد جاء الفيلسوف أبو يوسف الكندي(١)، والذي يُعَدُّ من أوائل العلماء المسلمين الذين طرقوا ميدان علم الطبيعة وعلم البصريات؛ حيث تناول الظواهر الضوئيَّة وعالجها في كتابه الشهير (**علم المناظر**)، وقد أخذ بنظريَّة الانبعاث الإغريقيَّة، إلا أنه أضاف كذلك وصفًا دقيقًا لمبدأ الإشعاع، وصاغ من خلال ذلك أساس نظام تصوُّريٍّ جديد يحُلُّ في نهاية الأمر محلَّ نظريَّة الانبعاث، وكان لكتابه (علم المناظر) صدًى في المحافل العلميَّة العربيَّة، ثم الأوربيَّة خلال العصور الوسطى(٢).

ومن بعده جاء الحسن بن الهيثم والذي تُعَدُّ أعماله العلميَّة فتحًا جديدًا ووثبة خطيرة في عالم البصريات وفسيولوجية الإبصار، وكانت أعماله هي الأساس الذي بنى عليه علماء الغرب جميع نظرياتهم في هذا الميدان، وكان في طليعة العلماء الأجانب الذين اعتمدوا على نظرياته -بل أغاروا عليها ونسبوها لأنفسهم- روجر بيكون وفيتلو وعلماء آخرون، ولا سيما في بحوثهم الخاصَّة بالمجهر والتلسكوب والعدسة المكبِّرَة(٣).

بدأ ابن الهيثم أوَّلا بمناقشة نظريات إقليدس وبطليموس في مجال الإبصار، وأظهر فساد بعض جوانبها، ثم في أثناء ذلك قدَّم وصفًا دقيقًا للعين وللعدسات وللإبصار بواسطة العينين، ووصف أطوار انكسار الأشعة الضوئيَّة عند نفوذها في الهواء المحيط بالكرة الأرضية بعامَّة، وخاصَّة إذا نفذ من جسم شفّاف كالهواء والماء والذرَّات العالقة بالجوِّ، فإنه ينعطف -أي ينكسر- عن استقامته، وبَحَثَ في (الانعكاس) وتبيان الزوايا المترتِّبة على ذلك، كما تطرَّق إلى شرح أن الأجرام السماويَّة تظهر في الأفق عند الشروق قبل أن تصل إليه فعلاً، والعكس صحيح عند غروبها، فإنها تبقى ظاهرة في المجال الأفقي بعد أن تكون قد احتجبت تحته، وهو أول من نوَّه باستخدام الحجرة السوداء التي تُعتبر

---

(١) الكندي: هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي، (١٨٥-٢٥٦هـ/ ٨٠٥-٨٧٣م) فيلسوف العرب والإسلام في عصره، وأحد أبناء الملوك من كندة. نشأ بالبصرة، وانتقل إلى بغداد، فتعلم واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك. انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٧٢ - ١٧٧، ابن النديم: الفهرست ص٣١٥.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٣٨.

(٣) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٣٨.

أساس التصوير الفوتوغرافي[١].

والكتاب الذي خلَّد اسم ابن الهيثم عبر القرون هو (كتاب المناظر)، ويوضِّح هذا الكتاب تصوُّر البصريات كنظريَّة أوليَّة في الإبصار، مختلفة جذريًّا عن فرض الشعاع المرئي الذي حافظ عليه التقليد الرياضي منذ إقليدس وحتى الكندي، ولقد أدخل ابن الهيثم أيضًا منهجيَّة جديدة على هذا التفسير لعمليَّة الإبصار، وبهذا تمكَّن من صياغة مسائل كانت إمَّا غير مفهومة طبقًا لنظرية الشعاع البصري، أو مهملة من جانب فلاسفة يهدفون أساسًا إلى تفسير ماهيَّة الرؤية أكثر من اهتمامهم بشرح كيفيَّة حدوث الإبصار[٢].

وقد ألَّفَ ابن الهيثم في البصريات وحدها ما يقرب من أربعة وعشرين موضوعًا، ما بين كتاب ورسالة ومقالة، غير أن أكثر هذه الكتب قد فُقد فيما فُقِدَ من تراثنا العلمي، وما بقي منها فقد ضمَّته مكتبات إستانبول ولندن وغيرهما، وقد سلم من الضياع كتابه العظيم (المناظر) الذي احتوى على نظريات مبتكرة في علم الضوء، وظلَّ المرجع الرئيسي لهذا العلم حتى القرن السابع عشر الميلادي بعد ترجمته إلى اللاتينيَّة[٣]. فكان كتاب (المناظر) ثورة في عالم البصريات، وفيه لم يتبنَّ ابن الهيثم نظريات بطليموس ليشرحها ويُجْرِي عليها بعض التعديل فحسب، بل إنه رفض عددًا من نظرياته في علم الضوء، بعدما توصَّل إلى نظريات جديدة غدتْ نواة علم البصريات الحديث.

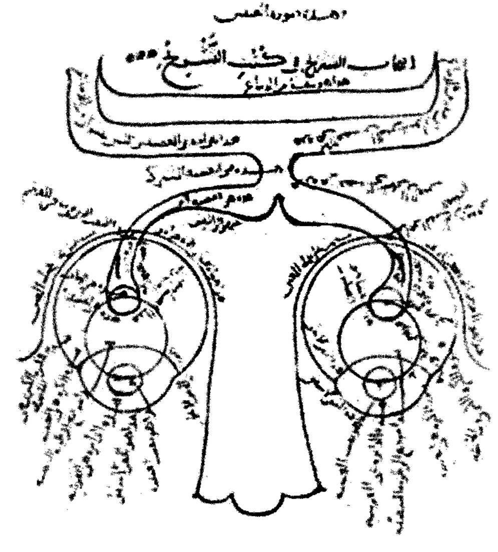
فقد كان بطليموس -كما ذكرنا- يزعم أن الرؤية تتمُّ بواسطة أشعَّة تنبعث من العين إلى الجسم المرئي، وقد تبنَّى العلماء اللاحقون هذه النظرية، ولما جاء ابن الهيثم نسف هذه النظريَّة، وبيَّن أن الرؤية تتمُّ بواسطة الأشعة التي تنبعث من الجسم المرئي باتجاه عين المبصر، وبعد سلسلة من الاختبارات أجراها ابن الهيثم بيَّن أن الشعاع الضوئي ينتشر في خطٍّ مستقيم ضمن وسط متجانس، وقد أثبت ذلك في كتاب (المناظر)[٤].

كذلك برهن ابن الهيثم رياضيًّا وهندسيًّا على كيفيَّة النظر بالعينين معًا إلى الأشياء في

---

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٢) دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا ص١٠٢.
(٣) في مؤلفات ابن الهيثم انظر: علي عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية ص٣٢٥.
(٤) انظر: ابن الهيثم: المناظر ص١٣٣.

آنٍ واحد دون أن يحدث ازدواج في الرؤية برؤية الشيء شيئين، وعلَّل ابن الهيثم ذلك بأن صورتَي الشيء المرئي تتطابقان على شبكيَّة العينين، وقد وضع ابن الهيثم بهذه البرهنة وذلك التعليل الأساس الأول لما يُعرف الآن باسم الاستريسكوب، وكان ابن الهيثم أوَّل من درس العين دراسة علميَّة، وعرف أجزاءها وتشريحها ورسمها، وأول من أطلق على أجزاء العين أسماء أخذها الغرب بنطقها أو ترجمها إلى لغاته، ومن هذه الأسماء: القرنية (Cornea)، والشبكية (Retina)، والسائل الزجاجي(Vitrous Humour)، والسائل المائي (Aqueous Humour) [١].



صورة (١١) تشريح العين لابن الهيثم

ومن أهم إنجازات ابن الهيثم بصفة عامَّة في البصريات: أنه أول مَنْ أجرى تجارِب بواسطة آلة الثقب، أو البيت المظلم، أو الخزانة المظلمة، واكتشف منها أن صورة الشيء تظهر مقلوبة داخل هذه الخزانة، فمهَّد بهذا الطريق إلى ابتكار آلة التصوير، وبهذه الفكرة وتلك التجارِب سبق ابن الهيثم العالمين الإيطاليين (ليوناردو دوفنشي [٢]) و(دلا بورتا) بخمسة قرون [٣].

كما وضع ابن الهيثم -ولأول مرَّة- قوانين الانعكاس والانعطاف في علم الضوء، وعلَّل لانكسار الضوء في مساره، وهو الانكسار الذي يحدث عن طريق وسائط كالماء

---

(١) H. Crew: The Rise Of Modern Physics P. 59 نقلاً عن جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٠٥. وانظر: دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا، ص١٠٤ وما بعدها.

(٢) ليوناردو دوفنشي: ليوناردو دا فينشي (١٤٥٢ - ١٥١٩م) يعدّ من أشهر فناني النهضة الإيطاليين على الإطلاق، وهو مشهور كرسام، نحات، معماري، وعالم. كانت مكتشفاته وفنونه نتيجة شغفه الدائم للمعرفة والبحث العلمي.

(٣) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٠٤.

والزجاج والهواء، فسبق ابنُ الهيثم بما قاله العالمَ الإنجليزي نيوتن[١].

وكان أحد أبرز إنجازات ابن الهيثم في كتابه المذكور تجربة الصندوق الأسود، وتُعتبر الخطوة الأولى في اختراع الكاميرا، وكما تقول الموسوعة العلمية: فابن الهيثم يُعتبر أولَ مخترع للكاميرات، وهي ما يُسمَّى عمليًّا: (Camera obscura)[٢].

ومَنْ يطَّلع على كتاب (المناظر) والموضوعات التي تتعلَّق بالضوء وما إليه يخرج بأن ابن الهيثم قد طبع علم الضوء بطابع جديد لم يُسبق إليه، وقد ألَّف هذا الكتاب عام (٤١١هـ/ ١٠٢١م)، وفيه استثمر عبقريته الرياضيَّة، وخبرته الطبيَّة، وتجاربه العلميَّة، فتوصَّل فيه إلى نتائج وضعته على قمَّة عالية في المجال العلمي، وصار بها أحد المؤسِّسين لعلوم غيَّرت من نظرة العلماء لأمور كثيرة في هذا المجال[٣].

وعلى الرغم من مكانة ابن الهيثم وبحوثه المبتكَرة في علم الضوء، إلاَّ أنه ظلَّ مغمورًا لا يعرفه كثير من الناس، حتى قَيَّض الله من يكشف عن جهوده وينقب عن آثاره ويجليها، وكان من هؤلاء العالم المصري مصطفى نظيف، وذلك حين كتب عنه دراسة طيبة رائدة نشرتها جامعة القاهرة في مجلدين، وقد بذل فيها جهدًا مضنيًا في قراءة مخطوطات ابن الهيثم ومئات المراجع الأخرى، حتى خلص إلى حقيقة صادقة، وهي أنَّ ابن الهيثم خليقٌ بأن يُعدَّ بحقٍّ **رائد علم الضوء في مستهلِّ القرن الحادي عشر**[٤].

وليس كل ما ذكرناه إلا جزءًا بسيطًا من الإنجاز الهائل الذي قدمه المسلمون لعلم البصريات، فما أروعه من إنجاز!!

***

(١) المصدر السابق ص٣٠٣.
(٢) انظر: جورج سارتون: مقدمة لتاريخ العلم ١/ ٧٢١.
(٣) المصدر السابق ص٨٤ وما بعدها.
(٤) راجع كلمة الدكتور مصطفى نظيف في الاجتماع التخليدي لذكرى الحسن بن الهيثم في ٢١/ ١٢/ ١٩٣٩م بالقاهرة، وذلك بمناسبة احتفال الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية بذكرى مرور ٩٠٠ سنة على وفاته بالقاهرة.

المبحث الرابع

الهندسة

الهندسة علم عرفه الإنسان القديم لاحتياجه الطبيعي للقياس، سواء للمساحات أو للبناء، بل يذهب البعض ليقول بأنه علم غريزي؛ فالحيوانات نفسها تعرف أن أقصر طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم[1].

يمكننا أن نبدأ الهندسة منذ قدماء المصريين، إذ إنهم طبّقوا النظرية التي عُرفت فيما بعدُ بنظرية فيثاغورث، وآثارهم تشهد بتفوقهم، وتوجد وثيقة ترجع لعهد أحمس أي قبل ٤٠٠٠ سنة، تحوي الأفكار الهندسية لمساحات وحجوم الأشكال المختلفة. ثم أضاف البابليون إضافات جيدة، وهي التي تلقاها منهم اليونانيون، ولقد برع اليونانيون في هذا العلم كثيرًا واشتهر منهم إقليدس مؤلف كتاب (أصول الهندسة)، وهو الكتاب الأشهر عبر التاريخ، وهو الكتاب الذي انتقل إلى أوربا عبر الترجمة العربية له[2].

دخل علم الهندسة إلى العرب عبر الترجمات للأعمال الإغريقية، وخصوصًا كتاب إقليدس (أصول الهندسة). ويرصد دونالد ر. هيل[3] تطور علم الهندسة في الحضارة الإسلامية فيقول: «وأعقبت مرحلة الترجمة مرحلة الإبداع، وعلى الرغم من أن أساتذة مثل إقليدس وأبولونيس وأرشميدس نالوا احترامًا يبلغ حد التوقير والتبجيل، إلا أن العلماء العرب لم يتهيبوا أن يفندوا نتائجهم بل ويصوِّبوها في بعض الحالات، كذلك قدّم العلماء العرب إسهاماتٍ فَذَّة في مجال الهندسة النظرية»[4].

وربما تزداد دهشتنا حين نعلم أن هذه «الإسهامات الفذة» كانت في جانب «الهندسة النظرية»، وهو الجانب الذي لم يعطه المسلمون كثير اهتمام.

---

(١) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٦٧.

(٢) المصدر السابق ص٦٧-٦٩.

(٣) دونالد ر. هيل: Donald R. Hill باحث غربي معاصر وخبير في التراث العلمي العربي حقق العديد من كتب علماء الحضارة الإسلامية، وله العديد من المؤلفات التي تبرز الأثر العلمي للحضارة الإسلامية في الهندسة والكيمياء والرياضيات والعمارة.

(٤) دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية ص٤٦.

فهم قسّموا الهندسة إلى قسمين: عقليَّة وحسيَّة؛ فالعقليَّة هي الهندسة النظريَّة، والحسيَّة هي التطبيقيَّة العملية. ولم يضيفوا كثيرًا إلى الهندسة العقلية النظرية غير أنهم شرحوها وعلّقوا عليها، أما الاهتمام الأكبر فقد انصبّ على الهندسة الحسية التطبيقية العملية، فطبقوها في مجالات الصناعة والعمران والفنون والبناء[1]، لدرجة أن كلمة «هندسة» التي كانت في الأصل تستخدم لتدل فقط على «علم الهندسة النظرية»، أصبحت تستخدم عادةً في اللغة العربية الحديثة بمعنى الهندسة التطبيقية[2].

سنجد في بعض مؤلَّفات البيروني نظريات ودعاوى هندسيَّة وطرق البرهنة عليها، وهي طرق جديدة فيها ابتكار وفيها عمق، وهي تُغَاير الطرق التي سار عليها فلاسفة اليونان ورياضيوهم، وسخَّر المسلمون -ولا سيما ابن الهيثم- الهندسة بنوعيها، المستوية والمجسمة في بحوث الضوء وتعيين نقطة الانعكاس في أحوال المرايا الكروية والأسطوانية والمخروطية، المحدَّبة منها والمقعَّرة، وابتكروا لذلك الحلول العامَّة وبلغوا فيها الذروة[3].



صورة (١٢) كتاب نصير الدين الطوسي

وقد بيَّن العلماء المسلمون كيفية إيجاد نسبة محيط الدائرة إلى قطرها (ط)، كما أظهروا تفوُّقًا في الهندسة المستوية، ولا سيما فيما يتعلَّق بالمتوازيات؛ فكان نصير الدين الطوسي[4] مثلاً أول مَنْ لفت الانتباه

---

(١) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٧٠، ٧١.

(٢) دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية ص٤٧.

(٣) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٥٨.

(٤) نصير الدين الطوسي: هو أبو جعفر محمد بن محمد بن الحسن (٥٩٧- ٦٧٢ هـ/ ١٢٠١- ١٢٧٤م) كان رأسًا في العلوم العقلية، علاَّمة بالأرصاد والرياضيات. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٤٧.

لنقص إقليدس في قضية المتوازيات، وقام بتقديم الأدلة المبنية على فروض في كتابه **(الرسالة الشافية عن الشكِّ في الخطوط المتوازية)**.

عرف الرياضيون المسلمون كذلك علم تسطيح الكرة؛ وهو علم عرَّفه حاجي خليفة بأنه «عِلْمٌ يُتَعَرَّف به كيفية نقل الكرة إلى السطح مع حفظ الخطوط والدوائر المرسومة على الكرة، وكيفية نقل تلك الدوائر على الدائرة إلى الخطِّ»[١].

وتظهر منفعة هذا العلم -كما يقول القونجي- في الارتياض بعلم هذه الآلات وعملها وكيفيَّة انتزاعها من أمور ذهنيَّة مطابقة للأوضاع الخارجيَّة، والتوصل بها إلى استخراج المطالب الفلكيَّة، ومن مصنفاتهم في هذا الفرع من الهندسة كتاب (الكامل) للفرغاني، و(الاستيعاب) للبيروني، و(دستور الترجيح في قواعد التسطيح) لتقي الدين الشامي[٢] رحمهم الله[٣].

وقد أَلَّف المسلمون مصنفات كثيرة في المسائل الهندسيَّة، وفي التحليل والتركيب الهندسي، وفي موضوعات متصلة بذلك مثل تقسيم الزاوية، ورسم المضلَّعات المنتظمة وربطها بمعادلات جبرية، ويقال: إن ثابت بن قرة[٤] قسَّم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية بطريقة تخالف الطرق التي عرفها اليونان. ويقول الأستاذ قدري طوقان: إن الجيوب استُعملت بدل الأوتار في بداية القرن الثالث للهجرة، غير أنه من الصعب تعيين الشخص الذي خطا هذه الخطوة، ولكن ثبت أن ثابتًا هو الذي وضع دعوى (منالاوس) في شكلها الحاضر، وفوق ذلك فقد حلَّ بعض المعادلات التكعيبيَّة بطرق هندسيَّة استعان بها بعض علماء الغرب في بحوثهم الرياضيَّة في القرن السادس عشر الميلادي، مثل كاردان وغيره من كبار الرياضيين.

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون ص٤٠٣.

(٢) تقي الدين الشامي: محمد بن معروف ويلقب بالراصد والشامي (٩٢٧ - ٩٩٣ هـ/ ١٥٢١ - ١٥٨٥ م)، أحد الموسوعيين الكبار عالم بالفلسفة والفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والصيدلة والزراعة والهندسة، وله أكثر من ٩٠ كتابا في علوم متعددة.

(٣) القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ١٤٨.

(٤) ثابت بن قرة: هو أبو الحسن ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت (٢٢١ - ٢٨٨هـ/ ٨٣٦-٩٠١م) عالم بالرياضيات والفلك، اتصل بالخليفة العباسي المعتضد. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٨٥، وابن النديم: الفهرست ص٣٣١.

يضيف الأستاذ طوقان قائلاً: إن بعض الذين يعنون بالعلوم الرياضية قد لا يصدِّقون أن ثابتًا من الذين مهَّدوا لإيجاد (التكامل والتفاضل)، ولا يخفى ما لهذا العلم من شأن في الاختراع والاكتشاف، فلولا هذا العلم ولولا التسهيلات التي أوجدها في حلول كثيرٍ من المسائل العويصة، والعمليات الملتوية، لما كان في الإمكان الاستفادة من القوانين الطبيعيَّة واستغلالها لخير الإنسان، وثابت من الذين اشتغلوا بالهندسة التحليلية وأجادوا فيها، وله فيها ابتكارات لم يسبقه أحد إليها، وقد وضع كتابًا في الجبر بيَّن فيه عَلاقة الجبر بالهندسة وكيفيَّة الجمع بينهما[١].

ويسرد المستشرق الفرنسي البارون كارا دي فو[٢] الإنجازَ الذي حققته الحضارة الإسلامية فيقول: «أنجز العرب أعظم المكتشفات العلمية فعلاً، فعلَّمُونا استعمال الصِّفر، ولو أنهم لم يكونوا مبتكريه، وهكذا ابتدعوا حساب الحياة اليومية. إنهم جعلوا (الجبر) علمًا متقنا وتقدموا به، ووضعوا أسس علم الهندسة التحليلية، وهم -بلا منازع- مُوجِدو علمي المثلثات المستوية والكروية اللذين لم يكن للإغريق فضل في وجودهما إذا ما توخينا الدقة والإنصاف»[٣].

إن التطور العظيم الذي يمكن اعتباره قفزة في تاريخ العلم كان استخدام العرب للأرقام الهندية وبالذات للصِّفر، الذي وإن دار خلاف حول أوَّل من عرفه، فلا خلاف أن العرب هم من استخدموه، فاعتبروه معبرًا عن المكان الخالي، وبهذا استقامت الحسابات التي أُسِّست باعتبار الخانات: خانة الآحاد، وخانة العشرات، وخانة المئات... وهكذا أمكن حساب العمليات الكبيرة والمطوَّلة، وهو ما كان يستحيل مع الأرقام اللاتينية وقتها[٤].

---

(١) قدري طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص٨٤ وما بعدها، نقلاً عن جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٥٩.

(٢) كارا دي فو: (1868 – 1939) Baron Carra De Vaux مستشرق فرنسي، اهتم بالتراث العلمي العربي وحقق عددا من المؤلفات التراثية لعلماء المسلمين، من أشهر كتبه (مفكرو الإسلام – ٥ أجزاء) وله العديد من المؤلفات الأخرى.

(٣) تراث الإسلام بإشراف أرنولد ص٥٦٣، ٥٦٤.

(٤) انظر: عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص٦٤.

وتلفت المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه النظر إلى أن استعمال هذه الأرقام لم يكن مجرَّد صدفة أو نوعًا من الحظ السعيد للعرب، بل إن عبقريتهم التي التقطت هذه الأرقام من فوق الهدايا والبضائع الهندية هي صاحبة الفضل، إذ «برهنوا على أنهم كانوا يتمتعون بفَهْمٍ عميق وإدراك واسع عندما اكتشفوا فوائد هذه الشخوص الصغيرة التي تزيِّن الهدايا الهندية، من غير أن يتطلعوا تطلعهم إلى أشياء مدهشة ليلقوا بها جانبًا آخر الأمر، أَوَلَم تكن هذه الأرقام معروفة في الإسكندرية وفي حواضر العلم السورية؟ ولكنها ما كانت لتشتعل نورًا وهّاجًا إلا حين وصلت إلى العرب»(١).

«يعتبر الرياضيون الصِّفر أعظم اختراع وصلت إليه البشرية، وفعلاً فإنه يستحيل دون الصفر وجود الكمية الموجبة والكمية السالبة مثلاً في علم الكهرباء، والموجب والسالب في علم الجبر»(٢).

ثم كانت قفزة أخرى في علم الهندسة حين وضع الخوارزمي علم الجبر والمقابلة، وهو العلم الذي سنتحدث عنه في باب قادم حين الحديث عن الإضافات التي أضافها المسلمون للعلوم البشرية.

أما في مجال المساحة فسنجد أن من أهم أعمال أولاد موسى بن شاكر في علم الهندسة كتاب (معرفة مساحة الأشكال البسيطة والكرّية)، فالأقدار الثلاثة: الطول والعرض والسمك، تحدُّ عِظَم كل جسم، وانبساط كل سطح، والعمل في تقدير كمياتها إنما يُتبَيَّن بالقياس إلى الواحد المسطَّح والواحد المجسم، والواحد المسطح الذي به يقاس السطح، وكل مضلَّع يحيط بدائرة، فسطح نصف قطر تلك الدائرة في نصف جميع أضلاع ذلك المضلع هو مساحته(٣).

وقد شكَّل هذا الكتاب تطويرًا مهمًّا لكتابي أرشميدس عن (حساب مساحة الدائرة)، وعن (الكرة والأسطوانة)، والذي استغلَّ فيه الإخوة الثلاثة منهج الاستنزاف لدى

---

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص١٥٧.

(٢) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٥٦.

(٣) بنو موسى بن شاكر: كتاب معرفة مساحة الأشكال، تحرير نصير الدين الطوسي ص٢، نقلاً عن خالد أحمد حربي: علوم حضارة الإسلام ودورها في الحضارة الإنسانية ص١٥٤.

يودوكس، ومفهوم الكميات متناهية الصغر لدى أرشميدس، وقد كان لهذا الكتاب بالغ التأثير في الشرق الإسلامي، وفي الغرب اللاتيني معًا[١].

أمَّا في المساحات فقد تناولها العلماء المسلمون في ثنايا المصنفات الرياضية باعتبارها فرعًا من الهندسة؛ فنجد أن بهاء الدين العاملي[٢] (ت ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م) يخصِّص لها الفصول الثلاثة الأولى من الباب السادس من كتاب (خلاصة الحساب)، ويتناول في مقدِّمته بعض تعريفات أولية في المساحة عن السطوح والأجسام، ثم في الفصل الأول مساحة السطوح المستقيمة الأضلاع كالمثلث، والمربَّع، والمستطيل، والمعيَّن، والأشكال الرباعيَّة، والمسدس، والمثمَّن وغيرها، ويتناول في الفصلين الثاني والثالث طرق إيجاد مساحة الدوائر والسطوح المنحنية كالأسطوانات، والمخاريط التامَّة والناقصة، والكرة، كما يذكر في الباب السابع أشياء تتعلَّق بالمساحة على سطح الأرض لإجراء المسح لشقِّ القنوات، ومعرفة مقدار الارتفاعات وعرض الأنهار وأعماق الآبار.

وقد كان من الطبيعي أن ينقل المسلمون معارفهم الهندسيَّة ويطبِّقوها على فنِّهم المعماري من مساجد وقصور ومدن، وغيرها، واهتمُّوا بالزخارف الهندسيَّة التي اتَّسمت بالتناسق والدقَّة، وهذا وإن فاضت به الدراسات عن الفن الإسلامي إلا أنه يعبِّر عن أصالة في الهندسة المعمارية، تلك التي يشهد لها مارتن إس بريكز، وهو مستشرق متخصص في العمارة الإسلامية، بالأصالة والتميز فيقول: «ولكن مع احتمال جهل العرب في أمور الهندسة المعمارية في أوائل عهد الفتوح، فإن الحقيقة الساطعة عن العمارة الإسلامية هي أنها بقيت نسيج وحدها في كل البلاد وكل العصور التي مرَّ بها الإسلام، مع بقاء أصولها معقَّدة غاية التعقيد (أي مصادر التأثُّر والاقتباس). هنالك شيء يميزها عن آثار جميع المدارس المعمارية المحلية التي كانت أداة فنية لخلقها»[٣].

ومن هنا تتجلَّى عظمة المسلمين في علم الهندسة، ولا يستطيع أن ينكر دورهم في ذلك

---

(١) عبد الحميد صبره: أبناء موسى بن شاكر، ضمن كتاب عبقرية الحضارة العربية منبع النهضة الأوربية، تحرير ر. ب. ويندر ص٢٥، نقلاً عن خالد أحمد حربي: المصدر السابق ص١٥٥.

(٢) بهاء الدين العاملي: هو محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي (٩٥٣- ١٠٣١هـ/ ١٥٤٧- ١٦٢٢م) عالم أديب إمامي، ولد في بعلبك، وتوفي بأصفهان. أشهر كتبه: (الكشكول)، و(المخلاة). انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ١٠٢.

(٣) تراث الإسلام بإشراف أرنولد ص٢٣٢.

إلا جاحد، يقول محمد كرد علي: «وللعرب (المسلمين) في باب الهندسة الإبداع الذي أقرَّهم عليه كل عارف، ولم ينازعهم فيه منازع، ولم يخترع العرب أبنية خاصة بهم، بل تجلى في هندستهم حبُّهم للزخرف واللطف، واخترعوا القوس المقنطر ورسم البيكارين، وجعل تفنُّنهم في هندسة القباب والسقوف والمعرَّشات من الأشجار والأزهار لجوامعهم وقصورهم بهجة لا يبلى على الدهر جديدها، ودلَّت كل الدلالة على إيغالهم في حبِّ النقوش والزينة، كأن أبنيتهم ومصانعهم ثياب من ثياب الشرق تفنن حائكها في رقشها ونقشها، كما قال أحد العارفين من الإفرنج»[1].

هذه هي بعض إسهامات المسلمين في تطوير علم الهندسة، حيث بدت معالمه الكُلِّيَّة واضحة جلية، وذلك بعد اطِّلاعهم على إرث الحضارات السابقة عليهم.

* * *

(١) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ١/ ٢٣٨.

المبحث الخامس

الجغرافيـــــا

«ما زالت مؤلفات المسلمين في الجغرافيا تحتل مكانًا مهمًّا حتى يومنا هذا؛ لأن المعلومات التي تتضمنها تزيد في علمنا بالجغرافيا التاريخية المتعلقة بالبلدان التي تناولتها هذه المؤلفات، وبالتالي تنمِّي بصورة غير مباشرة معلوماتنا عن تاريخ تلك البلدان؛ فتراث الإسلام في هذا الميدان له أهمية خاصة»(١).

هذه ليست كلماتنا، بل هي كلمات الباحث الغربي مارتن بلسنر.

والجغرافيا كعلم بدأ قبل الإسلام، ولكن «كان من نتائج ريادات العرب ومعارفهم الفلكية أن اتفق لعلم الجغرافيا تقدُّم مُهِمٌّ، ولا غَرْوَ فالعرب الذين اتخذوا في البداية علم اليونان ولا سيما بطليموس، أَدِلَّاء لهم في علم الجغرافيا - لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فيه على حسب عادتهم»(٢).

وتلك أيضًا ليست كلماتنا، بل هي للمفكر الفرنسي الكبير جوستاف لوبون.

ولعلّه يمكننا رسمَ مسيرة إبداعات وإنجازات المسلمين في علم الجغرافيا من خلال ثلاث مراحل:

- تصحيح الأغلاط السابقة عليهم.
- الوصف المتميز للمعالم والبلدان.
- إضافاتهم واكتشافاتهم.

وبهذا التصوُّر يمكن القول إن مسيرة الإبداع قد بدأت بإثباتهم **كروية الأرض**؛ فقد كان الإغريق يعتقدون أن الأرض قرص دائري مسطَّح تحيط به مياه المحيطات من كل جانب، وها هو هكتاتيوس (سنة ٥٠٠ ق. م)، والذي يُعتبر أبا الجغرافيا الإغريقيَّة، يرسم خرائطه على أساس القرص المستدير، وبالرغم من أن أفلاطون (سنة ٣٤٨ ق. م) أتى

(١) مارتن بلسنر: مبحث العلوم، منشور في كتاب تراث الإسلام بإشراف شاخت وبوزورت ٢/ ١٥٤.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٦٨.

بأول نظرية عن كرويَّة الأرض إلاَّ أنه لم يلقَ التأييد الكافي ممن جاء بعده، بل إن الدولة الرومانيَّة رفضت هذه الفكرة، وكتب كوزماس (COSMAS) أبو الجغرافيا الرومانيَّة في (سنة ٥٤٧م): «إن العالم يشبه العجلة، وإن مياه المحيط حوله من كل الجهات...». وبلغ الأمر ذروته حين تبنَّت الكنيسة وآباؤها الأوائل، وعلى رأسهم لكتانشيوس هذه النظرية بشدَّة، وقالوا بأن الأرض مسطَّحة، وأن الجانب الآخر غير مأهول؛ وإلا سقط الناس في الفضاء[١]!!

ولما جاءت الحضارة الإسلاميَّة، عملت على إحياء نظرية كروية الأرض وتبنَّتها، وربما كان من أهمِّ أسباب ذلك أن القرآن أشار بصور مختلفة إلى كروية الأرض، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[٢]. والدحية في اللغة هي الكرة، كما أن هناك آيات تتحدَّث عن دوران هذه الكرة حول نفسها بما يُحدِث الليل والنهار، فيقول تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[٣].

يقول ابن خرداذبه[٤] (ت ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م) مثلاً: «إن الأرض مُدَوَّرَةٌ كدوران الكرة، موضوعة كالمُحَّة[٥] في جوف البيضة»[٦]. كما كتب ابن رُستة[٧] (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م): «إن الله ﷻ وضع الفلك مستديرًا كاستدارة الكرة، أجوف دوَّارًا، والأرض مستديرة أيضًا ومصمتة في جوف الفلك»[٨].

وللأديب الشهير ابن عبد ربه[٩] وهو صاحب كتاب العقد الفريد، أبيات له يردُّ فيها

---

(١) المصدر السابق، وجلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٩٧، ٣٩٨.

(٢) (النازعات: ٣٠).

(٣) (الزمر: ٥).

(٤) ابن خرداذبه: هو أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه (٢٠٤- ٢٧٢هـ/ ٨٢٠- ٨٨٥م) مؤرخ جغرافي، أسلم على أيدي البرامكة، من أشهر مصنفاته: (المسالك والممالك). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩/ ٢٢٩.

(٥) المُحَّة: صفار البيض. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة محح ٢/ ٥٨٩.

(٦) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص٤.

(٧) ابن رُستة: هو أبو علي أحمد بن عمر (ت نحو ٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، عالم جغرافي من أهل أصفهان، من أهم كتبه: (الأعلاق النفيسة). انظر: الزركلي: الأعلام ١/ ١٨٥.

(٨) ابن رستة: الأعلاق النفيسة ص٨.

(٩) ابن عبد ربه: أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم، أبو عمر (٢٤٦ - ٣٢٨هـ/ ٨٦٠ - ٩٤٠م)، الأديب الإمام صاحب العقد الفريد، من أهل قرطبة. انظر الزركلي: الأعلام ١/ ٢٠٧.

على أبي عبيدة مسلم بن أحمد الفلكي[1]، عرفنا منها أن أبا عبيدة الفلكي قال بكروية الأرض، ولكن ابن عبد ربه لم يوافق على هذا وقال:

أبا عبيدة ما المسئول عن خبرٍ ... تحكيه إلا سُؤالاً للذي سألا
أبيت إلا شذوذًا عن جماعتنا ... ولم تعب رأي من أرجى أو اعتزلا
وقلت إن جميع الخلق في فَلَكٍ ... بهم يحيط وفيهم يُقسم الأجَلا
والأرض كورِيَّة حفَّ السماء بها ... فوقًا وتحتًا فصارتْ نُقطة مَثَلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها ... قد صار بينهما ها وذا دُوَلا
فإنَّ كانونَ في صَنعا وقرطبة ... بردٌ وأيلولُ يُذكِي فيهم الشُّعَلا

وإنه من اللافت للنظر أن نجد أنَّ أبا عبيدة هذا يُذكر في ترجمته أن السقوط من السماء إلى الأرض أهون عليه من الكذب. فإنها وإن كانت معلومة أخلاقيَّة بالمقام الأول إلا أنها تعطي انطباعًا كذلك على دقة التحري، وطول البحث قبل النطق بالنتيجة.

وهو من علماء القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي)، ومن أوائل من اشتغل بالفلك في الأندلس. إن هذا مهمٌّ في أن نعرف أن العالم الإسلامي لم يقاوم ولم يعارض تلك الاكتشافات العلمية مهما بدتْ له غريبة، وأن ما كان له من معارضة لم يتعدَّ السجال الطبيعي، ذلك جدير أن نتذكره حين نتذكر كيف كانت مسيرة التطور العلمي مختلطة بالدماء والحرائق ومحاكم التفتيش بعد ذلك في أوربا بخمسة قرون.

جديرٌ أيضًا أن نقول إن عالِم الدين الإسلامي لم يقف في صف العامَّة، بل وجد في الإسلام ما يؤكِّد الحقيقة العلمية ويعارض منكريها؛ فينقل ابن حزم مثلاً إجماع أئمة المسلمين على كروية الأرض فيقول: «قالوا: إن البراهين قد صحَّت بأن الأرض كرويَّة، والعامَّة تقول غير ذلك، وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إن أحدًا من أئمة المسلمين المستحقِّين لاسم الإمامة بالعلم ﷺ لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يُحفَظ لأحدٍ منهم في

---

(١) أبو عبيدة الفلكي: (ت ٢٩٥ هـ) أبو عبيدة مسلم بن أحمد. كان عالما بحركات الكواكب وأحكامها وكان صاحب فقه وحديث وكان بصيرا بالحساب والنجوم والنحو واللغة والعروض والفقه والحديث والأخبار والجدل. انظر: المقري: نفح الطيب ٣/ ٣٧٤

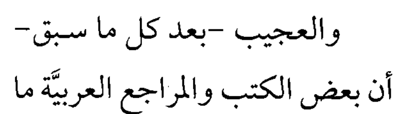
دفعه كلمةٌ، بل البراهين من القرآن والسُّنَّة قد جاءت بتكويرها، قال الله ﷻ: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[(1)]، وهذا أوضح بيانٍ في تكوير بعضها على بعض، مأخوذ من: كوَّر العمامة، وهو إدارتها، وهذا نصٌّ على تكوير الأرض...»[(2)].

وقد ذكر الشريف الإدريسي ما نصُّه: «... وإن الأرض مدوَّرة كتدوير الكرة، والماء لاصقٌ بها، وراكد عليها ركودًا طبيعيًّا لا يفارقها، والأرض والماء مستقرَّان في جوف الفلك كالمُحَّة في جوف البيضة، ووَضْعُهما وَضْعٌ متوسط، والنسيم يحيط بها (يقصد الغلاف الجوي) من جميع جهاتها»[(3)].



صورة (١٣) خريطة العالم للإدريسي

وعن الخرائط التي رسمها الإدريسي يقول ول ديورانت: «وكانت هذه الخرائط أعظم ما أنتجه علم رسم الخرائط في العصور الوسطى، لم ترسم قبلها خرائط أتم منها، أو أدق، أو أوسع وأعظم تفصيلاً. وكان الإدريسي يجزم كما تجزم الكثرة الغالبة من علماء المسلمين بكريَّة الأرض، ويرى أن هذه حقيقة مُسلَّم بصحتها»[(4)].



والعجيب -بعد كل ما سبق- أن بعض الكتب والمراجع العربيَّة ما زالت تنقل عن المراجع الأجنبيَّة أن المسلمين لم يعرفوا نظرية كرويَّة الأرض، وأن هذه النظرية لم تُعْلَنْ إلاَّ بفضل (كوبرنيكس)!! وحَسبُك الآن مقارنة تاريخ وفاة كوبرنيكس

(١) (الزمر: ٥).

(٢) ابن حزم: الفصل في الملل ٢/ ٧٨.

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص٧.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٣٥٨.

(١٥٤٣م) بأعوام وَفَيَات علماء المسلمين الذين سبق ذكرهم؛ ليتبيَّن لك: مَن أخذ ممَّن؟!

وإذا ما قد أثبت المسلمون كروية الأرض، فإنه ينسب إلى الخليفة العباسي المأمون (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م) أنه أوَّل مَنْ قام **بمحاولة لقياس أبعاد الكرة الأرضيَّة**، حيث جاء بفريقين من علماء الفلك والجغرافيا، فريق برئاسة سند بن علي[١]، وفريق بقيادة علي بن عيسى الأسطرلابيّ[٢] (ويقال: إن رئاسة أحد الفريقين كانت لبني موسى بن شاكر) واتفق معهما أن يذهبا إلى بقعتين مختلفتين على الدائرة العظمى من محيط الأرض شرقًا وغربًا، ثم يقيسا مقدار درجة واحدة من خطوط الطول (التي تبلغ ٣٦٠ خطَّ طول). ويحكي ابن خلِّكان[٣] أن كل فريق اختار بقعة واسعة مسطَّحة، ورَكَز في مكانٍ منها وتدًا، واتخذ النجم القطبي نُقطةً ثابتةً، ثم قاس الزاوية بين الوتر وبين النجم القطبي والأرض، ثم سار شمالاً إلى مكان زادت فيه تلك الزاوية، وقاس كل فريق المسافة بين الوتدين، وكانوا يقيسون المسافات على الأرض بحبال يشدُّونها على الأوتاد[٤].

والعجيب أن النتائج جاءت دقيقة وقريبة مما توصَّل إليه العلم المعاصر؛ فقد أخذ المأمون متوسط قياس الفريقين، فوجده ٦٦ , ٥٦ ميلاً تقريبًا، والذي توصَّل إليه العلم المعاصر هو ٩٣ , ٥٦ ميلاً، وعلى قياس المأمون هذا فإن محيط الأرض يبلغ ٤٠٠ , ٢٠ ميل، أي حوالي: ٢٤٨ , ٤١كم، ومن خلال مقارنة هذه القيمة مع القيمة التي قيست بواسطة الأقمار الصناعية في العصر الحديث، وهي ٠٧٠ , ٤٠ كم، يتَّضح أن نسبة الخطأ في قياسات فريق المأمون لم تتجاوز (٣٪)!! وهو أمر جديرٌ بالتقدير[٥].

وكان كتاب جغرافيا بطليموس من الكتب الأساسيَّة التي اعتمد عليها المسلمون في

---

(١) سند بن علي: هو أبو الطيب سند بن علي اليهودي (كان حيًّا قبل عام ٢١٨هـ)، منجم، رياضي، فلكي. اتصل بخدمة المأمون، وأسلم على يده. من أهم كتبه: «المنفصلات»، و«المتوسطات». انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٤٢.

(٢) علي بن عيسى الأَسْطُرلابيّ: (القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) من مشاهير الرياضيين الفلكيين. عاش في بغداد، وكان من بين العلماء الذين عهد إليهم المأمون بقياس طول درجة من دائرة خط الاستواء.

(٣) ابن خلكان: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (٦٠٨- ٦٨١هـ/ ١٢١١- ١٢٨٢م) مؤرخ موسوعي، ولي القضاء في مصر ودمشق، من أشهر مصنفاته: (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان). انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٣٧١- ٣٧٤.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٦٢.

(٥) انظر في ذلك يوهانس فيلارز: كنوز علم الفلك ص٢٥.

إرساء قواعد علمهم، وهو يكاد يكون الكتاب الوحيد الذي تناولوه في هذا الموضع من تراث السابقين مع كتاب مارينوس الصوري[١] الأقل أهمية[٢].

وصحح المسلمون ما وقع بطليموس فيه من الأخطاء عند تحديد الأطوال والأعراض، ومن هذه الأخطاء أنه بالغ كثيرًا في تحديد طول البحر المتوسط، وبالغ في تحديد امتداد الجزء المعمور من الأرض المعروف له، وجعل المحيط الهندي والهادي بحيرة، وذلك عندما وصل جنوبي آسيا بجنوبي إفريقيا، وبالغ في تحديد حجم جزيرة سيلان، وأخطأ في تحديد وضع بحر قزوين والخليج العربي خطأً فاحشًا، وقد صحَّح المسلمون كل هذه الأخطاء وغيرها، ثم خَلَّفوا للعالم جغرافيتهم الوصفيَّة التي اشترك في إعطائها صورتها الأخيرة جمهرةٌ من العلماء والرحَّالة طوال خمسة قرون على الأقل، فتركوا بذلك أثرًا -نَسِيجَ وَحْده[٣]- من آثار العصور الوسطى[٤].

«كانت مواضع المدن الكثيرة التي عيّنها بطليموس تعيينًا جغرافيًّا غير مطابقة للحقيقة تمامًا، وبلغ مقدار غلطه في تعيين طول البحر المتوسط وحده أربعمائة فرسخ.

ويكفي أن نقابل بين الأمكنة التي عيّنها الأغارقة والأمكنة التي عينها العرب؛ ليظهر لنا مقدار التقدُّم الذي تم على يد العرب»[٥].

ويُعدُّ المسلمون أول مَنْ وضع خطوط الطول وخطوط العرض على خريطة الكرة الأرضية، وقد وضعها العالم أبو علي المراكشي (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)؛ وذلك لكي يستدلَّ المسلمون على الساعات المتساوية في بقاع الأرض المختلفة للصلاة، كما وضع البيروني قاعدة حسابيَّة لتسطيح الكرة؛ أي نقل الخطوط والخرائط من الكرة إلى سطحٍ

---

(١) مارينوس: هو مارينوس الصوري نسبة إلى مدينة صور على ساحل البحر المتوسط، عاش مارينوس بين أواخر القرن الأول الميلادي والثاني، وقد اعترف بطليموس صراحة أنه تلميذ مارينوس الصوري، ومن أهم مصنفات مارينوس الصوري (تصحيح الجغرافيا).

(٢) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٩٠.

(٣) أي: الذي لا نظيرَ له، ولا يُعْمَلُ على مثاله. ابن منظور: لسان العرب، مادة نسج ٢/ ٣٧٦، ومادة وحد ٣/ ٤٤٦.

(٤) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٩٠، ٣٩٣.

(٥) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٦٨.

مسطَّح وبالعكس، وبهذا سهَّل رسم الخرائط الجغرافية[١].

وفي الوقت الذي كان العالم لا يتخيَّل فيه أن الأرض كرة لم يكن هناك مَنْ يناقش مسألة دوران الكرة حول نفسها، ولكن ثلاثة من علماء المسلمين كانوا أول من ناقش فكرة دوران الأرض في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، وهم علي بن عمر الكاتبي[٢]، وقطب الدين الشيرازي من الأندلس، وأبو الفرج علي من سوريا، فقد كان هؤلاء الثلاثة أول من أشار في التاريخ الإنساني إلى احتمال دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس مرَّة كل يومٍ وليلة، وعن هؤلاء العلماء يقول سارتون: «إن أبحاث هؤلاء العلماء الثلاثة في القرن الثالث عشر لم تذهب سُدًى، بل كانت أحد العوامل التي أثَّرت في أبحاث كوبرنيكس في نظريته التي أعلنها سنة (١٥٤٣م)»[٣].

لقد وضع علماء الحضارة الإسلامية في علم الجغرافية موسوعات جغرافية حقيقية، منها مثلاً كتاب ياقوت الحموي (معجم البلدان)، ذلك الذي يقول فيه ديورانت: «موسوعة جغرافية ضخمة جمع فيها كل المعلومات الجغرافية المعروفة في العصور الوسطى. ولم يكد يترك شيئًا من هذه المعلومات إلا أدخله في هذه الموسوعة؛ من فلكٍ، وطبيعة، وعلوم آثار، والجغرافية البشرية، والتاريخ، هذا إلى ما أثبته فيها من أبعاد المدن بعضها عن بعضٍ، وأهميتها، وحياة مشهوري أهلها وأعمالهم، ولسنا نعلم أن أحدًا أحبَّ الأرض كما أحبها هذا العالم العظيم»[٤].

يقول جوستاف لوبون: «وكُتُب العرب التي انتهت إلينا في علم الجغرافيا مهمَّة إلى الغاية، وكان بعضها أساسًا لدراسة هذا العلم في أوربا قرونًا كثيرة»[٥].

---

(١) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٤٥٩، وجلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٩٧.

(٢) علي بن عمر الكاتبي: هو نجم الدين علي بن عمر بن علي الكاتبي القزويني (٦٠٠- ٦٧٥هـ/ ١٢٠٣- ١٢٧٧م) حكيم منطقي، من تلاميذ نصير الدين الطوسي، له تصانيف كثيرة منها (الشمسية) و(حكمة العين). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢١/ ٢٤٤.

(٣) سارتون: مقدمة في تاريخ العلم ١/ ٤٦.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٣٥٩.

(٥) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٦٩.

ثم يضيف لوبون: «وخريطة الإدريسي التي نشرتُ صورتها والتي اشتملت على منابع النيل والبحيرات الاستوائية الكبيرة -أي على هذه الأماكن التي لم يكتشفها الأوربيون إلا في العصر الحاضر- أكثرُ خرائطِه طرافةً، فهي تثبت أن معارف العرب في جغرافية إفريقيا أعظم مما ظُنَّ زمنًا طويلاً»[(١)].

وكان للخرائط الإسلامية وما كتبه المسلمون في علوم البحار أثرٌ بالغ في تقدُّم الملاحة الغربية[(٢)].

وبالنسبة إلى الاكتشافات البحرية: فكان من **أهمها اكتشاف** أمريكا، والذي يُعْزَى إلى كريستوفر كولومبوس[(٣)] سنة (١٤٩٢م)؛ فمنذ أعلن المسلمون كرويَّة الأرض، وأثبتوا ذلك بالبراهين الفلكيَّة والحسابيَّة، بدأت الإشارات تظهر في كتبهم إلى أنه لا بُدَّ من وجود جزرٍ معمورة في الوجه الآخر من الكرة الأرضية لم تُكتَشَف بعدُ، وقد بُنِيَتْ هذه النظرية على أنه ليس من المعقول أن يكون أحد سطحي الكرة يابسة بالكامل بينما يغطِّي الماء الجانب الآخر؛ لأنَّ هذا سيؤدِّي إلى اختلال توازن الأرض وانتظام دورانها[(٤)]. وقد كان البيروني أول من أشار إلى هذه الحقيقة وبَشَّر بها في كُتُبه، وبناءً على هذه النظريَّة ابتدأتْ مغامرات الكشف الجغرافي التي جاء ذكرها في مخطوطات كبار الجغرافيين المسلمين، ومنهم المسعودي[(٥)] في كتابه (مروج الذهب)، والإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق)، وغيرهما.

ويعضِّد ذلك ما ذكره العالم المؤرِّخ اللغوي الأب أنستاس الكرملي[(٦)] من أن المسلمين قد وصلوا أمريكا من لشبونة قبل كولومبوس بفضل معرفتهم لتيار الخليج الحار في

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٧٠.

(٢) مارتن بلسنر: مبحث العلوم من كتاب تراث الإسلام بإشراف شاخت وبوزوروث ٢/ ١٥٤.

(٣) كولومبوس: هو كريستوفر كولومبوس (١٤٥١- ١٥٠٦م) رحالة إيطالي مشهور ينسب إليه اكتشاف العالم الجديد (أمريكا) والبهامس وجزر البحر الكاريبي، وقد توفي في إسبانيا نتيجة اشتداد المرض عليه.

(٤) انظر: جلال مظهر: حضارة الإسلام ص٣٩٦، ٣٩٧.

(٥) المسعودي: هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، مؤرخ، رحالة، بحاثة، من أهل بغداد، أقام بمصر وتوفي فيها. من تصانيفه (مروج الذهب). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢١/ ٦، ٧، والزركلي: الأعلام ٤/ ٢٧٧.

(٦) أَنِسْتاس الكَرْمِلي: هو بطرس جبرائيل يوسف عواد (١٢٨٣- ١٣٦٦هـ/ ١٨٦٦- ١٩٤٧م)، عالم بالأدب ومفردات العربية وفلسفتها وتاريخها، أصله من لبنان، وولد ببغداد. انظر: الزركلي: الأعلام ٢/ ٢٥.

الأطـلسي، فيقـول: «سَـبَقَ العربُ سائرَ الأمـم إلى معرفـة هـذا التيـار وخواصِّـه، وإلى حركته من المكسيك إلى أيرلندا وبالعكس...»[(١)].

صورة (١٤) خريطة محيي الدين الريس

إلا أن أكثـر الإشـارات إبهـارًا وإثـارة للدهشـة عـلى اكتشاف المسلمين لأمريكا هي تلـك الخريطـة التـي اكتشـفها المستشرق الألمـاني بـول كالـه Kahle[(٢)] في مكتبـة (طـوب كـابي سراي) بإسـتانبول، ونشرهـا عـلى العـالم سـنة (١٩٢٩م)، بعد تحقيق علمي دُوَلِيٍّ استمرَّ عِدَّة سنوات، فقد حيَّرت هذه الخريطة العلماء وأذهلت العالم، وهـي مـن تـأليف جغرافي مسلم هـو بـيري ريـس[(٣)]، واسمه الكامـل محيي الـدين بـن محمـد الـريس، وكـان أحـد قـادة البحريـة في الأسطول العثماني الذي كان سيِّد البحار في تلك الآونة. وهذه الخريطـة تنقسـم في الواقـع إلى عـدَّة خـرائط مفـردة؛ فهـي تبيِّن شرقـي المحيط الأطلسي حيـث السـواحل الإسـبانية والإفريقية الغربية، أما في غربي المحيط فأنت تـرى القـارة الأمريكيـة بسـواحلها وجزرهـا

---

(١) الأب أنستاس الكرملي: عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها الغرب، نُشر هـذا البحـث في مجلة المقتطف عـدد (١٠٦)، وأشار إليه العقاد في كتابه أثر العرب في الحضارة ص٤٧.

(٢) بول كاله: P. Kahle (١٨٧٥ - ١٩٦٤م) مستشرق ألماني شهير، تعلم اللغات الشرقيـة في جامعـات مـاربورج وبـرلين، عيِّن قسيسًا للبروتستانت في رومانيا والقاهرة.

(٣) بيري ريس: هو محيي الدين بن محمد الريس (٨٧٧- ٩٦٢هـ/ ١٤٧٠ - ١٥٥٥م) كان ربانًا في معركة مودان البحرية عام ١٥٠٠م، استطاع بيري أن يضع خريطتين للعالم وُصفتا - فيما بعد - بأنهما الأدق تفصيلاً، من مصنفاته: (كتاب بحرية).

وموانيها وحيْواناتها، فضلاً عن سكانها الأصليين (الهنود الحمر) الذين يرسمهم عُراةً وهم يرعون الغنم.

ويذكر المستشرق كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) تعليلاً لهذه الخريطة أنه لا بُدَّ أن يكون الريس قد بناها على أساس خرائط كولومبوس التي ربما تكون قد سقطت في يده عندما انتصر الأسطول التركي على أسطول البندقية سنة (١٤٩٩م)، وأَسَرَ بعض سُفُنِه[١]، إلاَّ أن هذا الرأي يلقى معارضة من كثير من الباحثين؛ لأن الخريطة بها تفاصيل لأماكن لم يعرفها كولومبوس، ولم يكن اكتشفها، ولكن هؤلاء الباحثين لم يقدِّموا تعليلاً بديلاً يكشف سِرَّ هذه الخريطة الغامضة.

وممَّا هو جدير بالذكر أن صحف البرازيل نشرت في عام (١٩٥٢م) تصريحًا للدكتور جغرز[٢] أستاذ العلوم الأثرية الاجتماعية في جامعة ويتواترستراند في جمهورية إفريقيا الجنوبية، جاء فيه أن كتب التاريخ تخطئ عندما تنسب اكتشاف أمريكا إلى كريستوفر كولومبس؛ ذلك لأن العرب (المسلمين) في الواقع هم الذين اكتشفوها قبله بمئات السنين[٣]. وقد اعتمدت دراسة الأستاذ المذكور، والتي دامت ستَّ سنوات، على دراسة للهياكل البشريَّة التي عُثر عليها في ولاية (غرنادة) البرازيلية[٤].

اكتشاف القارة السادسة في القطب الجنوبي: وإنَّ أعجب ما في خرائط محيي الدين الريس أنها عَادَتْ لِتَشغل العلماء بعد عصر رحلات الفضاء وتصوير الأرض من الأقمار الصناعيَّة؛ فقد كان الاعتقاد الأوَّل لدى علماء الخرائط في أمريكا وأوربا في القرن العشرين أن الخرائط غير دقيقة، وأن بها أخطاءً في الرسم حسب أحدث معلوماتهم عن الشاطئ الأمريكي، ولكنهم فُوجِئوا بعد ظهور أول صورة مأخوذة من القمر الصناعي لهذه المناطق أن خرائط محيي الدين الريس أدقُّ من كل ما عرفوه وتصوَّروه! وأنها تطابق تمامًا صور القمر الصناعي، وأن معلوماتهم هي التي كانت خاطئة، وعلى أثر ذلك عكف

(١) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢/ ٥٦٢.

(٢) جغرز: أستاذ العلوم الأثرية الاجتماعية بجامعة وايتوتر ستراند بإفريقيا الجنوبية.

(٣) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٢٢٥.

(٤) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٥٠٠.

فريق من العلماء في وكالة الفضاء الأمريكيَّة على إعادة دراسة الخرائط مقطعيًّا بعد تكبيرها عدَّة مرات، فكانت المفاجأة الثانية، وهي أن محيي الدين الريس قد وضع في خرائطه القارة السادسة في القطب الجنوبي والمسماة Antarctica قبل اكتشافها بأكثر من قرنين، كما أنه وصف جبالها ووديانها التي لم تكتشف حتى سنة (١٩٥٢م).

ويحكي الكاتب إريك فون دانيكن في كتابه: (Chariots of the gods) أن خرائط محيي الدين الريس سُلِّمت إلى الدكتور ماليري آرلنجتون أستاذ الخرائط الجغرافية في الجامعات الأمريكية، الذي قرَّر بعد فحص دقيق أنها تحتوي على كل الحقائق الجغرافية حول أمريكا، ولكنه شكَّ في وجود خطأ أو عدم دقَّة في بعض الأماكن، فطلب الاستعانة بجغرافيي الأسطول الأمريكي، الذين أظهرت دراساتهم أن خرائط بيري ريس قد نقلت الطبوغرافيا الداخلية للقارات (أي التضاريس) بدقَّة مذهلة؛ فتظهر فيها الجبال والأنهار والسهول، وكأنها أُخِذَت من الفضاء الخارجي[١]!

وفي سنة (١٩٥٧م) عكف فريق من علماء الجغرافيا بالمراصد الكبرى والبحريَّة الأمريكيَّة على مزيد من دراسة خرائط الريس، وبعد دراسات على أجهزة متطوِّرة وجدوا أن صِوره عن القارة السادسة Antarctica صحيحة ودقيقة بدرجة مذهلة، حتى بالنسبة للمناطق التي لم يُستكمَل اكتشافها في عصرنا الحاضر؛ فالجبال على قارة القطب الجنوبي لم تُكْتَشَف حتى عام (١٩٥٢م)، فهي دائمًا مغطَّاة بطبقة سميكة من الثلوج؛ بحيث إن اكتشاف وجودها على الخرائط الحديثة كان باستعمال أجهزة صدى الصوت Echo-Sounding apparatus.

والجدير بالذكر هنا أيضًا هو اهتمام وكالة الفضاء الأمريكية بمواصلة دراسة هذه الخرائط؛ حيث اتَّضح أنها تشبه تمامًا الصور المأخوذة للكرة الأرضيَّة من مركبة فضائيَّة أثناء مرورها فوق منطقة القارة القطبيَّة الجنوبيَّة، وهي صور تغطي مسافة (خمسة آلاف ميل)، فوجدوا تشابهًا مذهلاً بين صور القمر الصناعي وبين خريطة بيري ريس[٢]!

---

(١) إريك فون دانكين: عربات الآلهة ص٢٩.

(٢) أحمد شوقي الفنجري: العلوم الإسلامية، الرابط:
http://www.islamset.com/arabic/asc/fangry1.html

كشف الطريق إلى الهند من إسبانيا: وصف القلقشندي المتوفَّى سنة (١٤١٨م) في كتابه (صبح الأعشى) اتصال المحيط الأطلسي بالمحيط الهندي وصفًا دقيقًا يبيِّن معرفة المسلمين بهذه القضيَّة قبل فاسكو دي جاما[١] فيقول عن المحيط الأطلسي: «إنه يأخذ في الامتداد من سواحل بلاد المغرب الأقصى من زقاق سبتة (أي مضيق جبل طارق)، الذي بين الأندلس وبَرّ العُدْوة إلى جهة الجنوب حتى يتجاوز صحراء لمتونة (وهي بادية البربر)». ثم يستمرُّ في شرح الطريق البحري فيقول: «ثم يعطف إلى جهة الشرق وراء جبال القمر التي منها منابع نيل مصر الآتي ذكرها، فيصير البحر المذكور جنوبيًّا عن الأرض ويمتدُّ شرقًا على أرض خراب وراء بلاد الزنج، ويمتد شرقًا وشمالاً حتى يتصل ببحر الصين والهند»[٢].

ويذكر كراتشوفيسكي أن ملاَّحًا عربيًّا قام بنفس رحلة فاسكو دي جاما سنة (١٤٢٠م)، ولكن بالطريق العكسي، فخرج من ميناء في المحيط الهندي ودار حول إفريقيا، حتى وصل إلى موانئ المغرب في المحيط الأطلنطي، وكان ذلك قبل فاسكو دي جاما بسبعة وعشرين عامًا[٣].

وقد ذكر فاسكو دي جاما في مذكِّراته أن الملاَّحين العرب الذين التقى بهم في رحلته كانوا يحملون بوصلات متطوِّرة لتوجيه السفن، وآلات رصدٍ، وخرائط بحريَّة، وأنه استعان بهم، وأرسل بعض خرائطهم إلى الملك مانويل، وأن ملاَّحًا مسلمًا اسمه (المعلم كانا) من مالندي هو الذي قاد سفينته من مالندي إلى كاليكوت بالهند، وفي مراجع أخرى أن الذي قاد سفينة دي جاما هو الملاح الجغرافي العربي ابن ماجد[٤] (مخترع البوصلة). ومن الملاحظ أن جميع خرائط المسلمين المتأخِّرة مثل خريطة المسعودي وخريطة الإدريسي تبيِّن بوضوح اتصال المحيط الهندي بالمحيط الأطلسي حول إفريقيا؛ فقد كانت هذه

---

(١) فاسكو دي جاما: (١٤٦٩ – ١٥٤٢م) بحري ومستكشف برتغالي، ينسب إليه اكتشاف الطريق البحري من أوروبا إلى الهند، توفي بالهند.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٣/ ٢٣٧.

(٣) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢/ ٥٦٣ النسخة العربية.

(٤) ابن ماجد: هو أحمد بن ماجد بن محمد النجديّ (ت بعد ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م)، الملقب بأسد البحر، من كبار ربابنة العرب، ومن علماء فنِّ الملاحة وتاريخه عند العرب. انظر: الزركلي: الأعلام ١/ ٢٠٠.

المناطق عامرة بالمراكب العربيَّة ذاهبة آتية بين الهند وغرب إفريقيا[١].

فلَكَمْ هو مذهل تتبُّع جهود المسلمين في علم الجغرافيا واكتشاف الأرض من حولهم! وكم هو مُبهر تصفُّح ثمار تلك الجهود!

«يحتاج إحصاء أهم جغرافيي العرب وما ألّفوا من الكتب إلى بيان طويل، فقد ذكر أبو الفداء[٢] وحده أسماء ستين عالمًا جغرافيًّا من الذين ظهروا قبله... لولا إصرار الأوربيين الخاص على مُبْتَسراتهم[٣] الموروثة التي لا تزال باقية حيال الإسلام لتعذَّر إيضاح السبب في (إنكار علماء الجغرافيا الغربيين الكبار) لذلك الشأن، ومع ذلك يكفي ما أتى به العرب من عملٍ كبير لإثبات قيمتهم؛ فالعرب هم الذين انتهوا إلى معارف فلكيَّة مضبوطة عُدَّت أول أساس للخرائط»[٤].

وتلك أيضًا ليست من كلماتنا، إنها لـ جوستاف لوبون.

***

---

(١) انظر هذا في: حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ص١٢ وما بعدها.

(٢) أبو الفداء: هو إسماعيل بن علي بن محمود بن شاهنشاه (٦٧٢- ٧٣٢هـ / ١٢٧٣- ١٣٣١م) الملك المؤيد، صاحب حماة، مؤرخ جغرافي، كان مضطلعًا بعلم الهيئة. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٩/ ١٠٤، والزركلي: الأعلام ١/ ٣١٩.

(٣) المبتسر: هو كل ما كان غير ناضج وليس بمكتمل.

(٤) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٧١.

المبحث السادس

الفلك

ارتبط علم الفلك عند المسلمين بكثير من شعائر دينهم، فظهرت الحاجة إلى دراسته لتحديد أوقات الصلاة بحسب الموقع الجغرافي والفصل الموسمي، وكذلك تحديد اتجاه القبلة، ومتابعة حركة القمر لتحديد بدء الصوم، والحجِّ، وغير ذلك.

هذا، وقد جاءت آيات قرآنيَّة كثيرة تهتمُّ بالفلك والكون المحيط بالإنسان بكل معطياته، وأيضًا تحثُّ المسلمين على النظر في ملكوت السموات والأرض؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[١]. وقال جلّ شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[٢]. ثم يذهب القرآن أبعد من ذلك، فيذكر كواكب معيَّنة ونجومًا بأسمائها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾[٤].

وإلى جانب ذلك فقد أتى القرآن بحقائق علميَّة لا يمكن لأحدٍ فهمها أو مجرَّد محاولة تفسيرها ما لم يكن لديه علم واسع بعلم الفلك، وهو ما استوجب اهتمام وعناية خاصَّة من العلماء المسلمين.

وقد اطَّلع المسلمون في بداية تطويرهم لعلم الفلك على ما خلَّفه علماء الحضارات السابقة فيه؛ فقاموا أولاً بترجمة الكتب الفلكيَّة التي ألَّفها اليونان والكلدان والسريان

---

(١) (يس: ٣٧-٤٠).
(٢) (يونس: ٥، ٦).
(٣) (الطارق: ١-٣).
(٤) (النجم: ٤٩).

والفرس والهنود، وكان أول كتاب قام علماء المسلمين بترجمته هو كتاب (مفاتيح النجوم) المنسوب إلى هرمس[(١)] الحكيم، ترجموه من اليونانية إلى العربيَّة، وذلك أواخر عصر الدولة الأمويَّة، وكان من الكتب الفلكيَّة المهمَّة المترجمة عن اليونانية أيضًا كتاب (المجسطي) لبطليموس في علم الفلك وحركات النجوم، وكان ذلك في العصر العباسي[(٢)].

لقد نبغ في العصر العباسي ثلاثة عرفوا بأنهم أبناء موسى بن شاكر، وموسى بن شاكر هذا هو فلكي كان في بلاط الخليفة المأمون، فلما مات تعهد المأمون أولاده بالعناية والرعاية صغارًا، وأوكلهم إلى الفلكي يحيى بن أبي منصور، وإلى حين أن يكبر الصغار كان الخوارزمي يصحِّح أخطاء بطليموس من موقعه في بيت الحكمة ببغداد. فلما كبر الصغار نبغ منهم في الفلك محمد بن موسى بن شاكر، وأفسح المأمون لفلكييه دارًا في أعلى ضاحية من بغداد، بقرب باب الشماسية لرصد النجوم رصدًا دقيقًا علميًّا، وإجراء قياسات مثيرة للإعجاب، كانت تقارن بغيرها في جنديسابور، وبأخرى تُجرى بعد ثلاث سنوات تقع على جبل قاسيون على مقربة من دمشق للمقارنة. وكان علماء الفلك يعملون مجتمعين على وضع جداول الفلك «المجرَّبة» أو «المأمونية»، وهي مراجعة دقيقة لجداول بطليموس القديمة[(٣)].

واستخدم المأمون جماعة من الفلكيين -كان منهم محمد بن موسى بن شاكر- ليرصدوا الأجرام السماوية، ويسجِّلوا نتيجة هذه الأرصاد، وليحققوا كشوف بطليموس الفلكي، ويدرسوا كلف الشمس. واتخذوا كرية الأرض أساسًا بدءوا منه بقياس الدرجة الأرضية بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجار في وقت واحد. وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخمسين ميلاً وثلثي ميل - وهو تقدير يزيد بنصف ميل على تقديرنا في الوقت الحاضر، ومن هذه النتائج قدروا محيط الأرض بما يقرب من عشرين ألف ميل. ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون شيئًا إلا بعد أن تثبته الخبرة والتجارِب العلميَّة، وكانوا يسيرون في بحوثهم على قواعد علمية خالصة»[(٤)].

---

(١) هرمس الحكيم: شخصية إغريقية اختلطت فيها الحقيقة بالأساطير.

(٢) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية ص٣٤٨.

(٣) زيجريد هونكه: شمس العرب ص١١٨، ١١٩.

(٤) قصة الحضارة ١٣/ ١٨٢.

والإنجاز الحقيقي أن الحضارة الإسلامية بعد حفظ علم الأمم السابقة، وتصحيح ما كان فيه من أغلاط؛ هو تحويل ذلك العلم من الحيِّز النظري إلى مجال التجارِب العمليَّة، وتطهيره ممَّا شابه مما كان يعتقده العرب في الجاهلية من الدجل والشعوذة، الذي واكب ظهور علم التنجيم في الأمم السابقة؛ حيث أبطلت الشريعة الإسلامية التنجيم وأنكرته، واعتبرته مخالفًا لعقيدة الإسلام.

وأهم ما يؤكد هذا هو كثرة بناء المراصد الضخمة والمزوَّدة بالآلات المتنوِّعة والعلماء المتفرِّغين، والتي كانت مبثوثة في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه؛ فبخلاف المراصد التي أنشأها المأمون على جبل قَاسيون[1] في دمشق، وفي الشماسيَّة في بغداد، فقد توالى بعد ذلك إنشاء المراصد في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي؛ فأقام أبناء موسى بن شاكر مرصدًا في بغداد، وفيه استخرجوا حساب العرض الأكبر، وكان مرصد مراغة ببلاد فارس الذي بناه نصير الدين الطوسي من أشهر المراصد وأكبرها، واشتهر بآلاته الدقيقة وتفوُّق المشتغلين فيه، وقد امتازت أرصاد هذه المراصد بالدقَّة، واعتمد عليها علماء أوربا في عصر النهضة وما بعده في بحوثهم الفلكيَّة. وإلى جانب هذه المراصد كانت توجد مراصد أخرى، مثل: مرصد ابن الشاطر[2] بالشام، ومرصد الدِّينَوَرِيِّ بأصبهان، ومرصد ألغ بك[3] بسمرقند، وغيرها كثير[4].

وقد استعان العلماء المسلمون في هذه المراصد بآلات وأجهزة ومعدات غاية في الدقَّة وجمال الصنعة يعرفون بها الظواهر الفلكيَّة، وكثير من هذه الآلات كان من اختراع علماء المسلمين ولم تُعرف من قبلهم، وذلك مثل: ذات الأوتار، وذات الحلق، وآلة الربع المجيب، والربع المقنطر، وذات الشعبتين، وذات السمت والارتفاع والحلقة الاعتداليَّة،

---

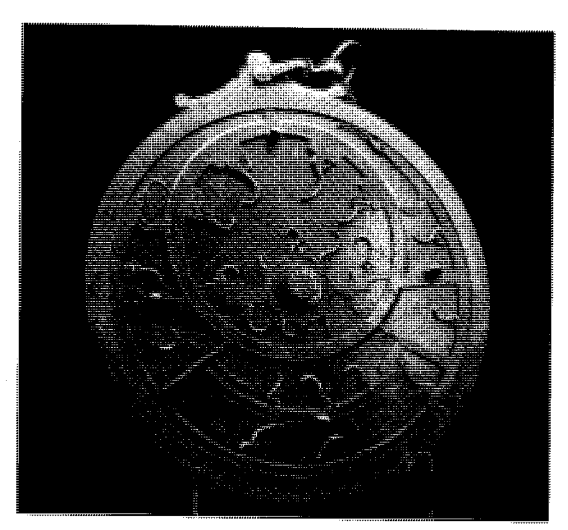
(١) قاسيون: جبل مشرف على دمشق، فيه عدة مغاور وفيها آثار الأنبياء. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٢٩٥.

(٢) ابن الشاطر: أبو الحسن علاء الدين علي بن إبراهيم بن محمد الأنصاري الدمشقي المؤذن، المعروف بابن الشاطر (٧٠٤ - ٧٧٧ هـ/ ١٣٠٤ - ١٣٧٥ م)، كان رئيس المؤذنين بدمشق، من كتبه «إيضاح المغيب في العمل بالربع المجيب» ورسالة «الأسطرلاب». انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤/ ٩.

(٣) ألغ بك: محمد طرغاي بن شاه رخ بن تيمور لنك، رابع حكام الأسرة التيمورية في هراة (٧٩٦هـ - ٨٥٣هـ/ ١٣٩٣م - ١٤٤٩م)، وكان ماهرا في العلوم الرياضية. انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ٣٢٨.

(٤) انظر دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية ص٧٤-٨٢، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٨١، ٨٢.

وأنواع مختلفة من المزاول والمشخصات لقياس الوقت[١]. كما استعان المسلمون أيضًا بآلات من اختراع الحضارات السابقة، وذلك مثل **الأَسْطُرْلاَب**، الذي احتفظ باسمه اليوناني، وقد طوَّره المسلمون وصنعوا منه نماذج عديدة تتَّفق مع اكتشافاتهم الفلكيَّة، فاخترعوا الأسطرلاب الكرويّ، وأيضًا الزورقيّ، وما زالت كثير من متاحف العلماء تحتفظ بنماذج من هذه الأسطرلابات، وهي تستخدم في قياس ارتفاعات الكواكب عن الأفق، وتعيين الزمن[٢].



صورة (١٥) الأسطرْلاب

وقد نبغ المسلمون في عمل **الأزياج** لحساب الأجرام السماويَّة، وهي من أهمِّ مستلزمات الرصد الفلكي، والزِّيج عبارة عن جداول رياضية عددية، تحدِّد مواضع الكواكب السيَّارة في أفلاكها، وقواعد معرفة الشهور والأيَّام والتواريخ الماضيَّة، والوقوف على أوضاع الكواكب من حيث الارتفاع، والانخفاض، والميول، والحركات، وتعتمد هذه الجداول على قواعد حسابيَّة وقوانين عدديَّة في منتهى الدقَّة، ومن أشهر الأزياج زِيجُ ابن يونس[٣] لعلي بن عبد الرحمن بن يونس[٤].

هذا، وقد اشتهر من علماء الفلك المسلمين عدد غير قليل، نبغوا في هذا العلم وكانوا فيه سادة لمن أَتَوْا بعدهم، فكان منهم الفرغاني، الذي ظلَّ كتابه في الفلك مرجعًا تعتمد

(١) صديق بن حسن القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٩٢ وما بعدها.

(٢) انظر: دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية ص٧٥، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٨٢، ٨٣، وعلي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص١٥٠.

(٣) ابن يونس: هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن يونس (ت ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م) فلكي، من مصنفاته: (الزيج الحاكمي)، ويُعرف (بزيج ابن يونس)، وتوفي بالقاهرة. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٤٢٩.

(٤) انظر: صديق بن حسن القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٥١.

عليه أوربا وغربي آسيا سبعمائة عام»[(١)].

كما كان منهم البَتَّاني صاحب (الزيج الصابي) المشهور الذي أحدث تأثيرًا كبيرًا في علم الفلك، فكان من الذين حقَّقُوا مواقع كثير من النجوم، وصحَّح بعض حركات القمر والكواكب السيَّارة، وخالف بطليموس في ثبات الأوج الشمسي، كما صحح البتاني نفسه طول السنة الشمسيَّة؛ وقد تُرْجِمَ كتابه المذكور إلى اللاتينيَّة في القرن الثاني عشر الميلادي، كما طُبِعَ في أوربا عِدَّة طبعات، ويُعَدُّ هذا الكتاب دائرة معارف فلكيَّة، وللبتاني من المصنفات في الفلك أيضًا كتاب (معرفة مطالع النجوم)، وكتاب (تعديل الكواكب)[(٢)].

ويُعَدُّ **عبد الرحمن الصوفي**[(٣)] أول مَنْ وضع جداول دقيقة للنجوم الثوابت، وصنَّف في ذلك كتابًا بعنوان الكواكب الثابتة، أوضح فيه النجوم الثابتة لعام (٢٩٩هـ/ ٩١١م)، وهذه الجداول مهمَّة حتى في العصر الحديث؛ لمن أراد البحث في تاريخ بعض الكواكب ومواقعها وحركاتها، لقد رسم فيه أكثر من ١٠٠٠ نجم، ولمكانته العلمية فلقد أُطلق اسمه على مراكز على سطح القمر[(٤)].

أما **أبو الوفاء البوزجاني**[(٥)] فقد اكتشف إحدى المعادلات لتقويم مواقع القمر سُمِّيت معادلة السرعة، ومن أهمِّ إسهاماته في علم الفلك اكتشافه للخلل في حركة القمر، وهو الاكتشاف الذي أدَّى فيما بعد إلى اتِّساع نطاق عِلْمَي الفلك والميكانيكا، وقد ظلَّ المؤرِّخون مختلفين فيما إذا كان تيخو براهي[(٦)] الفلكي الدنماركي هو صاحب هذا

---

(١) قصة الحضارة ١٣/ ١٨٢.

(٢) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٠٦ وما بعدها، وجلال مظهر: حضارة الإسلام ص٣٦٤، ٣٦٥، وشوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٥٤٣.

(٣) عبد الرحمن الصوفي: هو أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر بن سهل الرازي (٢٩١- ٣٧٦ هـ/ ٩٠٣- ٩٨٦م) عالم بالفلك، من أهل الري، من كتبه: (الكواكب الثابتة). انظر: القفطي: إخبار العلماء ص١٥٢، ١٥٣.

(٤) انظر: شوقي أبو خليل: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الحديثة، ط١، دار الفكر - دمشق، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٧٣.

(٥) أبو الوفاء البوزجاني: هو أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل (٣٢٨- ٣٨٨هـ/ ٩٤٠- ٩٩٨م) مهندس فلكي رياضي، ولد في بوزجان بخراسان، وتوفي ببغداد. من كتبه: (تفسير كتاب ديوفنطس) في الجبر. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٦٧.

(٦) تيخو براهي (Tycho Brahe): هو الفلكي الدنماركي الشهير (١٥٤٦-١٦٠١م) الذي أنشأ مرصدًا في يوراني بورج Uran Borg قرب ساحل الدنمارك، وقد تبنَّى نظامًا تدور فيه كل الكواكب السيارة حول الشمس التي افتُرِض دورانها حول الأرض.

الاكتشاف أم البوزجاني، إلى أن ثبت حديثًا بعد التحريات الدقيقة أن الخلل الثالث هو من اكتشاف البوزجاني[١].

وكذلك كان **أبو إسحاق النقاش الزرقالي**[٢] من أشهر الفلكيين والرياضيين، وهو واضع ما سمِّي في الفلك باللوائح الطليطليَّة نسبة إلى مدينة طليطلة في الأندلس، وبنى هذه اللوائح على المعارف التي استقاها ممن سبقه من العلماء كبطليموس والخوارزمي وغيرهما، وقد سجَّل في هذه اللوائح نتائج إرصاداته الفلكيَّة، وله كتاب (الصحيفة الزيجيَّة) بيَّن فيه استعمال الأَسْطُرلاَب على نحو جديد، واخترع على منوال الأسطرلاب آلة سمِّيت بالصفيحة أو الزرقالة، وهو أول مَنْ جاء بدليل على أن حركة ميل أوج الشمس بالنسبة للنجوم الثوابت تبلغ ٠٥ , ١٢دقيقة، بَيْدَ أن الرقم الحقيقي هو ١٢.٨ دقيقة[٣].

ويُعَدُّ **أبو اليسر بهاء الدين الخرقي**[٤] من أشهر المشتغلين بعلم الفلك في القرن السادس الهجري، كما برع في الرياضيات والجغرافيا، وأشهر مصنَّفاته في الفلك: (التبصرة)[٥]، و(منتهى الإدراك في تقسيم الأفلاك)[٦].

أما **البديع الأسطرلابي**[٧] (ت ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م) فقد برع في صنع الآلات الفلكيَّة، فمن آثاره جداول فلكيَّة أنجزها في قصر السلطان السلجوقي ببغداد، ووضعها في كتاب

---

(١) قدري طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص٢٣٢، انظر: أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص٣٥٥.

(٢) الزرقالي: أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى التجيبي النقاش (٤٢٠هـ- ٤٨٠هـ/ ١٠٢٩م- ١٠٨٧م)، فلكي ومخترع للعديد من الآلات، وممن أدخل تحسينات على الأسطرلاب، من كتبه (الصحيفة الزرقالية) عن الإسطرلاب.

(٣) انظر: علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢٠٩، وشوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٥٤٤.

(٤) الخرقي: هو بهاء الدين محمد بن أحمد بن أبو بكر الخرقي (٤٦٩- ٥٣٣هـ/ ١٠٧٦- ١١٣٩م) كان فلكيًا وجغرافيًا، مقربًا من شاهات خوارزم وفلكي بلاطهم. من تصانيفه: «منتهى الإدراك في تقسيم الأفلاك». انظر: كحالة: معجم المؤلفين ٨/ ٢٣٨.

(٥) حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٣٣٨، وعلي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢١٨.

(٦) حاجي خليفة: كشف الظنون ٢/ ١٨٥٢.

(٧) البديع الأسطرلابي: هو أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن يوسف البغدادي (ت ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م) فيلسوف من علماء الأطباء، ومن كبار علماء الفلك، له كتاب في «الزيج» سماه (المعرب المحمودي). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٧/ ١٦٠.

سمَّاه الزيج المحمودي نسبة إلى السلطان محمود أبي القاسم بن محمد[١].

هذا، وقد ظلَّت رسائل ابن الشاطر (ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) المتخصِّصة في علم الفلك، وكذا الآلات التي قام بصنعها متداولة عدَّة قرون في الشرق والغرب، ومن أهمِّ آثاره في الفلك: زيج ابن الشاطر (إيضاح المغيَّب في العمل بالربع المجيَّب)؛ و(رسالة في الأسطرلاب)؛ و(مختصر في العمل بالأَسْطُرْلاَب)؛ و(النفع العام في العمل بالربع التام)؛ و(نزهة السامع في العمل بالربع الجامع)؛ و(كفاية القنوع في العمل بالربع المقطوع)؛ و(الزيج الجديد) وقد وضعه بطلب من مراد الأول الخليفة العثماني، وقدَّم ابن الشاطر فيه نماذج فلكيَّة ونظريات وقياسات لم يُسْبَق إليها، إلا أنها ظهرت فيما بعد باسم كوبرنيكس، واكتشف ديفيد كينج[٢] عام (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) أن كثيرًا من النظريات المنسوبة لكوبرنيكس البولندي هي لابن الشاطر، وبعد ذلك بثلاثة أعوام (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) عُثِرَ على مخطوطات عربيَّة في بولندا اتَّضح منها أن كوبرنيكس قد اطَّلع عليها[٣].

أما أولغ بك فقد رعى رجال العلم، وشيَّد في سمرقند أعظم مرصد في ذاك العصر. وقال أحد كُتَّاب السير المنمِّقين من المسلمين: «كان عالمًا، عادلاً، بارعًا نشيطًا، على درجة كبيرة من المعرفة بعلم الفلك، على حين أنه في علوم البلاغة كان شديد التدقيق». وسمت مكانة رجال العلم في عصره إلى ذروتها. وفي الهندسة فسر أدق المسائل، أما في علم الظواهر الكونية (الكوزموجرافيا) فقد شرح كتاب بطليموس، ولم يجلس على العرش ملك مثله قَطُّ حتى اليوم، وسجل ملاحظات عن النجوم بالتعاون مع العلماء الأوَّلين، وأسس في سمرقند كليةً لا يمكن أن يُوجَد لها في الأقاليم المتاخمة السبعة مثيلٌ من جمالها ومكانتها وقيمتها[٤].

وتمكَّن أولغ بك أثناء عمله مع فريق الرصد من ابتكار آلات جديدة، واستمرَّت إرصاداته من عام (٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م) إلى عام (٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م)، وقد أخرج منها زيجًا

---

(١) انظر: البابانى: هداية العارفين ص٧١٤.

(٢) ديفيد كينج: الأستاذ بجامعة جوتة بولاية فرانكفورت بألمانيا (ت١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).

(٣) انظر: البابانى: المصدر السابق ص٣٨٧، وحاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٨١، وعلي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢٣٦-٢٣٨.

(٤) قصة الحضارة ٢٦/ ٥١.

شاملاً سمِّي زيج أولغ بك أو السلطاني، حَسَب فيه مواقع النجوم بدقَّة بالغة، وكذلك الخسوف والكسوف، ووضع الجداول للنجوم الثابتة، ولحركات الشمس والقمر والكواكب، ولخطوط الطول والعرض لأهمِّ المدن الإسلاميَّة[١].

أما الروداني **شمس الدين الفاسي**[٢] (ت ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٣م) فيُعتبر من علماء المسلمين المتأخِّرين الذين استعانوا بنتاج علماء المسلمين الأوائل في مجال علم الفلك، وقد اخترع آلة كروية الشكل تبيِّن التوقيت؛ وعليها دوائر ورسوم مدهونة بالبياض المُمَوَّه بدهن الكتَّان، وقد رُكِّبت عليها كرة أخرى مقسومة نصفين وفيها تخاريم وتجاويف لدوائر البروج وغيرها، وهي مستديرة كالتي تحتها ومصبوغة بلون أخضر، وكانت سهلة الاستعمال صالحة لبيان الأوقات في كل البلدان، وقد ألَّف لها رسالة بيَّن فيها كيفيَّة صنعها واستخدامها[٣].

وختامًا، وعلى نحو ما رأينا، فإنَّ ما قام به علماء المسلمين في مجال علم الفلك -مع الوضع في الحسبان قلَّة الوسائل العلميَّة المتاحة آنذاك- لهو جدير بكل تقدير واحترام، وليس أدلّ على ما وصلوا إليه أن الكثير من النجوم لا يزال يحمل أسماء عربية؛ مثل: سُهَيل، والمجرة، والجوزاء، والدب الأكبر، والدب الأصغر، والغول، والسَّمْت، وغيرها الكثير.

***

(١) انظر: علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢٤٣-٢٤٦.

(٢) الرُّوداني: هو أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الفاسي (١٠٣٧- ١٠٩٤هـ/ ١٦٢٧- ١٦٨٣م) محدث مغربي مالكي، عالم بالفلك، رحَّال. من مؤلفاته: (تحفة أولي الألباب في العمل بالأسطرلاب). انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ١٥١.

(٣) انظر: البابانى: هداية العارفين ص٦٠٧، وعلي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢٤٨-٢٥٠.

الفصل الثاني

ابتكار علوم جديدة

جاء ظهور الإسلام رحمةً بالإنسانيَّة، ذلك الدين الذي دفع أتباعه إلى السبق والريادة؛ ما جعل الأمم المنصفة تشهد بفضلهم وسبقهم وتطوُّرهم الحضاري، التطوُّر الكامل المشتمل على جميع نواحي الحياة، وقد حضَّ القرآن الكريم المسلمين على التفكر والتدبُّر، وعدم التقيُّد بما جاء به الأوَّلون إلاَّ إذا ظهر فيه الخير بعد التفكير والتمحيص؛ فقال تعالى في معرض ذمِّه للكفَّار الذين يكتفون بالتقليد دون تفكير: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[1].

وإن هذا المنهج -الذي يحثُّ على إعادة النظر في كل الأمور وَفْق المنطق السليم، والتفكير المؤيَّد بأدلَّة- هو الذي دفع رسول الله ﷺ مثلاً إلى قَبُول فكرة حفر الخندق في موقعة الأَحْزَاب، مع كونها جديدة تمامًا على المجتمع العربي، ومن ثَمَّ فلم يتقيَّد رسول الله ﷺ بالقوالب العسكريَّة الجامدة التي أَلِفَها العرب لعدَّة قرون.

وقد ورث العلماء المسلمون هذا المنهج، ومِن ثَمَّ لم يتقيَّدوا بالأُطُر العلميَّة السابقة، والتي كُوِّنت في الحضارات التي سبقت الإسلام، وهذا أدَّى إلى فكر إبداعي لم يكتفِ بإضافة ابتكارات في مجالات العلوم المختلفة، بل وصل إلى ابتكار علوم جديدة من الأساس، وهي كما في المباحث التالية:

- المبحث الأول: الكيمياء
- المبحث الثاني: الصيدلة
- المبحث الثالث: الجيولوجيا
- المبحث الرابع: الجبر
- المبحث الخامس: الميكانيكا

(١) (البقرة: ١٧٠).

المبحث الأول

الكيميـــــــاء

لم تكن الكيمياء قبل الحضارة الإسلامية سوى محاولات فاشلة لتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب وفضة، معتمِدة في ذلك على العقل والاستدلال المنطقي، ومُنَحِّية المنهج العلمي القائم على التجربة والملاحظة جانبًا.

وظلَّت الكيمياء على ذلك حتى ظهر علماء المسلمين الذين أَسَّسوا للمنهج العلمي الدقيق، واستندوا إلى التجرِبة العلميَّة وإشراك الحس والعقل معًا في الوصول إلى الحقائق العلميَّة في هذا الحقل من العلوم بالذات، فكان أن نشأ علم الكيمياء بقواعده وأصوله، وكان جابر بن حيان أول عالم يؤسِّس هذا العلم الكبير، حتى بات يُعرَف هذا العلم في أوربا ولعدَّة قرون (بصنعة جابر).

فجابر بن حيان هو الذي جعل التجرِبة أساس العمل، ولذلك يُعَدُّ أَوَّل مَنْ أدخل التجرِبة العلميَّة المخبريَّة في منهج البحث العلمي الذي أرسى قواعده؛ وتراه في ذلك يدعو إلى الاهتمام بالتجرِبة ودقَّة الملاحظة، تلك التي يقوم عليها المنهج التجريبي، فيقول: «ومِلاكُ كمال هذه الصنعة العملُ والتجرِبة؛ فمَن لم يعمل ولم يُجَرِّب لم يظفر بشيء أبدًا»[1].

يقول ديورانت: «يكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علمًا من العلوم؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة، والتجارب العلمية، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر فيه اليونان -على ما نعلم- على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة؛ فقد اخترعوا الإنبيق وسمَّوه بهذا الاسم، وحللوا عددًا لا يُحصى من المواد تحليلاً كيميائيًّا، ووضعوا مؤلفات في الحجارة، وميزوا بين القلويات والأحماض، وفحصوا عن المواد التي تميل إليها، ودرسوا مئات من العقاقير الطبية، وركّبوا مئات منها. وكان علم تحوُّل المعادن إلى ذهب، الذي أخذه المسلمون من مصر هو الذي أوصلهم إلى

(١) جابر بن حيان: كتاب التجريد، ضمن مجموعة حقَّقها ونشرها هولميارد بعنوان: مصنفات في علم الكيمياء للحكيم جابر ابن حيان، باريس ١٩٢٨م.

علم الكيمياء الحق، عن طريق مئات الكشوف التي يبينوها مصادفة، وبفضل الطريقة التي جروا عليها في اشتغالهم بهذا العلم، وهي أكثر طرق العصور الوسطى انطباقًا على الوسائل العلميَّة الصحيحة»[1].

وبَدْء ظهور علم الكيمياء يمثله ظهور خالد بن يزيد الذي تتلمذ للراهب الرومي مريانوس وتعلَّم منه صنعة الطبِّ والكيمياء، والذي انتقلت معه الكيمياء من طور البدايات المترجمة عن اليونانيَّة إلى طور الإنجازات العينيَّة والاكتشافات الواضحة، وقد كان له فيها ثلاث رسائل؛ هي: (السر البديع في فك الرمز المنيع)، و(فردوس الحكمة في علم الكيمياء)، و(مقالتا مريانوس الراهب)، ذكر فيه ما كان بينه وبين مريانوس، وكيف تعلَّم منه الرموز التي أشار إليها[2].



صورة (١٦) كتاب السر السار لجابر بن حيان

أمَّا جابر فكان مؤسِّس العلم بلا جدال وأشهر علماء المسلمين فيه، وقد ألف كتبًا كثيرة تُرجم الكثير منها إلى اللاتينيَّة، وظلَّت المرجع الأوفى للكيمياء زُهاء ألف عام، وقد اشتملت على كثير من المركَّبات الكيميائية التي لم تكن معروفة من قبل، وهو الأمر الذي جعل مؤلَّفاته موضع دراسة مشاهير علماء الغرب، أمثال: كوب، وبرثولية، وكراوس، وهولميارد الذي أنصفه ووضعه في القمَّة، وبدَّد الشكوك التي أثارها حوله العلماء المغرضون، وكذا سارتون الذي أرَّخ به لِحقبة من الزمن في تاريخ الحضارة الإسلاميَّة.

---

(١) قصة الحضارة ١٣/ ١٨٧.

(٢) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٢٤، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٦.

وقد تتلمذ الرازي (ت ٣١١هـ/ ٩٢٣م) على كتب جابر فساهم هو الآخر بصورة عظيمة في تأسيس علم الكيمياء، وقد دوَّن ذلك في مقدِّمة كتابه (سر الأسرار) فقال: «وشرحنا في هذا الكتاب ما سطرته القدماء من الفلاسفة مثل: أغاثا ديموس، وهرمس، وأرسطوطاليس، وخالد بن يزيد بن معاوية، وأستاذنا جابر بن حيان، بل وفيه أبواب لم يُرَ مثلها، وكتابي هذا مشتمل على معرفة معادن ثلاثة: معرفة العقاقير، ومعرفة الآلات، ومعرفة التدابير (التجارِب)»[١].

وبصفة عامَّة فقد كشف المسلمون أهمَّ أُسُس الكيمياء وأسرارها، وكان من أهمِّ اختراعاتهم فيها ماء الفضة (حامض النيتريك)، وزيت الزاج (حامض الكبريتيك)، وماء الذهب (حامض النيترو هيدرو كلوريك)، وحجر جهنم (نترات الفضة)، والسليماني (كلوريد الزئبق)، والراسب الأحمر (أكسيد الزئبق)، وملح البارود (كربونات البوتاسيوم)، وكربونات الصوديوم، والزاج الأخضر (كبريتيد الحديد)، واكتشفوا: الكحول، والبوتاس، وروح النشادر، والزرنيخ، والإثمد، والقلويات التي دخلت إلى اللغات الأوربية باسمها العربي (Alkaki)[٢].

وهم الذين استخدموا ذلك العلم في المعالجات الطبيَّة وصُنْعِ العقاقير، فكانوا أوَّل من نشر تركيب الأدوية والمستحضرات المعدنيَّة وتنقية المعادن، وغير ذلك من المركَّبات والمكتشفات التي تقوم عليها كثير من الصناعات الحديثة؛ مثل: الصابون، والورق، والحرير، والأصباغ، والمفرقعات، ودبغ الجلود، واستخراج الروائح العطريَّة، وصنع الفولاذ، وصقل المعادن، وغيرها. وقد اعتمدوا في تجاربهم على عِدَّة آلات ووسائل كيميائية، مثل: الإنبيق، والميزان الذي كان مهمًّا للغاية؛ حتى يحدِّدوا النِّسَبَ بين الموادِّ والعَلاقات الوزنيَّة[٣].

***

(١) نقلاً عن علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢٧٧.

(٢) انظر: دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا ص١٢٠-١٢٦.

(٣) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٥٩.

المبحث الثاني

الصيدلـــــة

كان نبوغ المسلمين في الكيمياء سببًا في تمكُّنهم من تحقيق إنجازات مهمَّة في فروع المعرفة المتَّصلة بهذا العلم، وخاصَّة في علم الصيدلة؛ وذلك لأن الأدوية تحتاج إلى معالجة ودراية بالمعادلات والقوانين الكيميائيَّة؛ ومِن ثَمَّ فقد ظهرت الأدوية الكيميائية بصورة فعَّالة، وانفتحت أبواب عصر جديد في فنٍّ العلاج على مصراعيها.

والحقُّ أن الصيدلة كانت من العلوم التي جذبت عظيم انتباه علماء المسلمين، فاستطاعوا أن يميِّزوا عصر حضارتهم باعتباره أوَّل عصر من عصور الحضارة عُرِفَتْ فيه المركَّبات الدوائيَّة بصورة علميَّة وفعَّالة وبطريقة جديدة، حتى - يقول جوستاف لوبون - نستطيع أن ننسب بلا أدنى حرج علم الصيدلة إليهم، ونقول إنه اختراع عربي (إسلامي) أصيل[(١)]؛ فقد أضافوا إلى الأدوية التي كانت معروفة قبلهم مركَّبات عديدة من اختراعهم، وألَّفوا أوَّل كتب في العقاقير[(٢)].

وقد أخذ المسلمون في بدايتهم لهذا العلم عن اليونان؛ حيث اعتنوا بكتاب (المادَّة الطبيَّة في الحشائش والأدوية المفردة)، الذي وضعه ديسقوريدس العين زربي (٨٠م)، وترجموه عدَّة مرَّات؛ أشهرها اثنتان: ترجمة حنين بن إسحاق في بغداد، وترجمة أبي عبد الله الصقلِّي في قرطبة. وفي وقت لاحق قام الصيادلة المسلمون -بفضل خبرتهم وممارستهم- بالزيادة على هذا الكتاب، واستدراك ما فات ديسقوريدس؛ ومن ثَمَّ بدأ التأليف والتصنيف بغزارة في الصيدلة وعلم النبات، وكان من ذلك (معجم النبات) لأبي حنيفة الدِّينَوَرِيِّ[(٣)]، و(الفلاحة النبطية) لابن وحشية[(٤)]، و(الفلاحة الأندلسيَّة) لابن العوام الإشبيلي[(٥)]، فقد

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٩٤.

(٢) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٠٦.

(٣) أبو حنيفة الدينوري: أحمد بن داود بن وَنَنْد الدينوري (ت ٢٨٢هـ، ٨٩٥م) من النوابغ مهندس وفيلسوف ومؤرخ نباتي. انظر الزركلي: الأعلام ١/ ١٢٣.

(٤) ابن الوحشية: أبو بكر أحمد بن علي بن قيس بن المختار بن عبد الكريم بن حرثيا (ت ٣١٨هـ/ ٩٣٠م)، عالم بالكيمياء ينسب إليه الاشتغال بالسحر ويلقب بالصوفي. انظر الزركلي: الأعلام ١/ ١٧٠.

(٥) ابن العوام الإشبيلي: هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد (ت ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م) عالم أندلسي، اشتهر بكتابه (الفلاحة الأندلسية)، قسم منه تُرجم إلى اللغتين الإسبانية والفرنسية. انظر: الزركلي: الأعلام ٨/ ١٦٥.

استفاد المصنِّفون في علم الأدوية كثيرًا من هذه الكتب وأمثالها.

ويكمن سرُّ تأصيل هذا العلم ونسبته إلى المسلمين في أن «العرب كانوا يقيمون في بلدٍ ذي جو صالح لغرس النخيل... وفي تلك المنطقة حيث تنبت الأشجار الحمضية بقوَّة عجيبة، تبصر النبات يخرج الأفاويه والرُّب البلسمي، والمواد التي تنفع الإنسان وتضره، فنجم عن ذلك منذ وقت باكر، أن استوقف نظر أولئك القوم ما تنبته أراضيهم وما تصدره شواطئ ملبار وسيلان وإفريقيا الشرقية التي كانت لهم صلات تجارية بها... فكان يجب أن يُميز من المحاصيل ما هو نافع للطب وللصناعة»[١].

واستجابةً لمثل هذه الحميَّة جرت بعضُ محاولات للاستفادة من الأعشاب المحلِّيَّة؛ كان من بينها في بادئ الأمر تصنيف ما يشبه المعاجم على هيئة جداول، تحتوي على أسماء النباتات المختلفة باللغات العربيَّة، واليونانيَّة، والسريانيَّة، والفارسيَّة، والبربريَّة وتشرح أسماء الأدوية المفردة، ومن المحاولات التطبيقيَّة في هذا المجال ما قام به رشيد الدين الصوري[٢]، الذي كان يخرج إلى المواضع التي بها النباتات يرافقه رسَّام، فيشاهد النبات ويسجلِّه، ثم يُرِيه للرسام في المرَّة الأولى وهو في طَوْر الإنبات أو لا يزال غضًّا، ثم يريه إيَّاه في المرَّة الثانية بعد اكتماله وظهور بذره، وفي الثالثة بعد نضجه ويبسه، ويقوم الرسام بتصويره في جميع هذه الأطوار[٣].

ولعلَّ من أهم مآثر المسلمين في بدايتهم لهذا العلم أنهم أدخلوا نظام الحِسْبَة ومراقبة الأدوية[٤]، ونقلوا المهنة من تجارة حُرَّة يعمل فيها مَنْ يشاء، إلى مهنة خاضعة لمراقبة الدولة، وكان ذلك في عهد المأمون، وقد دعاه إلى ذلك أن بعضًا من مزاولي مهنة الصيدلة كانوا غير أمينين ومدلّسين، ومنهم من ادَّعى أن لديه كل الأدوية، ويعطون للمرضى أدوية كيفما اتَّفَق؛ نظرًا لجهل المريض بأنواع الدواء؛ لذا أمر المأمون بعقد امتحان أمانة الصيادلة، ثم أمر المعتصم من بعده (ت ٢٢٧هـ) أن يمنح الصيدلاني الذي تثبت أمانته

---

(١) لويس سيديو: تاريخ العرب العام ص٣٨١.

(٢) رشيد الدين الصوري: هو رشيد الدين بن أبي الفضل بن علي (٥٧٣- ٦٣٩هـ/ ١١٧٧ - ١٢٤١م) عالم بالنبات والطب، صحب الملك العادل الأيوبي، ولد في مدينة صور، وتوفي بدمشق. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٤/ ٨٤.

(٣) انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ٢١٩.

(٤) انظر: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣١٢.

وحذقه شهادة تجيز له العمل، وبذا دخلت الصيدلة تحت النظام الشامل للحسبة، وقد انتقل هذا النظام إلى أنحاء أوربا في عهد فريدريك الثاني (٦٠٧-٦٤٨هـ/ ١٢١٠-١٢٥٠م)، ولا تزال كلمة مُحْتَسِب مستخدمة في الإسبانيَّة بلفظها العربي حتى الوقت الراهن.

«وكانت الحكومة تراقب تلك الصناعة الضرورية لرفاهية أبناء البلاد، وكان الصيادلة مسئولين عن صلاح الأدوية واعتدال أثمانها، ووصف التاريخ القائد الأفشين وهو يزور صيدليات الأرياف بنفسه ليستوثق من اشتمالها على جميع المواد الطبية»[١]، وبذلك كان المسلمون أوَّل من أنشأ فنَّ الصيدلة على أساس علمي سليم، وأقاموا الرقابة على الصيدليات والصيادلة من خلال وظيفة الحسبة[٢].

يقول ماكس مايرهوف: «كانت الرسائل المؤلَّفة في علم الصيدلة خلال هذا العصر لا تُحصى، وهي إما الأدوية المفردة، وأشهر من كَتَب فيها بلا منازع هو ابن البيطار، أو في الأدوية المركبة... ألف ابن البيطار كتاب (جامع مفردات الأدوية)، وكان يجلب أنواع النبات والأدوية من ساحل البحر المتوسط وإسبانيا وسوريا ويدرسها. ووصف في كتابه ١٤٠٠ عقار طبي، وقارنها بأوصاف أكثر من ١٥٠ عالمًا عربيًّا، فكان ثمرة ناضجة لعمق الدراسة، ودقة الملاحظة، وسعة الاطّلاع، ويعدّ أعظم من ألّف بالعربية عن النبات»[٣].

وبازدهار صناعة الصيدلة وجد الصيادلة المسلمون مجالاً خصبًا للإبداع، الذي انتهوا فيه إلى تركيب عقاقير من البيئة المحليَّة ذات أوزان معلومة مبسَّطة، وقطعوا شوطًا كبيرًا عندما استفادوا من علم الكيمياء في إيجاد أدوية جديدة ذات أثر في شفاء بعض الأمراض؛ كاستخراج الكحول، ومركبات الزئبق، وملح النشادر، واختراع الأشربة والمستحلبات والخلاصات الفطريَّة، إضافةً إلى ذلك قادهم البحث الجادُّ إلى تصنيف الأدوية استنادًا إلى مَنْشَئِهَا وقوَّتها، كما قادتهم تجارِبهم إلى أدوية نباتيَّة جديدة لم تكن معروفةً من قبلُ؛

---

(١) لويس سيديو: تاريخ العرب العام ص٣٨٢.

(٢) انظر: مبحث إدارة المستشفيات والمراقبة الصحية في المجتمع الإسلامي، لجرجيس فتح الله، منشور في تراث الإسلام بإشراف أرنولد ص٥١٢.

(٣) ماكس مايرهوف: مبحث الطب، منشور في تراث الإسلام بإشراف أرنولد ص٤٨٥.

كالكافور، والحنظل، والحنَّاء[١].

وقد قادت غزارة التصنيف في كُتُب الصيدلة -والبحث الدؤوب الذي كشف عن عقاقير جديدة، إضافةً إلى ما هو موجود أصلاً- إلى أهميَّة تقسيم هذه العقاقير وَفق معايير ارتآها المؤلِّفون أو الصيادلة، ونجد الأمثلة على ذلك واضحة في (الحاوي) للرازي، و(الصيدلة في الطب) للبيروني، و(كامل الصناعة) لعلي بن عباس، و(القانون) لابن سينا.

ومن أمثلة ذلك تصنيف الرازي، والذي وضع أُسسًا صحيحة لعدَّة علوم صيدلانية، بيَّن أوصافها، وطرق تحضيرها، وكشْف غِشِّها، وقُواها، وبدائلها، والمدَّة الزمنيَّة التي يمكن أن تُحْفَظَ خلالها؛ فقد صنَّف العقاقير إلى أربعة أقسام: ١- مواد ترابيَّة (معادن). ٢- مواد نباتيَّة. ٣- مواد حيوانيَّة. ٤- عقاقير مولَّدة (مشتقات).

وفي عمليات تحضير العقاقير وتركيبها استخدم الصيادلة المسلمون طرقًا مبتكرة، ظلَّ بعضها معمولاً به حتى الوقت الحاضر منها: ١- **التقطير**: لفصل السوائل. ٢- **الملغمة**: لمزج الزئبق بالمعادن الأخرى. ٣- **التسامي**: لتحويل الموادِّ الصلبة إلى بخار، ثم إلى حالة الصلابة ثانيةً دون المرور بحالة السيولة. ٥- **التبلُّور**: لفصل بلورات الموادِّ المذابة. ٦- **التكيس**: عملية الأكسدة العادية[٢].

وممَّا يُعَدُّ من إبداعات المسلمين وابتكاراتهم في هذا العلم أنهم استطاعوا أن يُمزِجوا الأدوية بالعسل تارةً، وبالسكر والعصير تارةً أخرى؛ وفضَّل العرب السكر على العسل خلافًا للقدماء؛ فأدى ذلك إلى كثيرٍ من المستحضرات الطبية النافعة[٣].

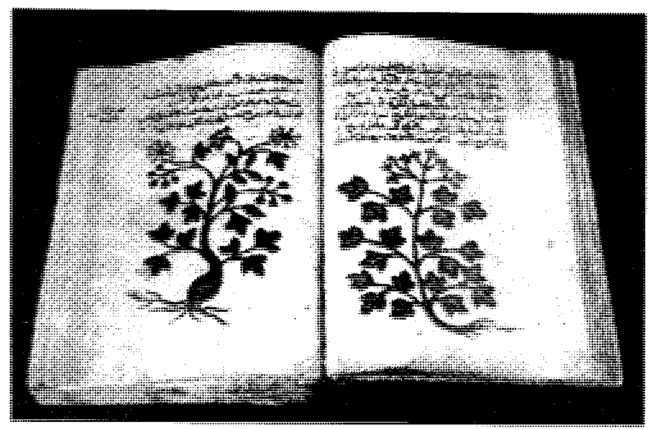
واستخدم الرازي الزئبق في تركيب المراهم لأوَّل مرَّة، وجرَّب مفعوله على القردة، كما أن الأطباء المسلمين أوَّل من وصف بذور شجرة البُنِّ دواءً للقلب، ووصفوا حبوب البن (القهوة المطحونة) علاجًا لالتهاب اللوزتين والدوسنتاريا (الزُّحار)، والجروح الملتهبة، ووصفوا الكافور لإنعاش القلب، كما خفَّفوا من قوَّة بعض العقاقير بإضافة

(١) انظر: قدري طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص٢٧.

(٢) انظر: علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية ص٢٥٧.

(٣) انظر: لويس سيديو: تاريخ العرب العام ص٢٨٣.

عصير الليمون والبرتقال بالإضافة إلى القرفة أو القرنفل، كما توصَّلوا إلى عمل الترياقات التي يتمُّ تركيبها من عشرات وأحيانًا من مئات العقاقير، وحسَّنوا تركيب الأفيون والزئبق، واستخدموا الحشيش والأفيون وغيرهما في التخدير[1].



صورة (١٧) كتاب ابن البيطار

ولقد كتب العلماء المسلمون في الأدوية مؤلَّفات عدَّة، لعلَّ من أهمِّها (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) لعبد الله بن أحمد المالقي المعروف بابن البيطار (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، الذي كان يعاين منابت النبات، ويتحقَّق من هويته قبل أن يدوِّنه، وقد جمع في كتابه هذا معلومات يونانيَّة، ووصف فيه نحو ألف وخمسمائة عقار طبي؛ بين نباتي وحيواني ومعدني، وذكر طريقة استعماله، وجعلها مرتَّبة طبقًا لحروف المعجم ليَسْهُل الرجوع إليه، وأودعه مقدِّمة تعكس المنهج التجريبي الذي اتَّبعه في تدوين المعلومات التي جمعها؛ فقد ورد في الغرض الثاني من وضعه الكتاب قوله: «صحَّة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرِّره عن المتأخِّرين؛ فما صحَّ عندي بالمشاهدة والنظر، وثبت لديَّ بالخُبْر لا بالخَبَر، ادخرته كَنْزًا سريًّا، وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيه سوى الله غنيًّا، والتنبيه على كل دواء وقع فيه وَهْم أو غلط لمتقدِّم أو متأخِّر؛ لاعتماد أكثرهم على الصُّحُف والنقل، واعتمادي على التجرِبة والمشاهدة حسبما ذكرتُ من قبلُ»[2].

كما أَلَّف أَبو بكر الرازي كُتُبًا، منها: (منافع الأغذية)، و(صيدلية الطب)، و(الحاوي في التداوي)، وألَّف علي بن العباس غير كتاب (كامل الصناعة الطبيَّة) كتابه (الملكي)

(١) انظر: قدري طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص٢٧، ٢٨.

(٢) انظر: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٠٨، ٣٠٩، محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٢٣.

الذي قصر جزأه الثاني على الصيدلة، وجعله في ثلاثين بابًا، وألَّف أبو القاسم خلف بن عبّاس الزهراوي كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، خصَّص منه بابًا للعقاقير، وألَّف داود الأنطاكي[1] كتاب (تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب)، وألَّف كوهين العطار (منهاج الدكَّان ودستور الأعيان)، وألَّف ابن زهر الأندلسي[2] كتاب (الجامع في الأشربة والمعجونات)، وألَّف أبو عبد الله محمد الإدريسي (الجامع لصفات أشتات النباتات وضروب أنواع المفردات من الأشجار والأثمار والأصول والأزهار)، وألَّف أحمد بن محمد الغافقي (جامع الأدوية المفردة)، وللكندي اثنان وعشرون كتابًا في الطبِّ والصيدلة، ويُعْتَبَر (فردوس الحكمة) أهمَّ كتب الطبري في الصيدلة، وأقدم كتاب جامع لفنونها.

وكما يظهر فإنَّ علماء المسلمين لهم دور بارز في تأصيل قواعد علم الصيدلة وتطويره والتوسُّع فيه، وقد خصُّوه بالمؤلَّفات المسْتَقِلَّة، حتَّى أصبح علمًا حقيقيًّا.

***

(١) داود الأنطاكي: هو داود بن عمر الأنطاكي (ت ١٠٠٨هـ/ ١٦٠٠م) عالم بالطب والأدب، كان ضريرًا، انتهت إليه رياسة الأطباء في زمانه، وقد توفي في مكة، من مصنفاته: (تذكرة أولي الألباب). انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٨/ ٤١٥، ٤١٦.

(٢) ابن زهر الأندلسي: هو أبو مروان عبد الملك بن زهر بن عبد الملك الإشبيلي (٤٦٤- ٥٥٧هـ/ ١٠٧٢- ١١٦٢م) طبيب أندلسي من أهل إشبيلية، لم يكن في عصره من يماثله. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩/ ١١٠.

المبحث الثالث

الجيولوجيا

جاء في كثير من آيات القرآن الكريم إشارات واضحة إلى علم طبقات الأرض (الجيولوجيا)، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[1]، وقوله ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾[3]، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تحدَّثت عن هذا النوع من العلوم، والتي دفعت المسلمين إلى دراسته دراسة مستفيضة.

ولا ريب أن الإنسان القديم كان لديه شبه معرفة بالمعادن، وإن كانت معرفة بدائيَّة، أمَّا علماء اليونان فإن أرسطوطاليس (٣٨٣-٣٢٢ ق. م) قسَّم العالم إلى قسمين رئيسين: الأرض؛ وتتكوَّن من العناصر الأربعة: (الماء، والنار، والهواء، والتراب). والسماء؛ وتتكوَّن من الأثير، وبقيت آراء أرسطوطاليس متداولَة إلى أن جاء الإسلام الذي قضى على الخرافات والشعوذة والأساطير[4].

فقد اتجه المسلمون إلى التأمُّل والاستنتاج والبحث عن الحقيقة بالطريقة العلميَّة الصحيحة، فنجحوا نجاحًا باهرًا في تفسير الظواهر الطبيعيَّة، ودراسة الصخور والجبال والمعادن، واستطاعوا أن يُعَلِّلوا كثيرًا من الظواهر الجيولوجيَّة مثل الزلازل والبراكين، والمدِّ والجزر، وتكوُّن الجبال والوديان، والسيول والأنهار والجداول، ولعل أول أثر مسجَّل لعلوم الأرض لدى المسلمين هو ما تحتويه المعاجم وكتب اللغة التي تزخر بمفردات هذا العلم، كالصِّحاح للجوهري، والقاموس للفيروزآبادي[5]، والمخصَّص

---

(١) (فاطر: ٢٧).

(٢) (الحديد: ٢٥).

(٣) (الأعراف: ١٠).

(٤) انظر: علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢٩١.

(٥) الفيروزآبادي: هو أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد (٧٢٩- ٨١٧هـ/ ١٣٢٩ - ١٤١٥م) من أئمة اللغة والأدب، ولد في قرية من قرى شيراز، وتوفي في زبيد باليمن، من أشهر تصانيفه: (القاموس المحيط). انظر: الأصفهاني: شذرات الذهب ٧/ ١٢٦.

لابن سيده[١]، وكُتُب الرحلات والبُلدان، والكتب التي درست الجواهر؛ ومنها (صفة جزيرة العرب) للهمداني، ثم نجد حدود هذا العلم واضحة المعالم لدى العلماء الذين تناولوه أمثال: الكندي، والرازي، والفارابي، والمسعودي، وإخوان الصَّفا، والمقدسي[٢]، والبيروني، وابن سينا، والإدريسي، وياقوت الحموي، والقزويني[٣]، وغيرهم كثير.

فقد قدَّم هؤلاء العلماء نظريات عديدة عن الزلازل، وأسباب حدوثها، وعن المعادن والصخور، وأفاضوا في تعريف الصخور الرسوبيَّة والتحجُّر فيها، والتحوُّلات البُعدية لها، وكتبوا عن النيازك، ووقفوا على طبيعتها وأصلها، وقسَّموها إلى نوعَيْن: حجري وحديدي، ووصفوا هيئاتها، ومن أهمِّها النيازك الجاورسيَّة (الحُبَيْبِيَّة)، وتحدَّثوا عن ارتفاع درجة حرارة باطن الأرض، كما كان لهم الفضل بالخروج بنظريَّة تكوُّن الجبال الانكساريَّة والالتوائيَّة وغيرها، وكذلك تأثير عوامل التعرية في الجبال والأنهار.

كما قدَّم العلماء المسلمون دراسات قيِّمة عن الجيولوجيا الطبيعيَّة والتاريخيَّة، وقد برهنت هذه الدراسات على أن أكمل صورة من صور الماء في الطبيعة هي تلك التي وصفها العلماء المسلمون في مصنَّفاتهم، ونجد آراءهم في تكوُّن الأنهار علميَّة محضة، ونجد ذلك بجلاء في (رسائل إخوان الصفا)، وعند ابن سينا في كتابه (النجاة)، وفي كتاب (عجائب المخلوقات) للقزويني، كما أن علم البلورات عُرِف بدايته على يد البيروني في كتابه (الجماهر في معرفة الجواهر)، ونما على يد القزويني في كتابه (العجائب)، ولم يسبقهما أحدٌ إلى ملاحظاتهما الدقيقة الواردة في كتابيهما هذين.

وتناول العلماء المسلمون أيضًا ما يمكن أن نطلق عليه (علم زيت الأرض)، وهو

---

(١) ابن سيده: هو أبو الحسن علي بن إسماعيل (٣٩٨- ٤٥٨هـ/ ١٠٠٧- ١٠٦٦م) إمام في اللغة وآدابها، كان ضريرًا. ولد في مرسية بالأندلس، وتوفي في دانية بالأندلس. من كتبه: (المُخصَّص). انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٣٣٠، ٣٣١.

(٢) المقدسي: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) كان تاجرًا عرف أحوال البلاد لكثرة ترحاله، ثم تخصص في معرفة ذلك، فطاف أكثر بلاد الإسلام، وصنف كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم). انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٣١٢.

(٣) القزويني: هو زكريا بن محمد بن محمود (٦٠٥- ٦٨٢هـ/ ١٢٠٨- ١٢٨٣م) مؤرخ، جغرافي، من القضاة، صنف كتبًا، منها (آثار البلاد وأخبار العباد)، و(عجائب المخلوقات). انظر: الذهبي: تذكرة الحفاظ ٢/ ٢٢، والزركلي: الأعلام ٣/ ٤٦.

فرع من فروع الجيولوجيا التطبيقيَّة؛ فقد ميَّزوا بين نوعين من النفط واستعملوهما، وتحدَّثوا عن التنقيب، وقدَّموا نماذج للتنقيب غير المباشر، واهتمَّ عدد غير قليل من العلماء المسلمين الأوائل بدراسة شكل الأرض، وتوزيع اليابسة والماء، ووصف تضاريس سطح الأرض، والعوامل الخارجيَّة التي تتسبب في تشكيلها، مثل الأنهار والبحار والرياح، والعواصف البحرية، ولم يغِبْ عن بالهم دراسة العوامل المؤثِّرة في قشرة الأرض من داخلها؛ كالبراكين والزلازل والخسوف الأرضيَّة، كما تناولوا تبادل الأماكن بين اليابسة والماء، والمدَّة الزمنيَّة التي يستغرقها هذا التبادل، كذلك تطوُّر الأنهار من الشباب إلى الهرم ثم الموت.

وجدير بالذكر أن الجيولوجيا عند المسلمين ارتبطت بعلوم أخرى كثيرة ساعدت في نموِّها، وكان هذا دَأْب العلماء آنذاك؛ فلم يكن هناك التخصُّص الدقيق، بل كانت هناك المعرفة الموسوعيَّة الشاملة؛ ولذلك فإن أعمال العلماء المسلمين في مجال الجيولوجيا وعلوم الأرض جاءت متفرِّقة ومنتشرة في عدد كبير من المجلدات تحت أسماء مختلفة، فعلى سبيل المثال نجد أن ابن سينا يتناول المعادن والمتيورولوجيا[١] في رسالة المعادن والآثار العلوية في كتابه (الشفاء)، والنويري[٢] يتناول الجيولوجيا مع المتيورولوجيا[٣] في كتابه (نهاية الأرب)، ويعالج المسعودي في (مروج الذهب) قضايا جيولوجية جنبًا إلى جنب مع قضايا جغرافية[٤].

الزلازل:

شغلت طبيعة الزلازل أذهان الناس منذ أقدم الأزمنة، وقد أرجع بعض فلاسفة اليونان القدماء الهِزَّات الأرضية إلى رياح تحت خفيَّة، بينما أرجعها البعض الآخر إلى نيران في أعماق الأرض، وجاء أوَّل وصف علمي لأسباب حدوث الزلازل على أيدي العلماء المسلمين في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)؛ حيث اهتمَّ العلماء المسلمون بدراسة

---

(١) علم العلاقة بين الأرض والمناخ.

(٢) النويري: هو أبو العباس احمد بن عبد الوهاب بن أحمد البكري (٦٧٧ - ٧٣٣هـ/ ١٢٧٨ - ١٣٣٣م) عالم بحاث غزير الاطلاع، نسبته إلى نويرة (من قرى بني سويف بمصر) ومولده ومنشأه بقوص. من أشهر مصنفاته: (نهاية الارب في فنون الادب). انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة ١/ ٢٣١.

(٣) هو علم الظواهر الجوية.

(٤) علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢٩١.

الزلازل وتسجيل تواريخ حدوثها وأماكنها، وأنواعها، وما تخلِّفه من دمار، ودرجاتِ قوَّتها، وحركةِ الصخور الناتجة عنها، ومضارِّها ومنافعها، وحاول بعضهم التخفيف من أخطارها، وتناول ذلك كلٌّ مِن ابن سينا في موسوعته (الشفاء) في الجزء الخاصِّ بالمعادن والآثار العلوية، وإخوان الصفا في (الرسائل)، والقزويني في (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات)، وكان لكلٍّ منهم رأيه الواضح في هذا الصدد.

وعلى سبيل المثال يقول ابن سينا في وصف الزلازل وأسباب حدوثها وأنواعها: «وأمَّا الزلزلة فإنها حركة تعرض لجزء من أجزاء الأرض بسبب ما تحته، ولا محالة أن ذلك السبب يعرض له أن يتحرَّك ثم يحرِّك ما فوقه، والجسم الذي يمكن أن يتحرَّك تحت الأرض إما جسم بخاري دخاني قوي الاندفاع كالريح، وإمَّا جسم مائي سيَّال، وإمَّا جسم هوائي، وإمَّا جسم ناري، وإمَّا جسم أرضي؛ والجسم الأرضي لا تَعْرِض له الحركة أيضًا إلا لسببٍ مثل السبب الذي عَرَض لهذا الجسم الأرضي، فيكون السبب الأول الفاعل للزلزلة ذلك، فأمَّا الجسم الريحي -ناريًّا كان أو غير ناري- فإنه يجب أن يكون هو المنبعث تحت الأرض، الموجب لتمويج الأرض في أكثر الأمر»[1].

ويعزو إخوان الصفا الزلازل إلى الغازات التي تحدث من جرَّاء ارتفاع درجة حرارة باطن الأرض، فتخرج من المنافذ إذا كانت الأرض في تلك البقعة متخلخلة، وإذا انصدعت الأرض تخرج هذه الغازات وينخسف مكانها، ويُسمع لها دويٌّ وزلزلة[2].

المعادن والصخور:

عرف المسلمون المعادن والأحجار الكريمة، وعلموا خواصَّها الطبيعية والكيميائيَّة، وصنَّفوها ووصفوها وصفًا علميًّا دقيقًا، كما عرفوا أماكن وجود كلٍّ منها، واهتمُّوا بالتمييز بين جيِّدها ورديئها، وتناولوا أيضًا تكوين الصخور الرسوبيَّة، وتكوين أسطحها، ورواسب الأودية، وعَلاقة البحر بالأرض، والأرض بالبحر، وما ينشأ عن هذه العَلاقة من تكوينات صخريَّة أو عوامل تعرية.

---

(١) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٦٤، وعلي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٣١٤.

(٢) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا (٢/ ٩٧) دار صادر، بيروت.

ولعلَّ عطارد بن محمد الحاسب[١] كان أوَّل من ألَّف كتابًا في الأحجار باللغة العربيَّة، وهذا الكتاب هو (منافع الأحجار)، ذكر فيه أنواع الجواهر والأحجار الكريمة، ودرس خواصَّ كلٍّ منها[٢]، وقد ذكر الرازي هذا المؤلَّف في كتابه (الحاوي)، وقد عَرَف المسلمون من المعادن حتى عصر البيروني نحوًا من ثمانية وثمانين جوهرًا مختلفًا ممَّا يُسْتَخْرَج من الأرض.

أمَّا ابن سينا فقد ذكر في (الشفاء) أن الأحجار يعود تكوُّنها إلى أسباب ثلاثة؛ فهي إمَّا أن تتكوَّن من الطين بالجفاف، أو من الماء بالبخار أو الترسيب، وقسَّم الموادَّ المعدنية إلى أحجار، وكباريت، وأملاح، وذائبات، وقد تناول ابن سينا الفلزَّات وطريقة تكوينها، وذكر كَمًّا كبيرًا من المعادن، وميزات كلٍّ منها، واحتفاظها بخصائصها الطبيعيَّة، وأن لكل منها تركيبًا خاصًّا لا يمكن أن يتغيَّر بطرق التحويل المعروفة، وإنما المستطاع هو تغيير ظاهري في شكل الفلز وصورته[٣].

تحدَّث العلماء المسلمون كذلك عن الأشكال الطبيعيَّة للمعادن، كما تحدَّثوا عمَّا يطرأ على خصائصها من تغيُّر فيزيائيٍّ لعواملَ خارجيَّة؛ فقد ذكروا أن بعض المعادن تتَّخذ أشكالاً هندسيَّة طبيعيَّة خاصَّة بها ولا دخل للإنسان في تشكيلها، ولَربما كان ذلك إرهاصًا لما نسمِّيه اليوم بعلم البلورات؛ فقد وصف البيروني بعضها متناولاً تناسق أسطحها وهندسيَّة أشكالها، ويقول معبرًا عن ذلك بأن أشكال الماس ذاتيَّة، مخروطية مضلَّعة، ومنها ما يتكوَّن من مثلَّثات مركَّبة كالأشكال المعروفة بالناريَّة، متلاصقة القواعد، ومنها ما يكون على هيئة الشكل الهرمي المزدوج.

وأمَّا عن الصخور، فقد تحدث العلماء المسلمون عن أصلها، وكيفيَّة تكوُّنها من الماء (الصخور الرسوبية) أو النار (الصخور النارية)، كما أوجدوا الأوزان النوعيَّة لعدد كبير من الأحجار والفلزات امتازت بالدقة المتناهية، كما ركزوا في علوم الأرض على التضاريس وطبيعة الأرض وجيولوجيا المياه، وعلم الأحافير، والآثار العلوية

---

(١) عطارد بن محمد: هو عطارد بن محمد البابلي البغدادي (ت ٢٠٦ هـ/ ٨٢١ م) حاسب منجم، كان فاضلا عالما، له عدد من الكتب منها: (العمل بالاسطرلاب) و(تركيب الافلاك). انظر: ابن النديم: الفهرست ص٣٣٦.

(٢) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٦١.

(٣) انظر: المصدر السابق ص٢٦٣.

(الميتورولوجيا) وهي العلاقة العلمية بين علم الأرض وعلم المناخ[1].

البحار والمدُّ والجزر:

تناول العلماء المسلمون جيولوجيا البحار والأنهار في مؤلَّفاتهم الجغرافية أكثر من غيرها؛ فقد أفردوا أبوابًا في مصنَّفاتهم الجغرافية تناولوا فيها أسماء البحار ومواقعها والبُلدان التي تطلُّ عليها، وتحدَّثوا عن أماكن من اليابسة كانت بحارًا وأنهارًا، وأماكن تغطِّيها البحار كانت معمورة بالسكان فيما مضى، كما خلفوا مؤلَّفات عديدة في علم الملاحة، وظاهرة المدِّ والجزر التي كان يعتمد عليها ربابنة السفن في رحلاتهم البحريَّة والنهريَّة، ومن بين العلماء الذين كانت لهم آراء متفرِّدة في هذا الشأن الكندي، والمسعودي، والبيروني، والإدريسي، والمقدسي، وغيرهم.

ولا يكاد يخلو كتاب من الكتب التي تناولت ذكر البُلدان أو الأقاليم من ذكر البحار والأنهار؛ فالمسعودي في (**أخبار الزمان**) يتحدَّث بإسهاب عن تكوُّن البحار وعللها وآراءِ من سبقه فيها، كما أورد في (**مروج الذهب**) جملة من المناقشات الجيولوجية ضمَّنها الحديث عن البحار والأنهار والمدِّ والجَزْر، كما أورد فصلاً كاملاً عن البحار سمَّاه: (ذكر الأخبار عن انتقال البحار)[2]، ويذكر المقدسي أبعاد هذه البحار وأهمَّ ما فيها من جُزُرٍ، ومواضع الخطر فيها، كما يتناول ظاهرة المدِّ والجَزْرِ ويحاول تفسيرها[3].

وقد عرف المسلمون مدى اتِّساع المسطَّحات المائيَّة وعِظَم حجمها إذا قورنت باليابسة، كما عرفوا أن التشكيلات التضاريسيَّة المتنوِّعة تمنع الماء من أن يغمر وجه الأرض؛ فيقول ياقوت الحموي في هذا الصدد: «لولا هذا التضريس لأحاط بها[4] الماء من جميع الجوانب وغمرها، حتى لم يكن يظهر منها شيء». أمَّا نسبة توزيع اليابسة إلى الماء فقد جاءت واضحة عند أبي الفداء في تقويم البُلدان بأن النسبة التي تغطِّيها المياه من سطح الكرة الأرضيَّة تبلغ ٧٥٪ منها، «فالقدر المكشوف من الأرض هو بالتقريب ربعها،

---

(١) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية ص٢٩٤، ٢٩٥.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص٢١٩.

(٣) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية ص٣١٠.

(٤) أي: بالأرض.

أمَّا ثلاثة أرباع الأرض الباقية فمغمور بالبحار»[١].

التضاريس:

تناول العلماء المسلمون الجيومورفولوجيا بشقَّيْها النظري والعملي، وقد توصَّلوا في ذلك إلى حقائق تتَّفق مع العلم الحديث، من ذلك أثر العامل الزمني في العمليَّات الجيومورفولوجية، وأثر الدورتَيْن الصخريَّة والفلكيَّة في تبادل اليابسة والماء، وكذلك أثر كلٍّ من المياه والرياح والمناخ عامَّة في التعرية، ويُعَدُّ البيروني أفضل من تناول هذا الجانب، ويتَّضح ذلك في تعليله لكيفية تكوُّن أحد السهول في الهند، «فقد كان في مكان هذا السهل حوض بحري طَمَرَتْهُ الترسُّبات حتى سوّت منه سهلاً»، كما لاحظ الترسبات النهريَّة، خاصَّة كلَّما قرب النهر من المصبِّ؛ فإن التكوينات تكون ذات حجم كبير عند المنبع عند أول النهر، وتأخذ في الدقَّة والنعومة كلَّما قرب من المصبِّ؛ «فالحجارة عظيمة بالقرب من الجبال وشدَّة جريان مياه الأنهار، وأصغر عند التباعد وفتور الجري، ورمالاً عند الركود والاقتراب من المغايض والبحر... (فما كانت) أرضهم إلاَّ بحرًا في القديم قد انكبس[٢] بحمولات السيول»[٣].

وكانت آراء ابن سينا في الجيومورفولوجيا أقرب الآراء للنظريات الحديثة في هذا الحقل؛ فهو على سبيل المثال يعزو تكوُّن بعض الجبال إلى سببين: ذاتي (مباشر)، وعرضي (غير مباشر)؛ فالذاتي يحدث عندما تدفع الزلازل القويَّة مساحات من الأرض، وتحدث رابية من الروابي مباشرة، أمَّا السبب العرضي فيحدث عندما تعمل الرياح النسَّافة أو المياه الحفَّارة على تعرية أجزاء من الأرض دون أجزاء أخرى مجاورة لها؛ فتنخفض من جرَّاء عوامل التعرية تلك الأجزاء وتبقى المناطق المجاورة لها مرتفعة، ثم تعمل السيول على تعميق مجاريها إلى أن تغور غورًا شديدًا، وتبقى المناطق المجاورة شاهقة[٤].

المتيورولوجيا:

عرف العلماء المسلمون أمورًا مهمَّة من هذا العلم الذي أطلقوا عليه (علم الآثار العلوية)،

---

(١) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: المصدر السابق ص٣٢٢-٣٢٤.
(٢) انكبسِ: طمَّ وطُوي بالتراب، أي: ملئ بالتراب ودُفن. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كبس ٦/ ١٩٠.
(٣) البيروني: تحقيق ما للهند ص٨٠.
(٤) المصدر السابق.

ويتناول هذا العلم الجوَّ وظواهره؛ ودرجات الحرارة، والكثافة، والرياح، والسُّحُب، وهو ما يسمَّى بالأرصاد الجويَّة، وسبق اللغويون العلماء في ذِكْرِ الكثير من مصطلحات هذا العلم، من قبيل ذلك أنهم قسَّموا درجات الحرارة المنخفضة إلى برد، وحرٍّ، وقُرٍّ، وزمهرير، وصقعة (من الصقيع)، وصِرٍّ، وأريز (البرد الشديد). وقَسَّمُوا درجات الحرارة المرتفعة إلى حرٍّ، وحرور، وقيظ، وهاجرة، وفيْح. أمَّا الرياح فقد قسَّموها وَفق الاتجاهات التي تهب منها أو وَفق صفاتها؛ فهناك الشمأل والشّمال والشامية، وهي التي تهب من الشمال، والجنوب أو التيمن وتهب من جهة الجنوب، والصَّبا التي تهب من الشرق، والدَّبُور التي تهبُّ من دُبُر (خلف) الكعبة، والرياح الشماليَّة الشرقيَّة الصبابيَّة، والجنوبيَّة الشرقيَّة الأزْيب، والجنوبيَّة الغربيَّة الداجن، والشماليَّة الغربيَّة الجرْبياء، وما كان حارًّا منها سمَّوْه رياح السموم، والباردة الصَّرْصَر، والرياح الممطرة المعصرة، وغير الممطرة العقيم.

كما أطلقوا على السَّحَاب أسماء تدلُّ على أجزائه ومراحل تكوينه؛ من ذلك: الغمام، والمزن وهو الأبيض الممطر، والسحاب، والعارض، والديمة، والرَّبَاب، ومن أجزاء السحابة الهَيْدَب وهو أسفلها، ويعلوه الكِفَاف، فالرَّحَا وهو ما دار حول الوسط، والخِنْذِيذ وهو الطرف البعيد للسحابة، وأعلى السحاب سمَّوْه البواسق. وللماء الذي يهطل من السماء أو يتجَّمع بفعل تدنِّي درجات الحرارة أسماء منها: القطر، والندى، والسَّدَى (ندى الليل)، والضباب، والطلّ، والغيث، والرذاذ، والوابل، والهاطل، والهَتُون، وقد تحدَّث عن ذلك كله بالتفصيل ابن سينا وإخوان الصفا[1].

الأحافير:

تناول بعض العلماء المسلمين علم الأحافير في معرض تناولهم لعمر الأرض، وخلال استدلالهم من تحوُّل البحر إلى مناطق يابسة؛ فالبيروني يستشهد في كتابه: (تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن) على أن جزيرة العرب كانت مغمورة بالمياه فانحسرت عنها بتعاقب الحِقب الجيولوجية، وأن من يحفر حياضًا أو آبارًا يجد بها أحجارًا إذا شُقَّت خرج منها الصدف والودع، «فهذه بادية العرب كانت بحرًا فانكبس، حتى إنَّ آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها؛ فإنها تُبدِي أطباقًا من تراب ورمال

(١) انظر مثلاً: رسالة الآثار العلوية من رسائل إخوان الصفا، دار صادر- بيروت، ٢/ ٦٢ وما بعدها.

ورَضْرَاض[١]، ثم فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع أن يُحمل على دفن قاصد إياها هناك، بل تخرج أحجارًا إذا كسرت كانت مشتملة على أصداف وودع، وما يسمَّى آذان السمك؛ إمَّا باقية فيها على حالها، وإمَّا بالية قد تلاشت، وبقي مكانها خلاء فتشكَّل بشكلها»[٢]. وهنا يشير البيروني إلى المستحجرات، وهي بقايا عضويَّة كاملة أو طوابعها التي تكون داخل الحجارة، ويستدلُّ بذلك على أن بعض المناطق كانت تغطِّيها المياه ثم أصبحت ضمن اليابسة.

وكان لابن سينا رأي شبيه برأي البيروني من حيث إن وجود المستحجرات الحيوانيَّة المائيَّة في منطقة يابسة دليلٌ على أن تلك المنطقة كانت مغمورة بالمياه في حِقبة زمنيَّة قديمة، من ذلك ما جاء في (الشفاء): «... فيشبه أن تكون هذه المعمورة قد كانت في سالف الأيام غير معمورة، بل مغمورة في البحار فتحجَّرت عامًا بعد الانكشاف قليلاً قليلاً؛ ففي مدد لا تفي التأريخات بحفظ أطرافها، إمَّا تحت المياه لشدَّة الحرارة المحتقنة تحت البحر، والأولى أن يكون بعد الانكشاف، وأن تكون طينتها تُعِينُها على التحجُّر؛ إذ تكون طينتها لزجة؛ وكثيرًا ما يوجد من الأحجار، وإذا كُسِرَتْ أجزاء من الحيوانات المائية كالأصداف وغيرها»[٣]. ويستطرد قائلاً: «إن كان ما يُحْكَى من تحجُّر حيوانات ونبات صحيحًا؛ فالسبب فيه شدَّة قوَّة معدنية محجِّرة تحدث في بعض البقاع البحريَّة، أو تنفصل دفعة من الأرض في الزلازل والخسوف فتُحَجِّر ما تلقاه»[٤].

وهذا غيض من فيض ممَّا تناوله علماء المسلمون في كتبهم ومؤلَّفاتهم عن علم الجيولوجيا، وهو ما يبرهن على قَصَبِ السَّبْق والريادة، وعلى أن علماء المسلمين هم مؤسِّسُو علم الجيولوجيا، وفي مقدِّمتهم ابن سينا والبيروني والكندي، وأن علم الجيولوجيا الحديث ما هو إلاَّ امتداد لما قدَّمه علماء المسلمين في هذا المجال.

***

---

(١) الرَّضراض: الحصى الذي يجري عليه الماء، وقيل: هو الحصى الذي لا يثبت على الأرض وقد يعمّ به. ابن منظور: لسان العرب، مادة رضض ٧/ ١٥٤.

(٢) البيروني: تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، اقتبسه المستشرق كرنكو في المجلد التذكاري: ٢٠٤ عن مخطوط بمكتبة جامع الفاتح بإستانبول.

(٣) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٦٣.

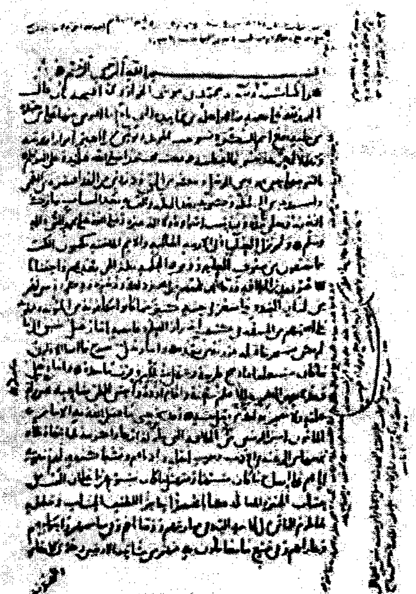
(٤) المرجع السابق ص٢٦٥.

المبحث الرابع

الجــــبر

ابتدعه وأسَّسه العالِم الإسلامي الكبير الخُوَارزمي (ت ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م)، وقد ابتكره ليحلَّ به بعض المسائل الصعبة في قضايا الميراث، ووضع له من الأصول والقواعد ما جعله علمًا مستقلاًّ عن الهندسة وبقيَّة أنواع الرياضيات.

فالخُوَارزمي أوَّل مَن استعمل كلمة (جبر) للعلم المعروف الآن بهذا الاسم، وقد أخذه الأوربيون عنه، فحتَّى الآن ما زال الجبر يُعرف باسمه العربي في جميع اللغات الأوربية، فهو في الإنجليزية (algebra)، وفي الفرنسية (Algèbre)، وهكذا. وتَرجِع كل الكلمات التي تنتهي في اللغات الأوربية بـ (algorism/algorithme) إلى اسم الخوارزمي، كما يرجع إليه الفضل في تعريف الناس بالأرقام العربية؛ ولهذا كان الخوارزمي أهلاً لتسميته بأبي الجبر[(١)].



صورة (١٨) كتاب الجبر للخوارزمي

ويُعَدُّ كتاب الخوارزمي (الجبر والمقابلة) الكتاب الرئيس ذا الأثر الحاسم الذي دَرَس فيه تحويل المعادلات وحلِّها، وفي مقدِّمته بيَّن كيف أن الخليفة المأمون هو الذي طلب منه تأليفه، وقد ترجمه إلى اللاتينيَّة (جيرْدو دي كريمونا)، ونشر النصَّ العربي روزن مع ترجمة إنجليزية في لندن سنة ١٨٥١م.

وبفضل الترجمة الكثيرة انتقل الحساب الهندي والنظام العشري في الحساب إلى أوربا؛ حتى عُرِفَت العمليات الحسابيَّة باسم (Alguarismo)، والغريب أنها تُرجمت إلى

---

(١) راجع: كرم حلمي فرحات أحمد: التراث العلمي للحضارة الإسلامية في الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجري ص٦٤٢، ٦٤٣، ومحمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص٧٤، ٧٥، وأكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص٢٠.

العربيَّة باسم (اللوغاريتمات)، وهي في الأصل منسوبة إلى الخوارزمي! والصحيح أن تُترجَم (الخوارزميات) أو (الجداول الخوارزمية).

وقد أصبح الكتاب مصدرًا أساسيًّا في الرياضيات في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر، وكان معظم ما أَلَّفه مَن خلفه في علم الجبر مستنِدًا إليه، وقد نقله من اللغة العربيَّة إلى اللاتينيَّة روبرت أوف شستر (Robert of chester)، فاستنارت به أوربا، وحديثًا حقَّق الدكتوران علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي هذا الكتاب، وذلك في سنة ١٩٦٨م[١].

وقد أكمل المسيرة بعد الخوارزمي أبو كامل شجاع المصري[٢]، وأبو بكر الكرخي[٣]، وعمر الخيام[٤]، وغيرهم من علماء المسلمين الذي نبغوا في هذا المجال.

ويُعَدُّ إدخال الصِّفر في الترقيم من أهمِّ مآثر واكتشافات المسلمين في الجبر، ولا ريب أن ذلك أدَّى إلى تسهيل العمليات الحسابيَّة وتقدُّم العلوم الرياضيَّة؛ إذ لولا الصفر لَمَا استطاع العلماء حلَّ كثير من المعادلات الرياضيَّة في مختلف الدرجات بالسهولة التي تحلُّ بها الآن، ولَمَا تقدَّمت فروع الرياضيات تقدُّمها المشهود، وبالتالي لَمَا تقدَّمت المدنية هذا التقدُّم العجيب[٥].

ومن أهمِّ مآثر المسلمين كذلك في الجبر أنهم عرفوا حلَّ المعادلات من الدرجة الثانية، وهي نفس الطريقة المستعمَلَة الآن في كتب الجبر الحديثة، ولم يجهلوا أن لهذه المعادلات

---

(١) انظر: علي عبد الله الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية، ٥/ ١٨٧، وله أيضًا: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٧٧، ومحمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص٧٧، وعبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص٦٥.

(٢) شجاع المصري: هو أبو كامل شجاع بن أسلم بن محمد المصري (ت٣١٨هـ/ ٩٣٠م) عالم رياضي، من آثاره: (الجبر والمقابلة). انظر: ابن النديم: الفهرست ص٣٣٩، وعمر كحالة: معجم المؤلفين ٤/ ٢٩٥.

(٣) أبو بكر الكرخي: هو محمد بن الحسن الكرخي (ت٤١٠هـ/ ١٠٢٠م) رياضي مهندس، اتصل بفخر الملك (وزير بهاء الدولة البويهي)، وصنف له كتاب (الفخري) في الجبر والمقابلة. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٢٥، وفؤاد سُزكين: تاريخ التراث العربي ١/ ٥٦٢.

(٤) عمر الخيام: هو عمر بن إبراهيم الخيامي النيسابوري (ت ٥١٥ هـ/ ١١٢١م) شاعر فيلسوف فارسي، عالم بالرياضيات والفلك، من أهل نيسابور، مولدا ووفاة. انظر: القمي: سفينة البحار ١/ ٤٣٦، وابن الأثير: الكامل حوادث عام ٤٧٦هـ.

(٥) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٥٥، ٣٥٦.

جذرين، واستخرجوهما إذا كانا موجبين، وهذا من أهمِّ الأعمال التي تَفَوَّق فيها المسلمون، وفاقوا بها غيرهم من الأمم التي سبقتهم، كما ابتكروا طرقًا هندسية لحلِّ بعض هذه المعادلات، وفي باب المساحة في كتاب (الجبر والمقابلة) للخوارزمي توجد عمليات هندسيَّة حلَّها بطرق جبريَّة؛ ممَّا يدلُّ على أن المسلمين -كذلك- هم أوَّل من استعان بالجبر في المسائل الهندسيَّة(١).

وإذا كان يُنْسَب إلى العالم الرياضي ستيفن استعمال الكسر العشري، فإن العالم الرياضي المسلم غياث الدين جمشيد الكاشي(٢) كان أول مَنْ وضع علامة الكسر العشري واستعملها قبل ستيفن بأكثر من ١٧٥ سنة، وبيَّن فوائد استعمالها وطريقة الحساب بها، وفي ذلك فإنه يذكر في مقدِّمة كتابه (مفتاح الحساب) في الصفحة الخامسة منه أنه اخترع الكسور العشريَّة؛ ليسهل الحساب للأشخاص الذين يجهلون الطريقة الستينية. وإذن فهو يعلم أنه اخترع شيئًا جديدًا(٣).

وكذلك فإن علماء المسلمين بعد الخوارزمي قد استعملوا الرموز (+، -، ×، ÷) في الأعمال الرياضيَّة، ومن مؤلَّفات القلصادي الأندلسي(٤) ما يثبت صحَّة ذلك، وبخاصة في كتابه (كشف الأسرار عن علم حروف الغبار). ولا يخفى ما لاستعمال هذه الرموز من أثر بالغ في تقدُّم الرياضيات على اختلاف فروعها، وإنه لمن المؤسف حقًّا أن يُنْسَب إلى العالم الفرنسي فرانسيس فيت الذي عاش فيما بين (١٥٤٠-١٦٠٣م) ابتكار تلك الرموز والإشارات الرياضيَّة(٥).

هذا ويُعَدُّ حلُّ عمر الخيام (٤٣٦-٥١٧هـ) للمعادلات الجبرية ذات الدرجة الثالثة

---

(١) المصدر السابق ص٣٥٦.

(٢) الكاشي: غياث الدين جمشيد (ت٨٤٢ هـ - ١٤٢١م) فلكي، عالم بالهندسة والحساب، ولد بمدينة كاشان، وتوفي في سمرقند. من مؤلفاته: نزهة الحدائق، رسالة سلم السماء، ورسالة الجيب والوتر. انظر عمر كحالة: معجم المؤلفين ٨/ ٤٣.

(٣) السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) القلصادي: هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي البسطي (٨١٥- ٨٩١ هـ/ ١٤١٢- ١٤٨٦م) عالم بالحساب، من أئمة المالكية، من كتبه (في الجبر والمقابلة). انظر: الضوء اللامع ٦/ ٥، وكشف الظنون ١/ ١٥٣.

(٥) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٥٨، وعلي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٦٥.

بواسطة القطوع المخروطيَّة من أعظم الأعمال التي قدَّمها علماء المسلمين للبشريَّة كلها، وبتأمُّل حلِّ عمر الخيام للمعادلات التكعيبيَّة باستخدام القطع المكافئ والدائرة -مثلاً- يتبيَّن جليًّا أنه تحدَّث عن الإحداث الأفقي (الإحداث السينيّ) ليفسر الإحداثيين للنقطة؛ وبذلك يكون عمر الخيام هو الذي وضع اللَّبِنَات الأُولَى لعلم الهندسة التحليليَّة، تلك التي تُنْسَب للعالم الفرنسي رينيه ديكارت، الذي لا نشكُّ أنه فقط طوَّر الهندسة التحليليَّة وأرسى أصولها[١].

***

(١) علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٦٥.

المبحث الخامس
الميكانيكا

استفاد العلماء المسلمون ممَّا قدَّمه الإغريق والرومان والفرس والصينيون من قواعد مبعثرة لعلم الميكانيكا، ثم طوَّروا منه كثيرًا، وابتكروا فيه تقنيات جديدة، وأضافوا إليه من إبداعهم ما جعله علمًا تطبيقيًّا فريدًا في غاية الأهميَّة، بعدما كان علمًا للتسلية والسحر، وأطلقوا عليه (علم الحيل)، ويَعْنُونَ بذلك الطُّرُق التي يتحايلون به على الظروف الصعبة لتحقيق غرض من الأغراض؛ بمعنى توفير الجُهد الإنساني والقوَّة البشريَّة والتوسُّع في القوَّة الميكانيكيَّة، والاستفادة من المجهود البسيط للحصول على جهد أكبر من جهد الإنسان والحيوان!

فقد أرادوا من خلاله تحقيق منفعة الإنسان، واستعمال الحيلة مكان القوَّة، والعقل مكان العضلات، والآلة بدل البدن، والاستغناء عن سُخرة العبيد ومجهودهم الجسماني، وخاصَّةً أن الإسلام منع نظام السخرة في قضاء الأمور المعيشيَّة التي تحتاج لمجهود جسماني كبير، كما حرَّم إرهاق الخدم والعبيد، وحرم المشقَّة على الحيوان، وذلك بعدم تحميلهم فوق ما لا يُطِيقُونه؛ ومن ثَمَّ كان اتجاه المسلمين إلى تطوير الآلات لتقوم عوضًا عنهم بهذه الأعمال الشاقَّة، وهي نزعة حضاريَّة تتَّسم بها الأمم التي قطعت أشواطًا في مجالات العلم والحضارة، كما أنها المحور الذي تدور حوله فلسفة أيِّ اختراع تفرزه عقول العلماء يوميًّا؛ سعيًا وراء تحسين حياة الإنسان، ورفع المشقَّة عنه قدر الإمكان.

ويمثِّل (علم الحِيَلِ النافعة) الجانب التقني المتقدِّم في علوم الحضارة الإسلاميَّة؛ حيث كان المهندسون والتقنيون يقومون بتطبيق معارفهم النظرية للإفادة منها في كل ما يخدم الدين، ويحقِّق مظاهر المدنية والإعمار.

وبعد أن كانت غاية السابقين من (علم الحيل) لا تتعدَّى استعماله في التأثير الديني والرُّوحي على أتباع مذاهبهم، مثل استعمال التماثيل المتحرِّكة أو الناطقة بواسطة الكهَّان، واستعمال الأرْغَن الموسيقي وغيره من الآلات المصوِّتة في المعابد، فقد جاء الإسلام وجعل الصلة بين العبد وربِّه بغير حاجة إلى وسائل وسيطة أو خداع بصري، وأصبح

التأثير على الإنسان باستعمال آلات متحرِّكة (ميكانيكيَّة) هو الهدف الجديد لتقنية (الحيل النافعة)، وهي عبارة عن آلات وتجهيزات يعتمد البحث فيها على حركة الهواء (الإيروديناميكا)، أو حركة السوائل واتزانها (الهيدروديناميكا) و(الهيدروستاتيكا)، والصمامات الآليَّة ذات التشغيل المتباطئ، والأنظمة التي تعمل عن بُعْدٍ بطريقة التحكُّم الآلي، والأجهزة والأدوات العلميَّة، والجسور والقناطر المائيَّة، والهندسات والزخارف المعماريَّة، وغيرها[1].

هذا، وإذا عُدْنَا إلى البدايات، فإن تقنيات الهندسة الميكانيكيَّة قد ازدهرت في العالم الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وذلك على أيدي نفر من العلماء المسلمين الأعلام. ويمكن التعرُّف على مراحل تطوُّر هذا العلم من خلال الأعمال القيِّمة التي خلفها أبرز هؤلاء العلماء، روّاد التقنية الإسلاميَّة في مجالات الهندسة الميكانيكيَّة، كما يلي:

١) بنو موسى بن شاكر:

وهم الإخوة الثلاثة: محمد (كبيرهم ت ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م)، وَأحمد، والحسن (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، أبناء موسى بن شاكر، وقد عاشوا في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، ولمعوا في علوم الرياضيات والفلك والعلوم التطبيقيَّة والتقنيَّة، واشتهروا بكتابهم القيم المعروف باسم (حيل بني موسى)، ويحكي عنه ابن خلِّكان فيقول: «ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة، ولقد وقفتُ عليه فوجدتُه من أحسن الكتب وأمتعها»[2].

وهذا الكتاب يحتوي على مائة تركيب ميكانيكي مع شروح تفصيليَّة ورسوم توضيحيَّة لطرائق التركيب والتشغيل، وكان استخدام بني موسى للصمامات التي تعمل تلقائيًّا، وللأنظمة التي تعمل بعد زمن معين، وغير ذلك من مبادئ وأفكار التحكُّم الآلي، وهي من أهم الإنجازات في تاريخ العلم والتقنية بشكل عامٍّ. كما كان استخدامهم

---

(١) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد من الآتي؟ ص٢٩، ٣٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٦١.

للصمامات المخروطيَّة، ولأعمدة المرافق التي تعمل بصورة آليَّة، استخدامًا غير مسبوق، وقد سبقوا به أوَّل وصف لآليَّة عمود المرافق الحديث في أوربا بخمسمائة عام[1]!

ومن أمثلة تركيبات بني موسى الميكانيكية: «عمل سراج إذا وُضِعَ في الريح العاصف لا ينطفئ، وعمل سراج يُخْرِج الفتيلة لنفسه ويَصُبُّ الزيت لنفسه، وكل مَنْ يراهُ يظنُّ أن النار لا تأكل من الزيت ولا من الفتيلة شيئًا البتة، وعمل نافورة يفور منها الماء مدَّة من الزمان كهيئة التُّرْس، ومدَّة متماثلة كهيئة القناة، وكذلك لا تزال دهرها تتبدَّل». ومن بين أجهزتهم الميكانيكيَّة التي وصفها المؤرِّخون بكثير من الإعجاب - آلة رصد فلكي ضخمة تعمل في مرصدهم، وتُدَار بقوَّة دفع مائيَّة، وهي تُبَيِّن كل النجوم في السماء وتعكسها على مرآة كبيرة، وإذا ظهر نجم رُصِدَ في الآلة، وإذا اختفى نجم أو شهاب رُصِدَ في الحال وسُجِّلَ[2].

وقد استحدثوا كذلك آلات لخدمة الزراعة والفلاحة، مثل المعالف الخاصَّة لحيوانات ذات أحجام معيَّنة تتمكَّن أن تصيب مأكلها ومشربها فلا تنازِعُها غيرها الطعام والشراب، وعمل خزَّانات للحمَّامات، وآلات لتعيين كثافة السوائل، وآلات تُثَبَّت في الحقول لكيلا تضيع كميات الماء هدرًا، ويمكن بواسطتها السيطرة على عملية ريِّ المزروعات، وكان لكل هذه الأفكار الإبداعيَّة أثر كبير في دفع مسيرة تقنية (الحيل النافعة) أو الهندسة الميكانيكيَّة قُدُمًا؛ حيث تميَّزت تصاميمها بالخيال الخصب والتوصيف الدقيق والمنهجيَّة التجريبيَّة الرائدة[3].

٢) بديع الزمان الجزري[4]:

تضمَّنت ابتكارات المسلمين الأوائل في مجال تقنية الحيل النافعة تصميمات متنوِّعة لساعات وروافع آليَّة، يتمُّ فيها نقل الحركة الخطِّيَّة إلى حركة دائريَّة بواسطة نظام يعتمد

(١) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٣٠.
(٢) انظر: زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص١٢٢.
(٣) انظر: أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٣٠، ٣١.
(٤) بديع الزمان الجزري: هو عبد العزيز بن إسماعيل الرزاز (٥٣٠- ٦٠٢هـ/ ١١٣٦- ١٢٠٦م) أحد أعظم المهندسين والكيميائيين، اخترع العديد من الآلات النافعة؛ مثل: آلات رفع الماء، والساعة المائية، وغيرها. انظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ١٥.

على التروس المسنَّنة، وهو الأساس الذي تقوم عليه جميع المحرِّكات العصريَّة، ومن المؤلَّفات الذاتية الرائدة في هذا المجال كتاب: (**الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل**) لبديع الزمان أبي العزِّ بن إسماعيل بن الرزَّاز الجزري (ت ١١٨٤م). وقد ترجم دونالد هيل هذا الكتاب إلى الإنجليزيَّة عام (١٩٤٧م)، ووصفه مؤرِّخ العلم المعاصر جورج سارتون بأنه أكثر الكتب من نوعه وضوحًا، ويمكن اعتباره الذروة في هذا النوع من الإنجازات التقنية للمسلمين[١].



صورة (١٩) الساعة المائية للجزري

ويضمُّ كتاب الجزري عدَّة أقسام، أطولها قسم الساعات المائيَّة، وقسم آخر يعالج موضوع آلات رفع الماء، أمَّا ساعات الجزري فكانت تستعمل دُمًى ذاتيَّة الحركة لتشير إلى مرور الوقت، مثل: طيور تقذف من مناقيرها كرات صغيرة فوق صنوج[٢]، أو أبواب تُفتح ليخرج منها أشخاص، أو دوائر بروج تدور، أو موسيقيين يقرعون الطبول وينفخون الأبواق، وفي معظم هذه الساعات كان المحرِّك الأوَّل ينقل الطاقة إلى الدُّمَى بواسطة أنظمة بكرات بالغة الدقَّة[٣].

وأمَّا قِسْمُ آلات رفع الماء، ففيه وصف لتصميم مضخة يعتبرها المؤرِّخون الجدد الأقرب للآلة البخارية، وتتكوَّن هذه المضخة من (ماسورتين) متقابلتين، في كل منهما ذراع يحمل مكبسًا أسطوانيًّا، فإذا كانت إحدى الماسورتين في حالة ضغط أو كبس فإن الثانية تكون في حالة سحب أو (شفط)، ولتأمين هذه الحركة المتقابلة المتضادَّة يُوجَد

---

(١) المصدر السابق ص٣١.

(٢) الصنوج: صفائح صغيرة مستديرة تثبت في أطراف الدف. المعجم الوسيط، مادة صنج ١/ ٥٢٥.

(٣) دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية ص١٦٩.

قرص دائري مسنَّن قد ثُبِّت فيه كلٌّ من الذراعين بعيدًا عن المركز، ويُدَار هذا القرص بواسطة تروس متَّصلة بعمود الحركة المركزي، وهناك ثلاثة صمامات على كل مضخة تسمح بحركة المياه في اتجاه واحد من أسفل إلى أعلى، ولا تسمح بعودتها في الاتجاه العكسي[١].

ومضخَّة الجزري هذه عبارة عن آلة من المعدن تُدَارُ بقوَّة الريح، أو بواسطة حيوان يدور بحركة دائريَّة، وكان الهدف منها أن ترفع المياه من الآبار العميقة إلى سطح الأرض، وكذلك كانت تُستعمَل في رفع المياه من منسوب النهر إذا كان منخفضًا إلى الأماكن العليا، مثل جبل المقطم في مصر، وقد ذكرت المراجع أن هذه التقنية تُمَكِّن من ضخِّ الماء إلى أن يبلغ حوالي عَشَرَة أمتار، وتصبُّ المضخة فوق سطح الماء مباشرة، بحيث يكون عمود الشفط مغمورًا في الماء[٢].

٣) تقي الدين الدمشقي:

يُعَدُّ تقي الدين بن معروف الراصد الدمشقي -الذي عاش في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)- فخرَ التقنية الإسلاميَّة، وهو صاحب كتاب (**الطرق السنيَّة في الآلات الروحانية**)، وفيه وَصَفَ العديد من الأجهزة الميكانيكيَّة مثل: الساعات المائيَّة والآليَّة والرمليَّة، والروافع بالبكرات والتروس (المسنَّنات)، والنافورات المائيَّة، وآلات الدوران باستعمال العَنَفَات (المراوح) البخارية التي نعرفها اليوم[٣].

ويحظى كتاب تقي الدين الدمشقي بأهمِّيَّة خاصَّة؛ لأنه يكمل أهمَّ مرحلة في تقنية الهندسة الميكانيكيَّة في العصر الإسلامي، ويقدِّم وصفًا لآلات كثيرة لم يَرِدْ ذِكْرٌ لها في كتب السابقين، وقبل أن يَرِدَ وصفُ ما يماثلها في المراجع الغربية المعروفة في فترة عصر النهضة. ويتميَّز كتاب تقي الدين بأنه اقترب كثيرًا في عرضه وتوصيفه للآلات من مفهوم الرسم الهندسي الحديث ذي المساقط، لكنه يوضِّح كل شيء يتعلَّق بالآلة في رسم واحد، يجمع بين مفهوم المساقط ومفهوم الرسم (المنظور المجسم)، ومن هنا فإنه يحتاج إلى دراسة عميقة من أهل الاختصاص لقراءة النصوص وفهم الرسوم حتى يكون التخيُّل صحيحًا.

---

(١) المصدر السابق ص١٣٥.
(٢) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٣٣.
(٣) المصدر السابق ص٣٦.

ومن أهمِّ الآلات المائيَّة التي وصفها تقي الدين في كتابه: (المضخة ذات الأسطوانات الستّ)، وفيها استخدم لأول مرَّة (كتلة الأسطوانات) لستِّ أسطوانات على خطٍّ واحد، كما استخدم (عمود الكامات) بستَّة نتوءات موزَّعة بانتظام على محيط الدائرة؛ بحيث تعمل الأسطوانات على التوالي، ويستمرُّ تدفُّق الماء بصورة منتظمة. وأوصى تقي الدين بألاَّ يقلَّ عدد الأسطوانات عن ثلاث؛ ليتناسب صعود الماء من غير دفق، وهذا المفهوم المتقدِّم للتتابع وتجنُّب الدفق أو التقطُّع، إضافةً إلى مفهوم التوازن الديناميكي الحديث، هو الأساس الذي قامت عليه تقنية المحرِّكات والضواغط الحديثة متعدِّدة الأسطوانات.

وفي تصميم تقي الدين لمضخَّته المكبسيَّة ذات الأسطوانات الستِّ نجده يضع ثقلاً من الرصاص على رأس قضيب كل مكبس يَزيد وزنُه عن وزن عمود الماء الموجود داخل الأنبوب الصاعد إلى أعلى، وهو بهذا يسبق (مورلاند) الذي قام في عام (١٦٧٥م) بتصميم مضخَّة وضع فيها أقراصًا من الرصاص فوق المكبس حتى يعودَ المكبس إلى الهبوط ويدفع الماء بتأثير الرصاص إلى العلوِّ المطلوب[1].

وهكذا يبطل زعم مؤرِّخي التقنية الغربيين أن التقنية الإسلاميَّة في مجالات الهندسة الميكانيكيَّة كان لها فقط طابع التسلية واللعب وتزجية أوقات الفراغ، ويشهد على بطلان زعم هؤلاء المؤرِّخين غير المنصفين تلك الدواليب المائيَّة التي كانت تُستخدم لتدوير المطاحن ومعاصر القصب وعصر الحبوب والبذور، وفي رفع المياه لأغراض الريِّ، وقد استُخْدِمَتْ طاقة الماء والهواء على نطاق واسع، وكانت العَلاقة وثيقة بين العلوم النظريَّة وتطبيقاتها التقنية في مجالات الحياة العمليَّة التي شملت تصميم المدن ومنشآت الريِّ والسدود والأبنية والآلات وغيرها، وكان المهندسون والتقنيون في عصر الحضارة الإسلامية يتَّبعون المنهج العلمي في كل أعمالهم، ويبدءون -في الحالات الصعبة- برسم مخطَّطات، ثم يصنعون نموذجًا مصغَّرًا لما ينوون تنفيذه، وقد أعاد الفنيُّون المحدَثُون بناء العديد من التركيبات والآلات تبعًا للشروح التي قدَّمها التقنيون الإسلاميون في مؤلَّفاتهم[2].

❊ ❊ ❊

(١) المصدر السابق.

(٢) أحمد فؤاد باشا، التراث العلمي الإسلامي ص٣٩.



إسهامات المسلمين في جانب العقيدة والفكر والأدب

جانب مهمٌّ أيضًا في رحلة إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية، ذلك الذي يتعلّق بالعقيدة والفكر والأدب، والذي يُعَبِّر عن أصالة الحضارة الإسلامية وتفرُّدها في تلك المجالات. وفي هذا الباب نعرض لأهمِّ هذه الإسهامات، وذلك على النحو التالي:

- **الفصل الأول: إسهامات المسلمين في التصوُّر العقدي**
- **الفصل الثاني: تطوير العلوم المتداولة**
- **الفصل الثالث: ابتكار علوم جديدة**

الفصل الأول

إسهامات المسلمين فى التصور العقدى

كان للمسلمين - وما زال - دورٌ متفرِّد ومتميِّز في جانب العقيدة والتصوُّر العقدي؛ فبينما ذهبت الأمم والحضارات السابقة والمعاصرة إلى تصوُّرات شتى تجاه خالق الكون والإله المعبود، فإن المسلمين أفردوا العبودية والوحدانية لله ﷻ، وخصُّوه بالخَلْقِ والأمر، وكان ذلك أعظم إسهامٍ قُدِّم للإنسانية مطلقًا، وخاصَّة حين نعلم دور العقيدة وأثرها الحاسم في النهضة الحضارية.

وفي هذا الفصل نستعرض دور المسلمين وإسهاماتهم في إصلاح التصوُّر العقائدي، وذلك من خلال المبحثين التاليين:

- **المبحث الأول: من عقائد الأمم السابقة**
- **المبحث الثاني: التوحيد وإصلاح التصوُّر العقائدي**

المبحث الأول
من عقائد الأمم السابقة

لقد ساد العالم قبل الإسلام غَبَشُ الرؤية لحقيقة الألوهية، فلم تكن رؤية صافية تَقْدِر الله حقَّ قدره، وإنما كانت رؤية غائمة مضطربة، تُحِيطُ بها الأوهام والجهالات. والحقُّ أن الحضارات المختلفة - كما يظهر من تاريخها - لم تَعْرِف الله جَلَّ شأنه معرفة صحيحة، ولم تَهْتَدِ إلى الإيمان الصحيح بخالق الكون ومُدَبِّره، ولم تعرف حقيقة الألوهية الكاملة، العالمة، القادرة، المريدة، البارَّة، الرحيمة؛ وذلك لأنها لم تعرف النبوَّة الهادية، والوحيَ المعصوم، معرفةً مباشرة، ومِن ثَمَّ سارت في الطريق وحدها باحثة عن (العلَّة الأولى)، أو (المحرِّك الأول)، أو (واجب الوجود)، فتعثَّرت وتخبَّطت، وغلبت عليها الأوهام والأهواء.

حتى الفلاسفة الذين يسمِّيهم تاريخ الفلسفة (الإلهيين)، أي: الذين اعترفوا بالألوهية في الجملة؛ مثل العمالقة الكبار: سقراط وأفلاطون وأرسطو، الذين رفضوا الإنكار والإلحاد، لم يكن تصوُّرهم للألوهية تصوُّرًا صحيحًا، بل كان تصوُّرًا قاصرًا مضطربًا، مشوبًا بالكثير من الأوهام والتخليطات؛ لنأخذ مثلاً (إله) أرسطو - المُعَلِّم الأول لدى الإغريق - لنرى أيَّ إلهٍ هو؟ أهو الإله الذي نعرفه نحن، خالق كل شيء، ورازق كل حيٍّ، ومدبِّر كل أمر، العالِم بما كان، وما هو كائن، وما سيكون، الفعَّال لما يريد، والقادر على كل شيء؟ أم هو إله آخر غير هذا الإله الذي نعرفه؟ [1].

يقول ول ديورانت في (مباهج الفلسفة): «يتصوَّر أرسطو (الله) بوصفه رُوحًا تعي ذاتها، وهذه هي الأخرى روح غامضة خفية؛ وذلك لأن إله أرسطو لا يقوم أبدًا بأي عمل، فليست له رغائب ولا إرادة ولا غرض، وفاعليته نقية خالصة إلى حدٍّ تجعله لا يفعل أبدًا، وهو كاملٌ كمالاً مطلقًا؛ لذلك ليس بمقدوره أن يرغب في أي شيء؛ ولذلك لا يعمل أي شيء! ووظيفته الوحيدة هي التأمُّل في جوهر الأشياء. ونظرًا لأنه هو بالذات

(١) القرضاوي: الإسلام حضارة الغد ص١٤.

جوهرُ جميع الأشياء، وشكل جميع الأشياء؛ لذلك فإن عمله الوحيد هو التأمُّل في ذاته. ولا غَرْوَ أن يحبَّ الإنجليز أرسطو، فإلهه هو - بوضوح - صورة طبق الأصل عن مَلِكِهِمْ، أو أن مَلِكَ هؤلاء هو نسخة عن إله أرسطو بالذات»(١).

وإذا كان إله أرسطو مسكينًا؛ لأنه لا يستطيع أن يحلَّ ولا يربط في الكون، فأشدُّ منه مسكنة إله أفلاطون - الذي نُسبت إليه الأفلاطونية الحديثة - فإنه لا يتأمَّل في شيء، حتى في ذاته نفسها(٢)!

وقد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس الميلادي، فوصل عدد الآلهة في الهند وحدها - على سبيل المثال - إلى ٣٣٠ مليونًا، وقد أصبح كل شيء رائعًا، وكل شيء جذابًا، وكل مرفق من مرافق الحياة إلهًا يُعْبَدُ. وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة الحصر، وأربت على العدِّ؛ فمنها أشخاص تاريخية، وأبطال تمثَّل فيهم الله، ومنها جبال تجلَّى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلَّى فيها إله، وأنهار، وآلات حرب، وآلات التناسل، وحيوانات أعظمها البقرة، وأجرام فلكية، وغير ذلك، وأصبحت الديانة نسيجًا من خرافات وأساطير وأناشيد، وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان. وقد ارتقت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد حتى فاق في ذلك جميع العصور الماضية، وقد عكفت الطبقات كلها وعكف أهل البلاد من الملك إلى الصعلوك على عبادة الأصنام(٣).

فوصل الأمر أن هانت على الإنسان إنسانيته، حتى صار يسجد للحجر والشجر والنهر، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرَّ!

وقد كانت الدولة الرومانية حاملة لواء النصرانية في العالم، وقد انقسمت على نفسها إلى فرعين كبيرين: الكاثوليك والأرثوذكس، وانقسم الأرثوذكس بدورهم إلى طائفتين: ملكانية ومنوفيسية، وكانت الحروب بين هذه الطوائف على أشُدِّها، وجميعهم قد حرَّفوا

---

(١) مباهج الفلسفة ص١٦١، ١٦٢، نقلاً عن القرضاوي: الإسلام حضارة الغد ص١٤، ١٥.

(٢) انظر: العقاد: الله ص٧٨، ١٣١.

(٣) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٤٠، وله أيضًا: الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية ص٢١.

دينهم، وأشركوا مع الله ﷻ غيره، ولكنهم اختلفوا في صورة الشرك، وقد أصبح الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله!

وإن تاريخ أوربا في العصور الوسطى يكاد يكون في صلبه عبارة عن صراع بين السلطة الدينية (البابوية) - التي تحتكر حقَّ الحديث باسم الله، فهي فوق البشر، ولا حقَّ لأحد في محاسبتها ومراقبة تصرفاتها، وفوق الملوك الذين يجب أن يُذعِنُوا[1] لها في النهاية باسم الدِّينِ - وبين السلطة الدنيوية ممثَّلة في الحُكَّام، والملوك، والأباطرة، والأمراء ممن يرغبون في ممارسة سلطاتهم، وصلاحياتهم، واستبدادهم نحو رعاياهم دون أن يحدَّها أحد أو جهة تحت أي مسمًّى أو بأي حُجَّة، حتى ولو كانت البابوية تحت ستار الدين.

ففي سنة (١٠٧٣م) أعلن البابا جريجوريوس السابع أن الكنيسة هي صاحبة السيادة في العالم كلِّه، تستمدُّ نفوذها من الله مباشرة، وهي بدورها تمدُّ ملوك الأرض وأمراءها بالنفوذ، وأن البابا له منزلة فذَّة في العلم، فهو الذي يولِّي الأساقفة ويخلعهم، وله الحقُّ في خلع الأباطرة؛ لأنه سيدهم الذي لا يُسْأَلُ عمَّا يفعل وهم يُسْأَلون، وبِناءً على ذلك كان البابوات يُعلنون حرمان مَنْ لا يَرْضَوْن عنهم من الأباطرة والملوك، كما حدث للإمبراطور هنري الرابع حين حرمه البابا سنة (١١٠٧م)، فاضطر للوقوف ببابه ثلاثة أيام حافي القدمين عاري الرأس بين الثلوج والأمطار، وحين غضب البابا أنوسنت الثالث على الملك جون ملك إنجلترا، أنزل نقمته على إنجلترا كلها، وأعلن عليها حربًا صليبية، وحرَّض ملك فرنسا على مهاجمتها وضمِّها إليه، فاضطر عندئذ ملك إنجلترا إلى طلب الغفران من البابا، فغفر له بعد أن أعلن تبعيَّته له وأقسم بيمين الولاء، وقَدَّمَ هدية مناسبة! ووصل النفوذ ذروته في سنة (١١٩٨م) حيث أعلن البابا (أرنِسْت الثالث) أنه نائب المسيح، والقائم بين الله وبين عباده دون الربِّ وفوق البشر، وهو حاكم الجميع ولا أحد يحكمه[2]!

ولا ريب في أن هذا الانحراف لرجال الدين المسيحي، وتسلُّطهم، وتجبُّرهم هو

(١) أذعن: أقرَّ وخضع وذلَّ وانقاد طائعًا. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة ذعن ١٣/ ١٧٢.
(٢) عبد الله علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية ص٣٨، ٣٩.

الذي جعل الغرب الحديث يحاول الإفلات من طغيان وإسار الكنيسة، ثم يُمْعِنُ في العلمانية والإفلات من زمام الدين، وإقصائه عن كل شئون الدنيا.

وأمَّا العرب فكانوا في البدء - كما قدَّمنا أيضًا - يعبدون الله ويوحِّدُونه، ويعتقدون أنه إله أعظم، خالق الأكوان، ومدبِّر السموات والأرض، بيده ملكوت كل شيء، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[1]، لكن لما طال عليهم الأمد نَسُوا حظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا به، فأشركوا بالله، وجعلوا بينهم وبينه وسطاء؛ توسَّلوا بهم إلى الله وأشركوهم في الدعاء، كما قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[2]، وقاموا نحوهم ببعض العبادات، ورَسَخَتْ في أذهانهم فكرة الشفاعة حتى تحوَّلت إلى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر، ثم ترقَّوْا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة، واعتقدوا أن لهم مماثلة ومشاركة في تدبير الكون، وقدرة ذاتية على النفع والضرر، والخير والشر، والإعطاء والمنع[3].

وقد انتشرت عبادة الأصنام في جزيرة العرب، حتى صار لكل قبيلة ثم في كل بيت منها صنم، قال الكلبي[4]: كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسَّح به، وإذا قَدِم من سفرٍ كان أَوَّل ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسَّح به أيضًا... واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتًا، ومنهم من اتخذ صنمًا، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرًا أمام الحرم وأمام غيره مِمَّا استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسمَّوْهَا الأنصاب... وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًّا، وجعل ثلاث أثافيّ[5] لِقِدْرِه، وإذا ارتحل تركه[1]. يقول أبو رجاء العطاردي: كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ فَإِذَا

---

(١) (العنكبوت: ٦١).

(٢) (الزمر: ٣).

(٣) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص٤٥.

(٤) ابن السائب الكلبي: هو أبو النضر محمد بن السائب بن بشر بن عمرو (ت ١٤٦هـ/ ٧٦٣م) راوية، عالم بأيام العرب، من أهل الكوفة، مولده ووفاته فيها. وهو شيعي متروك الحديث ولكن يؤخذ عنه روايات ما قبل الإسلام. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٤٨، ٢٤٩.

(٥) أثافيُّ (وتخفَّف الياء): الحجارة التي تنصب وتجعل القدر عليها، مفردها الأُثْفِيَّة. ابن منظور: لسان العرب، مادَّة ثفا ١٤/ ١١٣.

وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ وَأَخَذْنَا الآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً[٢] مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ ثُمَّ طُفْنَا بِهِ[٣]. وقد كان في جوف الكعبة - البيت الذي بُنِيَ لعبادة الله وحده - وفي فنائها ثلاثمائة وستون صنمًا[٤].

هكذا كان حال الأمم السابقة في تصوُّراتها للدين والعقيدة والإله المعبود؛ حيث الوثنية وانتفاء التوحيد، ومن ثَمَّ انتفاء صفات القدرة والربوبية والخَلْقِ، مع ما ترتَّب على ذلك من انحطاط للإنسانية، وانحطاطٍ لقيم أي بعثٍ حضاري.

***

(١) أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي: كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، ص٣٣.

(٢) الجُثْوة والجَثْوَة والجِثْوَة ثلاث لغات: حجارة من تراب متجمع كالقبر، وقيل: هي الحجارة المجموعة، وقيل: هي الرَّبْوة الصغيرة، وقيل: هي الكُومةُ من التراب. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة جثا ١٤/ ١٣١.

(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال (٤١١٧).

(٤) البخاري عن عبد الله بن مسعود: كتاب المظالم، باب هل تكسر الدنان التي فيها الخمر أو تخرق الزقاق (٢٣٤٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة (١٧٨١).

المبحث الثاني

التوحيد وإصلاح التصور العقائدي

في مقابل أوهام وخرافات وضلالات التصوُّر الاعتقادي للأمم السابقة، وأمام عقلية العالم يوم بُعِث رسول الله ﷺ، كان إسهام المسلمين بعقيدة التوحيد، تلك العقيدة التي عُدَّت منحة الإسلام للإنسانية، لم ولن تنال الإنسانية مثلها إلى يوم القيامة.

ففي عقيدة الإسلام أن هذا العالم ليس بلا مَلِك، بل له مَلِك واحد، وهو خالقه وصانعه وحاكمه ومدبِّره، له الخلق والأمر كله، وله الحكم ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[1]، ولا يحدث في هذا العالم شيء إلا بأمره وقدرته، وأن العلَّة الحقيقية لوجوده هي إرادته وقدرته، وأن هذا الكون كله خاضع له في كونه ووجوده، ومنقاد له وطوع أمره ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2]، وعلى المخلوقات التي تملك إرادة واختيارًا أن تخضع له ﴿أَلاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[3] [4].

فلأنه ﷻ هو الذي خَلَق الكون كله وخَلَق العباد كلهم، فهو الوحيد الذي يجب أن يَتَوَجَّه إليه الخلقُ بالعبادة.

وقد أقام الإسلام الحُجَّة البالغة على أن الله ﷻ هو الذي خَلَق، وأقام أيضًا الحجة البالغة على أنه ليس هناك إله غيره، فقال تعالى في سياق إيراد الحجة العقلية المنطقية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[5]، وتحدَّى ﷻ الناس بكل قوَّة فقال: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[6].

والحقيقة أن هذا المنطق كان مُقْنِعًا جدًّا، حتى إن أهل الأرض تلَقَّفُوه بالقَبُول والاقتناع، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

---

(١) (الأعراف: ٥٤).
(٢) (آل عمران: ٨٣).
(٣) (الزمر: ٣).
(٤) أبو الحسن الندوي: الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية ص٢١.
(٥) (الأنبياء: ٢٢).
(٦) (سبأ: ٢٧).

ويُخْطِئ هنا من يظن أن العرب المسلمين انتشروا في العالم فانتشر الإسلام وانتشرت عقيدة التوحيد لكثرة العرب، ويخطئ أيضًا من يظنُّ أن العرب المسلمين قهروا الناس على دخول الإسلام واعتناق التوحيد بقوة السيف والسلاح، ولنا أن نُرَاجِع تاريخ العالم.

فالعرب المسلمون كانوا قلَّة، وكان سلاحهم ضعيفًا كيفًا وكمًّا، وكانت إمكانياتهم الاقتصادية والعسكرية بسيطة للغاية، ومع ذلك قَبِل العالم في ذلك الوقت أن يترك ديانة البلاد والأمم والحضارات القوية والمتحضرة ويدخل في دين هذه القلَّة البسيطة!

ولعلَّ السؤال المتبادر إلى الذهن هنا هو: لماذا كان ذلك؟! ولماذا كان هذا القبول؟!

وتكمن الإجابة في أنه دين مُقْنِعٌ، وأنها عقيدة تتوافق تمامًا وتتماشى مع الفطرة ومع المنطق، تلك العقيدة التي فطر الله الناس عليها في عبادة واحدٍ أحدٍ، دون منازع أو شريك.

ولنا أن نتساءل الآن:

- مَنْ قهر العرب أصلاً أن يدخلوا في الإسلام، مع أن الرسول ﷺ وأصحابه كانوا في غاية القلَّة والضعف؟

- مَنْ قهر المصريين وأجبرهم على دخول الإسلام؟ وهل يُعقل أن يستطيع ثمانية آلاف جندي أن يقهروا شعبًا عريقًا كشعب مصر تجاوز عدده وقت الفتح ثمانية ملايين نسمة؟! مع العلم بأن مصر كانت واقعة تحت الاحتلال البيزنطي، وكانت الإمبراطورية البيزنطية آنذاك في غاية القوَّة.

- مَنْ قهر أهل فارس أصحاب الأعداد الغفيرة والتاريخ الطويل على أن يتركوا عبادة السنين ويعتنقوا الإسلام؟

- ومن قهر أهل شمال إفريقيا والأندلس وأفغانستان وباكستان وماليزيا وإندونيسيا والأتراك وغيرهم؟

- بل مَنْ قهر العالم الآن على دخول الإسلام مع أن الجميع يشهد أن المسلمين في

حالة أضعف بكثير من الآخرين، وليس مجرَّد دخول بسيط، بل إن الإسلام أسرع الديانات نموًّا في العالم الآن!

فالحقيقة التي لا مراء فيها أن حُجَّة الله بالغة، ودين الله لا ثغرة فيه ولا خطأ؛ ولذلك لا يمكن لأحد أن يقرأ عنه أو أن يعرفه إلاَّ ويعلم أنه الحقُّ، سواءٌ اتَّبعه أم لم يتَّبِعْه.

والحقيقة الأخرى أن إسهام المسلمين في ذلك التصوُّر العقدي لم يقف تأثيره على مَنْ أسلم فقط، بل إنه أفاد غير المسلمين - كما سيأتي بيانه - في وضوح الرؤية العقدية الحقيقية عندهم، وذلك في ناحية التوحيد.

ولا يخفى أن الأثر العقلي الأوَّل الذي يترتَّب من هذه العقيدة على الإنسان هو أن العالم كله تابع لمركز ونظام واحد، ويرى الإنسان في أجزائه المنتشرة ترابطًا ظاهرًا، ووحدة في القانون، ثم بعد هذه العقيدة يستطيع الإنسان أن يأتي بتفسير كامل للحياة، وأن يُقَوِّمَ فكره وعَمَله في هذا الكون على حكمة وبصيرة[1].

ولا ريب أن الإيمان بإله واحد قادر، يُخَلِّص الفكر من تخبُّط التعدُّدية في الآلهة التي لا تستقيم مع الفطرة السليمة، ويُطْلِق قوى النفس والبدن المؤمنة بالله المسيطر على مجريات الحياة والكون، ومَنْ تتعلَّق بيده سبحانه مقادير الخَلْقِ، المتوكّلة عليه نحو العمل والنشاط، مرتكنة إلى أن هناك ربًّا للكون يرى كل ما يدور بين جنباته، ويُثِيبُ المحسن إحسانًا، ويُعَاقِبُ المسيء إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة، فلا يضيع إحسان، ولا يُهْضَمُ حقٌّ عنده[2].

ولا ريب أيضًا أن أهمَّ آثار هذه العقيدة في المجتمع تتبدَّى حين نريد أن نؤسس مجتمعًا نظيفًا، تسوده العدالة، وتحكمه الفضيلة، وتختفي منه الجريمة، وتُظَلِّلُه الطمأنينة، ويتعاون أفراده على كل ما فيه خيره وصلاحه، فحين نريد ذلك ينبغي أن نؤسس المجتمع على العقيدة الإسلامية التي هي الدِعامة الأولى لبناء المجتمع، وعلى هذا الأساس رَبَّى رسول الله ﷺ أصحابه، فأوجد المجتمع الفاضل، وتكوَّنت الأُمَّة الإسلامية التي دانت لها الدنيا من مشرقها إلى مغربها.

---

(١) أبو الحسن الندوي: الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية ص٢٢.
(٢) جمال فوزي: معالم الحضارة الإسلامية ص١٦.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «انحلَّت العقدة الكبرى، عقدة الشرك والكفر، فانحلَّت العقد كلها، وجاهدهم رسول الله ﷺ جهاده الأوَّل، فلم يَحْتَجْ إلى جهاد مستأنف لكل أمر أو نهي، وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأُولَى، فكان النَّصر حليفه في كل معركة.. نزل تحريم الخمر والكئوس المتدفِّقة على راحاتهم، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمِّظة والأكباد المتقدة، وكُسِرَتْ دنان الخمر، فسالت في سِكَكِ المدينة! كلمة واحدة اجتثت عادة متأصِّلة في القوم، ورثوها كابرًا عن كابر ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[1]، قالوا: انتهينا ربنا، انتهينا ربنا... بينما حاولت أمريكا أن تُحَرِّمَ الخمر، واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة؛ كالمجلات، والجرائد، والمحاضرات، والصور، والسينما لبيان مضارِّها، وأنفقت ما يزيد على ٦٠ مليون دولارٍ ضدَّها، وطَبَعَتْ حوالي عشرة بلايين صفحة، وتحمَّلَتْ لتنفيذ القانون حوالي ٢٥٠ مليون دولار، وأَعْدَمَتْ ثلاثمائة نفس، وسَجَنَتْ ما يزيد على نصف مليون، وصادرت من الممتلكات بحوالي أربعمائة مليون وأربعة ملايين دولار، ومع هذا لم يزد الشعب الأمريكي إلاَّ معاقرة للخمر؛ ممَّا اضطر الحكومة إلى إباحته سنة (١٩٣٣م)، والسبب بسيط؛ أن التنفيذ للأوامر لم يكن ناتجًا عن الاعتقاد»[2].

وعلى هذا تكون حضارة الإسلام قد أغنت الإنسان بعقيدة صافية نقية، سهلة، سائغة، حافزة للهمم، باعثة للحياة، فتخلَّص من كل خوف ووَجَلٍ، وصار لا يخاف أحدًا إلاَّ الله، وعَلِمَ عِلْمَ اليقين أنه وحده سبحانه وتعالى هو الضارُّ والنافع، والمعطي والمانع، وأنه وحده الكفيل لحاجات البشر، فتَغَيَّرَ العالم كله في نظره بهذه المعرفة الجديدة، والاكتشاف الجديد، وصار مصونًا عن كل نوع من العبودية والرقِّ، وعن كل رجاء وخوف من المخلوق، وعن كل ما يُشَتِّتُ البال ويشوش الأفكار، فقد شعر بوَحدة في هذه الكثرة، واعتبر نفسه أشرف خَلْق الله، وسيد هذه الأرض، وخليفة الله بها، يُطيع ربه وخالقه، وينفِّذ أوامره، ويحقِّق بذلك هذا الشرف الإنساني العظيم، والعظمة الإنسانية الخالدة، التي حرمتها الدنيا منذ زمن بعيد.

---

(١) (المائدة: ٩١).

(٢) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص٩٠، وهامش ص٦٨.

إنها الحضارة الإسلامية التي أتحفت الإنسانية بهذه التحفة النادرة - عقيدة التوحيد - التي كانت مجهولة، مغمورة، مظلومة، مغبونة أكثر من أي عقيدة في العالم، ثم ردَّدَ صداها العالم كله، وتأثَّرت بها الفلسفات والدعوات العالمية كلها في قليل أو كثير، فاضطرت بعض الديانات الكبيرة التي نشأت على الشرك وتعدُّد الآلهة وامتزجت به لحمًا ودمًا أن تعترف - ولو بصوت خافت وهمسة في الآذان - بأن الله واحد لا شريك له، وأُرْغِمَتْ على تأويل معتقداتها المشركة تأويلاً فلسفيًّا، يُبَرِّئُها من تهمة الشرك والبدعة، ويجعلها متشابهة بعقيدة التوحيد في الإسلام، وبدأ رجالها وسَدَنَتُهَا يَسْتَحْيُون من الاعتراف بالشرك، ويخجلون من ذِكْرِه، وأُصيبت هذه الأنظمة المشركة كلها (بمُرَكَّبِ النقص) والشعور بالصغار والهوان.. فكانت هذه التحفة أغلى التحف التي سَعِدَتْ بها الإنسانية بفضل إسهام حضارة الإسلام وبعثة الرسول ﷺ[1].

(١) انظر: أبو الحسن الندوي: الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية ص٢١ - ٢٤.

الفصل الثاني

تطوير العلوم المتداولــــة

في هذه الناحية التي تعني بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، كانت هناك علوم كثيرة متداولة قبل حضارة المسلمين، عرفتها الشعوب المفتوحة وغيرها، وقد كان للحضارات السابقة فيها آثار طيبة، انتفع بها المسلمون، واقتبسوا منها ما يتناسب وعقيدتهم وثقافتهم، ثم كانت لهم الإضافات الباهرة التي تركت بصمتهم على هذه العلوم وإلى اليوم.

ولعلَّ أبرز هذه العلوم تلك التي في المباحث التالية:

- المبحث الأول: علم الفلسفة
- المبحث الثاني: علم التاريخ
- المبحث الثالث: علم الأدب

المبحث الأول

علم الفلسفة

كلمة الفلسفة كلمة يونانية الأصل، وهي تتكون من مقطعين يونانيين هما: (philien) ومعناه: (يحب). و(sophia) ومعناه: (الحكمة)، وعلى هذا يكون الفيلسوف (philosopher) هو: الشخص الذي يحبُّ الحكمة، أو هو: (محبُّ الحكمة) [١].

وقد عرّف الفلاسفة المسلمون الفلسفة تعريفات عِدَّة، منها ما ذكره الكندي بقوله: «إنها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان؛ لأن غرض الفيلسوف في علمه إصابة الحق، وفي عمله العمل بالحق» [٢].

وعلم الفلسفة لم يظهر ولم يعرفه المسلمون إلا بعد حركة الترجمة، وبالتحديد في العصر العباسي الأول؛ وقد مهَّدَ لذلك وجود كتب فلاسفة اليونان منتشرة في مناطق البحر الأبيض بين الإسكندرية وأنطاكية وحَرَّان، فضلاً عن أن المأمون كان يُرَاسِل ملوك الروم - وهم البيزنطيون - ليحصل على الكتب والمخطوطات، لا سيما كتب الفلسفة؛ إذ كانت القسطنطينية - عاصمة الروم - تُعْرَفُ بمدينة الحكمة [٣]، فبعث إليه الروم بكتب الفلسفة وغيرها. كما استجاب للمأمون مهرة التراجمة، فقاموا بتعريبها، أو نقلها بنصوصها عن طريق الترجمات السريانية؛ إذ إن السريان قبل مجيء المسلمين كانوا قد ترجموا كتبًا كثيرة في الفلسفة اليونانية، وقد كان من أشهر مترجميهم: سرجيوس وسفرونيوس وسويرس [٤].

وما إن تُرجمت الفلسفة اليونانية - مع غيرها من علوم اليونان - وأصبحت في حوزة المسلمين، حتى اختلفوا في موقفهم منها؛ فمنهم من وقف منها موقف الرفض والمعارضة، ونظر إليها على أنها باب إلى الضلال والفساد، وهذا هو موقف المتشددين من الفقهاء. ومنهم من وقف موقفًا وسطًا يقوم على النقد والتمحيص، فيأخذ منها ما يراه

---

(١) انظر: يحيى هويدي: مقدمة في الفلسفة ص٢٢.

(٢) رسائل الكندي الفلسفية ١/ ١٧٢.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٧/ ٨٧.

(٤) انظر: عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٢٢٠، ٢٢١.

حقًّا، ويرفض ما يراه باطلاً، وهذا هو موقف المعتزلة وكثير من الأشاعرة من أمثال الغزالي الذي ميز بين ثلاثة أقسام فيها: «قسم يجب التكفير به، وقسم يجب التبديع به، وقسم لا يجب إنكاره أصلاً»[١]. ومنهم من وقف منها موقف الإعجاب والتقدير، فعكف على دراستها، وحاول محاكاتها، والتأليف على نمطها، وهذا هو موقف الكندي وأتباعه[٢].

وإذا كان من علماء المسلمين، سواء في المشرق العربي أو المغرب والأندلس، مَنْ وَجَّهُوا جانبًا من عنايتهم للفلسفة اليونانية - كما في المثال الأخير - وعَبَّرُوا عن إعجابهم الشديد بها؛ فإنهم مع ذلك لم يكونوا - كما حاول بعض المستشرقين تصويرهم - مجرَّد حفظة للتراث اليوناني، أو قنطرة عَبَرَ عليها هذا التراث من اليونانية القديمة إلى أوربا في العصور الوسطى وما أعقبها من عصور. ومَنْ يَقِفُ على تراث الكندي، أو الفارابي، أو ابن سينا، أو ابن رشد - مثلاً - فإنه سوف يكتشف أن هؤلاء الفلاسفة - حتى في شروحهم وتلخيصاتهم للفلسفة اليونانية - كانت لهم ابتكاراتهم التي تكشف عن أصالتهم؛ وذلك أمر لا يحتمل الإنكار، إلا أن يكون ممَّن تأصَّلت فيهم نزعة التعصب المقيت، والبُغض لكل ما هو شرقي أو إسلامي. ولعلَّ من أبرز مظاهر الأصالة في فلاسفة هذا الميدان ما يتجلَّى في نتاج محاولاتهم التوفيق بين الفلسفة والدين، أو بين العقل والوحي، وهي المحاولات التي سبقتها جهود أخرى للتوفيق بين أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق. م) ذي النزعة المثالية الصوفية - كما فهموه - وبين أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م) صاحب الاتجاه العقلي[٣].

وقد تجلى إسهام المسلمين الواضح في علم الفلسفة في تفنيد ما في كتب ومؤلَّفات اليونان من معلومات، وتصحيح ما فيها من أخطاء، والربط بين ما جاء في أطرافها من معارف متناثرة وشذرات متباعدة، وإضافة شروح وافية لها، ثم إضافة الجديد من المعلومات التي تَوَصَّل إليها علماء المسلمين ولم يعرفها غيرهم من السابقين، فكان أن تَعَدَّدَتْ جوانب التفكير الفلسفي في الإسلام، وكان من أهمها: علم الكلام، والتصوف، والفلسفة الإسلامية الخالصة، وهذه نُبذة مختصرة من كل منها.

---

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال ص١٠١.

(٢) انظر: عبد المقصود عبد الغني: في الفلسفة الإسلامية ص٢٢، ٢٣.

(٣) انظر: حامد طاهر: مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ص٢١.

١- علم الكلام:

يعدُّ هذا العلم باكورة من بواكير العقلية الإسلامية، وهو كما يعرفه ابن خلدون: «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والردّ على المبتدعة المنحرفين»[(١)].

وهذا العلم يعتبر خالصًا للمسلمين؛ على الأقل في نشأته، فقد نشأ من أجل الدفاع عن العقائد الدينية وتفسيرها أو تأويلها تأويلاً عقليًّا عندما ظهر الضلال والزندقة، ومن خلال هذا العلم ظهرت المذاهب الفلسفية الكبرى، وظهر عمل المسلمين الباهر في تفسير الكون واكتشاف القوانين الطبيعية، وتوصلهم إلى مفهوم للوجود والحركة والعلة، يخالف مفهوم اليونان ويسبقون به مفكري أوربا المحدثين وفلاسفتهم[(٢)].

ولعل اهتمام المتكلمين في منهجهم بالنظر والعقل هو ما حدا ببعض المستشرقين أن يعتبروا علم الكلام مناط ابتكار في التفكير الفلسفي الإسلامي، ودليلاً على أصالةٍ فكرية لدى المسلمين، وفي ذلك يقول المستشرق الفرنسي رينان: «أما الحركة الفلسفية الحقيقية في الإسلام فينبغي أن تُلتمس في مذاهب المتكلمين»[(٣)].

٢- التصوف:

يعتبر التصوف ميدانًا من ميادين التفكير الفلسفي الإسلامي؛ لأنه وإن كان في جوهره تجربة روحية يعانيها الصوفي، فإن الفكر يمتزج بالواقع، والعلم يمتزج بالعمل في هذه التجربة، وهو بذلك ليس فلسفة خالصة تهتم بالبحث العقلي النظري في طبيعة الوجود بقصد الوصول إلى نظرية ميتافيزيقية متكاملة وخالية من التناقض، ولكنه فلسفة خاصة في الحياة تمتزج فيها العاطفة بالفكر، والعقل بالقلب، تهدف إلى إدراك الوجود الحق. ومن هنا كان في التصوف آراء ومذاهب ونظريات تعتبر ثمرة لتكامل الطاقات

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٤٥٨.

(٢) انظر: علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١/ ٣١، وعبد المقصود عبد الغني: في الفلسفة الإسلامية ص٢٤.

(٣) انظر: أبو الوفا التفتازاني: دراسات في الفلسفة الإسلامية ص١٨.

الإنسانية الثلاث: العقل والوجدان والسلوك[(١)].

وينبغي أن نشير هنا إلى أن التصوف من حيث هو استبطان منظم للتجربة الدينية - أيًّا كانت - ولنتائج هذه التجربة في نفس الرجل الذي يمارسها، فهو بهذا الوصف ظاهرة إنسانية ذات طابع روحي لا تحده حدود زمانية أو مكانية، وليس وقفًا على أمة من الأمم أو جنس من الأجناس البشرية[(٢)].

٣- الفلسفة الخالصة:

وهي فلسفة الذين أعجبوا بالفلسفة اليونانية وعكفوا على دراستها وشرحها وتحليلها وألفوا على نمطها، من أمثال: الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن باجة[(٣)] وابن طفيل[(٤)].. هذه الثُلَّة من الفلاسفة المسلمين الذين كانوا منارة استضاءت بها الدنيا والحضارة الغربية. وهذه نُبذة من حياة بعضهم:

١) الكندي:

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الكوفي (١٨٥-٢٥٦هـ/ ٨٠٥-٨٧٣م)، يعدُّه الكثيرون مؤسِّسَ الفلسفة العربية الإسلامية، وقد استحقَّ عن جدارة ومقدرة لقب: (فيلسوف العرب)؛ حيث خَلَفَ مؤلَّفاتٍ تربو على المائتين في مختَلَفِ العلوم، كان من أهمها في الفلسفة كتابه القيِّم: (الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد).

وقد وضع الكندي اللبنة الأولى في توضيح مشكلة حرية الإرادة توضيحًا فلسفيًّا، فلاحظ أن الفعل الحقيقي ما كان وليد قصدٍ وإرادة، وأن إرادة الإنسان قوَّة نفسية تُحَرِّكها الخواطر والسوانح، وهو من المؤمنين بالسببيَّة، كما أنه يؤكِّد فكرة العناية الإلهية التي

---

(١) انظر: عبد المقصود عبد الغني: في الفلسفة الإسلامية ص٢٥.

(٢) انظر: أبو العلا عفيفي: التصوف الثورة الروحية في الإسلام ص٥٦.

(٣) ابن باجة الأندلسي: هو أبو بكر محمد بن يحيى بن باجة (ت ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م)، فيلسوف مولع بالطبيعيات والفلك والطب والشعر. من كتبه: «اتصال العقل». انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٤٢٩.

(٤) ابن طفيل: أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي، (٤٩٤ - ٥٨١ هـ/ ١١٠٠ - ١١٨٥م)، طبيب وفيلسوف وشاعر عمل في بلاط الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف، صاحب قصة حي بن يقظان. انظر الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٤٩.

يخضع الكون بمقتضاها لسُنَنٍ ثابتة[١].

وكان للكندي كذلك اهتمام بالرياضيات والفلك، وقد وضع كتبًا في الطب والأدوية، وله أيضًا آثار في الجغرافيا، والكيمياء، والميكانيكا، وكذلك الموسيقى، وقد عَدَّه بعض المستشرقين واحدًا من اثنتي عشرة شخصية تُمَثِّل قمَّة الفكر الإنساني[٢].

٢) الفارابي:

وهو أبو نصر محمد بن طرحان الفارابي (٢٥٩-٣٣٩هـ/ ٨٧٢-٩٥٠م)، ويُعَدُّ من أكبر فلاسفة المسلمين، ويُعْرَف بالمعلِّم الثاني لدراسته كتب أرسطو - المعلم الأول - وشرحه لها، وعلى يده وَصَلَتِ الفلسفة الأرسطوطاليسية إلى أقصى ما وصلت إليه من ازدهار، وقد اشتهر بين الأوربيين باسم (Alpharabius)؛ فبفضل شروحه وأفكاره وأسلوبه تمكَّن من تقريب الفلسفة اليونانية إلى الفكر الإسلامي؛ ممَّا لم يُعْرَفْ قَبلاً على يد الكندي[٣].

ومن أشهر كتب الفارابي وأهمها كتابه: (آراء أهل المدينةِ الفاضلة)، الذي شرح فيه نظام المجتمع الإنساني الأمثل، وحاول أن يُفَسِّرَ نواحي الإسلام المختلفة وجوانب الثقافة العربية الإسلامية المتعدِّدَة في ضوء فلسفته الخاصة، فبحث في علم الكلام والعقيدة والفقه والتشريع.. وقد نُقِلَتْ كتبه إلى اللاتينية في العصور الوسطى، وطُبِعَتْ في باريس سنة (١٦٣٨م)، فكان لها أثرٌ فلسفي عظيم على أوربا[٤].

٣) ابن سينا:

وهو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠-٤٢٨هـ/ ٩٨٠-١٠٣٧م)، اشتهر بالشيخ الرئيس، وعُرِفَ بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي، ولم تَقِلّ شهرته كطبيب عن شهرته كفيلسوف، وقد عَدَّه سارتون من أعظم علماء الإسلام، ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين.

---

(١) إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية ٢/ ١٤٤.
(٢) انظر: قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي ص٢٧، وفوقية محمود: مقالات في أصالة المفكر المسلم ص٤٩.
(٣) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٢٢٤.
(٤) رحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٨٨.

ولابن سينا في الفلسفة مؤلَّفات كثيرة تشهد ببراعته في صناعة الفلسفة وتطوُّرِها على يديه، وقد تُرْجِمَ بعضها إلى اللغات الأوربية، ومن أهمِّ مصنفاته الفلسفية: (الشفاء)؛ الذي استوعب فيه علوم الفلسفة، يليه (النجاة)؛ وهو مختصر (الشفاء)، و(الإشارات والتنبيه)، وتِسْع رسائل في الحكمة، وغير ذلك[1].

صورة (٢٠) كتاب الشفاء لابن سينا

٤) ابن رشد:

وهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الأندلسي (ت ٥٩٥هـ-١١٩٨م)، يُعَدُّ من أعظم فلاسفة المسلمين في الأندلس، ويُعْتَبَرُ من أعظم شُرَّاحِ فلسفة أرسطو، حتى إنه عُرِفَ باسم (الشارح)، فهو الذي مَيَّز بين تعاليم أرسطو وأفلاطون، كما تَمَيَّزَ بالتمحيص الكبير، حتى إنه لم يرتضِ كثيرًا من آراء أرسطو التي لا تَتَّفِقُ مع الدين.

وقد اقتبس الغرب فلسفة ابن رشد بكاملها، ففتحت أمام الفكر الفلسفي الأوربي الوسيط بابَ البحث والمناقشة، فنشأ بينهم مذهب (الرشدية) للأخذ بالعقل عند البحث. ومن تآليفه المهمَّة: (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال)، و(مناهج الأدلة في عقائد الملة)[2].

وإجمالاً فإن الفلسفة الإسلامية تعتبر اطِّرادًا واستمرارًا للفكر الإنساني، بل وتقدمًا له في بعض النواحي؛ حيث أخذت ما أخذت عن الفلسفات القديمة، ثم ساهمت في تنقيحها وإضافة الجديد إليها، ومهدت لما بعدها من فلسفات أخرى، فدفعت الفلسفة المسيحية دفعة قوية، وبعثت النهضة الأوربية وغذَّت رجالها في العصر الحديث.

---

(١) انظر: عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٢٢٥.

(٢) المصدر السابق ص٢٢٧، ورحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٨٨.

ويمكن تبين أثر الفلسفة الإسلامية من الناحية الموضوعية في أنها أثارت في أوربا موضوعات ومشكلات كثيرة نالت اهتمامًا في الجامعات والمعاهد، ودارت حولها بحوث ودراسات، وعالجتها كتب ومؤلفات، وشغلت البيئات الثقافية على اختلافها، من ذلك موضوع النفس وحقيقتها، ونظرية المعرفة، ومشكلة قِدم العالم، ونظرية الفيض أو الصدور، وصفات الباري، ومشكلة العناية الإلهية، والخير والشر، ومشكلة الوجود والماهية أو الممكن والواجب، إلى آخر هذه المسائل[1].

* * *

(١) انظر: عبد المقصود عبد الغني: في الفلسفة الإسلامية ص٨٨.

المبحث الثاني

علم التاريخ

لا ريب أن علم التاريخ بدأ مع بداية وجود المجتمع الإنساني نفسه منذ بدأ الإنسان يسجِّل مظاهر حياته بشكل أو بآخر، مبتكرًا بذلك مجالاً جديدًا لمعرفة الإنسان بذاته. ولا شَكَّ أن هذا النمط المعرفي قد جاء تلبيةً لحاجات اجتماعية فَرَضَتْ نفسها منذ البداية على الجماعات الإنسانية، ومِن ثَمَّ من الجائز أن نُقَرِّرَ أن للتاريخ وظيفة اجتماعية؛ من حيث إنه يُلَبِّي حاجة الجماعة البشرية إلى معرفة ذاتها[١].

يقول ابن خلدون: «فإن فنَّ التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال، وتشدُّ إليه الركائب والرحال، وتَسْمُو إلى معرفته السُّوقَة والأغفال[٢]، وتتنافس فيه الملوك والأقيال[٣]، وتتساوى في فهمه العلماء والجُهَّال؛ إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبارٍ عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأُوَل، تنمو فيها الأقوال، وتُضْرَبُ فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصَّها الاحتفال، وتؤدِّي لنا شأن الخليقة كيف تقلَّبت بها الأحوال، واتَّسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال. وفي باطنه (أي في باطن علم التاريخ للمتبحِّرِينَ) نظرٌ وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعِلْمٌ بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق؛ فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعَدَّ في علومها وخليق»[٤].

وقد جاء في تعريف علم التاريخ أنه: «معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم، ورسومهم وعاداتهم، وصنائع أشخاصهم، وأنسابهم ووفَيَاتهم، إلى غير ذلك. وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والملوك والشعراء وغيرهم. والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية. وفائدته العِبرة بتلك الأحوال والتنصح بها،

---

(١) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ ص٩.

(٢) أغفال مفردها غُفْل: وهو الذي أُغْفِل فلا يرجى خيرُه ولا يخشى شرّه، والذي لم تَسِمْهُ التجارب. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة غفل ١١/ ٤٩٧، والمعجم الوسيط، مادة غفل ١/ ٦٥٧.

(٣) الأقيال مفردها القَيْل: وهو المَلِك عامَّة، أو من ملوك حِمْير يتقيَّل مَنْ قبله من ملوكهم. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة قيل ١١/ ٥٧٢.

(٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٣، ٤.

وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن؛ ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار، ويستجلب نظائرها من المنافع. وهذا العلم عمر آخر للناظرين، والانتفاع في مصره بمنافع تحصل للمسافرين»[١].

هذا وقد اتَّصف علم التاريخ الإسلامي بالأصالة والاستقلال؛ لنشوئه من داخل المجتمع الإسلامي تلبية لحاجات هذا المجتمع وأغراضه، ولم يكن التاريخ الإسلامي ظلاً لما عند الآخرين أو اقتباسًا لأعمالهم التاريخية وأفكارهم عنه. كما كان تلبية لشعور المؤرِّخِينَ الديني، ومُتَمِّمًا للعلوم الدينية، وكان التقويم الهجري الأساس الذي اتَّخذه التاريخ الإسلامي في تسجيل أحداثه وتحديد أزمانه[٢].

وقد كان العرب في جاهليتهم وأوائل الإسلام يحفظون التاريخ في ذاكرتهم، ولم يقوموا بتدوينه، ولم يكن ذلك لأنهم كانوا يجهلون الكتابة؛ ولكن لتحبيذهم الحفظ على الكتابة؛ إذ إنَّ مَلَكَةَ الكتابة لم تكن وقتذاك لتُعْطي صاحبها تفوُّقًا في المجتمع أكثر ممَّا تعطيه مَلَكَة الحفظ، فكان تاريخ العرب الأوَّل - وهو عبارة عن وقائع وأيام وغزوات - محفوظًا في الذاكرة يُرَدِّدُونَه على ألسنتهم. ولكن بعد أن ابتعد العرب المسلمون عن بيئتهم، وتفرَّقُوا في الأرض للفتح والغزو بين شعوب لا تَتَكَلَّمُ لغتهم، ضعفت ملكة الحفظ عندهم، وظهرت الحاجة إلى التدوين؛ ففي أواخر القرن الثاني الهجري كان المسلمون في حاجة مُلِحَّة إلى ضبط ونقل أحاديث النبي ﷺ والسِّيَرِ والأحوال؛ وكان هذا بداية تدوين التاريخ الإسلامي. وإن كان التدوين في التاريخ الإسلامي لم ينتشر إلاَّ حينما أَقْبَلَ أهلُ البلاد المفتوحة على الإسلام، وأقبلوا على تَعَلُّم العربية؛ حيث كانت حضارتهم السابقة تساعدهم على تذوُّق التاريخ، فكان معظم المؤرخين الأوائل في الإسلام هم المستعربين من العجم[٣].

ويمكن القول بأن الدراسات التاريخية الإسلامية قامت في البداية على سيرة الرسول ﷺ وأخبار غزواته ومن اشترك فيها من الصحابة، وأخبار هجرة المسلمين الأوائل إلى

(١) القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ١٣٧، ١٣٨.
(٢) انظر: روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين ص٢٦٧، وأحمد أمين: فجر الإسلام ص١٥٦-١٦٢.
(٣) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٢١١، ٢١٢.

الحبشة ثم إلى المدينة المنورة، وكانت مكة والمدينة المركز الرئيسي لنشاط هذه الحركة التاريخية. وكان المؤرخون يعتمدون على الروايات الشفهية كما كان يفعل المحدِّثون؛ مما يدل على أن التاريخ الإسلامي سلك في بدايته الطريقة نفسها التي سلكها علم الحديث؛ فكان الخبر التاريخي على هذا النحو يتألف من رواة الخبر على التتالي، وهو ما يُعرف بالسند أو الإسناد، ثم نَصّ الخبر ويسمى المتن. وبهذا تعدّ كتب المغازي والسيرة أقدم الكتب التاريخية التي تجمع بين الحديث والتاريخ، وكان سبب الاهتمام فيها هو اهتمام المسلمين بأقوال الرسول ﷺ وأفعاله؛ للاهتداء بها والاعتماد عليها.

وقد ظهر بذلك أسلوبان في تدوين التاريخ عند المسلمين؛ الأوَّل: هو أسلوب المحدِّثِينَ الذي ظهر واضحًا في تاريخ السيرة النبوية التي نشأت في المدينة المنورة، وتميَّز أسلوبها بذِكْرِ الخبر مع إسناده. أمَّا الأسلوب الثاني: فهو أسلوب الإخباريين الذي تميَّز بإعطاء صورة كاملة عن الواقعة التاريخية، وذِكْرِ التفاصيل، ورواية الشعر والخطب، وقد ظهر هذا الأسلوب في الكوفة. ثم ظهر بعد ذلك الجمع بين الأسلوبين، كما ظهرت مدارس أخرى للتاريخ تميزت بتناول الموضوعات الخاصة بالمعارك والفتوح الإسلامية ودراسة الأنساب.

وكان من أشهر الإخباريين: أبان بن عثمان بن عفان[1]، ومحمد بن شهاب الزُّهري، وابن إسحاق[2]، وعوانة بن الحكم الكلبي[3]، وسيف بن عمر الكوفي[4]، والمدائني[5] الذي يُعَدُّ من أهمِّ الإخباريين؛ وذلك لاعتماده على الإسناد أكثر من غيره، واتِّبَاعِه أسلوب المُحَدِّثِينَ في نقد الروايات وتمحيصها وتنظيمها.

---

(١) أبان بن عثمان: هو أبان بن عثمان بن عفان الأموي القرشي (ت ١٠٥هـ/ ٧٢٣م)، أول من كتب في السيرة النبوية، وهو ابن الخليفة عثمان ﷺ، مولده ووفاته في المدينة. انظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب ١/ ٨٤.

(٢) ابن إسحاق: هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت ١٥١هـ/ ٧٦٨م) من أقدم مؤرخي العرب، من أهل المدينة. من أشهر مصنفاته: (السيرة النبوية) الذي هذّبه ابن هشام. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٦، ٢٧٧.

(٣) عوانة الكلبي: هو أبو الحكم عوانة بن الحكم بن عوانة بن عياض (ت١٤٧هـ/ ٧٦٤م) علامة إخباري، أحد الفصحاء، له كتاب: «التاريخ»، وكتاب «سير معاوية وبني أمية»، وغير ذلك. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٠١.

(٤) سيف بن عمر: هو سيف بن عمر الأسدي الكوفي (ت ٢٠٠هـ/ ٨١٥م) من أصحاب السير، اشتهر وتوفي ببغداد. من كتبه: «الجمل» و«الفتوح الكبير». انظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب ٤/ ٢٥٩.

(٥) المدائني: هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله (١٣٥- ٢٢٥ هـ/ ٧٥٢- ٨٤٠م) رواية مؤرخ، كثير التصانيف، من أهل البصرة، من كتبه (أخبار قريش). انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٠٠-٤٠٢.

أمَّا أهمّ مناهج الكتابة التاريخية عند المسلمين، فقد تمثَّلت في التالي:

أ- كتب السيرة النبوية ومغازي الرسول ﷺ:

حيث دفع اهتمامُ المسلمين بأقوال الرسول ﷺ وأفعاله - للاهتداء بها، والاعتماد عليها في التشريع الإسلامي والنظم الإدارية - الكُتَّابَ إلى التصنيف في سيرة الرسول ﷺ، ويمكن تقسيم رواة السيرة وكتبهم حسب تَقَدُّمهم الزمني إلى ثلاث طبقات؛ الأولى: من أبرز رجالها: عروة بن الزبير بن العوام وهو تابعي (ت ٩٢هـ)، وأبان بن عثمان بن عفان، الذي ترك وراءه صُحُفًا تضمُّ شذرات من حياة الرسول، وشرحبيل بن سعد[(١)]. ومن رجال الطبقة الثانية محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، ويُعَدُّ من أعظم مؤرِّخي المغازي والسيرة. أمَّا الطبقة الثالثة فمن أشهر رجالها محمد بن إسحاق، وتُنسب إليه أقدم كتب السيرة التي وصلتنا.

ب- كتب الطبقات:

عَرَفَتِ الثقافة التاريخية الإسلامية منذ وقت مُبَكِّر كتب الطبقات، وهي تلك التي تتعلَّق بتدوين الحديث الشريف وتوثيقه؛ فأدَّى ذلك إلى النظر في أسانيد الحديث، وأحوال الرواة، ومِن ثَمَّ ولادة فكرة الطبقات نفسها.

فقد كان على علماء الحديث أن يهتموا بوضع معايير تسمح بقبول وتصحيح نص حديث الرسول ﷺ، وقد انصبَّتْ تلك المعايير على الجانب الخُلُقي في الراوي، وعلى مدى صدقه وتقواه، وأضافوا إليها تقصيًا عن البيئة الأسرية للرواة، وطبيعة ارتباطهم بالنبي ﷺ، والمدة التي قضوها معه، وعلاقاتهم بصحابته المقربين، أو بخلفائه الراشدين. كما ركزوا على حدوث لقاء فعليّ أو محتمل، وحرصوا على معرفة تاريخ الولادة والوفاة لكل واحد من الأعلام المذكورين في سلسلة الإسناد.

ومن ثَمَّ كان الإسناد في الحديث سببًا في ظهور التراجم التي تضم تفصيلات عن كل واحد من رجال السند، ولما كان ينبغي ترتيب أولئك الرجال على طبقات متتالية،

---

(١) شرحبيل بن سعد: هو شرحبيل بن سعد الخطمي المدني (ت١٢٣هـ/ ٧٤٠م) عالم بالمغازي والبدريين، كان يفتي ويروي الحديث، وفي روايته ضعف. انظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب ٤/ ٢٨٢.

والتركيز على المعاصرة، والعلاقات المشتركة، وطبيعة تلك العلاقات؛ سعيًا لتسلسل الإسناد إلى النبع الذي هو النبي ﷺ، كانت ولادة فكرة الطبقات، والتي قدَّمتْ رجال السند تحت تصنيفات متعددة[١].

صورة (٢١) كتاب طبقات الشافعية للسبكي

وعليه فقد ظهرت الطبقات في مجالات شتى؛ منها: كتب طبقات المحدِّثين، وطبقات الحُفَّاظ، وطبقات الفقهاء، وطبقات الشافعية، وطبقات الحنابلة، وطبقات القُرَّاء، وطبقات المفسِّرين، وطبقات الصوفية، وطبقات الشعراء، وطبقات النحويين، وطبقات الأطباء. ومن أشهر كتب الطبقات: (الطبقات الكبرى) لمحمد بن سعد الزهري[٢]، و(طبقات الشعراء) لمحمد بن سلام الجمحي[٣]، و(طبقات الأطباء) لأحمد بن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ)، وغيرهم.

ج- كتب التراجم:

وهي مصنَّفات تَعْرِضُ لسير حياة مشاهير الناس الذين تجمعهم صفة الشهرة في مجال تخصُّصِهِمْ وبشكل موسوعي، وتتناول العلماء، والأدباء، والقادة، والخلفاء، وغيرهم، وأشهرها: (معجم الأدباء) لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، و(أُسْد الغابة في معرفة الصحابة) لابن الأثير، و(وفَيَات الأعيان) لأحمد بن محمد بن إبراهيم بن خِلِّكان (ت ٦٨١هـ)، وهو من أشهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطًا وإحكامًا، و(فوات الوفَيَات)

---

(١) انظر: محمد خير محمود البقاعي: التأليف في طبقات المالكية في التراث العربي.. دراسة تاريخية وصفية ص٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) ابن سعد: هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري (١٦٨- ٢٣٠هـ/ ٧٨٤- ٨٤٥م) مؤرخ ثقة، من حفّاظ الحديث. ولد في البصرة، وتوفي ببغداد. من أشهر كتبه: «الطبقات الكبرى». انظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب ٩/ ١٦١.

(٣) الجمحي: هو أبو عبد الله محمد بن سلّام الجمحي (١٥٠ - ٢٣٢هـ/ ٧٦٧- ٨٤٦م) إمام في الأدب، من أهل البصرة، مات ببغداد، من أشهر مصنفاته:(طبقات فحول الشعراء) . انظر: ياقوت الحموي: معجم الأدباء ص٢٥٤١.

لابن شاكر الكُتُبيّ[١]، و(الوافي بالوفيات) لمؤلفه صلاح الدين خليل الصفدي[٢].

د- كتب الفتوح:

وهي التي اهتمَّتْ بفتوح البلدان والأمصار مثل: كتاب (فتوح مصر والمغرب والأندلس) لابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ)، و(فتوح البلدان) للبلاذري[٣]، و(فتوح الشام) للواقدي[٤].

هـ - كتب الأنساب:

وتهتم بأنساب العرب وأصولهم، وقد كان للعرب ولعٌ خاصٌّ بهذا العلم؛ نظرًا للعصبية القَبَلِيَّة التي كانت متأصِّلَة فيهم قبل الإسلام، وكان من أشهر النسّابين: محمد بن السائب الكلبي صاحب كتاب (جمهرة النسب)، ومصعب الزبيري[٥] مؤلف كتاب (نسب قريش)، وكان هناك أيضًا (جمهرة أنساب العرب) لابن حزم الأندلسي.

و- التواريخ المحلية:

وهي المصنفات التاريخية التي كُرِّسَتْ لتاريخ بلد مُعَيَّنٍ بكثير من التفاصيل، ومن أشهرها: كتاب (ولاة مصر وقضاتها) لأبي عمر الكندي[٦]، وكتاب (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي، و(تاريخ دمشق) لعلي بن الحسن بن عساكر، ويقع في ثمانين مجلدًا،

---

(١) ابن شاكر الكُتُبيّ: هو صلاح الدين محمد بن شاكر الدمشقي (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) مؤرخ باحث، عارف بالأدب، ولد وتوفي بدمشق. من أشهر مصنفاته: (فوات الوفيات). انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٦/ ٢٠٣- ٢٠٥.

(٢) الصفدي: هو صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (٦٩٦- ٧٦٤هـ/ ١٢٩٦- ١٣٦٣م) أديب، مؤرخ، ولد في صفد (بفلسطين)، تولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، فتوفي فيها، من تصانيفه: (الوافي بالوفيات). انظر: شذرات الذهب ٦/ ٢٠٠-٢٠٣.

(٣) البلاذري: هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) مؤرخ، جغرافي، نسابة، له شعر، من أهل بغداد. من أشهر مصنفاته: «فتوح البلدان». انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٦.

(٤) الواقدي: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي (١٣٠- ٢٠٧هـ/ ٧٤٧- ٨٢٣م) من أقدم المؤرخين في الإسلام، ومن حفاظ الحديث، من كتبه (المغازي النبوية). انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤٨-٣٥٠.

(٥) مصعب الزبيري: هو أبو عبد الله مصعب بن عبد الله بن مصعب (١٥٦- ٢٣٦هـ/ ٧٧٣- ٨٥١م) علامة بالأنساب، غزير المعرفة بالتاريخ، كان ثقة في الحديث، شاعرًا، من كتبه (نسب قريش). انظر: الأصفهاني: شذرات الذهب ٢/ ٨٦، ٨٧.

(٦) أبو عمر الكندي: هو أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب (٢٨٣- بعد ٣٥٥ هـ/ ٨٩٦- بعد ٩٦٦م) مؤرخ، كان من أعلم الناس بتاريخ مصر وأهلها وأعمالها وثغورها، من أشهر كتبه: (الولاة والقضاة). انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ١٤٨.

وكتاب (البيان المُغْرِب في أخبار المغرب) لابن عذاري[١]، وكتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لجمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي[٢] (ت ٨٧٤هـ).

ز- كتب التواريخ العامَّة:

توسَّعت اهتمامات المؤرِّخين؛ فنشأت إلى جانب السير والتراجم مؤلَّفات أَرْحَب وأوسع وأشمل يُطْلَقُ عليها (التواريخ العامَّة)، التي تعني بكتابة التاريخ مسلسلاً وَفْقَ تعاقب السنين، ويُسَجِّل فيها المؤرِّخ تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة؛ مرورًا بالرسالات السماوية قبل الإسلام، والتاريخ الجاهلي، وعصر النبي ﷺ، والخلفاء الراشدين إلى التواريخ الإسلامية اللاحقة. ومن أشهر مؤلِّفي التواريخ العامة: محمد بن جرير الطبري، صاحب كتاب (تاريخ الرسل والملوك)، المشهور بتاريخ الطبري، وكتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) للمسعودي، وهو كتاب ذو طابع موسوعي، وكتاب (الكامل في التاريخ) ويُعْرَف بتاريخ ابن الأثير لمؤلفه عز الدين بن الأثير، وهو من أوثق مصادر التاريخ الإسلامي، وكتاب (البداية والنهاية) لابن كثير، وكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) المشهور بتاريخ ابن خلدون لمؤلفه أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون[٣].

وهناك صور أخرى كثيرة من صور الكتابة التاريخية التي أوصلها بعض المؤرخين إلى نحوٍ من ألف نوع من أنواع الكتابة التاريخية، وذكر الذهبي أربعين نوعًا؛ كان منها: السيرة النبوية، وقصص الأنبياء، وتاريخ الصحابة، والخلفاء، والملوك، والدول، والوزراء، والأمراء، والفقهاء، والقرَّاء، والحفَّاظ، والمحدِّثين، والمؤرِّخين، والنحاة، والأدباء، واللغويين، والشعراء، والعُبَّاد، والزهاد، والصوفيين، والقضاة، والولاة،

---

(١) ابن عِذَاري: هو أبو عبد الله محمد أو أحمد بن محمد المراكشي (ت نحو ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م) مؤرخ، أندلسي الأصل، من أهل مراكش. انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ٩٥.

(٢) ابن تغري بردي: هو أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (٨١٣- ٨٧٤هـ/ ١٤١٠- ١٤٧٠م) مؤرخ بحاثة، من أهل القاهرة مولدًا ووفاة. من مصنفاته: «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة». انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٢/ ١٠٠.

(٣) رحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٧٩-١٨١، وحكمت عبد الكريم فريحات وإبراهيم ياسين الخطيب: مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص١١١.

والمعلِّمين، والوعَّاظ، والأشراف، والأطباء، والفلاسفة، والبخلاء[١].

يقول فرانز روزنثال[٢]: «لا شكَّ أن كمية المؤلفات التاريخية الإسلامية كبيرة، وأن الحوليات البيزنطية وثيقة الصلة بالحوليات الإسلامية، غير أن التاريخ الإسلامي تميز عنها بتنوعه الكبير وكميته الهائلة. والواقع أننا قد نشك في وجود أي مكان في التاريخ الأول كانت فيه المؤلفات التاريخية تعادل في كثرتها ما للمسلمين. إن مؤلفات المسلمين التاريخية قد تعادل في العدد المؤلفات الإغريقية واللاتينية، ولكنها بالتأكيد تفوق في العدد مؤلفات أوربا والشرق الأوسط في العصور الوسطى، ولا شكَّ أنه لم يكن بالإمكان إخفاء مكانتها الممتازة في الحركة الأدبية الإسلامية عمّن اتصل بالعرب من علماء الغرب، غير أن هؤلاء العلماء اهتموا بالعلوم والفلسفة واللاهوت، وهم كأقرانهم من المسلمين الاعتياديين لم يسيغوا الرضوخ إلى درجة الإقرار بأية معرفة عن وجود مؤلفات تاريخية»[٣].

***

(١) انظر: روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين ص٥١٨-٥٢٢.

(٢) فرانز روزنثال: (١٩١٤- ١٩٧٥م) مستشرق أمريكي من أصل ألماني حاضر في العديد من الجامعات الكبرى، له «علم التاريخ عند المسلمين»

(٣) المصدر السابق ص٢٦٩، ٢٧٠.

المبحث الثالث

علم الأدب

عَرَف العرب علم الأدب قبل الإسلام، وإذا كان بالإمكان تَتَبُّع بداية آداب مثل اللاتينية والفارسية؛ فإنه لا يمكن تَتَبُّع بداية علم الأدب العربي؛ حيث إنه أقدم من النصوص التي وصلتنا، ومع أن المسلمين أخذوا من اليونان علومًا كثيرة، فإنهم لم يأخذوا شيئًا مهمًّا من أدبهم، على الرغم من روعة الأدب اليوناني. كما أن الأدب العربي لم يتأَثَّرْ بالطابع اليوناني، وإن اطّلعوا على بعض الكتب الأدبية اليونانية مثل كتاب الشعر لأرسطو، والإلياذة والأوديسا - ملحمتي اليونان المعروفتين - بل على العكس؛ فإن الأدب العربي كان له أثره في الآداب الأوربية - كما سنرى في موضعه - التي تَفَرَّعَتْ من الأدبين اليوناني واللاتيني، ولا ريب فإن الأدب يُعَبِّرُ عن رُوح الأُمَّة؛ فالأدب العربي هو كذلك من صميم الرُّوح العربية والإسلامية[1].

ويعرّف العلماء علم الأدب بأنه: معرفة ما يحترز به من جميع أنواع الخطأ في كلام العرب لفظًا وخطًّا. وغاية هذا العلم الإجادة في فني النظم والنثر، إضافةً إلى تهذيب العقل وتزكية الجنان[2]. يقول ابن خلدون: «وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم»[3].

وأصل كلمة أدب مجهول، فضلاً عن تطوُّرِها خلال العصر الإسلامي؛ بسبب أن العرب غَيَّرَتْ حياتها باتصالها بالبلاد المفتوحة التي كانت لها آداب سابقة، وبانتشار الإسلام بين أهالي هذه البلاد، فكان لكلمة أدب في أول عهد الإسلام معنى ديني يدلُّ على السُّنَّة، ثم أصبح يدلُّ على الأسلوب في أي عمل، ثم على الثقافة العامَّة، والأخذ من كل عِلْمٍ بطرف، وإن كان آخر الأمر اقتصر - بصفة عامَّة - على الإجادة في فَنَّي النظم والنثر[4].

أمَّا النَّظْم: فهو الشعر، وهو الكلام الموزون على رَوِيٍّ واحد، أي الحرف الأخير من

(١) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة ص١٩٧.
(٢) انظر: القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٤٤.
(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٥٥٣.
(٤) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة ص١٩٨.

القافية، ولِقِدَمِ الشعر عند العرب فقد اعْتُبِرَ من أعظم معارفهم، وقد وصلنا من الجاهلية بقواعده الموزونة، ونَظَمَهُ العرب بأنواعه المختلفة، التي سُمِّيَتْ فيما بعد: بالرجز، والقريض، والمقبوض، والمبسوط. وكان العربَ في الجاهلية يعقدون لشعرائهم الأسواق في مواعيد محدَّدة، يجتمع فيها العظماء لإلقاء قصائدهم، ومَنْ يَنْبُغُ منهم تُعَلَّقُ قصيدته بأركان الكعبة وتُسَمَّى مُعَلَّقَة.

وتتعدد موضوعات الشعر العربي فمنها: الفخر، والمديح، والهجاء، والرثاء، والوصف، والنسيب، والتشبيب، ومن أبرزها: المفاخرة، وتعني المباهاة والتمدُّح بالعصبية والقبليَّة من نَسَبٍ وحسب، وفي المصادر العربية أمثلة كثيرة من المفاخرات التي وقعت في الجاهلية بين شعراء القبائل، والتي كانت تؤدِّي إلى وقوع حرب وسفك دماء، حتى جاء الإسلام وَحَرَّمَ مثل هذه المفاخرات البغيضة، وقد كان من أشهر شعراء العرب الجاهليين: مهلهل، وامرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سُلمى، وعنترة بن شداد، وطَرَفَة بن العبد، وعلقمة الفحل، والأعشى، ولبيد بن ربيعة، كما كانت هناك شاعرات مشهورات مثل: هند، والخنساء[1].

وبمجيء الإسلام الذي حَرَّم التفاخر بالعصبية والقبلية التي كانت أهم موضوعات الشعر العربي، والتي أدت إلى تفرقة العرب والحرب فيما بينهم، نحا بالشعر منحًى جديدًا، إذ نظر إليه نظرة متوازنة، فعاب على الشعراء المنافقين ومدح الصادقين، فقال تعالى: **﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾**[2]. وقد قال الرسول ﷺ كما روى أُبيّ بن كعب ﷺ: **«إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً»**[3]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: **«إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر؛ فإنه ديوان العرب»**[4].

---

(١) انظر: عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة ص١٩٨-٢٠٠.

(٢) (الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧).

(٣) البخاري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه (٥٧٩٣)، وأبو داود (٥٠١٠)، والترمذي (٢٨٤٤)، وابن ماجه (٣٧٥٥).

(٤) المستدرك: كتاب التفسير، باب تفسير سورة (ن) (٣٨٤٥).

وقد أَيَّد الشعراءُ الدعوة الإسلامية، وشاركوا في معارك التحرير والفتوح، ومدحوا الرسول ﷺ والصحابة، وحَثُّوا المقاتلين على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، ورثُوا الشهداء المجاهدين، وكان من أبرز شعراء صدر الإسلام: كعب بن زهير (ت ٢٦هـ/ ٦٤٥م) صاحب البُردة، وأبو ذؤيب الهذلي (ت نحو ٢٧هـ/ ٦٤٨م)، وحسان بن ثابت (ت ٥٤هـ/ ٦٧٤م).

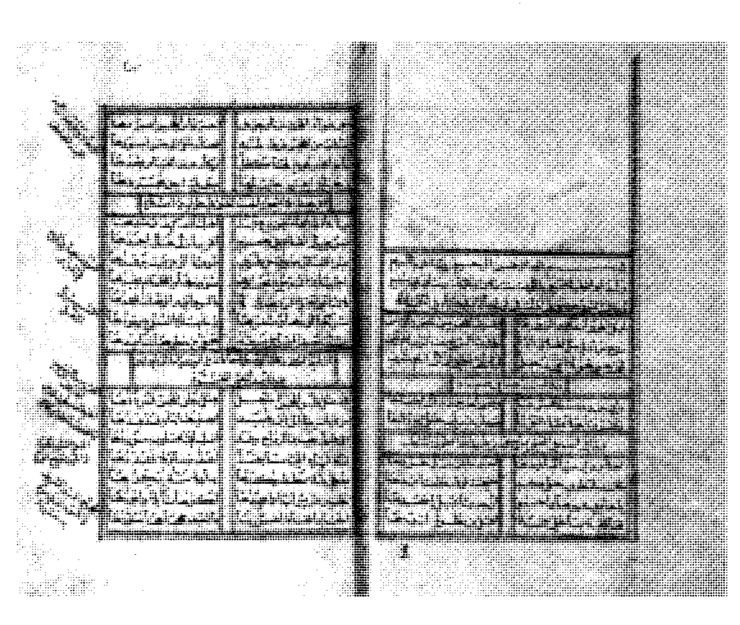
وفي العصر الأموي تطوَّرت أغراض الشعر، وأُدْخِلَت عليه فنونٌ جديدة تتَّصل بالعقيدة الإسلامية من خلال اهتمام الخلفاء والحكام بالشعر من جهة، وتطوُّر الحياة الاجتماعية من جهة أخرى، وظهور الأحزاب السياسية من جهة ثالثة، وارتقى الشعر في هذا العصر؛ وذلك لعناية الدولة وأمرائها لحاجتهم إليه، ولشدَّة تأثيره في الجماهير؛ فقد جعله الأمويون وسيلة لإذاعة محامدهم، وتأييد سلطانهم، وطعن زعماء خصومهم، وبخاصَّة الشيعة والخوارج والزبيريون. ومن أشهر شعراء الأمويين البارزين: أعشى ربيعة عبد الله بن خارجة (ت نحو ١٠٠هـ/ ٧١٨م)، وعدي بن الرقاع (ت ٩٥هـ/ ٧١٤م) شاعر الوليد بن عبد الملك، ومن فحول الشعراء الأمويين العراقيين الذين عاشوا في كنف الأمويين: جرير (ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م)، والفرزدق (ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م)، والأخطل (ت ٩٠هـ/ ٧٠٨م). وبَرَزَ من شعراء الأحزاب المناوئة للأمويين شعراء الشيعة وأبرزهم: أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ)، والكميت بن زيد (ت ١٢٦هـ)، ومن شعراء الخوارج: الطِّرِمَّاح بن حكيم (ت ١٠٠هـ)، ومن حزب الزبيريين: ابن قيس الرُّقَيَّات (ت ٧٥هـ). وظهر في هذا العصر شعراء الغزل بنوعيه العذري الذي امتاز بالبساطة والصدق والرصانة، وبرز فيه: جميل بثينة (ت ٨٢هـ)، وليلى الأخيلية (ت ٧٥هـ). والغزل الصريح، وقد اشتهر به عمر بن أبي ربيعة (ت ٩٣هـ) (1).

وقد شهد العصر العباسي ثورة ضخمة في الشعر - كَمًّا ونوعًا - من حيث: الموضوعات، والمعاني، والأساليب، والألفاظ، ونشأت فيه أغراض لم تكن موجودة سابقًا، وذهبت أخرى؛ فقد ضعف الشعر السياسي، والحماسي، والغزل العذري، وقَوِي

---

(١) رحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٧٣، ١٧٤.

شعر المدح والرثاء، وازداد الشعر الحكمي، وظهر الشعر الزهدي، والصوفي، والفلسفي، والتعليمي، والقصصي، وأسرف الشعراء المتأخِّرُون في استعمال ضروب البديع من جناس وطباق، واهتمُّوا بتزويق اللفظ، فازدهرت الحركة الشعرية والأدبية بفعل عملية الامتزاج بين المجتمعات والعناصر المختلفة، وانتقال الثقافات الأجنبية عن طريق الترجمة، وتبلُّور الخلافات السياسية والمذهبية بين الفرق الإسلامية بعضها مع بعضٍ من جهة، ومع غيرها من جهة أخرى، فضلاً عن تشجيع الخلفاء والحكَّام للشعراء في بغداد والمدن الأخرى، ولمع في سماء الأدب العباسي شعراء كبار؛ أمثال: بشار بن برد (ت ١٦٨هـ)، وأبو نواس (ت ١٩٨هـ)، وأبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٢٨هـ)، والبحتري (ت ٢٨٤هـ)، وابن الرومي (ت ٢٨٣هـ)، وأبو الطيب المتنبي (ت ٣٥٤هـ)، وأبو فراس الحمداني (ت ٣٥٧هـ)، وأبو العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ)[1].



صورة (٢٢) ديوان المتنبي

وفي الأندلس ابتكر الشعراء الأندلسيون الموشَّح، وطوَّرُوه، وتفَنَّنُوا في أساليبه، وكان الموشَّح خطوة كبيرة في تَطَوُّر شكل الشعر العربي، فقد أتاح للشاعر حرية التصرُّف في القوافي، وحرية التنوُّع في الوزن، وكان من نتائج انتشار الموشَّح انبعاث أدب الزجل الشعبي، يقول ابن خلدون: «وأمَّا أهل

(١) رحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٧٤.

الأندلس فلمَّا كثر الشعر في قطرهم، وتهذَّبَتْ مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية؛ استحدث المتأخِّرُون منهم فنًّا منه سمَّوْه بالموشَّحِ»[1]. ومن أشهر شعراء الأندلس ابن زيدون (ت ٤٦٣هـ)، وملك إشبيلية المعتمد بن عبَّاد (ت ٤٨٨هـ).

وأمَّا النثر: فهو الكلام غير الموزون، ولم يكن أقلَّ ثراءً وخصبًا من الشعر، وقد بدأ النثر في صدر الإسلام بسيطًا مباشرًا، مُوجَز العبارة، وبأشكال عديدة؛ منها: الرسائل، والخطب، والأحاديث، والأمثال، والقصص، وبتَقَدُّم الحياة الاجتماعية والعقلية تقدَّم النثر، وتنوَّعت مواضيعه، وتعدَّدت فنونه، فظهرت صنعة الكتابة، وتألَّقت في العصر الأموي، ومن كبار الكتاب الأوائل عبد الحميد الكاتب (ت ١٣٢هـ) الذي استوعب شروط الكتابة في رسائله المشهورة التي وَجَّهَهَا للكُتَّاب حتى قيل: «بدأت الكتابة بعبد الحميد، وانتهت بابن العميد».

وازدهر فنُّ الكتابة في العصر العباسي، ومن الذين اشتهروا في فنِّ الكتابة الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي طوَّر النثر المُرْسَل، ووسَّع آفاقه، وصار له إمامًا، وكذلك ابن المقفع (ت ١٤٢هـ). وبلغ النثر مداه في القرن الرابع الهجري، فاشتهر أبو حيان التوحيدي (ت نحو ٤٠٠هـ) بالسجع، وابن العميد (ت ٣٦٦هـ)، وغيرهم. ثم طغت بعد ذلك على النثر موجة الزخرفة اللفظية، والإسراف في التأنُّق على حساب دقَّة المعاني، ويظهر ذلك واضحًا في المقامات ورسائل بعض الكُتَّاب المتأخِّرين.

وتُعَدُّ الرسائل أحد أنواع النثر الفني؛ والرسائل نوعان: الرسائل الرسمية أو العامَّة، والرسائل غير الرسمية، وكانت الرسائل الرسمية في صدر الإسلام والعصر الأموي موجزة واضحة لا تَكَلُّف فيها، ثم أخذ كُتَّاب الدواوين في العصر العباسي يتأنَّقون في الرسائل، ومن أشهر كُتَّاب الرسائل: عبد الحميد الكاتب، وابن العميد، والصاحب بن عبَّاد، وغيرهم. أمَّا الرسائل الخاصَّة، أو الإخوانيات فهي التي يكتبها صديق إلى آخر؛ ومن أشهر كُتَّاب هذا النوع: الجاحظ وابن زيدون.

وثاني أشكال النثر العربي هو **الخطابة**، فقد اهتمَّ بها المسلمون بعد الشعر؛ لأنها كلام

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٥٨٣.

بليغ فيه الحماسة والخيال، وكان للخطابة شأن كبير في الجاهلية وصدر الإسلام؛ فكان العرب يُدَرِّبُون فتيانهم على الخطابة منذ صغرهم، وقد ضمَّت كتب الأدب العديد من الخطب البليغة، ومن أشهر خطباء العصر الراشدي الخليفة الرابع الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، وقد ضمَّ كِتَاب (نهج البلاغة) خطبه ورسائله البليغة، وإن كان فيه الكثير من الخطب التي تنسب إليه ولم يقلها في الحقيقة. كما ازدهرت الخطابة في العصر الأموي؛ فكان العديدُ من الخلفاء والأمراء - كعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، وزياد بن أبيه - خطباءَ يُعَوِّلُون على الخطابة في إبلاغ الناس مقاصدهم، والتأثير عليهم في نشر مبادئهم وأغراضهم، وقد خلّف لنا هذا العصر عددًا كبيرًا جدًّا من الخطب البليغة في عباراتها، الغنية بأفكارها. وفي العصر العباسي شهدت الخطابة تراجعًا كبيرًا عن العصور السابقة، ولم يبرز من الخلفاء من عُرِفَ بالخطابة.

وكذلك اهتمَّ المسلمون **بالأمثال**، فجمعوها وألَّفوا فيها الكتب؛ وأشهرها: (مجمع الأمثال)، للميداني[(١)]، و(المستقصي في أمثال العرب) للزمخشري[(٢)]، وهو معجم للأمثال العربية مُرَتَّب على حروف الهجاء أوائل الأمثال.

وللمسلمين تراث ضخم **في القصة**، ما زال الناس يقرءونه فيبهرهم بسعة أُفقه، ولُطْف أخيلته، وغرابة أحداثه، ولعلَّ أشهر ما قيل في ذلك قصص عنتر أو عنترة، وهو أحد الفرسان السود لقبيلة عبس، وسيف بن ذي يزن من أبطال اليمن، وأبي زيد الهلالي من أبطال المغرب، والظاهر بيبرس سلطان مصر، ومن أبطال الحروب الصليبية والمغولية.

وفي القرن الرابع الهجري وُضِعَتِ القصص الأدبية القصيرة التي تُسَمَّى **المقامات**، ومن أشهر كُتَّاب المقامات بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨هـ)، الذي أملى ٤٠٠ مقامة، تدور حول بَطَلَيْنِ أحدهما عيسى بن هشام، وثانيهما أبو الفتح الإسكندراني، ثم ابن ناقيا

---

(١) الميداني: هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (ت٥١٨هـ/ ١١٢٤م) أديب بحاثة، نشأ وتوفي في نيسابور، قال الزركلي عن كتابه (مجمع الأمثال): لم يؤلف مثله في موضوعه. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ١٤٨، والزركلي: الأعلام ١/ ٢١٤.

(٢) الزمخشري: هو جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (٤٦٧- ٥٣٨هـ/ ١٠٧٥- ١١٤٤م) من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب، له مصنفات كثيرة منها: (الكشاف) في تفسير القرآن الكريم. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٦٨-١٧١.

(ت ٤٨٥هـ)، الذي نسج على منوال الهمذاني، والحريري (ت ٥١٦هـ) الذي تناولت مقاماته مغامرات أبي زيد السروجي والحارث بن همام، وكلاهما واسع الذكاء[١].

وعن أشهر كتب الأدب يقول ابن خلدون: «وأركانه أربعة دواوين وهي: (أدب الكاتب) لابن قتيبة[٢]، وكتاب (الكامل) للمبرّد[٣]، وكتاب (البيان والتبيين) للجاحظ[٤]، وكتاب (النوادر) لأبي علي القالي[٥]»[٦]. وهناك كذلك كتب أخرى بارزة لا يمكن إغفالها في هذا المجال، أمثال: (العقد الفريد) لابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ)، و(الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ)، وغيرهما.

وفي الباب الأخير من هذا الكتاب سنقف - بإذن الله - على تأثير الأدب العربي الإسلامي في الآداب الأخرى العالمية.

* * *

---

(١) انظر: عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٢٠٦-٢١٠، ورحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٧٥-١٧٧.

(٢) ابن قتيبة الدِّينَوري: هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدِّينوري (٢١٣ - ٢٧٦هـ/ ٨٢٨ - ٨٨٩م). مفسر وفقيه وأديب ومؤرخ ولغوي، من أعلام القرن الثالث للهجرة. ولد بالكوفة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٦.

(٣) المبرِّد: هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسّان (٢١٠-٢٨٦هـ، ٨٢٦-٨٩٩م)، إمام في اللغة والنحو ولد ونشأ بالبصرة، وتوفي ببغداد، من أشهر كتبه الكامل والمقتضب. انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٥٧٦.

(٤) الجاحظ: هو أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني (١٦٣- ٢٥٥هـ/ ٧٨٠- ٨٦٩م) كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته بالبصرة، له مصنفات بليغة، منها: (البيان والتبيين). انظر: الأصفهاني: شذرات الذهب ٢/ ١٢١، ١٢٢.

(٥) أبو علي القالي: هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون (٢٨٨- ٣٥٦هـ/ ٩٠١- ٩٦٧م) أحفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب، ولد في مناجرد على شاطئ الفرات الشرقي، وتوفي بقرطبة. من كتبه: (النوادر) المعروف بأمالي القالي. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٩/ ١١٤.

(٦) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٥٥٣.

الفصل الثالث

ابتكار علوم جديدة

في مجال العلوم الإنسانية والفكرية كان للمسلمين دور بارز ورائد؛ حيث ابتكروا علومًا راقية تهمّ الجانب الاجتماعي الإنساني، وكذلك ابتكروا علومًا مهمَّة خاصَّة بالشريعة الإسلامية، وأخرى خاصَّة باللغة العربية، وتوضيح ذلك كما في المباحث التالية:

- المبحث الأول: علم الاجتماع
- المبحث الثاني: علوم خاصة بالشريعة
- المبحث الثالث: علوم خاصة باللغة

المبحث الأول

علم الاجتماع

يُعَرِّفُ معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية علمَ الاجتماع بأنه: «دراسة وصفية تفسيرية مقارنة للمجتمعات الإنسانية، كما تبدو في الزمان والمكان؛ للتوصُّل إلى قوانين التطوُّر، التي تخضع لها هذه المجتمعات الإنسانية في تَقَدُّمِهَا وتَغَيُّرِهَا»[١].

ويُحَدِّد علماء الاجتماع موضوع علمهم بالظواهر الاجتماعية، التي تظهر نتيجة لتجمُّع الناس معًا، وتفاعل بعضهم مع بعض، ودخولهم في عَلاقات متبادلة، وتكوين ما يُطْلَق عليه الثقافة المشتركة؛ حيث يتَّفِقُ الناسُ على أساليب مُعَيَّنَة في التعبير عن أفكارهم، كما أنهم يتَّفقون على قيم محدَّدة، وأساليب معينة في الاقتصاد، والحكم، والأخلاق، وغيرها.

وتبدأ الظواهر الاجتماعية بالتفاعل بين شخصين أو أكثر، والدخول في علاقات اجتماعية، وحينما تدوم هذه العلاقات وتستمرُّ، تشكِّل جماعات اجتماعية، وتُعَدُّ **الجماعات الاجتماعية** من المواضيع الأساسية التي يدرسها علم الاجتماع.

وهناك موضوع آخر يدرسه علم الاجتماع، يتمثَّل في العمليات الاجتماعية؛ كالصراع، والتعاون، والتنافس، والتوافق، والترتيب الطبقي، والحراك الاجتماعي. كما أن التغيُّر في الثقافة وفي البناء الاجتماعي، أحد ميادين الدراسة في علم الاجتماع، كما أن هناك النُّظُم الاجتماعية، وهي الأساليب المقنَّنة والمقرَّرة للسلوك الاجتماعي، وكذلك الشخصية، وهي العامل الذي يُشَكِّل الثقافة، ويتشكل من خلالها[٢].

هذا، وعلى الرغم من أن التفكير الاجتماعي قديم قِدَمَ الإنسان نفسه، إلاَّ أن الاجتماع الإنساني لم يصبح موضوعًا لعلمٍ إلا في فترة لاحقة، وكان أَوَّل مَنْ نَبَّه إلى وجود هذا العلم، واستقلال موضوعه عن غيره، هو العلاَّمة المسلم ابن خلدون!

فقد صرَّح في عبارات واضحة أنه اكتشف علمًا مستقلاً، لم يتكلَّم فيه السابقون؛ إذ

---

(١) أحمد زكي بدوي: معجم المصطلحات الاجتماعية ص٤.

(٢) انظر: منصور زويد المطيري: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع - الدواعي والمكان ص٢٨، ٢٩.

يقول: «وكأن هذا علم مستقلٌّ بنفسه، فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل؛ وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته، واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم، وضعيًا كان أو عقليًا»[١].

ويقول أيضًا: «واعلم أن الكلام في هذا الغرض مُسْتَحْدَث الصنعة، غريب النزعة، أَعْثَرَ عليه البحث، وأدَّى إليه الغوص... وكأنه علم مستنبط النشأة، ولعمري! لم أقف على الكلام في منحاه لأحدٍ من الخليقة، ما أدري: ألغفلتهم عن ذلك، وليس الظنُّ بهم؟ أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض، واستوفوه، ولم يصل إلينا؟»[٢].

كما أنه لم يكتفِ بذلك، بل دعا القادرين إلى استكمال ما نقص منه، فقال: «ولعلَّ مَنْ يأتي بعدنا - ممن يُؤَيِّده الله بفكر صحيح، وعِلْمٍ مُبِينٍ - يغوص في مسائله على أكثر مما كتبنا، فليس على مستنبط الفنِّ إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم، وتنويع فصوله، وما يُتكَلَّم فيه، والمتأخِّرون يُلْحِقُون المسائل من بعده شيئًا فشيئًا إلى أن يكمل»[٣].

وإضافةً إلى ذلك فإن مقدمته شملت على أقلِّ تقدير سبعة من فروع علم الاجتماع المعاصر، ناقشها ابن خلدون في وضوح تامٍّ[٤].

ولكن على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من قول عالم الاجتماع النمساوي الشهير جمبلوفتش: «لقد أردنا أن ندلِّلَ على أنه قبل أوجست كونت[٥]، بل قبل فيكو الذي أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعي أوربي، جاء مسلم تقيٌّ، فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل مُتَّزِنٍ، وأتى في هذا الموضوع بآراء عميقة، وإن ما كتبه هو ما نسمِّيه اليوم علم الاجتماع»[٦]. على الرغم من ذلك كله، فإن التأريخ لعلم الاجتماع يقف عند الفرنسي

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ١/ ٣٨.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ١/ ٥٨٨.

(٤) انظر: حسن الساعاتي: علم الاجتماع الخلدوني ص٢٨- ٣٥.

(٥) هو أوجست كونت August Count (١٧٩٨ - ١٨٥٧م): فيلسوف فرنسي، مؤسس الفلسفة الوضعية، ومؤسس علم الاجتماع الغربي، عمله الرئيسي: (دروس في الفلسفة الوضعية).

(٦) نقلاً عن مصطفى الشكعة: الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته ص١٩٨.

كونت باعتباره المنشئ الأول لهذا العلم، ويتجاهل بذلك المؤسِّس الحقيقي لهذا العلم، الذي نبَّه عن وعي وفي وضوحٍ إلى اكتشافه لهذا العلم[١].

وقد شهد المنصفون بأن أوجست كونت استمدَّ كثيرًا من آرائه ونظرياته من مقدمة ابن خلدون[٢]!

فابن خلدون يُمَثِّل نقطة تحَوُّلٍ في كتابة التاريخ الإنساني، وفي تأسيسه لعلم الاجتماع، قد هزَّ الفكر الإنساني العالمي بذلك؛ إذ وضع خُطَّة جديدة وآراء جديدة، بل وضع قوانين جديدة يمكن تطبيقها، وتنسحب على كل المجتمعات البشرية، انطلاقًا من أنَّ الإنسان لا يعيش إلاَّ في مجتمع، وإذا عاش في مجتمع؛ فلا بُدَّ أن يعيش مع شعب، وإذا عاش مع شعب لا بُدَّ أن يعيش على أرض، ولكي تَظَلَّ العلاقة قائمة بين هؤلاء الناس، أو القبائل، أو الشعب، أو هذه المجموعة البشرية؛ لا بُدَّ من أن ينظِّمَها حاكم؛ وأنواع الحاكم تدرَّجَتْ من حاكم بسيط (شيخ قبيلة) إلى حاكم مُطْلَقٍ، استطاع أن يستخدم كل الوسائل التي هيَّأها له هذا التجمُّع البشري، أو هذا العمران، واستطاع أن يستغلَّ هذا ويصبح هو الحاكم المطلق، وإذا أصبح حاكمًا مطلقًا استطاع أن يؤسِّس دولة، فإذا أَسَّس الدولة التي طبَّق عليها ابن خلدون نظريته؛ مرَّت الدولة بمراحل مختلفة، هذه المراحل وجدت صحَّة في التطبيق في واقع الحياة[٣].

ويهمُّنا هنا أن نُلْقِيَ بعض الضوء على ابن خلدون، منشئ هذا العلم؛ فهو أبو زيد عبد الرحمن بن خالد (خلدون) الحضرمي، مولده بتونس في غرة رمضان (٧٣٢هـ)، ورحل إلى فاس، وغرناطة، وتلمسان، والأندلس، كما تَوَجَّهَ إلى مصر، حيث أكرمه سلطانها الظاهر برقوق، ووَلِيَ فيها قضاء المالكية، وظلَّ بها ما يناهز ربع قرن (٧٨٤-٨٠٨هـ)، حيث تُوُفِّيَ ودُفِنَ في مقابرها عن عمر بلغ ستة وسبعين عامًا[٤].

وقد نشأ ابن خلدون في بيت علم ومجد عريق، وحفظ القرآن في وقت مبكِّر من

(١) منصور زويد المطيري: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ص٢٣، ٢٤.
(٢) عبد الواحد وافي: دراسة مقدمة ابن خلدون، نقلاً عن: عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية ص٤٨.
(٣) سهيلة زين العابدين: نظرية الدولة عند ابن خلدون، مجلة المنار، الأعداد ٧٥، ٧٦، ٧٧، سنة ١٤٢٤هـ.
(٤) الزركلي: الأعلام ٣/ ٣٣٠.

طفولته، وكان أبوه هو معلِّمه الأول، كما درس على يد مشاهير علماء عصره، وقد اتجه إلى الوظائف العامَّة بعد موت عامَّة أساتذته في الطاعون الذي أصاب بلادهم، والتحق بوظيفة كتابيَّة في بلاط بني مرين، ولكنها لم تكن لتُرْضي طموحه، وعَيَّنه السلطان (أبو عنان) - ملك المغرب الأقصى - عضوًا في مجلسه العلمي بفاس، فأُتِيحَ له أن يعاود الدرس على أعلامها من العلماء والأدباء، الذين نزحوا إليها من (تونس)، و(الأندلس)، و(بلاد المغرب).

صورة (٢٣) كتاب ابن خلدون

ورحل ابن خلدون إلى غرناطة تاركًا أسرته بفاس، ثم عاد إلى وهران بالجزائر؛ ليستقرَّ في قلعة ابن سلامة هو وأهله أربع سنوات، ومن هنا بدأت مسيرته مع كتابه (العبر في ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)؛ لتكون مقدِّمَة هذا الكتاب أول وأشهر مقدِّمة صُنِّفَت في علم الاجتماع، وشئون الاجتماع الإنساني وقوانينه، وقد عالج فيها ما يُطْلَق عليه الآن (المظاهر الاجتماعية) - أو ما أَطْلَقَ عليه هو (واقعات العمران البشري)، أو (أحوال الاجتماع الإنساني)[1].

ففي هذه المقدِّمَة بسط ابن خلدون كل ما لديه من علم ومعرفة، فجاءت شيئًا ثمينًا، بل متقدِّمة جدًّا على العصر الذي كُتِبَتْ فيه، وهي تحتوي على ستَّة فصول كما يلي:

الأول: في العمران البشري: وهي تقابل (علم الاجتماع العام)، وقد درس ابن

(١) الزركلي: الأعلام ٣/ ٣٣٠، ومصطفى الشكعة: الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته ص٢١ وما بعدها.

خلدون ظواهر المجتمع البشري، والقواعد التي تسير عليها المجتمعات.

والثاني: في العمران البدوي، وقد درس الاجتماع البدوي، كاشفًا أهمَّ خصائصه المميِّزة، وأنه أصل الاجتماع الحضري وسابق عليه.

والثالث: في الدولة والخلافة والمُلْك: وهو يقابل (علم الاجتماع السياسي)، وقد درس قواعد الحكم، والنُّظُم الدينية، وغيرها.

والرابع: في العمران الحضري: وهو ما يقابل (علم الاجتماع الحضري)، وقد شرح جميع الظواهر المتَّصلة بالحضر، وأصول المدنية، وأن التحضُّر هو غاية التمدُّن.

والخامس: في الصنائع والمعاش والكسب: وهو ما يقابل (علم الاجتماع الاقتصادي)، وقد درس تأثير الظروف الاقتصادية على أحوال المجتمع.

والسادس: في العلوم واكتسابها: وهو ما يقابل (علم الاجتماع التربوي)، وقد درس الظواهر التربوية، وطرق التعلم وتصنيف العلوم.

كما درس ابن خلدون الاجتماع الديني والقانوني، رابطًا بين السياسة والأخلاق[١].

والحقيقة الظاهرة أن أحدًا قبل ابن خلدون لم يَعْرِض لدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة تحليلية أَدَّتْ إلى نتائج ومُقَرَّرَات مثل تلك التي أَدَّتْ إليها دراسة ابن خلدون، ذلك أن المفكِّر المسلم الفقيه درس الظواهر الاجتماعية من خلال الإخبار التاريخي السليم، مثلما يدرس العلماء علوم الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، والفلك، وهو بذلك يكون أول مَنْ أخضع الظواهر الاجتماعية لمنهج دراسي علمي، انتهى به إلى كثير من الحقائق الثابتة التي تشبه القوانين، وعليه فإن ما توصَّل إليه ابن خلدون من نظريات يظلُّ عملاً رائدًا في ميدان الدراسات الاجتماعية في مسيرة الفكر الإنساني[٢].

* * *

(١) انظر: نعمان عبد الرزاق السامرائي: نحن والحضارة والشهود ١/ ١٢٠.

(٢) مصطفى الشكعة: الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته ص٧٧، ٧٨.

المبحث الثاني
علوم خاصة بالشريعة

لم تهتمَّ أُمَّة بدينها مثلما اهتمَّت الأُمَّة الإسلامية، وقد تجسَّد ذلك في ابتكار علوم إسلامية خالصة، لم يوجد مثيل لها عند أمة من الأمم، وكان من أهمها:

١) علم أصول الحديث:

وهو علم يَتَعَلَّق بالسُّنَّة النبوية المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، والتي تتجلَّى أهميتها فيما بَيَّنَتْهُ من مُجْمَل القرآن وفَصَّلَتْهُ، وقد كان الرسول ﷺ - بأقواله وأفعاله وتقريراته - يُبيِّن القرآن ويشرحه، ويُرْشِد إلى كيفية تطبيق الإسلام، وتنفيذ أحكامه.

ويُعْرَفُ علم الحديث بأنه: علم يُعْرَفُ به أحوال سند الحديث - أي: سلسلة الرواة- ومَتْنُه - أي: نص الحديث ومضمونه - وغايته معرفة الحديث الصحيح من غيره، وهو بذلك قسمان:

علم الحديث **رواية**: وهو الذي يشتمل على النقل المجرَّد الدقيق لكل ما أُضِيفَ إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خَلْقيَّة أو خُلُقِيَّة.

وعلم الحديث **دراية**: ويبحث في أصول وقواعد يُتَوَصَّل بها إلى معرفة معنى الصحيح والحَسَنِ والضعيف من الحديث، وأقسام كلٍّ منها، وما يَتَّصِلُ بذلك من معرفة معنى الرواية وشروطها وأقسامها، وأحوال الرواة وشروطهم، والجرح والتعديل، وتاريخ الرواة، ومواليدهم، ووفَيَاتهم، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، ومختلِف الحديث وغريبه، إلى غير ذلك من المباحث، فهو باختصار: معرفة القواعد المعرِّفة بحال الراوي والمرويّ، أو أحوال السند والمتن؛ من حيث القَبُول والرَّدِّ، وهو ما يُطْلَقُ عليه اسم علم أصول الحديث، أو علم مصطلح الحديث.

وقد نشأ هذا العلم صيانةً لحديث رسول الله ﷺ من الكذب والاختلاق، ومعرفة ما تصحُّ نسبته إلى الرسول ﷺ وما لا تصحُّ.

ويُعْتَبَرُ الرامهرمزيُّ[(١)] أول مَنْ أَلَّف كتابًا ضمَّنه كثيرًا من قواعد المحدِّثين ومصطلحاتهم، وسَمَّى كتابه: (المحدث الفاصل بين الراوي والواعي)، ثم تبعه الحاكم النيسابوري[(٢)] في كتابه: (معرفة علوم الحديث)، ثم أبو نعيم الأصبهاني[(٣)] في كتابه: (المستخرج على معرفة علوم الحديث)، ثم الخطيب البغدادي في كتابه: (الكفاية في علم الرواية)، ثم القاضي عياض في كتابه: (الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد الأسماع)، إلى أن جاء الحافظ ابن الصلاح فألَّف كتابه المشهور: (علوم الحديث)، فكان كتابًا جامعًا مهذَّبًا لما سبقه من مصنفات، فلقي القبول من العلماء، وأصبح أصلاً لأغلب ما كُتِبَ بعده؛ فمِنْ مُخْتَصِر له، أو شارح، أو مُنْكتٍ عليه (مُشير)، أو ناظم له. ومن أهمِّ ما أُلِّفَ بعد كتاب ابن الصلاح مُسْتَقِلاً عنه رسالة مختصرة للحافظ ابن حجر العسقلاني[(٤)] سَمَّاها (**نخبة الفكر**)، ثم شرحها بشرح سَمَّاه (**نزهة النظر**)، وهناك مصنفات أخرى كثيرة أُلِّفَتْ في الأزمان التالية يطول ذِكْرُها[(٥)].

هذا، وتتعدَّد أنواع علوم الحديث تَبَعًا للزاوية التي يُنظر منها إلى الحديث:

فمن حيث **الموضوع** يُقَسَّم الحديث إلى: السند (الرواة الذين رَوَوْا لفظه)، والمتن (ألفاظ الحديث الدالة على معانيها والتي ينتهي إليها السند).

ومن حيث **نسبته إلى قائله** يُقَسَّمُ الحديث إلى ثلاثة أقسام؛ الأول: المرفوع؛ وهو ما أُضِيفَ إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة. والثاني: الموقوف؛ وهو الذي انتهى سنده إلى الصحابي. والثالث: المقطوع؛ وهو الذي انتهى سنده إلى التابعي.

ومن حيث **وصوله إلينا** يُقَسَّم الحديث إلى قسمين، الأول: الحديث المتواتر؛ وهو ما

---

(١) الرَّامَهُرْمُزِيّ: هو أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد (ت٣٦٠هـ/ ٩٧٠م) محدث العجم في زمانه، من أدباء القضاة. له «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي». انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٢/ ٤٢.

(٢) الحاكم النيسابوري: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه (٣٢١- ٤٠٥هـ/ ٩٣٣- ١٠١٤م) من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه، مولده ووفاته في نيسابور. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٨٠-٢٨٢.

(٣) أبو نعيم: هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (٣٣٦- ٤٣٠هـ/ ٩٤٨- ١٠٣٨م) حافظ، مؤرخ، من الثقات في الحفظ والرواية، من مصنفاته: (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) . انظر: الأصفهاني: شذرات الذهب ٢/ ٢٤٥.

(٤) ابن حجر العسقلاني: هو أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني (٧٧٣- ٨٥٢هـ/ ١٣٧٢ - ١٤٤٩م) من أئمة العلم والتاريخ، مولده بعسقلان ووفاته بالقاهرة. من كتبه: «فتح الباري». انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٧/ ٢٧٠-٢٧٣.

(٥) انظر: محمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث ص١٢-١٥.

رواه جمعٌ عن جمعٍ يَمنع العقل والعادة تواطؤهم على الكذب، عن جمعٍ في طبقات الإسناد كلها، وهو إمَّا متواتر بلفظه أو متواتر بمعناه. والثاني: حديث الآحاد، أو إخبار الآحاد؛ وهو كل حديث لم تتوفَّر فيه شروط المتواتر؛ وهو يُقَسَّم إلى ثلاثة أقسام: مشهور، وعزيز، وغريب، أمَّا المشهور فهو الحديث الذي يرويه ثلاثة رواة فأكثر في كل طبقة من طبقات الإسناد المستفيض. وأمَّا العزيز فهو الحديث الذي لا يقلُّ عدد رواته عن اثنين في كل طبقة، ويمكن أن يَزِيد عددهم في بعض الطبقات. وأمَّا الغريب فهو الحديث الذي ينفرد بروايته راوٍ واحدٌ في كل الطبقات أو بعضها، ويسمَّى الحديث الفَرْد أيضًا.

ومن حيث قَبُوله وردِّه، يُقَسَّم الحديث إلى ثلاثة أقسام: الحديث الصحيح، والحديث الحَسَنُ، والحديث الضعيف. وقد تفرَّع عن القسمين الأوَّلَيْن: الصحيح لذاته والصحيح لغيره، والحسن لذاته والحسن لغيره. كما يتفرَّع عن القسم الثالث أنواع أخرى كثيرة؛ فهناك المعلَّق، والمُرْسَل، والمُدلَّس، والمرسل الخفي، والمنقطع، والمُعْضَل، وهناك الموضوع، والمتروك، والمطروح، وهناك الشاذُّ، والمُنْكَر، والمضطرب، والمقلوب، والمُدْرَج، والمزيد، والمصحَّف، والمحرَّف.

وإنه ليَحِقُّ لأُمَّة الإسلام أن تفخر بهذا العلم، وتَعْتَزَّ بقواعده؛ ذلك الذي أرادتْ به أن تنقل لنا كلام رسول الله ﷺ، وأفعاله، وتقريراته واضحة جليَّة، خالية من كل شبهة وشائبة.

٢) علم الجرح والتعديل:

لما كان من الأمور المعلومة بداهةً أنه لا سبيل إلى معرفة ما جاء عن النبي ﷺ من أحاديث وأخبار إلاَّ عن طريق الرواة والنقلة، فقد كان الاطِّلاع على أحوال هؤلاء الرواة والنقلة، وتتبُّع مسالكهم، وإدراك مقاصدهم وأغراضهم، ومعرفة مراتبهم وطبقاتهم، وتمييز ثِقاتهم من ضعافهم، هو الوسيلة الأهم لمعرفة صحيح الأخبار من سقيمها.

وهذا هو موضوع (علم الجرح والتعديل) أو (علم الرجال)، أو (علم ميزان أو معيار الرواة)، والذي لا نظير له عند أُمَّة أخرى من أمم الأرض، وقد وُضِعَت له القواعد، وأُسِّسَت له الأسس والضوابط، فكان مِقْيَاسًا دقيقًا ضُبِطَتْ به أحوال الرواة؛

من حيث التوثيق والتضعيف، والأخذ والرَّدِّ، وقد عُدَّ نصفَ علم الحديث؛ فهو ميزان رجال الحديث، ومعيار الحكم عليهم، وهو الحارس للسُّنَّة من كل زيفٍ ودخيل!

فقد قام علماء الحديث يَذُبُّونَ عن حديث رسول الله ﷺ - خوفًا من الدسِّ والتزوير والكذب والوضع؛ إمَّا بسبب الخلافات السياسية، أو الأغراض الحزبية، أو الأهداف الفكرية، أو الآراء المذهبية، أو القصص التي تجذب السامعين، أو التملُّق إلى الحكَّام، أو الكيد للإسلام - باتِّبَاع منهجية خاصَّة عُرِفَتْ بعلم الجرح والتعديل، والذي يقوم على دراسة أسانيد الحديث، أي سلسلة الرواة الذين نقلوا الحديث عن النبي ﷺ، باعتبار أن الإسناد هو الطريق الموصِّل إلى المتن، أي إلى نصِّ الحديث ومستواه، ولا يُستدلُّ على أكثر صدق الحديث وكذبه إلاَّ بصدق المُخْبِرِ وكذبه، وإنه لولا الإسناد لقال مَنْ شاء ما شاء، ولولا طلبُهُ والمواظبة على حفظه لدَرَسَ منار الإسلام، ولتَمَكَّن أهل الإلحاد والبدع فيه بوضع الأحاديث[1].

و(الجرح) في الاصطلاح يعني: وصف الراوي، أو الطعن فيه بما يقتضي رَدَّ روايته. أمَّا (التعديل) فيعني: وصف الراوي بما يقتضي قَبُول روايته. وعلى هذا **فعلم الجرح والتعديل** هو: علم يُبحث فيه عن جرح الرواة وتعديلهم بألفاظ مخصوصة، وعن مراتب تلك الألفاظ، وهو يَسْتَمِدُّ شرعيته من باب صون الشريعة قصدًا للنصيحة، وبيانًا لحال مَنْ يُؤْخَذُ عنه هذا العلم؛ فإنه الدِّين لا طعنًا في الناس[2].

فلم يكن الحاملُ في ذلك أهواءَ أو حظوظ النفس أو غيره؛ ولذلك لم تراهم يُجَامِلون أحدًا، حتى ولو أقرب الأقربين، فكان منهم مَنْ يُضَعِّف والده، وقد سُئِل علي بن المديني[3] عن أبيه؛ فقال: اسألوا غيري. فقالوا: سألناك. فأطرق ثم رفع رأسه، وقال: «هذا هو الدِّين، أَبِي ضعيفٌ»[4]. وكان منهم مَنْ يُضَعِّف ولده وأخاه، قال زيد بن أبي

(١) انظر: محمد ضيف الله البطاينة: الحضارة الإسلامية ص٣٢٢.

(٢) انظر: الشريف حاتم بن عارف العوني: خلاصة التأصيل لعلم الجرح والتعديل ص٦.

(٣) علي بن المديني: هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن جعفر السعدي (١٦١ - ٢٣٤هـ/ ٧٧٧ - ٨٤٩م) محدث مؤرخ، كان حافظ عصره، له نحو مائتي مصنف، ولد بالبصرة، ومات بسامراء، من كتبه (اختلاف الحديث). انظر: الأصفهاني: شذرات الذهب ٢/ ٨١.

(٤) ابن حبان: المجروحين ٢/ ١٥.

أنيسة[١]: «لا تأخذوا عن أخي يحيى»[٢]!

ولذلك فقد كانت هناك شروط مُعَيَّنة لا بُدَّ من توافرها في الجارح والمعدِّل، منها:

١- أن يتَّصِفَ بالعلم والتقوى والورع والصدق.

٢- أن يكون عالمًا بأسباب الجرح والتعديل.

٣- أن يكون عالمًا بتصاريف كلام العرب؛ لا يضع اللفظ لغير معناه، ولا يجرح بنقله لفظًا هو غير جارح[٣].

هذا، وقد اصطلح علماء الحديث على ألفاظ مُعَيَّنَة يصفون بها الرواة؛ ليُمَيِّزُوا بها بين مراتب أحاديثهم من حيث القَبُول والرَّدِّ؛ وهذه الألفاظ كما يلي:

أَوَّلاً: ألفاظ التوثيق أو التعديل:

١- ما دلَّ على المبالغة في التوثيق، وأصرح ذلك التعبير بأفعل؛ كأوثق الناس، أو أثبت الناس، أو إليه المنتهى في التثبُّت.

٢- ما كُرِّرَتْ فيه صفة التوثيق لفظًا؛ كثقةٍ ثقة، أو معنًى، كثقةٍ حافظ، وثَبْت حُجَّة، وثقة متقن.

٣- ما انفرد فيه لفظ التوثيق؛ كثقة، أو ثبت، أو إمام، أو حجة، أو تعدَّد ولكن بمعنى المفرد، مثل: عدل حافظ، أو عدل ضابط.

٤- ما قالوا فيه: لا بأس به، أو ليس به بأس - عند غير ابن معين[٤] - أو صدوق، أو خيار، وأمَّا ابن معين فإنه قال: إذا قلتُ لك: ليس به بأس فهو ثقة.

---

(١) زيد بن أبي أنيسة: (ت ١٢٤ هـ) هو أبو أسامة زيد بن أبي أنيسة الجزري الرهاوي، إمام حافظ ثبت، روى عنه من هو في منزلته مثل الإمام أبي حنيفة والإمام مالك. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٨٨

(٢) السخاوي: فتح المغيث ٣/ ٣٥٥.

(٣) انظر: الشريف حاتم بن عارف العوني: خلاصة التأصيل لعلم الجرح والتعديل ص٢٧، وأبو الحسنات اللكنوي الهندي: الرفع والتكميل ص٦٧.

(٤) يحيى بن معين: أبو زكريا يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام بن عبد الرحمن المري البغدادي، (١٥٨ - ٢٣٣ هـ / ٧٧٥ - ٨٤٨ م) الحافظ المشهور كان إماماً عالماً حافظاً متقناً. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦/ ١٣٩. والزركلي: الأعلام ٨/ ١٧٢.

٥- ما قالوا فيه: محلُّه الصدق، أو إلى الصدق ما هو (أي أنه ليس ببعيدٍ عن الصدق)، أو شيخ، أو مقارب الحديث، أو صدوق له أوهام، أو صدوق يَهِمُ (أي له أوهام)، أو صدوق إن شاء الله، أو أرجو أنه لا بأس به، أو ما أعلم به بأسًا، أو صُوَيلح، أو صالح الحديث.

وفي الحكم على هذه المراتب: فمَن قِيلَ فيه من الرواة لفظٌ من ألفاظ المراتب الثلاث الأولى، فحديثه صحيح، وبعضه أصحُّ من بعض، وأمَّا أهل المرتبة الرابعة فحديثهم حَسَنٌ، وأمَّا أهل المرتبة الخامسة فلا يُحْتَج بحديثهم، بل يُكتَب حديثهم للاعتبار، فإن وافقهم غيرهم قُبِلَ، وإلاَّ رُدَّ.

ثانيًا: ألفاظ الجرح: وهي:

١- الوصف بما دلَّ على المبالغة في الجرح، وأصرح ذلك التعبير بأفعل؛ كقولهم: أكذب الناس، أو إليه المنتهى في الكذب، أو هو ركن الكذب.

٢- ما قيل فيه: وضَّاع، أو كذَّاب، أو يضع الحديث، أو يختلق الحديث، أو (لا شيء) عند الشافعي.

٣- ما قيل فيه: متَّهم بالكذب، أو بالوضع، أو يسرق الحديث، أو ساقط، أو هالك، أو ذاهب الحديث، أو متروك الحديث، أو تركوه، أو فيه نظر، أو سكتوا عنه (عند البخاري في اللفظتين الأخيرتين فقط)، أو ليس بثقةٍ.

٤- ما قيل فيه: ردُّوا حديثه، أو ضعيف جدًّا، أو واهٍ بمَرَّة، أو تالف، أو لا تَحِلُّ الرواية عنه، أو لا شيء، أو ليس بشيء عند غير الشافعي، أو مُنْكَرُ الحديث عند البخاري.

٥- ما قيل فيه: ضعيف، أو ضَعَّفُوه، أو مُنْكَر الحديث عند غير البخاري، أو مضطرب الحديث، أو لا يُحْتَجُّ به، أو واهٍ.

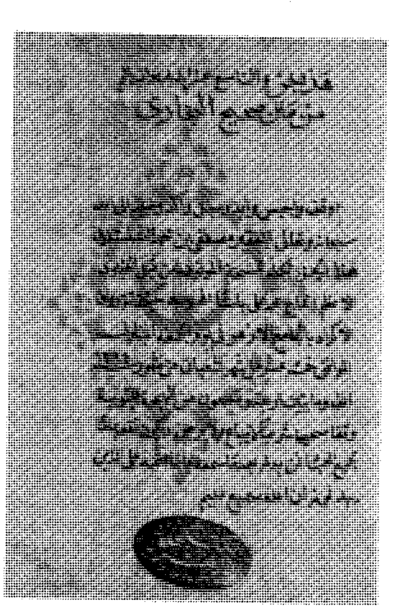
٦- ما قيل فيه: فيه مقال، أو فيه ضعف، أو ليس بذلك، أو ليس بالقوي، أو ليس بحجة، أو ليس بالمتين، أو سيِّئ الحفظ، أو ليِّن، أو تَعْرِفُ وتُنْكِر، أو ليس بالحافظ.

والحكم في المراتب الأربع الأولى أنه لا يُحْتَجُّ بواحد من أهلها، ولا يُستشهد به، ولا

يُعتبر به؛ فأهل المرتبة الأولى والثانية حديثهم موضوع، وأهل الثالثة حديثهم متروك، وأهل الرابعة حديثهم ضعيف جدًّا. وأمَّا أهل المرتبة الخامسة والسادسة فيُكتَب حديثهم للاعتبار، ويَرْتَقِي إلى الحَسَنِ إذا تَعَدَّدَتْ طُرُقُه(١).

هذا، وقد استوعب العلماء نتائج دراستهم للرواة في كتب الجرح والتعديل، فجعلوا الضعفاء منهم في كتب حملت اسم (الضعفاء)؛ ككتاب (الضعفاء الكبير)، و(الضعفاء الصغير) للبخاري، وكتاب (الضعفاء والمتروكين) للنسائي(٢)، وجعلوا الثقات منهم في كتب حملت اسم (الثقات)؛ ككتاب (الثقات) لابن حبان. وهناك كتب جمعت بين الثقات والضعفاء، ومن أشهرها (الطبقات الكبرى) لابن سعد، و(التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل) للحافظ ابن كثير(٣).

وإنَّ هذا كُلَّه لَيَكْشِفُ عمَّا قام به العلماء المسلمون من أَجْلِ توثيق السُّنَّة النبوية الشريفة، وحراسة حديث الرسول ﷺ، وأنهم ما تركوا سبيلاً للتيقُّن من ضبط صحَّة السُّنة إلاَّ طرقوه؛ حيث ابتكروا هذا العلم وأنشئوه إنشاءً؛ مما جعله قصرًا على الأُمَّة الإسلامية، وليس له في تاريخ البشرية القديم ولا الحديث نظير.


صورة (٢٤) كتاب صحيح البخاري

فكانت كتب الصحاح -الست وغيرها، وعلى رأسها صحيح البخاري ومسلم- من أوثق الكتب التي عرفها التاريخ.



٣) علم أصول الفقه:

في طور تعدُّد مآثر حضارة الإسلام لا بُدَّ من التنويه بعلم أصول الفقه، ذلك العلم الذي

---

(١) انظر: محمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث ص١١٦-١١٨.
(٢) النَّسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (٢١٥-٣٠٣هـ/ ٨٣٠ - ٩١٥م)، أحد أئمة الحديث الكبار ومن أصحاب السنن، ولد في نسا بخراسان وتوفي بمكة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤/ ١٢٥
(٣) انظر: محمد ضيف الله البطاينة: الحضارة الإسلامية ص٣٢٣، ومحمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث ص١١٥، ١١٦.

تفرَّدت به الأُمَّة الإسلامية من دون سائر الأمم السابقة، بل واللاحقة أيضًا، فلم يكن لغيرها علم مستقل كعلم أصول الفقه في تكامُله ودقَّته تستطيع به ضبط قوانينها ودساتيرها!

فهو -كما أشار ابن خلدون- من العلوم المستحدَثَة في المِلَّة، ويُعَدُّ من أعظم العلوم الشرعية، وأَجَلِّها قَدْرًا، وأكثرها فائدة، ويعني: النظر في الأدلَّة الشرعية من حيث تُؤْخَذ منها الأحكام والتآليف[1]، وبعبارةٍ أخرى: معرفة القواعد والأدلَّة التي يُتَوَصَّل بها إلى الأحكام الشرعية.

والغرض من تأسيس هذا العلم العظيم خدمة الإسلام، وخدمة أحكامه الضابطة لسلوك العباد الاختياري.

وقد كانت بدايته لَـمَّا ظهرت جدليات حول اعتماد بعض الفقهاء في تقرير الأحكام الفقهية أو استنباطها على بعض مناهج وأصول خالفهم فيها آخرون، فَدَعَتِ الحاجة إلى إقامة البراهين والأدلَّة المقبولة شرعًا على صحَّة ما هو صحيح، وعلى ترجيح ما هو الأرجح منها على غيره، مع بعض اختلاف في وجهات النظر؛ فظهرت مكتوبات أُولى على شكل رسائل تتضمَّن قواعد تأصيليَّة لما يجب الاعتماد عليه، ولما يجوز الاعتماد عليه، ولما لا يجوز الاعتماد عليه[2].



صورة (٢٥) الرسالة للشافعي

ويُعَدُّ الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي أَوَّل مَنْ كتب في علم أصول الفقه، وقد دَوَّنَ فيه كتابه الشهير (الرسالة)، و(جُماع العلم)، و(إبطال الاستحسان)، و(اختلاف الحديث)، وعلى يديه وُلِدَ ونشأ هذا العلم.

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٤٥٢.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة: الحضارة الإسلامية ص٥١٨، ٥٢٠.

قال ابن خلدون: «وكان أَوَّل مَنْ كَتَبَ فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه (ت ٢٠٤هـ)، أملى فيه رسالته المشهورة، تَكَلَّم فيها في الأوامر والنواهي، والبيان والخبر والنسخ، وحكم العلَّة المنصوصة من القياس، ثم كَتَبَ فقهاء الحنفية فيه، وحَقَّقُوا تلك القواعد، وأوسعوا القول فيها... فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النُّكت الفقهية، والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن، وجاء أبو زيد الدبوسي[١] من أئمتهم فكتب في القياس بأوسع من جميعهم، وتَمَّم الأبحاث والشروط التي يُحْتَاجُ إليها فيه، وكَمُلَتْ صناعة أصول الفقه بكماله، وتهذَّبت مسائله، وتمهَّدت قواعده، وعني الناس بطريقة المتكلِّمين فيه، وكان من أحسن ما كَتَب فيه المتكلِّمُون كتاب (البرهان) لإمام الحرمين الجويني، و(المستصفى) للغزالي (ت ٥٠٥هـ)، وهما من الأشعرية، وكتاب (العهد) لعبد الجبار[٢]، وشرحه (المعتمد) لأبي الحسين البصري[٣]، وهما من المعتزلة، وكانت الأربعةُ قواعدَ هذا الفنِّ وأركانه، ثم لَخَّص هذه الكتب الأربعة فحلان من المتكلِّمين المتأخِّرين؛ وهما: الإمام فخر الدين بن الخطيب (ت ٦٠٦هـ) في كتاب (المحصول)، وسيف الدين الآمدي[٤] في كتاب (الإحكام)»[٥].

فقد اجتهد علماء المسلمين من كل المذاهب الفقهية يستخرجون القواعد التأصيلية التي تُحَدِّد منهاج الفقيه الذي يَتَوَجَّه لاستنباط أحكام السلوك الإنساني الإرادي من مصادر التشريع الإسلامي؛ لئلاَّ يكون عمل المجتهدين الذين يستنبطون أحكام الفروع عملاً فوضويًّا، لا يخضع لقواعد مُحَرَّرة، ونجم عن هذا التَوَجُّه السديد ابتكار علمٍ غاية في العمق والنظر العقلي، وغاية في تحرير القواعد الأصول، وبيان المنهاج الذي يجب على

(١) الدَّبُوسي: هو أبو زيد عبد الله بن عمر بن عيسى (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م)، من كبار فقهاء الحنفية، وهو أول من وضع علم الخلاف. ولد بدبوسية (بين بخارى وسمرقند)، وتوفي ببخارى. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٤٨.

(٢) عبد الجبار: هو قاضي القضاة أبو الحسين عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (ت ٤١٥هـ/ ١٠٢٥م) من كبار فقهاء الشافعية، كان شيخ المعتزلة في عصره. ولي القضاء بالري ومات فيها، له تصانيف كثيرة منها: (تنزيه القرآن عن المطاعن). انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٤٤، ٢٤٥.

(٣) أبو الحسين البصري: هو محمد بن علي الطيب (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م)، أحد أئمة المعتزلة. ولد في البصرة، وسكن بغداد، وتوفي بها. من كتبه: «المعتمد في أصول الفقه». انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٧١.

(٤) سيف الدين الآمدي: هو أبو الحسن علي بن محمد بن سالم التغلبي (٥٥١- ٦٣١هـ/ ١١٥٦- ١٢٣٣م) كان متفردًا بعلم المعقولات والمنطق والكلام، ولد بديار بكر، وتوفي بدمشق، من كتبه:(الإحكام في أصول الأحكام). انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٦٤-٣٦٦.

(٥) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٤٥٥.

مستنبِط أحكام الفروع أن يسير عليه، وهو (علم أصول الفقه)، الذي لم يُوجَدْ نظيره في أُمَّة من الأمم السابقة[١]!

هذا، ولم يجد واضعو القوانين التي تعتمد على الآراء البشرية، وعلى أهوائهم ومصالحهم، مَنْدُوحةً من أن يعترفوا بمجد (علم أصول الفقه) عند المسلمين، وأن يستفيدوا من بعض قواعده في بحوث الألفاظ، وبعض مسائله في القياس، وفي المصالح المرسلة، وفي الاهتمام ببعض الكُلِّيّات الخمس، التي تُعْتَبَرُ المحافظة عليها من مقاصد الشريعة الإسلامية؛ وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. فكلُّ ما يحفظ هذه الكليات أو شيئًا منها فهو مصلحة، وكل ما يُخِلُّ بواحد منها فهو مفسدة، على اختلاف المراتب والدرجات فيما بينها؛ فمنها ما هو من مرتبة الضروريات، وهي المرتبة العليا، ولها درجات متعدِّدَة، ومنها ما هو من مرتبة الحاجيّات، وهي المرتبة الوسطى، ولها درجات متعدِّدة، ومنها ما هو من مرتبة التحسينيات، وهي المرتبة الدنيا، ولها أيضًا درجات متعدِّدَة[٢].

فعلم أصول الفقه ابتكار إسلامي، وظاهرة حضارية عظمى!

***

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة: الحضارة الإسلامية ص٥١٩.
(٢) المصدر السابق ص٥٢٠.

المبحث الثالث
علوم خاصة باللغة

اللغة العربيَّة هي لُغة القرآن وشعار الإسلام، وأداة حضارته، ورمز قوته، وقد كان لها أثر كبير في تكوين الأُمَّة، وبناء شخصية المسلم، ولها أهمية بالغة في تميُّز الحضارة الإسلامية عن غيرها.

وللغة العربية علوم عدَّة ابتكرها علماؤها، هي التي حافظت على ازدهارها ونضجها كلغةٍ حضارية عالمية، وجعلتها ثَرَّة[1] غنية، لا يخبو لها بريق، حتى باتت أرقى لغات العالم، ولعلَّ من أهمِّ هذه العلوم ما يلي:

١) علم النحو:

علم النحو يُسَمَّى أيضًا علم الإعراب، وهو أهم علوم اللغة العربية؛ فبه يُعرف كيفية التركيب العربي صحَّة وسقمًا، وكيفية ما يتعلَّق بالألفاظ من حيث وقوعها في التركيب، والغرض منه الاحتراز عن الخطأ في التأليف، والاقتدار على فَهْمِه، والإفهام به[2].

وقد كان الدافع وراء ابتكار هذا العلم حين بدأ اللحن[3] يتسرَّب إلى ألسنة كثير من العرب؛ بسبب كثرة اختلاطهم وامتزاجهم بشعوب البلاد المفتوحة الذين دخلوا في الإسلام، ومحاولة تعلُّم هؤلاء الذين أسلموا اللغة العربية قدر استطاعتهم، فظهر اللحن وفشا؛ وهنا هبَّ علماء المسلمين - خوفًا على لغة القرآن - إلى تقعيد القواعد لضبط الألسن، وضبط حركات أواخر الكلمات باختلاف أوائل مواقعها من الجملة العربية؛ للوصول إلى مقصود الكلام وأغراضه.

يقول ابن خلدون: «... خشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك المَلَكَة رأسًا، ويطول العهد بها؛ فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين

(١) ثَرَّةٌ: غَزيرَة، كثيرة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة ثرر ٤/ ١٠١.

(٢) انظر: صديق بن حسن القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٥٦٠.

(٣) اللَّحْنُ واللَّحَنُ واللَّحَانةُ واللَّحانِيَة: تركُ الصواب في القراءة والنشيد ونحو ذلك. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة لحن ١٣/ ٣٧٩.

لتلك المَلَكَة مطَّردة، شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويُلْحِقُون الأشباه بالأشباه؛ مثل أن الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع، ثم رأوا تغيُّر الدلالة بتغيُّر حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعرابًا، وتسمية المُوجِب لذلك التغيُّرِ عاملاً، وأمثال ذلك، وصارت كلها اصطلاحات خاصَّة بهم، فقيَّدوها بالكتاب، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، واصطلحوا على تسميتها **بعلم النحو**»[١].

هذا ويُعَدُّ أبو الأسود الدؤلي[٢] أوَّل من كَتَبَ في علم النحو؛ فهو الذي اخترع الحركات المعروفة بالفتحة والضمة والكسرة، ثم كتب فيه الناس من بعده، إلى أن انتهى إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد، ثم أَكْمَلَ أَبْوَابَهُ وَأَخَذَهُ عنه - كما يذكر ابن خلدون - سيبويه، فأضاف إليه تفريعات جديدة، واستكثر من الأدلَّة والشواهد، ووضع فيها كتابه المشهور (**الكتاب**)، الذي صار إمامًا لكلِّ ما كُتِبَ فيه من بعده، وقد وصفه أبو الطيب اللغوي[٣] بأنه (قرآن النحو)، كما وصف سيبويه بأنه «أعلم الناس بالنحو بعد الخليل»[٤]. ثم وضع الزجَّاج، وأبو علي الفارسي[٥] كُتُبًا مختصَرَة للمتعلِّمِينَ يحذون فيه حذو سيبويه في كتابه[٦].

ومِنْ بَعْدِ ذلك انطلق علماء اللغة العربية يُصَنِّفُون المصنفات الكثيرات في هذا الميدان؛ منها المُطَوَّلات، ومنها المختصرات، ومنها الشروح، والحواشي، والتعليقات، والتقريرات، وشروح الشواهد، ثم ظهرت المؤلفات المبسَّطة التي ذلَّلَتْ سبيل المعرفة لطلاَّب هذا العلم[٧].

فكان من أهمِّ الكتب المتداولة في علم النحو - بعد كتاب سيبويه -: كتابات أبي

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٥٤٦.

(٢) أبو الأسود الدؤلي: هو ظالم بن عمرو بن سفيان (١٦ ق هـ- ٦٩هـ/ ٦٠٥- ٦٨٨م) من التابعين، واضع علم النحو، شهد مع علي بن أبي طالب ﷺ صفين، ثم قصد معاوية بعد مقتل علي ﷺ. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٣١٢.

(٣) أبو الطيب اللغوي: هو عبد الواحد بن علي الحلبي (ت ٣٥١هـ/ ٩٦٢م) أديب، عالم باللغة شهير، سكن حلب وقُتل بها. من كتبه: «مراتب النحويين». انظر: الصفدي: الوافي بالوافيات ١٩/ ١٧٣.

(٤) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين ص٦٥

(٥) أبو علي الفارسي: هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (٢٨٨- ٣٧٧هـ/ ٩٠٠- ٩٨٧م) أحد الأئمة في علم العربية، ولد في بلاد فارس، وتوفي ببغداد. من كتبه: «التذكرة» في علوم العربية. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٨٠- ٨٢.

(٦) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٥٤٦.

(٧) عبد الرحمن حسن حبنكة: الحضارة الإسلامية ص٤٨٨.

عمرو بن الحاجب (ت ٦٤٦هـ)، وله (الكافية) في النحو، و(الشافية) في الصرف، وعليهما شروح كثيرة خاصَّةً (الكافية)، وكتابات ابن مالك[١]، وله القصيدة الألفية المشهورة، والتي تناولها كثير من العلماء بالشرح، منهم ابن هشام الأنصاري[٢] في (أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)، وله أيضًا (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)، و(شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب)، و(قطر الندى وبَلّ الصدى)، ومنهم ابن عقيل[٣] وله (شرح ابن عقيل على الألفية).

وهكذا كان تأسيس علم النحو عملاً حضاريًّا رائعًا مجيدًا، انفرد به المسلمون.

٢) علم العروض:

يختصُّ علم العَرُوض بالشعر العربي، فهو ذلك العلم الذي يعني بأصول يُعرف بها صحيح الشعر من فاسده، أو هو علم يُبحث فيه عن أصول الأوزان المُعْتَبَرَة، أو هو ميزان الشعر الذي به يُعْرَفُ مكسوره من صحيحه[٤].

أو هو «صناعة يُعرف بها صحيح أوزان الشعر العربي وفاسدها، وما يعتريها من الزِّحاف[٥] والعلل»[٦].

ويُنْسَبُ اختراع هذا العلم واستخراجه إلى الوجود إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي - شيخ سيبويه، ومُصَنِّف كتاب (العين) أول معجم يحصر لغة أُمَّة من الأمم - حيث تَتَبَّعَ أشعار العرب وحصرها في خمسة عشر وزنًا، وسمى كلاًّ منها بحرًا، وقد قيل: إنما وضعه

---

(١) ابن مالك: هو جمال الدين محمد بن عبد الله الأندلسي (٦٠٠- ٦٧٢هـ/ ١٢٠٣- ١٢٧٤م) أحد الأئمة في علوم العربية، ولد في جيان بالأندلس وتوفي بدمشق. من أشهر مصنفاته: «الألفية». انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٣٣٩.

(٢) ابن هشام الأنصاري: هو جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد (٧٠٨- ٧٦١هـ/ ١٣٠٩- ١٣٦٠م) من أئمة العربية، ومن كبار النحاة، ولد وتوفي بمصر. من تصانيفه: «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب». انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة ٣/ ٩٢- ٩٤.

(٣) ابن عقيل: هو بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن القرشي (٦٩٤- ٧٦٩هـ/ ١٢٩٤- ١٣٦٧م) من أئمة النحاة، مولده ووفاته بالقاهرة. من مصنفاته: «شرح ابن عقيل على الألفية». انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٦/ ٢١٤.

(٤) انظر: عمر الأسعد: معالم العروض والقافية ص١١، ومحمد علي الشوابكة وأنور أبو سويلم: معجم مصطلحات العروض والقافية ص١٧٧، والخطيب التبريزي: الوافي في العروض والقوافي ص٣٢، ٣٣.

(٥) الزِّحافُ في الشعر: أن يَسْقُطَ بين الحرفين حرف فيزحف أحدُهما إلى الآخر. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة زحف ٩/ ١٢٩، والفيروزآبادي: القاموس المحيط ص١٠٥٣.

(٦) السيد أحمد الهاشمي: ميزان الذهب في صناعة شعر العرب ص٥.

أحمد، وهذَّبه الجوهري[١]، وزاد الأخفش[٢] بحرًا آخر سمَّاه (المُتَدَارَك)[٣].

يقول حمزة بن الحسن الأصبهاني[٤]: «فإن دولة الإسلام لم تُخْرِجْ أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول إلاَّ من الخليل، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض، الذي لا عن حكيمٍ أخذه، ولا على مثالٍ تقدَّمه احتذاه... فلو كانت أيامه قديمة، ورسومه بعيدة، لشكَّ فيه بعض الأمم لصنعته ما لم يصنعه أحد منذ خَلْق الدنيا من اختراعه العلمَ الذي قَدَّمْتُ ذِكْرَه، ومن تأسيسه بناء كتاب (العين) الذي يحصر لغة أُمَّة من الأمم قاطبة، ثم مِنْ إمداده سيبويه من علم النحو بما صنَّف منه كتابه الذي هو زينة لدولة الإسلام»[٥].

وقال اليافعي[٦]: «وهو (الخليل) في اختراعه علم العروض، الذي هو لصحَّة الشعر وفساده ميزان، كأرسطو طاليس الحكيم في اختراعه علم المنطق، الذي هو ميزان المعاني وصحَّة البرهان»[٧].

وجاء أن الخليل بن أحمد دعا وهو بمكة أن يرزقه الله تعالى علمًا لم يسبقه أحدٌ إليه، ولا يؤخذ إلاَّ عنه، فرجع من حَجِّه ففتح الله عليه بعلم العروض، وكانت له معرفة بالإيقاع والنغم، وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض؛ حيث إنهما متقاربان في المأخذ[٨].

وموضوع علم العروض الشعر العربي من حيث هو موزون بأوزان مخصوصة، وتتمثَّل فائدته في تمييز الشعر من النثر، وأمن الناظم اختلاط البحور بعضها ببعض؛ لعظيم التشابه، ودقَّة الفروق بينها، والسلامة من كسر الوزن أو الإخلال فيه، وضمان

---

(١) الجوهري: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٨هـ - ١٠٠٧م). من فاراب من بلاد الترك، خاله الفارابي الفيلسوف المعروف، صاحب أشهر المعاجم العربية. انظر الوافي بالوفيات للصفدي ٩/ ٦٩.

(٢) الأخفش الأكبر: عبد الحميد بن عبد المجيد مولى قيس ابن ثعلبة (ت ١٧٧ هـ - ٧٩٣ م) من كبار العلماء بالعربية. انظر الزركلي: الأعلام ٣/ ٢٨٨.

(٣) القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٣٨١، ٣٨٢.

(٤) حمزة الأصبهاني: هو حمزة بن الحسن الأصفهاني (٢٨٠- ٣٦٠هـ/ ٨٩٣- ٩٧٠م) مؤرخ، أديب، من أهل أصبهان، له تصانيف كثيرة، منها «تاريخ أصبهان». انظر: مصطفى جلبي: كشف الظنون ١/ ٢٨٢، ٢٨٥، ٣٠١، والزركلي: الأعلام ٢/ ٢٧٧.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٥.

(٦) اليافعي: هو عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي (٦٩٨- ٧٦٨هـ/ ١٢٩٨- ١٣٦٧م) مؤرخ، باحث، متصوف، من شافعية اليمن، مولده بعدن ووفاته بمكة، من كتبه: (مرآة الجنان). انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة ٣/ ١٨-٢٠.

(٧) اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ١/ ١٦٥.

(٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٤، والقنوجي: أبجد العلوم ٣/ ٤.

قراءة الشعر قراءة صحيحة بمقتضى الوزن، والمعاونة على نظم الشعر بمعرفة السليم الموزون منه من المكسور وزنًا[١].

وقد حصر الخليل الشعر في ستة عشر بحرًا بالاستقراء من كلام العرب الذين خَصَّهم الله به، والبحور هي: الطويل، المديد، البسيط، الوافر، الكامل، الهزج، الرجز، الرمل، السريع، المنسرح، الخفيف، المضارع، المقتضب، المجتث، المتقارب، المتدارك، وهذا البحر الأخير زاده الأخفش، وتدارك به على الخليل[٢].

وقد جمعها أبو الطاهر البيضاوي في بيتين هما:

طَوِيلٌ يمد الْبَسْطَ بِالْوَفْرِ كَامِـل ... وَيَهْـزِجُ فِي رَجْـزٍ وَيُرْمِـلُ مُسْرِعـا

فَسَرْحٌ خَفِيفًا ضَارِعًا يَقْتَضِب لَنَا ... مَنِ اجْتُثَّ مِنْ قُرْبٍ لِنُدْرِكَ مَطْمَعَا[٣]

هذا، وقد كتب العلماء في العروض كتبًا، من أشهرها: عروض ابن الحاجب[٤]، والخطيب التبريزي[٥]، وعروض الخزرجي، وشفاء العليل في علم الخليل لأمين الدين المحلِّيّ[٦]، وفيما أورده السكاكي في (تكملة مفتاح العلوم) كفايةٌ في هذا الفنِّ[٧].

٣) علم المعاجم[٨]:

يقول الدكتور عدنان الخطيب: «إذا تفاخرت اللغة كُلٌّ بمُعجَمِها، فالفخر كل الفخر

---

(١) عمر الأسعد: معالم العروض والقافية ص١٦، ومحمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف: الأصول الفنية لأوزان الشعر العربي ص٢٠، ٢١.

(٢) انظر: السيد أحمد الهاشمي: ميزان الذهب في صناعة شعر العرب ص٢٩.

(٣) البيتان من بحر الكامل.

(٤) ابن الحاجب: هو أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر (٥٧٠- ٦٤٦هـ/ ١١٧٤- ١٢٤٩م) فقيه مالكي، من كبار العلماء بالعربية. ولد في صعيد مصر، وتوفي بالإسكندرية. من كتبه: «الكافية في النحو». انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٢٣٤.

(٥) الخطيب التبريزي: أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني اللغوي الخطيب، (٤٢١ - ٥٠٢ هـ/ ١٠٣٠ - ١١٠٩ م)، من أئمة اللغة والأدب. أصله من تبريز، ونشأ ببغداد وله «شرح ديوان الحماسة لأبي تمام». انظر الأعلام للزركلي ٨/ ١٥٧، وفيات الأعيان لابن خلكان ٦/ ١٩١.

(٦) أمين الدين المحلي: أبو بكر محمد بن علي بن موسى بن عبد الرحمن، الأنصاري (٦٠٠ - ٦٧٣ هـ) له شعر حسن، وتصانيف حسنة منها أرجوزة في العروض، انظر: السيوطي" بغية الوعاة ١/ ١٩٢.

(٧) انظر: كشف الظنون ٢/ ١١٣٣، ١١٣٤.

(٨) انظر في ذلك: الموسوعة العربية العالمية، الإصدار الرقمي الإلكتروني - السعودية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

لأُمِّها الضاد؛ إذ لم يعرف العالم أمة كالعرب فاقوا سائر الأمم عناية بلغتهم، وسعيًا في جمعها وتدوينها، وبحثًا في مفرداتها، وتعقبًا لدلالة الحرف الواحد من حروفها بحسب موقعه من اللفظ الواحد»[١].

والمُعْجَم بدءًا يُعرف بأنه كتاب يشتمل على عدد كبير من مفردات اللغة، مرتبة ترتيبًا مُعَيَّنًا، مقرونة بطريقة نطقها، وشرحها، وتفسير معانيها، ويُطْلق عليه أحيانًا اسم القاموس، وتَرْجِعُ أهميته إلى أنه يحتوي على معاني الكثير من الكلمات التي لا يمكن أن يحيط بها فرد واحد من أفراد تلك اللغة، مهما بلغ حرصه على استقصاء هذه الكلمات، وتتوزَّع مفردات اللغة بين أفراد أبنائها، كلٌّ بحسب بيئته وثقافته.

وقد بدأت فكرة المعجم عند العرب بعد نزول القرآن الكريم، وتَمَثُّل كثير من لهجات العرب فيه، ودخول غير العرب في الإسلام، واستعصاء بعض مفردات القرآن على كثير منهم؛ ممَّا استدعى شرح غريب القرآن والحديث ولغة العرب عمومًا.

فكانت صناعة المعجم عند علماء العربية نابعةً من التراث العربيِّ دون غيره؛ ولذا عُدَّ إبداعًا من إبداعات علماء العربية وسبقًا لهم؛ فقد فاقوا غيرهم في صناعة المعجم، وتعدَّدَتْ طرقُه لديهم، واختلفت أنواعه اختلافًا أثرى الدراسات حوله، حتَّى أقرَّ بتفوُّقهم غيرُهم من علماء اللغات الأخرى، فقال المستشرق الألماني أوجست فيشر (١٨٦٥ - ١٩٤٩ م):

«وإذا استثنينا الصين فلا يوجدُ شعبٌ آخرُ يحقُّ له الفَخارُ بوفرةِ كُتبِ علومِ لغتِه، وبشعورِه المبكِّرِ بحاجته إلى تنسيقِ مفرداتها، بحَسْبِ أصولٍ وقواعدَ غيرَ العرب»[٢].

ويقول المستعرب الكبير جون أ. هيوود، كبير أساتذة الدراسات العربية في جامعة درهام الإنجليزية في كتابه (صناعة المعاجم في العربية): «... وكان لدى العرب معجم شامل هو (لسان العرب) [٣] كانت دونه دقة وشمولاً معاجم سائر اللغات قبل القرن التاسع عشر»[٤].

---

(١) عدنان الخطيب: المعجم العربي بين الماضي والحاضر ص٥.

(٢) المجلة العربية، العدد٣٣٤، السنة ٢٩، ذو القعدة ١٤٢٥هـ/ يناير ٢٠٠٥م.

(٣) لسان العرب لابن منظور المتوفى سنة ٧٥٠هـ.

(٤) عدنان الخطيب: المعجم العربي بين الماضي والحاضر ص٥.

وقد كانت أولى الرسائل المعجمية في غريب القرآن تُنْسَب لعبد الله بن عباس (ت ٦٨هـ/ ٦٨٧م)، أجاب فيها عن أسئلة نافع بن الأزرق (ت ٦٥هـ/ ٦٨٤م) -من الخوارج- المسمّاة: (مسائل نافع بن الأزرق في غريب القرآن)، ثم تتالت الرسائل في هذا المجال؛ مثل: غريب القرآن لأبي سعيد أبان بن تغلب[1]، وتفسير غريب القرآن للإمام مالك، وغريب القرآن لأبي فيد مُؤَرِّج بن عمرو السدوسي[2]، وغيرها كثير.

أمّا المعاجم بمعناها العامّ والشامل فقد ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري بتأليف الخليل بن أحمد لمعجمه المسمَّى (العين) الذي اعتمد تبويب وترتيب مادته على حروف الهجاء حسب مخارجها الصوتية[3]، ثم اقتفى أثره أبو علي القالي (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م) في معجمه (البارع)، حيث رتبه حسب مخارج الحروف، وهو أول معجم يظهر في الأندلس. وممن اقتفوا أثر الخليل ونَحَوْا نَحْوَه في الترتيب والتبويب على طريقة المخارج: أبو منصور الأزهري[4]، في كتابه (تهذيب اللغة)، والصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) في كتابه (المحكم والمحيط الأعظم)، أمّا ابن دريد الأزدي فقد حاول الخروج على طريقة الخليل بن أحمد في الترتيب والتبويب في معجمه (جمهرة اللغة)؛ إذ خالفه باتخاذه الطريقة الألفبائيَّة غير أنه لم يُطَبِّقْها تمامًا، وسار على هذا الصنيع الأخير في الخلط بين الطريقة الألفبائية وتبويب المادة حسب بنية كلماتها أحمد بن فارس[5] في معجمه (مقاييس اللغة).

أمّا أبو نصر الجوهري (ت ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م) فقد أحدث طريقة في ترتيب معجمه (الصِّحاح) خالف فيها ما أُلِّفَ قبله؛ فقد اتَّبع الترتيب الألفبائي، ولكنه شذَّ في اتخاذ طريقة ترتيب الألفاظ داخل الأبواب حسب الحرف الأخير.

---

(١) أبان بن تغلب: أبو سعيد أبان بن تغلب بن رباح البكري الجريري الكوفي (ت ١٤١هـ/ ٧٥٨م)، قارئ لغوي وأديب، شيعي، له كتاب الغريب في القرآن. انظر الزركلي: الأعلام ١/ ٢٦.

(٢) أبو فيد مؤرج: هو أبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي (ت ١٩٥هـ/ ٨١٠م) إمام في العربية والنحو. انظر: الفيروزآبادي: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ١/ ٥٦.

(٣) انظر: الخليل بن أحمد: معجم العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي ١/ ١٥.

(٤) الأزهري: هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي (٢٨٢- ٣٧٠هـ/ ٨٩٥- ٩٨١م) أحد الأئمة في اللغة والأدب، مولده ووفاته في هراة بخراسان. من كتبه: «تهذيب اللغة». انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٣٣٤.

(٥) ابن فارس: هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٣٢٩- ٣٩٥هـ/ ٩٤١- ١٠٠٤م) من أئمة اللغة والأدب، أصله من قزوين، انتقل إلى الرَّيِّ وتوفي بها. من تصانيفه: «مقاييس اللغة». انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ١١٨.

وفي أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين أَلَّفَ الزمخشري معجمه (أساس البلاغة) الذي تفرَّد فيه باتباع الطريقة الألفبائية؛ حيث رتَّب الكلمات حسب أوائلها ثم ثوانيها فثوالثها، وهي الطريقة التي انتهجتها المعاجم الحديثة في ترتيب الألفاظ، وقد سبقه إلى هذا الترتيب نفسه بأكثر من قرنين من الزمان علي بن الحسن الهُنائي المعروف بكراع النمل[1] في معجمه (المنضّد) الذي وضعه على ترتيب حروف ألف باء تاء ثاء، كما نصَّ على ذلك ياقوت في معجمه، وغيره من المترجمين.

ثم توالى التأليف في المعاجم العامَّة مستفيدين من تجارِب السابقين في تأليف المعاجم، فقد أَلَّف ابن منظور كتابه (لسان العرب) مُتَّبِعًا فيه طريقة الجوهري في صِحاحه، وقد سار على منهج الصحاح واللِّسان الفيروزآبادي في كتابه (القاموس المحيط)، وقد اعتمد المرتضى الزبيدي[2] على القاموس المحيط في تأليف معجمه المسمَّى (تاج العروس من جواهر القاموس)، وزاد عليه في أنه تحدَّث عن حرف كل باب من أبواب معجمه، مُبَيِّنًا خصائص ذلك الحرف واستعمالاته اللغوية.

وقد صاحب تطوُّر المعجم العربي العام، الذي يهدف إلى شرح المعاني والكشف عن غوامضها، وهو ما يعرف بمعاجم الألفاظ، نوعٌ آخر من المعاجم تُوسَمُ بمعاجم المعاني، هدفها إيجاد الألفاظ والصياغات التي يستطيع الكاتب أن يعبِّرَ بها عن معانٍ عنده، أو استجدَّتْ في حياته، وقد أخذ هذا النوع من المعاجم منحًى يختلف عن معاجم الألفاظ في ترتيب مادَّته؛ حيث اتخذ طريقة الموضوعات، وأوَّل مؤلفات هذا النوع كتاب (الألفاظ) لابن السكيت (ت ٢٤٤هـ/ ٨٥٨م)، ثم تتابع التأليف في ذلك، فأَلَّف عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني[3] كتابه (الألفاظ الكتابية)؛ الذي سار فيه على هدي كتاب ابن السِّكِّيت في الترتيب الموضوعي، مُقَسِّمًا موضوعاته أبوابًا متعدِّدة.

---

(١) كُراع النمل: هو أبو الحسن علي بن الحسن الهنائي (ت٣١٠هـ/ ٩٢١م) عالم بالعربية من أهل مصر، من كتبه: (المنضّد). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٠/ ٢٠٩.

(٢) المرتضي الزبيدي: أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق، الزبيدي، الملقب بالمرتضي (١١٤٥ هـ - ١٢٠٥هـ/ ١٧٣٢م - ١٧٩٠م). علامة في اللغة والحديث والرجال والأنساب، ولد بالهند ونشأ بزبيد وتوفي بمصر، له كتاب «عقود الجواهر المنيفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة» و«معجم تاج العروس».

(٣) عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني: (ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م)، من كبار الكتاب، كان كاتب الرسائل للأمير بكر بن عبد العزيز العجلي. وله كتاب الألفاظ الكتابية، قال فيه الصاحب بن عباد: «جمع شذور العربية الجزلة، في أوراق يسيرة». انظر الأعلام للزركلي ٣/ ٣٢١.

أمّا قدامة بن جعفر[١] فألّف كتاب (جواهر الألفاظ) بعد اطّلاعه على كتاب الهمذاني فلم يُشْبِع نهمه، ويشفي غليله، وقد ألّف أبو هلال العسكري[٢] أهمَّ الكتب في هذا الباب تنظيمًا واتساعًا، وهو كتاب (التلخيص)؛ لأنه يرقى إلى مستوى المعجم بالرغم من إيجازه واختصاره. وقد ألّف في هذا الميدان أيضًا أبو منصور الثعالبي[٣] كتابه (فقه اللغة)، وقد توَّج هذا النوع من التأليف ابن سِيدَه الأندلسي في كتابه (المُخَصَّص)؛ حيث بلغ مرتبة عالية من التبويب والتنظيم، والشمول والاستيعاب، فهو أكبر معجم من معاجم المعاني العربية حتى الآن، وأغزرها مادّة، وأجدرها بحمل اسم معجم المعاني[٤].

يقول خبير المعاجم الأوربي (Hay – wood) عن مكانة وأهمية المعاجم عند المسلمين: «الحقيقة أن العرب في مجال المعجم يحتلُّون مكان المركز - سواء في الزمان أو المكان - بالنسبة للعالم القديم والحديث، وبالنسبة للشرق والغرب»[٥].

وبذلك تكون المعاجم العربية - على اختلاف أنماطها - من إبداع الفكر العربي الإسلامي، ونتيجة لجهود العلماء المسلمين منذ القرن الثاني الهجري.

***

(١) قدامة بن جعفر: هو أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة (ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م) كاتب، من البلغاء المتقدمين في علم المنطق والفلسفة، توفي ببغداد. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٢٠.

(٢) أبو هلال العسكري: هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (بعد ٣٩٥هـ/ بعد عام ١٠٠٥م) عالم بالأدب، له شعر ومعرفة بالفقه. من كتبه: «التلخيص». انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٢/ ٥٠.

(٣) الثعالبي: هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (٣٥٠- ٤٢٩هـ/ ٩٦١- ١٠٣٨م) من أئمة اللغة والأدب، من أهل نيسابور، من كتبه: (يتيمة الدهر) . انظر: الصفدي: الوافي بالوافيات ١٩/ ١٣٠.

(٤) انظر: عدنان الخطيب: المعجم العربي بين الماضي والحاضر ص٣٧-٤٦.

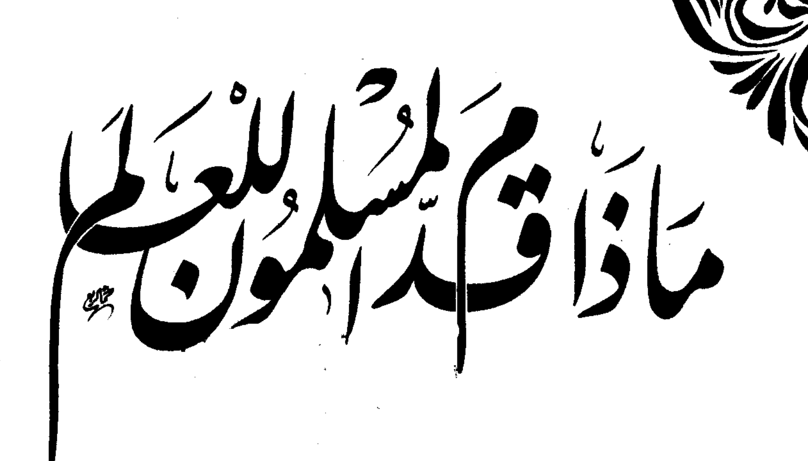
(٥) أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب ص٣٤٣.



الفهرس

***

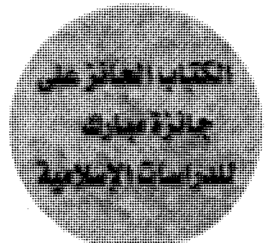




إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية

ملحق كامل
من الصور
الملونة

الجزء الثاني



د. راغب السرجاني



الطبعة الثانية

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٠٧٦

بطاقة الفهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

راغب، السرجاني
ماذا قدم المسلمون للعالم/ تأليف/ راغب السرجاني.
ط١ - القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٩
ج٢ (٤٤٨ ص)، ٢٤ سم تدمك: ٧ - ٦٣١ - ٤٤١ - ٩٧٧
١ - الإسلام والعلاقات الخارجية ٢ - الحضارة الإسلامية
أ - العنوان ٢١٤.٣٢٧

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة
١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط
القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٥٢٢٤٢٠٧ - ٠١٢٢٦٣٤٤٠٤٣
E-mail:iqraakotob@yahoo.com

الباب السادس

المؤسسات والنظم
فى الحضارة الإسلامية

لعلَّ من أكثر ما يدلُّ على رُقِيِّ الأُمَّة وتحضُّرِهَا تلك النظم والمؤسسات التي يتعايش بنوها من خلالها، فتَحْكُمهم وتنظِّم أمورهم ومعايشهم، وتحافظ على سير حياتهم متعاونين متراحمين؛ لتمنحهم في النهاية حياة إنسانية كريمة، وعلى قَدْر مواءمة هذه النظم وتلك المؤسسات لطباع الإنسان كمخلوق بشري اجتماعي يَأْلَف ويُؤْلَف، ويُؤَثِّر ويَتَأَثَّر، وعلى قَدْر عملها على قضاء مصالحه، ودَرْء المفاسد عنه، وإصلاح أحواله المعيشية والتعليمية والاجتماعية والصحية.. على قدر سمو النزعة الإنسانية لهذه الحضارة بين الحضارات والأمم.

وفي هذا الباب نعرض لواحدة من أهمِّ إسهامات المسلمين الحضارية الإنسانية، وهي تلك التي تتمثَّل في النظم والمؤسسات، ونُجْمِلها في الفصول التالية:

- الفصل الأول: الخلافة والإمارة
- الفصل الثاني: الوزارة
- الفصل الثالث: الدواوين
- الفصل الرابع: مؤسسة القضاء
- الفصل الخامس: المؤسسة الصحية
- الفصل السادس: الخانات والفنادق

الفصل الأول

الخلافـــة والإمـــارة

ارتقت الحضارة الإسلامية ارتقاءً فريدًا، جعلها تُضيف للحضارة الإنسانية الكثير والكثير، ومن أهم الدعائم التي قامت عليها حضارتنا الإسلامية الخالدة النظام المؤسسي الذي لم يتقيَّد بأفراد أو جماعات، لها ثمة أغراض ضيقة ومحدودة؛ إذ ارتبطت هذه المؤسسات بالدستور الإسلامي القائم على كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، والذي أتاح للأفراد أن يُظهروا طاقاتهم ومواهبهم؛ مما حدا بهذه المؤسسات أن تتجدَّد عبر الزمن، وتتواكب مع عصرها ومصرها؛ ومن أهم المؤسسات التي أضافت للتراث العالمي ذخيرة رائعة، وفيضًا من النظريات والقواعد التي ما زالت تُطَبَّق حتى عصرنا الحاضر نجد «المؤسسة السياسية الإسلامية»، هذه المؤسسة الرائعة التي تَرَتَّب على إنشائها، وتطويرها عبر مراحلها الإسلامية المتعاقبة أن اعتُبرت أنموذجًا يُحتذى بالنسبة للأمم الإنسانية الأخرى.

وإن المتأمل للإسلام وتاريخه يُدرك أن تغييرًا جوهريًّا جاء به هذا الدين العريق، هذا التغيير شمل كافَّة مناحي الحياة البشرية؛ فالإسلام استطاع أن يُغيِّر البشر أنفسهم، ويُغيِّر ما توارثوه عن آبائهم وأجدادهم في النواحي الأخلاقية والسلوكية، والعقائدية والاجتماعية، والسياسية والاقتصادية... بل أزال الإسلام النظم السياسية الكسروية والقيصرية التي ظلت جاثمة على صدور الناس آلاف السنين؛ لأنها لم تتوافق مع ما جاءت به الرسالة الإسلامية من ضرورة تحقيق قواعد الحكم بين الناس، والتي تقوم على العدل والمساواة، والبحث عن مصالح الرعية، وحفظ دينهم ودنياهم، وضرورة احترام كرامتهم وعدم امتهانها، وغير ذلك مما لا يُستطاع حصره.

وقبل الخوض في حديثنا عن الخلافة الإسلامية وكذا الإمارة من المنظور الحضاري، يجب أن نتوقف مع وجهة نظر لُغويِّي الإسلام ومؤرخيه ومفكريه حول هذه القضية المهمة، فكل قد ارتأى الخلافة من منظوره الثقافي والأيديولوجي والتربوي.

فالتعريف اللغوي للخلافة يذكره ابن منظور المصري بقوله: «خَلَفَهُ يَخْلُفُهُ صَارَ خَلْفَهُ... وَالخَلِيفَةُ الَّذِي يُسْتَخْلَفُ مِمَّنْ قَبْلَهُ، وَالْخِلافَةُ الإِمَارَةُ»[١]. على أن الزبيدي ينقل عن ابن الأثير قوله: «الخَلَفُ، بِالتَّحْرِيكِ، وَالسُّكُونِ: كُلُّ مَنْ يَجِيءُ بَعْدَ مَنْ مَضَى، إِلاَّ أَنَّهُ بِالتَّحْرِيكِ فِي الْخَيرِ، وَبِالتَّسْكِينِ فِي الشَّرِّ»[٢].

ولقد استعمل القرآن الكريم لفظ «الخليفة» بصيغة الجمع للإشارة إلى بعض الجماعات، لكن لم تكن لها أدنى علاقة بالمؤسسات السياسية، واستخدمها في محلَّيْن مفردة، مرَّة إشارة إلى آدم ﷺ إذ قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٣]، ومرَّة إلى داود ﷺ: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾[٤]، وكانت معظم التفاسير حول هاتين الآيتين تدور حول المعاني اللغوية، من الاستخلاف والنيابة[٥]، ومن ثم وجدنا أبا بكر الصديق ﷺ أول من تلَّقب بالخليفة؛ إذ خلف رسول الله ﷺ في رئاسة الأمة[٦].

وأما الإمارة فكانت منصبًا مُلحًّا بعدما اتسعت دولة الإسلام، وتعددت الأقطار، فقد كان الخليفة يُفَوِّض إمارة بلد أو إقليم للوالي أي الأمير على جميع أهله، ويكون لهذه الولاية عقد يتم باختيار الخليفة ورضائه، ومن ثم أصبح كل مَن يتولى أمر بلد أو قطر من الأقطار نيابة عن الخليفة يُلقب بالأمير أو الوالي[٧].

والإمارة كما قسَّمها فقهاؤنا على نوعين: إمارة عامَّة، وإمارة خاصَّة، والإمارة العامَّة كذلك على فرعين: الأول: إمارة الاستكفاء: وهي أن يُفَوِّض رئيسُ الدولة باختياره إلى شخص إمارة بلد، أو إقليم، ويَعْهَدُ إليه بالولاية على جميع سكانه، وعلى جميع شئونه ومصالحه، والثاني: إمارة الاستيلاء: ولا تكون إلاَّ عندما يستولي رَجُلٌ على الإمارة،

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة خلف ٩/ ٨٢.
(٢) الزبيدي: تاج العروس باب الفاء فصل الخاء مع اللام ٢٣/ ٢٤٧.
(٣) (البقرة: ٣٠).
(٤) (ص: ٢٦).
(٥) انظر: الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ١/ ٤٤٩.
(٦) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٦/ ٣٣٣.
(٧) انظر: كمال عناني إسماعيل: دراسات في تاريخ النظم والحضارة ص٦٣.

ويستبدُّ بالسلطة، ويخشى رئيس الدولة وقوع الفتنة إن هو لم يَقْبَلْ به، فعندئذٍ يجوز له أن يُقِرَّه على هذه الإمارة، ولا تكون هذه الإمارة إلاَّ للضرورة.

وأمَّا الإمارة الخاصَّة: فهي التي تتحدَّد فيها سلطات الأمير بصلاحيات مُعَيَّنَة؛ كتدبير الجيش وسياسة الرعية، وحماية الإقليم، والدفاع عن المحارم، وليس له أن يتعرَّض للقضاء والأحكام وجباية الخراج والصدقات، ويلاحظ أن الإمامات كانت في صدر الإسلام عامَّة، ثم بدأتْ تُخَصَّصُ بِتَوَسُّع الدولة وتَعَقُّد الجهاز الإداري، حتى أصبحت سلطة الأمير مقصورة على قيادة الجيش وإمامة الصلاة[1].

وعلى كُلٍّ فإننا سنوضِّح إسهامات المسلمين الحضارية في مؤسسة الخلافة والإمارة من خلال المباحث التالية:

- المبحث الأول: شروط الخلافة الإسلامية
- المبحث الثاني: كيفية اختيار الخلفاء والأمراء
- المبحث الثالث: البيعة
- المبحث الرابع: ولاية العهد
- المبحث الخامس: علاقة الحاكم بعوام الناس
- المبحث السادس: إسهامات المسلمين النظرية في نظام الحكم
- المبحث السابع: علاقة الحاكم والمحكوم في الحضارة الإسلامية
- المبحث الثامن: الفتن السياسية من المنظور الحضاري

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٣٠ وما بعدها، وفتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ص ٦٨-٧١.

المبحث الأول
شروط الخلافة الإسلامية

عند الحديث عن شروط الخلافة الإسلامية، فإننا نعني بها تلك الشروط التي وضعتها الشريعة الإسلامية، واتفقت الرعية من العلماء والعامة على ضرورة تحققها ووجودها في الراعي، قبل توليته مقاليد الحكم، ومراسم الخلافة.

ومما لا ريب فيه أن التأمل في هذه الضوابط والشروط، ومقارنتها بالضوابط التي تعارفت عليها المجتمعات الفارسية والرومية في زعمائها وحكامها، ليأخذنا نحو الإبهار الحقيقي، والتقدم الحضاري الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية على صعيد مؤسسة الحكم الإسلامية.

إن الإسلام جاء ليرفع من قيمة الإنسان، ويجعل كل إنسان خليفة لله في أرضه، بيد أنه حافظ في ذات الوقت على وحدة الجماعة الإسلامية، من خلال وضع مجموعة من الأنظمة والضوابط التي تجعل هذه الأمة في مصافِّ الأمم الأخرى، بل أعظم وأفضل.

إذن حقق الإسلام المعادلة الصعبة التي كانت مفتقدة في الأنظمة السابقة وكذا اللاحقة، هذه المعادلة التي تقوم على ضرورة تحقيق شرع الله في الأرض، مع حفظ الحقوق الكاملة للراعي، وإجابة كل المتطلبات الشرعية التي تحتاجها الرعية؛ مسلمة كانت أم غير مسلمة، ولا عجب أن نجد هذه المعادلة ظاهرة جلية في المؤسسة السياسية الإسلامية بأصولها وفروعها.

ولما كان منصب الخليفة أو أمير المؤمنين أو رئيس الدولة المسلمة، من أهم المناصب على الإطلاق؛ فبه تقوم «حراسة الدِّين وسياسة الدُّنيا»[1]، وجدنا فقهاء ومجتهدي الإسلام يضعون مجموعة من الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى هذا المنصب، وقد حددها الإمام الماوردي بسبعة شروط، وهي:

الأول: العدالة على شروطها الجامعة.

والثاني: العلم المؤدِّي إلى الاجتهاد في النَّوازل والأحكام.

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٣.

والثالث: سلامة الحواسِّ من السَّمع والبصر واللِّسان؛ ليصحَّ معها مباشرة ما يدرك بها.

والرابع: سلامة الأعضاء من نقصٍ يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

والخامس: الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.

والسادس: الشجاعة والنجدة المؤدِّية إلى حماية البيضة وجهاد العدوِّ.

والسابع: النسب وهو أن يكون من قريشٍ لورود النصِّ فيه وانعقاد الإجماع عليه[1].

ومن دون شكٍّ فإن مؤسسة الخلافة قد أخذت في عين الاعتبار هذه الشروط، فسارت على نهجها، واهتمَّ عامة المسلمين بضرورة تحققها ووجودها في خليفتهم، ووجدنا كثيرًا من خلفاء المسلمين قد اتصفوا بهذه الصفات التي حددها الفقهاء، فهذا عبد الملك بن مروان بن الحكم (ت٨٦هـ)، يصفه ابن قتيبة الدينوري في كتابه «الإمامة والسياسة»، وذلك في مستهلِّ حديثه عن بدء خلافته للمسلمين بقوله: «إن عبد الملك بن مروان... وعد الناس خيرًا، ودعاهم إلى إحياء الكتاب والسنة، وإقامة العدل والحق، وكان معروفًا بالصدق مشهورًا بالفضل والعلم، لا يختلف في دينه، ولا ينازع في ورعه، فقبلوا ذلك منه، ولم يختلف عليه من قريش أحد، ولا من أهل الشام»[2].

فعامة المسلمين قد بايعوا عبد الملك بن مروان نتيجة لتلك الصفات الذي ذكرها ابن قتيبة، وهذه الصفات هي من جملة الشروط التي وضعها فقهاء الإسلام فيمن تحلى برتبة الخلافة، وهذا الأمر لافت للانتباه؛ إذ لم تكن تقييمات الفقهاء وشروطهم - التي استنبطوها من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ - مجرَّد كلام نظري عابر لا دخل للمجتمع به، بل على النقيض من ذلك تمامًا، فقد كانت ثمة علاقة وثيقة بين ما يقرُّه الشرع الحنيف، وما يترتَّب عليه من تطبيق في أرض الواقع الإسلامي، وهذا ما وجدناه في أمر الخلافة أو الإمامة الكبرى كما ذكر فقهاء الإسلام.

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٥.

(٢) ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة ٣/ ١٩٣.

وإذا ما تأكَّدنا من أن منصب الخلافة كان منضبطًا في حضارتنا الإسلامية بتلك الضوابط الشرعية، وأن الخليفة ما هو إلا بشر، قد تميز عن الآخرين بمميزات جعلته يتأهل إلى هذا المنصب، إلا أن ذلك لم يُعفه من المساءلة أمام الرعية، أو يُصبغ نفسه بصبغة التأله- التي لمسناها في الإمبراطورية الفارسية أو الرومية - تيقنَّا أن منصب الخلافة الإسلامية كان منصبًا إنسانيًّا، ونعني بذلك حفظ حقوق الرعية، وضرورة تحقيق العدل بينهم جميعًا، وهو ما لم يحرص عليه ملوك الفرس والروم.

فكسرى إمبراطور فارس، كان في عُرف الثقافة الفارسية بمثابة إله، وقد ظهر هذا جليًّا في تعامل ملوك الفرس مع رعيتهم، حتى أطلق كثيرٌ منهم العنان في البطش وجمع الأموال واستعباد الرعية، وأكبر مثال على ذلك كسرى الثاني، الملك الذي سمى نفسه «الرجل الخالد بين الآلهة، والإله العظيم جدًّا بين الرجال، صاحب الصيت الذائع الذي يصحو مع الشمس، والذي يهب عينيه للنيْل»[1]، وقد وصفه أرثر كريستنسن في كتابه «إيران في عهد الساسانيين» بأنه: «قد ظلم الشعب ليملأ خزائنه، كما أنه لم يَرْعَ العظماء أيضًا. كان حقودًا شديد الشكِّ، ينتهز الفرص ليقتل من يَشُكُّ فيه مِنَ الذين أخلصوا في خدمته»[2].

ولقد كانت تولية حكم كسرى الفرس تتم عن طريق الوراثة، دونما أي ضابط اجتماعي أو ثقافي أو سياسي يحكم هذا الأمر، فلم يكن للشعب أدنى قيمة في عرف ملوك الفرس، وهذا أمر لا يُستغرب إذا عرفنا أن الدولة الفارسية كانت مُقَسَّمة من الناحية الاجتماعية إلى طبقات أربع بعضها فوق بعض، وهي: طبقة رجال الدين، وطبقة رجال الحرب، وطبقة كُتاب الدواوين، وطبقة الشعب (الفلاحين والصناع...)، وهذه الطبقات الاجتماعية كلها، كانت دون طبقة الأسرة المالكة (الساسانيين) [3].

وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى الرومان، فالسلطة التي كانت تُمْنَح للإمبراطور كانت سلطة مطلقة، وهي تفويض شعبي لشخص الإمبراطور الذي كان يحكم بالحديد والنار،

(١) أرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ص٤٣٢.
(٢) المصدر نفسه ص٤٣٣.
(٣) المصدر نفسه ص٨٥.

ولا سبيل للشعب بأن يُقاوم هذه السلطة ولو كانت مستبدَّة عاتية[١].

ووصل التدهور في تعيين الإمبراطور إلى أدنى مراحله، حينما استبدَّ العسكريون بشئون الإمبراطورية، وسار الإمبراطور الروماني من جملة قُوَّاد الجيش؛ فقد أحاط هؤلاء الأباطرة العسكريون مناصبهم بهالة من القدسية، بعدما صارت بيدهم مقاليد الأمور، والحلّ والنهي، ولم يكن هناك رادع يردُّ هؤلاء المستبدين من العلماء أو الرعية، ومن ثَمَّ كان من الطبيعي مع هذه الأحداث أن يُطلق على الإمبراطور أورليان[٢] عندما تولى مقاليد الحكم عام ٢٧٠م لقب السيِّد والإله، بل تفاقم الأمر في عهد الإمبراطور دقلديانوس -أشهر وأقسى أباطرة الرومان- الذي شهدت الإمبراطورية في عهده النموذج المثالي لمعنى الإمبراطور الفاسد[٣]!

والحق أن الضوابط الفقهية والأخلاقية التي وضعها علماؤنا، كانت متمثِّلَة في كثير من خلفاء المسلمين، فهذا أمير المؤمنين هارون الرشيد رحمه الله يعفو عن أحد المسيئين في حقِّه عندما يُذَكِّره بالله[٤]، ولا نجد مِثْل هذا عند أحدٍ من ملوك الفرس أو الروم، وليس هذا الأمر استعراضُ عدلِ خلفاء المسلمين، بقدر ما هو تطبيق منهم بما أَقَرَّته ضوابط الدين في هذا الشأن.

***

(١) محمود إبراهيم السعدني: معالم تاريخ روما القديم ص٦٣.

(٢) اوريليان: إمبراطور روماني (٢١٥ - ٢٧٥م) استطاع بحكمه العسكري أن يعيد الوحدة إلى إمبراطوريته التي ترامت أطرافها، وقد سك عملته وعليها عبارة مجدد العالم، ولد في والية إليريكوم على البحر الأدرياتيكي، وقتلته مجموعة من الضباط.

(٣) محمود محمد الحويري: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية ص٢٥، ٢٦.

(٤) الطرطوشي: سراج الملوك ص٧١.

المبحث الثاني
كيفية اختيار الخلفاء والأمراء

لقد منحت الحضارة الإسلامية أفضل الطرق وأعدلها لكيفية اختيار الخلفاء والأمراء، وهذه السبل هي مما تفرَّدت به الحضارة الإسلامية عما سواها من الحضارات السابقة واللاحقة عليها، فأُولَى الآليات المبتكرة التي جاءت بها حضارتنا الإسلامية الخالدة، في مجال اختيار الخلفاء أو أصحاب المناصب العليا في الدولة الإسلامية، نجد الشورى، وليس هناك أدنى ريبة في أن الشورى مبدأ إسلامي خالص، ولأهمية قضية الشورى في الحضارة الإسلامية والإنسانية، فقد أفردنا لها مبحثًا مستقلاً.

ولكننا في حديثنا هنا نتحدَّث عن الأشكال المختلفة التي ابتكرها المسلمون لاختيار خليفتهم، ولا شكَّ في أننا نجد أن الخلفاء الراشدين، قد جاءوا إلى الخلافة عبر أربع طرق مختلفة، ولكنها مع اختلافها وتباينها، قد مَثَّلت لجمهور المسلمين أربع نظريات أو أمثلة شرعية يمكن من خلالها اختيار خليفة المسلمين أو إمامهم، وهذا التنوُّع في حقيقته هو مما قدمته الحضارة الإسلامية للإنسانية كلها في مجال اختيار الحاكم أو الزعيم.

ومن أُولَى الأمثلة أو النماذج الرائدة، نجد طريقة اختيار خليفة لرسول الله ﷺ؛ فالأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ليختاروا من أنفسهم إمامًا للمسلمين، لكن ثلاثة فقط من المهاجرين قد اجتمعوا بهم، وهم أبو بكر الصديق ﷺ، وعمر بن الخطاب ﷺ، وأبو عبيدة بن الجراح ﷺ، فالنتائج التي توصَّل إليها المجتمعون والتي تمثَّلت في ترجيح كفة المهاجرين، ومبايعة أبي بكر الصديق ﷺ لم نجد لها مثيلاً في تاريخ الحضارات البشرية، في اختيار زعيم أو رئيس بمثل هذا النقاش الحرِّ؛ خاصة إذا علمنا أن هذا الزعيم من فرع ضعيف في قبيلة قريش، وهو فرع تيم، بينما يترك الأنصار وهم في بلدهم الأمر له؛ لأنه الأصلح والأفضل، ويمكن أن نطلق على هذه النموذج «الاختيار الشعبي المباشر»[1]!

وثاني هذه الأمثلة أو النماذج التي قَدَّمها المسلمون في المنظومة السياسية الحضارية ما

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٤٣- ٢٤٥.

قام به أبو بكر الصديق ﷺ من عهد لعمر بن الخطاب ﷺ، ولم يكن هذا العهد جبرًا على المسلمين؛ فقد كان باختيارهم، وبعرض من أبي بكر ﷺ لهم؛ فقد ذكر الطبري في تاريخه، أن أبا بكر خرج على الناس في مرض وفاته فقال لهم: «أترضون بمن أستخلف عليكم؟! فإني والله ما ألوت من جهد الرأي، ولا وَلَّيت ذا قرابة، وإني قد استخلفتُ عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا»[١].

ولم يكن فِعْل أبي بكر ﷺ هذا مفاجأة للمسلمين؛ فقد استطلع آراء كبار الصحابة قبل قراره هذا، فمما رواه الطبري أن أبا بكر ﷺ لما عزم على العقد لعمر ﷺ في مرض الوفاة «دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: أخبرني عن عمر. فقال: يا خليفة رسول الله، هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة. فقال أبو بكر: ذلك لأنه يراني رقيقًا، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرًا مما هو عليه، ويا أبا محمد قد رمقتُهُ فرأيتُني إذا غضبتُ على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه، وإذا لنتُ له أراني الشدةَ عليه، لا تذكر يا أبا محمد مما قلتُ لك شيئًا. قال: نعم. ثم دعا عثمان بن عفان، قال: يا أبا عبد الله، أخبرني عن عمر. قال: أنت أخبرُ به. فقال أبو بكر: على ذاك يا أبا عبد الله. قال: اللهم علمي به أن سريرته خيرٌ من علانيته، وأن ليس فينا مثله. قال أبو بكر: رحمك الله يا أبا عبد الله، لا تذكر مما ذكرتُ لك شيئًا. قال: أفعلُ»[٢]. ولذلك كان العهد لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بمثابة «إجماع الأمة على مرشح الخليفة السابق».

والآلية الثالثة التي قَدَّمَتْها الحضارة الإسلامية في منظومة السياسة العالمية، ما رأيناه من ترشيح ممنهج من الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ لمن يأتي من بعده؛ فقد اختار ستة من كبار صحابة رسول الله ﷺ، وهم الذين اجتمعت آراء المسلمين داخل المدينة وخارجها على مكانتهم وفضلهم، ومن ثم صلاحيتهم لتولية إمامة المسلمين، والحق أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ قد اختار هؤلاء بناء على رضا رسول الله ﷺ عنهم، فهم «المبشَّرُون بالجنة»، والمستغرب أنهم لم يكونوا ستة فقط، بل سبعة نفر، وهم: عثمان بن عفان الأموي ﷺ، وعلي بن أبي طالب الهاشمي ﷺ، وعبد الرحمن بن عوف الزهري ﷺ،

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٣٥٢، ٣٥٣.
(٢) المصدر نفسه ٢/ ٣٥٢.

وسعد بن أبي وقاص الزهري ﷺ، والزبير بن العوام الأسدي ﷺ، وطلحة بن عبيد الله التيمي ﷺ، وأما سابعهم فهو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، لكن عمر بن الخطاب ﷺ قد استبعده لقرابته منه، فلم يشأ أن يلي أمر المسلمين أحد من آل عمر أو من أقاربه فـ«بحسب آل عمر أن يُحاسب منهم رجل واحد!»[١].

ومن دون شكٍّ أن هذه الآلية التي اقترحها عمر ﷺ، كانت مقبولة لأقصى درجة من خاصة المسلمين وعامتهم، بل يمكن القول: إنها توافقت مع ما استجد على ساحة المسلمين من رقعة شاسعة، ومسئولية هائلة، فلم يكن من المتوقع أن يعهد عمر ﷺ لأحد بعينه وسط هذه الظروف الجديدة، ومن ثم تواكبت هذه الآلية العمرية مع الأحداث حينئذ، وبالطبع فإنها كانت منضبطة بالضوابط الشرعية التشاورية؛ لذلك استطاع المجتمعون أو «أهل الشورى» أن يتوصَّلُوا إلى اختيار خليفة بطريقة تشاورية رائعة في المدة التي حددها عمر بن الخطاب ﷺ، وتمت الموافقة على الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ، وهذه الطريقة التي استحدثها عمر ﷺ، بمثابة «تنافس المرشحين بطرق شرعية على منصب الخلافة».

والطريقة الرابعة التي تم اختيار الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ﷺ من خلالها، كانت غاية في الأهمية ويجب الوقوف أمامها؛ لأنها كانت ملازمة لأحداث استثنائية مرت بها الدولة الإسلامية حينئذ، وهذه الأحداث كانت الفتنة بعينها[٢]! ومن ثم، كان من الضروري أن تدرأ الأمة هذه المفسدة قبل استفحالها، فلم يكن من بُدٍّ أن يُسرع المسلمون لمبايعة رجل بمكانة علي بن أبي طالب ﷺ، وهو ما تمَّ بالفعل، حتى إن علي بن أبي طالب ﷺ، قد اشترط أن تكون بيعته عامة في المسجد، ولقد كان البعض كعبد الله بن عباس ﷺ في تخوُّف من البيعة في المسجد وسط هذه الفتنة وأحداث «الشغب»، لكن البيعة قد تمت بالفعل من المهاجرين والأنصار في مسجد رسول الله ﷺ[٣]، وهذه الآلية الجديدة التي لجأ

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٨٠.

(٢) خصصنا فصلاً مستقلاً لاحقًا عن الفتنة من المنظور الحضاري الإسلامي، وسنعلق هناك على استخلاف علي بن أبي طالب وسط هذه الظروف بطريقة مفصلة.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٦٩٦.

إليها المسلمون وسط هذه الأحداث الدامية يمكن أن نطلق عليها «اللجوء إلى الرجل المناسب في أوقات المحن».

هذه الآليات المتنوِّعة هي مما قَدَّمته الحضارة الإسلامية كحلول ناجعة وشرعية لكيفية اختيار الحكام والرؤساء، وقد جمعت هذه الآليات بين أوقات مختلفة، وأحداث متنوِّعة؛ حيث جمعت بين السلم والهدوء، وبين الحرب والفتن، ولكن الجامع لهذه الآليات كان مبدأ الشورى والبيعة، وهذان الأمران سنُفْرِد لهما فصلين مستقلين، وكذلك الخلافة بالعهد والوراثة.

والحق أن هذه الآليات الأربع في اختيار الحاكم - وغيرها من الآليات التي استحدثها المسلمون بعد عصر الخلفاء الراشدين - هو مما يُؤَكِّد على مرونة الشريعة الإسلامية، ومن ثَمَّ قدرة الحضارة الإسلامية على مواكبة المستجدات، وهذه المرونة هي مما تَفَرَّدَتْ به الحضارة الإسلامية على سواها من الحضارات الأخرى.

وأما طريقة اختيار الولاة والأمراء وعمال الدولة فكانت متنوِّعة وباهرة، ولقد وضع رسول الله ﷺ منهجًا عامًّا لمن يتولَّى الإمارة، فعن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال النبي ﷺ: **«يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا»**(١).

ولذلك سار النبي ﷺ على هذا النهج الذي وضعه في تقليد الإمارة، فعن أبي ذر قال: قلتُ: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: **«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»**(٢). فالنبي ﷺ وهو قائد المسلمين، يعلم مَنْ يقدر على أعباء هذه المهمة ومن لا يقدر، ولقد أيقن رسول الله ﷺ أن أبا ذر لا يصلح لهذا الأمر، فنصحه بالابتعاد عنها؛ خشية ضياعها، وعدم الاعتناء بها، ولا شكَّ أن هذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ، وقاعدة

---

(١) البخاري: كتاب الأيمان والنذور (٦٢٤٨)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه (١٦٥٢).

(٢) مسلم: كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة (١٨٢٥).

إسلامية حضارية في تولية الأمراء والولاة أصحاب الكفاءة، والبعد كل البعد عمن لا يصلحون لهذه المهمة، وإن كانوا من ذوي القربى والصحبة.

لذلك فأول ما يلفت الانتباه في تعيين الأمراء أن رسول الله ﷺ كان يضع صاحب الكفاءة الإدارية في مكانته التي تليق به؛ إذ لم يكن الأمير من المقرَّبين من رسول الله ﷺ بقدر ما كان من المؤهلين على تولية الإمارات، فقد ولَّى النبي ﷺ إمارة اليمن لباذان بن ساسان - من ولد بهرام جور - «أمَّره رسول الله ﷺ على أهل اليمن كلِّها بعد موت كسرى، فهو أول أمير في الإسلام على اليمن، وأوَّل من أسلم من ملوك العجم، ثم أمَّر رسول الله ﷺ بعد موت باذان ابنه شهر بن باذان على صنعاء وأعمالها، ثم قُتِل شهر، فأمَّر رسول الله ﷺ على صنعاء خالد بن سعيد بن العاص، وولَّى رسول الله ﷺ المهاجر بن أبي أمية المخزومي كندة والصَّدف..»[(١)].

وهذا النص السابق الذي يسوقه لنا ابن القيم[(٢)] -رحمه الله- يُؤَكِّد على أن الحضارة الإسلامية كانت تأخذ في عين الاعتبار - منذ النبي ﷺ - أن من يشغلون المناصب العُليا في الدولة لا بُدَّ أن يكونوا من أصحاب المهارات والخبرات الفنية اللازمة لذلك، فالمعلوم أن اليمن بالنسبة لمكة والمدينة كانت من أهم المناطق الحيوية التي تُمِدُّ الجزيرة بالكثير من الأموال الخراجية والعشور وأموال الصدقات والغلال والحبوب، ومن ثَمَّ فأميرها لا بُدَّ أن يكون على درجة عالية من الخبرة والدراية لمباشرة الأمور السياسية، ومتابعة الحالة الاقتصادية لإمارته.

ونجد أن عمر بن الخطاب ﷺ يضع شروطًا فيمن يتولَّى الإمارة فيقول: «لا يصلح الوالي إلا بأربع خصال، إن نقصت واحدة لم يصلح له أمر: قوة على جمع المال من أبواب حلِّه، ووضعه في حقِّه، وشدة لا جبروت فيها، ولين لا وهن فيه»[(٣)].

ومن ثَمَّ، كان عمر بن الخطاب ﷺ يُمعن في اختيار الولاة والعمال، فلم يُعيِّن واليًا أو

(١) ابن القيم: زاد المعاد ١/ ١٢٥.

(٢) ابن القيم: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي (٦٩١ - ٧٥١هـ/ ١٢٩٢ - ١٣٥٠م)، من أعلام الإسلام وتلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية. من كتبه زاد المعاد ومدارج السالكين. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٥٦.

(٣) الطرطوشي: سراج الملوك ص٥٠.

عاملاً إلا بعد اختبارات علنية وسرية، وبعد أن يسأل عنه ويتأكَّد من أهليته وصلاحيته لهذا المنصب، وكان يشترط عليه ألا يُغلق بابه دون حوائج الناس، كما كان لا يُوَلِّي عملاً لرجل يطلبه، وكان يقول في ذلك: «من طلب هذا الأمر لم يُعَن عليه»، وقد سار على النهج اقتداءً برسول الله ﷺ؛ إذ قال لطالب عمل: «إِنَّا لا نَسْتَعِينُ عَلَى عَمَلِنَا بِمَنْ يَطْلُبُهُ»[(١)]. وكان ﷺ يُشدِّد على ضرورة اتصاف الوالي بالرحمة واللين، ومن كان غير مُتَّصف بذلك، فإنه ينزع الولاية منه؛ فقد أمر بكتابة عهد لرجل قد اختبره وأراد أن يُعَيِّنه، فبينما الكاتب يكتب، جاءه صبي، فجلس في حِجر عمر فلاطفه، فقال الرجل: «يا أمير المؤمنين، لي عشرة أولاد مثله، ما دنا أحد منهم مني. قال عمر: فما ذنبي إن كان الله قد نزع الرحمة من قلبك، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء. ثم قال: مَزِّق الكتاب؛ فإنه إذا لم يرحم أولاده، فكيف يرحم الرعية؟»[(٢)].

ونتيجة لهذه السياسة الحكيمة في اختيار الولاة والعمال، وجدنا أن كثيرًا من هؤلاء الولاة والعمال كانوا على درجة كبيرة من الكفاءة والجدارة الإدارية، فأبرز ولاة عمر بن الخطاب ﷺ كان الصحابي القائد عمرو بن العاص ﷺ، الذي استطاع أن يدخل مصر بثلاثة آلاف وخمسمائة جندي[(٣)]، وبعد فتح مصر، استطاع عَمرو ﷺ أن يُنجز العديد من المشاريع التنموية التي عادت بالنفع على أهل مصر، وكذلك على بيت المال، وقد كان عهد ولاية عَمرو على مصر عهد رخاء وازدهار؛ فكان يحب شعبها ويحبونه، ونعموا في ظلِّ حكمه بالعدل والحرية، وفيها قام بتخطيط مدينة الفسطاط[(٤)]، وأعاد حفر خليج أمير المؤمنين المُوَصِّل إلى البحر الأحمر لنقل الغنائم إلى الحجاز بحرًا[(٥)]، وأنشأ بها جامعًا سُمِّيَ باسمه، وما يزال جامع عمرو بن العاص قائمًا إلى الآن بمصر.

وشبيه بذلك ما كان يفعله عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - في تولية الأمراء، فقد

(١) الحديث رواه النسائي بلفظ: «إِنَّا لا أَوْ لَنْ نَسْتَعِينَ عَلَى الْعَمَلِ مَنْ أَرَادَهُ». النسائي (٤)، وابن حبان (١٠٧١)، وصححه الألباني، انظر: صحيح وضعيف سنن النسائي ١٤٨/١.

(٢) ابن الجوزي: تاريخ عمر ص١٠٤، ١٠٥، وفاروق مجدلاوي: الإدارة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب ص٢١٢، ٢١٣.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص٦٥.

(٤) المصدر نفسه ص١٠٥.

(٥) المصدر نفسه ص١٧٩.

كان يختبرهم، ويحاول المرّة تلو الأخرى معرفة حقيقتهم، ومدى صلاحيتهم للولاية، فحينما ولي عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - الخلافة، وفد عليه بلال بن أبي بردة[1] «فهنَّأه، فقال: من كانت الخلافةُ - يا أمير المؤمنين - شرَّفَتْهُ فقد شرَّفْتَها، ومن كانت زَانتهُ فقد زِنْتَهَا... فجزاه عُمر خيرًا، وقدم بلال المسجدَ يُصَلِّي ويقرأ ليله ونهاره، فهمَّ عُمر أن يولِّيه العراق، ثم قال: هذا رجلٌ له فضلٌ. فدسَّ إليه ثقة له، فقال له: إن عملتُ لك في ولاية العراق ما تعطيني؟ فضمن له مالاً جليلاً، فأُخبر بذلك عُمر، فنفاه وأخرجه، وقال: يا أهل العراق، إن صاحبكم أعطي مقولاً ولم يُعْطِ معقولاً، وزادت بلاغته، ونقصت زهادته»[2].

ولقد كان كثير من الخلفاء ينصحون ولاتهم عند بداية أعمالهم في ولاياتهم؛ حرصًا منهم على تطبيق العدل في الرعية، وتحقق الأمن بينهم، فقد ولَّى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز لإمارة مصر، فكان مما نصحه به: «ابسط بشرك، وأَلِن كنفك، وآثر الرفق في الأمور، فإنه أبلغُ بك، وانظر حاجبَكَ فليكن من خير أهلِكَ، فإنه وجهك ولسانك، ولا يقفنَّ أحد ببابك إلا أعلمك مكانه؛ لتكون أنت الذي تأذن له أو تردُّه، وإذا خرجتَ إلى مجلسك فابدأ بالسلام يأنسوا بك، وتثبُتْ في قلوبهم محبَّتك، وإذا انتهى إليك مُشكلٌ فاستظهر عليه بالمشاورة؛ فإنها تفتح مغاليق الأمور، وإذا سخطت على أحدٍ فأخِّر عقوبته؛ فإنك على العقوبة بعد التوقُّف عنه أقدرُ منك على ردِّها بعد إمضائها»[3]. فهذه النصيحة من عَبد الملك لواليه على مصر، هي من الأسس الإدارية المهمة لقيادة أي ولاية كانت.

ومن هنا ندرك أن الحضارة الإسلامية قدمت مئات الأمثلة الناجحة على تولية الخلفاء والولاة، ولقد كانت كيفية حكم هؤلاء السابقين نوعًا من الإسهام الحقيقي الذي منحته الحضارة الإسلامية للإنسانية كلها.

***

(١) بلال بن أبي بردة: بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري، أمير البصرة وقاضيها. وكان جليلا كريما، انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥/ ٦.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١٠/ ٥١٠.

(٣) ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص١٢٦.

المبحث الثالث

البيعـــــة

لقد تفرَّدت الحضارة الإسلامية عن مثيلاتها من الحضارات الإنسانية؛ فما أبدعته هذه الحضارة، وقَدَّمته سائغًا ميسورًا للمسلمين وغير المسلمين نظام البيعة، واللافت للنظر في هذا، أن الحضارات السابقة لم تعرف نظام البيعة على الإطلاق، فإذا كانت البيعة تعني «المُبايعةُ والطاعةُ»[1]، فإنها من جانب آخر تعني إشراك الرعية في المنظومة السياسية الحاكمة، ولو بقدر ضئيل كما في بعض أوقات التاريخ الإسلامي؛ بيد أنها كانت من أهم مميزات النظام السياسي الإسلامي.

فالبيعة عهد على الطاعة من الرعية للراعي، وإنفاذ مهمات الراعي على أكمل وجه، وأهمها سياسية الدين والدنيا على مقتضى شرع الله، والذي يُدهش القارئ أن البيعة في الإسلام لم تُفَرِّق بين الرجل والمرأة، أو بين الكبير والصغير، وهذا حسٌّ تربوي للرعية؛ حيث يُعَلِّم الإسلام المسلمين ضرورة المشاركة فيما بينهم على الارتقاء بمجتمعهم وأمتهم.

ولقد كانت البيعة منذ فجر الحضارة الإسلامية؛ حيث بايع النبي ﷺ صحابته أكثر من بيعة: كبيعتي العقبة الأولى والثانية، وكذلك بيعة الرضوان، وكانت كل طوائف المسلمين يُبايعونه ﷺ، فمن الرجال الذين بايعوا رسول الله ﷺ عدد لا يمكن حصره، ومن النساء العدد الجم، وقد أحصى الإمام ابن الجوزي عدد من بايع النبي ﷺ من النساء، فبلغن ٤٥٧ امرأة «لم يصافح على البيعة امرأة وإنما بايعهن بالكلام»، بل وجدنا رسول الله ﷺ يبايع الأطفال، حيث بايع عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وهو ابن سبع سنين[2]!

ومن هنا ندرك أن الحضارة الإسلامية حضارةٌ بناءة، فهي تعي قيمة أفرادها، وضرورة مشاركتهم في الأحداث المحيطة بهم، ومن ثم وجدنا أسوة المسلمين رسول الله ﷺ يُرسي مبدأ البيعة منذ اليوم الأول لقيام الدولة الإسلامية، ولأهمية أمر البيعة في المنظور الحضاري الإسلامي وجدنا القرآن الكريم يُشير إليه في أكثر من موضع، حيث

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة بيع ٨/ ٢٣.

(٢) الكتاني: التراتيب الإدارية ١/ ٢٢٢.

يقول تعالى في سورة الفتح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[١]، وفي ذات السورة يقول تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[٢]، كما أشار القرآن الكريم إلى بيعة النساء، دلالة على أهمية دورهن الفاعل في بناء الحضارة الإسلامية، فقال تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣].

ولذلك تأسَّى المسلمون برسول الله ﷺ، فأضحت البيعة ركنًا لا فكاك منه في المنظومة الإسلامية، ودليلاً على مشاركة الرعية كلها في مبايعة الإمام، ومن ثمّ، أنكر عمر بن الخطاب ﷺ على من زعم أن البيعة تنعقد بواحد من غير مشاورة الجماعة، وكان بلغه هذا القول في أثناء حجه، فعزم على بيان حقيقة أمر المبايعة، وما يشترط فيها من الشورى على جماهير الحُجَّاج، فذكَّره بعضهم بأن الموسم يجمع أخلاط الناس ومن لا يفهمون المقال، فيأخذونه إلى أقاليمهم بدون فهم أو روية، وأنه يجب أن يرجئ هذا البيان إلى أن يعود إلى المدينة، فيُلقيه على أهل العلم والرأي ففعل، فقال على منبر الرسول ﷺ: «بلغني أن قائلاً منكم يقول: والله! لو مات عمر لبايعت فلانًا. فلا يغترَّنَّ امرؤ أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت. ألا وإنها قد كانت كذلك، ولكن وقى الله شرَّها، وليس فيكم من تتطلع إليه الأعناق مثل أبي بكر، من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرَّة أن يقتلا»[٤]. ثم ساق خبر بيعة أبي بكر، وما كان يخشى من وقوع الفتنة بين المهاجرين والأنصار لولا تلك المبادرة بمبايعته للثقة بقبول سائر المسلمين، وقد أقرَّت جماعة الصحابة عمر ﷺ على ذلك؛ فكان إجماعًا فتقرَّر بهذا، فالأصل في المبايعة أن تكون بعد استشارة جمهور المسلمين، واختيار أهل الحِلِّ والعقد، ولا تُعتبر مبايعة غيرهم إلا أن تكون تبعًا لهم[٥].

ولقد اهتمَّ بعض الخلفاء كعمر بن عبد العزيز - رحمه الله - بأمر البيعة اهتمامًا لافتًا للانتباه، فعلى الرغم من أنه قد عُهد إليه من ابن عمه سليمان بن عبد الملك، وأن جمهور

(١) (الفتح: ١٠).
(٢) (الفتح: ١٨).
(٣) (الممتحنة: ١٢).
(٤) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ٥/ ٣٣٠، ٣٣١.
(٥) محمد رشيد رضا: الخلافة ص٢٠، ٢١.

المسلمين قد بايع سليمان على ما أقرَّه في صك العهد، إلا أن عمر بن عبد العزيز، قد أصرَّ على ضرورة مبايعة الناس له، فإن قَبِلوا ورضوا به، قَبِل الخلافة وشئونها، وهذا ما يتَّضح عند أول خطبة ألقاها عمر بن عبد العزيز بعد سماعه لنبأ استخلافه، إذ قال: «أيها الناس، إني قد ابْتُليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم. فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك، فلِ أمرنا باليُمن والبركة»[1]. وهذه الحادثة، مع ما فيها من زهد عمر بن عبد العزيز، إلا أنها تؤكد لنا وعي أبناء الحضارة الإسلامية في اختيارهم لمن يُصلح لهم شئون حياتهم.

ولأهمية أمر البيعة، فقد عقد لها فقهاء المسلمين خمسة شروط لازمة التحقق، وهي:

١- أن يجتمع في المأخوذ له البيعة شروط الإمامة، وقد ذكرناها في مبحث شروط الخلافة.

٢- أن يكون المتولِّي لعقد البيعة أهل الحلِّ والعقد من العلماء والرؤساء، وسائر وجوه الناس.

٣- أن يُجيب المبايَع إلى البيعة؛ حتى لو امتنع لم تنعقد إمامته ولم يُجْبَر عليها.

٤- الإشهاد على المبايعة، فيما إذا كان العاقد واحدًا، أما إذا كان العاقد للبيعة جمعًا، فإنه لا يشترط الإشهاد.

٥- أن يتَّحِدَ المعقود له، بأن لا تُعقد البيعة لأكثر من واحد[2].

ولا شكَّ أن هذه الشروط التي أقرَّها فقهاء الإسلام، لتُعَدُّ من المعالم الحضارية البارزة في مؤسسة الحكم الإسلامية؛ لأن غرض هذه الضوابط جلب كل المصالح التي يحتاجها المجتمع الإسلامي.

ولما كانت البيعة أمرًا في غاية الأهمية، وركنًا أساسيًّا في بدء الاستخلاف، فإنها لم تنقطع في عصور الحضارة الإسلامية المختلفة، حتى في مراحل ضعف مؤسسة الخلافة وجدنا أمر البيعة لازمًا، وواجب التحقق، ففي ظلِّ تحكُّم السلاجقة في أمور المسلمين

(١) الآجري: أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز ص٥٦، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٥/ ٣٥٧.
(٢) أحمد بن عبد الله القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة ١/ ٢٠ - ٢٣.

وشئونهم، وجدنا المسلمين يحرصون على أخذ البيعة، بل رأينا قاضي القضاة في بغداد أبو الحسن الدامغاني يأخذ البيعة للخليفة الجديد المسترشد بالله وذلك في عام ٤٨٥هـ[1]، ولأهمية أمر البيعة حرص المسترشد بالله على مبايعة كبار العلماء، والتحقق من قبولهم له بنفسه؛ فقد ذكر عالم بغداد وشيخ الحنابلة في عصره أبو الوفاء بن عقيل أنه «لما وَلِي المسترشد بالله تلقَّاني ثلاثة من المستخدمين، يقول كل واحد منهم: قد طلبك أمير المؤمنين. فلما صرتُ بالحضرة، قال لي قاضي القضاة، وهو قائم بين يديه: مولانا أمير المؤمنين ثلاثُ مرات. فقلتُ: ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس. ثم مددتُ يدي، فبسط لي يده الشريفة، فصافحْتُ بعد السلام، وبايعتُ، فقلتُ: أُبايع سيدنا ومولانا أمير المؤمنين المسترشد بالله على كتاب الله، وسنة رسوله، وسنة الخلفاء الراشدين، ما أطاقَ واستطاعَ، وعلى الطاعة مني»[2]. فهذا التقليد المتوارث منذ عهد النبي ﷺ يُدلل على حرص مؤسسة الخلافة على إشراك رعاياها في اختيار حاكمهم الجديد، ومن دون شكٍّ فإن هذا إعلاء لشأن هذه الحضارة العريقة، التي اهتمَّت أشدَّ الاهتمام بأمر الرعية، وحرصت أن يكون حاكمها متوافقًا مع طبقات الشعب المختلفة، بدءًا بمؤسسة القضاء، ومرورًا بالعلماء، وانتهاءً بعامة الناس وسوادهم.

ومما يُدلل على أن البيعة في الحضارة الإسلامية كانت ميسمًا عامًّا، أن الأمراء المستقلين بولاياتهم كانوا شديدي الحرص على أخذ البيعة لأنفسهم أو لأولادهم من بعدهم من رعيتهم، لا فرق في ذلك بين أمراء المشرق أو أمراء المغرب والأندلس، أو بين أمير مُسن أو صغير؛ فهذا إدريس بن إدريس بن عبد الله، أمير دولة الأدارسة في المغرب الأقصى، قد أخذ البيعة لنفسه وهو في الحادية عشرة من عمره، ولا عجب في ذلك فقد كان فصيحًا نابهًا، قادرًا على تحمل المسئولية؛ إذ صعد إِدْريس المنبر «وخطب الناس فقال: الحمد لله، أحمده وأستغفره، وأستعين به، وأتوكل عليه، وأعوذ به من شرِّ نفسي، ومن شرِّ كل ذي شرٍّ، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، المبعوث إلى الثقلين بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه، وسراجًا منيرًا، صلى الله عليه وعلى آل بيته الطاهرين، الذين

(١) القلقشندي: مآثر الإنافة ١/ ١٧٦.

(٢) أبو الفرج بن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٩/ ١٩٧.

أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، أيها الناس، إنَّا قد وُلِّينا هذا الأمر الذي يُضاعَفُ فيه للمحسن الأجر، وعلى المسيء الوزرَ، ونحن والحمد لله على قصدٍ، فلا تمدُّوا الأعناقَ إلى غيرنا، فإن الذي تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا. ثم دعا الناس إلى بيعته، وحضَّهم على التمسُّك بطاعته، فعجب الناس من فصاحته وقوة جأشه على صِغَر سنه، ثم نزل فتسارع الناس إلى بيعته، وازدحموا عليه يُقَبِّلون يده، فبايعه كافة قبائل المغرب: من زناتة، وأوربة، وصنهاجة، وغمارة، وسائر قبائل البربر، فتمت له البيعة»[1].

وهذه البيعة - التي تمت لفتًى لم يتجاوز عمره الحادية عشرة، من وجوه الناس وأعيانهم، ومن قبائل البربر المشهورة بالعصبية وبالثورات - لهي من الحوادث الفريدة في الحضارة الإسلامية، فهي تُدلل على أن الأمير إدريس بن إدريس كان يملك المؤهلات الكافية لتحمُّله أعباء مسئولية الإمارة في منطقة شائكة في بلاد المغرب الأقصى، فلم يكن لعامل السن أدنى اعتبار، فكانت البيعة تعبيرًا جماعيًّا عن الإعجاب بشخص إِدْريس، ومن ثم قدرته على تسيير شئون الرعية.

إذن كانت البيعة في الحضارة الإسلامية نموذجًا للعطاء الإنساني، وتقديرًا لدور الفرد - رجلاً أو امرأة، صغيرًا أو كبيرًا - في هذه الحضارة، بل وأسبقية مطلقة من الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية المعاصرة، التي أعطت الحرية الفردية المشروطة، واعترفت بقيمة الإنسان «الأرستقراطي» دون سواه في القرن الثالث عشر الميلادي، وبالتحديد في عام ١٢١٥م، حينما تعهَّد الملك جون ملك بريطانيا بحماية مصالح النبلاء[2]، وقد عدَّ البعض ذلك تطورًا مهمًّا في نظرة الحكومة البريطانية لقيمة الإنسان وحريته، بل وافتخر هؤلاء أنهم أدركوا قيمة الإنسان «الأرستقراطي» أخيرًا في القرن الثالث عشر الميلادي، واعتبروا ذلك سبقًا فريدًا من نوعه، على حين أن الحضارة الإسلامية لم تُفَرِّق في تعاملاتها بين الغني والفقير، وجعلت آراء الرعية المسلمة من خلال البيعة فيصلاً مهمًّا حول مدى شرعية الحاكم الجديد، ومدى قبول الناس له.

---

(١) أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١/ ٢١٨.
(٢) وول ديورانت: قصة الحضارة ١٦/ ٢٧٤، ٢٧٥.

المبحث الرابع

ولاية العهد

تُعتبر ولاية العهد من أهم وأخطر المستجدَّات على المنظومة السياسية الإسلامية، ولقد كانت لها مبرراتها في الظهور، نتيجة التوسع الذي شهدته الخلافة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، ومن ثَمَّ تَنَوُّع الأجناس والأعراق داخل هذه الدولة.

وَوَلِيُّ العهد في الإسلام يدلُّ على الشخص الذي يعهد إليه الخليفة أو الحاكم بتولي الحكم بعد وفاته؛ سواء بالنص عليه وحده، أو على أكثر من شخص على التوالي، وقد وافقت بعض المذاهب الفقهية على جواز عقد البيعة من الخليفة لولد أو والد؛ وذلك لأنه «أمير الأمَّة نافذ الأمر لهم وعليهم، فغلب حكم المنصب على حكم النَّسب، ولم يجعل للتُّهمة طريقًا على أمانته، ولا سبيلاً إلى معارضته، وصار فيها كعهده بها إلى غير ولده ووالده»[1].

وأول من استحدث ولاية العهد في الإسلام الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (ت٦٠هـ)، وقد كان هذا الأمر اجتهادًا منه، وكانت الدوافع الملحَّة كثيرة؛ إذ كان أول هذه الدوافع لأخذ العهد من بعده لابنه يَزِيدٍ هو خوفه من الاختلاف، الذي قد يطرأ على الأمة من بعده، خاصة وأن أهل الشام وهم العنصر الأقوى في الدولة حينئذ كانوا مؤيدين لمعاوية وابنه يَزِيدٍ[2].

والحق أن معاوية بن أبي سفيان ﷺ قد استوثق من مبايعة الناس في كافة الأقاليم لابنه يَزِيدٍ، غير أن هناك ثلاثة نفر من الصحابة وأبناء الصحابة[3] لم يوافقوا على ذلك، إلا أن إجماع الأمة كان ظاهرًا جليًّا ليزيد بن معاوية، وهذا الإجماع دون شك كان الهدف الأسمى الذي سعى إليه معاوية ﷺ، هذا الاجتهاد من معاوية ﷺ كان لدَرْء مفسدة اختلاف الأمة، والتي كانت مُقَدَّمة عنده على أي شيء آخر.

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٣.

(٢) الصلابي: الدولة الأموية ١/ ٤٤٥.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٢٤٨. والثلاثة المعارضون هم: الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ.

وعلى الرغم من أن مؤسسة الخلافة قد سارت على ولاية العهد منذ معاوية بن أبي سفيان، بيد أنها لم تتجاهل نظام البيعة، أو رضا الرعية عن حاكمهم الجديد، فكانت كل ولاية عهد مصحوبة ببيعة تأكيدًا على رضا الأمة في هذا الأمر، وقد أوضحنا ذلك في المبحث السابق.

ولذلك راعى الأمويون منذ معاوية ﷺ في الشخص الذي سيكون وليًّا للعهد أن يتَّصف بالصفات النبيلة والأخلاق الكريمة، أما أصحاب المجون والسير السيئة، فكانوا يلومونهم وينهونهم عنها، ويُخَوِّفونهم باستثنائهم من ولاية العهد وعدم المبايعة لهم، ومن ثَمَّ وجدنا معاوية ﷺ يُحَدِّد الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها الخليفة أو من يتطلع إلى الخلافة مثل: الصدق والجود والحلم والعفة والشجاعة[١]، وكان يرى أن الحلم والكرم من أهم الصفات التي يجب توافرها فيمن يقوم بالحكم؛ حيث إن الحلم يمنع الخلاف ويُوَحِّد الصفوف، وبذلك يقول ليزيد: «أي بني، إنه لا يكون مع الحلم ندامة»[٢].

ولم يكن تولية الابن الأكبر قانونًا مطردًا، بل حرص الخلفاء على أن يُغَيِّروا ولاية العهد إلى الأصلح من الأبناء، وأحيانًا من خارج الفرع المالك في الأسرة الحاكمة.

ولقد استطاع هؤلاء الخلفاء أن يُحققوا أهداف الدين الإسلامي ومراميه، فيزيد بن معاوية هو أول من غزا عاصمة الدولة الرومانية القسطنطينية، وقد بشَّر النبي ﷺ بهذه الغزوة، وأثنى على القائمين عليها، فقال ﷺ: **«أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُمْ»**[٣].

وممن أتوا بولاية العهد عبد الملك بن مروان الذي حكم الخلافة الأموية من عام ٦٥هـ إلى عام ٨٦هـ، ولقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهده حتى بلغت أوجها، بل كانت الدولة في عهده تنشر الإسلام على أربع جبهات متفرقة؛ فقد كان مسلمة بن عبد الملك[٤]

---

(١) النويري: نهاية الأرب ٦/ ٤.

(٢) ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية ص١٠٥.

(٣) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في قتال الروم (٢٧٦٦).

(٤) مَسلَمَة بن عبد الملك: (نحو ٦٦هـ - ١٢٠هـ/ ٦٨٥هـ - ٧٣٨م). مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي. ولد ونشأ بدمشق، وله آثار كثيرة في الحروب ونكاية في الروم. انظر المزي: تهذيب الكمال ٢٧/ ٥٦٣.

يفتح الصين، وقتيبة بن مسلم الباهلي[١] يفتح سمرقند وما حولها، ومحمد بن القاسم يفتح بلاد الهند، وموسى بن نصير[٢] يفتح شمال إفريقيا، ثم بعدها الأندلس، ومن العجيب أن الدولة الأموية قد انتصرت في هذه الجبهات كلها، ونشرت الحضارة الإسلامية بين أبناء هذه الأقاليم[٣].

ومن ذلك ما فعله سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ) حين كتب بولاية العهد إلى عمر ابن عبد العزيز (ت ١٠١هـ)، في حين كان المتوقَّع أن تكون لأخيه هشام بن عبد الملك (ت ١٢٦هـ)[٤].

ومثل ذلك ما فعله الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل (ت ١٧٢هـ) حينما أراد أن تكون ولاية العهد للأصلح من ابنيه هِشام وسُليمان، على الرغم من أن سُليمان أكبر الأخوين، وقد حكَّم بينهما أخاهما عَبْد الله، وكان الأمير عبد الرحمن حينئذ على فراش الموت، وكان ابنه هِشام بمدينة ماردة، وابنه الآخر سُليمان بمدينة طليطلة، فقال لعبد الله: من سبق إليك من أخوتك، فأرم إليه بالخاتم والأمر؛ فإن سبق إليك هِشام، فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه؛ وإن سبق إليك سُليمان، فله فضل سنِّه ونجدته، وحُبُّ الشاميين إليه. فقدم هِشام من ماردة قبل سُليمان؛ فنزل بالرصافة، وخاف من عَبْد الله أخيه - إذ صار متمكِّنًا من قرطبة والقصر والأموال - أن يُدَافِعَه، فخرج إليه أخوه عَبْد الله وسلَّم عليه بالخلافة، ودفع إليه الخاتم، كما أوصاه أبوه، وأدخله القصر[٥].

والحق إن فِعْل الأمير عبد الرحمن الداخل هذا يدلل على أنه أراد أن يخلفه الأصلح من أولاده، وقد أيقن في قرارة نفسه أن ابنه هشامًا أصلح الأبناء لهذا المنصب؛ إذ إنه قد وجد فيه التقى والورع والكفاءة على إدارة شئون الدولة؛ ولكنه أراد ألا تحدث صدامات

---

(١) قتيبة بن مسلم: ابن عمرو بن حصين بن ربيعة الباهلي، الأمير أحد الأبطال والشجعان، ومن ذوي الحزم والدهاء وهو الذي فتح خوارزم وبخاري، وسمرقند، ثم افتتح فرغانة، وبلاد الترك. انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ٤١٠.

(٢) موسى بن نصير: (ت ٩٧ هـ) نشأ في دمشق، وولاه الوليد بن عبد الملك شمالي إفريقيا سنة ٨٨هـ، وقد تم له مع طارق بن زياد افتتاح الأندلس في أقل من سنة. مات بالمدينة. انظر: الذهبي: سِيَر أعلام النبلاء ٤/ ٤٩٦، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٣١٨.

(٣) انظر: يوسف القرضاوي: تاريخنا المفترى عليه ص٨٢.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٧٤.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ٢/ ٦١.

بين الأخوين، إذ المتعارف عليه أن يليَ أكبر الأبناء وهو سُليمان، فما كان منه إلا أن وضع شرطًا هو سرعة الوصول إلى قرطبة، كما وضع حكمًا بينهما وهو ابنه عَبْد الله، وقد صدق ظنُّ عبد الرحمن الداخل؛ إذ كان أسرعهما وصولاً ابنه هشامًا، وكان الأجدر والأليق لشئون الإمارة.

ولا ريب أن ولاية العهد في الحضارة الإسلامية كانت أمرًا واقعيًّا، اتفق مع ما طرأ في ساحة الدولة الإسلامية من اتساع الرقعة، وتنوُّع الأجناس؛ ولذلك كانت أهم ثمرات هذا النظام أنه حافظ على وحدة الأمة الإسلامية حتى القضاء على الخلافة العثمانية في ١٩٢٤م.

* * *

المبحث الخامس
علاقة الحكام بعموم الناس

من وجوه عظمة الحضارة الإسلامية أنها ساوت بين كافة الطوائف الاجتماعية التي تعيش بين جنباتها، فيشعر عامة الناس بالمساواة الحقة بينهم وبين الحاكم كما يشعر برعايته وعنايته، فها هو ذا الرسول ﷺ القدوة الحسنة للعالمين يُعَلِّم أمته قيمة مشاركة الحاكم لعموم الناس في وقت الرخاء والشدة، فمنذ اللحظات الأولى لقيام الدولة الإسلامية في المدينة يُشارك ﷺ صحابته في بناء المسجد، فعن عروة قال: «وَطَفِقَ رَسُولُ الله ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمْ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ، وَيَقُولُ وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ: «هَذَا الْـحِمَالُ لاَ حِمَالَ خَيْبَرْ، هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ. وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجْرَ أَجْرُ الآخِرَهْ، فَارْحَمْ الأَنْصَارَ وَالْـمُهَاجِرَهْ»[1].

وفي وقت الشدة نجده ﷺ بجوار صحابته يرفع معنويَّاتهم، ويُدخل السرور عليهم فيشاركهم بنفسه ﷺ في حفر الخندق، وهو يرتجز بكلمات ابن رواحة أثناء نقله ﷺ للتراب، وقد وارى التُّراب بياض بطنه ﷺ[2]، فكان لهذا التبسُّط والمرح منه ﷺ أثره في التخفيف عن الصحابة ممَّا يعانونه أثناء هذه الغزوة، كما كان له أثره في بعث الهمَّة والنشاط، وإنجاز المهمَّة قبل وصول عدوِّهم؛ فكان بذلك خير قائد يعيش بحق هموم شعبه.

وعلى نهجه سار الخلفاء الراشدون من بعده فنجد أبا بكر الصديق ﷺ، وعمر بن الخطاب ﷺ يتسابقان في رعاية امرأة ضريرة من عامة الشعب، فعن عمر بن الخطاب قال: «كنت أتعهد عجوزًا كبيرة عمياء في بعض حواشي المدينة من الليل، فأسقي لها، وأقوم بأمرها، فكنت إذا جئتها وجدت غيري قد سبقني إليها، فأصلح ما أرادَتْ، فجئتها غير مرَّة كيلا أُسْبَق إليها، فرصدت مَنْ يأتي إليها. فإذا هو بأبي بكر الذي يأتيها - وهو يومئذ خليفة - فقال عمر: أنت هو لَعَمْرِي»[3].

---

(١) البخاري: أبواب المساجد، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد (٤١٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ابتناء مسجد النبي ﷺ (٥٢٤).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٤٩٥، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٠٦، والسهيلي: الروض الأنف ٢/ ٣٣٦.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ١/ ٧٤ بتصرف.

وبلغت درجة حرص الحكام المسلمين على عامة الشعب مبلغًا عظيمًا، فها هو ذا خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ﷺ يحرص على سلامة شعبه، ويهتم بهم حتى في ساحة الجهاد، فيكتب ﷺ إلى النعمان بن مُقَرِّن: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مُقَرِّن، سلام عليك؛ فإنِّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو؛ أمَّا بعد؛ فإنه قد بلغني أنَّ جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند؛ فإذا أتاك كتابي هذا فَسِرْ بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وَعْرًا[١] فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقَّهم فتكفِّرهم؛ ولا تدخلنَّهم غيضة[٢]، فإنَّ رجلاً من المسلمين أحبُّ إليَّ من مائة ألف دينار، والسلام عليك»[٣].

وفي عام الرمادة يشارك الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ شعبه المعاناة والشدة، ويضرب من نفسه القدوة والمثل في هذه الأزمة، فيذكر ابن سعد في الطبقات أن عمر بن الخطاب أتي بخبز مفتوت بسمن عام الرمادة، فدعا رجلاً بدويًّا، فجعل يأكل معه، فجعل البدوي يتبع باللقمة الوَدَك[٤] في جانب الصحفة، فقال له عمر: كأنك مقفر من الوَدَك. فقال: أجل، ما أكلتُ سمنًا ولا زيتًا، ولا رأيتُ آكلاً له منذ كذا وكذا إلى اليوم. فحلف عمر لا يذوق لحمًا ولا سمنًا، حتى يُحْيَا[٥] الناس أول ما أُحْيُوا[٦]. وقد تأثَّر عمر في عام الرمادة حتى تغير لونه ﷺ، ولقد كان عمر رجلاً عربيًّا يأكل السمن واللبن، فلمَّا أمحل[٧] الناس حَرَّمها على نفسه؛ ليكون قدوة لغيره من الحكام على مرِّ الزمان؛ فيذكر ابن سعد في طبقاته أن عمر في زمان الرمادة كان إذا أمسى أُتِيَ بخبز قد سُرِدَ بالزيت، إلى أن نحروا يومًا من الأيام جزورًا فأطعمها الناس، وغرفوا له طَيِّبها، فأُتِيَ به، فإذا قدر من سنام ومن كبد، فقال: أنَّى هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، من الجزور التي نحرنا اليوم. قال: بخ بخ،

---

(١) الوَعْر: المكان الحزن الصعب، والموضع المُخِيف الوَحْش، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وعر ٥/ ٢٨٥.
(٢) الغَيْضَة: مغيض ماء يجتمع فيَنْبت فيه الشجر الكثيف الملتف، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة غيض ٧/ ٢٠١.
(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٣٦٥.
(٤) الوَدَك: الدسم.
(٥) يُحيا: أي يعيش الناس عيشًا طيبًا.
(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/ ٣١٣، وأول ما أحيوا: أي كما كانوا يحيون سابقًا، أي حتى يحصل لهم المطر والخصب، ويتيسر لهم الرزق والإدام.
(٧) أمحل: أي قحط وجدب وجاع جوعًا شديدًا، وفي الأَصْل انقطاع المطر، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة محل ١١/ ٦١٦.

بئس الوالي أنا إن أكلتُ طيبها، وأطعمت الناس كراديسها[١]، ارفع هذه الجَفْنة[٢]، هات لنا غير هذا الطعام. قال: فأُتِيَ بخبز وزيت، فجعل يكسر بيده، ويثرد ذلك الخبز، ثم قال: ويحك يا يرفأ[٣]! احمل هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بثمغ[٤]، فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام، فأحسبهم مقفرين، فضعها بين أيديهم»[٥].

وفي موقف من أعظم مواقف اهتمام الخلفاء بعامة الناس نجد الخليفة العباسي المعتصم (ت ٢٢٧هـ) يُجيِّش الجيوش لنجدة مُسْلِمة أسرها جيش الروم استغاثت به قائلة: وامعتصماه! «فأجابها وهو جالس على سريره: لبيكِ لبيكِ! ونهض من ساعته، وصاح في قصره: النفير النفير. ثم ركب دابَّته... وقال: أيُّ بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية. فسار المعتصم من سُرَّ مَن رأى[٦]... وتجهز جهازًا لم يتجهزه خليفة قبله قط من السلاح، والعدد، والآلة، وحياض الأدم[٧]، والروايا[٨]، والقِرَب، وغير ذلك، وكان نزوله عليها في السادس من شهر رمضان عام (٢٢٣هـ)، وأقام عليها خمسة وخمسين يومًا، وفرَّق الأسرى على القواد، وسار نحو طَرَسُوس»[٩].

ولم يكن هذا موقفًا عابرًا من مواقف اهتمام الحكام المسلمين بعوام الناس، بل كان موقفًا متأصلاً في الحضارة الإسلامية لم نعثر على مثيل له في الحضارات الأخرى، فها هو ذا الحاجب المنصور بن أبي عامر[١٠] يُسَيِّر جيشًا كاملاً لإنقاذ ثلاث من نساء المسلمين،

(١) الكراديس: رءوس العظام.

(٢) الجَفْنة: أعظمُ ما يكون من الأوعية، أو الجزور المطبوخ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة جفن ١٣/ ٨٩.

(٣) اسم غلامه، وكان على بيت المال.

(٤) موضع بالقرب من المدينة.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/ ٣١٢.

(٦) هي مدينة سامراء العراقية.

(٧) حياض الأدم: الأدم هو الجلد، والمقصود حياض مصنوعة من الجلد، يوضع فيها الماء.

(٨) الروايا جمع راوية: وهي الوعاء الذي يُحْمَل فيه الماء كالقربة، ويُسَمَّى البعير راوية على تسمية الشيء باسم غيره لقربه منه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة روى ١٤/ ٣٤٥.

(٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٥.

(١٠) الحاجب المنصور: محمد بن أبي عامر، كان حاجبا للخليفة هشام المؤيد بن الحكم المستنصر، فحكم بنفسه وكان ذروة تاريخ الأندلس وأزهي عصورها. كان من رجال الدهر رأيا وحزما، ودهاء وشجاعة وإقداما. انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٢٣.

كُنَّ أسيرات لدى بلاد البشكنس (الباسك)، حيث زار أحد رسله إحدى الكنائس، فعرضت له امرأة قديمة الأسر، وعَرَّفَتْه بنفسها، وأعلمته وقالت له: أيرضى المنصور أن ينسى بتنعُّمه بؤسها، ويتمتع بلبوس العافية، وقد نضت لبوسها[١]، وزعمت أن لها عدَّة سنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذلٍّ وصغار ملبسة، وناشدته الله في إنهاء قِصَّتها، وإبراء غُصَّتها[٢]، واستحلفته بأغلظ الأيمان، وأخذت عليه في ذلك أوكد مواثيق الرحمن، فلـمَّا وصل إلى المنصور عَرَّفه بما يجب تعريفه به وإعلامه، وهو مصغٍ إليه حتى تم كلامه، فلـمَّا فرغ قال له المنصور: هل وقفت هناك على أمر أَنْكَرْتَه، أم لم تقف على غير ما ذَكَرْتَه؟ فأعلمه بقصة المرأة، وبالمواثيق التي أخذت عليه، فعتبه ولامه على أنه لم يبدأ بها كلامه، فانطلق المنصور لتحرير المرأة ومن معها من أسيرات المسلمين[٣].

هكذا كانت العلاقة بين الحكام وعوامِّ الناس في الحضارة الإسلامية، علاقة قائمة على الرحمة والشفقة والحرص والمشاركة الفعالة، دون انعزال أو تَكَبُّر.

* * *

(١) نَضا الثوب الصِّبْغ عن نَفْسِه إذا ألقاه، ونضت لبوسها أي ألقت صبغتها وأَخْلَقَتْ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نضا ١٥/ ٣٢٩.

(٢) الغُصَّةُ: ما شرقت به أو وقف في حلقك، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة غصص ٧/ ٦٠.

(٣) المقري: نفح الطيب ١/ ٤٠٤.

المبحث السادس

إسهامات المسلمين النظرية في نظام الحكم

لم يقف العلماء المسلمون مكتوفي الأيدي وسط الأحداث الصاخبة التي مرَّت بها الحضارة الإسلامية في أطوارها المختلفة؛ حيث رأينا أن التراث السياسي الإسلامي زاخر بعشرات المؤلفات التي عالجت قضية الحكم والخلافة والإدارة؛ ولذلك كانت المؤلفات في هذا المجال بمثابة المرايا التي تعكس حقيقة الوضع القائم، وتلفت نظر الخلفاء إلى سلبياتهم، ومن ثم تلافيها.

ومن هنا أدرك العلماء المسلمون قيمة التأليف في هذا المجال منذ فترة مبكرة في تاريخ الحضارة الإسلامية، فمن طلائع مَنْ كتبوا في النظريات السياسية الإسلامية وعلاقتها بالتطبيق الفعلي في المؤسسة الإسلامية نجد الفقيه أبا يوسف[(١)] - تلميذ الإمام أبي حنيفة في مقدمة كتابه «الخراج» - يؤكد على مجموعة من الإرشادات العامة التي تُحَدِّد طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، دون الخوض في لجة الاجتهاد المطلق في هذا الجانب، فهو يؤكد على ضرورة طاعة الإمام، فَيُوردُ الأحاديث النبوية الدَّالة على ذلك؛ منها قول النبي ﷺ: «إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا..»[(٢)]. ويؤكد أبو يوسف على أهمية مسألة طاعة الرعية للخليفة، مستدلاً بقول الحسن البصري فيقول: «لا تسبُّوا الولاة؛ فإنهم إن أحسنوا كان لهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر»[(٣)].

وقد حضَّ أبو يوسف الخليفةَ على ضرورة سماع الرعية، والاقتراب منهم، وتَقَبُّل النقد أو الشكوى بكل رحابة، ويستدلُّ على ذلك بالرجل الذي جاء ناصحًا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قائلاً له: «اتق الله». فلما نهره أحد الحاضرين في المجلس، قال

---

(١) أبو يوسف: هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري البغدادي (١١٣ - ١٨٢ هـ/ ٧٣١ - ٧٩٨ م) صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه، وأول من نشر مذهبه. كان فقيهًا علامة، من حفاظ الحديث، ولد بالكوفة، وتفقه بالحديث والرواية، وهو أول من دعي قاضي القضاة. من أهم كتبه الخراج. تذكرة الحفاظ ١/ ٢٩٢،٢٩٣، الأعلام ٨/ ١٩٣، معجم المطبوعات ١/ ٤٨٨.

(٢) سنن ابن ماجه (٢٨٦١)، والترمذي (١٧٠٦)، ومسند أحمد (٢٧٣٠١)، وقال الألباني: حديث صحيح.

(٣) أبو يوسف: الخراج ص١٠.

عمر رضي الله عنه: «دَعْهُ، لا خير فيهم إن لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إن لم نقبل»[(١)]. وبهذا يتضح أن حديث رسول الله ﷺ كان أول مصدر لأهل السنة لتكوين وجهة نظر أو ما يقترب من نظرية للخلافة، بيد أنها كانت خطوة أولية اتخذت صورة نصائح وإرشادات[(٢)].

ووجدنا شكل الكتابة السياسية يَلِج سُلَّم التطور منذ القرن الثالث الهجري؛ حيث أَلَّف ابن قتيبة الدينوري كتابه «الإمامة والسياسة»، ولعلَّ عنوان الكتاب دليل على تعمق علماء المسلمين في استيعاب أمر الإمامة ومتعلقاتها في هذا القرن، وقد أكَّد هذا الكتاب على اهتمام المسلمين بالسياسة منذ فجر الإسلام، ويُبرهن على أنهم كانوا ساسة بارعين في التصرُّف بالأمور، ويُوَضِّح أن الإسلام دين السياسة والقيادة كما هو دين التسامح والأخوة بين المسلمين.

وقد بدأه ابن قتيبة بعرض قضية خلافة أبي بكر وما دار فيها، وانتهى الكتاب بالحديث عن خلافة المأمون، ومنهجُ الكتاب يدور حول إيراد الروايات المتعلقة بموضوع كل خليفة على حدة، ومن ثم فهو أشبه بكتب التاريخ السردي، التي تعرض الروايات دون تدخُّلٍ من المؤلف فيها، وهذا الكتاب يشبه إلى حدٍّ كبير كتاب «تاريخ الطبري»، و«سيرة ابنِ هشام».

ومن ثَمَّ، أخذت الكتابات والمؤلفات المتعلقة بالمؤسسة السياسية، وخاصة منصب «الخلافة والخليفة» أشكالاً متطورة وناضجة تجاه هذا الأمر في القرنين التاليين، فنجد الإمام الماوردي الذي يُعدُّ من أهمِّ المؤلفين الذين عالجوا قضية الخلافة والحكم وما يستتبعها من أعمال، فكتابه «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» في غاية الأهمية، سواء من شقه العلمي أو العملي، على الرغم من وجود مؤلفات معاصرة للماوردي: ككتاب «رسوم الخلافة» لهلال ابن المحسن الصابئ[(٣)]، إلا أن هذا الكتاب لم يتعمَّق، أو بالأحرى لم يُقَدِّم لنا ما تحتاجه المجتمعات الإسلامية من كيفية إدارتها وتنميتها على غرار ما وجدناه عند الماوردي.

---

(١) أبو يوسف: الخراج ص١٢.

(٢) عبد العزيز الدوري: النظم الإسلامية ص٦٨.

(٣) هلال الصابئ: هو أبو الحسين هلال بن المحسن الصابئ (٣٥٩ - ٤٤٨ هـ/ ٩٧٠ - ١٠٥٦ م) مؤرخ، كاتب، من أهل بغداد، ولي ديوان الإنشاء ببغداد زمنا، ومن كتبه: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، وغرر البلاغة، ورسوم دار الخلافة، وأخبار بغداد.. انظر الزركلي: الأعلام ٨/ ٩٢.

والحق أن «أقضى القضاة» في عصره الماوردي الذي كان مُقَرَّبًا من الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وكان مبعوثًا دبلوماسيًّا بين الخليفة وبني بويه، قد استفاد من هذه السفارات، فقرَّر أن يُوَضِّح «الأحكام السلطانية، والولايات الدينية» للمؤسسات السياسية في الدولة الإسلامية، بدءًا من الإمامة، وانتهاءً بأحكام الجرائم والحسبة، وأن يعرف كل مسئول في الدولة اختصاصاته ومسئولياته، والإطار العام الذي يحكمه؛ لأن هذه الوظائف السياسية هي مما تُشَكِّل العمود الفقري للأمة كلها، ومن ثَمَّ يقول الماوردي: «ولمَّا كانت الأحكام السُّلطانيَّة بولاة الأمور أحقَّ، وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفُّحها مع تشاغلهم بالسِّياسة والتَّدبير، أفردت لها كتابًا امتثلت فيه أمر من لزمت طاعته، ليعلم مذاهب الفقهاء فيما له منها فيستوفيه، وما عليه منها فيوفِّيه؛ توخِّيًا للعدل في تنفيذه وقضائه، وتحرِّيًا للنَّصفة في أخذه وعطائه»[1].

صورة (٢٦) الأحكام السلطانية للماوردي

ومهما يكن من أمر، فقد أردف الماوردي الخلافة بالإمامة، فعرَّفها بقوله: «الإمامة موضوعةٌ لخلافة النُّبوَّة في حراسة الدِّين وسياسة الدُّنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمَّة واجبٌ بالإجماع»[2]. فبحسِّ الفقيه يربط الماوردي أمر الخلافة بما تعارف عليه فقهاء الأمة كابرًا عن كابر؛ فهي واجبة التحقق بالإجماع، ثم هو لا يُصرِّح بالخلافة؛ إذ لم تكن معالمها الحقيقية موجودة حينئذ من ضرورة تحقق الشورى التي استعيض عنها بولاية العهد والبيعة.

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١.
(٢) المصدر نفسه ص٣.

فنظرية الماوردي تجاه الخلافة كانت تتمحور على عدة اتجاهات، يمكن إجمالها في كون الإمامة واجبة شرعًا لا عقلاً، تكون بالانتخاب، وشرط القرشية في المرشح، وشرط المبايعة من أهل الحلِّ والعقد، وكذلك جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل، والتأكيد على عدم وجود إمامين في وقت واحد، ويمكن لولي العهد الأول بعد أن يصير إمامًا أن يخلع أولياء العهد الآخرين، وهذا اجتهاد فقهي من الماوردي، بل يصرِّح أن الشافعي قال به[١].

ومن أشهر المؤلفات الإسلامية ذيوعًا في مجال التأليف في النظم السياسية الإسلامية، نجد كتاب «سراج الملوك» لأبي بكر الطُّرْطُوشي[٢]، فهذا الكتاب قد جمع محاسن سياسات ست أمم هي: «العرب، والفرس، والروم، والهند، والسند، والسند هند»[٣].

وقد ألَّف الطرطوشي هذا الكتاب للوزير الجديد في مصر «المأمون البطائحي[٤]»، وكان الغرض إظهار الحق، واتباع ما أملاه الشرع، وضرورة احترام مذاهب السنة، خاصة أن المأمون كان وزيرًا للدولة العبيدية الشيعية في مصر.

وكتاب «سراج الملوك» يتألف من أربعة وستين فصلاً، تتناول سياسة الملك، وفنَّ الحكم، وتدبير أمور الرعية، وقد تناول في كتابه الخصال التي يقوم عليها الملك، والخصال المحمودة في السلطان، والتي تمكِّن له ملكه، وتسبغ الكمال عليه، والصفات التي توجب ذمَّ السلطان، وعرَّج على ما يجب على الرعية فعله إذا جنح السلطان إلى الجور، وتناول صحبة السلطان وسيرته مع الجند، وفي اقتضاء الجباية وإنفاق الأموال، وقد تحدث الطرطوشي في كتابه عن الوزراء وصفاتهم وآدابهم، وتَكَلَّم عن المشاورة والنصيحة باعتبارهما من أسس الملك، وعرض لتصرُّفات السلطان تجاه الأموال والجباية، ولسياسته نحو عماله على المدن، وتناول سياسة الدولة نحو أهل الذمة، وما يتصل بذلك من أحكام، وتحدث عن شئون الحرب وما تتطلبه من سياسة وتدبير.

---

(١) انظر: الماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٠.

(٢) الطُّرطُوشي: هو أبو بكر محمّد بن الوليد بن خلف القرشي الطرطوشي (٤٥١- ٥٢٠هـ/ ١٠٥٩- ١١٢٦م)، أديب، من فقهاء المالكية. من أهل طرطوشة بشرقي الأندلس، وتوفي بالإسكندرية. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٦٢- ٢٦٤.

(٣) أبو بكر الطرطوشي: سراج الملوك ص٣.

(٤) المأمون البطائحي: (ت٥١٩ هـ/ ١١٢٥م) نشأ فقيرًا، وكان يعمل حمَّالاً، وعمل عند الأفضل العبيدي فتقدم وتميز حتى ترقى به الحال إلى وزارة مصر، كان شهمًا مقدامًا، جوادًا بالأموال، سفاكًا للدماء، ثم إنه تآمر لقتل الآمر، فعرف به، فقبض عليه وصلبه. انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٥٣.

وقد كتب عبد الرحمن بن عبد الله الشِّيزَري (ت ٥٨٩هـ) كتابه «المنهج المسلوك في سياسة الملوك»، وكان الهدف من تأليفه، تقديم النصح والإرشاد للسلطان صلاح الدين ابن أيوب عن طريق القصص، واستخلاص العبر من أحوال الممالك السابقة، ولذلك يقول الشيزري في سبب تأليف هذا الكتاب: «جمعت لخزانة علومه (صَلاح الدين) هذا الكتاب، وهو يحتوي على طرائف من الحكمة، وجواهر من الأدب، وأصولٍ في السياسة وتدبير الرعية، ومعرفة أركان المملكة، وقواعد التدبير وقسمة الفيء والغنيمة على الأجناد، وما يلزم أهل الجيش من حقوق الجهاد، ونبهت فيه على الشيم الكريمة، والأخلاق الذميمة، وأشرت فيه إلى فضل المشورة والحث عليها، وكيفية مصابرة الأعداء، وسياسة الجيش، وأودعْتُه من الأمثال ما يسبق إلى الذهن شواهد صِحَّتها، ومعالم أدلتها، مع نوادر من الأخبار، وشواهد من الأشعار..» [1]. ولا شكَّ أن قائدًا كصلاح الدين يستعين بمُنظِّري الأمور السياسية، وبالعلماء العارفين في هذا العلم، لجدير بأن يُحقِّق النصر تلو النصر، وأن تعلو قوة دولته فوق الدول؛ حيث استعان بالعلم، وتَدَبُّر سنن من كان قبله من الخلفاء والملوك.

وهذا الكتاب يهتم بالسياسة الداخلية والخارجية للدولة، فالمؤلف يحثُّ السلطان على ضرورة الجلوس بنفسه لفضِّ المنازعات بين الرعية، فيقول: «اعلم أن جلوس الملك لكشف قصص المظلومين، والفصل بين المتنازعين، من أعظم قوانين العدل الذي لا يعمُّ الصلاح إلا بمراعاته، ولا يتم التناصف إلا به» [2]. وفي حديثه عن أسباب نجاح سياسة الملك وأسباب فشلها، فإنه يُوَجِّه نصيحة مهمة لصَلاح الدين إذ يقول: «إن الأسباب التي تجر الهُلْك إلى المُلْك ثلاثةُ أسباب، أحدها: من جهة المَلِك، وهو أن تغلُب شهواته على عقله، فلا تسنح له لذة إلا افتضَّها، ولا راحة إلا افترضها. الثاني: الوزراء، وهو تحاسدهم المقتضي لتعارض الآراء، فلا يسبق أحدهم إلى حقٍّ إلا فنَّدُوه وعارضوه. الثالث: من جهة الجند، وخواصِّ الأعوان، وهو النكول عن الجلاد، وترك المناصحة في الجهاد» [3].

---

(١) الشيزري: المنهج المسلوك في سياسة الملوك ص١٥٨، ١٥٩.

(٢) المصدر نفسه ص٥٦٢، ٥٦٣.

(٣) المصدر نفسه ص٥٥٧.

ويأتي كتاب «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» لتقي الدين بن تيمية[١] بمثابة لفتة مهمة في تاريخ الكتابات السياسية الإسلامية؛ فلقد تَنَبَّه ابن تيمية - رحمه الله - أن سرَّ تخلُّف المسلمين، واستباحة بلدانهم، وتجرُّؤ أعداء الإسلام عليهم، يكمن في فساد الراعي ومن بعده فساد رعيته؛ لذلك ناقش هذا الكتاب فساد مؤسسة الحكم والإدارة من محورين مهمين؛ الأول: «أداء الأمانات» في الولايات والأموال. والثاني: الحدود والحقوق؛ حدود الله وحقوقه، والحقوق التي للخلق، ومن ثم عالج هذا الكتاب جانب السلوك والأخلاق، وجانب الحقوق والواجبات لكل من الراعي والرعية، وقد لاقى هذا الكتاب رواجًا واهتمامًا كبيرًا من الباحثين في القديم والحديث[٢].

ويُجسِّد ابن خلدون قمة التطور الكتابي في المنظومة السياسية الإسلامية، حيث أوضح بجلاء علاقة المجتمع بالسياسة، وكيفية تواؤم أطياف المجتمع المختلفة والمتشابكة في بوتقة واحدة، والملاحظ أن ابن خلدون في مُقَدِّمته الشهيرة لم يتوقف عند حدود مجتمع بعينه؛ إذ وضع مجموعة من الأنماط المتفاوتة، واستطاع أن يجد لهذه الأنماط - البدوية أو الحضرية - الحلول الناجعة، وتُعْتَبر مؤلفاته المختلفة، وخاصة «المقدمة» دليلاً على استيعابه وفهمه العميق، فنجد أن مفهومَيْ الخلافة والإمامة على سبيل المثال، قد أَخذا عنده حيزًا واسعًا، وعمقًا بيِّنًا؛ فهو يُقرِّر أن الخلافة «حملُ الكافَّة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»[٣].

غير أن ابن خلدون قد فرَّق بين الخلافة والمُلك، فقال: «وجب أن يرجع في ذلك (حقيقة الملك) إلى قوانين سياسية مفروضة يُسَلِّمها الكافَّة وينقادون إلى أحكامها... فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبُصَرائها كانت سياسة عقلية، وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يُقَرِّرها ويُشَرِّعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة...»[٤].

---

(١) ابن تيمية: هو أحمد بن عبد الحليم الحراني (٦٦١-٧٢٨هـ/ ١٢٦٣-١٣٢٨م) . الشيخ الإمام العالم العلامة المفسر الفقيه المجتهد الحافظ المحدث شيخ الإسلام. ولد بحران وتوفي بدمشق. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٧/ ١١.

(٢) انظر: ابن تيمية: السياسة الشرعية ص٤، ٥.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ١٩١.

(٤) المصدر نفسه ١/ ١٩٠، وانظر: ظافر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ١/ ١١٩.

وقبل أن نختم حديثنا عن دور المسلمين الريادي في مجال المؤلفات السياسية، يجب أن نؤكد على أن نظرة المؤلفات الإسلامية للأنظمة السياسية كانت نظرة منطلقة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكانت متقيدة بهما، فلم تَتَّبع أهواء الحكام في ترسيخ دائرة الظلم، وقهر الرعية، بل كانت ناصحة لهم، لا فرق في ذلك بين القديم منها والحديث، بيد أنها كانت مختلفة فيما بينها من ناحية الأسلوب، أو معالجة موضوع جديد.

ولذلك فإن غاية هذه المؤلفات تكمن في ابتغاء رضوان الله، والأمل في نهضة الحضارة الإسلامية في عصور هؤلاء العلماء الأجلاء، وعند المقارنة بين هذه المؤلفات الإسلامية وبين كثير من مؤلفات الغربيين في هذا المجال: ككتاب «الأمير» للإيطالي مكيافيلي، نجد أن هناك بونًا شاسعًا بين الغايتين؛ فكتاب ميكافيلي[1] قد كتبه لإرضاء حاكم إحدى المدن الإيطالية، وشرح خلال هذا الكتاب كيف يجب أن يتصرف الأمير الكفء، وكان مبدؤه الأساسي هو «الغاية تُبَرِّر الوسيلة»، بمعنى أن أي وسيلة يمكن استخدامها، ولو كانت غير نبيلة أو مشروعة، ما دامت ستوصل في النهاية إلى هدف نبيل، وقد أوصى ميكافيللي في كتابه بضرورة استخدام أساليب المكر والدهاء والخداع والتدليس والمراوغة، بجانب استخدام أساليب القهر والقسوة والشدة والردع؛ لإحكام السيطرة على سلوك المرءوسين، وكان يقول: إنه لا أخلاق في السياسة[2].

ولا شك أن هذا الكتاب - وكل من تأسوا به كنابليون بونابرت[3]، وهتلر[4] وغيرهما من دكتاتوريي العالم- لم يكن هدفه وهدفهم فرض العدل بين الرعية، والبحث عن الرفاهة الاجتماعية لهم، بقدر ما كان تسويغًا لنهب الأمة، وإرضاءً لنهم الحكام، ومن ثَمَّ فإن المؤلفات الإسلامية في هذا الجانب كانت بهدف تقويم اعوجاج الحكام والرعية، وحَثِّهم -بآليات مختلفة، وبأساليب متعددة- على ضرورة تحكيم شرع الله ﷻ في أرضه.

(١) ميكافيلي: نيكولو ميكافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧م)، ولد في إيطاليا بفلورنسا، يعتبر مؤسس التنظير السياسي الواقعي، أو ما يعرف الآن بعلم السياسة، أشهر كتبه كتاب «الأمير».

(٢) انظر: علي بن نايف الشحود: الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل ص٢٩٤.

(٣) بونابرت: نابليون بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) من أشهر القادة العسكريين الأوربيين في العصر الحديث، قاد الحملة الفرنسية ضد مصر، وخاض معارك طاحنة في أوربا ولم يهزم في واحدة، إلا معركة واترلو، والتي نفي بعدها إلى جزيرة سانت هيلينا، حيث توفي.

(٤) هتلر: أدولف هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥م) زعيم ألمانيا المشهور، خاض الحرب العالمية الثانية ضد الحلفاء، حتى سقطت برلين في أيديهم، مات منتحرا.

المبحث السابع

علاقة الحاكم والمحكوم في الحضارة الإسلامية

كانت العلاقة بين الحاكم والمحكوم في الحضارة الإسلامية تقوم على الاحترام المتبادل، فلم تكن شبيهة بعلاقات ملوك الروم والفرس مع رعيتهم، والتي كانت تقوم على القهر والاستبداد، وتقسيم أفراد مجتمعاتهم إلى طبقات متفاوتة.

والمنهل الذي حرص المسلمون - الراعي والرعية - على الأخذ منه، وضرورة التأسي به، كان قائمًا على اتباع القرآن الكريم والسنة النبوية في هذا الشأن؛ ولذلك لم يكن أئمة المسلمين يحكمون رعاياهم إلا من هذا المنطلق، إلا مَنْ شذَّ على هذه القاعدة، وهم قليل، ومن هنا كان للأمة دور كبير في تقويم الحكام والمسئولين على جميع مستوياتهم.

ولقد جعل رسول الله ﷺ أفضل الجهاد تقويمَ الحاكم الظالم من خلال توجيهه ناحية الحق، فقال ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[1]. ومن هنا كان من حق الأمة كلها محاسبة الخلفاء المخطئين، ومبدأُ محاسبة الإمام مبدأ إسلامي متوازٍ مع قيام الخلافة الإسلامية منذ القدم، بل رأينا من الخلفاء أنفسهم من يُنادي به، فأبو بكر ﷺ قد أشار إلى هذا الأمر في خطبته الأولى بعد البيعة العامة بقوله: «إن أسأتُ فَقَوِّمُوني...»[2].

لذلك كان رسول الله ﷺ يسمع لأصحابه، وينزل على رأيهم إذا ثبت صحة هذا الرأي؛ فالنبي ﷺ في غزوة بَدْر قد نزل هو وأصحابه في أقرب مكان من ماء قرب بدر، لكن الصحابي الجليل الحباب بن المنذر ﷺ لم يرضَ بذلك، فقال بأدب جمٍّ لقائد المسلمين وإمامهم ﷺ: «يا رسول الله، أرأيتَ هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكَهُ الله، ليس لنا أن نُقَدِّمه ولا نتأخَّر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: «بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ». فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم

(١) سنن الترمذي: كتاب الفتن، باب أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر (٢١٧٤) وقال: وهذا حديث حسن. وأبو داود (٤٣٤٤)، والنسائي (٤٢٠٩)، وابن ماجه (٤٠١١)، وأحمد (١٨٨٥٠)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٢٢٠٩).

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٣٨.

فننزله، ثم تغوِّر ما وراءه من القُلُب[١]، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ». فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلُبِ، فغوِّرت، وبني حوضًا على القليب الذي نزلَ، فمُلِئ ماءً ثم قذفوا فيه الآنية»[٢].

إن هذا الموقف الخالد من جندي من أجناد المسلمين، مع القائد العام لقوات المسلمين لَيُؤكد عظم الحضارة الإسلامية، فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم، علاقة تشاور وتحاور واحترام، وما نزول النبي ﷺ على رأي الحباب ﷺ إلا تأكيدًا وتقنينًا لهذه العلاقة الوثقى بين الراعي والرعية في الحضارة الإسلامية.

وقد وجدنا أعرابيًّا يُسائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بشأن بعض أراضٍ رعوية قد حماها عمر ﷺ، وأمر ألا يُستفاد بها حتى يأذن بذلك، فقال الأعرابي: «يا أمير المؤمنين، بلادنا قاتلنا عليها في الجاهلية، وأسلمنا عليها في الإسلام، فعلام تحميها؟ فأطرق عمر ﷺ وجعل ينفخ ويفتل شاربه، وكان إذا كره أمرًا فتل شاربه ونفخ، فلما رأى الأعرابي ما به جعل يُرَدِّد ذلك، فقال عمر: المال مال الله، والعباد عباد الله، فلولا ما أحمل عليه في سبيل الله ما حميت من الأرض شبرًا في شبر»[٣].

وكان من ولاة عمر ﷺ من كان على درجة عالية من خشية الله، حتى رأينا أهل ولايته في غنى، وهو في فقر مدقع، فمن هؤلاء الولاة سعيد بن عامر الجمحي، فقد روى ابن عساكر علي بن الحسن في (تاريخ مدينة دمشق) أنه «لما قَدم عمرُ حمصَ أمرهم أن يكتبوا له فُقَرَاءهم، فرجع الكتاب فإذا فيه سعيد بن عامر، قال: من سعيد بن عامر؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، أميرُنا. قال: وأميركم فقيرٌ. قالوا: نعم. فعجب، فقال: كيف يكون أميركم فقيرًا؟ أين عطاؤه؟ أين رزقه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، لا يُمْسِك شيئًا. قال: فبكى عمر حتى عمد إلى ألف دينار فصرَّها، وبعث بها إليه، وقال: أقرِئُوه مني السلام». لكن

---

(١) القُلُب: جمع قليب، وهو البئر، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قلب ١/ ٦٨٥.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٦٢٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤٠٢، والسهيلي: الروض الأنف ٣/ ٦٢، والطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٩.

(٣) النووي: المجموع ١٥/ ٢٣٤.

الأمير لم يقبل بأموال عمر ﷺ ودفعها إلى المجاهدين في سبيل الله! [(١)].

وهذا التابعي الجليل أبو مسلم الخولاني، لا تأخذه في الله لومة لائم، يقوم إلى خليفة المسلمين، وأعظم قائد في الأرض، وهو على منبره، فيقول له: «يا معاوية، إنما أنت قبر من القبور، إن جئت بشيء كان لك شيء، وإلا فلا شيء لك، يا معاوية، لا تحسب أن الخلافة جمع المال وتفرقته، إنما الخلافة القول بالحق، والعمل بالمعدلة، وأخذ الناس في ذات الله، يا معاوية، إنا لا نبالي بكدر الأنهار إذا صفا لنا رأس عيننا، إياك أن تميل على قبيلة، فيذهب حيفُك بعدلك. ثم جلس. فقال معاوية: يرحمك الله يا أبا مسلم»[(٢)].

ولقد ظهر مبدأ التكافل جليًّا في حضارتنا الإسلامية بين الحاكم والمحكوم؛ فقد اهتم الخلفاء برفع الحرج والمشقَّة عن رعاياهم، فهذا هو الخليفة العباسي المعتضد بالله (ت ٢٨٩هـ) يرفُق بطبقة الزراع، فكان يُقَدِّم لهم المساعدات العديدة، كما كان يؤجِّل أخذ الخراج منهم حتى بعد شهرٍ من إنتاج محاصيلهم، ليُساعدهم على تحسين أوضاعهم المالية والمعيشية؛ ولذلك تحسَّنت أحوالهم في عهده تحسنًا ملحوظًا[(٣)].

وحتى في زمن الضعف الحقيقي الذي دبَّ في أوصال الخلافة العباسية، وجدنا من الخلفاء من كان يسعى لرفعة رعيته، وقضاء حوائجها؛ فقد كان الخليفة العباسي القادر بالله (ت ٤٢٢هـ) من أهل الستر والديانة وإدامة التهجد، وكثرة البرِّ والصدقات، وكان يأخذ ثُلثي الطعام الذي يُهيَّأُ لإفطاره، ويُقسِّمه بين جامِعَيْنِ كبيرين، بل كان يتخفَّى ويُغَيِّر زيَّه بزيِّ العوامِّ، ليتسنى له التعرُّف على أحوال رعيته عن قُرب، وقد حُكي أنه صنَّف كتابًا في الأصول على مذهب أصحاب الحديث، وكان هذا الكتاب يُقرأ كلَّ جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي، ويحضرُ الناس سماعه[(٤)].

وفي أوقات المحن كان الخلفاء والأمراء يقفون بجوار رعيتهم، فقد كانوا يتألمون لتألمهم، ويتعاونون معهم بأنفسهم لقضاء حوائجهم، ففي عهد الأمير الأندلسي عبد

---

(١) انظر: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٢١/ ١٤٨، ١٤٩.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٢٩٧.

(٣) انظر: يوسف العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية ص١٦٧.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٧/ ١٦١.

الرحمن بن الحكم (ت٢٣٨هـ) واجهت الأندلس مجاعة شديدة كان سببها الجراد الأصفر بالأرض، وتردده بالجهات، فقام الخليفة بإطعام الضعفاء والمساكين مع عماله بنفسه[١].

أما العلاقة بين الخليفة والأمراء فكانت علاقة يشوبها الاحترام، وإعطاء الخليفة حقه وقدره في كل وقت، فمع مرور مؤسسة الخلافة بمرحلة من الضعف الشديد، وجدنا أن الضمير الجمعي للأمة- عامة الناس وقادتهم - يحترمون المؤسسة السياسية المتمثلة في الخليفة، وأبرز مثال على ذلك علاقة القائد المجاهد صلاح الدين يوسف بن أيوب بالخلافة العباسية، فالقيادة والسيطرة في واقع الأمر كانت في يد صلاح الدين، حيث كان البطل الحقيقي للأمة الإسلامية كلها، فهو المجاهد العسكري الذي حطم قوة الصليبيين، فاستطاع تحرير بيت المقدس، ورفع العزة والكرامة الإسلامية، وهو القائد السياسي لرقعة لا يُستهان بها؛ كانت تضم بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن، ومع ذلك وجدنا المصادر التاريخية تؤكد على العلاقة الوثيقة بين صلاح الدين والخليفة العباسي، الذي لم يكن يملك من أمره شيئًا، اللهم إلا سيطرته على بغداد وما حولها، ومع ذلك وجدنا في الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين والخليفة العباسي اعترافًا صريحًا بأن الخليفة العباسي هو الخليفة الشرعي للمسلمين؛ فقد أرسل صلاح الدين رسالة تهنئة للخليفة العباسي الناصر لدين الله[٢]، ولم يقتصر الأمر على التهنئة؛ إذ كان صلاح الدين دائم الاستشارة للخليفة، بل كانت بعض فتوحات صلاح الدين خدمة للخليفة العباسي، وهذا ما يؤكده ابن كثير في تاريخه؛ فقد كان مقصود صلاح الدين لحصار الموصل وأهلها؛ «ردهم إلى طاعة الخليفة، ونصرة الإسلام»[٣]. بل وصلت العلاقة بين الخليفة وصلاح الدين إلى أقصى درجات المودة والقربى، بأن منحه الخليفة الخِلَعَ والهدايا، وذلك عام ٥٧٠هـ[٤].

وفي القرن الخامس الهجري كان يوسف بن تاشفين[٥] - زعيم دولة المرابطين التي

---

(١) انظر: ابن حيان القرطبي: المقتبس من أنباء الأندلس ص٢٢٥.

(٢) انظر: محمد بن تقي الدين الأيوبي: مضمار الحقائق وسر الخلائق ص٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٨٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ١٣٢.

(٥) يوسف بن تاشفين: هو أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم الصنهاجي اللمتوني (٤١٠ - ٥٠٠ هـ/ ١٠١٩ - ١١٠٦ م) سلطان المغرب، وباني مراكش، وقائد معركة الزلاقة المشهورة، وكان من خير الناس تقوى وسياسة. انظر الزركلي: الأعلام ٨/ ٢٢٢.

وَحَّدت المغرب، ثم المغرب والأندلس معًا - يعتبر نفسه «خادم الإمام العباسي»[(١)]، برغم بُعْدِ المسافة بين المغرب والعراق، واستقلال المغرب على الحقيقة، إلا أن يوسف بن تاشفين حرص على أن يكون في ظلِّ الخلافة، فراسل ابن تاشفين الخليفة المستظهر الذي أجابه إلى طلبه وقلَّده المغرب، وكانت الخطبة في بلاد المرابطين للعباسيين، وتَسَمَّى يُوسف بأمير المسلمين لا بأمير المؤمنين تأدُّبًا مع الخليفة[(٢)].

ولذلك فمع استقلال كثير من هؤلاء الأمراء بولاياتهم ومقاطعاتهم منذ تولية طاهر بن الحسين[(٣)] لإمارة خراسان منذ عام ٢٠٥هـ -الذي استطاع أن يستقلَّ بالحكم هو وأولاده من بعده حتى عام ٢٥٩هـ - إلا أنه لم يكن ليخرج على الخلافة، ومتطلباتها، وفعلَ مثلَ ذلك من استقلوا على غرار الدولة الطاهرية في خراسان، وأحمدُ بن طولون والي مصر الذي استقل بها منذ عام ٢٥٤هـ، ومن بعده أولاده، وكذلك محمد بن طغج الإخشيد[(٤)] في مصر منذ عام ٣٢٣ هـ، وبنو حمدان في حلب، وغيرهم في المغرب والأندلس.

والحق أن كثيرًا من هؤلاء الأمراء المستقلين، كانوا يُكِنُّون لمؤسسة الخلافة كل تقدير واحترام، فعلى الرغم من كونهم المتصرفين الحقيقيين في شئون البلاد والعباد، إلا أنهم كانوا تحت ظلِّ الخلافة العباسية في معظم الأوقات.

وهذا التطور الذي لحق بمنصب الإمارة منذ القرن الثالث الهجري، صاحبه تطور في المناحي الحضارية لكل إقليم أو ولاية على حدة؛ فقد سعى هؤلاء الأمراء المستقلُّون في تطوير وتحديث أقطارهم، والبحث عن سدِّ حاجات ومتطلبات رعاياهم، حتى وجدنا بعضهم يتفوق على مؤسسة الخلافة، سواء في الناحية العسكرية، أو الاقتصادية؛ فلا

---

(١) انظر: رسالة الإمام أبي بكر بن العربي إلى الإمام الغزالي. الصلابي: دولة المرابطين ص١٢٣.

(٢) أبو العباس الناصري: الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ٢/ ٥٨.

(٣) طاهر بن الحسين: هو أبو الطيب طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي (١٥٩ - ٢٠٧ هـ/ ٧٧٥ - ٨٢٢ م) من كبار الوزراء والقواد، أدبا وحكمة وشجاعة، وطد الملك للمأمون العباسي، فولاَّه شرطة بغداد، ثم ولاه الموصل وبلاد الجزيرة والشام والمغرب، ثم استقر في خراسان فقطع خطبة المأمون ومات مسموما وقيل: قتله أحد غلمانه. انظر الزركلي: الأعلام ٣/ ٢٢١.

(٤) محمد بن طغج الإخشيد: أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن خاقان، الفرغاني التركي (٢٦٨ - ٣٣٤ هـ/ ٨٨٢ - ٩٤٦ م)، مؤسس الدولة الإخشيدية، توفي بدمشق. انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٦٦.

عجب إذًا أن نرى الخليفة العباسي المستكفي بالله (ت ٣٣٨هـ) يكتب إلى والي مصر وأميرها المستقل محمد بن طغج الإخشيد، ويعرض عليه إمارة بغداد بجوار إمارته لكل من مصر والشام واليمن ومكة والمدينة؛ ولذلك كان من الطبيعي أن تتحسن أحوال مصر مع والٍ بكفاءة وقدرة الإخشيد، ومما يُدلل على تلك المكانة المرموقة التي احتلها أنه أمر بضرب الدينار الإخشيدي على عيار كامل، فصلحت النقود في عهده بعد فسادها[1].

ومما يُدلل على مدى التقدم المدني الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية في مجال الإمارة، ودور المحكومين والرعية في هذا الميدان، أن المسلمين في حالات الفتنة والثورات كانوا يعهدون إلى القاضي، أو الكاتب، أو من تتوفر فيه الصلاحية لتولية الإمارة في مثل هذه الأوقات العصيبة، حتى استقرار الأمور، ثم يُعزل ويؤتى بمن هو أهل لذلك، وهذا الحال كان جليًّا في الأندلس، فهذا «مروان بن عبد الله بن مروان من أهل بلنسية... وقاضيها ورئيسها يكنى أبا عبد الملك... ولي قضاء بلده في ذي الحجة سنة ٥٣٨هـ، وقيل: في سنة تسع وثلاثين بعدها. ثم تأمَّر به، عند انقراض الدولة اللمتونية في عقب رمضان أو صدر شوال منها، وبويع له بذلك في صفر سنة أربعين، وأقام على ذلك يسيرًا، وخُلع وانفصل عن بلنسية...»[2].

ويكاد القارئ في تاريخ وحضارة الأندلس يحسب أن هذه ظاهرة منتشرة هناك، تعارف عليها الناس وأقرُّوها، وهذا التأمُّر الذي يذكره ابن الأبَّار، بمثابة رئيس مؤقت لتسيير شئون الدولة في وقت الفتنة والاضطراب، وهو شبيه عندنا باختصاص رؤساء مجالس الشعب عند وفاة رئيس أو انتهاء مدة رئاسته، قُبيل انتخاب رئيس جديد، وشبيه كذلك بمنصب نائب الرئيس في مثل تلك الأزمات، ومن ثم نجد مثل هذا التأمُّر يتمُّ مع آخر هو « أخيل بن إدريس القيسي الكاتب، من أهل رندة، يكنى أبا القاسم، كان من أهل العلم والأدب، معروفًا بالإدراك والبلاغة، جوادًا سمحًا، من أهل الذكاء والدهاء، وقد تأمَّر ببلده رندة في الفتنة، ثم خُلع، وكان في أول أمْرِهِ كاتبًا للقاضي أبي جعفر بن حمدين،

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٥٣.
(٢) ابن الأبَّار: التكملة لكتاب الصلة ٢/ ١٨٥.

وولي بآخرة قضاء قرطبة وإشبيلية»[١].

ولما كان علماء المسلمين هم القلب النابض لهذه الأمة، فإنهم لم يرضوا طوال تاريخهم الحضاري بالظلم والضيم الذي وقع على عاتق هذه الأمة، فالإمام النووي - رحمه الله - له وقعة شهيرة مع سلطان مصر والشام ركن الدين بيبرس، الذي استولى على حوطة دمشق بحجة استخلاصها من التتار، فقد ضمها إلى أملاكه، وحَرَم مستحقيها منها، فما كان من النووي إلا وقد تصدَّى للظاهر بيبرس، فأخذ يُرسل له الرسالة تلو الأخرى، حتى أذعن بيبرس للأمر، وكان مما أرسله إليه: «قد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من الضرر لا يمكن التعبير عنها، وطُلب منهم إثبات لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحلُّ عند أحد من علماء المسلمين، بل من في يده شيء فهو ملكه، لا يحلُّ الاعتراض عليه، ولا يُكَلَّف بإثباته. وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع ويوصي نوابه به، فهو أَوْلَى مَنْ عمل به»[٢].

إن هذه المواقف وغيرها من عشرات المواقف الأخرى دليل لا غبار عليه على كمِّ الحرية التي تمتَّعَتْ بها الرعية المسلمة، سواء كانت من عامة الناس وسوادهم، أم من العلماء والفقهاء وأصحاب الوجاهة والرأي، ومن ثَمَّ فهو مما يؤكد على عظمة الحضارة الإسلامية وروعتها.

❋ ❋ ❋

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٧٤.

(٢) عبد الرزاق الكيلاني: من مواقف عظماء المسلمين ص٢٦٢.

المبحث الثامن

الفتن السياسية من المنظور الحضاري

تعاملت الحضارة الإسلامية مع الفتن السياسية من منظور مغاير لم تعهده البشرية من قبل، فلم تُقَابَل كل الفتن بالقهر والبطش كما كان معهودًا من قبل، بل قابلتها بالأساليب المتفاوتة التي تدرأ كل فتنة على حدة، وأوضحت السنة النبوية دور الفرد في أوقات المحن والفتن، فعن عبد الله بن عمرو ﷺ أنه قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذَكر الفتنة، أو ذُكرت عنده، فقال ﷺ: **«إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ، وَكَانُوا هَكَذَا»** وشبَّك بين أصابعه، قال: فقمت إليه فقلت له: كيف أفعل عند ذلك، جعلني اللهُ فداك؟ قال: **«الْزَمْ بَيْتَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ»**[1]. فحضَّ النبي ﷺ الفرد المسلم، الذي لا يملك من أمره شيئًا ألاَّ يختلط مع الناس في هذه الفتن، والأحوط حينئذ أن يلزم الإنسان بيته.

على أن الحضارة الإسلامية كانت واقعية في تعاملها مع أحداث الفتن والثورات والاضطرابات، فأُولَى الفتن التي واجهت الأمة الإسلامية، اختلاف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ مع والي الشام معاوية بن أبي سفيان ﷺ؛ فقد أراد علي ﷺ عزل معاوية عن الشام، ومعاوية كان مُصرًّا على الأخذ بدم عثمان ﷺ، فلما تعارض الجانبان، وحدثت موقعة الجمل، ثم صفين، ومن ثم التحكيم، ثم مقتل علي ﷺ، فإن الأمة كلها في ذلك الوقت كانت في حالة غليان واضطراب واضح؛ ولذلك فإن أكثر ما يلفت النظر في هذه الفتنة، ما تمخَّض عنها في دَرْئِها، من خلال خليفة المسلمين الحسن بن علي رضي الله عنهما، فآخر ما أوصى به علي بن أبي طالب ﷺ ابنه الحسن وبني عبد المطلب، أنه قال: «يا بني عبد المطلب، لا ألفينَّكم تخوضون دماء المسلمين، تقولون: قُتل أمير المؤمنين، قُتل أمير المؤمنين، ألا لا يُقتلنَّ إلا قاتلي، انظر يا حسن، إن أنا متُّ من ضربته هذه، فاضربه ضربة

---

(١) أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٤٣)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، وأحمد (٦٩٨٧)، وصححه الألباني: انظر: السلسلة الصحيحة (٢٠٥).

بضربة، ولا تُمَثِّل بالرجل»[١]. وهذا النهي من علي ﷺ لابنه، هو أمر لا فكاك منه للحسن وبني عبد المطلب جميعهم بعدم الخوض مرة أخرى في دماء المسلمين، كما حدث في الأعوام السابقة لمقتل علي بن أبي طالب ﷺ.

وعلى الرغم من مبايعة الأمة للحسن بن علي رضي الله عنهما بعد مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ عام ٤٠هـ، فإن أول ما فعله الحسن ﷺ أنه أعلن عن عزمه لتجنُّب دماء المسلمين، وقرَّر عدم الاعتماد على أهل العراق الذين خذلوه وخذلوا أباه من قبل، فأرسل إلى معاوية ﷺ لطلب الصلح، وبالفعل تصالح الطرفان، وتنازل الحسن بن علي ﷺ لمعاوية درءًا لدماء المسلمين، وقطعًا لدابر الفتنة[٢].

إن تنازل الحسن بن علي ﷺ لمعاوية ﷺ حقنًا لدماء المسلمين، بمحض إرادته، لهو دليل على أن هذه الحضارة أخذت في الاعتبار قيمة المسلم ودمه، وهذا ما لم تعرفه أي حضارة أخرى، فلقد كان الرومان يتلذَّذون بمشاهدة المعارك التي تقوم بين السباع والعبيد؛ حيث يُفتك بالعبد بين فكَّي السبع، فيتضاحك الجمهور طربًا لذلك، أما الحضارة الإسلامية، فإنها قرَّرت على لسان رسول الله ﷺ أن دم المسلم أشد حرمة عند الله من هدم الكعبة حجرًا حجرًا[٣]!

ولقد تعاملت الشريعة الإسلامية بمرونة تامة مع الفتنة؛ حيث قرَّر رسول الله ﷺ أنه «إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا..»[٤]. وهذا الأمر إقرار لولاية المتغلِّب كما قرَّر جمهور الفقهاء، والغرض من ذلك إجماع الأمة حول إمام واحد؛ حقنًا للدماء، ولمًّا للشمل، ومنعًا لحدوث الفتنة، ولذلك فحينما حدث التقاتل والتنازع بين عبد الله بن الزبير ﷺ وعبد الملك بن مروان رحمه الله على أمر الخلافة، واستقلال عبد الله بن

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٣/ ١٥٨.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٣/ ١٦٧.

(٣) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ! مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله حُرْمَةً مِنْكِ؛ مَالِهِ وَدَمِهِ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلاَّ خَيْرًا». ابن ماجه: كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله (٣٩٣٢)، والترمذي (٢٠٣٢). وصححه الألباني: انظر: السلسلة الصحيحة (٣٤٢٠).

(٤) سنن ابن ماجه (٢٨٦١)، والترمذي (١٧٠٦)، ومسند أحمد (٢٧٣٠١)، وقال الألباني: حديث صحيح.

الزبير بالعراق والحجاز ومصر، ولم يبق مع عبد الملك إلا الشام، رأينا كبار الأمة وأهل الرأي فيها من الصحابة وأبناء الصحابة ينهون الناس عن الولوج في هذه الفتنة، التي قسَّمت الأمة إلى شطرين، وعدم مبايعة أحدهما ما داما منشقين متنازعين، حتى إذا انتهت الفتنة بتغلب عبد الملك بن مروان، واجتماع الأمة حوله، وجدنا بعض كبار الصحابة يُقرُّون بإمامته، ويُبايعونه، ومن هؤلاء عبد الله بن عمر ﷺ الذي أرسل إلى عبد الملك رسالة جاء فيها: «إنِّي أقرُّ بالسَّمع والطاعة لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على سُنَّة الله وسُنَّة رسوله فيما استطعت، وإنَّ بَنِيَّ قد أقرُّوا بذلك»[١].

إن الفتنة من المنظور الحضاري الإسلامي أمر يجب الابتعاد عنه قدر الإمكان، والغاية من الابتعاد عن الفتنة تتمثل في حقن دماء المسلمين، وتحقيق الغاية من إقامة الخلافة الإسلامية القائمة على الوحدة والاعتصام ونشر دين الله وعبادته حق العبادة، هكذا كانت – وما زالت – غاية الحضارة الإسلامية، ومن ثم أقرَّت الشريعة الإسلامية قتل الخليفة الثاني مع وجود أول يقوم بالأعباء وينهض بها، فقال رسول الله ﷺ: «**إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخَرَ مِنْهُمَا**»[٢]. وهذا الحديث يشرحه الإمام ابن الجوزي بقوله: «إذا استقر أمر الخليفة وانعقد الإجماع عليه فبويع لآخر بنوع تأويل كان باغيًا، وكان أنصاره بغاة، يُقاتَلون قتال البغاة. وقوله: «فاقتلوا الآخر منهما» ليس المراد به أن يُقَدَّم فيقتل، وإنما المراد: قاتلوه فإن آل الأمر إلى قتله جاز»[٣].

إذن سعت الحضارة الإسلامية إلى وحدة المسلمين وتماسكهم، ومن ثم أجازت ولاية المتغلب[٤]؛ إذا كان غرضها وَحدة الصف الإسلامي، وأفضل ما يُمثِّل به هذا الأمر، ما فعله المجاهد البطل يوسف بن تاشفين في الأندلس؛ فقد جمع الإمارات الأندلسية التي كان يحكمها ملوك الطوائف المتصارعون فيما بينهم، والمستعينون بعدوهم ضد بعضهم، تحت رايته، فبعدما قضى على شوكة أعداء الإسلام، وانتصر عليهم في موقعة الزلاقة عام

---

(١) البخاري: كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس؟ (٦٧٧٧).

(٢) مسلم: كتاب الإمارة، باب إذا بويع لخليفتين (١٨٥٣).

(٣) ابن الجوزي: كشف المشكل من حديث الصحيحين ١/ ٧٩٥.

(٤) انظر: محمد رشيد رضا: الخلافة ص٤٤.

٤٧٩هـ، قَرَّر أن يجمع هذه الإمارات كلها تحت راية دولة المرابطين، فأعطى الأمر لقواده بأن يفتحوا هذه الولايات، وقد أفتى له كبار العلماء في عصره بهذا، وعلى رأسهم حجة الإسلام الإمام الغزالي، ومن فتوى الإمام الغزالي تتضح فلسفة الحضارة الإسلامية في أمثال هذه المواقف. قال: «ولقد أصاب (أي يوسف بن تاشفين) الحق في إظهار الشعار الإمامي المستظهري، وهذا هو الواجب على كل مَلك استولى على قطر من أقطار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها... وإن لم يكن بلغهم صريح التقليد من الإمام أو تأخَّر عنهم ذلك لعائق»[1].

لقد أعطت الحضارة الإسلامية الحلول الناجعة لوأد الفتنة، كما أنها قد تعاملت مع الفتن بواقعية تامَّة لم نجد لها مثيلاً في الحضارات الأخرى، ورأينا مشرِّعي الإسلام ودورهم الفقهي الذي ابتغى وحدة الأمة، فأقرَّ بولاية المتغلب، وقتل الخليفة الثاني، وأجاز ولاية المفضول مع وجود الأفضل، كل هذا بهدف اعتصام الأمة حول إمام واحد، وعدم تشرذمها الاجتماعي، ومن ثم تشرذمها الحضاري والديني والثقافي أمام الأمم الأخرى.

* * *

(١) الصلابي: دولة المرابطين ص١٢٣.

المبحث التاسع

الشـــــورى

لا يمكن بأي حال أن نتطرق إلى المؤسسة السياسية الإسلامية دون الحديث عن واحدة من أهم مميزات هذه المؤسسة؛ فالإسلام قد جاء بمبدأ إنساني غاية في العظمة والروعة، وهو مبدأ الشورى، بل سُميت سورة من سور القرآن الكريم باسم «الشورى»؛ دلالة على أهمية تحقق هذا الشرط في أي شأن من شئون المسلمين.

وعلى الرغم من اختلاف الفقهاء حول آليات تنفيذ هذا المبدأ من ناحية الاختيار أو الوجوب والإلزام، لكنهم مُجْمِعُون على ضرورة تَحَقُّقها بين المسلمين[1] مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[2].

وتُعرَّف الشورى بأنها طلب الرأي ممن هو أهل له، أو هي استطلاع رأي الأمة أو من ينوب عنها في الأمور العامة المتعلقة بها[3]، وعليه فقد اتخذ المسلمون الشورى أصلاً وقاعدة من أصول الحكم وقواعده، وعليها قام ترشيح العدول من المسلمين لمن يرونه أهلاً للقوَّة والإمامة لتولِّي أمرهم؛ ومما يؤكِّد ذلك ويؤصِّله أن الرسول ﷺ لم يترك نصًّا مكتوبًا ولم يستخلف أحدًا ليتولَّى إمامة المسلمين، وإنما ترك الأمر شورى بينهم، وقد روى أبو وائل قال: قيل لعلي بن أبي طالب ﷺ: ألا تستخلف علينا؟ قال: «ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف، ولكن إن يُرِدِ اللهُ بالناس خيرًا فسيجمعهم بعدي على خيرهم، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم»[4].

ومن هنا كانت الشورى أصلاً من الأصول الأولى للنظام السياسي الإسلامي، بل امتدَّت لتشمل كل أمور المسلمين؛ وتأسيسًا على ذلك فإن الدولة الإسلامية تكون قد

---

(١) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٢٤٨- ٢٥٢، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٥٠، والكاساني: بدائع الصنائع ٧/ ١٢، والقرافي: الذخيرة ١٠/ ٧٥، ٧٦، والشافعي: الأم ٥/ ١٦٨، وابن قدامة: الشرح الكبير ١١/ ٣٩٩.

(٢) (آل عمران: ١٥٩).

(٣) جعفر عبد السلام: نظام الدولة في الإسلام، وعلاقتها بالدول الأخرى ص١٩٩.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب معرفة الصحابة ﷺ، باب أبي بكر الصديق (٤٤٦٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

سبقت النظم الديمقراطية الحديثة في ضرورة موافقة الجماعة على اختيار مَنْ يقوم بولاية أمورها ورعاية مصالحها وتدبير شئونها؛ ممَّا يؤكِّد قيمة وفاعلية الإجماع عند المسلمين[١].

لكن من هُمْ أهل الشورى؟ أو أهل الاختيار؟ أو كما قال عنهم فقهاء المسلمين ومؤرخوهم: أهل الحل والعقد.

هناك اتفاق بأن الشورى في الإسلام منوطة بفئة من المسلمين يُطلق عليهم أهل الشورى (الحلِّ والعقد)، وقد تحدَّث الفقهاء عن ضرورة توافر بعض الشروط فيهم؛ وهي: العدالة، والعلم، والرأي، والحكمة. ومن ثَمَّ يمكن إجمالهم في «العلماء والرُّؤساء ووجوه النَّاس الَّذين يتيسَّر اجتماعهم»[٢].

لذلك كانت الشورى من الأمور الضرورية الملحة التي يفرضها الإسلام على ولاة الأمور، ويمكن القول: إنها من أهم المظاهر الحضارية التي أسهم المسلمون في إيجادها وإرسائها في المجتمع الإسلامي، وتأثر بها الآخرون، خاصة في أوربا منذ القرن الثالث عشر الميلادي، ولذلك كانت الشورى نوعًا من التعبير عن الإرادة الإلهية؛ استنادًا إلى ما يقوله الرسول ﷺ: «**إِنَّ أُمَّتِي لاَ تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلاَلَةٍ**»[٣]. ويهمنا أن نلاحظ أن الخليفة في الإسلام لا يمكن أن يُعطي لنفسه حق التعبير عن الإرادة الإلهية، أي أنه لا يملك أن يُصدر تشريعًا؛ لأن سلطة التشريع لجماعة المسلمين أو مجموع الأمة[٤]، وهذا بالطبع في حالة غياب نصٍّ صريح قطعي الدلالة من القرآن والسنة.

ومن أبرز الأمثلة التي تُدلل على رُقي مبدأ الشورى وتفوقه على غيره من الآليات والوسائل المستحدثة في تولية الحاكم، ما لمسناه في واقع الخلفاء الراشدين، فعندما طُعن عمر بن الخطاب ﷺ وقارب الأجل، سأله الصحابة أن يترك عهدًا لمن سيخلفه فرفض، بيد أنه جعل البيعة في ستة من صحابة رسول الله ﷺ، وهم الذين أجمعت الأمة على

(١) فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ص ٢٤، ٢٥.
(٢) النووي: المنهاج ١٢/ ٧٧.
(٣) سنن ابن ماجه: كتاب الفتن، باب السواد الأعظم (٣٩٥٠)، والترمذي (٢١٦٧)، وأبو داود (٤٢٥٣)، وأحمد (٢٧٢٦٧)، ومسند عبد بن حميد (١٢٢٤)، والحاكم (٨٦٦٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.
(٤) السنهوري: فقه الخلافة ص١٢٢، ١٢٣.

صلاحهم والالتفاف حولهم، ومن ثَمَّ قرَّر عمر ﷺ أن يوقظ أمر الشورى بين المسلمين، فقال: «عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ: إنهم من أهل الجنة. سعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل منهم؛ ولست مدخله؛ ولكن الستَّة: عليٌّ وعثمان ابنا عبد مناف، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله ﷺ، والزبير بن العوام حواريُّ رسول الله ﷺ وابن عمته، وطلحة الخير بن عبيد الله؛ فليختاروا منهم رجلاً؛ فإذا وَلَّوا واليًا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه، إن ائتَمَن أحدًا منكم فليؤدِّ إليه أمانته...»[١].

وبعدما فرغ المسلمون من دفن عمر بن الخطاب ﷺ، اجتمع مجلس الشورى، وفي داخل هذا المجلس المحدَّد عددًا بستة أفراد، وزمنًا بثلاثة أيام، استطاع المجتمعون أن يفرغوا من الأمر بسلام، حيث تمكَّنوا من تولية عثمان بن عفان ﷺ، وكان أولُ المبايعين المنافسُ الأول علي بن أبي طالب ﷺ، وهذا دليل على رُقي نظام الشورى الإسلامي القائم على احترام حرية الأمة في الاختيار، فأهل المدينة قد وافقوا على ترشيح عمر بن الخطاب ﷺ لمن عَيَّنهم لأمر الخلافة، ولم يكن هذا الترشيح من عمر ﷺ قسرًا للأمة وإجبارًا لها، ثم وافق أعضاء الهيئة الاستشارية، وهم في ذات الوقت المرشحون أنفسهم على استخلاف أحدهم وهو عثمان ﷺ، ولم تكن موافقتهم وحدها هي المعتمد في تنصيب عثمان، بل استشير في هذا الأمر كلّ من كان بالمدينة من ساكنيها، أو من زوارها، أو القادمين إليها من أمراء الأجناد وأشراف الناس[٢]، ومن ثَمَّ فقد اجتمعت الأمة كلها، والمتمثلة في الأنصار والمهاجرين على عثمان ﷺ وبايعوه.

ويبقى أن نشير إلى أن نظام الشورى الإسلامي يختلف كثيرًا عن النظم الديمقراطية الوضعية، فالديمقراطية التي تعتبر حكم الشعب للشعب، ينتج عنها أن الشعب هو الذي يضع دستوره وقوانينه، وهو السلطة القضائية التي تحكم بين الناس بتطبيق القوانين الموضوعة، وحتى يتمكن الشعب من مباشرة سلطة التشريع، ووضع القوانين، والفصل بين السلطات، يتم اللجوء إلى إجراء انتخابات عامة، والتي ينتج عنها اختيار مجموعة من الأفراد، يكونون قادرين على مراقبة سائر السلطات، فمن حق هذه الهيئة المنتخبة عزل

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٢٩٣.
(٢) المصدر نفسه ٣/ ٤٢٢.

الوزراء، ومحاسبة المسئولين وعلى رأسهم رئيس الدولة، ومع وجاهة هذا الأمر، إلا أن نظام الشورى الإسلامي يختلف عن هذا التصور، فالشورى في الإسلام تقوم على حقيقةٍ، مفادها أن الحكم هو حكم الله المنزَّل بواسطة الوحي على رسول الله ﷺ، الذي يُعدُّ الالتزامُ به أساس الإيمان، والعلماء هم أهل الحلِّ والعقد، وهم على رأس رجال الشورى، وليس للعلماء مع حكم الله في إطار الشورى إلا الاجتهاد في ثبوت النصِّ، ودقَّة الفهم، ورسم الخطط المنهجية للتطبيق، والحقُّ أن النظام الديمقراطي يَسْهُل التحايل عليه، من خلال سيطرة بعض الأحزاب أو القوى على العمل السياسي في دولة من الدول، ومن ثم يفرض هذا الحزب، أو تلك الفئة وجهة نظرها على الأمة، لكن الشورى تجعل الهيمنة لله وحده، فتُعْلِي حُكْمه وتشريعه على سائر الأحكام والتشريعات، فتؤدِّي إلى ظهور رجال يعيشون في معية الله، ويخشونه بصدق[1].

ويبقى أن نشير إلى أن هذا النظام الإسلامي الباهر ظهر في وقت سيطرة الديكتاتوريات على أنظمة الحكم في العالم، سواء في بلاد الفرس أو الروم أو الهند أو الصين، وأن العالم لم يعرف هذه الشورى ولا حتى الديمقراطية - الأقل شأنًا من الشورى - إلا بعد ما يقرب من اثني عشر قرنًا من الزمان، وذلك بعد قيام الجمهورية الفرنسية وذهاب النظام الملكي فيها، ولهذا فالشورى - بلا جدال - تُعدُّ واحدة من أعظم إسهامات المسلمين للحضارة الإنسانية.

وبعدُ؛ فإننا لن نستطيع أن نستقصي كل ما أتت به هذه الحضارة الإسلامية العريقة، وكفى ما مرَّ بنا دليلاً على رُقي وعِظم حضارتنا في مجال من أهم مجالاتها على الإطلاق.

* * *

(١) أحمد أحمد غلوش: النظام السياسي في الإسلام ص٦١- ٦٤.

الفصل الثاني

الوزارة

إن الوزارة لفظة عربية أصيلة، قد اشتقت من الفعل وزر وآزر، قال ابن منظور في لسان العرب: «الوَزِيرُ حَبَأُ[1] المَلِكِ الَّذِي يَحْمِلُ ثِقْلَهُ وَيُعِينُهُ بِرَأْيِهِ، وَقَدِ اسْتَوْزَرَهُ وَحَالَتُهُ الْوَزَارَةُ وَالْوِزَارَةُ... وَوَازَرَهُ عَلَى الأَمرِ أَعَانَهُ وَقَوَّاهُ وَالأَصْلُ آزَرَهُ»[2].

وقد اخْتُلِفَ في اشتقاق اسم الوزارة على ثلاثة أوجه؛ أحدها: أنه مأخوذ من الوِزْر وهو الثقل؛ لأنه يحمل عن الملك أثقاله. والثاني: أنه مأخوذ من الوَزَر، وهو الملجأ، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لاَ وَزَرَ﴾[3] أي: لا ملجأ، فسُمِّيَ بذلك؛ لأن المَلِكُ يلجأ إلى رأيه ومعونته. والثالث: أنه مأخوذ من الأَزْر وهو الظهر؛ لأن الملك يُقَوَّى بوزيره، كقوَّة البدن بالظهر[4]. وقد جاء في ذلك قوله تعالى حكاية عن نبيِّه مُوسى عليه السلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[5]، فقد قرن الوزارة بِشَدِّ أزره، وإشراكه في أمره، وظهر ذلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾[6].

وقد كان الرسول ﷺ يستعين في تصريف أمور الدولة وقضاء مصالح الناس بأصحابه، وكان أكثر ما يستعين بأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... وَزِيرَايَ مِنْ أَهْلِ السَّماءِ فَجِبْرِيلُ

---

(١) حبأ الملك: جليسه وخاصَّته.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة وزر ٥/ ٢٨٢.

(٣) (القيامة: ١١).

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٤.

(٥) (طه: ٢٩ – ٣٢).

(٦) (الفرقان: ٣٥، ٣٦).

وَمِيكَائِيلُ، وَأَمَّا وَزِيرَايَ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ فَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»[١]. وفي حديث سقيفة بني ساعدة قال أبو بكر الصديق ﷺ للأنصار: «نحن الأمراء وأنتم الوزراء»[٢].

وهذا الحديث الشريف – الذي تُدلل فيه كلمة الوزير على معنى المعونة، وحمل أثقال الحكم[٣] – لهو أكبر دليل يدحض ما حاول البعض نشره من أن الوزارة بمبناها ومعناها لم تُعرف إلا في العصر العباسي[٤].

ولأهمية الوزارة في الحضارة الإسلامية فقد أفردنا لها مبحثين مهمين، وهما:

- **المبحث الأول: عظمة الوزارة في الحضارة الإسلامية**
- **المبحث الثاني: إسهامات المسلمين النظرية في نظام الوزارة**

***

(١) الترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر (٣٦٨٠) وقال: هذا حديث حسن غريب. والحاكم (٣٠٤٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٤٣.

(٣) المناوي: فيض القدير ٢/ ٦٥٦.

(٤) انظر: عبد العزيز الدوري: النظم الإسلامية ص١٨٤.

المبحث الأول
عظمة الوزارة في الحضارة الإسلامية

لقد تحدث كثير من فقهاء ومؤرخي الإسلام عن أهمية هذا المنصب، فيذكر الماوردي أن «كل ما وُكل إلى الإمام من تدبير شئون الأمة لا يقدر على مباشرته جميعه وحده، إلا بالاستنابة والاستعانة، فكانت نيابة الوزير المشارك له في التدبير أصح في تنفيذ الأمور من تفرده بها؛ ليستظهر بها على نفسه، ويكون في ذلك أبعد من الزلل، وأمنع من الخلل، والاستعانة بالغير يضمن العمل»[1]. وذكر ابن خلدون تعريفه لهذا المنصب المهم بقوله: «هي أم الخطط السلطانية، والرتب الملوكية؛ لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة»[2].

وقد كان عمر بن الخطاب ﷺ (ت٢٣هـ) بمثابة وزير أبي بكر ﷺ، يستشيره في كل أموره، ويُعينه في تصريف حكمه، ومن أبرز الأمور التي أشار فيها عمر ﷺ على أبي بكر أن يجمع القرآن الكريم، خوفًا من ضياعه؛ إذ قُتل معظم حفظته وقُرَّائه في موقعة اليمامة، وهذا الأمر يرويه زيد بن ثابت ﷺ، وهو الذي أنيط به جمع القرآن الكريم، حيث قال: «أرسل إليَّ أبو بكر - مقتل أهل اليمامة - فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر ﷺ: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقُرَّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنتَ تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه...»[3].

إذن لم تكن الوزارة كلمة مستحدثة في العصر العباسي، أو أدخلها الفرس إلى الثقافة العربية؛ فقد رأينا من سيرة الرسول وأقواله، وحياة الخلفاء الراشدين ما يقف أمام تلك الآراء التي تنسب الوزارة إلى العصر العباسي.

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٣٢.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٢٣٦.
(٣) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٤٧٠١).

ومهما يكن من أمر؛ فقد تطور منصب الوزارة في العصر الأموي؛ فاتساع الدولة، وكثرة أفرادها، ومستجداتها، كان من شأنه أن يستعين الخليفة بمن يثق في صلاحيتهم لتسيير شئون الحكم، فنجد معاوية بن أبي سفيان ﷺ يستوزر عمرو بن العاص ﷺ، وإن لم يكن يطلق ذلك صراحة؛ فقد كان عَمرو ﷺ يقول لمعاوية: « يا أمير المؤمنين، ألست أنصح الناس لك؟! قال: بذلك نلت ما نلت»[١].

وقد ذكر الطبري منصب الوزراء صراحة في عهد الخلافة الأموية في حادثة شكاية أهل مصر على أحد أمرائهم، وكان ذلك في خلافة هشام بن عبد الملك (ت١٢٥هـ) الذين أتوا إليه، بيد أنهم لم يتمكَّنُوا من مقابلته، «فلما طال عليهم، ونفدت نفقاتهم، كتبوا أسماءهم في رقاع، ورفعوها إلى الوزراء، وقالوا: هذه أسماؤنا وأنسابنا، فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه..» [٢]. ولا شكَّ أن هؤلاء الوزراء الذين ذُكروا في النصِّ السابق هم المقربون من هشام بن عبد الملك، والنافذون في شئون دولته.

بل وجدنا في حوادث عام ٨٥هـ عند الطبري، نصًا يُفيد بأن مهام قَبِيصة بن ذُؤَيب، بمثابة مهام وزير في عصرنا الحالي؛ فقد كان عبد الملك بن مروان يقول: « لا يُحجب عني قَبِيصة أي ساعة جاء من ليل أو نهار، إذا كنتُ خاليًا أو عندي رجل واحد، وإن كنت عند النساء أُدْخِل المجلسَ، وأُعْلِمت بمكانه، فدخل، وكان الخاتم إليه، وكانت السَّكة إليه، تأتيه الأخبار قبل عبد الملك، ويقرأ الكتاب قبله، ويأتي بالكتاب إلى عبد الملك منشورًا..» [٣].

وهذه النصوص السابقة التي ألمحتْ إلى وجود منصب الوزارة في العصر الأموي، تُدلل على أن طبيعة هذا المنصب في ذلك العصر كانت تشاورية فقط، فلم يكن الوزير أو المستشار بالأحرى يمتلك سُلطة تنفيذية فعلية، اللهم إلا ما وجدناه عند عبد الحميد الكاتب الذي كان وزيرًا لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية.

والحق أن منصب الوزارة بدأ يأخذُ شكلاً مغايرًا في الخلافة العباسية عما كان عليه من

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه ٣/ ٣١٣.

(٣) المصدر نفسه ٥/ ٢٠٧.

قبل، فقد كان تعيين الوزراء أمرًا ضروريًّا، ويُعْتَبَرُ حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال (ت ١٣٢هـ/ ٧٥٠م)، أول مَنْ لُقِّبَ بالوزارة في الإسلام، وكان يقال له: وزير آل محمد. وهو الذي أنفق أموالاً كثيرة في سبيل الدعوة العباسية[١].

وقد قَلَّد أبو جعفر المنصور رجلاً اسمه سليمان بن مخلد المعروف باسم أبي أيوب المورياني الوزارة بجانب الدواوين، وقد ذكر ابن كثير أنه كان «صاحب ديوان الإنشاء»[٢].

ووصل الوزير في ظلِّ الخلافة العباسية إلى مكانة مرموقة، بل حدا به الأمر بأن صارت إليه أحوال البلاد والعباد، وهو ما نجده في أسرة البرامكة؛ فقد مُنح يحيى بن خالد البرمكي السلطة المطلقة، فأصبح بيده الأمر والنهي في الدولة؛ فيذكر ابن كثير أنه «لما وَلِي الرشيدُ عرفَ له حقه (أي ليحيى بن خالد)... وفوَّض إليه أمور الخلافة، وأَزِمَّتها ولم يزل كذلك حتى نكبت البرامكة»[٣].

ولقد كان الخلفاء العباسيون يُمعنون في البحث والتحرِّي عن أفضل الوزراء، فهذا الخليفة العباسي المأمون يضع مجموعة من المعايير لاختيار وزير له فيقول: «إنِّي التمستُ لأموري رجلاً جامعًا لخصال الخير، ذا عفَّةٍ في خلائقه واستقامةٍ في طرائقه، قد هذَّبتْهُ الآداب وأحكمته التَّجارِب، إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قُلِّد مهمَّات الأمور نهض فيها، يُسكته الحلم، ويُنطقه العلم، وتكفيه اللَّحظة، وتغنيه اللَّمحة، له صولة الأمراء، وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، إن أُحسن إليه شكر، وإن ابْتُلِيَ بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترقُّ قلوب الرِّجال بخلابة لسانه وحسن بيانه»[٤].

ومن ثَمَّ استوزر المأمونُ الفضلَ بن سهل (ت٢٠٢هـ)، وقد كان الْفَضل هذا من أعاظم الوزراء في التاريخ الإسلامي، ولمكانته أطلق المأمون يده في كل الأمور «وسماه ذا

(١) الزركلي: الأعلام ٢/ ٢٦٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١١٠.

(٣) المصدر نفسه ١٠/ ٢٠٤.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٣٠، ٣١.

الرياستين؛ لتدبيره أمر السيف والقلم»[١]. أي جعله يتولَّى الأمور المتعلقة بالسياسة والحرب، ولم يكن ذلك الجمع لوزير سابق، كما أننا نجد الوزارة تُفوَّض إلى الفضل بن سهل بتوقيع خاصٍّ (أي خطيًّا) وهذا أول تشريف من نوعه، ولعل محتويات التوقيع توضِّح أهميته؛ إذ جاء فيه: «قد جعلتُ لك مرتبة من يقولُ في كل شيء فيُسْمَعُ منه، ولا تتقدَّمُكَ مرتبة أحد، ما لزمتَ ما أمرتُك به من العمل لله ولدينه، والقيام بصلاح دولة أنت ولي القيام بها، وجعلتُ كله لك بشهادة الله تعالى، وجعلته لك كفيلاً على عهدي، وكتبتُ خطي في صفر سنة أربع وتسعين ومائة»[٢].

وكذلك وجدنا ابن العميد علي بن محمد بن الحسين (ت ٣٦٠هـ)، من جملة الوزراء الذين ذاع صيتهم، وانتشرت شهرتهم في القرن الرابع الهجري، فعلى الرغم من كونه وزيرًا لآل بويه، إلا أننا وجدنا مؤسسة الخلافة تمتدحه، وترفعه إلى مكانة سامقة، ومن ثم فقد لقَّبه الخليفة الطائع لله «بذي الكفايتين» أي السيف والقلم[٣].

وما كان امتداح الخليفة العباسي الطائع لله للوزير ابن العميد من فراغ؛ فقد كان ابن العميد يقود الجيوش، ويحضر المعارك، وكان أسدًا في الشجاعة... وكان قليل الكلام، نزر الحديث، إلا إذا سُئل ووجد من يُفهم عنه؛ وكان لحُسن عشرته، وطهارة أخلاقه إذا دخل إليه أديبٌ أو عالم متفردٌ بفنٍّ سكت له، وأصغى إليه، ومع ذلك استطاع أن يُعيد النظام الأمني المفقود في البلاد، بعد ثورات واضطرابات الجند في بغداد؛ ولذلك عظمت مكانته في فترة وزارته القصيرة، واستتب الأمن على يديه، ونال العلماء والأدباء مكانتهم المستحقَّة بين يديه، فخاف البويهيون على ملكهم منه، فقتلوه[٤].

وكان عمل الوزراء غاية في الدقة والتنظيم والاستغراق في العمل؛ فقد ذكر المؤرخ الشابُشتي[٥]، أن الوزير صاعد بن مخلد (ت ٢٧٥هـ) كان يقوم في آخر الليل، فلا يزال

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٤/ ٢٢٩.

(٢) الحميري: الروض المعطار ص٣١٦، وعبد العزيز الدوري: النظم الإسلامية ص١٩٥.

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢/ ٢٨٢، والذهبي: تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢١٦.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ١٨٧، ١٨٨، وإحسان عباس: شذرات من كتب مفقودة ٢/ ٢٤٠.

(٥) الشابشتي: أبو الحسين علي بن محمد الشابشتي، (ت ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م) كاتب فاضل، تولى الخزانة للعزيز الفاطمي، من مؤلفاته «الديارات، مراتب الفقهاء» انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٣١٩.

يُصَلِّي إلى طلوع الفجر، ثم يَأْذَن للناس فيُسَلِّمون عليه، ثم يركب إلى دار الخليفة المُوَفَّق فيقيم بحضرته أربع ساعات، ثم ينصرف إلى منزله، فينظر في حوائج الناس وأمور الحاضر والغائب إلى الظهر، ثم يتغدَّى وينام، ثم يجلس بالعشي فينظر في الأعمال السلطانية إلى العشاء الآخرة، لا يبرح يُحَصِّل جميع الأموال ما حمل منها وما أنفق وما بقي، ويَعمل له بذلك عملاً في كل يوم ويُعرض عليه، وما يخفى عنه شيء مما يجري في الأعمال كل يوم، ثم يأمر في أمر ضياعه وأسبابه، ويتقدَّم إلى وكلائه وخاصته بما يحتاج إليه، ثم يتشاغل بعد ذلك مع نديم يتشاغل بحديثه ويأنس به، ثم ينام[(١)].

وكان هناك مجموعة من الوزراء الأوفياء في الحضارة الإسلامية، قد جمعوا بين دهاء السياسة وأخلاق الدين، وكان لهم دور كبير في مسيرة الحضارة الإسلامية، ومن هؤلاء نجد الوزير نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق وزير دولة السلاجقة، ذكر الإمام الذهبي أنه « أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد، وأخرى بنيسابور، وأخرى بطوس، ورغَّب في العلم، وأدرَّ على الطلبة الصِّلات، وأملى الحديث، وبَعُد صيته»[(٢)].

والمدرسة الكبرى التي ذكرها الذهبي، هي المدرسة النظامية في بغداد، والغريب أن الوزير نظام الملك كان مع توليه لأمر الوزارة يذهب بين الحين والآخر إلى هذه المدرسة لتدريس مادة الحديث الشريف، وهذا ما يذكره ابن الأثير بقوله: «دخل نظام الملك إلى المدرسة النظامية، وجلس في خزانة الكتب، وطالع فيها كتبًا، وسمع الناس عليه بالمدرسة جزء حديث، وأملى جزءًا آخر»[(٣)].

لقد كان نظام الملك من خيرة وزراء الحضارة الإسلامية إن لم يكن أفضلهم، بعد عهد الصحابة، فقد كان محبًّا للعلماء، مُعظِّمًا لهم، «وكان نظام الملك إذا دخل عليه الإمام أبو القاسم القشيري، والإمام أبو المعالي الجويني، يقوم لهما، ويجلس في مسنده، كما هو، وإذا دخل أبو علي الفارَمَذي يقوم إليه، ويُجلسه في مكانه، ويجلس هو بين يديه، فقيل له في ذلك، فقال: إن هذين وأمثالهما إذ دخلوا عليَّ يقولون لي: أنت كذا وكذا.. يثنون عليَّ بما

(١) الشابشتي: الديارات ص٦٦.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٩٦.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٤٩.

ليس فيَّ، فيزيدني كلامهم عجبًا وتيهًا، وهذا الشيخ يذكر لي عيوب نفسي، وما أنا فيه من الظلم، فتنكسر نفسي لذلك، وأرجع عن كثير مما أنا فيه»[١].

ولكثرة حُبِّه للعلم أَلَّف نظام الملك كتاب «سياست نامه» أو «سير الملوك»، وقد أَلَّفه لسلطان السلاجقة ملكشاه بن محمد عام ٤٧٩هـ، وكان الهدف من تأليفه إبراز أهم السبل الناجحة لقيادة الدول لدى الملوك والأمراء السابقين، لتتأسَّى بها دولة السلاجقة في أحوالها وشئونها الإدارية والسياسية، ومن ثَمَّ يقول نظام الملك: «لذا عمدتُ إلى درج وشرح كل ما كنتُ أعرفه، أو رأيته، أو خبرته، من تجارِب في حياتي، أو تَعَلَّمته من أساتذتي في الموضوع، في هذا الكتاب في خمسين فصلاً»[٢]. ولا شكَّ أن هذا العمل قد لاقى قبولاً من السلطان، كما لاقى قبولاً من القرَّاء فيما بعد، وهذا العمل يؤكد أن الوزارة في الإسلام لم تكن عملاً إداريًّا بمعزل عن تجارب السابقين وخبراتهم.

وفي حديثنا عن الوزارة وأهميتها في حضارتنا الإسلامية، لا يجب أن ننسى ما كان لهذا المنصب من أهمية كبرى في الشطر الغربي من الأمة الإسلامية، ونعني الأندلس، والحق أن نظام الوزارة في الأندلس كان يُشبه إلى حدٍّ كبير «التشكيل الوزاري» في عصرنا الحاضر، وكان رئيس الوزراء في بادئ الأمر الخليفة نفسه، ثم تطور هذا الأمر، فأصبح «الحاجب» هو رئيس الوزراء الفعلي، وقد أشار ابن خلدون إلى نظام الوزارة في الأندلس بقوله: «وأما دولة بني أمية بالأندلس فأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة، ثم قَسَّموا خطته أصنافًا، وأفردوا لكل صنف وزيرًا، فجعلوا لحسبان المال وزيرًا، وللترسيل (البريد) وزيرًا، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرًا، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيرًا، وجُعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك كلٌّ فيما جُعِلَ له، وأُفْرِد للتردُّد بينهم وبين الخليفة واحدٌ منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصُّوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم، فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب، حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها، فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب..»[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٨١.

(٢) نظام الملك: سياست نامه ص٤٤.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٢٤٠.

وهذا النص السابق الذي ذكره ابن خلدون، يوضِّح أن الحضارة الإسلامية الأندلسية كانت المثال الحقيقي الذي احتذت الأمم الحالية أثره، فالمعلوم أن الدولة الأموية في الأندلس قد بدأت منذ عام ١٣٨هـ، بدخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (الداخل) إلى الأندلس، ودخولها تحت طاعته، وهذا التقسيم السابق للوزراء - من وزير للمالية، وآخر للشئون الخارجية، وآخر للعدل، وآخر للدفاع والأمن القومي، ثم وجود رئيس للوزراء يُسَمَّى بالحاجب، ووجود دار يجتمعون فيها كرئاسة مجلس الوزراء - كان قد تمَّ بالفعل منذ فترة مبكرة من تاريخ الأندلس.

ومن أشهر الوزراء في تاريخ الأندلس يأتي المنصور بن أبي عامر محمد بن عبد الله، فهذا الرجل كان من الأذكياء الموهوبين، الذين استطاعوا الترقي في وظائف الدولة حتى وصل به الأمر إلى رئيس للشرطة، ثم وصيٍّ على الخليفة الصغير هشام بن الحكم الأموي، ومن ثم حاجبًا ورئيسًا للوزراء.

والحق أن رئيس الوزراء المنصور بن أبي عامر، لم يكن مستكينًا في مكانه نمطيًّا في تحركاته وتطلعاته؛ فقد كان من أكابر الوزراء الذين جاهدوا في سبيل الله، حيث غزا مملكة ليون بنفسه عام ٣٧٣هـ، وفتح برشلونة عام ٣٧٤هـ، بل استطاع أن يضم بلاد المغرب العربي عام ٣٨٦هـ تحت حكم الدولة الأموية في الأندلس، فكانت الدولة الأموية بالأندلس بزمن الحاجب المنصور في أكبر توسع شهدته طَوَال زمن بقائها[1].

لقد كانت الوزارة في تاريخ الإسلام وحضارته من المناصب المهمة، التي أضافت لحيوية وقوة الدولة الإسلامية الشيء الكثير، فمع مرور فترات من الضعف والوهن في مؤسسة الخلافة والحكم، وجدنا كثيرًا من الوزراء الذين كان لهم الفضل في قوة وحيوية الدولة الإسلامية، والعجيب أن هؤلاء الوزراء لم يخرجوا على مؤسسة الخلافة، التي كانت تمر بمرحلة ضعف ظاهر، كما رأينا مع المنصور بن أبي عامر في الأندلس، وابن العميد (ت ٣٦٠هـ) بالمشرق[2].

---

(١) انظر: حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس ١/ ٣٦٣-٣٧٢.

(٢) انظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ١٨٥-١٨٨.

المبحث الثاني
إسهامات المسلمين النظرية في نظام الوزارة

نتيجة لظهور منصب الوزارة في الخلافة العباسية منذ اليوم الأول لوجودها، وجدنا المؤلفات الكثيرة التي اعتنت بهذه القضية، سواء من ناحية الضوابط الفقهية، أو الآداب العامة التي لا بُدَّ أن تتجلَّى فيمن نال الوزارة، فمِن أوائل من كتبوا في هذا الأمر نجد ابن المقفع القائل: «لا يُستطاع السلطان إلا بالوزراء والأعوان، ولا تنفع الوزراء إلا بالمودة والنصيحة»[(١)].

ووجدنا ابن أبي الربيع[(٢)] يقول في كتابه «سلوك المالك في تدبير الممالك»: «اعلم أنه لا بُدَّ لمن تقلَّد الخلافة والملك من وزير على نظم الأمور، ومعين على حوادث الدهور، يكشف له صواب التدبير، ألا ترى إلى نبينا ﷺ مع ما خصَّه الله تعالى به من الإكرام، وآتاه من الآيات العظام، ووعده بإظهار الدين، وأيَّده بالملائكة المقرَّبين، وهو مع ذلك مُوَفَّق للصواب، مُؤَيَّد للرشاد، اتخذ علي بن أبي طالب ﷺ وزيرًا، فقال: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى[(٣)]»[(٤)]... فلو استغنى أحد عن المؤازرة والمعاضدة برأيه وتدبيره، لاستغنى نبينا محمد وموسى صلوات الله عليهما وسلامه؛ فالوزير هو الشريك في الملك، المدبِّر فيه بحفظ أركانه، المدبر بالقول والفعل»[(٥)].

ويأتي الماوردي على رأس من كتبوا في النظام السياسي الإسلامي، فعني بنظام الوزارة، وخصص لها فصلاً مستقلاً، وقد قَسَّم الوزارة إلى قسمين: وزارة تفويض، ووزارة تنفيذ؛ فأما وزارة التفويض فهي أن يستوزر الخليفة من يُفَوِّض إليه تدبير الأمور

---

(١) ابن المقفع: الأدب الصغير ص٣٢.

(٢) ابن أبي الربيع: أحمد بن محمد بن أبي الربيع، (٢١٨ - ٢٧٢ هـ/ ٨٣٣ - ٨٨٥ م) أديب، كان من وزراء المعتصم العباسي، له تصانيف، منها «سلوك المالك في تدبير الممالك» انظر الزركلي: الأعلام ١/ ٢٠٥.

(٣) الحديث رواه بلفظ: «أَلا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى». انظر: البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة (٤١٥٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٤).

(٤) كان الأولى لابن أبي الربيع أن يُنَوِّه إلى وزارة أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، ثم يتكلم عن علي بن أبي طالب؛ لأنه يأتي بعدهم في هذا الأمر.

(٥) ابن أبي الربيع: سلوك المالك في تدبير الممالك، نقلاً عن ظافر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ١/ ٤٢٢، ٤٢٣.

برأيه، وإمضاءَها على اجتهاده[١]، ولا شكَّ أن مثل هذا المنصب دليل على مرونة مؤسسة الحكم والخلافة، التي لم تتخذ موقف الإدارة المركزية في كل شاردة وواردة، وإنما كان هذا المنصب تلبية لحاجة المسلمين، وتيسيرًا لشئونهم وأحوالهم، ومن أهم وزراء التفويض في الحضارة الإسلامية يأتي جعفر بن يحيى البرمكي الذي كان يُلقَّب بالسلطان أيام الخليفة العباسي الرشيد، وذلك «إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة»[٢]، وكذلك يأتي نظام الملك في مُقَدِّمة هؤلاء في الحضارة الإسلامية المشرقية، والمنصور بن أبي عامر، في الحضارة الإسلامية الأندلسية، كما أوضحنا في المبحث السابق.

وأما وزارة التنفيذ فهي أقلُّ شأنًا من وزارة التفويض؛ لأن النظر فيها مقصور على رأي الخليفة وتدبيره، ويكون عمل هذا الوزير أن يُؤَدِّيَ عن الخليفة ما أَمَرَ، ويُنَفِّذُ عنه ما ذَكَرَ، ويُمْضِي ما حَكَمَ[٣]، ومعظم الوزراء في الحضارة الإسلامية على شاكلة هؤلاء، يُعَيِّنهم الخلفاء؛ لتنفيذ ما يأمرون في الأمور المالية أو العسكرية أو الاجتماعية.

وخصص الطرطوشي في كتابه «سراج الملوك» فصلاً عن الوزراء وصفاتهم، وقد أوضح أن أهم ما يُفيد الملك والخلافة من الوزير أمران؛ هما: «علمُ ما كان يجهلهُ، ويُقوِّي عنده علمُ ما كان يعلمه»[٤]. كما حذَّر الطرطوشي الخلفاء والأمراء من أن يلي الوزارة لئيمٌ؛ لأن «اللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه، واستخفَّ بالأشراف، وتكبَّر على ذوي الفضل». ثم يُورد ما يؤكد وجهة نظره بواقعة حدثت بين سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، فقال: «لما أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب كاتب الحجاج يزيد بن أبي مسلم، قال له عمر بن عبد العزيز: أسألك بالله يا أمير المؤمنين، أن لا تحيي ذِكْرَ الحجاج باستكتابك إياه. فقال: يا أبا حفص، إني لم أجد عنده خيانة دينار ولا درهم. قال عُمر: أنا أُوجدك من هو أعفُّ منه في الدينار والدرهم. قال: ومن هو؟ قال: إبليس ما مس دينارًا ولا درهمًا، وقد أهلك هذا الخلق»[٥].

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٤، ٢٥.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٢٣٨.
(٣) المصدر السابق ص ٢٦، ومنير العجلاني: عبقرية الإسلام في أصول الحكم ص٢٢٣.
(٤) الطرطوشي: سراج الملوك ص٥٦.
(٥) المصدر السابق ص٥٧.

وقد أوضح الشيزري (ت ٥٨٩هـ) في كتابه «المنهج المسلوك في سياسة الملوك» أقسام الوزارة على غرار ما رأينا عند الماوردي، وقد أكد الشيزري في كتابه على ضرورة أن يتصف الوزير بعشر صفات واجبة التحقق؛ وهي: العلم، والسن، والأمانة، وصدق الحديث، والقناعة، والمسالمة، وقوة التذكُّر، والذكاء والفطنة، وألا يكون من أهل الأهواء، وأن يكون من أهل الكفاية[١].

وكتب محمد بن علي القلعي (ت ٦٣٠هـ) كتابه « تهذيب الرياسة وترتيب السياسة»، وقد حوى هذه الكتاب الكثير من القصص والأخبار التي تُعين الخلفاء والولاة والسلاطين على سياسة إماراتهم على بصيرة، من خلال تجارب الأولين في هذا المضمار، وقد قسَّمه القلعي إلى قسمين؛ فأما الأول منه: فيشتمل على «أنواع أبواب يحتوي على غرر من كلام الحكماء، ودرر الفصحاء ما ينسبكُ في قالب الأمثال الشاردة، وينتظم في سلك الحكم الواردة..». وأما القسم الثاني، فيشمل: «بحكايات من الخلفاء ووزرائهم، وعمالهم وأمرائهم؛ مما يدل على نبلهم وغزارة فضلهم، وحسن سيرتهم، وكمال مروءتهم، وما اشتملت عليه طرائقهم»[٢]. وحديثه عن الوزارة إيرادٌ للأمثال والحكم التي قيلت من الحكماء والخبراء في هذا الشأن، وبعض أهم الأشعار التي قيلت في حق الوزارة والوزراء[٣].

أما عبد الرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ)، فأبدع وأظهر آليات الوزارة في «المُقَدِّمَة»، وتاريخية تطورها في كل مراحل الحضارة الإسلامية بدءًا منذ عهد رسول الله ﷺ، وانتهاء بوقته وعصره، وفي كل عَرْضٍ لمنصب الوزارة من خلال بعض الروايات التاريخية يتبعه بتفسير وتحليل لسمو منصب الوزارة في تلك الخلافة، وأُفولها في تلك الدولة؛ وذلك دليل على عمق نظرته في المنظومة السياسية الإسلامية، فعند حديثه عن الوزارة في عهد الدولة الأموية يذكر أنها «أرفع رتبهم يومئذ في سائر دولة بني أمية، فكان النظر للوزير عامًّا في أحوال التدبير والمفاوضات، وسائر أمور الحمايات والمطالبات، وما يتبعها من النظر في ديوان الجند، وفرض العطاء بالأهلية وغير ذلك»[٤]. ولا شكَّ أن رؤيته السياسية

(١) انظر: الشيزري: المنهج المسلوك في سياسة الملوك ص٢٠٧ - ٢١٠.
(٢) القلعي: تهذيب الرياسة ص٤.
(٣) المصدر نفسه ص٦٠.
(٤) ابن خلدون: المقدمة ص٢٣٨.

والحضارية للدول الإسلامية، أصبحت فيما بعد علمًا يُطلق عليه علم الاجتماع.

وجاء شمس الدين بن الأزرق الغرناطي (ت ٨٩٦هـ) يحذو خطى ابن خلدون في نظرته الاجتماعية ورؤيته السياسية، ففي كتابه «بدائع السلك في طبائع الملك» نراه يُخصص بابًا عن «الأفعال التي تقام بها صورة الملك ووجوده»، ويجعل ركنها الأول تنصيب الوزير، ويستدلُّ على أهمية ذلك بالأدلة العقلية والشرعية، والكتابُ شبيهٌ بكتب الفلاسفة والمنطقيين، في تقسيماته وتفريعاته[1].

ولعلنا بعد هذه الجولة السريعة ندرك عظمة الإسهامات الإسلامية في مجال الوزارة، خاصة أن الأمم الأوربية، ومن قبلها الحضارات السابقة لم يكن لها أي إسهام لا من قريب ولا من بعيد في هذا المجال.

***

(١) ابن الأزرق: بدائع السلك في طبائع الملك ص٢٤.

الفصل الثالث

الـــــــدواوين

الديوان لفظ فارسي معرب، ومعناه في العربية «مُجْتَمَع الصحف» أي الكتاب أو السجل[١]، أما تعريفه الاصطلاحي فهو – كما يقول الماوردي-: «موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال»[٢].

كثير من المؤرخين يذكرون أن الدواوين قد نشأت في عهد عمر بن الخطاب ﷺ؛ وكان ذلك نتيجة لاتساع رقعة الدولة الإسلامية، وهذا الأمر صحيح من ناحية تخصيص الدواوين، وتعيين رؤساء لها، لكن النظرة التأسيسية للدواوين بدأت منذ عصر النبي ﷺ؛ حيث اتخذ كُتَّابًا، يكتبون له الرسائل: رسائل الدعوة إلى الملوك والأمراء وزعماء القبائل، وغيرها من الرسائل إلى العمال أو الولاة، ومن ثَمَّ فإن نشأة الدواوين في الدولة الإسلامية بدأت منذ عهد النبي ﷺ، وإن لم يتخذ المسلمون وقتئذ مسمى الدواوين، إلا أن وظيفة كاتب الرسائل كانت موجودة ومعروفة فيما بينهم؛ لذلك فإننا سنتناول في هذا الفصل المباحث التالية:

- **المبحث الأول: ديوان الرسائل والإنشاء**
- **المبحث الثاني: ديوان الجند والعطاء**
- **المبحث الثالث: ديوان الأوقاف**
- **المبحث الرابع: ديوان البريد والاتصالات**
- **المبحث الخامس: بيت المال**
- **المبحث السادس: الشرطة**
- **المبحث السابع: الحسبة**
- **المبحث الثامن: الجيش**

---

(١) انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة دون ١٣/ ١٦٤

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٥٩.

المبحث الأول

ديوان الرسائل والإنشاء

تكمن مهمة هذا الديوان بالكتابة، فالكتابة على مرِّ العصور قد اعْتُبِرَتْ من أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة؛ إذ إليها ينتهي الفضل، وعندها تقف الرغبة، وقد زادت أهمية الكتابة منذ مجيء الإسلام؛ فقد اتخذ النبي ﷺ عددًا من الكتاب قَدَّرتهم بعض المصادر بما يزيد على الثلاثين كاتبًا[١].

وقد كان الخلفاء والأمراء من أشد الناس حاجة للكُتَّاب؛ لذلك كثر المديح في كاتب الإنشاء، فقال الزبير بن بكار: «الكُتَّاب ملوك وسائر الناس سوقة»[٢]. وقال ابن المقفع: «الملوك أحوج إلى الكُتَّاب من الكتاب إلى الملوك»[٣].

هذا، وقد عَرَّف القلقشندي (ت ٨٢١هـ) كتابة الإنشاء بأنها «كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام، وترتيب المعاني من المكاتَبات، والولايات، والمسامَحات، والإطلاقات، ومناشير الإقطاعات، والهُدَن، والأمانات، والأيمان، وما في معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها»[٤].

وهذا النصُّ يدلنا على أن ديوان الكتابة والإنشاء لم يكن مُعَيَّنًا بمجرَّد كتابة ما يمليه الخليفة أو الأمير فقط، إنما كان يهدف أيضًا إلى صياغة العبارات المناسبة، والخطابات الدبلوماسية، ويمكن أن يُعْتَبَر كالمتحدِّث الرسمي باسم الخليفة أو الأمير، كما أنه يؤتمن على أخطر أسرار الدولة، وأدق التفاصيل في علاقة الخليفة بالأمراء والوزراء، وكذلك علاقته بالدول المحيطة.

ولا شكَّ أن تعريف القلقشندي السابق يُدلل على أن ديوان الإنشاء وصل إلى مرحلة النضج والاكتمال في معناه ومبناه في القرنين الثامن والتاسع الهجريين.

ولأهمية أمر الكتابة في الحضارة الإسلامية وجدنا رسول الله ﷺ أول من اتخذ كُتَّابًا له في

---

(١) فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ص٩٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ١/ ٧٣.

(٣) المصدر نفسه ١/ ٧٣.

(٤) المصدر نفسه ١/ ٨٤.

ظلِّ الدولة الإسلامية؛ فقد «كان يُكاتِب أمراءه، وأصحاب سراياه من الصحابة، ويكاتبونه، وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وبعث إليهم رسله بكتبه، وكتب لعمرو بن حزم عهدًا حين وجَّهه إلى اليمن، وكتب لتميم الداري وإخوته بإقطاع بالشام، وكتب كتاب القضية بعقد الهدنة بينه وبين قريش عام الحديبية...»[(١)].

وبالمثل؛ فقد اتخذ الخلفاء الراشدون كُتَّابًا لهم؛ إذ كتب لأبي بكر الصديق ﷺ عثمانُ بن عفان ﷺ، وزيد بن ثابت ﷺ، كما كتب للفاروق ﷺ زيد بن ثابت وعبد الله بن خلف ﷺ، وكتب مروان بن الحكم لعثمان بن عفان ﷺ، وكتب لعلي بن أبي طالب ﷺ عبد الله بن رافع وسعيد بن نجران الهمداني، وكتب للحسن بن علي كاتب أبيه ﷺ[(٢)].

وفي عهد الخلافة الأموية كانت الحاجة لكُتَّاب الإنشاء أشدَّ من ذي قبل؛ حيث اتسعت رقعة الخلافة الإسلامية، وتعدَّدت مراسلات الخليفة لعماله وولاته، فظهرت كتابة الإنشاء بشكل واضح جلي، وكان ديوان الإنشاء وقت الأمويين خليطًا من الكُتَّاب العرب وغيرهم من الموالي والأجناس الأخرى، فأبو الزعيزعة مولى عبد الملك بن مروان، وروح بن زنباع الجذامي كانا من كُتَّابه المقرَّبين، وبسبب المهارة الفائقة التي تمتع بها روح ابن زنباع، وجدنا عبد الملك بن مروان يصفه بإعجاب بأنه «فارسي الكتابة»[(٣)].

وكان ديوان الإنشاء يُفَوَّض إلى كاتب يُشرف عليه ويقوم بإدارته، فكان عبد الحميد ابن يحيى العامري (ت١٣٢هـ) الملقب بعبد الحميد الكاتب، من أشهر كُتَّاب الخلافة الأموية، وأشهر كُتَّاب الحضارة الإسلامية فيما بعد، فلمنزلته المرموقة في دولة بني أمية اتخذه مروان بن محمد (ت ١٣٢هـ) آخر خلفائهم بمثابة وزير له، بجوار وظيفته الأساسية ككاتبٍ للإنشاء والرسائل.

ويُعَدُّ عبد الحميد الكاتب أول من وضع القواعد العامَّة، والسمات الرئيسة التي يجب أن تتوفَّر في كاتب الإنشاء، ولمكانته العليا في هذا الميدان قيل: «فُتِحَت الرسائل بعبد

---

(١) الكتاني: التراتيب الإدارية ١/ ١١٨.

(٢) فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ص١٠١.

(٣) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٣٥.

الحميد وخُتِمت بابن العميد»[1]. ولذلك فإن تلاميذه قد احتلُّوا المكانة المرموقة في الدولة لا سيما عند مؤسسة الخلافة، فكان من جملة تلاميذه يعقوب بن داود، الذي عُيِّن وزيرًا للخليفة العباسي المهدي[2].

وقد تطورت الكتابة بشكل أوسع في ظلِّ الخلافة العباسية، فمع الأشكال المعهودة من قبلُ لديوان الإنشاء وكُتَّابه، أُضيفت اختصاصات أخرى لهذا الديوان في العصر العباسي، فأهم هذه الاختصاصات كان التوقيع؛ والمراد به توقيع الخليفة بعبارات مختصرة على رقاع أصحاب الحاجات، وكل هذا يتم بعد أن يراها صاحب الديوان، فيختصر المسألة والرقعة، ويشرح أمرها للخليفة، وبعد استعراضها للخليفة، ومعرفة رأيه فيها، يُوقِّع عليها بخطِّه في الديوان، ومن ثم تُرسل للديوان المختصِّ بأمرها ومسألتها؛ كالخراج، أو الضياع، أو المال، أو النفقات.. وكان الفصل في أمر الرقعة يتمُّ على الرقعة ذاتها، توقيعًا من الخليفة أو كاتبه، وقد بلغت هذه التوقيعات أقصى ما يمكن أن تبلغه من الاختصار والبلاغة، وإظهار ذكاء مُوَقِّعِها، وقدرته على حسن الفصل وإصابة الغرض، فكان البلغاء يتنافسون في تحصيل توقيعات جعفر بن يحيى البرمكي مُسَيِّر شئون الخلافة في عهد هارون الرشيد (ت ١٩٣هـ)، ووالي ديوان التوقيع، الذي كان على درجة عالية في أساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل: إن كل توقيع منها كان يُباع بدينار[3].

وكثيرًا ما رأينا احترام الخلفاء لكُتَّاب ديوان الإنشاء في ظلِّ الخلافة العباسية؛ فأحمد ابن يوسف بن القاسم (ت ٢١٣هـ)، كان كاتبًا في ديوان الإنشاء والرسائل للخليفة المأمون، ومع تمكنه في تصريف شئون ديوانه، وقدرته على الارتقاء بهذا المنصب، فإن الخليفة المأمون قد عَيَّنه في منصب الوزارة بعد أحمد بن أبي خالد الأحول، ومما يُحكى عن قدرته في كتابة الرسائل أن الخليفة المأمون قد أمره أن يكتب لعماله وولاته في زيادة قناديل المساجد الجامعة في كل الأمصار في ليالي شهر رمضان، وقد ذكر أحمد بن القاسم أنه: «لم يكن سبق إلى هذا المعنى أحد فآخذه واستعين ببعض ما قاله، فأرّقت مُفَكِّرًا في معنى

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٨/ ٤٧٠، ٤٧١.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٦٠.
(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٧/ ١٥٢.

أُرَكِّبه، ثم نمت، فرأيت في المنام كأنَّ آتيًا أتاني، فقال: قل: فإن فيها أُنْسًا للسابلة، وإضاءة للمتهجدة، ونشاطًا للمتعبدين، ونفيًا لمكامن الريب، وتنزيهًا لبيوت الله عن وحشة الظُّلَم»[١]. فإعمال الفكر، والدربة على فنِّ الكتابة، والتقدُّم في هذه الصناعة كانت الأسباب الجامعة لتولية ابن القاسم لمنصب الوزارة فيما بعد.

واشتهرت الخلافة العباسية على مدى ستة قرون بكبار الكُتَّاب الذين كان لهم شأن مرموق في ظلِّ هذه الدولة العظمى؛ ولذلك تشبَّه بالعباسيين في العناية الفائقة بهذا الديوان - بوصفه جهازًا للتراسل من جهة وللإعلام من جهة أخرى - العبيديون والأيوبيون والأندلسيون، وسلاطين وأمراء الدول الإسلامية المستقلة، فأنشئوا دواوين للإنشاء مشابهة لديوان الإنشاء أو التوقيعات العباسية.

ومن أشهر الكُتَّاب: أبو عثمان الجاحظ الذي رفض الاستمرار في عمله كاتبًا موظفًا بديوان الإنشاء للخليفة المأمون، بل هجا رفاقه في هذا الديوان لمبالغتهم في الملبس وفي الكلام، وغادر بغداد عائدًا إلى البصرة ليتفرَّغ للتأليف في علم الكلام، وفنِّ الأدب، بل وفي الأحوال الاجتماعية، وأنماط البشر وأنواع الحيوان.

وفي دولة المرابطين كان ديوان الإنشاء من أهم الدوائر الحكومية، وكان يرأسه كاتب كبير، وكان المرابطون يتخيَّرون الكُتَّاب من كبار الأدباء؛ حيث كان الأسلوب الكتابي في العصور الوسطى يؤدي دورًا يفوق دور المفاوضات الشفوية، وكان لأمير المسلمين عدة كُتَّاب في آن واحد، وعلى رأسهم كاتب كبير، وهو في الواقع رئيس ديوان الرسائل[٢].

ولقد عني المماليك عناية فائقة في تخيُّر كُتَّاب ديوان الإنشاء، فلم يكن يتولَّى ديوان الإنشاء إلا أجلُّ كُتَّاب البلاغة، ويُخاطَب بالشيخ الأجلِّ، فكان يُسلِّم المكاتبات الواردة، فيَعرضها على الخليفة من بعده، وهو الذي يأمر بالإجابة عنها للكُتَّاب، والخليفة يستشيره في أموره، ولا يُحجب عنه متى قصد المثول بين يديه، وهذا أمر لا يصل إليه غيره، وربما بات عند الخليفة ليالي، وكان راتبه مائة وعشرين دينارًا في الشهر، وهذا مبلغ كبير يُدلل

(١) قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة ص٣٧.
(٢) إبراهيم حركات: النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين ص٩٣، ٩٤.

على عظم هذه الرتبة عند السلطان؛ ولذلك كان كاتب الإنشاء أول أرباب الإقطاعات، وأرباب الكسوة والرسوم والملاطفات، ولا سبيل أن يَدْخُل إلى ديوانه بالقصر ولا يجتمع بكُتَّابه أحدٌ إلا الخواص، وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وفرَّاشون، وله المرتبة الهائلة، والمخادُّ والمسند والدواة، ويحملها أُستاذ من أُستاذي الخليفة[1].

ومن أشهر كتاب ديوان الإنشاء في هذا العصر يأتي القلقشندي، صاحب الموسوعة الجغرافية والتاريخية والإدارية «صبح الأعشى في صناعة الإنشا»، الذي ذكر فيها أهمية ديوان الإنشاء وكاتبه، وأهم الشروط والصفات التي يجب أن يتحلَّى بها هذا الكاتب، فقال: «يجب أن يكون صبيح الوجه، فصيح الألفاظ، طلق اللسان، أصيلاً في قومه، رفيعًا في حيِّه، وقورًا حليمًا، مُؤْثِرًا للجدِّ على الهزل، كثير الأناة والرفق... ينحل الملك صائب الآراء، ولا ينتحلها عليه، ومهما حدث من المَلِك من رأي صائب، أو فعلٍ جميل، أو تدبير حميد، أشاعه وأذاعه، وعَظَّمه وفَخَّمه، وكَرَّر ذِكْره، وأوجب على الناس حمده عليه وشكره، وإذا قال للملك قولاً في مجلسه أو بحضرة جماعة ممن يخدمه، فلم يره موافقًا للصواب فلا يَجْبَهه بالردِّ عليه، واستهجان ما أتى به، فإن ذلك خطأ كبير، بل يصبر إلى حين الخلوة، ويُدْخِل في أثناء كلامه ما يُوَضِّح به نهج الصواب من غير تلقٍ بردٍّ، ولا يَتَبَجَّح بما عنده، ويكون متابعًا للملك على أخلاقه الفاضلة، وطباعه الشريفة؛ من بَسْطِ الـمَعْدَلَة[2]، ومَدِّ رُوَاقِ الأَمَنَة[3]، ونشر جناح الإنصاف، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم...»[4].

لقد كان ديوان الإنشاء والرسائل يُحقِّق أحد أبرز مظاهر التقدم الحضاري الإسلامي، بل كان دليلاً بَيِّنًا على رقي الحضارة الإسلامية، ونظامها المحكم في التيسير على الرعية، والتأكيد على الهوية الإسلامية.

***

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٠٢.
(٢) المَعْدِلة والمَعْدَلة: العدل.
(٣) الأمنة: الأمن.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ١/ ١٣٩، ١٤٠.

المبحث الثاني
ديوان الجند والعطاء

كانت الغاية من إنشاء ديوان العطاء تتمثَّل في: إحصاء المقاتلين، وتثبيت أسمائهم مع انتماءاتهم العرقية والجغرافية، وتثبيت العطاء لهم، وتحديد رواتبهم ومواعيدها، مع تثبيت تسليحهم، وذلك تسهيلاً على المقاتل، وإعانة لأهله وعائلته ومعاشه[١]، ولقد أجمعت كتب التاريخ على أن أول من أنشأ ديوان العطاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ.

فبعد وفاة أبي بكر ﷺ تولَّى عمر بن الخطاب ﷺ الخلافة، وكانت له سياسة خاصة في إدارة الدولة، خاصة من الناحية المالية، فأنشأ ديوان العطاء، وسبب نشأة هذا الديوان أنه لما أغدق الله ﷻ بخير كثير على الخلافة الإسلامية، فكثرت الأموال والأراضي، بحث عمر ﷺ عن أي الآليات أفضل في تقسيم هذه الأموال بين الناس، وقد كان أبو بكر ﷺ يُقسِّم الغنائم والأموال بين الناس بالسوية؛ لا فرق بين السابقين وأهل القدم من المسلمين، وبين اللاحقين الذين دخلوا الإسلام حديثًا، وكانت وجهة نظره حينما اعترض بعض الصحابة على هذا التقسيم أنه قال: «أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفني بذلك، وإنما ذلك شيء ثوابه عَلَى الله جلَّ ثناؤه، وهذا معاش فالأسوة خير من الأثرة»[٢].

لكن نظرة عمر ﷺ كانت مختلفة، فقد وضع مجموعة من الأسس العامة لإعطاء الناس؛ منها: درجة النسب من رسول الله ﷺ، والسبق في الإسلام والجهاد، وفَضَّل أهل الحرب على قدر براعتهم في القتال، وكذلك البُعد والقرب من أرض العدو[٣].

ولما كانت أعطيات الناس مختلفة تبعًا لتلك الأسس، فقد كان من الضروري إنشاء ديوان مستقل بهذا الأمر، وإنشاء هذا الديوان دليل على اتباع الحضارة الإسلامية منذ القدم لمبدأ التنظيم، واتباع المعايير المناسبة لذلك، فكانت مؤسسة العطاء من أكثر المؤسسات تنظيمًا ودقة منذ نشأتها، حتى إن عمر ﷺ لم يستثن أحدًا من العطاء، فأدخل

---

(١) عبد الرحمن عميرة: الاستراتيجية الحربية في إدارة المعارك في الإسلام ص٧٨.
(٢) أبو يوسف: الخراج ص٤٢.
(٣) فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ص٨٣.

المواليد من جملة المستحقين للأُعطيات، وكانت سياسة هذا الديوان مرنة مع الأحداث والمستجدات، فقد ألحقت عساكر الفرس والروم التي أسلمت أخيرًا إلى هذا الديوان[١].

وكان بعض الصحابة كحكيم بن حزام ﷺ يرفض أخذ العطاء زهدًا فيه؛ إذ كان يتأسى بقول رسول الله ﷺ له: «يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ»[٢]. ولا ريب أن هذا الموقف يُدلل على الضوابط الأخلاقية التي حرصت الحضارة الإسلامية على غرسها في المسلم صاحب الاستحقاق.

وفي عهد الخلافة الأموية، أمر معاوية بن أبي سفيان ﷺ أن يفرض للمنقطعين عن أهليهم من ديوان العطاء، ومن لا يُعرف لهم أصل، وذلك بناءً على طلب عبد الله بن صفوان بن أمية[٣].

ولقد ارتبطت زيادة العطاء للأجناد والقادة تبعًا لمقدرتهم وإسهاماتهم المتنوعة والمتعددة في ميادين الفتوح والقتال؛ فقد كرَّم عبد الملك بن مروان موسى بنَ نصير حينما حرر إفريقية سنة ٨٣هـ، كما كرَّم الحجاجُ المهلبَ بن أبي صفرة وأصحابه لجهودهم في القضاء على الخوارج الأزارقة؛ إذ أحسن عطاياهم وزاد فيها، ثم قال: «هؤلاء أصحاب الفعال، وأحق بالأموال، هؤلاء حماة الثغور وغيظ الأعداء»[٤].

ونتيجة لأهمية هذا الديوان؛ فقد كانت الدولة تبحث عن أهل العلم والخبرة لتوليتهم إياه، ومن ثم اختار أبو جعفر المنصور الإمام الليث بن سعد لتولية هذا الديوان[٥]، ولا نعجب من هذا الاختيار؛ فقد كان دأب الخلافة الإسلامية أن تستعمل على مصالحها العامة أهل العلم والصلاح والأهلية الإدارية، وأما مهمة كاتب ديوان الجند والعطاء فتتمثل في «حساب التقدير، وشيات الدواب[٦]، وحلى الناس ونعوتهم»[٧].

---

(١) انظر: أكرم العمري: عصر الخلافة الراشدة ص٣٨٠.
(٢) البخاري: كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (١٤٠٣).
(٣) مصعب الزبيري: نسب قريش ص١٢٩.
(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٥/ ١٣٥.
(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٠/ ٣٦٧.
(٦) الشيات: مفردها شية، وهي اللون المخالف لسائر لون الدابة. والمقصود ما تتميز به الدواب.
(٧) ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة ٢/ ٣٣١.

ونتيجة للخبرة الإدارية بأحوال الجند والرعية؛ فقد كان صاحب ديوان العطاء يترقَّى في مؤسسات الدولة، فكان أحيانًا يتولى قيادة الجيوش؛ حيث قلّد الخليفة العباسي المكتفي (ت ٢٩٥ هـ) أمر الجيوش لمحمد بن سليمان صاحب ديوان العطاء والجند، وذلك لقتال القرامطة الثائرين على الخلافة العباسية[١].

وكان لديوان العطاء أهمية تاريخية في البتِّ في القضايا المختلف فيها، كوفاة أحد الرجال، فقد كان يُعرف من خلال هذا الديوان وفيات كثير من الأعيان ممن لم يُعثر لهم على تاريخ للوفاة في مكان آخر، ومن ثم فهو بمثابة دار للوثائق القومية في كل أقطار الخلافة الإسلامية، ففي حديث دار بين أحد الشيوخ الوافدين على أهل حمص مع أحد أهالي حمص وقريب المجاهد خالد بن معدان الكُلاعي، ذكر الشيخ أنه قابل المجاهد خالد ابن معدان الكلاعي في غزوة أرمينية عام ١٠٨ هـ، لكن أقارب المجاهد ذكروا أنه توفي عام ١٠٤ هـ، وكان الفيصل في هذا الخلاف اللجوء إلى وثائق ديوان الجند والعطاء، الذي أكد على أن وفاة الرجل كانت عام ١٠٤ هـ[٢].

والعجيب في الأمر أن الشعراء كانوا ممن خُصِّص لهم الأعطيات في ديوان العطاء، في عهد الخلافة الأموية في الأندلس، وكانوا يُمنحون على قدر جودة أشعارهم، فقد مدح أحمدُ بن محمد القسطلي المنصورَ بن أبي عامر بقصيدة رائعة، عارض فيها قصيدة اللغوي الشهير صاعد ابن الحسن الأندلسي «فساء الظنّ بجودة ما أتى به من الشعر، واتُّهم فيه؛ وكان للشعراء في أيام المنصور بن أبي عامر ديوان يُرزقون منه على مراتبهم... فسُعِي به إلى المنصور، وأنه منتحلٌ سارق لا يستحق أن يُثبت في ديوان العطاء، فاستحضره المنصور عشاء يوم الخميس لثلاث خلون من شوال سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة، واقترح عليه[٣]، فبرز وسبق، وزالت التهمة عنه، فوصله بمائة دينار، وأجرى عليه الرزق، وأثبته في جملة الشعراء»[٤].

وأصبح مسمى صاحب ديوان العطاء في دولة المماليك - كما يذكر ابن خلدون -

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص٥١.
(٢) ابن العديم: بُغية الطلب في تاريخ حلب ٣/ ٢٥٣.
(٣) اقتَرَحَ عليه بكذا: تَحَكَّمَ وسأله من غير رَوِيَّة، والاقتراح طَلَبُ شيء ما من شخص ما بالتَّحكُّم. انظر: الزبيدي: تاج العروس، باب الحاء فصل القاف مع الراء ١/ ١٧١٣.
(٤) الحميدي: جذوة المقتبس ص٤٠.

يُلقب بناظر الجيش، مما يعني أن اختصاصات هذا الديوان قد زادت أهميتها في ذلك العصر.

وخلاصة القول: إن ديوان العطاء والجند كان أحد أهم مظاهر الحضارة الإسلامية عبر تاريخها الطويل، به استطاعت المؤسسة الإدارية في الدولة أن تنظم الأعطيات والمرتبات على الرعية والجند بطريقة حضارية رائعة.

* * *

المبحث الثالث

ديوان الأوقـــــاف

اتَّجه المسلمون منذ زمن رسول الله ﷺ وإلى يومنا هذا إلى فعل الخيرات، وإقامة الطاعات، وكان الوقف من أهمِّ سُبُل الخير وأكثرها نفعًا للمسلمين؛ فالوقف هو الحجر الأساسي الذي قامت عليه كل المُؤَسَّسَات الخيريَّة في تاريخ حضارتنا؛ حيث أسهمت في نهضة المجتمعات الإسلامية نهضةً لافتة للنظر والانتباه، جعلت المتأمِّل في تاريخ وفلسفة الحضارة الإسلامية يقف مشدوهًا لمعرفة المغزى الحقيقي لنشأة ووجود الأوقاف الإسلاميَّة، وعدم انقطاعها منذ بداياتها الأولى في عهد رسول الله ﷺ وحتى يومنا هذا، كما يظهر بوضوح أن نظام الأوقاف إضافة إسلامية خالصة لمسيرة الحضارة الإنسانية في وقت لم تظهر فيه معاني التكافل والاجتماعي في أي حضارة معاصرة أو لاحقة لحضارة الإسلام.

وقد سنَّ النبي ﷺ الوقف لعامة المسلمين وخاصتهم، وكانت أوَّل صدقة موقوفة في الإسلام أراضي مُخيريق[1]؛ فقد أورد ابن سعد في طبقاته عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: «كانت الحبس على عهد رسول الله ﷺ حبس سبعة حوائط بالمدينة: الأعواف، والصافية، والدلال، والميثب، وبرقة، وحسنى، ومشربة أم إبراهيم. قال ابن كعب: وقد حبس المسلمون بعده على أولادهم وأولاد أولادهم»[2].

كما وقف جمهور الصحابة ﷺ في حياة رسول الله ﷺ ومن بعده: كوقف عمر بن الخطاب ﷺ، وعثمان بن عفان ﷺ، وطلحة بن عبيد الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب ﷺ فصُرفت هذه الأوقاف على وجوه البرِّ والخير.

فهذا عمر بن الخطاب ﷺ يذكر في وقفيَّته أن ريعها يُنْفَقُ على الفقراء والقربى، وفي الرقاب، وفي سبيل الله، والضيف، وابن السبيل، لا جناح على مَنْ وَلِيهَا أن يأكل منها

---

(١) مخيريق النضري: صحابي، كان من علماء اليهود وأغنيائهم، أسلم، وأوصى بأمواله للنبي ﷺ، واستشهد بأحد سنة ٣هـ. انظر ابن حجر: الإصابة ٦/ ٥٧.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٥٠٣.

بالمعروف أو يُطعم صديقًا غير مُتَمَوِّل[١] فيه[٢].

وظلَّ أمر الأوقاف في يد مستحقِّيها، أو نُظَّار الوقف حسب ما جاء في شروط الواقف، دون أن يكون للدولة الإسلاميَّة تَدَخُّلٌ مباشر فيه؛ حتى تولَّى قضاء مصر القاضي الأموي توبة بن نمر الحضرمي[٣]، وذلك في زمن هشام بن عبد الملك؛ الذي لاحظ تداوُل الوقف بين أهله ونُظَّاره، فرأى أن يجعل من نفسه مُشْرِفًا عليه؛ حفاظًا عليه من أن يُعبَث به، أو أن ينصرف عن شروط وقفيَّته، ولَمْ يَمُتْ توبة حتى أصبح للأوقاف ديوان مستقلٌّ يرعى شئونها، ويُشرف عليها تحت إشراف القاضي، وإن كان هذا الإجراء قد تَـمَّ في مصر إلا أنه كان الانطلاقة الأولى للنظام في سائر البلاد الإسلاميَّة، وهكذا استمرَّ الوقف يخضع لإشراف القضاة يَتَوَلَّوْنَه برعايتهم، ويُنَفِّذُون ما جاء في شروطه؛ أمَّا إن كان له ناظر حسب ما اشترطه الواقف، فإنه يَجِدُ من القاضي الرعاية والتوجيه[٤].

واستمرَّ الأمر كذلك حتى كان النصف الأوَّل من القرن الرابع الهجري، فأصبح للأحباس (الأوقاف) مُتَوَلٍّ مستقلٌّ يُشْرِف على شئونها، ويُنَظِّم أمورها، وكان هذا مبعثًا لأن يُصبح للأوقاف ديوان مستقلٌّ، وعلى الرغم من حداثة هذا الديوان إلاَّ أن رئيسه سرعان ما ارتقى إلى مركز كبير في الدولة، حتى فاق منصبُه منصبَ قاضي القضاة في مصر، حتى إنه ليقال: إذا كان عيدٌ أو موسمٌ يُهنَّأ فيه السلطانُ؛ بَعَثَ قاضي القضاة رسولَه ليقف بباب السلطان إلى أن يَجِيءَ صاحبُ ديوان الأحباس يُهَنِّئَ ثم ينصرف، فإذا انصرف جاء غلام قاضي القضاة وأَعْلَمَهُ بذلك؛ حينئذ يركب قاضي القضاة إلى تهنئة السلطان، ويُعَلِّل النابلسي[٥] صاحب كتاب (لمع القوانين المضيَّة في دواوين الديار المصرية) ذلك أنه

---

(١) غير مُتَمَوِّل: أي غير متخذ منها مالاً أي مِلْكًا، والمراد أنه لا يَتَمَلَّك شيئًا من رقابها. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة مول ١١/ ٦٣٥.

(٢) انظر: صحيح البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الوقف (٢٥٨٦)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوقف (١٦٣٢).

(٣) أبو محجن توبة بن نمر بن حرمل الحضرمي، قاضي مصر، قال ابن حجر: هو أول من قبض الأحباس (الأوقاف) من أيدي أهلها وأدخلها ديوان الحكم خشية عليها من أن يتجاحدوها ويتوارثوها، توفي سنة ١٢٠هـ. انظر ابن حجر: تعجيل المنفعة ص ٦١.

(٤) انظر: الكندي: الولاة والقضاة ص٣٩٠، ومحمد أبو زهرة: محاضرات في الوقف ص١٢.

(٥) عثمان بن إبراهيم النابلسي، فخر الدين: من أمراء الدولة الأيوبية، ولاه السلطان نجم الدين أيوب النظر على الدواوين المصرية سنة ٦٣٢هـ، وصنف بأمره (لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية)، توفي نحو سنة ٦٨٥هـ. انظر الزركلي: الأعلام ٤/ ٢٠٢.

خوفًا من تصادف تواجدهما في بلاط السلطان، فيجلس صاحب الأحباس على يسار السلطان، وذلك لِمَا لمنصبه من مكانة مرموقة وحظوة لدى الدولة؛ إذ يذكر المقريزي أنه أوفر الدواوين مباشرة ولا يخدم فيه إلا أعيان كُتَّاب المسلمين من الشهود المعدَّلين[١].

وفي زمن الخلافة العثمانية صدر نظام وقفيٌّ جديد، تضمَّن بيان أنواع الأراضي ومعاملات المسقفات[٢] والمُستغلات[٣] الوقفيَّة، وما زال كثير من هذه التقسيمات معمولاً بها إلى يومنا هذا في العديد من الدول العربية، ومن الأنظمة التي أصدرتها الخلافة العثمانية - كذلك - والمرتبطة بالأوقاف نظام يُعرف بنظام توجيه الجهات، والذي نُظِّم بموجبه كيفيَّة توجيه الوظائف في الأوقاف الخيرية، وإجراء الاختبارات للمرشَّحين لتولية الوقف، ويشمل إجراء الاختبارات للمرشَّحين للوظائف الدينية مثل: الإمامة والخطابة والتدريس والأذان، وهكذا تتابعت الأنظمة والقوانين المتعلِّقة بالوقف في أقطار العالم الإسلامي منذ الخلافة العثمانية حتى يومنا هذا، فأصبح للوقف وزارة خاصَّة به[٤].

وقد شمل الوقف كل الجوانب الحضارية المهمة؛ من إقامة المساجد العامرة، والمكتبات، والبيمارستانات (المستشفيات)، والأسبلة، والآبار، والحمَّامات، والمدارس، فكان تلبية لكل مُتَطَلَّبَات المجتمع الإسلامي على جميع الأصعدة المختلفة.

فعلى الصعيد الديني وجدنا للوقف دوره الذي لا يمكن إنكاره، فآلاف المساجد الموجودة في كل البلدان الإسلامية هي في الحقيقة أعيانٌ موقوفة أراد أصحابها من وقفها الخير والأجر والمثوبة.

وعلى الصعيد العلمي وجدنا مئات المدارس الموقوفة لطلبة العلم؛ من أجل تحقيق أغراض الواقفين، ورفعة شأن الأُمَّة الإسلامية في جانبها العلمي، ومن أشهر السلاطين

---

(١) المقريزي: المواعظ ٢/ ٢٩٥، والقلقشندي: صبح الأعشى ٣/ ٥٦٧، والنابلسي: لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية ص٢٨، والسامرائي: المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية ص ٢٩٨- ٣٠٧. والمُعَدَّل من الناس: المَرْضِيُّ قولُه وحُكْمُه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة عدل ١١/ ٤٣٠.

(٢) المسقفات: هي الأراضي التي أنشئت عليها الأبنية أو التي خصصت للبناء الوقفي.

(٣) المستغلات: هي الأموال التي لا تجب الزكاة في عينها، ولم تتخذ للتجارة ولكنها تتخذ للنماء، فتغل لأصحابها فائدة وكسبًا بواسطة تأجير عينها، أو بيع ما يحصل من إنتاجها.

(٤) محمد أبو زهرة: محاضرات في الوقف ص٢٦، ٢٧، وعكرمة صبري: الوقف الإسلامي ص٢١، ٢٢.

الذين أَحْيَوْا سُنَّة الوقف العلمي، السلطان صلاح الدين الأيوبي؛ فمن أهمِّ وقوفاته في مصر أنه «بنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الإمام الحسين بن علي»، وجعل على ذلك وقفًا جيدًا، وجعل دار سعيد السعداء خادم المصريين خانقًا[١]، ووقف عليها وقفًا طائلاً، وجعل دار عباس بن السلار مدرسة للحنفية وعليها وقف جيدٌ أيضًا، والمدرسة التي بمصر المعروفة بـ«زين النجار» وقفًا على الشافعية وقفًا جيدًا أيضًا، وله بمصر أيضًا مدرسة للمالكية»[٢].

وعلى الصعيد الاجتماعي وجدنا وقف الأسبلة والرباطات والتكايا، ووقوفًا أخرى على الفقراء والمساكين كان لها أكبر الأثر في التكافل الاجتماعي في تلك العصور الزاهرة، فنجد الأمير نور الدين محمود يجعل أوقافًا للمرضى والضعفاء والأيتام في حلب وفي سائر البلدان الإسلاميَّة الأخرى، وفي مكة المكرمة نَجِدُ أن حديقة كبيرة بجوار الحرم الشريف، تُوقَفُ «على الفقراء والمساكين والواردين والصادرين لزيارة سيد المرسلين، أوقفها الشيخ عزيز الدولة ريحان الندى الشهابي شيخ خدَّام الحرم الشريف وذلك في سنة سبع وتسعين وستمائة»[٣].

وممَّا يُدَلِّل على اهتمام الملوك والسلاطين والأغنياء وأهل الخير بإنشاء الأوقاف التي تخدم الجوانب الاجتماعية لدى المسلمين، ما نُقل عن السلطان المملوكي الظاهر برقوق[٤]؛ أنه جعل وقفًا دارًا لأجل مكتب «يقرأ فيه الأيتام القرآن الكريم بقلعة الجبل»[٥]، وهي القلعة التي يحكم منها الديار المصرية والشامية وسائر البلدان الخاضعة لسلطانه.

ومن أرقِّ ما وُجِدَ في الإسلام وألطفه ما تحدث عنه ابن بطوطة في رحلته بإعجاب وانبهار، فقال عن أوقاف دمشق: «والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها؛ لكثرتها، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج، يُعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته،

---

(١) الخانق: هو الخانقاه بقعةٌ يسكنها أهل الصَّلاة والخير والصوفية. انظر: الزبيدي: تاج العروس، مادَّة خنق ٢٥/ ٢٧٠.

(٢) اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ٣/ ٣٥١.

(٣) ابن الضياء: تاريخ مكة المكرمة والحرم الشريف ص٢٤٧.

(٤) أبو سعيد الظاهر برقوق بن أنص - أو أنس - العثماني، الملك الظاهر (٧٣٨-٨٠١هـ/ ١٣٣٨-١٣٩٨م): أول من ملك مصر من الشراكسة، وكان حازمًا شجاعًا، أبطل بعض المكوس، وحمدت سيرته. انظر: الزركلي: الأعلام ٢/ ٤٨.

(٥) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٥/ ٤٤٨.

ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها؛ لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير»[1].

ومن أعجب ما ذكره ابن بطوطة «أوقاف الأواني»، إذ قال عن تجربة شخصية له: «مررت يومًا ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكًا صغيرًا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصَّحن، فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم: اجمع شقفها، واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني. فجمعها، وذهب الرجل معه إليه، فأراه إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن، وهذا من أحسن الأعمال؛ فإن سيد الغلام لا بُدَّ له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره، وهو - أيضًا - ينكسر قلبه، ويتغير لأجل ذلك فكان هذا الوقف جبرًا للقلوب، جزى الله خيرًا من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا»[2]!

وفي أكثر من بلد إسلامي كان هناك وقف لإعارة الحلي والزينة في الأعراس والأفراح، فيستفيد من هذا الوقف الفقراء والعامة بما يلزمهم من الحلي لأجل التزيُّن به في الحفلات، ويُعيدونه إلى مكانه بعد انتهائها، فيتيسَّرُ للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلَّة لائقة، ولعروسه أن تُحلَّى بحلية رائعة مما يُجبر خاطرهما[3]!

وفي تونس وقف لختان أولاد الفقراء، يختن الولد، ويُعطى كسوة ودراهم، وهناك وقف تُوَزَّع منه الحلواء في شهر رمضان مجانًا، ويأتي إلى تونس في بعض أيام السنة نوع من السمك، تفيض به شواطئها، ومن ثم كان هناك وقف يُشترى من ريعه جانب كبير من هذا السمك، ويوزّع على الفقراء مجانًا، وكان فيها وقف لمن وقع عليه زيت مصباح، أو تلوث ثوبه بشيء آخر، يذهب إلى هذا الوقف، ويأخذ منه ما يشتري به ثوبًا آخر[4].

---

(١) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ص٩٩.
(٢) المصدر نفسه ص١٠٠.
(٣) شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي ٣/ ٨.
(٤) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٣٣٦، ٣٣٧.

والأغرب من ذلك، أنه كان بمدينة مَرَّاكش بالمغرب، مؤسسة وقفية تُسمى «دار الدُّقة»[١]، وهي ملجأ تذهب إليه النساء اللاتي يقع بينهن وبين أزواجهن نفور وبغضاء، فلهن أن يقمن آكلات شاربات إلى أن يزول ما بينهن وبين أزواجهن من نفور[٢]!

وكان للوقف دور بارز في المجال الصحِّيِّ منذ القرن الأول الهجري، فأوَّل مَنِ اتَّخذ البيمارستانات للمرضى هو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك؛ حيث بنى بيمارستانًا بدمشق وسبَّله للمرضى[٣]. وقد أبدى الوليد اهتمامًا خاصًّا بمرضى الجذام، ومَنَعَهُمْ من سؤال الناس، وأَوْقَفَ عليهم بلدًا يَدِرُّ عليهم أرزاقًا، كما أمر لكل مُقْعَدٍ خادمًا، ولكلِّ ضرير قائدًا[٤].

ومن أهمِّ البيمارستانات التي أُوقفت في بغداد البيمارستان العضدي، فقد أنشأه عضد الدولة البويهي في بغداد سنة (٣٦٦هـ/ ٩٧٦م)، وكان ذلك في الجانب الغربي من مدينة بغداد، وكان البيمارستان يضمُّ ٢٤ طبيبًا؛ ممَّا يدلُّ على اتِّساعه، وتعدُّد تَخَصُّصَاته، ووقف عضد الدولة لهذا البيمارستان وقوفات كثيرة؛ فكان العلاج مَجَّانًا لجميع المواطنين، وكان المريض يلقى العناية الفائقة في المستشفى من الثياب الجديدة النظيفة، ومن الأغذية المُتَنَوِّعة، والأدوية اللازمة، وبعد شفاء المريض، كان يُعْطَى نفقة سفرياته ليستطيع العودة إلى بلده[٥].

ولقد بلغ الاهتمام بالبيمارستانات الموقوفة مَبْلَغًا عظيمًا من الرُّقِيِّ والاعتناء والتَّقَدُّم؛ حتى وجدنا أن بعض الناس كانوا يتمارضون رغبة منهم في الدخول إلى البيمارستان؛ لِمَا يجدونه من عناية ورعاية ومأكولات شهيَّة، وكان بعض الأطباء يَغُضُّون الطرف أحيانًا

---

(١) الدقة: التوابل المخلوطة بالملح، والمقصود هنا: الدار التي تَدُقُّ على يد الزوج الظالم المسيء في معاملته إلى زوجه، حتى توقفه عند حدِّه.

(٢) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٣٣٦، ٣٣٧.

(٣) انظر: الزهراني: نظام الوقف ص٢٤٨.

(٤) انظر: ابن الأثير: الكامل ٤/ ٢٩٢، وابن دقماق: الجوهر الثمين ص٦٥.

(٥) انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ٦٧، ومحمد حسين علي: تاريخ العرب والمسلمين ص١٩٦، وقدري حافظ طوقان: العلوم عند العرب والمسلمين ص٣٢، ٣٤.

عن هذا التحايل؛ فقد ذكر المؤرِّخ خليل بن شاهين الظاهري[١] أنه زار أحد المستشفيات في دمشق عام (٨٣١هـ/ ١٤٢٧م) فلم يُشاهِد مثله في عصره، وصادف أن شخصًا كان متمارِضًا في هذا المستشفى فكتب له الطبيب بعد ثلاثة أيام من دخوله: بأن الضيف لا يُقيم فوق ثلاثة أيام[٢]!

لقد امتازت الأوقاف في الحضارة الإسلامية بالتنوع والانتشار، وقد كان النظام الوقفي الإسلامي دليلاً على انفراد الحضارة الإسلامية بمثل هذا النظام الذي حقق للمسلمين ولغير المسلمين آليات متعددة لم يعرفها العالم من قبل للتكافل والتراحم ونهضة الحضارة الإسلامية.

***

(١) خليل بن شاهين الظاهري (٨١٣- ٨٧٣هـ/ ١٤١٠-١٤٦٨م) ، يعرف بابن شاهين: كان من المولعين بالبحث، وله تصانيف ونظم، اشتهر بمصر، من تصانيفه: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. انظر الزركلي: الأعلام ٣١٨/٢.

(٢) انظر: عكرمة سعيد صبري: التمريض في التاريخ الإسلامي ص٢٩، ٣٠.

المبحث الرابع
ديوان البريد والاتصالات

اهتمَّتِ الحضارة الإسلامية بالبريد ونظم الاتصالات وأَوْلَتْهُ عناية كبيرة، وقد كان حينما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وازدادت الحاجة إلى إنشاء نظام إداري يضمن وصول الرسائل بين عاصمة الخلافة ومدن دار الإسلام، وخاصة المراسلات بين الخليفة والولاة، فتطوَّر ذلك النظام وأصبح مؤسسة كبرى لها دورها ومكانتها في الدولة الإسلامية، كما أصبح شاهدًا على مدى ما وصلت إليه حضارة الإسلام من تقدُّم ورقي.

- البريد معناه وتطوُّره:

وعلى الرغم من تعدد الآراء حول أصل لفظة البريد، إلا أن اللفظة عربية؛ وهي تدور على أكثر من معنى، منها الرسول؛ فهم يقولون: «الحمَّى بريد الموت». يريدون أنها رسوله، تتقدَّمه وتنذر به، وقال الراجز: «رأيتُ للموت بريدًا مُبْرَدًا». ويقولون لطائر الغرانق: «البريد». لأنه ينذر قدَّام الأسد[1].

والبَرِيدُ أيضًا: الرسل على دوابِّ البريد، وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا أَبْرَدْتُمْ إِلَيَّ بَرِيدًا؛ فَابْعَثُوهُ حَسَنَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الاسْمِ**»[2]. أي: إذا أرسلتم إليَّ رسولاً، وقال أيضًا ﷺ: «**إِنِّي لا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ**[3]**، وَلا أَحْبِسُ الْبُرْدَ**»[4]. أي: لا أحبس الرسل الواردين عليَّ. قال الزمخشري: البُرْدُ ساكنًا يعني جمعَ بَرِيد، وهو الرسول، فيخفَّف عن بُرُدٍ كرُسُلٍ ورُسْل[5].

كما قيل لدابة البريد بَرِيدٌ؛ لسيرها في البريد، وقد قال التنوخي: «البريد ولاية جليلة

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة برد ٣/ ٨٤.

(٢) الطبراني في الأوسط ٧/ ٣٦٧، وابن حجر العسقلاني: المطالب العالية ١١/ ٦٨٥ (٢٦٥٨)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٢٥٩).

(٣) أخيس أي: لا أنقض العهد ولا أفسده، من قولهم: خاس الشيء إذا فسد. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة خيس ٦/ ٧٤، والعظيم آبادي: عون المعبود ٧/ ٣١١.

(٤) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الإمام يستجن به في العهود (٢٧٥٨)، وابن حبان (٤٨٧٧).

(٥) الزمخشري: الفائق في غريب الحديث والأثر ١/ ٤٠٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة برد ٣/ ٨٤.

خطيرة، ومتقلِّدها يحتاج إلى جماعة كثيرة، وإلى موادَّ غزيرة، ومن جملة أعماله حفظ الطريق، وبذرقتها[١]، وصيانتها من القُطَّاع والسُّرَّاق، وطروق الأعداء، وانسلال الجواسيس في البر والبحر، وإليه تَرِدُ كُتب أصحاب الثغور، وولاة الأطراف، وهو يوصلها بأسرع ما يمكن من اختصار الطرق، واختيار المراكب والراكب، وأصحاب البريد للملوك بمنزلة العيون الباصرة، والآذان السامعة، فإن أهمل الملك ذلك، ولم يكشف له حال أوليائه وأعدائه، انطوت عنه الأخبار، ولم تستقم له السياسة، بل لا يحس بالشرِّ حتى يقع فيه»[٢].

ومن أعمال صاحب البريد إرسال الأخبار إلى من عَيَّنَه في هذا المنصب، فهم موظفون مُخْبِرُونَ، من أعمالهم إطلاع كبار الموظفين والأمراء والملوك على الأحوال العامة للمكان الذي يقع في ضمن عملهم واختصاصهم، وإخبار الجهات المسئولة عن الأعمال المشبوهة التي قد تُدَبَّر ضدّ الدولة، وعن تصرفات كبار الموظفين؛ خشية انفرادهم في الحكم، وإعلانهم العصيان على الدولة[٣].

فكان الغرض إذن من البريد في صدر الإسلام توصيل أوامر الخلفاء إلى ولاتهم وعمالهم، وأخبار الولاة والعمال إلى الخلفاء، ثم تَوَسَّعُوا فيه حتى جعلوا صاحبه عينًا للخليفة؛ فهو كما ينقل أمره إلى ولاته وعماله، كان رقيبًا عليهم، ينقل أخبارهم إليه، كذلك كان يتجَسَّس على الأعداء ويتعرَّف ما عندهم، فكان البريد أشبه بقلم المخابرات في وزارة الدفاع الآن، قال الصاحب علاء الدين: «ومن جملة الأشياء وَضْعُهم البريد بكل مكان؛ طلبًا لحفظ الأموال، وسرعة وصول الأخبار ومتجدّدات الأحوال»[٤]. فكان البريد مقصورًا على أغراض الدولة، ثم أُبِيحَ فيما بعدُ للرعية أن ينتفعوا به في نقل رسائلهم[٥].

وقد نظَّم المسلمون البريد بأن أنشئوا السكك؛ وهي مواضعُ وُضِعَتْ فيها جماعات أو فِرَق إبْدال لهذا الغرض، يقول ابن الطقطقا: «البريد أن يجعل خيل مضمرات في عدة

---

(١) البذرقة: الخفارة أي الحراسة، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة بذرق ١٠/ ١٤.

(٢) التنوخي: الفرج بعد الشدة ١/ ٥٠.

(٣) انظر: الطرطوشي: سراج الملوك ص٤٩.

(٤) ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية ص١٠٦.

(٥) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص ١٣٩.

أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه؛ ركب غيره فرسًا مستريحًا، وكذلك يفعل في المكان الآخر والآخر، حتى يصل بسرعة»[١].

تطوُّر البريد:

الظاهر أن نظام البريد كان سُنَّة قديمة، وأسلوبًا مُتَّبَعًا لدى الفرس والرومان[٢]، وكان العرب قبل الإسلام كانوا على دراية به، فالبديهي أن يكون البريد معروفًا منذ عهد الرسول ﷺ؛ إذ كان ﷺ يتبادل الرسائل والسفارات مع الملوك والأمراء من أجل دعوتهم إلى الإسلام، وبلغ من اهتمامه ﷺ بذلك أنه أمر عُمَّاله - كما ذكرنا سابقًا - أن يُرْسِلوا له البريد مع أشخاص يتوافر فيهم حسن الوجه والاسم، كما كان حريصًا ﷺ على توافر تلك الصفات فيمن بعثهم إلى الملوك المعاصرين له، مثل كسرى ملك الفرس، وقيصر الروم، وإلى المقوقس حاكم مصر، وإلى النجاشي ملك الحبشة، وغيرهم؛ وذلك لعلمه بأن المبعوث هو لسان مُتَرْجِمٌ لرغباته وآرائه، وإذا لم يكن كذلك خسر مهمَّتَه، ورجع على مُرْسِله بالخسران[٣].

وكان من مظاهر اهتمام النبي ﷺ بالبريد أنه اتخذ الخاتم؛ لأن العجم كانوا لا يقبلون كتابًا إلاَّ إذا كان مختومًا؛ لأنهم يَرَوْنَ ختم الكتب فيه تعظيم للمكتوب إليه[٤].

وعندما اضطلع المسلمون الأوائل بالجهاد في سبيل الله، وانساحوا في كل صوب من أجل الدعوة، وحقَّقُوا الكثير من الانتصارات، واتَّسَعَتْ رقعة دولتهم، وبخاصة في عهد الخلفاء الراشدين، كان لزامًا عليهم تحسين الخدمة البريدية لِتَصِلَ بين أطراف دولتهم المترامية، وبين مقرِّ الحكم، وقد حمل الجند على عاتقهم خلال الفتوحات إلى جانب واجب الجهاد عبء نقل البريد، وكان الخليفة عمر ﷺ يتلقَّى بصفة منتظمة رسولاً من جيوش المسلمين المحاربة[٥]، وكان على اتِّصال دائم بالجيوش، بل حَثَّهم على أن يُخْبِرُوا عن كل ما

---

(١) ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية ص١٠٦.

(٢) انظر: القلقشندي: صبح الأعشى ١٤/ ٤١٢.

(٣) إبراهيم علي القلا: نظم الحضارة الإسلامية ص ١٠٤.

(٤) عن أنس بن مالك ﷺ أن نبي الله ﷺ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى رَهْطٍ أَوْ أُنَاسٍ مِنَ الأَعَاجِمِ، فَقِيلَ لَهُ: «إِنَّهُمْ لاَ يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلاَّ عَلَيْهِ خَاتَمٌ. فَاتَّخَذَ النَّبِيُّ ﷺ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ، نَقْشُهُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله. فَكَأَنِّي بِوَبِيصِ أَوْ بِبَصِيصِ الْخَاتَمِ فِي إِصْبَعِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ فِي كَفِّهِ». أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ما يذكر في المناولة وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان (٦٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم خاتم الذهب على الرجال (٢٠٩٢).

(٥) فاروق مجدلاوي: الإدارة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب ص٢٢٨، ٢٢٩.

يصادفون، وأن يَصِفُوا كلَّ ما يشاهدون، لكي يحسَّ بأنه يحيا بينهم، ويشاطرهم مصاعبهم، وما يُحَقِّقُون من انتصارات، ولكي يُقَدِّمَ لهم النصح والإرشاد حين الحاجة.

ولما قامت الدولة الأموية جعل معاوية بن أبي سفيان للبريد اختصاصات، وقواعد مُقَنَّنَة من أهمِّهَا الإشراف على كل شئون الدولة، وبذلك كان معاوية أول من أدخل نظام البريد في الإسلام على هذا النحو المُقَنَّن؛ حيث وُضِعَ ديوانٌ للخاتم لتنظيم البريدِ وإحضارِ عمال من الروم والفرس لهذا الغرض[1].

ثم جاء عبد الملك بن مروان فأدخل على البريد العديد من التحسينات؛ ليصبح أداة مهمَّة في إدارة شئون الدولة، وذلك مثل مسح الأرض، ووضع حدود على كل مساحة، فضلاً عن أربعة طرق تمتدُّ من القدس إلى دمشق، وبلغ من عناية عبد الملك بن مروان بالبريد أنه أوصى حاجبه أن لا يمنع صاحب البريد من الدخول عليه ليلاً ونهارًا، فذُكِرَ عنه أنه قال لابن الدغيدغة: «وَلَّيْتُكَ ما حضر بابي إلاَّ أربعة: المؤذن فإنه داعي الله تعالى فلا حجاب عليه، وطارق الليل فشرٌّ ما أتى به ولو وجد خيرًا لنام، والبريد فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه؛ فربما أفسد على القوم سَنَةً حبسهم البريد ساعة، والطعام إذا أدرك فافتح الباب، وارفع الحجاب، وخَلِّ بين الناس وبين الدخول»[2].

وفي عهد الوليد بن عبد الملك زاد اتساع شبكة البريد لتخدم التقدُّم العمراني والاقتصادي الذي كان ينشده، ووفَّر لها من الخيل والإبل العدد الكبير، وأنشأ لها السكك (المحطات) في كل أنحاء الدولة، وبلغ من أهمية البريد في عهده أن حُمِلَ على ظهور دوابِّه الفسيفساء (الفصّ المُذَهَّب) من القسطنطينية إلى دمشق، حتى صُفِّح منه حيطان المسجد الجامع بها، ومساجد بمكة والمدينة والقدس[3].

وكذلك اهتمَّ عمر بن عبد العزيز بتنظيم البريد؛ حيث أنشأ المحطات والخانات، وأقام أحواض السقيا، ومخازن العلف للدواب في كل المسالك والطرق التي يُحْمَلُ عَبْرَها

---

(١) انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٤/ ٤١٣، وكمال عناني إسماعيل: دراسات في تاريخ النظم الإسلامي ص١٠٤، ١٠٥.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ١٤/ ٤١٣، ويذكر هذا النص عن زياد أيضًا.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

البريد، وقد بلغ من وَرَعِ عمر بن عبد العزيز - رحمه الله- أنَّه كان لا يحمل على البريد إلاَّ في حاجة المسلمين؛ لأنَّ البريد كان مخصَّصًا لخدمة الدولة، وكتب إلى عامل له يشتري له عسلاً، ولا يُسخِّرُ فيه شيئًا، وأن عامله حمله على مركبة من البريد، فلمَّا أتى قال: على ما حمله؟ قالوا: على البريد. فأمر بذلك العسل، فبِيعَ، وجعل ثمنه في بيت مال المسلمين، وقال: أفسدتَ علينا عسلك[١].

أما في العصر العباسي فيُسْتَشَفُّ من المصادر التاريخية أن خلفاء هذا العصر قد اعتنوا بالبريد عناية كبيرة، واعتمدوا عليه كثيرًا في إدارة شئون دولتهم، وكان أبو جعفر المنصور يقول: «ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر، لا يكون على بابي أعفَّ منهم. قيل له: يا أمير المؤمنين، مَنْ هم؟ قال: هم أركان الملك، ولا يصلح الملك إلاَّ بهم، كما أن السرير لا يصلح إلاَّ بأربع قوائم إن نقصت واحدة وَهِيَ (أي ضَعُف): أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية؛ فإني عن ظلمها غني، والرابع - ثم عضَّ على أصبعه السبابة ثلاث مرات، يقول في كل مرة: آه آه. قيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحَّة»[٢].

يقول فون كريمر: «إنه كان على كل رأس مصلحة في الولايات الكبيرة عاملُ بريدٍ، مهمته موافاة الخليفة بجميع الشئون المهمَّة، بل والإشراف على أعمال الوالي، كما كان بعبارة أخرى مندوبًا أَوْلَتْهُ الحكومة المركزية ثقتها». فكان الخلفاء يَعُدُّون عمال البريد عونًا لهم على الإشراف على أمور دولتهم، وبواسطتهم كانوا يقفون على أعمال ولاتهم وسائر رجال دولتهم[٣].

وقد أحاط هارون الرشيد دولته بشبكة دقيقة من خطوط البريد؛ ليتوخَّى السرعة في تلقِّي الأخبار، وإصدار الأوامر إلى وُلاَتِهِ، وقُسِّمَتْ هذه الخطوط إلى محطات، وفي كل محطة يوجد عدد من العمال والخيل، وكلُّ ما يحتاج إليه عامل البريد من زادٍ، وعلف، ومياه[٤].

---

(١) ابن الجوزي: سيرة ومناقب عمر ص٢١٠، وأبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي: المعرفة والتاريخ ١/ ٣٣٧.
(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٦/ ٣١٣.
(٣) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص١٤١.
(٤) إبراهيم علي القلا: نظم الحضارة الإسلامية ص ١٠٥، ١٠٦.

ويذكر ابن كثير في أحداث سنة (١٦٦هـ/ ٧٨٢م) أن الخليفة المهدي أمر بإقامة البريد بين مكة، والمدينة، واليمن، وأنه لم يفعل أحد هذا قبل هذه السنة[١].

وكذلك ارتقى البريد في عهد المماليك، وبخاصَّة في أيام السلطان بيبرس؛ فقد وضع له نظامًا يكفل ارتباط جميع أجزاء الدولة بعضها بالبعض الآخر بشبكة من خطوط البريد البرية والجوية (عن طريق الحمام الزاجل)، وكان مركز هذه الخطوط قلعة الجبل (شرقي القاهرة) التي أنشأها صلاح الدين سنة (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م)، وكان يتفرَّع منها أربعة خطوط برية هي:

١- خطٌّ إلى قوص، ومنها إلى أسوان، وما يليها من بلاد النوبة.

٢- خطٌّ إلى عَيْذاب (عن طريق قوص) وما يليها من سواكن.

٣- خطٌّ إلى الإسكندرية.

٤- خطٌّ إلى دمياط ومنها إلى غزة[٢].

وقد أصبح البريد في عهده يصل إلى مصر مَرَّتَيْنِ في الأسبوع، وكان يُشْرِفُ عليه صاحب ديوان الإنشاء[٣].

أنواع البريد ودلالته في الحضارة الإسلامية:

كان للبريد في الحضارة الإسلامية أنواع عِدَّة، تُعَبِّر جميعها عمَّا بلغته الحضارة الإسلامية من تطوُّرٍ وما عايشته من نظام، ويمكن أن نرى ذلك في التقسيمات التالية:

١- البريد البَرِّيُّ:

كانت وسيلة البريد البَرِّيِّ رجالاً يُطْلَقُ عليهم اسم الفُيُوج[٤] أو السعاة، وهم رجال تَعَوَّدُوا الجري والصبر في السير، واستخدم المسلمون الدوابَّ في حمل الرسائل على نطاق واسع، وخاصَّة البغال، وكانت محطات البريد المنتشرة على الطرق البرية بين مدن الأمصار

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٥٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ١٤/ ٤١٩، وأبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص ١٤٥.

(٣) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص ١٤٥.

(٤) الفُيُوج جمع الفَيْجُ: وهو رسول السلطان على رِجْلِه، وقيل: الذي يسعى بالكتب. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة فيج ٢/ ٣٥٠.

الإسلامية، تقوم برعاية دوابِّ البريد، وتأمين راحتها وأعلافها، واستبدالها عند الحاجة بدوابَّ أخرى؛ ليُتَابع حامل الرسائل سفره مسرعًا نحو الجهة التي هو قاصدها، وقد كانت هذه المحطة مزوَّدة بدوابَّ من بغال وخيل وإبل، ومَنْ يتعهَّدها بالعناية والخدمة[(١)]، وقد اسْتُخْدِمَتْ لهذا الغرض أفضل أنواع الخيول المعروفة باسم الخيل الشهارة، والإبل النجب، والتي كانت أسرع من الخيل وأصبر على السير[(٢)].

ولما كانت تلك المحطات على سكك تمتدُّ مسافات طويلة، ولما كان من الصعب على البغل اختراق الصحارى ذات الرمال بعيدة الغور، والتي تقلُّ فيها المياه، فقد رُوعِيَ أن تكون طريق البريد ممتدة في الأرضين التي يكثر وجود الماء فيها، وتتوفَّر فيها الآبار، وفي مواضع مأمونة قليلة الرمال[(٣)].

٢- البريد البحري:

حيث كانت تُسْتَخْدَمُ المراكب البحرية، قال الحسن بن عبد الله: وإذا كانت البلاد بحرية فيكون لصاحب الخبر مراكب خفيفة سريعة[(٤)]، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي هو أوَّل مَنْ أجرى في البحر السفن المقيَّرة[(٥)] المسمَّرة[(٦)] غير المخرَّزة[(٧)] والمدهونة[(٨)].

٣- البريد الجوي:

وكانت وسيلته الحمام الزاجل، الذي كان يُتَّخَذُ لحمل المُكَاتبات على شكل بطائق تُعَلَّق به، ويُعْرَف باسم «الهدي»[(٩)].

فلم يَكْتَفِ المسلمون بما وصل إليه نظام البريد البري أو البحري، ولكنهم خَطَوْا

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ١٤/ ٣٧٧، وجواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٩/ ٣٢٠.

(٢) كمال عناني إسماعيل: دراسات في تاريخ النظم الإسلامية ص ١٠٦.

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٩/ ٣٢٠، ٣٢١.

(٤) الحسن بن عبد الله: آثار الأول في ترتيب الدول ص ٨٩، نقلاً عن محمد ضيف الله: الحضارة الإسلامية ص ١٩٨.

(٥) المقيرة: أي المطلية بالقار وهو الزفت وهي مادة تسيل بالسخونة من تقطير المواد القطرانية. انظر: المعجم الوسيط ١/ ٣٩٥، ٢/ ٧٦٩.

(٦) المسمرة: أي المترابطة بالمسامير.

(٧) خرز: أي خاط من الخياطة.

(٨) الجاحظ: البيان والتبيين ص ٣٦٤.

(٩) محمد ضيف الله: الحضارة الإسلامية ص ١٩٨.

خطوات واسعة في تنظيم نقله وسرعة وصوله، فكان الحمام الزاجل أفضل وسيلة لذلك.

وكان لهذا الحمام مكانة خاصَّة، ويباع بأسعار مرتفعة؛ ولهذا تنافس الناس لا سيما في مدينة البصرة في اقتنائه، وصار الحمام متجرًا من المتاجر بين الناس، وبلغ ثمن الطائر منه سبعمائة دينار، وشاع استعماله في زمن السلطان نور الدين زنكي وفي زمن العبيديين (الفاطميين)، وبلغت مسافات طيرانه ما بين القاهرة والبصرة، والقاهرة ودمشق، وأُقِيمَتْ له الأبراج في الطرق، وكان الحمام ينتقل من كل برج إلى آخر يليه ليطلب برجه الذي هو مستوطنه إذا أُرْسِلَ، وكان يوضع في أبراج دمشق من حمام مصر، وفي أبراج مصر من حمام دمشق للغرض نفسه، وقد جَرَتِ العادة أن تكتب الرسائل من صورتين ترسلان مع حمامتين، وتطلق إحداهما بعد ساعتين من إطلاق الأخرى؛ حتى إذا ضَلَّتْ إحداهما أو قُتِلَتْ تَصِلُ الأخرى، كما لا يُرْسَلُ الحمام في الجوِّ الممطر، أو قبل تغذيته غذاءً كاملًا[1].



صورة (٢٧) الحمام الزاجِل

وكان الإيجاز والتركيز من أهمِّ مميزات الرسائل التي ينقلها الحمام الزاجل، ويبدو أن هذا النوع من البريد كان مقصورًا على فترات الحروب؛ حيث كانت الرسائل تُكْتَبُ على ورق خفيف - يُسَمَّى بطائق أو ورق الطير - في صيغة مختصرة، وبخطٍّ دقيق يُعْرَفُ بخطِّ الغبار؛

(١) انظر: محمد ضيف الله: الحضارة الإسلامية ص ١٩٨، ١٩٩، وأبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص ١٤٦.

لأنه مثل ذَرَّات الغبار، وبلُغَةٍ أشبه بالشفرة، تُعَلَّقُ تحت جناح الحمام لحفظها من المطر[١].

إنها صورة رائعة تلك التي نَظَّمَ بها المسلمون خطًّا بريديًّا باستخدام الحمام، والتي لا تقلُّ عن تنظيم خطٍّ بريدي على البَرِّ أو البحر.

٤- المراسلة بواسطة المناور:

إضافة إلى أنواع البريد السابقة، كانت هناك المراسلة بالمناور، قال القلقشندي: وهي مواضع رفع النار في الليل والدُّخَان في النهار، وتارة تكون على رءوس الجبال، وتارة تكون في أبنية عالية، ومواضعها معروفة تَعَرَّف بها أَكْثَرُ السَّفَّارة، وهي من أقصى ثغور الإسلام كالبيرة والرحبة، وإلى حضرة السلطان بقلعة الجبل، حتى إن المتجدِّدَ[٢] بالفرات إن كان بُكْرَة عُلِمَ به عِشَاء، وإن كان عِشَاء عُلِمَ به بُكْرَة، ولِمَا يُرْفَعُ من هذه النيران أو يُدَخَّن من هذا الدخان أدلَّةٌ يُعْرَفُ بها اختلافُ حالات رؤية العدُوِّ والمُخْبَرُ به باختلاف حالاتها، تارة في العدد، وتارة في غير ذلك[٣].

فكانت هذه المناور تُقام على طول السواحل وتقوم بوظيفة الحراسة، والإنذار من خطر العدو البحري، وذلك بواسطة إشارات ضوئية يَتَّفِقُ عليها المُنَوِّرِينَ عند نقل الخبر، فإذا ما اكتشفوا عَدُوًّا في البحر مقبلاً من بعيد أشعلوا النار على قمم المناور، وذلك إذا كان الوقت ليلاً، وإذا كان الوقت نهارًا أثاروا فيها الدخان، وفي ذلك قيل: إن الرسالة الضوئية كانت تصل من طنجة بالمغرب إلى الإسكندرية في ليلة واحدة، كناية عن استخدام الإشارات الضوئية في المراسلات السريعة بين حاميات المحارس عن طريق منارات المساجد في الرُّبُط الساحلية؛ وخاصة في سواحل إفريقيا التونسية، وكان أشهرها رباط المنستير[٤] في مدينة سوسة[٥].

---

(١) انظر: كمال عناني إسماعيل: دراسات في تاريخ النظم الإسلامية ص ١٠٧، ١٠٨.

(٢) المتجدد: يقصد الحادث الجديد المستجد.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ١٤/ ٤٤٥.

(٤) تقع مدينة المنستير على بُعد ثلاثين كيلو مترًا جنوب مدينة سوسة.

(٥) انظر: سعد زغلول وآخرون: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ص٤٨٠، ٤٨١، وكمال عناني إسماعيل: دراسات في تاريخ النظم الإسلامية ص ١٠٨.

وقد ختم القلقشندي فصلاً عن المناور بقوله: «على أن مُرَتِّبَها بهذه المملكة أَوَّلاً أتى بحكمة مُلُوكِيَّة لا تُسَاوَى مِقْدَارًا؛ إذ قد تَرَقَّى في سُرْعة بُلُوغ الأخبار إلى الغاية القُصْوَى؛ وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأتِ به غيرُه، والحمام يأتي من الخَبَرِ بما هو أسرعُ في البريد، والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمام، وناهيك أن يَظْهَر عُنْوَانُ الخبر في الْفُرَات بمصر في مسافة يوم وليلة»[1].

وفي ضوء ما تَقَدَّم يَتَّضِحُ أن نظام البريد والاتصالات في الحضارة الإسلامية كان نظامًا دقيقًا متطوِّرًا بما يناسب إمكانات وظروف عصره، وكان يربط الدولة بقائدها، ويُطْلِعه على كل ما يَجِدُّ فيها أَوَّلاً بأول، وهذا ما لم تصل إليه الأمم الأوربية إلا بعد قرون عديدة.

* * *

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ١٤/ ٤٤٧.

المبحث الخامس

بيت المال

يُعتبر النظام المالي الإسلامي من أكثر الأنظمة استقلالاً، وأنبلها غاية في حضارتنا، وقد قرر القرآن الكريم هذا في قوله تعالى: ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾[١]، فهدفت الحضارة الإسلامية إلى وجوب تداول الأموال بين الناس جميعًا، وعدم اقتصار ذلك على فئة الأغنياء؛ لأن ذلك مما يُسبب حرجًا في المجتمع الإسلامي، وإعلاءً لطبقة بعينها دون وجه حق.

بيت المال هو المؤسسة التي تُشرف على ما يَرِدُ من الأموال وما يخرج منها في أوجه النفقات المختلفة؛ لتكون تحت يد الخليفة أو الوالي، يضعها فيما أمر الله به أن تُوضع بما يُصلح شئون الأمة في السلم والحرب[٢].

وأهم واردات بيت المال: الزكاة، والخراج، والجزية، والغنيمة، والفيء، والأوقاف، وفيها جميعًا – باستثناء الأوقاف – معنى الضريبة على الثروة والأرض والأنفس[٣].

وأما اختصاصات بيت المال فكل مالٍ استحقَّه المسلمون، ولم يتعيَّن مالكه منهم فهو من حقوق بيت المال، وكلُّ حقٍّ وجب صرفه في مصالح المسلمين فهو حقٌّ على بيت المال[٤]، وبناء على هذا التعريف فإن بيت المال من أهم المؤسسات الحضارية الإسلامية، فهو الجهة الوحيدة المخولة للصرف على مصالح المسلمين المتفاوتة؛ ولذلك فهو يجمع اختصاصات وزارة المالية والبنك المركزي في عصرنا الحاضر.

وعلى ذلك فمصروفات بيت المال تنحصر في:

أولاً: رواتب الولاة والقضاة، وموظفي الدولة، والعمال في المصلحة العامة، ومن هؤلاء أمير المؤمنين، أو الخليفة نفسه.

---

(١) (الحشر: ٧).

(٢) منير حسن عبد القادر: مؤسسة بيت المال في صدر الإسلام ص٤٧.

(٣) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٣٣١.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٧٨.

ثانيًا: رواتب الجند والعسكر.

ثالثًا: تجهيز الجيوش وآلات القتال من سلاح، وذخائر، وخيل، وما يقوم مقامهما.

رابعًا: إقامة المشروعات العامة من جسور، وسدود، وتمهيد الطرق، والمباني العامة، ودور الاستراحة، والمساجد.

خامسًا: مصروفات المؤسسات الاجتماعية؛ مثل: المستشفيات، والسجون، وغير ذلك من مرافق الدولة.

سادسًا: توزيع الأرزاق على الفقراء واليتامى والأرامل، وكل من لا عائل له، فالدولة تعوله وتكفله.

ومن العرض السابق يتضح لنا النظام الاقتصادي الدقيق الذي ابتكرته الحضارة الإسلامية في خطواتها الأولى، ومبكرًا جدًّا قبل أي حضارة أخرى سابقة؛ فهي صاحبة السبق في تنظيم الموارد والمصارف المالية الخاصة بالدولة، ويبقى بعد هذه الموارد والمصارف كلها أنه قد تفاجأ الدولة بكارثة أو مجاعة، أو قحط شديد، أو وباء قاتل، وهنا يكون ندب الأغنياء من المسلمين من غير إكراه للصدقة والعطاء لإنقاذ جمهور المسلمين، كما فعل عثمان بن عفان ﷺ مع المجاعة في عهد أبي بكر الصديق ﷺ عندما تصدق بأموال طائلة لنجدة المسلمين، وكما فعل عبد الرحمن بن عوف ﷺ أيام عمر بن الخطاب ﷺ، وأمثال ذلك كثير عبر التاريخ الإسلامي، مما يضمن استمرارية تدفق الأموال على خزينة الدولة، دون إكراه أو مصادرة أو إجبار[١].

وقد أسَّس المسلمون بيت المال منذ عهد النبي ﷺ؛ فقد كان النبي ﷺ يُعين أمراء وعمال الأقاليم، وكانت مهمة كل أمير أن يقوم بجمع الصدقات والجزية وأخماس الغنائم والخراج، وأحيانًا كان رسول الله ﷺ يُرسل عاملاً مختصًّا بالنواحي المالية، تنحصر مهمته بجمع مستحقات الدولة من الأموال (الخراج، والجزية، والعشور، والصدقات) ويدفعها إلى بيت مال المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ مع معاذ بن جبل ﷺ، حينما بعثه إلى اليمن

(١) انظر: علي بن نايف الشحود: الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل ص٢٥٧.

لقبض الصدقات من عمالها، ومع أبي عبيدة بن الجراح ﷺ حينما أرسله إلى البحرين ليأتيه بجزيتها...»[١].

إن تأسيس بيت مال المسلمين منذ عهد النبي ﷺ يُدلل على دقة النظم المالية الإسلامية منذ هذا العهد المبكر؛ ولذلك كان من الطبيعي أن تتقدم مؤسسة بيت المال وتتطور تبعًا للعصور المختلفة.

وحينما اتسعت فتوحات الدولة الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة، وخاصة في عهدي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ﷺ، حيث فتحت الشام والعراق ومصر والجزيرة والجبل وأرمينيا والري وأذربيجان وأصبهان في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، وفُتحت كرمان، وسجستان، ونيسابور، وفارس، وطبرستان، وهراة، وبقية أعمال خراسان وإفريقية في عهد عثمان ﷺ، كان من الطبيعي أن تفد الأموال بصورها المختلفة إلى مقر الخلافة الإسلامية في المدينة النبوية[٢].

وقد جعلتْ كثرة هذه الأموال الفاروق عمر ﷺ يبكي وهو يُشاهد الغنائم تتوارد تترى إلى المدينة، محملة بكنوز الذهب والفضة والحجارة الكريمة، وملايين الدراهم والدنانير، والعبيد والأقمشة... وغيرها من الثروات، ومن ثم أمر عمر ﷺ على الفور بوضع نظام الديوان، فرتّب لرعيته، وفرض للأجناد، كما ذكرنا من قبل في ديوان العطاء[٣].

وكانت سياسة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ تقوم على عدم ادّخار الأموال في بيت المال للنوائب؛ بل كان يجري توزيعها لمستحقيها أولاً بأول، فيذكر ابن الجوزي أن عمر ﷺ «كان يأمر بكسح[٤] بيت المال مرة في السنة»[٥]. أي أنه كان يُفرغُ بيت المال مما فيه، لتوزيعه على مستحقيه كل عام، ولا غرو أن هذا العمل من الأعمال الجليلة التي قامت بها الحضارة الإسلامية؛ فقد حرصت مؤسسة الخلافة منذ فترة مبكرة على إشراك

---

(١) أبو عبيد: الأموال ص٤١.
(٢) انظر: القلقشندي: صبح الأعشى ٣/ ٢٨٥.
(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥١٩.
(٤) يكسح: يكنس. ابن منظور: لسان العرب، مادة كسح ٢/ ٥٧١.
(٥) ابن الجوزي: مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ص٧٩.

الرعية في أخذ أنصبتها التي قسمتها الدولة فيما بينهم، في وقت معلوم من كل عام دون تأخير أو تلكؤ، وذاك نوع من أنواع التكافل والنظام الممنهج بين الراعي والرعية.

بل كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ يُقَسِّم أموال بيت المال كل جمعة؛ «حتى لا يُبقي فيه شيئًا»(١) خوفًا من فتنة المال على الراعي والرعية، ولذلك دخل ﷺ بيت المال ذات مرة: «فوجد الذهب والفضة، فقال: يا صفراء اصفري، ويا بيضاء ابيضي، وغُرِّي غيري، لا حاجة لي فيك»(٢).

واللافت للنظر أن الخلفاء قد اتبعوا سياسة تقضي بالفصل بين الإدارتين السياسية والمالية؛ منعًا للبس، وتفاديًا للمشكلات، وفصلاً للسلُطات؛ فقد عين عمر بن الخطاب ﷺ عمار بن ياسر ﷺ على إمارة الكوفة، وبعث معه عبد الله بن مسعود ﷺ على بيت المال، وجعله «مُعلِّمًا ووزيرًا»(٣).

وزادت خزائن بيت المال بالأموال في ظل الخلافة الأموية؛ فقد أشار ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ) إلى أن مقدار المال الذي أرسله مسلمة بن مخلد ﷺ والي مصر في عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ «بعد أن أعطى أهل الديوان أعطياتهم، وأعطيات عيالهم وأرزاقهم، ونوائبهم، ونوائب البلاد من الجسور، وأرزاق الكتبة، وحملان القمح إلى الحجاز، كان يبلغ ستمائة ألف دينار فضلاً»(٤)، وهذا المبلغ - بلا ريب - ضخم جدًّا من ولاية واحدة من ولايات المسلمين، وهي مصر، فما بالنا بمقدار الأموال الأخرى التي كانت تدخل بيت المال من باقي الولايات الإسلامية، ومن دون شكٍّ فإن هذه المبالغ الضخمة تؤكد على أهمية بيت المال في ظلِّ الخلافة الأموية، ومن ثم عظمة هذه الخلافة.

والملاحظ من كلام ابن عبد الحكم أنه كانت هناك إدارة مركزية لبيت المال في عاصمة الخلافة الإسلامية دمشق، وإدارات فرعية في كل ولاية على حدة؛ وقد كان يُنفق من بيوت المال في كل ولاية على مرافق الحياة داخل هذا المصر، وسد احتياجات هذا

---

(١) أبو العباس الناصري: الاستقصا ١/ ١١٢.

(٢) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ١/ ١٥٧.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/ ٢٥٥.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص١١٧.

الإقليم على أكمل وجه، وبعد ذلك يتم إرسال ما تبقى من الأموال إلى الإدارة المركزية في مقر عاصمة الخلافة.

وقد كان من حق المسلمين في الولايات أن يعترضوا على المال المرسل إلى مقر الخلافة، إذا لم يتيقنوا أن جميع المسلمين لم يأخذوا أعطياتهم بعد، وهذا ما حدث في مصر في ولاية معاوية ﷺ، فقد نهضت الإبل بالأموال تريد دمشق، فلقيها أحد رجالات مصر، وهو برح بن حسكل المهري، «فقال: ما هذا؟ ما بال مالنا يخرج من بلادنا؟ رُدُّوه. فردوه حتى وقف على المسجد، فقال: أخذتم أعطياتكم وأرزاقكم، وعطاء عيالاتكم، ونوائبكم؟ قالوا: نعم..»[1]. فتركها برح لتذهب إلى دمشق بعد تأكده من أخذ الجند والرعية لأعطياتهم ومستحقاتهم المعلومة، ولا شك أن هذا الموقف يُدلل على الحرية التي تمتعت بها الرعية في ظل الخلافة الإسلامية.

وشبيه بذلك ما فعلته الرعية مع خليفة المسلمين الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ)، فقد اتهموه بأنه أنفق الأموال في غير محلها، فما كان منه إلا وقد أمر باستجماع الناس في المسجد، فصعد المنبر وقال: «إنه بلغني عنكم أنكم قلتم: أنفق الوليد بيوت الأموال في غير حقها، ثم قال: يا عمرو بن مهاجر، قُمْ فأحضر أموال بيت المال، فحملت على البغال إلى الجامع، ثم بسط لها الأنطاع تحت قبة النسر، ثم أفرغ عليها المال ذهبًا صبيبًا، وفضة خالصة، حتى صارت كومًا، وهذا شيء كثير، ثم جيء بالقبَّانين فوزنت الأموال، فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة، وفي رواية ست عشرة سنة مستقبلة، لو لم يدخل للناس شيء بالكلية، فقال لهم الوليد: والله ما أنفقت في عمارة هذا المسجد درهمًا من بيوت المال، وإنما هذا كله من مالي. ففرح الناس، وكبروا وحمدوا الله ﷻ على ذلك، ودعوا للخليفة وانصرفوا شاكرين داعين»[2].

وكان من حق المسلمين أن يقترضوا من بيت المال، لا فرق في ذلك بين أمير ومأمور؛ فقد اقترض عثمان بن عفان ﷺ من بيت المال مبلغًا يُقدّر بمائة ألف درهم، وكتب عليه بها

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص٣٤٥.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١٧٠، ١٧١.

عبد الله بن الأرقم، وأشهد عليه كلاً من علي بن أبي طالب وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، فلما حلَّ الأجل ردَّه عثمان[1].

وفي عهد عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - سعت الدولة إلى إعادة هيكلة وترتيب وإصلاح بيت المال من خلال إيراداته (الزكاة، والجزية، والخراج، والعشور، والأخماس)، فقد بدأ عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - سياسته المالية بزيادة الإنفاق على عامة الرعية، فأنفق في رد المظالم حتى أنفد بيت مال العراق، وجلب إليه من الشام[2].

ولما استطاع عمر بن عبد العزيز ﷺ تحقيق العدالة الاجتماعية والمالية في جمع إيرادات بيت المال، وكذلك صرف مستحقاته؛ فقد زادت الأموال بشكل فائق للحد في عهده، فشرع في صرف الأموال على الناس بطرق مبتكرة، كان من شأنها القضاء على كثير من الأزمات والمشكلات آنئذٍ؛ فقد أمر والي العراق عبد الحميد بن عبد الرحمن أن «أخرج للناس أعطياتهم، فكتب إليه عبد الحَمِيد: إني قد أخرجت للناس أعطياتهم، وقد بقي في بيت المال مال». فأمره بأن يقضي ديون المعسرين من بيت المال؛ إذ قال: «انظر كل من أدان في غير سفه، ولا سرف فاقض عنه». فكتب إليه: إني قد قضيت عنهم، وبقي في بيت مال المسلمين مال. فأمره أن يُزوج المعسرين من شباب وفتيات المسلمين، فقال: «انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه، وأصدق عنه». فكتب إليه: «إني قد زوجت كل من وجدت، وقد بقي في بيت مال المسلمين مال».

فأمر عُمر - رحمه الله - بأن تتم عملية التسليف الزراعي من بيت المال بصفته بنكًا للدولة، حيث يُقدم القروض للمزارعين إذا ما أصابتهم نائبة أو ضائقة؛ فقال لواليه: «انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه، فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين»[3].

وكان بيت المال بمثابة الحصن المنيع الذي تلجأ إليه الدولة وقت الأزمات والكوارث، ففي عام الرمادة أو المجاعة عام ١٨هـ، أمر الخليفة عمر ﷺ بأن ينفق ﷺ على

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٦/ ١٧٣.
(٢) الصلابي: الدولة الأموية ص٣٣٦.
(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٥/ ٢١٣.

الناس من «حواصل بيت المال مما فيه من الأطعمة والأموال حتى أنفده»[١].

وحينما تولى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (ت ١٥٨هـ) الخلافة، كانت سياسته المالية متقشفة إلى أقصى حدٍّ، فلم يكن يخرج دينارًا ولا درهمًا من بيت مال المسلمين إلا وكان يعلمه، حرصًا منه على الأموال، ونتيجة لهذه السياسة المتشددة، تأثر الناس بها تأثرًا شديدًا، حتى اتهم المنصور بالبخل، فلما تولى ابنه المهدي الخلافة، عدل عن سياسة أبيه، ورأى أن التيسير على الرعية بالإنفاق عليهم أوجب من الإمساك والبخل؛ ولذلك فقد أمر عند بداية خلافته باستخراج «حواصل أبيه من الذهب والفضة، التي كانت لا تُحدُّ ولا توصف كثرة، ففرَّقها في الناس، ولم يُعْطِ أهله ومواليه منها شيئًا، بل أجرى لهم أرزاقًا بحسب كفايتهم من بيت المال، لكل واحد خمسمائة في الشهر غير الأعطيات، وقد كان أبوه حريصًا على توفير بيت المال، وإنما كان ينفق في السنة ألفي درهم من مال السُّرَاة[٢]»[٣]!

وقد بلغت الأموال في بيت المال حدًّا لا يُوصف من الكثرة، نتيجة السياسة المعتدلة التي انتهجها بعض الخلفاء: فقد كان المحمول إلى بيت المال في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد «سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة»[٤]، وترك الخليفة العباسي المعتضد (ت ٢٧٩هـ) - عند وفاته - في بيت مال بغداد فقط، ما قدَّره بعض المؤرخين كابن كثير بـ«سبعة عشر ألف ألف دينار»[٥]، وهذا مبلغ ضخم جدًّا، خاصة إذا علمنا أن الدينار يساوي ٤,٢٥ جرام من الذهب.

وحينما زادت الضغوط المالية على الدولة، خاصة وقت الحروب والأزمات، وجدنا بعض الأمراء - على الرغم من حاجته الماسة للأموال - يستمر صرف المبالغ الطائلة على الضعفاء والفقراء والعلماء من بيت المال، فكانت وظيفة بيت المال جامعة لكلا الأمرين؛ الإنفاق على الحرب، بجوار الإنفاق على المستحقين من بيت المال؛ فقد أشار بعض المقربين من الأمير نور الدين محمود -رحمه الله-، حينما رأوا كثرة خروجه للجهاد،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ١٠٣.

(٢) السُّرَاة: أي الأشراف، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سرا ١٤/ ٣٧٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٦٣.

(٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ١٨١.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٠٦.

وارتفاع التكاليف الباهظة لهذه الغزوات، فقالوا له: «إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء، والفقراء، والصوفية، والقراء، وغيرهم، فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح؛ فغضب من ذلك وقال: والله! إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم؛ كيف أقطع صلات قوم يدافعون عني، وأنا نائم على فراشي، بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني، بسهام قد تصيب وقد تخطئ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحلُّ لي أن أعطيه غيرهم؟»[(١)].

وعرفت الحضارة الإسلامية في الأندلس بيت المال، فقد كان على غرار بيوت المال في المشرق، إلا أن مكانه – في العادة – كان في المسجد الجامع، حفاظًا عليه، ورفعة لشأنه، خاصة في ظل الخلافة الأموية في الأندلس[(٢)].

وأهم ما تميز به ديوان بيت المال في العصر المملوكي إنفاقه على العمائر والمنشآت الرائعة، التي ما زالت موجودة حتى عصرنا الحاضر، مثل: جامع الظاهر بيبرس، ومدرسة وبيمارستان قلاوون، ومسجد الناصر بالقلعة، وقلعة قايتباي، ومسجد السلطان قنصوه الغوري[(٣)].

وقد حرصت مؤسسة الحكم في العصر المملوكي على تولية بيت المال لكبار الفقهاء المشهورين بالصلاح والعلم، مثل الفقيه عزِّ الدين بن جماعة الذي ولي وكالة بيت المال بجوار نظارة جامع أحمد بن طولون، في عام ٧٣١هـ[(٤)].

لقد كان بيت المال بمثابة الركن الحصين الذي لجأت إليه مؤسسات الحكم في الحضارة الإسلامية في العصور المختلفة، فقد لبَّى كل المتطلبات والمستلزمات والمستحقات التي فُرضت عليه، على أكمل صورة، وأفضلها، والحق أن بيت المال في حضارتنا الإسلامية يعبر بجلاء عن دقة وتنظيم هذه الحضارة منذ بداياتها الأولى.

* * *

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٤٦٣.
(٢) انظر: ابن عذارى: البيان المغرب ٢/ ٢٣٠.
(٣) البيومي إسماعيل: النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك ص٢٦٤.
(٤) المقريزي: السلوك ٣/ ١٤٦.

المبحث السادس
الشرطة

تُعَدُّ الشرطة[١] من الوظائف المهمَّة في الدولة الإسلامية، ومن أبرز معالمها في حياة المجتمع والناس، وتتمثل في الجند الذين يُعتمد عليهم في حفظ الأمن والنظام، وتنفيذ أوامر القضاء بما يكفل سلامة الناس، وأمنهم على أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، فهي بمثابة جيش الأمن الداخلي.

ولقد عرف المسلمون نظام الشرطة منذ النبي ﷺ، وإن لم تكن ممنهجة أو منظمة؛ فقد ذكر البخاري في صحيحه «أن قيس بن سعد، كان يكون بين يدي النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشُّرط من الأمير»[٢].

وكان أوَّل من سنَّ نظام العسِّ[٣] هو عمر بن الخطاب ﷺ، فكان يَعُسُّ بالمدينة (أي يطوف بالليل) يحرس الناسَ ويكشف أهل الرِّيبَة[٤].

ويمكن القول بأن الشرطة - كما ظهر سابقًا - قد بدأت بسيطة في عهد الخلفاء الراشدين، ثم أخذت تتطوَّر ويزداد تنظيمها في العصرين الأموي والعباسي، فبعد أن كانت أوَّل الأمر تابعة للقضاء، وعَمَلُهَا يقوم على تنفيذ العقوبات التي يُصْدِرُهَا القاضي انفصلت عن القضاء، وأصبح صاحب الشرطة هو الذي ينظر في الجرائم، كما صار لكل مدينة من المدن شرطة خاصَّة بها، تخضع لرئيس مباشر هو صاحب الشرطة، الذي كان له نوَّاب ومساعدون يتَّخِذُون لأنفسهم علامات خاصة، ويلبسون زيًّا خاصًّا، ويحملون مطارد[٥] عليها كتابات تتضمَّن اسم صاحب الشرطة، ويحملون الفوانيس في الليل،

---

(١) الشُّرْطة: حفظة الأمن في البلاد، الواحد شرطي، وصاحب الشرطة رئيسها، سُمُّوا بذلك لأنهم أَعَدُّوا لذلك، وأَعْلَمُوا أنفسَهم بعلامات يُعْرَفون بها، وقيل: لأن شُرْطَةَ كل شيء خِيارُه، وهم نُخْبَةُ السلطانِ من جُنده. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة شرط ٧/ ٣٢٩، والمعجم الوسيط، مادة شرط ص٤٧٩.

(٢) البخاري: كتاب الأحكام، باب الحاكم يحكم بالقتل على من وجب عليه دون الإمام الذي فوقه (٦٧٣٦).

(٣) العسُّ: هو أن يطوف شخص بالليل يحرس الناس، ويكشف أهل الريبة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عسس ٦/ ١٣٩.

(٤) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٦٧.

(٥) مطارد جمع طِرد: وهو الرُّمح القصير، لأنَّ صاحبه يُطَارِد به، وهو الألوية كذلك، انظر: الزبيدي: تاج العروس، باب الدال فصل الطاء مع الراء ٨/ ٣٢٠.

ويصطحبون كلاب الحراسة[١].

وقد توسَّع معاوية بن أبي سفيان ﷺ في اتخاذ الشرطة، وتطويرها، فأضاف إليها شرطة الحرس الشخصي، وكان أول من اتخذ الحرس في الحضارة الإسلامية[٢]، وخاصة وقد اغتيل زعماء الدولة الإسلامية قبله: عمر، وعثمان، وعلي ﷺ.

ولذلك فإن الشرطة في الخلافة الأموية كانت أداة تنفيذ لأمر الخليفة، وفي بعض الأحيان تعاظمت رتبة صاحب الشرطة حتى تولاها بعض الأمراء والولاة، ففي عام ١١٠هـ عُيِّن خالد بن عبد الله على ولاية البصرة، وجمع معها منصب الشرطة[٣].

وقد تنبهت الخلافة الأموية لخطورة هذا المنصب، وحيويته؛ ولذلك وضعت المعايير العامة التي يجب أن تتوفر في صاحب الشرطة؛ فقد قال زياد بن أبيه: «ينبغي أن يكون صاحب الشرطة شديد الصولة، قليل الغفلة، وينبغي أن يكون صاحب الحرس مسنًّا، عفيفًا، مأمونًا لا يُطعن عليه»[٤].

وبحث الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق والحجاز في عهد عبد الملك بن مروان عن رجل قادر على تولِّي قيادة الشرطة في الكوفة، فاستشار أهل الرأي والمكانة، فسألوه: «أيَّ الرجال تريد؟ فقال: أريده طويل الجلوس[٥]، سمين الأمانة[٦]، أعجف الخيانة[٧]، لا يخفق في الحق على جرَّةٍ[٨]، يهون عليه سبال الأشراف في الشفاعة[٩]. فقيل له: عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي. فأرسل إليه يستعمله، فقال له: لستُ أقبلها إلا أن تكفيني عيالك وولدك وحاشيتك. قال: يا غلام، نادِ في الناس: مَنْ طلب إليه منهم حاجة فقد

(١) انظر: كمال عناني إسماعيل: دراسات في تاريخ النظم الإسلامية ص ١٣٧، ١٣٨.
(٢) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٨/ ١٥٦.
(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٤/ ١٣٦.
(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٣٥.
(٥) طويل الجلوس: كناية عن الصبر وطول البال.
(٦) سمين الأمانة: تعبير عن قوة الأمانة.
(٧) أعجف الخيانة: تعبير عن الأمانة أيضًا بانعدام الخيانة، والعجف هو الهزال. انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٥٨٥.
(٨) لا يخفق في الحق على جرة: أي لا يتهاون في أقل شيء من الحق.
(٩) يهون عليه سبال الإشراف في الشفاعة: أي لا يقبل الوساطات من أشراف القوم وعليتهم، والسبال جمع سبلة وهي مقدمة اللحية ورأس الإناء، والجزء الطويل من الثياب، وهي كناية عن الشرف والمكانة.

برئت منه الذمة»[١]. ولكفاءته، وقدرته على استتباب الأمن قال الشعبي: «فكان ربما أقام أربعين ليلة لا يؤتى بأحد، فضمَّ إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة»[٢].

ولذلك تطوَّرت وظيفة صاحب الشرطة في العصرين الأموي والعباسي، ومن ثَمَّ قال ابن خلدون: «كان النظر في الجرائم وإقامة الحدود في الدولة العباسية والأموية بالأندلس، والعبيديين بمصر والمغرب راجعًا إلى صاحب الشرطة، وهي وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول، تَوَسَّع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلاً، فيَجْعَل للتهمة في الحكم مجالاً، ويَفْرِض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم، ويُقِيم الحدود الثابتة في محالِّهَا، ويحكم في الْقَوَدِ والقصاص، ويُقِيم التعزير والتأديب في حقِّ مَنْ لم يَنْتَهِ عن الجريمة»[٣].

إذًا ترقَّى صاحب الشرطة منذ عصر الخلافة الراشدة، وبداية عصر الخلافة الأموية من مهمة تنفيذ أوامر مؤسسة الخلافة إلى أن أصبح قادرًا على النظر في الجرائم وإقامة الحدود؛ ولذلك اهتمت الدولة الإسلامية بتأسيس السجون، ووضع المجرمين وقادة الفتن والثورات فيها، فقد ذكر الطبري أن زياد بن أبيه وضع كثيرًا من الثُّوَّار في السجون، وخاصة أصحاب ابن الأشعث، كقَبِيصة بن ضُبَيْعَة الأسدي[٤].

وقد أنفقت الدولة على بناء السجون من بيت المال؛ إذ كَفَّت هذه السجون شرَّ السجناء وأذاهم عن الناس، ولم يمنع هذا الأمر أن تُنْفِق الدولة على هؤلاء المساجين، وترعى أحوالهم؛ ولذلك اقترح القاضي أبو يوسف على هارون الرشيد، تزويد المساجين، بحُلَّة قطنية صيفًا، وأخرى صوفية شتاءً[٥]، ولذلك كان الاهتمام بهم صحيًّا من أظهر الأمور.

وحرصت الخلافة العباسية على تعيين أصحاب الشرطة الموسومين بالعلم والتقوى

---

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/ ٧، ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ١/ ٩١، أبو إسحاق القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب ٢/ ٣٨١.

(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/ ١٦.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٢٢٢.

(٤) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٢٢٤، ٢٢٥.

(٥) أبو يوسف: الخراج ص١٦١.

والفقه، والذين لا تأخذهم في إقامة الحدود لومة لائم، فقد ذكر ابن فرحون في (تبصرة الحكام) «أنَّ صاحب الشُّرطة إبراهيم بن حسين بن خالدٍ، أقام شاهد زورٍ على الباب الغربيِّ الأوسط، فضربه أربعين سوطًا، وحلق لحيته، وسَخَّم وجهه[1]، وأطافه إحدى عشرة طوفةً بين الصَّلاتين، يُصاح عليه هذا جزاء شاهد الزُّور، وكان صاحب الشُّرطة هذا فاضلاً، خيِّرًا، فقيهًا، عالمًا بالتَّفسير، ولي الشُّرطة للأمين محمد، وكان أدرك مطرِّف بن عبد الله صاحب مالكٍ وروى عنه موطأه»[2].

ونتيجة لكفاءة بعض القادة العسكريين في الخلافة العباسية، فقد عين المأمونُ عبد الله ابن طاهر بن الحسين قائدًا لشرطة عاصمة الخلافة بغداد، بعدما أثبت جدارة عسكرية في حروبه وفتوحاته[3].

ولم تتوانَ مؤسسة الخلافة في عزل أصحاب الشرطة الفاسدين، الذين كانوا يتجاوزون في العقوبة، ولا يأخذون بالبينة، فقد أمر الخليفة العباسي المقتدر بالله بعزل صاحب شرطة بغداد محمد بن ياقوت، وعدم إشراكه في وظيفة في الدولة، نتيجة سوء سيرته وظلمه[4].

وكانت مهمة صاحب الشرطة في هذا العصر متعدِّدة ومتنوِّعة، فقد جمع أصحاب الشرطة في معظم الولايات الإسلامية مع وظيفة استتباب الأمن، والأخذ على أيدي اللصوص والمفسدين، المحافظةَ على الآداب العامة؛ فقد أمر مزاحم بن خاقان والي مصر (ت ٢٥٣هـ) صاحب شرطته أزجور التركي بمنع النساء من التبرُّج أو زيارة المقابر، وضرب المخنثين ونَدَّابات الجنائز، كما اهتمَّ صاحب الشرطة بمنع الملاهي، ومحاربة الخمور[5].

وأما أصحاب الشرطة المقصِّرون في أداء مهامهم، فقد كان الخلفاء يُجبرونهم على

---

(١) سَخَّمَ وجهه أي سوَّده، والسخام: الفَحْم وسواد القدر. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سخم ١٢/ ٢٨٢.
(٢) ابن فرحون: تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام ٥/ ٣١٩.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٤٥٥.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٦٦.
(٥) ناصر الأنصاري: تاريخ أنظمة الشرطة في مصر ص٤٦.

تصحيح أخطائهم بسرعة تامَّة، تداركًا للأمر، ومنعًا لانتشار ضرره بين العامَّة، فقد ذكر الإمام ابن القيم في كتابه «الطرق الحكمية» حكاية تُدلل على همة وذكاء صاحب شرطة الخليفة العباسي، خاصة في وقت الأزمات، إذ ذَكَرَ أنَّ اللُّصوص سرقوا في زمن الخليفة العباسي المكتفي مالاً عظيمًا، فألزم المكتفي صاحب الشُّرطة بإخراج اللُّصوص، أو غرامة المال؛ فكان صاحب الشرطة يركب وحده، ويطوف ليلاً ونهارًا، «إلى أن اجتاز يومًا في زقاقٍ خالٍ في بعض أطراف البلد، فدخله فوجده منكرًا... فرأى على بعض أبوابه شوك سمكٍ كثيرٍ، وعظام الصُّلب. فقال لشخصٍ: كم يكون تقدير ثمن هذا السمك الَّذي هذه عظامه؟ قال: دينارٌ. قال: أهل الزُّقاق لا تحتمل أحوالهم مُشْتَرًى مثل هذا؛ لأنَّه زقاقٌ بيِّن الاختلال إلى جانب الصحراء، لا ينزله من معه شيءٌ يخاف عليه، أو له مالٌ يُنفق منه هذه النفقة، وما هي إلاَّ بليَّةٌ، ينبغي أن يُكْشَف عنها. فاستبعد الرجل هذا، وقال: هذا فكرٌ بعيدٌ. فقال: اطلبوا لي امرأةً من الدَّرب أُكَلِّمها. فدقَّ بابًا غير الذي عليه الشَّوك، واستسقى ماءً، فخرجت عجوزٌ ضعيفةٌ، فما زال يطلب شربةً بعد شربةٍ، وهي تسقيه، وهو في خلال ذلك يسأل عن الدرب وأهله، وهي تخبره غير عارفةٍ بعواقب ذلك، إلى أن قال لها: وهذه الدَّار من يسكنها؟ - وأومأ إلى التي عليها عظام السمك - فقالت: فيها خمسة شبابٍ أعفارٍ[1]، كأنَّهم تجَّارٌ، وقد نزلوا منذ شهرٍ، لا نراهم نهارًا إلاَّ في كلِّ مدَّةٍ طويلةٍ، ونرى الواحد منهم يخرج في الحاجة ويعود سريعًا، وهم في طول النهار يجتمعون فيأكلون ويشربون، ويلعبون بالشِّطرنج والنَّرد، ولهم صبيٌّ يخدمهم، فإذا كان الليل انصرفوا إلى دارٍ لهم بالكرخ، ويَدَعُونَ الصبيَّ في الدار يحفظها، فإذا كان سحرًا جاءوا ونحن نيامٌ لا نشعر بهم، فقالت للرجل: هذه صفة لصوصٍ أم لا؟ قال: بلى. فأنفذ في الحال، فاستدعى عشرةً من الشُّرط، وأدخلهم إلى أسطحة الجيران، ودقَّ هو الباب، فجاء الصَّبيُّ ففتح. فدخل الشُّرط معه، فما فاته من القوم أحدٌ، فكانوا هم أصحاب الجناية بعينهم»[2]، وهذه الحكاية دليل على نباهة صاحب شرطة بغداد، وإنفاذه لأمر الخليفة على الفور.

(١) أعفار جمع العُفْرُ: وهو الشجاع الجَلْدُ، وقيل: الغليظ الشديد. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عفر ٤/ ٥٨٣.
(٢) ابن القيم: الطرق الحكمية ص٦٥.

ولذلك حرصت مؤسسة الحكم على اختيار الأذكياء والنابهين لولاية الشرطة، ولم تشترط أن يكونوا من أصحاب البأس والقوة فقط، ومما يُدلل على ذلك أن أحضر بعض أصحاب الشرطة شخصين متَّهمين بسرقةٍ، «فأمر أن يؤتى بكوزٍ من ماءٍ، فأخذه بيده ثمَّ ألقاه عمدًا فانكسر، فارتاع أحدهما، وثبت الآخر فلم يتغيَّر، فقال للَّذي انزعج: اذهب. وقال للآخر: أحضر العملة. فقيل له: ومن أين عرفتَ ذلك؟ فقال: اللِّصُّ قويُّ القلب لا ينزعج، والبريء يرى أنَّه لو تحرَّكت في البيت فأرةٌ لأزعجته، ومنعته من السَّرقة!»[1].

وقد عُرِفَتْ وظيفة صاحب الشرطة في معظم الدول الإسلامية، واتخذت أسماء مختلفة، فسُمِّيَ صاحبُ الشرطة في إفريقية الحاكمَ، وفي عصر المماليك الوالي، وكانت الشرطة في الديار المصرية من أهمِّ وظائف الدولة، وكان صاحبها من عظماء الرجال، فكان ينوب عن الوالي في الصلاة، وفي توزيع الأعطيات، وفي غير ذلك من الأعمال، وكان مَقَرُّ الشرطة في مصر ملاصقًا لجامع العسكر، وكانت تُسَمَّى الشرطة العليا[2]، وقد جَرَتِ العادة أن والي (صاحب) الشرطة يستعلم متجددات ولاياته من قتل أو حريق كبير، أو نحو ذلك في كل يوم من نُوَّابه، ثم تُكْتَبُ مطالعة جامعة بذلك، وتُحْمَلُ إلى السلطان صبيحة كل يوم فيقف عليها[3].

هذا، وكان أصحاب الشرطة يحملون آلة من السلاح تُسَمَّى الطَّبَرْزِين، وهي عبارة عن سكين طويل يحملونها مُعَلَّقة في أوساطهم[4].

وابتكر الأندلسيون لمنصب صاحب الشرطة قسمين مهمين، فأما القسم الأول: فسُمِّيت بالشرطة الكبرى، وكان هدفها الضرب على أيدي أقارب السلطان ومواليه وأهل الجاه، ولصاحب الشرطة الكبرى كرسي بباب السلطان، وكان من المرشحين دائمًا للوزارة أو الحجابة، ولا شكَّ أن ابتكار هذا المنصب ليُدلل على أن الحضارة الإسلامية كانت حضارة تحترم القوانين التشريعية، والأعراف المجتمعية، لا فرق فيها بين غني أو فقير، أو

---

(١) ابن القيم: الطرق الحكمية ص٦٧.
(٢) المقريزي: الخطط المقريزية ١/ ٨٤٠، ٨٤١.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٦١.
(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٢٧٥.

بين رئيس ومرءوس. وكان القسم الثاني: الشرطة الصغرى، وهي مخصَّصَة للعامَّة وسواد الناس، وكان صاحب الشرطة في الأندلس يُلَقَّب بصاحب المدينةِ[1].

إن الحضارة الإسلامية حضارة بَنَّاءة مبتكرة، ولا شكَّ أن منصب صاحب الشرطة كان موجودًا بالفعل في الأمم السابقة، إذ أحوال المجتمعات وتشابك الأفراد يجعل مثل هذا المنصب ملحًّا في أي وقت وأي مكان، لكنه في الحضارة الإسلامية كان مغايرًا كل المغايرة عما كان عليه عند الفرس أو الرومان؛ فقد أضاف المسلمون - كما رأينا - لهذا المنصب كل جديد، وجعلوه متقيدًا بآداب الإسلام وتشريعاته.

* * *

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٢٥١، وشوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٣١٣، ٣١٤.

المبحث السابع

الحسبة[(١)]

نشأت وظيفة الحسبة إلى جانب وظيفة القاضي؛ نتيجة تضخُّم ظروف الحياة في الخلافة الإسلامية، وهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يُعَيِّنُ لذلك مَنْ يراه أهلاً له، فيتعيَّن فَرْضُه عليه بحُكْمِ الولاية، وإن كان على غيره من فروض الكفاية[(٢)]، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(٣)].

وفي تطوُّرها فقد تَعَدَّتِ الحسبة هذا المعنى الديني في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى واجبات عملية مادِّيَّة تتَّفق مع المصالح العامَّة للمسلمين؛ فقد تناولت أمورًا اجتماعية متعدِّدة؛ مثل: المحافظة على النظافة في الطرق، والرأفة بالحيوان بأن لا يُحَمَّل ما لا يطيق، ورعاية الصحَّة بتغطية الروايا، ومنع معلِّمِي الصبيان من ضرب الأطفال ضربًا مبرحًا، ومراقبة الحانات وشاربي الخمر، وتبرُّج النساء، وبعبارة عامَّة كل ما يَتَعَلَّق بالمجتمع وأخلاقه، والظهور فيه بالمظهر اللائق، كما تناولت أمورًا اقتصادية؛ وذلك لتضخُّم المدن الإسلامية بأرباب الحرف والتجارات، فكان عمل المحتسب الأساسي منع الغش في الصناعة والمعاملات، وبخاصة الإشراف على الموازين والمكاييل وصحَّتها ونسبها[(٤)].

ولم تعرف الأمم والحضارات السابقة وكذا اللاحقة هذه الوظيفة في مجتمعاتها وأعرافها، والحق أن هذه الوظيفة في غاية الأهمية؛ لأنها تمثِّل المراقبة الأخلاقية على الشعوب، فمن المعلوم أن الحضارة الإسلامية اهتمت بعاملين مهمين؛ فالأول: العامل

---

(١) الحسبة: يقال: فلان حسن الحسبة في الأمر يحسن تدبيره، وفعله حسبة مدخرًا أجره عند الله، وهي منصب كان يتولاه في الدول الإسلامية رئيس يُشرف على الشئون العامة من مراقبة الأسعار ورعاية الآداب، ويُسَمَّى المحتسب. انظر: الزبيدي: تاج العروس، باب الباء فصل الحاء مع السين ٢/ ٢٧٨، والمعجم الوسيط مادة حسب ص١٧١.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٢٢٥.

(٣) (آل عمران: ١٠٤).

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢١١ وما بعدها، وابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٢٢٥، وعبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص ٥٧.

المادي. والثاني: العامل الروحي، ومن ثَمَّ كانت وظيفة الحسبة بمثابة التطبيق الرائع لأخلاقيات الإسلام وأوامره السلوكية.

وأول من احتسب في تاريخ الحضارة الإسلامية، هو رسول الله ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ مرَّ على صُبْرة[1] طعامٍ، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً، فقال: «**مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟**». قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: «**أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي**»[2].

وحينما بدأت الدولة الإسلامية الأولى تأخذ في التشكل والاستقلال، رأينا رسول الله ﷺ يُعيّن أول محتسب في الإسلام، حيث استعمل سعيد بن سعيد بن العاص بعد الفتح، على سوق مَكَّةَ[3]، مما يُدلل على أهمية هذه الوظيفة منذ فجر الإسلام.

ومن اللافت للنظر أن بعض النساء من الصحابيات قد استُعْمِلْنَ في هذه الوظيفة منذ عهد النبي ﷺ، فقد ذكر ابن عبد البر أن سمراء بنت نهيك الأسدية «أدركت رسول الله ﷺ وعُمِّرَتْ، وكانت تمرُّ في الأسواق، وتأمرُ بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتضرب الناس على ذلك بسوط كان معها»[4]، بل الأعجب أن عمر بن الخطاب ﷺ أبقاها محتسبة على السوق، وهذا ما يؤكده ابن الجوزي بقوله: «وكان عمر إذا دخل السوق، دخل عليها»[5]. أي يدخل عليها مكان عملها لا بيتها، كما قد يُتَوَهَّم[6].

بل كان أمير المؤمنين عمر ﷺ يقوم بوظيفة المحتسب بنفسه، فكان يتولَّى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويُوَجِّه الناس إلى الحقِّ والصراط السوي، ويمنع الغشَّ، ويحذر منه، وكان ﷺ يمرُّ في السوق ومعه الدِّرَّة[7]، فيزجر بها غلاة الأسعار والغشاشين[8].

---

(١) الصبرة: الكومة المجموعة من الطعام. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٢/ ١٠٩.

(٢) مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا (١٠٢)، أبو داود (٣٤٥٢)، والترمذي (١٣١٥)، وابن ماجه (٢٢٢٤)، وأحمد (٧٢٩٠).

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ١٨٥.

(٤) المصدر السابق ٤/ ١٨٦٣.

(٥) ابن الجوزي: سيرة عمر بن الخطاب ص٤١.

(٦) انظر: ظافر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ٢/ ٥٩٢.

(٧) الدرة: العصا أو السوط التي يُضرب بها. انظر: المعجم الوسيط مادة درر ص٢٧٩.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٧٨.

وظل نظام المراقبة والحسبة موجودًا طوال العهد الراشدي والأموي، وإن لم يحمل صاحبه لقب المحتسب؛ إذ عُرِف هذا المسمَّى في العصر العباسي، وقد عَيَّن زياد بن أبيه عاملاً على سوق البصرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان[١].

ومنذ العصر العباسي بدأت وظيفة المحتسب تأخذ شكلاً مغايرًا، فأصبحت معروفة بين الناس منذ الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور؛ ولذلك فتيسيرًا على المحتسبين، وتنظيمًا للمجتمع؛ نقل المنصور أسواق بغداد والمدينةِ الشرقية إلى مناطق أخرى متخصصة، وبعيدة عن مركز المَدِينةِ ودواوينها، فنقل الأسواق إلى باب الكَرْخ وباب الشعير، وعَيَّن لها محتسِبِينَ؛ يُراقبون شئونها، ويضبطون مخالفاتها[٢].

وقد تطورت وظيفة المحتسب في ظلِّ الخلافة العباسية من مراقبة المكاييل والموازين، ومنع الاحتكار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى الإشراف على نظافة الأسواق والمساجد، ومراقبة الموظفين للتقيد بالأعمال، حتى مراقبة المؤذِّن للتَّقَيُّد بأوقات الصلاة، وامتدَّت سلطة المحتسب كذلك إلى مراقبة القضاة إذا تأخَّروا عن أعمالهم، أو انقطعوا عن الجلوس عن الحكم، والغريب أن المحتسب كان له الحق في امتحان واختيار ذوي المهن والحرف؛ لمعرفة مدى إتقانهم للمهنة والحرفة؛ حتى لا يستغلُّوا الآخرين؛ فقد طلب الخليفة العباسي المعتضد (ت ٢٧٩هـ) من سنان بن ثابت رئيس الأطباء امتحان جميع الأطباء ببغداد، وكانوا حوالي ٨٦٠ طبيبًا، وأمر المحتسب بعدم السماح لطبيب أن يُمارس مهنته إلا بعد اجتياز الامتحان[٣]!

وكان كثير من المحتسبين يُقيم الحدود، ويُوقِّع العقوبات على الأمراء والسلاطين المخالفين؛ شأنهم شأن باقي الرعية؛ فقد ذكر نظام الملك في كتابه «سير الملوك» أن السلطان السلجوقي محمود بن ملكشاه «كان قد شرب الخمر مرَّة مع خاصَّته وندمائه طوال الليل... وكان علي بن نوشتكين ومحمد العربي (من قُوَّاده ومُقَرَّبيه) ممن حضروا المجلس، وممن ظلُّوا يسهرون ويشربون مع مَحْمود الليلة بكاملها، ومع إشراقة الصباح

---

(١) الصلابي: الدولة الأموية ١/ ٣١٥.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٤٨٠.

(٣) انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ١١٢.

أُصيب علي بدوار، وبدا عليه أثر إرهاق السهر والإفراط في الشراب، فاستأذن السلطان بالذهاب إلى منزله، فقال له مَحْمود: ليس صوابًا أن تذهب في وضح النهار وأنت سكران هكذا، ابقَ هنا واسترح في إحدى الحجرات حتى العصر، ثم اذهب آنذاك وأنت صاحٍ؛ فإنني أخشى إذا ما ذهبتَ الآن بهذه الحال أن يراك المحتسب في السوق، فيأخذك، ويُقيم عليك الحدَّ، فيُراقُ ماء وجهك، وينتابُني الغمُّ، دون أن أستطيع التفوُّه بشيء. غير أن علي ابن نوشتكين الذي كان قائدًا لخمسين ألف فارس، وصنديدَ زمانه، والذي كان يُعدُّ بألف رجل، لم يخطر له على بال أن المحتسب سيجرؤ حتى على مجرَّد التفكير في الأمر، فلم يَنْثَنِ عن عزمه، بل أصرَّ على أن لا بُدَّ من الذهاب، فقال مَحْمود: الرأي رأيك، دعوه يذهب. وركب علي بن نوشتكين في موكب عظيم من فرسانه وغلمانه وخدمه؛ قاصدًا منزله، وشاء الله ﷻ أن يكون المحتسب مع مائة من رجاله بين خيَّال وراجل في وسط السوق، فلما رأى عليًّا سكران، أمرَ بإنزاله عن فرسه، ونزل هو أيضًا، ثم أمرَ بأن يجلس رجلٌ على رأسه، وآخر على رجليه، وجلَدَهُ بيده - دون أدنى محاباة - أربعين جلدة، حتى التهم الأرض بأسنانه، وحاشيتُه وعسكره ينظرون، دون أن يجرؤ أي منهم على أن يتفوه بكلمة واحدة!»[1].

هذه هي الحضارة الإسلامية، التي لا تُفَرِّق بين قائد يستطيع أن يُحَرِّك خمسين ألفًا بإشارة منه، وبين محتسب لا يملك من أمره إلا مائة رجل فقط، ورغم ذلك، يُنزل المحتسبُ العقوبة علانية على القائد أمام جنوده وفرسانه، ولا يستطيع أحد منهم أن يُحَرِّك ساكنًا؛ ذلك لأن الحقَّ كان مع المحتسب النابه، الذي جعل القائد عبرة لمن يعتبر!

ولذلك بحثَ الخلفاء والأمراء والسلاطين عن المحتسبين أصحاب المهارة والعلم والحزم، وقد حكى ابن الإخوة في «نهاية الرتبة» أن «أتابك طغتكين سلطان دمشق طلب له محتسبًا، فذُكِرَ له رجلٌ من أهل العلم، فأمر بإحضاره، فلمَّا بصُر به قال: «إنِّي ولَّيتك أمر الحسبة على النَّاس؛ بالأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر. قال: إن كان الأمر كذلك، فقُم عن هذه الطَّرَّاحة، وارفع هذا المسند؛ فإنَّهما حريرٌ، واخلع هذا الخاتم، فإنَّه ذهبٌ. فقد قال

(١) نظام الملك: سياست نامه ص ٨٠، ٨١.

النبي ﷺ في الذهب، والحرير: «إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي، حِلٌّ لِإِنَاثِهَا»[(١)]. قال: فنهض السُّلطان عن طَرَّاحته، وأمر برفع مسنده، وخلع الخاتم من أصبعه، وقال: قد ضممتُ إليك النظر في أمور الشُّرطة. فما رأى النَّاس محتسبًا أهيب منه»[(٢)].

ولذلك كان منصب المحتسب في غاية الأهمية، خاصة في أوقات الأزمات والغلاء، ففي عام ٣٠٧هـ غلت الأسعار في بغداد غلوًا فاحشًا حتى «ضجت العامة... وكسروا المنابر، وقطعوا الصلاة، وأحرقوا الجسور»[(٣)]، فكانت وظيفة المحتسب حينئذ – وهو إبراهيم بن بطحا – أن يُسَعِّر بعض السلع الضرورية، فسَعَّر كُرَّ[(٤)] الدقيق بخمسين دينارًا، وهو ما هدَّأ من الثورة واضطراب العامة[(٥)].

ولم يكن منصب المحتسب حكرًا على من توليهم الدولة لهذه الوظيفة، فمن المعلوم أن الحضارة الإسلامية قد ربَّت جميع أبنائها على الوقوف أمام المنكر ومحاربته بقدر ما يُستطاع، وهذا الأمر من أعجب ما يُقال، ومن أكثر ما يلفت النظر في حضارتنا الخالدة، فكل مسلم بطبعه وبدينه وبحضارته مُحتسبٌ وإن لم يُتوَلَّها، وقد حكى الإمام ابن كثير في «البداية والنهاية» أن «أبا الحسين النوريَّ اجتاز بزورق فيه خمر مع ملاَّح (بحَّار) فقال: ما هذا؟ ولمن هذا؟ فقال له: هذه خمر للمعتضد. فصَعِدَ أبو الحسين إليها فجعل يضرب الدنان (أوعية ضخمة) بعمود في يده حتى كسرها كلها إلا دنًّا واحدًا تركه، واستغاث الملاح، فجاءت الشرطة، فأخذوا أبا الحسين، فأوقفوه بين يدي المعتضد، فقال له: ما أنت؟ فقال: أنا المحتسب. فقال: ومن ولاَّك الحسبة؟ فقال: الذي ولاَّك الخلافة يا أمير المؤمنين. فأطرق رأسه، ثم رفعه فقال: ما الذي حملك على ما فعلت؟ فقال: شفقة عليك؛ لدفع الضرر عنك. فأطرق رأسه، ثم رفعه، فقال: ولأي شيء تركت منها دنًّا واحدًا لم تكسره؟ فقال: لأني إنما أقدمت عليها فكسرتها إجلالاً لله تعالى، فلم أُبالِ أحدًا، حتى

---

(١) مشكل الآثار للطحاوي (٤٢٠٩).

(٢) ابن الإخوة: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص٧٨.

(٣) محمد بن عبد الملك الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري ص٢١.

(٤) الكُرُّ: مكيال لأهل العراق، قدره ستون قفيزًا، أربعون أردبًا، أو سبعمائة وعشرون صاعًا. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كرر ٥/ ١٣٥. والصاع عند الحنفية: ٣٢٦١,٥ جرام، وعند غيرهم: ٢١٧٢ جرامًا.

(٥) محمد بن عبد الملك الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري ص٢١.

انتهيتُ إلى هذا الدنِّ دخل نفسي إعجاب من قبيل أني قد أَقْدَمْتُ على مثلك فتركته. فقال له المعتضد: اذهب، فقد أطلقت يدك، فغيِّر ما أحببتَ أن تُغَيِّره من المنكر. فقال له النوري: الآن انتقض عزمي عن التغيير. فقال: وَلِمَ؟ فقال: لأني كنتُ أُغَيِّرُ عن الله، وأنا الآن أُغَيِّر عن شرطي. فقال: سَلْ حاجتك. فقال: أحبُّ أن تُخْرِجَني من بين يديك سالمًا. فأمر به فأُخْرِج فصار إلى البصرة، فأقام بها مختفيًا؛ خشية أن يشقَّ عليه أحدٌ في حاجة عند المعتضد، فلما توفي المعتضد رجع إلى بغداد»[١].

ومن أهم الأدوات التي يمتلكها المحتسب الرفق والغلظة، وهو يختار باجتهاده ما يُناسب الموقف، ولا يجب عليه أن يضع الرفق في غير محلِّه، وكذلك الغلظة، ومن ثَمَّ لما رأى الخليفة المأمون محتسبًا غليظًا، قال له: «يا هذا، إنَّ الله أرسل من هو خيرٌ منك لمن هو شرٌّ منِّي؛ فقال لموسى وهارون: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[٢]»[٣].

وفي الحديث عن المسئوليات التي كانت تُلْقَى على عاتق المحتَسِبِ في المجتمع الإسلامي، يقول أحد الباحثين المعاصرين: إن البلديات قد تُرَاقِبُ في عصرنا الحاضر القصَّابين[٤]، والخبازين، والمطاعم، وقد تُشَارِكُها مديرية الصحَّة هذه الرقابة، ولكنَّنا لا نعرف للبلديات أثرًا في مراقبة الأسواق التجارية التي تباع فيها المنسوجات، والمصنوعات، والحاصلات المختلفة، أمَّا أصحاب المهن الحُرَّة؛ كالأطباء، والمحامين، والصيادلة، والمهندسين، والمعلمين، فليس للبلدية أن تنظر في شيء من أمورهم؛ ولذلك نستطيع أن نُقَرِّرَ متثبِّتِينَ أن اختصاصات المحتَسِبِ أوسع كثيرًا من اختصاصات المحافظ، أو رئيس البلدية[٥].

واهتم المحتسبون في الحضارة الإسلامية بكل ما ينفع المسلمين، وأُلِّفت المصنفات العديدة في ذلك، ولكن ما يلفت النظر، وما يُدلل على رُقي وظيفة المحتسب في حضارتنا،

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٨٩.
(٢) (طه: ٤٤).
(٣) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ٦/ ٥٠.
(٤) القَصَّابُ: الجَزَّارُ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة قصب ١/ ٦٧٤.
(٥) العجلاني: عبقرية الإسلام في أصول الحكم ص ٣٤٣، نقلاً عن قصي الحسين: من معالم الحضارة العربية الإسلامية ص١٩٤.

اهتمامها ببعض التفاصيل التي قد لا يتنبه إليها أحدٌ، فهذا ضياء الدين بن الإخوة (ت ٧٢٩هـ) يذكر مجموعة من الإرشادات العامة التي يجب للمحتسب أن يُطَبِّقها، ولا نجد أحدًا قد سبقه إلى هذا المعنى، ففي حديثه في الحسبة على الفرَّانين والخبازين يقول: «ينبغي أن يأمرهم المحتسب برفع سقائف أفرانهم، ويجعل في سقوفها منافس واسعةً للدُّخان، ويأمرهم بكنس بيت النَّار في كلِّ تعميرةٍ... وغسل المعاجن، وتنظيفها، ويتَّخذ لها أبراشًا[1]، كلُّ برشٍ عليه عودان مصلَّبان لكلِّ معجنةٍ، ولا يعجن العجَّان بقدميه، ولا بركبتيه، ولا بمرفقيه؛ لأنَّ في ذلك مهانةً للطَّعام، وربَّما قُطِّر في العجين شيءٌ من عرق إبطيه، أو بدنه، ولا يعجن إلاَّ وعليه مِلْعَبَةٌ[2] ضيِّقة الكمَّين، ويكون مُلَثَّمًا أيضًا؛ لأنَّه ربَّما عطس، أو تكلَّم فقطر شيءٌ من بصاقه، أو مخاطه في العجين، ويشدُّ على جبينه عصابةً بيضاء لئلاَّ يعرق فيقطر منه شيءٌ، ويحلق شعر ذراعيه لئلاَّ يسقط منه شيءٌ في العجين، وإذا عجن في النَّهار فليكن عنده إنسانٌ على يده مذبَّةٌ يطرد عنه الذُّباب»[3].

إن اهتمام الحضارة الإسلامية بتشديد الرقابة على كل مهنة ينتج عنها نفعٌ عامٌّ منذ فترة مبكرة جدًّا، يؤكد لدينا أن غاية هذه الحضارة، تتمثَّل في المحافظة على الإنسان، وتوفير جميع السبل لراحته ولإسعاده، وهذه القواعد الصارمة التي يُنَبِّه ابن الإخوة عليها، باتت - للأسف الشديد - مفتقَدَة في كثير من الخدمات والمنافع العامة في بلداننا الإسلامية في واقعنا المعيش، بل أصبحنا نستورد فنون النظافة و«الإتيكيت» من الأوربيين والغربيين، ونسينا أو جهلنا أن الحضارة الإسلامية قد نبَّهت على ضرورة وجود المعايير الأمنية للمحافظة على صحة المسلم، من خلال وجود مراقبين (محتسبين) يُنفِّذون تلك القواعد بطرق مشدَّدة، والحق أن كتاب «معالم القربة في طلب الحسبة» لَيُعد من قبيل موسوعة رقابية مهمة جدًّا، وجب التنبه لها، والرجوع إليها؛ لأنها تصلح لكثير من الأقطار والعصور.

وعرفت بلاد المغرب والأندلس وظيفة المحتسب منذ فترة مبكرة، ولكن ما يلفت

---

(١) أبراش: جمع برش وهو حصير صغير من سعف النخل يجلس عليه. المعجم الوسيط، مادة برش ص٤٩.

(٢) الملعبة: ثوب لا كم له. ولعله يقصد هنا قصير الكم ضيِّقه.

(٣) ابن الإخوة: معالم القربة في طلب الحسبة ص١٥٠.

النظر، أن المحتسب كان يستعين بالصبيان والفتيات، ليُعينوه على معرفة التاجر الغاشّ، فكان «المحتسبُ يدسُّ عليه (أي على التاجر) صبيًّا أو جارية يبتاع أحدُهما منه، ثم يختبرُ الوزنَ المحتسبُ، فإن وجد نقصًا، قاسَ على ذلك حاله مع الناس -فلا تسأل عمَّا يلقى[١]- وإن كثر ذلك منه ولم يَتُبْ بعد الضرب والتجريس[٢] في الأسواق، نُفي من البلد، ولهم (المحتسبون) في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه؛ لأنها عندهم تدخل في جميع المبتاعات، وتتفرع إلى ما يطول ذكره»[٣].

ونتيجة للمنزلة الكبرى التي نالها محتسبو الأندلس، وجدنا مؤرخ الأندلس وعالمها لسان الدين بن الخطيب، يكتب رسالة تهنئة لمحمد بن قاسم الشُّدَيْد، محتسب مالقة الجديد، يُهَنِّئه ويُحَذِّره، فمما جاء فيها: «كتبتُ أيها المحتسبُ، المنتمي إلى النزاهة المنتسب، وأهنيك ببلوغ تمنيك، وأُحذِّرُك من طمع نفسٍ بالغرور تُمنيك، فكأني وقد طافت بركابك الساعة، ولُزم لأمرك السمع والطاعة، وارتفعت في مُصانعتِك الطماعة، وأخذتَ أهل الريب بغتةً كما تقوم الساعة، ونهضتَ تُقعد وتُقيم، وسكوتُك الريحُ العقيم، وبين يديك القسطاسُ المستقيم، ولا بُدَّ من شَرَكٍ يُنصب، وجماعة على ذي جاه تتعصب... فإن غضضت طرفك، أَمِنْتَ عن الولاية صرفك، وإن ملأت ظرفك، رحلت عنها حرفك..»[٤].

وقد كانت وظيفة المحتسب في العصر المملوكي على جانب كبير من الأهمية، فبالإضافة إلى ما سبق من مهام، فقد أُضيف إليها وأد الفتنة العامة، والقضاء على الإشاعات التي قد تُسبب هرجًا بين الناس، ففي عهد السلطان برقوق، وبالتحديد في رجب من عام ٧٨١هـ، حدثت واقعة غريبة؛ فقد «شاع بين الناس أن شخصًا يتكلم من وراء حائط (من داخله) فافتتن الناس به، واستمرَّ ذلك في رجب وشعبان، واعتقدوا أن المتكلم من الجن أو الملائكة، وقال قائلهم: يا رب سلم! الحيطة تتكلم.

وقال ابن العطار:

---

(١) دلالة على شدة العقوبة.

(٢) التجريس: التشهير والفضح.

(٣) المقري: نفح الطيب ١/ ٢١٩.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ١/ ٤١٣.

يَا نَاطِقًا مِنْ جِدَارٍ وَهْوَ لَيْسَ يُرَى ... اظْهَرْ وَإِلاَّ فَهَذَا الْفِعْلُ فَتَّانُ

لَمْ تَسْمَعِ النَّاسُ لِلْحِيطَانِ أَلْسِنَةً ... وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْحِيطَانِ آذَانُ

ثم تتبع جمال الدين المحتسب القصة، وبحث عن القضية إلى أن وقف على حقيقتها، فتوجَّه أولاً إلى البيت، فسمع الكلام من الجدار، فرسم على الجندي جار المكان، وضرب غلامه، وقرَّره وأمر بتخريب الدار فخُربت، ثم عادوا بعد ذلك وسمعوا الكلام على العادة، فحضر مرَّة أخرى، فأمر من يخاطب المتكلم، فقال: هذا الذي تفعله فتنة للناس فإلى متى؟ قال: ما بقي بعد هذا اليوم شيء، فمضى، ثم بلغه أنه عاد وقوي الظن وأن القصة مفتعلة، فلم يزل يبحث حتى عرف باطن الأمر، وهو أنه وجد شخصًا يقال له: الشيخ ركن الدين عمر. مع آخر يقال له: أحمد الفيشي. قد تواطئا على ذلك، وصارا يلقنان زوج (امرأته) أحمد الفيشي ما تتكلم به من وراء الحائط، من قرعة[1] تصير الصوت مُستغربًا لا يُشْبه صوت الآدميين، فانتهى الأمر إلى برقوق، فسمَّرهم بعد ضرب الرجلين بالمقارع، والمرأة تحت رجلها، وحصل لكثير من الناس عليهم ألم عظيم، وخلع على جمال الدين خلعة بسبب ذلك»[2].

قد تكون هذه القصة أو الواقعة أمرًا طريفًا مُستظرفًا، بيد أن الحضارة الإسلامية تحافظ على الآداب العامة، خاصة إذا ترتَّب على ذلك خلل في الاعتقاد، فقد ظنَّ كثير من الناس أن المتكلم من الجن أو الملائكة، وللقضاء على هذه الفتنة، اهتم المُحتسب بها، واستطاع أن يقبض على هؤلاء المتكلمين، الذين كانوا يأخذون الأموال جرَّاء استماع الناس لهذا الصوت، فأصبح الأمر فتنة خطيرة على دين الناس واعتقادهم، كما أصبح سرقةً لأموالهم، وهم لا يعلمون، فكانت مهمة المحتسب أن يقضي على هذه الفوضى التي استمرَّت شهرين متتابعين.

وحتى في أوقات البلاء والمرض والأوبئة، كانت للمحتسب مهمة عظيمة، فقد ذكر المقريزي أن القاهرة والأرياف قد تَعَرَّضت لوباء قاتل في عام ٨٢٢هـ، فـ«نُودِيَ في الناس

---

(١) القرعة: نبات الدبَّاء أو وعاء يُتَّخذ منه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قرع ٨/ ٢٦٢.

(٢) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ ١/ ٣٠٩، ٣١٠.

من قِبَلِ المحتسب: أن يصوموا ثلاثة أيام آخرها يوم الخميس... ليَخْرجوا مع السلطان، فيدعوا الله بالصحراء في رفع الوباء، ثم أُعيد النداء... أن يصوموا من الغد، فتناقص عدد الأموات فيه...»[١].

بل من مهام المحتسب الأخرى، أنه كان يمرُّ بالشوارع والطرقات في وقت الحرب والنفير، فينادي في الناس بالخروج مع السلطان أو الأمراء لملاقاة الأعداء، فقد تحدَّث ابن العديم[٢] في «بُغية الطلب» عن كيفية النفير في مدينة طَرَسُوس[٣]، فمما قاله عن وظيفة المحتسب في هذه الأوقات: «يطوف المحتسب ورجالته الشوارع الجداد كلها، فإن كان ذلك نهارًا انضاف إلى رجالته عدد كثير من الصبيان، وساعدوهم على النداء بالنفير، وربما احتاجوا إلى حشد الناس لشدَّة الأمر وصعوبة الحال، فأمرَ أهلَ الأسواق بالنفير، وحضَّهم على المسير، في أثر الأمير أين أخذ، وكيف سار..»[٤].

ولعل وظيفة المحتسب في هذه الأوقات الحرجة كانت من أهم الوظائف حينئذ، فمن المعلوم أن التجنيد في تلك الأزمنة لم يكن إجباريًّا، فكان باختيار الناس، وبإرادتهم، ومن ثم كان حضُّ الناس على الخروج، يحتاج بمن هو بصير ببيوتهم وأسواقهم، فجمع المحتسبُ بين وظيفته الأصلية، وبين كونه معلنًا رسميًّا من قِبَلِ الدولة في أوقات الحروب، وضرورة خروج الناس لملاقاة من يُهدِّد أمنهم وسلامتهم.

وقد كان بعض هؤلاء المحتسبين يتجاوز في العقوبة، أو يفرض إتاوة على الناس، فيأكل أموالهم بغير حق، لكن مؤسسة الحكم لم تكن لتدع هؤلاء يعيثون في الأرض فسادًا، وكان من أشهر المحتسبين الفاسدين في القاهرة، محمد بن شعبان الشمس، الذي فرض على الناس ظلمه، وعيَّن أشخاصًا معه ليأخذوا أموال الفقراء والتجار بغير حقٍّ، فلما علم سلطان المماليك المؤيد شيخ (٨١٥- ٨٢٤هـ) بهذه الواقعة أمر بضرب هذا

(١) المقريزي: السلوك ٦/ ٤٩٥، ٤٩٦.

(٢) ابن العديم: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي (٥٨٨ - ٦٦٠ هـ/ ١١٩٢ - ١٢٦٢م)، ولد بحلب، ورحل إلى دمشق وفلسطين والحجاز والعراق، وتوفي بالقاهرة، من كتبه: (بغية الطلب في تاريخ حلب). انظر الزركلي: الأعلام ٥/ ٤٠.

(٣) طرسوس: هي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٢٨.

(٤) ابن العديم: بُغية الطلب في تاريخ حلب ١/ ٨٤.

المحتسب أكثر من ثلاثمائة عصًا - وكان ذلك بحضرته ومشاهدته - وأن يُعزل من الحسبة[١].

والعجيب أن أوربا قد أخذت نظام الحسبة عن المسلمين في عصورهم الوسطى، خاصة في وقت الحروب الصليبية، وقد أبقى الصليبيون وظيفة المحتسب على المدن التي استولوا عليها في المشرق، ونقلوها إلى كثير من بلدانهم في أوربا؛ إذ جاء في كتاب «النظم القضائية لبيت المقدس»، الذي وضعه الصليبيون أثناء احتلالهم بيت المقدس أنه ينبغي «أن يُقْسِم المحتسب على نفسه أنه سوف يعمل على احترام القوانين، وأنه سوف يُحافظ على حقوق الملك... ويجب على من يتولَّى منصب الحسبة أن يذهب إلى الأسواق في الإصباح؛ ليتفقَّد حوانيت الجزارين... وغيرها من حوانيت المأكول والمشروب... ويجب عليه كذلك أن يتحرَّس مما يُدخله الباعة، والدَّوَّارون[٢] في مبيعاتهم من الغشوش، وأن يُراعي وجود الخبز في الأسواق وجودًا غير مقطوع، وأن يكون وزن الخبز مطابقًا للوزن المقرر بمجلس الحكم..»[٣].

لا ريب أن نظام الحسبة في الإسلام «هو ذروة ما يمكن أن يفكِّر فيه الحكم الحصيف؛ للحرص على راحة الناس وأَمْنِهم ودِعَتِهم، والحفاظ على رفاهيتهم، وتجنيبهم كل أسباب القلق والضيق، وحماية المجتمع أدبيًّا ومعنويًّا وماديًّا، حمايةً مبسوطة كل البسط، غير محدودة بحدود، ولا مُقَيَّدة بقيود، إلاَّ حدود الأمن وقيود الذوق، ولا نكاد نجد حَكَمًا معاصرًا في أية دولة معاصرة يستعمل مثل هذا الأسلوب من أساليب حماية المواطنين في نطاق وظيفة بِعَيْنِهَا، مثل وظيفة الحسبة وصاحبها المحتسب»[٤].

وهكذا كانت مؤسسة القضاء - بما تفرَّع عنها من مهامَّ، ووظائف أخرى معاونة ومساعدة - عَمِلَتْ على تمكين العدالة، وبسط الأمن والراحة والرفاهية للناس، في صورة عزَّ أن يُوجَدَ لها شبيه في أُمَّةٍ من الأمم، أو حضارة من الحضارات!

---

(١) العسقلاني: إنباء الغمر ٧/ ١١٠.

(٢) الدوارون جمع دوار: وهو البائع الذي يدور على الناس.

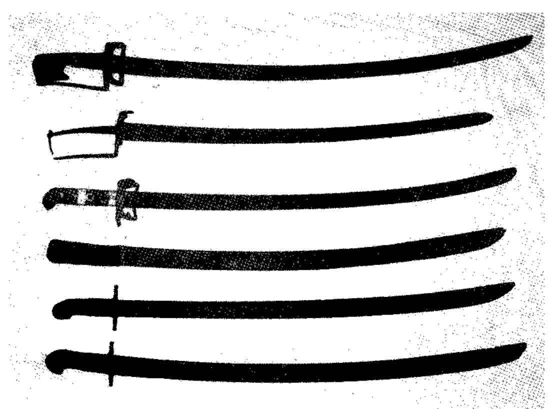
(٣) نقولا زيادة: الحسبة والمحتسب ص٣٩ - ٤١، وظافر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ٢/ ٦١٢، ٦١٣.

(٤) مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية ص٨٤.

المبحث الثامن

الجيش

الجيش لفظ يُطْلَقُ على الجند، كما يُطْلَق على جماعة الناس في الحرب، وقيل: الجيش جند يسيرون لحرب أو غيرها[1]، ومثل غيره من أجهزة الدولة الإسلامية بدأ الجيش بداية متواضعة، ثم سرعان ما نما حتى وصل إلى مرحلة متقدِّمَة، وصار له نظامه الخاصّ.



صورة (٢٨) السيُوف

والحقيقة أن العرب قبل الإسلام لم يكن لهم نظام خاصٌّ للجند لبداوتهم، وإنما كان كل رَجُلٍ يَقْدِر على حمل السلاح يخرج للقتال إذا ما دَعَا الداعي؛ دفاعًا عن العشيرة والقبيلة، وكانت أسلحتهم السيف، والرمح، والقوس، وكان يقودهم زعيم من زعمائهم أَلِفَ القتال، وعُرِفَ بالشجاعة، وكثيرًا ما يكون رئيس القبيلة[2].

ولما جاء الإسلام، وأُذِنَ للمسلمين في القتال والجهاد في سبيل الله، كان كل مسلم جنديًّا، وله من حُبِّهِ لدينه ما يدفعه إلى المبادرة إلى الجهاد، والاستشهاد في سبيل الله[3].

وكان الرسول ﷺ هو القائد الأعلى لجيش المسلمين، وبعد وفاته كانت الأحوال قد تطوَّرَتْ، وميادين القتال قد كثرت، وتعدَّدت الجيوش في الأماكن المختلفة؛ فأصبح من العسير على الخليفة أن يقوم بمهمَّة القيادة بنفسه، فأسندها إلى مَنْ يَصْلُح لها ممَّن عُرِفَ بالشجاعة، والنجدة، والإقدام، والحزم، وحُسن التدبير، وقد كانت الطاعة واجبة لهؤلاء

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة جيش ٦/ ٢٧٧.

(٢) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص١٥٠.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

القوَّاد، وكان القوَّاد يعرضون الجند[١] قبل لقاء العدُوِّ؛ حتى يطمئنُّوا عليهم وعلى عُدَّتهم، كما كان يفعل النبي ﷺ، ومتى انتهى القتال أصبحت مهمَّة القائد النظر في أمر الجند وتدريبهم، وتحسين معداتهم، والاستزادة منها[٢].

وقد عني عمر بن الخطاب ﷺ بأمر الجند، وأنشأ لهم ديوانًا خاصًّا للإشراف على شئونهم - ذكرناه من قبل - ومختَلَف أمورهم؛ من بيان أسمائهم، وأوصافهم، وأعمالهم، وأرزاقهم، وحينما اتَّسَعَتِ الفتوح الإسلامية، وكثرت الغنائم، وأقبلت الدنيا على المسلمين، واستقرَّ الكثير منهم في المدن؛ خشي عمر أن يَخْلُدَ بعضهم إلى الراحة والتقاعد عن الحرب، وأن ينصرفوا إلى الثروة، فتَقَدَّم إليهم بالانصراف إلى الجهاد، ورتَّب لهم ولأسرهم الأرزاق، وكان مَنْ يتأَخَّر منهم عن الجهاد بغير عذر يُعَيَّر، ويُلام لومًا يردعه، ويردع غيره.

وإلى عمر أيضًا يرجع الفضل في إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لإراحة الجنود في أثناء سيرهم إلى عَدُوِّهم؛ فبُنِيَتِ الأمصار؛ كالبصرة والكوفة والفسطاط؛ لإراحة الجند، وصدِّ هجمات الأعداء.



صورة (٢٩) ملابس عسكرية

وقد أتمَّ الأمويون ما بدأه عمر ﷺ من العناية بالجيش؛ فنظَّمُوا ديوان الجند، واعتنَوْا بالجيش، ولما استقرَّ لهم الأمر نهائيًّا حين تقاعد كثير من المسلمين عن الحرب والجهاد، أدخل عبد الملك بن مروان نظام التجنيد الإجباري[٣].

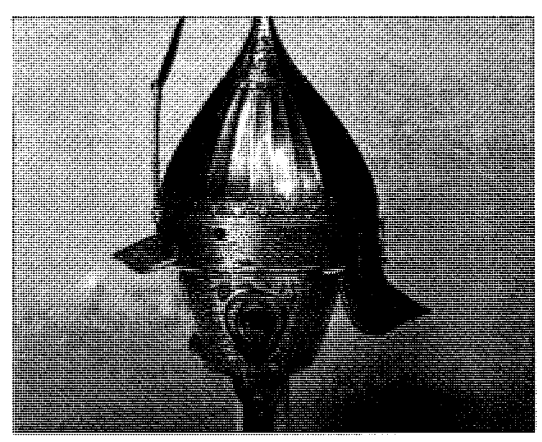
كما أرسى المسلمون تقاليد عسكرية، وابتكروا الكثير من فنون القتال، فلم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون نظامًا في

(١) عَرْض الجُنْد: هو إظهارهم واختبار أحوالهم. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عرض ٧/ ١٦٥.
(٢) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص١٥٣.
(٣) المصدر السابق، ص١٥٠، ١٥١.

الحرب، وكانوا يعتمدون طريقة الكَرِّ والفَرِّ، ولما جاء الإسلام ونزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[(١)]، رتَّبَ المسلمون الجيوش ونَظَّمُوها، وخاصَّة حين اتَّسَعَتْ حركة الفتوح، والتقت جيوش المسلمين بجيوشٍ لها تاريخ في التخطيط والتنظيم؛ مثل: الفرس، والروم.

فعَرَفَ المسلمون في تنظيم صفوفهم القتالية طريقة تُعْرَفُ بالكراديس، وتعني: الكتائب، أو الوحدات، وتقوم على تقسيم الجيش إلى خمس مجموعات رئيسية؛ هي: المقدِّمَة، ثم الميمنة، والميسرة، وقلب في الوسط، ثم كتيبة في الخلف تُعْرَفُ بالساقة أي المؤخِّرَة[(٢)].

وتُعْتَبَرُ اليرموك، والقادسية، وأجنادين من المواقع الحربية التي تُعَدُّ مثالاً لغيرها في تعبئة الجيوش وحُسْنِ قيادتها، وقد تأسَّى الحلفاء الأوربيون في الحرب العالمية الأولى بما صنعه خالد بن الوليد في موقعة اليرموك من توحيد القيادة، واختيار الموقع المناسب للمعركة[(٣)].



صورة (٣٠) خوذة

وكانت الدولة تتعهَّد الجند بكل ما يحتاجون إليه من سلاح ومؤن، وكان الجيش يتألَّف من الفرسان والرَّجَّالة، وكانت هناك أنواع عِدَّة من الأسلحة؛ فكان منها الأسلحة الفردية الخفيفة، مثل: السيوف، والرماح، والأقواس، والسهام بأنواعها. والأسلحة الجماعية الثقيلة؛ مثل: المجانيق[(٤)] والدبابات التي كان يحتمي المحاربون بداخلها. وأسلحة وقاية الجسم من ضربات العدُوِّ المختلفة؛ مثل: الخوذات، والدروع، والتروس. وكانت هناك كذلك

---

(١) (الصف: ٤).

(٢) كمال عناني إسماعيل: دراسات في تاريخ النظم الإسلامية ص١٦٧.

(٣) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص١٥٩.

(٤) آلات تستخدم في قذف كتل الحجارة على أسوار المدن.

الأسلحة الكيميائية؛ حيث برع المسلمون في استخدام النار الإغريقية وطوَّروها، واكتشفوا في ذلك موادَّ حارقة ومتفجِّرة، ولما كان الخيل سلاحًا مهمًّا من أسلحة الجيش الإسلامي؛ فقد اهتمَّ المسلمون بتربيتها وتدريبها، كما اهتمُّوا بوقاية خيولهم أثناء الحروب، فألبسوها دروعًا تسمَّى تجافيف تُغَطِّي أبدانها، وتصدُّ عنها إصابات الأعداء[(١)].

وقد استخدم المسلمون منذ النبي ﷺ ما يُعرف بآلة «الدبابة» وهي آلة تُستخدم في ثقب حوائط الأماكن المحصَّنَة وتدميرها؛ فقد ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» أن «نفرًا من الصحابة دخلوا تحت دبابة، ثم زحفوا ليحرقوا جدار أهل الطائف..»[(٢)].

واهتم الأمويون بصناعة المجانيق، حتى استطاع الحجاج بن يوسف الثقفي صُنْعَ منجنيق أسماه (العروس)، يحتاج إلى خمسمائة رجل لخدمته والعمل عليه، وقد سلَّم عددًا من هذه المنجنيقات إلى ابن عمه المجاهد القائد محمد بن القاسم الثقفي[(٣)]، ففتح بها مدينة الدَّيبُل (كراتشي) عام ٨٩هـ، وعدة مدن أخرى في وادي السند[(٤)].

وقد استحدث الجيش الإسلامي فرقة تُسمى بالنفَّاطة، وهم الذين يستخدمون النفط في الحرب من على أظهر الخيل، أو تعبئته ورميه في قارورات على العدوِّ، وانتشرت هذه الفرقة منذ العصر العباسي، وكثر الاعتماد عليها في وقت الحروب الصليبية، وقد ذكر ابن كثير في حوادث عام ٥٨٦هـ أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت ٦٢٢هـ) أرسل للقائد صلاح الدين الأيوبي «أحمالاً

صورة (٣١) نموذج للمجانيق

(١) انظر: كمال عناني إسماعيل: دراسات في تاريخ النظم الإسلامية ص١٧٢-١٧٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٩٩.

(٣) محمد بن القاسم: محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي، (٦٢ - ٩٨هـ/ ٦٨١ - ٧١٧م)، فاتح السند وناشر الإسلام هناك. انظر الأعلام للزركلي ٦/ ٣٣٤.

(٤) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٣٦٢.

من النفط والرماح ونفَّاطة ونقَّابين كل منهم متقن في صنعته غاية الإتقان»[١].

والعجيب أن الجيش الإسلامي أول من استخدم البارود، وقد عرفه المسلمون قبل الغربيين، وليس كما يزعم بعض المستشرقين، أن الأوربيين قد استخدموه في حروبهم وعرفوه قبل المسلمين، فقد تمَّ استعماله لأول مرة في مصر، وذلك لتوافر مادة النطرون بكثرة فيها، وقد ذكر المقريزي في حوادث عام ٧٢٧هـ أن البارود قد استُعْمِل بجوار النفط في حفل زفاف ابنة سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون، فقال: «وعمل قجليس في القلعة برجًا من بارود ونفط»[٢]. والظاهر أن المسلمين قد عرفوه قبل ذلك التاريخ بمدة كافية، فقد ذكر ابن خلدون أن المرينيين في المغرب استخدموه في حروبهم، خاصة في فتحهم لمدينة سجلماسة، فذكر أن سلطانهم يعقوب بن عبد الحق قد نصب على المدينةِ «هندام النفط القاذف بحصى الحديد، ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارئها!»[٣].

وكانت هذه الحادثة عام ٦٧٢هـ، ومما يبدو أن المسلمين قد عرفوا «المدفع» في حروبهم- كما يذكر ابن خلدون هنا- منذ القرن السابع الهجري، فاستخدموا حصى الحديد (القنابل الصغيرة)، التي كانت تنطلق بقوة البارود المفزعة؛ ولذلك تعجَّب ابن خلدون من هذه القوة، وهو ما يبدو في وصفه السابق.

واستخدم المماليك المدافع بكثرة في حروبهم، وجعلوا منها أنواعًا متعددة؛ فمنها المدفع أو المكحل الكبير، ومنها المدفع الصغير، وقد وصف لنا القلقشندي في «صبح الأعشى» مكاحل البارود، فقال: «وهي المدافع التي يُرْمَى عنها بالنفط، وحالها مختلف، فبعضها يُرْمَى عنه بأسهم عظام، تكاد تخرق الحجر ببندق، وبعضها يَرْمِي عنه من حديد من زنة عشرة أرطال بالمصري إلى ما يزيد على مائة رطل، وقد رأيتُ بالإسكندرية في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين في نيابة الأمير صلاح الدين بن عرام رحمه الله، بها مدفعًا قد صُنِعَ من نحاس ورصاص، وقُيِّد بأطراف الحديد، رمي عنه من الميدان ببندقة

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٤٠٩.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/ ١٠١.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧/ ١٨٨.

من حديد عظيمة محماة، فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر وهي مسافة بعيدة»[١].

وبناء على قول القلقشندي السابق، نرى أن هناك نوعين من المدافع؛ نوع تخرج منه السهام الكثيفة، غاية في السرعة والقوة، ونوع آخر تخرج منه البنادق، أو ما يُسمى بكريات الحديد الملتهبة، وكلا النوعين يُلقي قذيفته بسرعة بالغة، وعلى مسافات بعيدة، ومشاهدة القلقشندي هذه تمت في حدود عام ٧٧٥هـ؛ مما يُدلل على أسبقية ابتكار المسلمين لآلات الحرب منذ فترة مبكرة جدًّا.

هذا، ولا يمكن لأحد أن يُنكِر تاريخ انتصارات المسلمين في حضارتهم على قوى تَفُوقُهم عددًا وعُدَّة، في مواقع متعدِّدَة وفاصلة، وهو ما يعكس مكانة وطبيعة الجيش في الحضارة الإسلامية؛ من حيث التنظيم العلمي المدروس، والتخطيط الذكي، والاستعداد الدائم، والعُدَّة العسكرية المبتكرة والمتواكبة مع العصور المختلفة.

مفاهيم جديدة عن العسكرية

تميَّزت العسكرية الإسلامية عن غيرها بعدة مزايا ومبادئ، لم يشهدها العالم قديمًا أو حديثًا، ومن أهمها: إيمان القائمين عليها بالهدف، وتصميمهم على بلوغه، وقد أعطى النبي ﷺ من نفسه القدوة والمثل في ذلك؛ حين رفض كل عروض قريش للعدول عن حمل رسالة الإسلام وتبليغها للعالمين، فقال رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب: «**يَا عَمِّ، وَاللهِ! لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ وَأَهْلَكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ**»[٢]. كما وقف الصِّدِّيق أبو بكر نفس الموقف، عندما منع بعض المسلمين الزكاة، وهو ركن من أركان الإسلام، فقال: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يُؤَدُّونه إلى رسول الله ﷺ لأُقَاتِلَنَّهم على منعها؛ إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلنَّ من فَرَّق بين الصلاة والزكاة»[٣]. وعلى هذا التصميم والإصرار سار القادة المسلمون، فكانت الشهادة في سبيل نشر دين الله أحبَّ إليهم من الحياة، فكان ذلك المفتاح الأول من مفاتيح تحقيق النصر لخططهم العسكرية؛ لأنهم آمنوا بأن النصر من عند الله؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٢/ ١٥٣.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٠١

(٣) أبو الربيع الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ٣/ ٧.

النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[١].

ولم تكن الحرب في الإسلام حربًا عدوانية من أجل السلب والنهب، أو من أجل مكسب دنيوي زائل، بل لتكون كلمة الله هي العليا؛ لذلك كانت همة المجاهدين تهون أمامها الجبال، ورُوحهم المعنوية تتحطَّم على صخرتها الصعاب؛ لقوله تعالى: **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**[٢]، فكانت هذه الروح المعنوية القوية - التي لا حدود لها - من أقوى العوامل التي أَثَّرت على نجاح العسكرية الإسلامية؛ لذلك يقول **عبادة بن الصامت للمقوقس** عظيم القبط:

«إنما رغبتنا وهمَّتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدوًّا ممن حارب الله؛ لرغبة في الدنيا، ولا حاجة للاستكثار منها، إلا أنَّ الله ﷻ قد أحلَّ ذلك لنا، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً، وما يُبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب، أم كان لا يملك إلا درهمًا؛ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها، يسدُّ بها جوعته ليلته ونهاره، وشَمْلة[٣] يلتحفها؛ وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى، واقتصر على ما بيده، ويبلغه ما كان في الدنيا؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء؛ إنما النعيم والرخاء في الآخرة؛ بذلك أمرنا الله، وأمرنا به نبينا، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا في الدنيا إلا ما يُمْسِك جوعته، ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه، وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه الشهادة، وألا يَرُدَّه إلى بلده، ولا إلى أرضه، ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هَمٌّ فيما خلفه، وقد استودع كل واحد مِنَّا ربه أهله وولده، وإنما همنا أمامنا»[٤].

وتميزت العسكرية الإسلامية كذلك بالرُّوح الجماعية التي يشعر معها كل إنسان في المجتمع الإسلامي أنه مسئول عن تحقيقها؛ مصداقًا لقوله تعالى: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾**[٥].

---

(١) (آل عمران: ١٢٦).

(٢) (البقرة: ١٩٠).

(٣) الشَّمْلة: مِئْزَرٌ من صوف أو شَعَر يُؤْتَزَرُ به. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة شمل ١١/ ٣٦٤.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١/ ٤.

(٥) (آل عمران: ١٠٣).

ولقول رسوله ﷺ: «يَدُ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ»[١]. ولذلك نجد الحباب بن المنذر يقول لرسول الله ﷺ في غزوة بَدْر، عندما رأى أن الموضع الذي نزل فيه المسلمون لن يُحقِّق لهم نصرًا مؤكَّدًا على عدوِّهم: يا رسول الله، أرأيتَ هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكَهُ الله، ليس لنا أن نُقَدِّمه ولا نتأخَّر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: «بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ». فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب[٢]، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ». فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلُبِ، فغوِّرت، وبني حوضًا على القليب الذي نزلَ، فمُلِئ ماءً ثم قذفوا فيه الآنية»[٣].

ولم يكن تحرُّك المسلمين لتجهيز جيش العسرة في غزوة تبوك إلا انطلاقًا من شعورهم بالروح الجماعية التي تربط المجتمع المسلم، ولم تشهد أي حضارة من الحضارات الأخرى مثل هذه الروح الجماعية الرائعة في البذل والعطاء؛ لتحقيق المهمة العسكرية التي أقرَّتها قادتهم؛ حيث تسابق المسلمون في إنفاق الأموال وبذل الصدقات، كان عثمان بن عفان قد جهز عيرًا للشام، مائتا بعير بأقتابها[٤] وأحلاسها[٥]، فتصدَّق بها، ثم تصدق بمائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها، ثم جاء بألف دينار فنثرها في حجر رسول الله ﷺ... ثم تَصَدَّق وتَصَدَّق، حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس، سوى النقود، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كلِّه - وكانت أربعة آلاف درهم - ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله، وهو أول من جاء بصدقته. وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وأما طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة فكلهم جاءوا بمال، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وَسْقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها،

---

(١) الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة (٢١٦٦)، والنسائي (٤٠٢٠)، وابن حبان (٤٥٧٧)، والحاكم (٣٩٩)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (١٨٤٨).

(٢) القُلُب: جمع قليب، وهو البئر، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قلب ١/ ٦٨٥.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٦٢٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤٠٢، والسهيلي: الروض الأنف ٣/ ٦٢، والطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٩.

(٤) أقتاب جمع قتب، وهو الرحل الصغير على قدر سنام البعير، المعجم الوسيط، مادة قتب ص٧١٤.

(٥) الحلس: كساء غليظ، يلي ظهر البعير. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حلس ٦/ ٥٤.

حتى كان منهم من أنفق مُدًّا أو مدين، لم يكن يستطيع غيرها، وبعثت النساء ما قدرن عليه من مسك، ومعاضد، وخلاخل، وقراط، وخواتم[(١)].

وتأتي العلاقة المتميزة بين القائد وجنوده عاملاً من أهم عوامل نجاح العسكرية الإسلامية؛ فكان رسول الله ﷺ شديد الحرص على إقامة جسور الحب والثقة بينه وبين جنوده، فيُسَمِّي كل واحد منهم باسم محبب إلى نفسه، فيقول عن أبي عبيدة: «**لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**»[(٢)]. وعن الزبير بن العوام: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ**». وكان ﷺ يشاركهم في القيام بمهامهم الدفاعية والهجومية، كما فعل في غزوة الأَحْزَاب، وعلى نهجه سار القادة من بعده ﷺ، يعيشون بين جنودهم في تواضع؛ لذلك يصفهم رسول المقوقس بقوله: «رأيت قومًا الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على الأرض، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد من العبد»[(٣)].

ابتكارات في ميدان المعركة:

أما الإبداع والابتكار فميزة رائدة للعسكرية الإسلامية، وما حدث في معركة **القادسية** - عندما فوجئ المسلمون في اليوم الأول للمعركة بظهور الفيلة في مقدمة جيش الفرس - يدلُّ دلالة واضحة على الإبداع في التخطيط العسكري الإسلامي؛ حيث كانت الفيلة بحجمها وصراخها المرتفع تُخيف خيول المسلمين، فتتراجع الخيل أمامها، وبسرعة خاطفة تشاور قادة المسلمين، وأعدُّوا خطة للتغلب على الفيلة، أرسل سعدٌ إلى عاصم بن عمرو التميمي فقال: يا معشر تميم، ألستم أصحاب الإبل والخيل؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة؟ قالوا: بلى والله. ثم نادى في رجال من قومه رماة، وآخرين لهم ثقافة (يعني حذق وحركة)، فقال لهم: يا معشر الرماة، ذُبُّوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل. وقال: يا معشر أهل الثقافة، استدبروا الفيلة فقَطِّعوا وُضُنَها (يعني أحزمتها)؛ لتسقط توابيتها التي تحمل

(١) ابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ٦، بتصرف.
(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران (٤١٢١).
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١/ ١١.

المقاتلين، وخرج يحميهم والرحى تدور على أشدِّها، وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد، وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة، فأخذوا بأذنابها وذباذب توابيتها (يعني ما يعلق بها)، فقطعوا وُضُنَها، وارتفع عواء الفيلة، فما بقي لهم يومئذ فيل إلا أُعْرِيَ، وقُتِلَ أصحابها[١].

ومن أشهر الخطط العسكرية المبدعة في التاريخ الإسلامي خطة محمد الفاتح في فتح القسطنطينية، فقد وصل بسفنه المحملة بالمدافع الضخمة إلى مضيق الدردنيل، فوجد أن البيزنطيين قد سدُّوا المضيق بمجموعة من السلاسل الضخمة التي تمتد بين الشاطئين؛ تمنع السفن من العبور، ولكن هذا لم يَفُتَّ في عضد هذا القائد العبقري، ولم يُوقف تَقَدُّمه، فقد قرر أن يقوم بأكبر عملية نقل أسطول بحري في التاريخ، وقام الجيش كله بسحب السفن على أعمدة خشبية وضعها على البَرِّ، والتفَّ من خلف السلاسل، ونزل الأسطول في البحر مرَّة أخرى، وفوجئ البيزنطيون بحركة الالتفاف التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ كله، فلأول مرَّة في التاريخ العسكري يجرؤ قائد على نقل سفنه البحرية، بما تحمله من مدافع ثقيلة ومؤن وعتاد، ويصعد بها قمة الجبل، ثم يهبط بها إلى البحر ليواجه عدوه، وكانت نتيجة المفاجأة أن سقطت المدينةُ في قبضته بأقل الخسائر[٢].

هذه بعض مزايا العسكرية الإسلامية، والتي تدلُّ على سبق العقيدة التي تنطلق منها الحضارة الإسلامية ورقي أبنائها.

البحرية الإسلامية:

لم يكن للعرب قبل الإسلام وفي صدره معرفة كبيرة بشئون البحر؛ وذلك لبداوتهم واقتصارهم في تجارتهم على الطرق البريَّة الصحراويَّة، ويُعَدُّ العلاء بن الحضرمي والي البحرين أوَّل مَنْ ركب البحر في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، فقد أَحَبَّ أن يُؤَثِّرَ في الفرس أثرًا يُعِزُّ الله به الإسلام، فندب أهل البحرين في سنة (١٧هـ) لفتح بلاد فارس، فبادروا، فحملهم في السفن بغير إذن عمر ﷺ، وعَبَرَ بهم الخليج العربي، ثم عادوا إلى البصرة مُحَمَّلِينَ بالغنائم بعد أن فَقَدُوا سفنهم التي عبروا عليها، وقد شقَّ ذلك على عمر ﷺ،

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٤١٢.

(٢) علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ص٨٨.

الذي كان يكره ركوب البحر، فعزل العلاء[١].

وبعد التوسُّع في حركة الفتوحات الإسلامية، وفتح الشام ومصر، أراد المسلمون مجاراة الروم في ركوب البحر، وحماية السواحل والبلاد التي فتحوها، ودَفْعَ أخطار الروم عنها، وكان من ذلك أنَّ معاوية بن أبي سفيان ﷺ كتب وهو بحمص إلى عمر بن الخطاب ﷺ يستأذنه في غزو الروم بحرًا، فأبى عمر، فألحَّ عليه معاوية، وأرسل إليه يقول: «إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم». يريد بذلك أنهم قريبون منهم، وهو ما أَثَّرَ في عمر، الذي كتب إلى عمرو بن العاص ﷺ أن يَصِفَ له البحر وراكبه، فكتب إليه عَمرو: «إني رأيتُ خَلْقًا كبيرًا يركبه خَلْقٌ صغير، ليس إلاَّ السماء والماء، إن رَكَدَ خرق القلوب، وإن تحرَّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين بالنجاة قلَّةً، والشكُّ كثرةً، هم فيه كدود على عود، إن مال غَرِقَ، وإن نجا بَرِقَ»[٢]. فكتب عمر إلى معاوية: «والذي بعث محمدًا بالحقِّ! لا أحمل فيه مسلما أبدًا... وتالله! لمسلم أحبُّ إليَّ مما حَوَتِ الروم، فإيَّاك أن تَعْرِضَ لي وقد تَقَدَّمت إليك، وقد عَلِمْتَ ما لقي العلاء مني، ولم أَتَقَدَّمْ إليه في مثل ذلك»[٣].

فلم تكن للمسلمين قوَّة بحرية حتى عهد عمر بن الخطاب ﷺ، والذي انتهج سياسة دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطي؛ تتمثَّل في إقامة الحصون والأربطة على السواحل والثغور.

ولما وَلِيَ عثمان بن عفان ﷺ الخلافة «لم يزل به معاوية ﷺ حتى عزم عثمان على ذلك بآخرة، وقال: لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيِّرهم، فمَنِ اختار الغزو طائعًا فاحمله وأَعِنْهُ. ففعل»[٤].

ولما استقرَّ الأمر للمسلمين، وشمخ سلطانهم، وخضع لهم غيرهم، وتقرَّب كلُّ ذي

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ٩٦، ٩٧.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ٢/ ١٣٠. وبَرِقَ: يجوز كسر الراء وفتحها، دَهِشَ وتحيَّر. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة برق ١٠/ ١٤.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٣١٦.

(٤) المصدر السابق، ٣/ ٣١٧.

صَنْعَةٍ إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية[1] في حاجاتهم البحرية أُمَمًا تقوم عليها، وتكرَّرَت ممارستهم للبحر وثقافته؛ استحدثوا بُصَرَاء بها، وشرعوا إلى الجهاد فيه، وأنشئوا السفن فيه والشواني[2]، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأمطوها[3] العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر، واختصُّوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافَّته؛ مثل: الشام، وإفريقية، والمغرب، والأندلس[4].

ويذكر التاريخ بكل فخر وإكبار معارك المسلمين البحرية الأولى؛ مثل: غزو قبرص، وموقعة ذات الصواري البحرية سنة (٣٤هـ/ ٦٥٤م)، والتي غَيَّرَتْ مسار التاريخ البحري، وحسمت السيادة البحرية في حوض البحر المتوسط لصالح المسلمين، وبرز المسلمون بعدها كقوَّة عسكرية جديدة ومُؤَثِّرَة في عالم البحر، وتحوَّل لقب هذا البحر من (بحر الروم) أو (البحيرة الرومية) إلى بحيرة إسلامية، وقد استحكم نفوذ الأسطول الإسلامي عندما فتح المسلمون الأندلس، وأصبحت سفنهم تَعْبُرُ في أمان بين سواحل الشام ومصر شرقًا، وإلى الأندلس غربًا.

صناعة السفن:

منذ أن أدرك المسلمون قيمة البحرية كسلاح حربي مهمٍّ - وخاصَّة بعد الانتصار الكبير في ذات الصواري - شرعوا في إنشاء العديد من دُورِ صناعة السفن الحربية، وأُنْشِئَتْ لأوَّل مَرَّة دارٌ لصناعتها في جزيرة الروضة بمصر سنة (٥٤هـ/ ٦٧٤م)، أُطْلِقَ عليها: (دار الصناعة)[5]، كما أصبح هناك داران لصناعة السفن في بلاد الشام في عكا وصُور، ثم في إفريقيا والأندلس، وقد «انتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتي مَرْكَبٍ أو نحوها، وأسطول إفريقيا كذلك مثله، أو قريبًا منه»[6].

هذا، وأنشأ المسلمون أسطولاً تِجَارِيًّا إلى جانب الأسطول الحربي، وكان الاهتمام

(١) النوتي: الملاح الذي يدير السفينة في البحر. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نوت ٢/ ١٠١.
(٢) الشونة: المركب المعدُّ للجهاد في البحر. انظر: المصدر السابق ١٣/ ٢٤٣.
(٣) أمطوها: أي جعلوهم يمتطونها، ويركبونها.
(٤) ابن خلدون: المقدمة ١/ ٢٥٣.
(٥) انظر: أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص ١٦٦.
(٦) ابن خلدون: المقدمة ١/ ٢٥٣.

بالملاحة التجارية في البحار الشرقية والجنوبية قد ازداد بعد تَحَكُّم المسلمين في التجارة الدولية، وقد تعدَّدَتْ أنواع السفن الإسلامية الحربية والتجارية بما يُنَاسِبُ طبيعة البحار والمحيطات؛ فكان هناك: الشُّونَة، والحَرَّاقة[1]، والبطسة، والغراب، والشلندية، والحمالة، والطريدة، وهي تختلف من حيث الحجم والوظيفة وخفَّة الحركة، وأكبرها الشُّونَة التي تحمل الجنود والأسلحة الثقيلة، وأصغرها الطريدة وهي سفينة صغيرة سريعة الجري؛ أمَّا الأسلحة فمنها الكلاليب التي استعملها المسلمون في ذات الصواري لربط سفنهم بسفن الرومان، ومنها النفاطة وهي مزيج من السوائل الحارقة، تُطْلَقُ من أسطوانة في مقدِّمَة السفينة، وتسمَّى النار اليونانية، هذا علاوة على الأسلحة البرية التقليدية[2].

وليس أدلُّ على العبقرية البحرية من وجود مؤلَّفات إسلامية عن فنون الملاحة، ومن أشهرها: (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد)، لابن ماجد (ت بعد ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م) الملقَّب بأسد البحر، وأرجوزته التي بعنوان: (حاوية الاختصار في أصول علم البحار)[3]، وكذلك (المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر)، و(العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية) لسليمان المهري (ت نحو ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م) الملقَّب بمعلم البحر[4].

وكذلك فإن القاموس البحري حافل بالاصطلاحات البحرية الإسلامية التي وَجَدَتْ طريقها إلي اللغات الأوربية، فمن ذلك: (Admiral) وأصلها أمير البحر، و(Cable) أصلها حبل، و(Resif) أصلها رصيف، و(Darsinal) أصلها دار الصناعة.

دستور الأخلاق العسكرية:

لا نعجب إذا عرفنا أن المسلمين أول من وثَّقوا العلاقة بين الحرب والأخلاق، فلم يكونوا يتشبهون بقوات الفرس والروم في حروبهم، ولا شكَّ أن هذا من أفضل ما قدمته الحضارة الإسلامية للإنسانية كلها، فقد اهتمت بتربية الضمير، ووضع الوازع الأخلاقي

---

(١) الحَرَّاقة: ضرب من السفن فيها مرامي نيران يُرمى بها العدوّ في البحر. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حرق ١٠/ ٤١.

(٢) انظر: أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص ١٦٩، ١٧٠، وكمال عناني إسماعيل: دراسات في تاريخ النظم الإسلامية ص ١٨٣-١٨٧.

(٣) الزركلي: الأعلام ١/ ٢٠١.

(٤) المصدر السابق ٣/ ١٢١.

والإنساني في التعامل مع الآخرين: سواء كانوا متحاربين أم مسالمين.

ولم تهدف الحضارة الإسلامية في أثناء نشر الدعوة الإسلامية بين أبناء الأمم الأخرى، إلى إراقة الدماء، وقتل الأبرياء، كما فعل المتصارعون من أبناء الفرس والروم، أو التتار الذين أبادوا من أمامهم كل شيء، فقتلوا الكبير والصغير، والرجل والمرأة، وعقروا الدواب، وأجهضوا الحوامل، وفعلوا ما لا يُستساغ قبوله من بشر!

ولذلك كان الرسول ﷺ يعلم أصحابه ويوجِّهُهم فيقول لهم مربيًا: «**لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ..**»[1]. فالمسلم بطبيعة تربيته الأخلاقية التي يتربى عليها من خلال القرآن الكريم وسُنَّة النبي ﷺ يكره القتل والدماء، ومن ثَمَّ فهو لا يبدأ أحدًا بقتال، بل إنه يسعى بكل الطرق لتجنُّب القتال وسفك الدماء.

لهذا كان من عدله ﷺ في الحروب أنه كان يقتصر على قتل المحاربين، ولا يقتل المدنيين الذين لا يشاركون في الحرب والقتال، وقد وصَّى رسولُ الله ﷺ عبدَ الرحمن بن عوف ﷺ بذلك عندما أرسله في شعبان سنة (٦ هـ) إلى قبيلة كلب النصرانية الواقعة بدومة الجندل؛ فقال له: «**اغْزُوا جَمِيعًا فِي سَبِيلِ الله، فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، لاَ تَغُلُّوا، وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تُمَثِّلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا**»[2].

ولقد كانت هذه الأخلاق دُستورًا ركينًا في حروب الجيوش الإسلامية مع غير المسلمين، وكانت الحروب الإسلامية تتميز بأنها غير دموية، وكان القواد العسكريون المسلمون ينتهزون الفرص لوقف القتال وحماية الأرواح، وكان قدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ ولقد قمتُ بإحصاء عدد الذين ماتوا في كل الحروب النبوية، سواء من شهداء المسلمين، أو من قتلى الأعداء، ثم قمت بتحليل لهذه الأعداد، وربطها بما يحدث في عالمنا المعاصر، فوجدت عجبًا!

لقد بلغ عدد شهداء المسلمين في كل معاركهم أيام رسول الله ﷺ، وذلك على مدار

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمس (٢٨٠٤)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء (١٧٤٢).

(٢) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث... (١٧٣١)، وأبو داود (٢٦١٣)، والترمذي (١٤٠٨)، وابن ماجه (٢٨٥٧)، والدارمي (٢٤٣٩)، وأحمد (١٨١١٩)، والحاكم (٨٦٢٣).

عشر سنوات كاملة، ٢٦٢ شهيدًا تقريبًا، وبلغ عدد قتلى أعدائه ﷺ حوالي ١٠٢٢ قتيلاً، وقد حرصت في هذه الإحصائية على جمع كل من قُتِل من الطرفين حتى ما تم في حوادث فردية، وليس في حروب مواجهة، كما أنني حرصت على الجمع من الروايات الموثَّقة بصرف النظر عن الأعداد المذكورة، وذلك كي أتجنب المبالغات التي يقع فيها بعض المحققين بإيراد الروايات الضعيفة التي تحمل أرقامًا أقلَّ[1]، وذلك لتجميل نتائج الحروب النبوية[2].

وبذلك بلغ العدد الإجمالي لقتلى الفريقين ١٢٨٤ قتيلاً فقط!

ولكي لا يتعلل أحدٌ بأن أعداد الجيوش آنذاك كانت قليلة؛ ولذا جاء عدد القتلى على هذا النحو، فإنني قمت بإحصاء عدد الجنود المشتركين في المعارك، ثم قمت بحساب نسبة القتلى بالنسبة إلى عدد المقاتلين، فوجدت ما أذهلني! إن نسبة الشهداء من المسلمين إلى الجيوش المسلمة تبلغ ١٪ فقط، بينما تبلغ نسبة القتلى من أعداء المسلمين بالنسبة إلى أعداد جيوشهم ٢٪! وبذلك تكون النسبة المتوسطة لقتلى الفريقين هي ١,٥٪ فقط!

إن هذه النسب الضئيلة في معارك كثيرة بلغت ٢٥ أو ٢٧ غزوة[3]، و٣٨ سرية[4]، أي أكثر من ٦٣ معركة، لمن أصدق الأدلة على عدم دموية الحروب في عهده ﷺ.

ولكي تتضح الصورة بشكل أكبر وأظهر فقد قمت بإحصاء عدد القتلى في الحرب العالمية الثانية – كمثال لحروب «الحضارات» الحديثة، وخاصَّة أن الدول التي اشتركت فيها ما زالت تدَّعي أنها رائدة للحضارة ولحقوق الإنسان! ثم قمت بحساب نسبة القتلى بالقياس إلى أعداد الجيوش المشاركة في القتال، فصُدِمْتُ بمفاجأة مذهلة! إن نسبة القتلى في هذه الحرب الحضارية بلغت ٣٥١٪!

---

(١) اعتمدت في حصر الأرقام على ما ورد أولاً في كتب الصحاح والسنن والمسانيد، ثم على روايات كتب السيرة بعد توثيقها، كسيرة ابن هشام، وعيون الأثر، وزاد المعاد، والسيرة النبوية لابن كثير، والطبري، وغيرهم.

(٢) كما يذكر بعضهم أن شهداء حادثة بئر معونة هم سبعة وعشرون شهيدًا، بينما الصواب سبعون شهيدًا، أو كما يُسقط بعضهم قتلى بني قريظة من الحساب، بحجة أنهم لاقوا ما يستحقون نتيجة خيانتهم، بينما الصواب أن نثبتهم لأنها كانت معركة حقيقية، بصرف النظر عن أسبابها، وهكذا.

(٣) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ١/ ١٢٥، وابن حزم: جوامع السيرة ١/ ١٦.

(٤) ابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ٤٣٢.

ومـن جديـد.. إن الأرقـام لا تكـذب، لقـد شـارك في الحـرب العالميـة الثانيـة ١٥,٦٠٠,٠٠٠ جندي (خمسة عشر مليونًا وستمائة ألف)، ومع ذلك فعدد القتلى بلغ ٥٤,٨٠٠,٠٠٠ قتيل (أربعة وخمسين مليونًا وثمانمائة ألف)! أي أكثر من ثلاثة أضعاف الجيوش المشاركة! وتفسير هذه الزيادة هو أن الجيوش المشاركة جميعًا – وبلا استثناء – كانت تقوم بحروب إبادة للمدنيين، وكانت تُسْقِط الآلاف من الأطنان من المتفجرات على المدن والقرى الآمنة، فتبيد البشر، وتُفني النوع الإنساني، فضلاً عن تدمير البنى التحتية، وتخريب الاقتصاد، وتشريد الشعوب!

لقد كانت كارثة إنسانية بكل المقاييس، وليس خافيًا على أحد أن المشاركين في هذه المجازر كانت الدول التي تُعرف آنذاك – والآن – بالدول المتحضرة الراقية! كبريطانيا وفرنسا وأمريكا والاتحاد السوفيتي والصين وألمانيا وإيطاليا واليابان!

وسار على نهج النبي ﷺ المسلمون من بعده، وظهر ذلك واضحًا في كلمات أشدِّ الصحابة حرصًا على اتباع سنَّته، وهو الصِّدِّيقُ ﷺ، وذلك عندما وصَّى جيوشه المتجهة إلى فتح الشام، وكان مما جاء في هذه الوصية: «**ولا تفسدوا في الأرض..**». فهذا شمول عظيم لكل أمر حميد، فالصديق ﷺ ينهى بوضوح عن كل إفساد في الأرض أيًّا كانت صورته، وجاء أيضًا في وصيته «**ولا تغرقنَّ نخلاً ولا تحرقُنَّها، ولا تعقروا بهيمة، ولا شجرة تثمر، ولا تهدموا بيعة..**»[1]. فهذه تفصيلات توضح المقصود من وصية عدم الإفساد في الأرض؛ لكيلا يظنُّ قائد الجيش أن عداوة القوم تُبيح بعض صور الفساد، فالفساد بشتى صوره أمر مرفوض في الإسلام.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ إذا بعث أمراء الجيوش أوصاهم بتقوى الله، ثم يقول عند عقد الألوية: «بسم الله، وعلى عون الله، وامضوا بتأييد الله بالنصر، وبلزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ﴿**وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[2]، لا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثِّلوا عند القدرة، ولا تُسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرمًا ولا امرأة ولا

---

(١) البيهقي في سننه الكبرى (١٧٩٠٤).
(٢) (البقرة: ١٩٠).

وليدًا، وتوقَّوْا قتلهم إذا التقى الزحفان، وفي شنِّ الغارات. ولا تغلُّوا عند الغنائم ونزِّهوا الجهاد عن عرض الدنيا، وأبشروا بالرباح في البيع الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم»[1].

إن اهتمام الإسلام وحضارته بالجانب الأخلاقي في جميع الأنشطة: السلمية والحربية، ليُؤَكِّد على أن الحضارة الإسلامية، قاعدتُها الأخلاق، ودُعامتها الرحمة، وأغصانها العفو، وثمرتها المؤاخاة، فمع التقدم العسكري الرائع الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية، فإنها لم تُهن شعوب الأمم الأخرى، فاحترمت عقائدهم، وتَقَبَّلَتْهم كمواطنين أحرار داخل أرجاء الدولة الإسلامية، وليس أدلُّ على ذلك من تعامل صلاح الدين مع أسرى الصليبيين، وأمرائهم، من العفو والرحمة، حتى إن الأوساط العلمية والشعبية ما زالت تتذكر صلاح الدين وأدواره الأخلاقية قبل العسكرية.

* * *

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/ ١٠٧.

الفصل الرابع

مؤسسة القضاء

تتملك الدهشة كلاً مِنَّا حينما يقرأ في تاريخ مؤسسة القضاء الإسلامية، وإسهاماتها الواضحة في مسيرة الحضارات الإنسانية كلها؛ لقد أتت هذه المؤسسة بكمٍّ هائل من التنظيم والدقة والإبهار، لم تعرفه أي مؤسسة قضائية كانت قبل الإسلام، أو حتى بعد الإسلام إلا منذ عهد قريب جدًّا، ولا ريب في ذلك؛ فقد استقت هذه المؤسسة أحكامها وتشريعاتها من الشريعة الإسلامية الغرَّاء، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فكانت تطبيقات هذه المؤسسة عبر مئات السنين تراثًا حضاريًّا زاخرًا، استفادت منه الأمم الغربية في واقعها، فتقدَّمت وعَلَتْ، وتمسكنا نحن ببعضه، فأصبحنا تابعين بعدما كنا أصحاب المكانة والمقدمة، وعلى كلٍّ فسوف نعرض هذه المؤسسة من خلال المباحث التالية:

- المبحث الأول: الحرص على العدل كمبدأ أساسي لبناء الأمة
- المبحث الثاني: ابتكار الوسائل التي تكفل العدل للقاضي
- المبحث الثالث: ابتكار مؤسسة القضاء وتطويرها
- المبحث الرابع: معايير اختيار القضاة واختبارهم
- المبحث الخامس: تحديد مهام القضاة
- المبحث السادس: ظهور القضاء المتخصص
- المبحث السابع: الرقابة على القضاء
- المبحث الثامن: خضوع الخلفاء والأمراء لسلطة القضاء
- المبحث التاسع: نشأة ديوان المظالم وتطوره

المبحث الأول

الحرص على العدل كمبدأ أساسي لبناء الأمة

إن أهم ما تميزت به الحضارة الإسلامية على غيرها من الحضارات الأخرى، أنها جاءت بمجموعة من الأنظمة القائمة على قيم تستمدُّ تعاليمها من رب العالمين، فلا تتغير ولا تتبدل ولا تخضع للأهواء؛ لذلك فإن البشرية قبل وجود الحضارة الإسلامية لم تعش في هذه الحالة من الصفاء النفسي والروحي، التي أضفتها الحضارة الإسلامية على العالم؛ ولذلك كانت هذه القيم بمثابة الإطار الجذاب الذي انبهرت به الإنسانية، من خلال رؤيتها للتطبيق الفعلي لحضارتنا العريقة.

وأكثر ما تميزت به المؤسسة القضائية الإسلامية أنها جعلت العدل غايتها في التعامل مع كل من يقف أمام مؤسساتها، ولكن لم تكن مؤسسة القضاء وحدها التي تمتعت بهذا المبدأ، بقدر ما تمتعت به الأمة الإسلامية كلها؛ إذ كان الحرص على العدل وتطبيقه، مبدأً أساسًا في بناء الحضارة الإسلامية.

وقد استقى المسلمون هذه القيمة العظيمة من خلال الوحي الرباني الكريم، من مصدريه: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ ولذلك فقد روى أبو ذرٍّ عن النبي ﷺ فيما روى عن الله ﷻ في الحديث القدسي أنه قال: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلاَ تَظَالَمُوا**»[1]. ومن هنا أدرك المسلمون قيمة العدل، ووجوب تطبيقها فيما بينهم.

ولم يكن تطبيق العدل فيما بين المسلمين وبعضهم فقط، بل أمرنا الله ﷻ بضرورة التعامل بالعدل مع من نكرههم ونبغضهم، وهو ما كان جديدًا في ساحة التعامل العالمي، ومن ثم قال تعالى: ﴿**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[2].

---

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

(٢) (المائدة: ٨).

بل أكد الإسلام على ضرورة التعامل بالقسط مع غير المسلمين، وحذَّر من انتقاصه حقه، أو ظلمه لضعفه، أو خيانته، فقال النبي ﷺ: «**مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا**[١]**، أَوِ انْتَقَصَهُ حَقًّا، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ؛ فَأَنَا حَجِيجُهُ** (أي: أنا الذي أخاصمه وأحاجه) **يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٢].

ولذلك حمَّل الإسلام الجماعة المسلمة مسئولية تحقيق العدل فيما بينهم، أو مع غيرهم، وقد آجرهم على ذلك، وهو ما يُخبر به النبي ﷺ بقوله: «**تَعْدِلُ بَيْنَ الاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ**»[٣].

بل الأكثر من ذلك، فقد حذَّر الإسلام المتخاصمين بعدم تزييف الحقائق، والإتيان بالحجج والأدلة التي تؤيد له وجهة نظره، وتُعينه على أخذ حق غير حقه، ولا شكَّ أن هذه التربية الإسلامية القويمة، هي مما تجعل ضمير المسلم يقظًا ضد كل شرٍّ، حذرًا من كل تدليس أو تغيير للحق؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلاَ يَأْخُذْ؛ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**»[٤].

ومن هنا، نُدرك أن الحضارة الإسلامية، إنما جاءت بالأخلاق والقيم، ورسَّخت مبدأ العدل الإلهي بين البشر في تعاملاتهم، فلا خوف من هذه الحضارة؛ إذ إنها لا تفرق بين المتخاصمين على أساس الجنس أو اللون أو الدين، ولا شك أن هذا الأمر ليقطع لدينا أي شكٍّ، ويدحض لدينا كل شُبهة قيلت أو تُقال في حق هذه الحضارة العريقة.

* * *

(١) المعاهد: أكثر ما يطلق على أهل الذمة، وقد يطلق على غيرهم من الكفار إذا صولحوا على ترك الحرب. انظر: المناوي: فيض القدير ٦/ ١٥٣.

(٢) أبو داود: كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٢)، والبيهقي (١٨٥١١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٤٤٥).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه (٢٨٢٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٩) واللفظ له.

(٤) البخاري: كتاب الحيل، باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت فقضي بقيمة الجارية الميتة... (٦٥٦٦)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (١٧٣١).

المبحث الثاني
ابتكار الوسائل التي تكفل العدل للقاضي

يُعَدُّ القضاء من أهمِّ الوظائف التابعة للخلافة، وهو من أعلى المراتب في الإسلام، ومهمَّتُه «الفصل بين الناس في الخصومات حسمًا للتداعي وقطعًا للتنازع، بالأحكام الشرعية المتلقَّاة من الكتاب والسُّنَّة»(١).

وقد نبهت السنة النبوية على ضرورة تحكيم شرع الله في القضايا المختلفة لا فرق بين كبير أو صغير، وبين أمير أو مأمور، ومن ثم ربى الإسلام في القضاة ضرورة مراقبة الله تعالى في كل الأفعال والأقوال؛ لأن الابتعاد عن الحق في إنزال الأحكام القضائية جريمة في حق المتخاصمين، وابتعاد عن نهج الله السوي؛ ولذلك حذَّر الإسلام كل من يتولى القضاء، أن يحيف عن الحق، أو يبتعد عن الصواب، فقال رسول الله ﷺ: **«الْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ؛ رَجُلٌ قَضَى بِغَيْرِ الْحَقِّ فَعَلِمَ ذَاكَ، فَذَاكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ لا يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حُقُوقَ النَّاسِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ فَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ»**(٢).

ولا شكَّ أن الاعتماد في أحكام القضاء على الكتاب والسنة، مما يضمن دقة الأحكام، وعدم اتباعها للهوى، وفي ذات الوقت يضمن وحدة الحُكْم في كل أطراف الدولة الإسلامية، وكذلك استمراريته طَوَال العصور المتعاقبة.

ومع كون الحُكْم في القضايا مُسْتَمَدًّا من القرآن والسُّنَّة، فقد كان للقاضي حقُّ الاجتهاد، فله أن يُعْمِلَ عقله في الأمور التي ليس فيها نصٌّ من القرآن، أو السُّنَّة، أو القياس، أو الإجماع، فعندئذٍ يجتهد القاضي برأيه، وله أَجْرُ الاجتهاد، فقد سمع عمرو بن العاص ﷺ رسول الله ﷺ يقول: **«إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»**(٣). والأَجْرَان هنا هما أجرُ الاجتهاد في معرفة الحقِّ،

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٢٢٠.

(٢) الترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي (١٣٢٢)، وأبو داود (٣٥٧٣)، وابن ماجه (٢٣١٥)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٤٤٤٧).

(٣) البخاري: كتاب الاعتصام بالله، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٦٩١٩)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (١٥).

وأجرُ التوصُّل إلى الحقِّ ومعرفته، أمَّا إذا أخطأ فله أجر واحد؛ وهو أجر الاجتهاد في محاولة الوصول للحقِّ، وليس عليه ذنب إن أخطأ ما دامت نِيَّتُه معرفة الحقِّ، وذلك إذا كان من أهل الاجتهاد مالكًا لأدواته.

وفي نظر الخصوم يجب الْعَدْلُ كلّ العدل بين المتخاصمين، وفي ذلك قال الرسول ﷺ يوصي عَليًّا ﷺ: «**إِذَا تَقَاضَى إِلَيْكَ رَجُلاَنِ فَلاَ تَقْضِ لِلأَوَّلِ حَتَّى تَسْمَعَ كَلاَمَ الآخَرِ؛ فَسَوْفَ تَدْرِي كَيْفَ تَقْضِي**»(١). كما يُحَتَّمُ على القاضي ألاَّ يقضي وهو غضبان؛ مِصْدَاقًا لقول الرسول ﷺ: «**لاَ يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ**»(٢).

ولكي تأخذ العدالة سبيلها كان القاضي يَتَسَلَّمُ مرتَّبًا كبيرًا، ويُمْنَعُ من أَخْذِ الهدايا(٣)، وقد قال الرسول ﷺ: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا، فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ**»(٤).

وقد كان الفصل في الخلاف بين الخصوم يحتاج في بعض الأحيان إلى معاينة الشيء المختَلَف عليه، وذلك يعود إلى تقدير القاضي، فربما ذهب وحده، وقضى بحسب ما يظهر له نتيجة الكشف، وهذا ما جعل النبي ﷺ يذهب مسرعًا لفضِّ منازعة بين المهاجرين والأنصار، ولم ينتظر حتى يأتوا إليه؛ نظرًا لصعوبة الموقف وحساسيته؛ فقد روى جابر بن عبد الله ﷺ أنه قال: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار. وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين. فَسَمَّعَهَا الله رَسُولَهُ ﷺ قال: «**مَا هَذَا؟**» فَقَالُوا: كَسَعَ رَجُلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار. وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»(٥).

---

(١) الترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء في القاضي لا يقضي بين الخصمين حتى يسمع كليهما (١٣٣١) وقال: هذا حديث صحيح. وأحمد (١٢١٠)، وحسنه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٤٣٥).

(٢) البخاري عن أبي بكرة: كتاب الأحكام، باب هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان (٦٧٣٩)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب كراهة قضاء القاضي وهو غضبان (١٦).

(٣) انظر: عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٥٣.

(٤) أبو داود عن بريدة بن الحصيب: كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في أرزاق العمال (٢٩٤٣)، وابن خزيمة (٢٣٦٩)، والحاكم (١٤٧٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٦٠٢٣).

(٥) البخاري: كتاب التفسير، باب سورة المنافقون (٤٦٢٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا (٢٥٨٤).

وشبيه بذلك ما أورده الكندي برواية محمد بن رمح أنه قال: «كان بيني وبين جار لي مشاجرة في حائط، فقالت لي أمي: امض إلى القاضي المفضل بن فضالة (تولى من عام ١٧٤ إلى ١٧٧هـ)؛ تسأله أن يأتي ينظر إلى هذا الحائط. فمضيت إليه وأخبرته، فقال: اجلس لي بعد العصر حتى أوافيك. فأتى، فدخل إلى دارنا، فنظر إلى الحائط، ثم دخل إلى دار جارنا، فنظر إليه، فقال: الحائط لجاركم. ثم انصرف»[١].

وقد كان من حق القاضي أن يستشير عند الحاجة؛ فقد حكم الإمام عليٌّ ﷺ في قضية غريبة، ولكن لَمَّا بدت أدلة جديدة واعترافات مثيرة غَيَّرَت من مسار القضية فإنه استشار ابنه الحسن؛ دلالة على جواز فعل القاضي لذلك، وهذه القضية العجيبة قد رواها الإمام ابن القيم في كتابه «الطرق الحكمية»، فقد حكى أنه في يوم من الأيام، جيء برجل إلى علي ﷺ -وكان أميرًا للمؤمنين- وقد «وُجِدَ في خربةٍ[٢] بيده سكِّينٌ متلطِّخةٌ بدمٍ، وبين يديه قتيلٌ يتشحَّط[٣] في دمه. فسأله؟ فقال: أنا قتلته. قال: اذهبوا به فاقتلوه، فلمّا ذهب به أقبل رجلٌ مسرعًا، فقال: يا قوم، لا تعجلوا. ردُّوه إلى عليٍّ. فردُّوه، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، ما هذا صاحبه، أنا قتلته. فقال عليٌّ للأوَّل: ما حملك على أن قلتَ: أنا قاتله. ولم تقتله؟ قال: يا أمير المؤمنين، وما أستطيع أن أصنع؟! وقد وقف العسس على الرَّجل يتشحَّط في دمه وأنا واقفٌ، وفي يدي سكِّينٌ، وفيها أثر الدَّم، وقد أُخِذْتُ في خربةٍ؟ فخفت ألاَّ يقبل منِّي، وأن يكون قسامةٌ[٤]، فاعترفتُ بما لم أصنع، واحتسبتُ نفسي عند الله. فقال عليٌّ: بئسما صنعتَ. فكيف كان حديثك؟ قال: إنِّي رجلٌ قصَّابٌ[٥]، خرجتُ إلى حانوتي في الغلس[٦]، فذبحت بقرةً وسلختها، فبينما أنا أسلخها والسِّكِّين في يدي أخذني

---

(١) الكندي: الولاة والقضاة ص٣٧٨، وظافر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ٢/ ٥١٥.

(٢) الخربة: موضع الخراب، وهي عكس العمران.

(٣) يتشحَّط في دمه أي: يَتَخَبَّط فيه، ويضطرب، ويتمرّغُ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة شحط ٧/ ٣٢٧.

(٤) القَسامة: هي أن يُقْسِم من أولياء الدم خمسون نفرًا على استحقاقِهم دمَ صاحبِهم، إذا وجدوه قتيلاً بين قوم ولم يُعرف قاتله، فإن لم يكونوا خمسين، أقسم الموجودون خمسين يمينًا، ولا يكون فيهم صبي ولا امرأة، ولا مجنون، ولا عبد، أو يُقسم بها المتهمون على نفي القتل عنهم، فإن حلف المدعون استحقوا الدية، وإن حلف المتهَمون لم تلزمهم الدية. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قسم ١٢/ ٤٧٨.

(٥) القَصَّابُ: الجَزَّارُ، وهي من القطع، أو أن يكون من أنه يأخذ الشاةَ بقَصَبَتِها أي بساقِها. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قصب ١/ ٦٧٤.

(٦) الغَلَس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة غلس ٦/ ١٥٦.

البول، فأتيت خربةً كانت بقربي فدخلتُها، فقضيتُ حاجتي، وعُدْتُ أريد حانوتي، فإذا أنا بهذا المقتول يتشحَّط في دمه، فراعني أمره، فوقفتُ أنظر إليه والسِّكِّين في يدي، فلم أشعر إلاَّ بأصحابك قد وقفوا عليَّ فأخذوني، فقال النَّاس: هذا قتل هذا، ما له قاتلٌ سواه. فأيقنتُ أنَّك لا تترك قولهم لقولي، فاعترفتُ بما لم أَجْنِه. فقال عليٌّ للمقرِّ الثاني: فأنت كيف كانت قصَّتك؟ فقال: أغواني إبليسٌ، فقتلتُ الرجل طمعًا في ماله، ثمَّ سمعتُ حسَّ العسس، فخرجتُ من الخربة، واستقبلتُ هذا القصَّاب على الحال الَّتي وصف، فاستترتُ منه ببعض الخربة حتَّى أتى العسس، فأخذوه وأتوك به، فلمَّا أمرتَ بقتله علمتُ أنِّي سأبُوءُ بدمه أيضًا، فاعترفتُ بالحقِّ. فقال للحسن: ما الحكم في هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن كان قد قتل نفسًا فقد أحيا نفسًا؛ وقد قال اللهّ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[١]، فخلَّى عليٌّ عنهما، وأخرج دية القتيل من بيت المال». وقد عَلَّق ابن القيم على هذه الحكاية بقوله: «وهذا - إن وقع صُلْحًا برضا الأولياء - فلا إشكال، وإن كان بغير رضاهم فالمعروف من أقوال الفقهاء: أنَّ القصاص لا يسقط بذلك؛ لأنَّ الجاني قد اعترف بما يُوجِبه، ولم يوجد ما يُسْقِطه، فيتعيَّن استيفاؤه»[٢].

وقد تمتعت مؤسسة القضاء بالهيبة، والمنزلة العليا بين الناس، فمن الآداب العامة التي تحلَّى بها القضاة، أن الناس كانت تلتزم السكوت في مجلس القاضي؛ احترامًا له، وتقديرًا لمنزلته؛ ففي ترجمة ابن ذكوان في «تاريخ قضاة الأندلس» أنه كان «موقر المجلس، مَهِيب الحضرة؛ ما رأيتُ مجلس قاضٍ قطُّ أوقر من مجلسه، وكان إذا قعد للحكم في المجلس، وهو غاصٌّ بأهله، لم يتكلَّم أحد منهم بكلمة، ولم ينطق بلفظة غيره وغير الخصمين بين يديه، وإنما كان كلام الناس بينهم إيماءً ورمزًا، إلى أن يقوم القاضي؛ فصار حديثه في ذلك عجبًا»[٣].

ونظرًا لأهمية منصب القضاء في المجتمع الإسلامي، وجدنا العقلاء وأكابر الأمة وعلماءها ينصحون القضاة بنصائح جامعة تضمن لهم تحقيق العدالة والقسط في

---

(١) (المائدة: ٣٢).

(٢) ابن القيم: الطرق الحكمية ١/ ٨٢-٨٤.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص٨٤.

مجتمعاتهم؛ فقد نصح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أبا موسى الأشعري عندما ولاَّه قضاء الكوفة، وكان ممَّا جاء في هذا الكتاب: «أمَّا بعد، فإن القضاء فريضة مُحْكَمَةٌ، وسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، فافهم إذا أُدْلِيَ إليك؛ فإنه لا ينفع تَكَلُّمٌ بحقٍّ لا نفاذ له، وآسِ بين الناس في وجهك وعَدْلِك ومجلسك؛ حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البيِّنَة على مَنِ ادَّعى، واليمين على مَنْ أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلاَّ صلحًا أَحَلَّ حرامًا أو حَرَّمَ حلالاً، ولا يمنعك قضاءٌ قضيته أمس فراجعتَ اليوم فيه عقلك، وهُدِيتَ فيه لرُشْدِكَ أن تَرْجِعَ إلى الحقِّ؛ فإنَّ الحقَّ قديم، ومراجعة الحقِّ خير من التمادي في الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك ممَّا ليس في كتاب الله تعالى ولا سُنَّة نَبِيِّه، ثم اعْرِفِ الأمثال والأشباه، وقِسِ الأمورَ بنظائرها..»[1].

***

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٢٢١.

المبحث الثالث

ابتكار مؤسسة القضاء وتطويرها

توسَّعت الدولة الإسلامية توسُّعًا كبيرًا خلال القرون الأولى من الهجرة، ونظرًا لتداخل الأجناس والأعراق المتباينة داخل إطار الحضارة الإسلامية، كان مما لا بُدَّ منه وجود مؤسسة قضاء ثابتة، لها ما يميزها وما ينظمها داخل الدولة الإسلامية، ومن ثَمَّ بدأت هذه المؤسسة في التشكُّل والظهور منذ النبي ﷺ.

فقد كان الرسول ﷺ هو الذي يتولَّى الفصل في المنازعات، ومن بعده كان الخلفاء في صدر الإسلام يُبَاشِرُونَ القضاء بأنفسهم، وعندما اتَّسَعَتِ الدولة الإسلامية، واختلط المسلمون بغيرهم، وكثرت مهامُّ الخليفة؛ تم تعيين قضاة مستقِلِّينَ ينوبون عن الخليفة في الفصل بين الخصومات، وكان ذلك في عهد عمر بن الخطاب ﷺ؛ «فولَّى أبا الدرداء معه بالمدينة، وولَّى شريحًا بالبصرة، وولَّى أبا موسى الأشعري بالكوفة، وكَتَبَ له في ذلك الكتابَ المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة»[١].

وما أن أطلَّ العهد الأموي، حتى استجدَّت على مؤسسة القضاء مستجدات مهمة؛ حيث تخلَّى خلفاء بني أمية عن ممارسة القضاء، كما كان في العهدين النبوي والراشدي، فسَعَوْا إلى الفصل بين السلطات، إلا في ثلاثة أشياء أبقاها الأمويون لأهميتها وضرورتها؛ وهي: تعيين القضاة بطريقة مباشرة في عاصمة الخلافة دمشق، والإشراف على أعمال القضاة وأحكامهم ومتابعة شئونهم الخاصة في التعيين والعزل، والإشراف على التزام القضاة بالسلوك القضائي القويم، ثم ممارسة الخلفاء الأمويين لقضاء المظالم، وقضاء الحسبة، وقد أولى خلفاء بني أمية أهمية خاصة، ورعاية كاملة لقضاء المظالم، وحتى أصبح له جهاز كامل ومستقل[٢].

وأما في العهد العباسي فقد بلغ التنظيم الإداري للقضاء غايته القصوى، وظهرت فيه تنظيمات كثيرة، وتنبَّه الخلفاء العباسيون لأهمية القضاء منذ قيام دولتهم، فأصلحوا ما

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٢٢١.

(٢) محمد الزحيلي: تاريخ القضاء في الإسلام ص١٦٦، ١٦٧.

اعتراه من ضعف وتراخ في آخر الخلافة الأموية، ولقد كان الخليفة أبو جعفر المنصور - الذي يُعَدُّ المؤسس الحقيقي للخلافة العباسية - يرى أن القاضي إحدى الدعائم الأربع التي لا تصلح الدولة إلا بهم[(١)].

ومع كثرة ولايات الخلافة؛ فقد صار تعيين قضاة الأمصار تبعًا لما يراه ولاة هذه الأمصار، إلا أن هناك منصبًا قد استجدَّ في ظلِّ الخلافة العباسية، قد تمثَّل في تعيين قاضٍ للقضاة، فمع كونه قاضي العاصمة بغداد، إلا أن الخلافة قد أعطت له الحق في تعيين قضاة الأمصار، ومتابعتهم ومراقبتهم والإشراف عليهم وعزلهم؛ ولذلك بلغت مؤسسة القضاء ذروة الاستقلالية التامَّة في ظلِّ الخلافة العباسية، وأول مَن كان له الحق في تعيين قضاة الأمصار ومتابعتهم في الخلافة العباسية القاضي الشهير أبو يوسف، قاضي الخليفة العباسي هارون الرشيد ووزيره، حيث كان له الحق في تعيين قضاة كل من العراق وخراسان ومصر والشام[(٢)].

ونتيجة لتوسُّع مؤسسة القضاء؛ فقد وظَّفت الخلافة العباسية أعوانًا للقاضي — قاضي القضاة وقضاة الأقاليم — يُساعدونه في إتمام القضاء، والفصل في الدعاوى على أحسن وجه، وهم: **نائب القاضي**، وهو من يُنِيبه القاضي عنه ليقوم بالقضاء في المدن والقرى، أو يحلُّ محلَّه إذا غاب. **وكاتب القاضي** أو كاتب المحكمة، وهو الذي يُدَوِّن أقوال الطرفين والشهود والقاضي، ويُرتِّب القضايا على حسب حضور الخصوم، ويعرضها على القاضي بانتظام، وعدم محاباة إلا لمسافر أو معذور. **والمنادي**، وهو الذي يقوم على رأس القاضي لبيان مكانته، والمناداة على الخصوم. **والحاجب**، وكان من أفراد الشرطة والحرس، ويقوم بالمساهمة في تنظيم أعمال القاضي، والمحافظة على النظام، وترتيب الخصوم، من حيث جلوس الرجال في ناحية، والنساء في ناحية أخرى. **وصاحب المسائل**، وقد استجدَّت هذه الوظيفة في العصر العباسي، وكان الغرض منها تولية التحقيق في المسائل التي يعهد بها القاضي إليه، وأول من استعمله القاضي محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، صاحب أبي حنيفة، وقد ذكر الكندي أن المفضل بن فضالة الذي تولى القضاء بمصر سنة

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٥٢٠.

(٢) عرنوس: تاريخ القضاء، نقلاً عن محمد الزحيلي: تاريخ القضاء في الإسلام ص٢٢٨.

(١٧٤هـ) جعل صاحب مسائل؛ ليسأل عن الشهود، أي التعرُّف على مدى عدالة هؤلاء الشهود أو جرحهم. **والقسَّام**، وهو الذي يتولَّى قسمة الحقوق بين أصحابها، ويضع الحدود بينهم في العقارات، وكان يُسمَّى بالحسَّاب، وقد بيَّن الماوردي صفاته وشروطه. **والأمناء**، وهم الأشخاص الذين يُكلفهم القضاة ببعض الأعمال المهمة؛ مثل: حفظ أموال اليتامى والقاصرين وناقصي الأهلية والغائبين، وحفظ التركات حتى يتم قسمتها بين الورثة، وكان القاضي سوار بن عبد الله أول من أدخل الأمناء، وأناط بهم محافظة الأموال. **وخازن ديوان الحكم**، وهو الذي يحفظ أوراق القاضي والوثائق والسجلات والودائع في مكان مخصص، وأُضيف إلى هؤلاء **الترجمان**، وكانت وظيفته ترجمة ما يقوله المدعون أو الخصوم الناطقون بغير اللسان العربي، وقد كثرت هذه الوظيفة في العصر العباسي؛ نتيجة لكثرة الشعوب التي انضوت تحت مظلة الإسلام والخلافة الإسلامية(١).

وأما مظاهر إجراء المحاكمة وطرق انعقادها فكثيرة ومتنوعة في الحضارة الإسلامية، فأول ما يتوقَّف عنده القارئ تلك المراسم التي كان بموجبها يتم استدعاء الخصوم أمام القاضي، فقد كان في الأندلس نظام مبتكر يسير عليه القضاة، هو نظام «الطابع»؛ وهي ورقة عليها توقيع القاضي وخاتمه، يتم من خلالها استدعاء الخصوم، لا فرق بين أمير أو مأمور في هذا الاستدعاء(٢).

***

(١) محمد الزحيلي: تاريخ القضاء في الإسلام ص٢٤٦ – ٢٥٠.
(٢) انظر: الخشني: قضاة قرطبة ص١٥٠، ١٥١.

المبحث الرابع

معايير اختيار القضاة واختبارهم

كان يُرَاعَى في اختيار القضاة الصفات التي تُحَقِّقُ العدالة والمساواة؛ من العلم، والتقوى، والعدل، والعفَّة، وما يَتَّصِلُ بذلك[1].

ولذلك قرر عمر ﷺ أنه ينبغي للقاضي أن يتصف بثلاث خصال، هي ألا «يُصانع[2]، ولا يُضارِع[3]، ولا يتَّبع المطامع»[4]. وقد رأينا عمر ﷺ يُرشد قضاته على الأقاليم بإرشاداته المهمة، التي تُعتبر من أولى القواعد العامة التي سارت مؤسسة القضاء في الحضارة الإسلامية على نهجها، وجعلتها آلياتها في الحكم، واستيعاب القضايا المختلفة.

وقد حرص الخلفاء الأمويون على تولية من اتَّصف بالعلم والصلاح والأمانة لولاية القضاء، فقد ولَّى عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - قضاء مصر لابن خذامر الصنعاني؛ وكان ذلك بعد سابق معرفة وتأكُّدٍ من قدرة ابن خذامر على تحمُّل أعباء هذه المهمَّة الثقيلة؛ فقد روى ابن حجر عن سبب تعيين عمر بن عبد العزيز لابن خذامر قوله: «وفد من أهل مصر وفدٌ على سليمان بن عبد الملك منهم ابن خذامر الصنعاني، فسألهم سليمان عن شيء من أهل المغرب، فأخبروه، وأبى ابن خذامر أن يتكلم، فلما خرجوا، قال له عمر بن عبد العزيز: ما منعك من الكلام يا أبا مسعود؟ قال: خفتُ والله أن أكذب. فعرفها له عُمر، فلما وَلِيَ كتب إلى أيوب بن شَرَاحبيل بولاية ابن خذامر القضاء، فولي القضاء من سنة مائة إلى سنة خمس ومائة»[5].

إن معرفة الرجال واختبارهم أمر ضروري جدًّا في تسيير شئون الدولة، ومعرفة مَن يصلح لها ممن لا يصلح؛ ولذلك فحينما كان عُمر بمثابة وزير لسليمان بن عبد الملك، عرف جيدًا من هم الرجال القادرون على تحمُّل المسئولية، وقد أسرَّ عُمر في نفسه صلاحية ابن خذامر لولاية القضاء في إمارة من الإمارات الإسلامية، وهو ما تمَّ بالفعل، ولقد

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٥٣، ٥٤، وابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٢٢١.

(٢) صانَعَه: داراه ولَيَّنَه وداهَنَه، والمصانعة: أن تصنع له شيئًا ليصنع لك شيئًا آخر، وصانع الوالي: رشاه، والمصانعة: الرَّشوة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة صنع ٨/ ٢٠٨.

(٣) يضارع: أي يخشع ويخضع ويذل، ويرائي. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ضرع ٨/ ٢٢١.

(٤) وكيع بن خلف: أخبار القضاة ١/ ٧٠.

(٥) ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر ٢/ ٣٠٥.

صدق ظنُّ عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - في الرجل، فقد تولَّى خمس سنوات كاملة أدَّى فيها الواجب على أكمل ما يكون؛ ولذلك قال ابن حجر في حق ابن خذامر: «وهو أول من ولي القضاء بمصر من غير العرب، ولم يقبض منذ أن ولي القضاء - بسبب القضاء - درهمًا ولا دينارًا!»[١].

وعلى الرغم من استقلال مؤسسة القضاء منذ عمر بن الخطاب ﷺ، واتضاح ذلك بشكل أكبر منذ الخلافة الأموية، إلا أننا وجدنا كثيرًا من الفقهاء والعلماء يفرُّون من تولية القضاء؛ خوفًا من الله تعالى، إن حكموا بغير ما نزل به الشرع الحنيف، فقد ذكر وكيع في «أخبار القضاة» أن والي مصر يزيد بن حاتم (ت ١٧٧هـ) أراد أن يُعَيِّن قاضيًا على مصر، فشاور رجاله ومقرَّبيه في ذلك، فأُشير عليه بثلاثة نفر «حيوة بن شريح، وأبي خزيمة (إبراهيم بن زيد)، وعبد الله بن عباس الغساني. وكان أَبُو خزيمة يومئذ بالإسكندرية، فاسْتُحْضِر ثم أُتي بهم إليه، فكان أول من نوظر حيوة بن شريح، فامتنع فدُعِيَ له بالسيف والنطع[٢]، فلما رأى ذلك حيوة أخرج مفتاحًا كان معه فقال: هذا مفتاح بيتي، ولقد اشتقتُ إلى معادي. فلما رأوا عزمه تركوه، فقال لهم حيوة: لا تُظْهِرُوا ما كان من إبائي إِلَى أصحابي؛ فيفعلوا مثل ما فعلتُ. فنجا حيوة!»[٣].

وكان بعض القضاة يمتنع عن أخذ مرتَّب عن عمله في القضاء، ويرى أن ذلك منقصة له ولوظيفته، ومن هؤلاء ابن سماك الهمذاني، أحد قضاة الأندلس، فقد ذكر النباهي في «تاريخ قضاة الأندلس» صفاته ومناقبه، فمما قاله: «وكان من زهده وتواضعه يفتح القناة بنفسه، على ما حكاه عياض وغيره، ويكسر الحطب على باب داره، والناس حوله يختصمون إليه ويسألونه. وكان يلبس الصوف الخيش، ولم يركب دابَّة في البلد أيام ولايته؛ فإذا خرج إلى منزله بالبادية على حمار يشتدُّ دون خُفٍّ، يتقوَّت مما يأتيه من ماله؛ ولم يأخذ على القضاء أجرًا»[٤].

---

(١) ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر ٢/ ٣٠٥.
(٢) النطع: بساط من الجلد كثيرًا ما كان يُقتَل فوقه المحكوم عليه بالقتل. المعجم الوسيط، مادة نطع ص ٩٣٠.
(٣) وكيع بن خلف: أخبار القضاة ٣/ ٢٣٢، ٢٣٣، وانظر: عبد الرحمن المصري: فتوح مصر وأخبارها ص٢٦١.
(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص٣٢.

وفي بعض الأحيان كان يتمُّ اختيار القاضي عن طريق الانتخاب، وكان هذا الأمر احترامًا للرعية في اختيارها لمن تراه مناسبًا لهذه الوظيفة المهمة، فقد ذكر الكندي رواية عن أحد رجالات مصر ويُدعى البويطي، أنه قال: «أمر ابن طاهر (والي مصر) بإحضار أهل مصر[١]، فحضر الناس، وكنتُ فيمن حضر، فدخلنا على ابن طاهر، وعنده عبد الله ابن عبد الحكم، فقال: إن جمعي لكم لترتادوا لأنفسكم قاضيًا. فقال البويطي: كان أول من تكلم يحيى بن عبد الله بن بكير، فقال: أيها الأمير، ولِّ قضاءنا من رأيتَ، وجنِّبنا رجلين: لا تُوَلِّ قضاءنا غريبًا ولا زرَّاعًا[٢]..»[٣]. وكانت هذه الحادثة عام (٢١٢هـ)، مما يُدلل على تمتع الشعب بالوعي الكامل في اختياره لمن يراه مناسبًا في منصب القضاء.

وكان الخلفاء يُعينون القضاة تبعًا لأهليتهم العلمية والدينية لهذا الأمر، ولم يهتمُّوا بعامل السنِّ ما دام القاضي جديرًا بتوليته هذا المنصب؛ ولذلك ذكر الخطيب البغدادي أن يحيى بن أكثم ولي قضاء البصرة، وسنُّه عشرون سنة، أو نحوها، وكان ذلك عام (٢٠٢هـ)، فاستصغره أهل البصرة، فقالوا: كم سن القاضي؟ فعلم أنه قد استُصغر، فقال: أنا أكبر من عتاب بن أَسِيد ﷺ، الذي وَجَّه به النبي ﷺ قاضيًا على مكة يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل ﷺ، الذي وجَّه به النبي ﷺ قاضيًا على اليمن، وأنا أكبر من كعب بن ثور، الذي وَجَّه به عمر بن الخطاب ﷺ قاضيًا على أهل البصرة، فجعل جوابه احتجاجًا[٤].

وفي الأندلس، كان القضاة يسيرون على نهج المذهب المالكي، نتيجة لتعلم أكابر علماء الأندلس كزياد بن عبد الرحمن ويحيى بن يحيى على يد الإمام مالك بن أنس، ومساندة خلفاء بني أمية كهشام بن عبد الرحمن لهم، نتيجة حُبِّهم واحترامهم لعلم الإمام مالِك[٥].

لكن أهم ما ميَّز مؤسسة القضاء في العهد المملوكي، أنه قد استُحدث فيها قضاة على المذاهب الأربعة المشهورة، بعدما كان القضاء على المذهب الشافعي دون غيره، وقد

---

(١) لعل المقصود بأهل مصر أهل الرأي فيهم.
(٢) الزرَّاع: النَّمام الذي يزرع الأَحْقادَ في قلوب الأَحِبَّاء. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة زرع ٨/ ١٤١.
(٣) الكندي: الولاة والقضاة ص٤٣٣.
(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٤/ ١٩٨، ١٩٩.
(٥) الخشني: قضاة قرطبة ص١٧٣، ١٧٤.

أخبرنا القلقشندي عن رتبة القضاء، من خلال حديثه عن قضاة عصره، فقال: «بها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة كما في دمشق إلا أن استقرار الأربعة بها كان بعد استقرارها بدمشق، وولاية كل منهم من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف، ويختصُّ الشَّافعيُّ منهم بعموم تولية النواب بالمدِينَة وجميع أعمالها، ويقتصر من عداه (من المذاهب الأخرى) على التولية في المدِينَة خاصة كما تقدم في دمشق والديار المصرية»[1].

وقد كان اختيار قاضي القضاة أو قاضي الجماعة يتمُّ بعد اختبارات شاقة، يُعرف من خلالها صلاحية القاضي الجديد في القدرة على تسيير عمله وشئونه، والغريب أن الخليفة كان يختبر قاضي القضاة بنفسه، فقد ذَكَرَ الخشني في «قضاة قرطبة» طريقة اختيار أحمد بن بقي قاضي الجماعة، فقال: «قَلَّده أمير المؤمنين... ثم ولاه قضاء كورة جيان، وكورة إلبيرة، وكورة طليطلة، وامتحنه في كل وجه، وعجمه في كل معنى، وكفى بمحنة أمير المؤمنين واختباره! فألفاه خالصًا، ووجده ناصحًا، فلما شهدتْ له عنده التجربةُ، بدرجة الاستحقاق، فقلَّده قضاء الجماعة..»[2].

***

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٢٢٨.

(٢) الخشني: قضاة قرطبة ص١٧٣، ١٧٤.

المبحث الخامس

تحديد مهام القضاة

كان من جملة ما شملته مهمَّة القاضي: الفصل في المنازعات، وقطع التشاجر والخصومات، واستيفاء الحقوق ممَّنْ مَطَلَ[١] بها وإيصالها إلى مستحقِّيها، والنظر في أموال المحجور عليهم، وإقامة الحدود على مستحقِّيها، وتصفُّح شهوده وأمنائه، واختيار النائبين عنه من خلفائه في إقرارهم والتعويل عليهم[٢].

بل إن سلطة القاضي قد امتدَّت إلى أمور أخرى دينية ليست لها عَلاقة بالقضاء، فضُمَّتْ إلى نظر القاضي بسبب معرفته بالضرورة للشرع الإسلامي؛ فكانت أعماله الإضافية تتكوَّن غالبًا من الصلاة في الجوامع، والإشراف على الأماكن الدينية، والإشراف على أموال الغائبين والمفقودين، وولاية الحجِّ، وأخذ البيعة للخليفة[٣].

وقد أمكن لبعض من تولى وظيفة «قاضي القضاة» أن يُعيَّن وزيرًا؛ وذلك للخبرة العلمية، والحياتية الكبيرة التي تمتع بها هؤلاء، فقد ذكر النباهي في ترجمة القاضي أحمد بن عبد الله بن ذكوان، وهو قاضي القضاة بالأندلس، في زمن الأمير المنصور بن أبي عامر، أن الأمير عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر قد ولاَّه «الوزارة مجموعة إلى قضاء القضاة، وبقي ذلك إلى أن انقرضت دولة بني عامر»[٤].

وكان لمنصب القاضي مكانة مرموقة جدًّا في عهد الدولة المملوكية في مصر، ومن ثم فقد أُنيطت بهم الأعمال والمهام الخطيرة، وفُوِّضت إليهم الأعمال الجليلة؛ فقد نقل ابن كثير في «البداية والنهاية» في ترجمة قاضي قُضاة الشافعية تاج الدين ابن بنت الأعز أنه «كان بيده سبعة عشر منصبًا؛ منها: القضاء، والخطابة، ونظر الأحباس، ومشيخة الشيوخ، ونظر الخزانة..»[٥].

---

(١) المَطْل في الحق والدَّيْن: تَطْوِيلُ العِدَّة التي يضربُها الغريمُ للطالب، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة مطل ١١/ ٦٢٤.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٥٣، ٥٤، وابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٢٢١.

(٣) انظر: عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٤٨، ٤٩.

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص٨٦.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٣٨٠.

ونظرًا للمكانة المرموقة التي حظي بها القضاة في هذا العصر، نكاد نلحظ أن الجمع بين عدة وظائف كانت مزية من جملة المزايا المعطاة للقضاة، فقد جاء في ترجمة تاج الدين السبكي أنه تولى قضاء القضاة، وتدريس المذهب الشافِعِي، والخطابة، والميعاد بالجامع الطولوني، وتدريس المدرسة الشيخونية، وإفتاء دار العدل، مضافًا إلى ما بيده بدمشق من التداريس التي لا تَعَلُّق لها بالقضاء، فأقام بمصر على الحكم، واستناب بمدارسه التي في دمشق بإذن السلطان له في ذلك[١].

* * *

(١) شمس الدين بن طولون: قضاة دمشق ص١٠٤.

المبحث السادس

ظهور القضاء المتخصص

مما يُدلل على دقَّة وتنظيم الحضارة الإسلامية لمؤسسة القضاء، أنها جعلت القضاء مختصًّا؛ تبعًا لفئة معينة، أو قضايا محددة؛ فقد خصصت الخلافة العباسية للعسكر قضاة مختصِّين بهم؛ منعًا للتداخل بينهم وبين المدنيين، وهذا يعني أن المحاكم العسكرية قد عُرفت منذ القدم في الحضارة الإسلامية، وقد كان الخليفة المهدي قبل توليته للخلافة يفصل بنفسه بين خصومات ومنازعات عساكره، كما عين الحسنُ بن سهل – وزير المأمون – سعدَ بن إبراهيم على قضاء العساكر عام (٢٠١هـ) [١].

كما اهتمت مؤسسة القضاء، بالقضايا «المستعجلة»، التي يجب البتُّ فيها بسرعة تامة؛ لمصلحة المدعي أو المدعى عليه، ومن ذلك وجوب تقديم المسافرين على من سواهم، فقد ذكر الماوردي نقلاً عن الشافعي أنه قال: «وإذا حضر مسافرون ومقيمون، فإن كان المسافرون قليلاً، فلا بأس أن يبدأ بهم، وأن يجعل لهم يومًا، بقدر ما لا يضرُّ بأهل البلد، وإن كثروا حتى ساوَوْا أهل البلد، آساهم بهم، ولكلٍّ حقٌّ، ففي تأخير المسافرين - إذا كانوا مسبوقين - إضرار بهم، لتأخُّرهم عن العود إلى أوطانهم، فإن قلُّوا ولم يكثروا، قدَّمهم القاضي على المقيمين..» [٢].

ولما كانت دار الإسلام تشتمل - أيضًا - على أهل الذِّمَّةِ؛ فإن الحكم الإسلامي اهتمَّ بتنظيم القضاء لهم، ففي العصر الإسلامي الأول كان رجال الدين منهم يتولُّون القضاء لهم، ولا يتدخَّل فيه قضاة المسلمين؛ إذ أجاز الفقهاء تقليدَ الذمِّيِّ القضاء لأهل الذِّمَّة، وقد أورد القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» تقاليدَ لقضاة الذِّمَّة؛ ممَّا يدلُّ على أن سلطتهم كانت بإذن من الخليفة، وفي الأندلس - لكثرة ما فيها من أهل الذِّمَّة - خَصَّص المسلمون لهم قاضيًا منهم يُعْرَفُ باسم: قاضي النصارى، أو قاضي العجم، ولكن إذا حدث نزاع بين مسلم وذِمِّيٍّ؛ فإن قضاة المسلمين هم الذين يحكمون بينهم، كذلك كان القضاة يَقْبَلُون شهادة النصارى على النصارى، واليهود على اليهود، ولا يقبلونها منهم على المسلم [٣].

---

(١) وكيع بن خلف: أخبار القضاة ٣/ ٢٦٩.

(٢) الماوردي: أدب القاضي ٢/ ٢٨٤.

(٣) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٥٣، ٥٤.

المبحث السابع

الرقابة على القضاء

اهتمت مؤسسة الحكم والخلافة بالقضاء والقضاة، فشدَّدت الرقابة عليها، منعًا للمحاباة، وتلافيًا للظلم؛ ولذلك فإنها حرصت على عزل القاضي الظالم المتحامل، فقد ذكر الكندي أن «يتيمًا كان في ولاية يحيى بن ميمون وهو على القضاء (عام ١٠٥هـ) فردَّ أمره إلى عريف[1] قومه، وكان في حجره[2]، فتظلَّم اليتيم بعد بلوغه من العريف إلى يَحْيَى زمانًا، فلم يُنصفه منه، فكتب إليه اليتيم بأبيات:

أَلا أَبْلِغْ أَبَا حَسَّانَ عَنِّي ... بِأَنَّ الْحُكْمَ لَيْسَ عَلَى هَوَاكَا

حَكَمْتَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَأْتِ حَقًّا ... وَلَمْ يُسْمَعْ بِحُكْمٍ مِثْلُ ذَاكَا

وَتَزْعُمُ أَنَّهَا حَقٌّ وَعَدْلٌ ... وَأَزْعُمُ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَذَاكَا

أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ حَقٌّ ... وَأَنَّكَ حِينَ تَحْكُمُ قَدْ يَرَاكَا

فبلغ يحيى بن ميمون ذلك فسجن اليتيم، فرُفع أمره إلى (هشام بن عبد الملك)، فعظم ذلك عليه، وكتب بعزله، وكان في كتابه إلى الوليد بن رفاعة: «اصرف يحيى عمَّا يتولاَّه من القضاء مذمومًا مدحورًا..»[3].

وهذا التشبُّث في وجوب تحقق العدل، ونبذ الظلم من قِبَلِ الخلفاء والأمراء لم يكن معروفًا مطلقًا في العالم آنذاك، ولم يكن هناك من يهتمُّ من الخلفاء والأمراء بشئون العامة والأيتام إلا في الحضارة الإسلامية؛ مما يُدلل على رُقِيِّ هذه الحضارة وإنسانيتها.

وقد تطوَّر الأمر بعد ذلك، فأصبح قاضي القضاة مختصًّا بالتحقيق مع قضاة الأقاليم الذين كانت تُرفع فيهم الشكاوى، فكان يعزل من استحقَّ العزل، ويُبقي من ثبُتت براءته، وكانت الشكوى كيدية في حقِّه، حيث جاء في «قضاة قرطبة» أنه «كان للأمير الحَكَمِ قَاضٍ بكورة جيان، فتظلَّم أهل الكورة منه، فعهد الأميرُ الحَكَمُ إلى سعيد بن محمد بن بشير –

---

(١) عريف القوم: عالمهم ورئيسهم. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عرف ٩/ ٢٣٦.

(٢) أي كان تحت وصايته ورعايته.

(٣) الكندي: الولاة والقضاة ص٣٤١.

قاضي الجماعة في قرطبة – أن ينظر على قاضي جيان، فإن ظهر بريئًا أقرَّه على قضائه، وإن ظهر عليه ما رُفع إلى الأمير فيه، عزله عن الكورة، فنظر قاضي الجماعة، فألفاه بريئًا، فقال له: انصرف إلى قضائك..» [١].

بل أصبح هناك قضاء مختصٌّ يُشبه إلى حدٍّ كبير محكمة النقض في زماننا الآن، سُمِّيَ هذا القضاء بـ«خُطَّة[٢] الردِّ»، وهو بمثابة محكمة للنقض في زماننا الحاضر، ويتمثَّل اختصاص صاحب الردِّ في النظر في أحكام القضاة، فيحكمُ فيما استرابه الحُكَّام، وردُّوه عن أنفسهم، وكان يقوم - كذلك - بمثابة التفتيش على الأحكام والقضاة، ويُطالعُ رعايا الكور، ويقف على أحوال الناس والقضاة.

وممن تولَّى هذا المنصب محمد بن تمليخ التميمي في عهد الحكم المستنصر (ت ٣٦٦هـ)، وعبد الملك بن منذر بن سعيد... وأُطْلِق على من تقلَّد هذه الخطة اسم صاحب الردِّ؛ لأن الأحكام تُرَدُّ إليه، وكان أدنى منزلة من قاضي الجماعة، أي أقرب للقُضاة من قاضي القضاة[٣].

* * *

(١) الخشني: قضاة قرطبة ص١٥.

(٢) الخُطَّة: الأمر، وهي أيضًا: الانتصاف، انظر: الزبيدي: تاج العروس، باب الطاء فصل الخاء مع الطاء ١٩/ ٢٥٧.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص٥.

المبحث الثامن

خضوع الخلفاء والأمراء لسلطة القضاء

لا ريب أن هذا المبحث - الذي نحن بصدده - دليل لا مشاحَّة فيه على استقلالية القضاء وحريته منذ فترة مبكرة في تاريخ الحضارة البشرية كلها، بل صورة من أعظم الصور إشراقًا، تُدلل على أسبقية الحضارة الإسلامية إلى هذا المبدأ، قبل أن تعرفه أوربا والعالم أجمع بعد ظهور الإسلام باثني عشر قرنًا!

فهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ يُقاضي نصرانيًّا في درع له، فقد ذكر ابن كثير أن علي بن أبي طالب ﷺ وجد درعه عند رجل نصراني، «فأقبل به إلى شريح يخاصمه... ثم قال: هذا الدرع درعي ولم أبعْ ولم أَهَبْ. فقال شُريح للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب. فالتفت شريح إلى عليٍّ فقال: يا أمير المؤمنين، هل من بينة؟ فضحك عليٌّ وقال: أصاب شريح، ما لي بينة. فقضى بها شريح للنصراني، قال: فأخذه النصراني ومشى خُطًى، ثم رجع، فقال: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يُدنيني إلى قاضيه يقضي عليه، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين»[1].

فهذه القوة التي تمتَّعت بها مؤسسة القضاء، وهذا العدل الذي لامسه الرجل النصراني، جعله يتعجَّب من الحُكْم الذي قضى به شريح على أمير المؤمنين وخليفة المسلمين عليٍّ ﷺ، فلمَّا أيقن الرجل عظمة هذه الحضارة وعدلها، رجع من فوره، وأعلن انضمامه لهذا الدين العريق، وهذه الحضارة التالدة.

ونتيجة للاستقلالية التي تمتعت بها مؤسسة القضاء في الخلافة العباسية، وجدنا مَنْ وقف في وجه مؤسسة الخلافة، فلم يَخَفْ منها، ولم تأخذه في أحكامه القضائية لومة لائم، فقد «كتب المنصور (أبو جعفر) إلى سوار بن عبد الله قاضي البصرة: انظر الأرض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر، فادفعها إلى القائد، فكتب إليه سوارٌ: إن البيِّنة قد

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٨/ ٥.

قامت عندي أنها للتاجر، فلستُ أُخْرِجها من يده إلا ببينة. فكتب إليه المنصور: والله الذي لا إله إلا هو لتدفعنها إلى القائد. فكتب إليه سوار: والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجنها من يد التاجر إلا بحق. فلما جاءه الكتاب قال: ملأتُها والله عدلاً، وصار قضاتي تردُّني إلى الحقِّ!»[1].

وكان من حق القضاة أن يُحضروا الخلفاء والولاة إلى مجالسهم فيما يتعلق بهم من القضايا والدعاوى والشهادات، وكان الخلفاء وكثير من الولاة يقبلون ذلك برحابة صدر، ويلتزمون بما يأمر به القاضي، إلا من شذَّ عن ذلك وهم قليل، وقد كان القضاة يتهدَّدُون هؤلاء الممتنعين بالاعتزال أو طرح الموضوع على الشعب، ولكن في كل الأحوال كانت أحكام القضاء محترمة، وتُنفَّذ على أكمل وجه، ومن أشهر الخصومات بين الخلفاء والرعية، ما جاء في شكوى الحمَّالين، التي رفعوها إلى قاضي المدينة محمد بن عمران الطلحي؛ حيث أراد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يمضي بالحمَّالين إلى الشام، لكنهم كرهوا ذلك؛ لمشقَّته، فرفعوا دعوى إلى محمد بن عمران، فاستدعى الخليفة المنصورَ إلى مجلس القضاء، وحذَّر كاتبه أن يناديه بالخلافة بل باسمه مجردًا، ولما حضر عامَلَهُ كأحد الأطراف، ولم يقف لاستقباله، ثم قضى عليه للحمالين، وبعد ذلك قام للسلام عليه كخليفة وأمير للمؤمنين، وأيَّده أبو جعفر على جميع تصرفاته، وبارك فيه، وأمر له بعشرة آلاف دينار[2]!

ونتيجة لهذه المواقف، فقد احترم الخلفاء القضاة أيما احترام، ولم يكن هؤلاء الخلفاء ليتكبَّروا على أحكام القضاء، أو حتى على الأشكال المعتادة في المثول أمام يدي القاضي؛ فقد حُكِيَ أن الخليفة المهدي (ت ١٦٩هـ) «تَقَدَّم مع خصوم له بالبصرة إلى قاضيها عبد الله بن الحسن العنبري، فلما رآه مقبلاً أطرق إلى الأرض، حتى جلس خصومه مجلس المتحاكمين، فلما انقضت الحكومة[3]، قام القاضي فوقف بين يديه، فقال المهدي: والله! لو قمتَ حين دخلتُ إليك لعزلتك، ولو لم تقم حين انقضى الحكم لعزلتك..»[4].

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٢٢٩.
(٢) المصدر السابق ص٢٢٩.
(٣) الحكومة: الحُكْم.
(٤) الماوردي: أدب القاضي ١/ ٢٤٨.

ومما يُدلل على قوة مؤسسة القضاء في ظلِّ الخلافة العباسية، وعدم محاباتها أحدًا، فكل الناس سواسية أمام هذه المؤسسة، أن أبا حامد الإسفراييني قاضي بغداد (ت٤٠٦هـ) كتب إلى الخليفة العباسي يُهدِّده بالعزل إن لم تُنفَّذ الأحكام القضائية الشرعية، ويتمّ احترامها، بل أرسل له خطابًا شديد اللهجة، جاء فيه: « اعلم أنك لست بقادر على عزلي عن ولايتي التي ولانيها الله تعالى، وأنا أقدر أن أكتب رقعة إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك! »[1].

وقد كان الخلفاء والأمراء يتم استدعاؤهم أمام المحكمة للشهادة، وسماع الأقوال، ولم يجد الخلفاء غضاضة في ذلك، أو تقليلاً لشأنهم، فلقد كان عباس بن فرناس[2] - على سبيل المثال - من علماء المسلمين الأفاضل في الأندلس، وهو صاحب سبقٍ في اختراعات كثيرة، لعلَّ أشهرها أنه أول من قام بمحاولة للطيران في التاريخ؛ ولهذا التفوُّق العلمي قرَّبه الخلفاء وعظموا قدره.

ولحاله هذا ولِـمَا وصل إليه من شهرة وحظوة لدى الأمراء، فقد كان له حسَّاد يتربَّصون به، وقد راحوا يتهمونه بالسحر والشعوذة، وأنه يقوم بأشياء غريبة وعجيبة في منزله، أو في معمله الاختباري إن صحَّ التعبير؛ وذلك لأنه كان يشتغل بالكيمياء، وكان ينتج عن ذلك انبعاث أدخنة وتطاير أبخرة من منزله.

وقد استُدعي للمحاكمة في قرطبة - وكان الخليفة في ذلك الوقت هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي - وقيل له في ذلك: إنك تفعل كذا وكذا، وتخلط أشياء بأشياء، وتقوم بغرائب وعجائب لم نعهدها. فقال في ردِّه عليهم: أترون أني لو عجنت الدقيق بالماء فصيرته عجينًا، ثم أنضجت العجين خبزًا على النار، أأكون قد صنعتُ سحرًا؟ قالوا: لا؛ بل هذا مما عَلَّم اللهُ الإنسان. فقال: وهذا ما أشتغل به في داري، أمزج الشيء بالشيء،

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٦٤.

(٢) أبو القاسم عباس بن فرناس: من موالي بني أمية، فيلسوف شاعر، له علم بالفلك، وأول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة، وأول من اخترق الجو فقد حاول الطيران، فكسا نفسه الريش، ومدَّ له جناحين طار بهما في الجو مسافة بعيدة، ثم سقط فتأذى في ظهره، توفي سنة أربع وسبعين ومائتين. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٦/ ٣٨٠، ٣٨١، والمقري: نفح الطيب ٣/ ٣٧٤.

وأستعين بالنار على ما أمزج، فيأتي مما أمزج شيء فيه منفعة للمسلمين وأحوالهم[١].

وكانوا قد أرادوا شاهدًا على صحَّة الدعوى، فكان الشاهد هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام، (الخليفة الأموي نفسه)، وفي المحكمة وحين سمع الأقوال راح يُدلي بشهادته، فقال: أشهد أنه قال لي: إنه يفعل كذا وكذا (يريد أن كل هذه الأشياء يعملها ولها أصول عنده)، وقد صنع ما أنبأني به، فلم أجد فيه إلا منفعة للمسلمين، ولو عَلِمْتُ أنه سحر، لكنتُ أول من حدَّه!

لقد أتوا بقائد الدولة وخليفة المسلمين إلى المحكمة ليشهد، ثم هو يشهد بالحق ولصالح العالِم، فكان أن حكم القاضي والفقهاء ببراءة ابن فرناس، وأثنوا عليه، وَحَثُّوه على أن يستزيد من عمله وتجاربه، وحُفظت له بذلك مكانته.

وقد كان القضاة يُجبرون الخلفاء والأمراء وعلية القوم على المجيء إليهم إذا ثبت خَطَؤهم، ومن ثَمَّ فقد ذكر الخشني في كتابه «قضاة قرطبة» أن رجلاً ضعيفًا من رجال قرطبة قد جاء إلى القاضي عمرو بن عبد الله، قاضي قرطبة، «فشكا إليه بعض عمال الأمير محمد، وكان ذلك العامل عظيم الشأن والقدر، مرشحًا في وقته للمَدِينة، ثم صار بإثر ذلك إلى ولاية المَدينة، فقال له: يا قاضي المسلمين، إن فلانًا غصبني دارًا. فقال له القاضي: خذ فيه طابعًا. فقال له الرجل الضعيف: مثلي يسير إليه بطابع؟ لست آمنه على نفسي. فقال له القاضي: خذ فيه طابعًا كما آمرك. فأخذ الرجل طابعه، ثم توجَّه به إليه، فلم تكن إلا ساعة، إذ رجع الرجل الضعيف، فقال له: يا قاضي، إني عرضت عليه الطابع عن بُعْدٍ، ثم هربت إليك، فقال له عَمْرو: اجلس سيُقبل. فلم أنشب أن أتى الرجل في ركب عظيم، وبين يديه الفرسان والرجَّالة، فثنى رجله ونزل، ثم دخل المسجد، فسَلَّم على القاضي وعلى جميع جلسائه، ثم تمادى كما هو، وأسند ظهره إلى حائط المسجد، فقال له القاضي عمرو بن عبد الله: قم هاهنا فاجلس بين يدي خصمك. فقال له: أصلح الله القاضي، إنما هو مسجد، والمجالس فيه واحدة، لا فضل لبعضها على بعض. فقال له عَمْرو: قم هاهنا كما أمرتك، واجلس بيت يدي خصمك. فلما رأى عزم القاضي في ذلك قام فجلس بين

(١) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب ص٢٠٣.

يديه، وأشار القاضي إلى الرجل الضعيف أن يقعد مع صاحبه بين يديه، فقال عَمْرو للرجل الضعيف: ما تقول؟ فقال: أقول غصبني دارًا لي. فقال القاضي للمدعى عليه: ما تقول؟ فقال: أقول: إن لي عليه الأدب فيما نسب إلي من الغصب. فقال القاضي: لو قال ذلك لرجل صالح كان عليه الأدب، كما ذكرتَ، فأمَّا مَنْ كان معروفًا بالغصب فلا. ثم قال لجماعة من الأعوان، ممن كانوا بين يده: امضوا معه، وتوكَّلوا به، فإن ردَّ إلى الرجل داره، وإلا فردُّوه إليَّ حتى أخاطب الأمير - أصلحه الله - في أمره، وأصف له ظلمه وتطاوله. فخرج مع الأعوان، فلم تكن إلا ساعة حتى انصرف الرجل الضعيف والأعوان، فقال الرجل للقاضي: جزاك الله عني خيرًا، قد صرف إليَّ داري. فقال له القاضي: اذهب في عافية»[1].

ولا شك أن هذه المحاكمة تُدلل على عدة أمور، فأولها: وجود تنظيمات متعارف عليها في استدعاء الخصوم، وإقامة المحاكمة. وثانيها: قوة وهيبة القضاء في الحضارة الإسلامية، وكذا استقلاله الواضح. وثالثها: أن الجميع سواسية أمام القاضي، لا فرق بين قوي أو ضعيف، أو بين غني أو فقير. ورابعها: سرعة البتِّ في القضايا واتخاذ القرار فيها؛ فقد سُلبت دار الرجل، واستطاع القضاء أن يردَّها إليه في نفس اليوم.

ولا ريب أن هذه المزايا التي كانت تتمتع بها المؤسسة القضائية في الحضارة الإسلامية، لتُدلل على أن المجتمع الإسلامي قد تنعَّم بالعدل والقسط في ظلِّ هذا القضاء الشامخ؛ ولذلك كان نسيم العدل الذي تمتع به المسلمون في ظل هذا القضاء مُقَوِّمًا أساسًا لتقدُّم هذه الحضارة ككل.

***

(١) الخشني: قضاة قرطبة ص١٥٠، ١٥١.

المبحث التاسع

نشأة ديوان المظالم وتطوره

بسبب تضخُّم ظروف الحياة في الخلافة الإسلامية، ظهرت وظيفة (نظر المظالم) إلى جانب وظيفة القاضي، وقد تطوَّرَتْ حتى أصبحت منصبًا قضائيًّا مهمًّا، يعني مَنْع الظُّلْـمِ عن الرعية، ولَـمَّا كان القاضي يعجز عن النظر فيه؛ لتناوله جهاز الحُكْمِ، فإن الذي كان ينظر فيه هو الخليفة، أو مَنْ ينوب عنه من كبار رجال الدولة[1].

وقد ذكر ابن خلدون أهمية هذه الوظيفة بقوله: «هي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونَصَفَة القضاء، وتحتاج إلى علو يد، وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين، وتزجر المتعدي، وكأنه يُمْضِي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه، ويكون نظره في البيِّنَات والتقرير، واعتماد الأمارات والقرائن، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق، وحمل الخصمين على الصلح، واستحلاف الشهود، وذلك أوسع من نظر القاضي»[2].

ويقول الماوردي: «نظر المظالم هو قَوْدُ المتظالمين إلى التناصف بالرهبة، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة؛ فكان من شروط الناظر فيها أن يكون جليلَ القدر، نافذَ الأمر، عظيم الهيبة، ظاهر العفَّةِ، قليل الطمع، كثير الورع؛ لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة[3]، وثَبْتِ القضاة، فيحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين، وأن يكون بجلالة القدر نافذَ الأمر في الجهتين»[4]. هذا، وكان اختصاص مَنْ ينظر في المظالم واسعًا؛ يشمل: النظر في تعدِّي الولاة على الرعية وأخذهم بالعسف في السيرة، وجور العمَّال فيما يجبونه من الأموال. وكُتَّاب الدواوين؛ فيتصفَّح أحوال ما وكل إليهم... وتظلُّم المسترزقة من نقص أرزاقهم، أو تأخُّرها عنهم، وإجحاف النظر بهم. وَرَدّ الغصوب؛ فيتصفَّحها ليجريها على سبيلها، ويمضيها على شروط واقفها إذا عرفها، وتنفيذ ما وقف القضاة من أحكامها لضعفهم عن إنفاذها، وعجزهم عن المحكوم عليه لتعزُّزه، وقوَّة يده، أو لعلوِّ قَدْرِه[5]

(١) الخشني: قضاة قرطبة ص ص ٥٤.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٢٢٢.

(٣) الحماة: القادة.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٦٤.

(٥) المصدر السابق ص ٦٩، ٧٠.

ومن هنا نتبيَّن أن قضاء المظالم كان أشدَّ وقعًا، وأسرع نفاذًا، وأوسع مدًى؛ وأن اختصاصه يشمل القضاء العالي ومجلس الدولة في زماننا، كما نقف على مبلغ أهمية هذه الوظيفة، وما كان لصاحبها من السلطة، ونفاذ الكلمة، وعلى ما كان عليه النظام القضائي من الدقَّة، وهو نظام لا يقلُّ كثيرًا عن مثيله في الوقت الحاضر، مع أنه قد ساد منذ نيف وعشر قرنًا[1].

ولا بُدَّ لنا من الإشارة هنا إلى أن النظر في المظالم، يُشبه إلى حدٍّ كبير ما يُسمى في وقتنا بـ «القضاء الإداري»، ويُطلق عليه في مصر اسم «مجلس الدولة»، ولم يُعرف مجلس الدولة في أوربا، وخاصة في فرنسا – بلد القوانين والدساتير – إلا بعد الثورة الفرنسية، أي في أواخر القرن الثامن عشر، في دستور عام ١٧٩٩م، وذلك بشكل مبدئي، أما القانون الذي نُظِّم بشكله الحالي فلم يصدر إلا في عام ١٨٧٢م، وقد كان يُطلق عليه قبل ذلك في عهد المملكة الفرنسية، اسم «مجلس الملك»، وأن مهمة هذا المجلس، كانت استشارية من جهة، وقضائية إدارية من جهة أخرى، بيد أن المؤلفين في تاريخ الحقوق الفرنسية يُؤَكِّدون بأن مهمته الحقيقية كانت فخرية، وأنه لم يمارس القضاء الإداري قط، فإذا ما عرفنا أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) جلس للمظالم، تيقَّنَّا أن الحضارة الإسلامية قد اهتدت هذا النوع من القضاء الإداري قبل أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، وهو ما لم يعرفه الفرنسيون ويُطَبِّقوه بالفعل إلا في الأزمنة الأخيرة[2]!

ومما لا شكَّ فيه أن أول من طَبَّق النظر في المظالم، هو النبي ﷺ، لكنه لم يكن بشكله الذي كان عليه في الخلافة الأموية بعد ذلك، وكان ذلك طبيعيًّا؛ إذ لم يكن في عهد الرسول ﷺ ما يستدعي وجود ولاية المظالم إلا في حالات قليلة جدًّا، مثل ما وقع بين الرسول ﷺ وبين ابن الأُتبيّة الأزدي، فقد استعمله رسول الله ﷺ على صدقات «بني سليم»، فلما جاء حاسبه – وهو ما يرويه أبو حميد الساعدي – فقال: هذا مالكم وهذا هدية. فقال رسول الله ﷺ: «**فَهَلاَّ جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ**

(١) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص١٢٨.

(٢) مصطفى البارودي: الوجيز في الحقوق الإدارية ص٥٧، ٥٨. وظافر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ ٢/ ٥٥٥.

كُنْتَ صَادِقًا». ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلاَّنِي اللهُ، فَيَأْتِي فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي. أَفَلاَ جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ، وَاللهِ! لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلاَّ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ»[١].

وقد أعلن خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر ﷺ عن عزمه للقيام بقضاء المظالم؛ لرفع الظلم، وإقامة العدل والحق، وكان ذلك في أول خطبة خطبها ﷺ، فقال: «أمَّا بعد؛ أيها الناس، فإنِّي قد وُلِّيت عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني؛ وإن أسأت فقوِّموني؛ الصدق أمانةٌ، والكذب خيانةٌ، والضَّعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أريح[٢] عليه حقَّه إن شاء الله، والقويُّ فيكم ضعيفٌ عندي حتى آخذ الحقَّ منه..»[٣].

وبدأ قضاء المظالم يأخذ في التدرج منذ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ، فقد كان يجمع ولاته وأمراءه كل عام في موسم الحج، ويستمع إلى شكاوى الناس، ويقتصُّ من المسيء من هؤلاء الولاة والأمراء، بل أقر عمر ﷺ مبدأ مهمًّا في محاسبة الولاة والعمال، هذا المبدأ هو ما نسميه اليوم «إساءة استعمال النفوذ»، وقد ظهر جليًّا مع والي مصر عمرو بن العاص ﷺ وأحد أبنائه، الذي لطم مصريًّا سبقه في عدْوٍ كان بينهما، وهذه القصة يرويها أنس بن مالك ﷺ؛ إذ قال: «إن رجلاً من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، عائذ بك من الظلم. قال: عُذْتَ مَعَاذًا[٤]. قال: سابقتُ ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط، ويقول: أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر إلى عَمرو يأمره بالقدوم ويُقْدِم بابنه معه، فَقَدِمَ، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السطو فاضرب. فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين. قال أَنس: فضرب، فوالله لقد ضربه ونحن نحبُّ ضربه، فما أقلع عنه حتى تمنَّيْنَا أنه يرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: ضع

---

(١) البخاري: كتاب الأحكام، باب هدايا العمال (٦٧٥٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال (١٨٣٢).

(٢) أَرَحْتُ على الرجل حَقَّه: إذا رددته عليه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة روح ٢/ ٤٥٥.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٦/ ٨٢.

(٤) عذت بمعاذ: أي قد لجأت إلى ملجأ ولُذْت بِمَلاذ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عوذ ٣/ ٤٩٨.

السوط على صلعة[١] عَمرو، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ابنه الذي ضربني، وقد استقدت منه. فقال عمر لعَمرو: مذ كم تَعَبَّدْتُم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ قال: يا أمير المؤمنين، لم أعلم، ولم يأتني»[٢].

قد يتملكنا النصب والتعب إذا أردنا أن نجد قصة شبيهة، أو موقفًا مماثلاً في تاريخ الأمم الأخرى، لقد استُقود من الابن أمام أبيه، ولم يكن مجرَّد ابن عادي؛ فهو ابن أمير مصر، ولا عجب في ذلك؛ إذ الناس سواسية أمام الإسلام وحضارته.

وفي عهد الخلافة الأموية كان عبد الملك بن مروان أشهر من جلس لهذه الولاية، ويجب أن نوضِّح أن ولاية المظالم، تتطلب علمًا بالأحكام الشرعية، وقدرة على الاجتهاد مع النصوص، وهذا يعني أن هذه الولاية تحتاج إلى فقيه عالم؛ ولذلك كان الخلفاء في الحضارة الإسلامية الذين يقومون بولاية المظالم على علم راسخ بمسائل الفقه والفروع، وكان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان من أوائل الخلفاء الأمويين الذين جلسوا لولاية المظالم، ولم يكن هؤلاء الخلفاء القائمون بولاية المظالم يُفْتُون بغير علم، أو يُنزلون العقوبة بغير استيعاب للقضايا، ثم الحكم فيها.

وتوسَّعت ولاية المظالم في عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله؛ فقد اغتصب عدي بن أرطاة (ت ١٠٢هـ) والي البصرة، أرضًا لرجل، فقرر الرجل أن يتجه إلى الخليفة رأسًا في دمشق، وهو ما يرويه ابن عبد الحكم بقوله: «خرج عُمَر رحمه الله ذات يوم من منزله... إذ جاء رجل على راحلة له فأناخها، فسأل عن عُمَر، فقيل له: قد خرج علينا وهو راجع الآن، فأقبل عُمَر، فقام إليه الرجل فشكا إليه عدي بن أرطاة، فقال عُمَر: أما والله ما غرَّنا منه إلا بعمامته السوداء! أما إني قد كتبتُ إليه، فضلَّ عن وصيتي: إنه من أتاك ببيِّنَة على حق هو له فَسَلِّمْه إليه، ثم قد عَنَّاك[٣] إليَّ. فأمر عُمَر بِرَدِّ أرضه إليه، ثم قال له: كم أنفقت في مجيئك إليَّ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، تسألني عن نفقتي، وأنت قد رددت عليَّ أرضي، وهي خير من مئة ألف؟ فقال عُمَر: إنما رددت عليك حقك، فأخبرني كم أنفقت؟ قال: ما

---

(١) صلعة: رجل أصلع بين الصلع، وهو الذي انحسر شعر مقدم رأسه.

(٢) المتقي الهندي: كنز العمال ١٢/ ٦٦٠، وابن الجوزي: مناقب عمر ص٩٩.

(٣) عنَّاك إليَّ: أي شَقَّ عليك وجعلك تعهد إليَّ، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عنا ١٥/ ١٠١.

أدري. قال: احزره. قال: ستين درهمًا. فأمر له بها من بيت المال»[١].

إن المتأمل في هذا الموقف ليندهش من فعل أمير المؤمنين، إنه رئيس أكبر دولة لها كيانها الثقافي والعسكري والحضاري، ومع هذه العظمة، لا يتوانى أمير المؤمنين في القصاص من والي البصرة، واسترداد الحق لصاحبه، بل أعظم من ذلك يُحَمِّل بيت المال (خزينة الدولة) نفقات انتقال المدعي مهما كانت ضئيلة أو كبيرة، وهذا من أعظم مظاهر رقي الحضارة الإسلامية، وتكافلها مع أفرادها.

وأما في العصر العباسي، فقد تَطَوَّر النظر في المظالم حتى أخذ شكلاً ناضجًا جدًّا في منتصف القرن الخامس الهجري، فأصبح للمظالم ديوان مستقلٌّ، أي ما يُعادل وزارة مختصَّة في زماننا الآن، وقد ترك لنا الماوردي صورة رائعة عن الأصناف التي تقوم بهذا الديوان، وهم:

١- الحماة والأعوان؛ لجذب القوي، وتقويم الجريء، فالحماة هم كبار القواد، والأعوان هم الشرطة القضائية.

٢- القضاة والحكام؛ لاستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق، وبهذا استدركوا النقص الذي يمكن أن يكون في والي المظالم من حيث معرفته بالقضاء وبالأصول القضائية.

٣- الفقهاء؛ ليُرجع إليهم فيما أُشْكل، ويسألهم عما اشتبه، وبهذا أكملوا نقص العلم المحتمل.

٤- الكُتَّاب؛ ليُثبتوا ما جرى بين الخصوم، وما توجَّب لهم أو عليهم من حقوق.

٥- الشهود؛ ليُشهدهم على ما أوجبه من حق، وأمضاه من حكم، وهؤلاء يُشبهون «النيابة العامة»[٢].

وقد جلس خلفاء وأمراء العباسيين لولاية المظالم، ومن أعجب الأمثلة التي ذُكِرَتْ

---

(١) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٤٦، ١٤٧.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٣٦، وانظر: ظافر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ٢/ ٥٦٦.

عن هذه الولاية، أن رجلاً دخل على أبي جعفر المنصور - وكان والي المظالم على أرمينية في خلافة أخيه أبي العباس السفاح، فقال: «إن لي مظلمة، وإني أسألك أن تسمع مني مثلاً أضربه قبل أن أذكر مظلمتي. قال: قل. قال: إني وجلتُ[1] لله تبارك وتعالى، خلَقَ الخلقَ على طبقاتٍ، فالصبيُّ إذا خرج إلى الدنيا لا يعرف إلا أمه، ولا يطلبُ غيرها، فإذا فزع من شيء لجأ إليها، ثم يرتفعُ عن ذلك طبقة، فيعرف أن أباه أَعَزّ من أمه، فإن أفزعه شيءٌ لجأ إلى أبيه، ثم يبلغ ويستحكم، فإن أفزعه شيء لجأ إلى سلطانه، فإن ظلمه ظالم انتصر به، فإذا ظلمه السلطان لجأ إلى ربه واستنصره، وقد كنتُ في هذه الطبقات، وقد ظلمني ابن نهيك[2] في ضيعة لي في ولايته، فإن نصرتني عليه، وأخذتَ بمظلمتي وإلا استنصرتُ إلى الله ﷻ ولجأتُ إليه، فانظر لنفسك أيها الأمير أو دعْ. فتضاءل أبو جعفر، وقال: أعد عليَّ الكلام. فأعاده فقال: أما أول شيء فقد عزلتُ ابن نهيك عن ناحيته. وأمر بردِّ ضيعته»[3].

وقد كان من حق الرعية أن تتظلم من الخليفة نفسه، وهذا من أعظم المحاكمات التي رأيناها في تاريخ الحضارة الإسلامية؛ فقد حكى رجل اسمه مسور بن مساور، قوله: «ظلمني وكيل للمهدي وغصبني ضيعة لي، فأتيت سلاَّمًا صاحب المظالم، فتظلَّمتُ منه، وأعطيتُه رقعة مكتوبة، فأوصل الرقعة إلى المهدي، وعنده عمه العباس بن محمد، وعافية القاضي، قال: فقال له المهدي: ادْنُهُ. فدنوتُ، فقال: ما تقول؟ قلتُ: ظلمتَني. قال: فترضى بأحد هذين (يقصد القاضي عافية، أو عمه الْعَبَّاس). قال: قلتُ: نعم. قال: فادنُ مني. فدنوتُ منه حتى التزقتُ بالفراش، قال: تكلم. قلتُ: أصلح الله القاضي، إنه ظلمني في ضيعتي هذا. فقال القاضي: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: ضيعتي وفي يدي. قال: قلتُ: أصلح الله القاضي! سلْهُ: صارت الضيعة إليه قبل الخلافة أو بعدها؟ قال: فسأله: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: صارت إليَّ بعد الخلافة. قال: فأطلِقها له. قال: قد فعلتُ. فقال العباس بن محمد: والله! يا أمير المؤمنين، لهذا المجلسُ أحبُّ إليَّ من عشرين ألف ألف درهم!»[4].

---

(١) مراده: أنه يخاف من قوة الله ﷻ.

(٢) ابن نهيك: هو عثمان بن نهيك قائد حرس أبي جعفر المنصور.

(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٣٢/ ٣٩٢.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٥٨٦.

لقد كانت الحضارة الإسلامية تُعنى بجميع الأفراد، ولم تُفرِّق المؤسسة القضائية الإسلامية بين الرعايا على أساس الدين أو الجنس أو المكانة الاجتماعية، كما كان عند الرومان والفرس، أو حتى عند العرب أنفسهم قبل الإسلام، وكون خليفة المسلمين يخضع لقرار المؤسسة القضائية، ويُنفِّذ هذا القرار لرجل من عامة المسلمين- قد لا يكون صاحب منصب أو قبيلة تسانده، أو مال يتزلَّف به - لَيُؤَكِّد على رقي الحضارة الإسلامية، ويُعمِّق عندنا أن هذه الحضارة كانت تحترم مواطنيها، وتقف بجوار الضعيف والمظلوم منهم.

بل رأينا من الخلفاء، من يُقدِّم النظر في المظالم على عيادة أمه المريضة وزيارتها؛ فقد حُكي أن الخليفة الهادي (ت ١٧٠هـ) «ركب يومًا يريد عيادة أمه الخيزران من علَّة كانت وجدتها، فاعترضه عمر بن بزيع[1]، فقال له: يا أمير المؤمنين، ألا أدلك على وجه هو أعود عليك من هذا؟ فقال: ما هو يا عمرُ؟ قال: المظالم، لم تنظر فيها منذ ثلاث. قال: فأومأ إلى المُطْرِقَة[2] أن يميلوا إلى دار المظالم، ثم بعث إلى الخيزران بخادم من خدمه يعتذر إليها من تخلفه، وقال: قل لها: إن عمر بن بزيع أخبرنا من حق الله بما هو أوجب علينا من حقِّك، فملنا إليه، ونحن عائدون إليك في غد إن شاء الله»[3].

وقد كان الخليفة العباسي المأمون يُخَصِّصُ يوم الأحد من كل أسبوع للنظر في المظالم، وفي يوم من أيام جلوسه جاءته امرأة في ثياب رثّة «فقالت:

يَا خَيْرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى لَهُ الرَّشَدُ ... وَيَا إِمَامًا بِهِ قَدْ أَشْرَقَ الْبَلَدُ

تَشْكُو إِلَيْكَ عَمِيدَ الْمُلْكِ أَرْمَلَةٌ ... عَدَا عَلَيْهَا فَمَا تَقْوَى بِهِ أَسَدُ

فَابْتَزَّ مِنْهَا ضِيَاعًا بَعْدَ مَنْعَتِهَا ... لَمَّا تَفَرَّقَ عَنْهَا الأَهْلُ وَالْوَلَدُ

فأطرق المأمون يسيرًا ثمَّ رفع رأسه وقال:

مِنْ دُونِ مَا قُلْتِ عِيلَ الصَّبْرُ وَالْجَلَدُ ... وَأَقْرَحَ الْقَلْبَ هَذَا الْحُزْنُ وَالْكَمَدُ

---

(١) هو عمر بن بزيع الكاتب: كان يخلف الربيع بن يونس في وزارته للهادي، فلما مات الربيع بقي عمر هذا في نيابة الوزارة إلى أن مات الهادي. ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد ٥/ ٣١.

(٢) المطرقة: أي الرجَّالة، ومفردها مطرق، وهو الراجِل، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة طرق ١٠/ ٢١٥.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٦١٠.

هَـــذَا أَوَانُ صَـــلاَةِ الظُّهْـــرِ فَـــانْصَرِفي وَأَحْضِري الْـخَصْمَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَعِدُ
الْـمَجْلِسُ السَّبْتُ إنْ يُقْضَ الْـجُلُوسُ لَنَا أُنْصِـفْكِ مِنْـهُ وَإلاَّ الْـمَجْلِسُ الأَحَـدُ

فانصرفت وحضرت يوم الأحد في أوّل النّاس، فقال لها المأمون: من خصمك؟ فقالت: القائم على رأسك العبَّاس بن أمير المؤمنين (ابنه)، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم: أجلسها معه وانظر بينهما. فأجلسها معه، ونظر بينهما بحضرة المأمون، وجعل كلامها يعلو، فزجرها بعض حجَّابه، فقال له المأمون: دعها فإنَّ الحقَّ أنطقها والباطل أخرسه. وأمر بردِّ ضياعها عليها. ففعل المأمون في النَّظر بينهما حيث كان بمشهده، ولم يباشره بنفسه لما اقتضته السِّياسة؛ من وجهين: أحدهما: أنَّ حكمه ربَّما توجَّه لولده، وربَّما كان عليه، وهو لا يجوز أن يحكم لولده، وإن جاز أن يحكم عليه. والثَّاني: أنَّ الخصم امرأةٌ يجلُّ المأمون عن محاورتها... وباشر المأمون تنفيذ الحكم وإلزام الحقِّ»[1].

وتأديبًا من الخلفاء للعمال الظالمين «كان المنْصُور إذا عزل عاملاً أخذ ماله وتركه في بيت مالٍ مفرد سمَّاه بيت مال المظالم، وكتب عليه اسم صاحبه»[2]، لكن هذه المصادرات كانت إلى حين؛ إذ كانت غايتها تأديب هؤلاء الولاة وترهيبهم؛ ولذلك قال المنْصُور لابنه المهدي: «قد هيَّأت لك شيئًا، فإذا أنا متُّ فادع من أخذتُ ماله فاردده عليه، فإنك تُسْتَحْمد بذلك إليهم وإلى العامة. ففعل المهدي ذلك»[3].

وكان قضاء المظالم قد عُرف في الأندلس باسم «خُطَّة المظالم» التي ظهرت في وقت مبكِّر منذ الدولة الأموية في الأندلس، لكن لم تتَّضح واجباتها إلا في عصر الخلافة في القرن الرابع الهجري.

وقد مرَّت خُطَّة المظالم في المغرب والأندلس بتطور يختلف عن مثيلتها في الشرق الأموي والعباسي؛ إذ كانت أقل منزلة من رتبة «قاضي الجماعة»، أو ما يُسمى في المشرق بـ«قاضي القضاة»، ولم يَلِ هذه الوظيفة من الأمراء والخلفاء في الأندلس والمغرب إلا

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٤٦، ١٤٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٢٢٤.
(٣) ابن الأثير: السابق.

القليل منهم؛ ولذلك كان المُتَوَلُّون لهذه المهمة من الفقهاء والعلماء الراسخين، ومن أشهر من تولَّى المظالم في إفريقية محمد بن عبد الله (ت ٣٩٨هـ) الذي قال في حقه ابن عذارى: «كانت وطأته اشتدت على أهل الريب والفساد، بالضرب والقتل وقطع الأيدي والأرجل، لا تأخذه فيها لومة لائم»[١].

وبلغت شهرة ومكانة بعض مَنْ وَلِيَ خطة المظالم في الأندلس درجة عالية بين الخاصة والعامة، وترقى بعضهم في المناصب الإدارية العليا في الدولة، فهذا «أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس قد تقلَّد خطة المظالم بعهد المنصور محمد بن أبي عامر؛ فكانت أحكامه شدادًا، وعزائمه نافذة؛ وله على الظالمين سَوْرة[٢] مرهوبة، وشارك الوزراء في الرأي؛ إلى أن ارتقى إلى ولاية القضاء بقرطبة، مُجْمِعًا إلى خُطة الوزارة والصلاة؛ وقلَّ ما اجتمع ذلك لقاضٍ قبله بالأندلس»[٣].

واهتمَّ كثير من ولاة المسلمين بالنظر في المظالم كما كان الحال مع الخلفاء؛ فقد كان كافور الإخشيدي يجلس للمظالم يوم السبت من كل أسبوع، واستمرَّ على هذه العادة إلى أن توفي[٤]، وكذلك كان دأب أمراء السلاجقة، فقد خَصَّص الأمير طغرلبك يومين من كل أسبوع للنظر في المظالم، وكانت هذه عادة ملوكهم[٥]، وكان الملك الْعَزِيز في الدولة الأيوبية يجلس للمظالم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع[٦]، ومثل ذلك ما كان في الدولة السعدية في المغرب (٩٦١ - ١٠٦٩هـ)؛ إذ خَصَّص سلطانها أحمد المنصور (ت ١٠١١هـ) مجلسًا للنظر في المظالم سمَّاه «الديوان»، وكان الديوان يُعقد يوم الأربعاء من كل أسبوع للمشورة فيما ينوب من جلائل الأمور، وعظيم النوازل، وفي هذا الديوان يُظهر شكايته مَنْ لم يجد سبيلاً للوصول إلى السلطان[٧].

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ص١١٢.

(٢) سَوْرَة السلطان: سطوته واعتداؤه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سور ٤/ ٣٨٤.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص٨٦.

(٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤/ ٣١٥.

(٥) المصدر السابق ٤/ ٣٨٢.

(٦) المقريزي: السلوك ١/ ٢٤٧.

(٧) الناصري: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ٥/ ١٨٨.

وقد اهتمَّ المماليك بولاية المظالم، وعَيَّنُوا لها خيار القضاة والفقهاء، ولم يمنع ذلك من نظرهم في بعض المظالم، فقد ذكر المقريزي في حوادث عام (٦٦١هـ) أن رجلين من أهل الإسكندرية قدما على سلطان مصر ركن الدين بيبرس البندقداري (ت ٦٧٦هـ) «أحدهما يقال له ابن البوري، والآخر يُعرف بالمكرم بن الزيات، ومعهما أوراق تتضمن استخراج أموال ضائعة، فاستدعى السلطان في يوم الثلاثاء سادسه الأتابك والصاحب والقضاة والفقهاء، وأُمِرَتْ فقُرِئت، وصار كلما ذُكِر له باب مظلمة سدَّه، ويعودُ على المذكورين بالإنكار، حتى انتهت القراءة. فقال: اعلموا أني تركتُ لله تعالى ستمائة ألف دينار من التصقيع والتقويم والراجل والعبد والجارية وتقويم النخل، فعوَّضني الله من الحلال أكثر من ذلك، وطلبت جرائد الحساب فزادت بعد حطِّ المظالم جملة، ومن ترك شيئًا لله عَوَّضه الله خيرًا وأمر بإشهار ابن البوري»[1].

ففي هذا الموقف، نجد أن السلطان يُحاسب معظم أجهزة الدولة؛ هم: وزير الحربية، ورئيس الوزراء، والمؤسسة القضائية، وكذا الفقهاء على تقصيرهم في ضياع أموال الرعية، ويُذَكِّرهم بأنه ترك لله تعالى آلاف الدنانير التي ارتأى أنها لم تكن من حقِّه، حثًّا لهم على الحفاظ على الأموال، بل يعزل السلطان أحد الرجلين اللذين أتيا إليه بهذه الأوراق، ويأمر بإشهاره وفضحه في القاهرة؛ لأنه لم يُعلم السلطان بهذه الواقعة في وقتها.

وكان كثير من سلاطين المماليك يذهبون إلى الميادين العامة لقضاء مظالم الرعية؛ فكان منهم سيف الدين برقوق (ت ٨٠١هـ)، ففي حوادث عام (٧٩٢هـ) يذكر المقريزي «أن برقوق قد جلس بالميدان تحت القلعة للنظر في المظالم والحُكْم بَيْنَ الناس على عادته، فهرع الناس إليه، وأكثروا من الشكايات، فكثر خوف الأكابر وفزعهم، وترقَّب كل منهم أن يُشْتكى إليه»[2].

إن نظر الخلفاء والأمراء في المظالم على مدار تاريخ الحضارة الإسلامية، ليُؤَكِّد على أن كل الناس تحت طائلة القانون والمحاكمة إذا أخطئوا، لا ميزة في ذلك لطائفة الحكام

---

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٥٦٠.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٨٦.

والأمراء على من سواهم؛ فمعاقبة الأمراء وقادة الجند والولاة والوزراء وكبار رجال الدولة بمن فيهم الخليفة نفسه، لتؤكد لنا على نزاهة ورفعة الحضارة الإسلامية، ولم تكن الحضارات كالفارسية والرومانية، أو حتى في العصور الحديثة كمحكمة العدل الدولية، لتُضارع أو تشابه عمل ولاية المظالم في حضارتنا الإسلامية الخالدة، التي كانت تأخذ على يد الظالم دون محاباة، أو تكيل بمكيالين، كما في عصرنا هذا!

وبعدُ، فإننا لن نستطيع أن نجمع كل ما تميزت به المؤسسة القضائية في الحضارة الإسلامية في فقرات قليلة، أو وريقات متعددة، فلا ريب أن هذا غمطٌ للحق، وبُعْدٌ عن جادَّة الصواب، ولكن تلك المواقف الرائعة التي أتينا بها ما هي إلا دليل على فيض هذه المؤسسة العريقة من المواقف والنظريات، التي سنَّت للمؤسسات الدستورية والقانونية في العالم المعاصر الأسس العامة، والمنهجية السليمة للتعامل في هذا السبيل المهم.

* * *

الفصل الخامس

المؤسسة الصحية

إن من أروع ما قامت عليه الحضارة الإسلامية هو جمعها بين حاجة الجسم وحاجة الرُّوح، واعتبارها الاهتمام والعناية بالجسم ومطالبه مطلبًا ضروريًّا؛ لتحقيق حياة طيبة هانئة للإنسان، يَنْعَمُ فيها الجسد، وتُشْرِقُ فيها الرُّوح، وقد قال رسول الله ﷺ، وهو مؤسِّس هذه الحضارة: «إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[١].

وإذا ما علمنا مقاومة الإسلام للأمراض وانتشارها، وحثَّه وترغيبه في طلب العلاج المكافح لها؛ عَلِمْنَا أي أُسُسٍ قويَّة قام عليها بناء حضارة الإسلام في ميدان الصحَّة، ومبلغَ ما أفاده العالم من هذه الحضارة في إقامة المستشفيات والمعاهد الطبية، وتخريج الأطباء الذين لا تزال الإنسانية تفخر بأياديهم على العلم عامَّة، والطبِّ خاصَّة[٢].

وقد تمثَّل دور المؤسسة الصحية في الحضارة الإسلامية في تقديم الرعاية الصحية، ومساعدة المرضى، وبالأخصِّ من الفقراء والمحتاجين؛ وذلك عن طريق المستشفيات، التي كانت تُقَدِّم خدمات جليلة في علاج المرضى وإطعامهم ومتابعتهم؛ سواء من المتردِّدِينَ عليها أو غيرهم بالوصول إليهم في منازلهم؛ تلك المستشفيات التي انتشرت في ربوع العالم الإسلامي، وكانت مصدر إسعاد وطمأنينة للمجتمع الإسلامي بكل فئاته؛ حيث يَتَلَقَّى فيها المريض العلاج والرعاية التامَّة، والكسوة والغذاء، إضافة إلى أنَّ كثيرًا من هذه المستشفيات كانت تقوم بوظيفة تعليم الطبِّ إلى جانب قيامها بوظيفتها الأساسيَّة، وهي معالجة المرضى والسهر على راحتهم. وقد أضاف ذلك كله للحضارة الإسلامية بُعْدًا إنسانيًّا آخر، وذلك ما نَتَعَرَّف عليه من خلال المبحثين التاليين:

- المبحث الأول: المستشفيات في الحضارة الإسلامية
- المبحث الثاني: المرضى والبعد الإنساني عند المسلمين

(١) البخاري عن عبد الله بن عمرو: كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم (١٨٧٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به (١١٥٩).

(٢) انظر: مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص ١٠٧.

المبحث الأول

المستشفيات في الحضارة الإسلامية

لعلَّ من أجَلِّ إسهامات المسلمين الحضارية في مجال الصحة، وأعظمها على الإطلاق أنهم أَوَّل مَنْ أسس المستشفيات في العالم، بل إنهم سبقوا غيرهم في ذلك الأمر بأكثر من تسعة قرون!

فقد أُسِّس أَوَّل مستشفى إسلامي في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، والذي حكم من سنة (٨٦ هـ/ ٧٠٥م) إلى سنة (٩٦ هـ/ ٧١٥م)، وكان هذا المستشفى متخصِّصًا في الجُذام[1]، وأُنشئت بعد ذلك المستشفيات العديدة في العالم الإسلامي، وبلغ بعضها شأوًا عظيمًا؛ حتى كانت هذه المستشفيات تُعَدُّ قلاعًا للعلم والطبِّ، وتُعتبر من أوائل الكليات والجامعات في العالم، بينما أُنشِئ أَوَّل مستشفى أوربي في باريس بعد ذلك بأكثر من تسعة قرون.

صورة (٣٢) البيمارستان النوري في دمشق

وكانت المستشفيات تُعرف بـ (البيمارستانات) أي دُور المرضى، وكان منها **الثابت ومنها المتنقِّل**؛ فالثابت هو الذي يُنشَأ في المدن، وقلَّما تجد مدينة إسلامية - ولو صغيرة - بغير مستشفى، أمَّا المستشفى المتنقِّل فهو الذي يجوب القرى البعيدة والصحارى والجبال.

وكانت المستشفيات المتنقِّلة تُحْمَل على مجموعة كبيرة من الجِمال - وصلت في بعض الأحيان إلى أربعين جملاً - وذلك في عهد السلطان محمود السلجوقي الذي حكم من سنة (٥١١هـ/ ١١١٧م) إلى سنة (٥٢٥ هـ/ ١١٣١م)، وكانت هذه القوافل مُزوَّدة بالآلات العلاجية والأدوية، ويُرافقها عدد من الأطباء، وكان بمقدورها

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٢٩.

الوصول إلى كل رقعة في الأُمَّةِ الإسلامية[١].

وقد وصلت المستشفيات الثابتة في المدن الكبرى إلى درجة راقية جدًّا في المستوى، وكان من أشهرها المستشفى العضُدي ببغداد، والذي أُنشئ في سنة (٣٧١ هـ/ ٩٨١م)، والمستشفى النوري بدمشق، والذي أنشئ في سنة (٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م)، والمستشفى المنصوري الكبير بالقاهرة، والذي أُنشئ سنة (٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤م)، وكان بقرطبة وحدها أكثر من خمسين مستشفى[٢].

وكانت هذه المستشفيات العملاقة تُقَسَّم إلى أقسام بحسب التخصُّص؛ فهناك أقسام للأمراض الباطنة، وأقسام للجراحة، وأقسام للأمراض الجلدية، وأقسام لأمراض العيون، وأقسام للأمراض النفسية، وأقسام للعظام والكسور، وغيرها.

ولم تكن تلك المستشفيات مجرَّد دُورِ علاج، بل كانت كُلِّيَّات طبٍّ حقيقية على أرقى مستوى؛ فكان الطبيب المتخصِّص - الأستاذ - يمرُّ على الحالات في الصباح، ومعه الأطباء الذين هم في أُولَى مراحلهم الطبية، فيُعَلِّمُهُمْ، ويُدَوِّنُ ملاحظاته، ويصف العلاج، وهم يُراقبون ويتَعَلَّمون، ثم ينتقل الأستاذ بعد ذلك إلى قاعة كبيرة، ويجلس حوله الطلاب، فيقرأ عليهم الكتب الطبية، ويشرح ويوضِّح، ويُجِيبُ عن أسئلتهم، بل إنه يعقد لهم امتحانًا في نهاية كل بَرْنَامج تعليمي مُعَيَّنٍ ينتهون من دراسته، ومن ثَمَّ يُعطيهم إجازة في الفرع الذي تَخَصَّصُوا فيه.

وكانت المستشفيات الإسلامية تضمُّ في داخلها مكتبات ضخمة، تحوي عددًا هائلاً من الكتب المتخصِّصَة في الطب، والصيدلة، وعلم التشريح، ووظائف الأعضاء، إلى جانب علوم الفقه المتعلِّقَة بالطبِّ، وغير ذلك من علوم تهمُّ الطبيب.

ومِمَّا يُذْكَرُ على سبيل المثال - لنعرف ضخامة هذه المكتبات - أن مكتبة مستشفى ابن طولون بالقاهرة كانت تضمُّ بين جنباتها أكثر من مائة ألف كتاب.

وكانت تُزرَع - إلى جوار المستشفيات - المزارع الضخمة، التي تنمو فيها الأعشاب

(١) ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص٤٠٥.

(٢) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص٣٢٨، ٣٢٩.

الطبية والنباتات العلاجية؛ وذلك لإمداد المستشفى بما يحتاجه من الأدوية.

أمَّا **الإجراءات** التي كانت تُتَّخَذ في المستشفيات لتجنُّب العدوى فكانت من نوع خاصٍّ فريد؛ فكان المريض إذا دخل المستشفى يُسَلِّم ملابسه التي دخل بها، ثم يُعْطَى ملابس جديدة مجانية؛ لمنع انتقال العدوى عن طريق ملابسه التي كان يرتديها حين مرض، ثم يدخل كل مريض في عنبر مختصٍّ بمرضه، ولا يُسمح له بدخول العنابر الأخرى؛ لمنع انتقال العدوى أيضًا، وينام كل مريض على سرير خاصٍّ به، وعليه ملاءات جديدة وأدوات خاصَّة.

ولنا أن نقارن ذلك بالمستشفى الذي أُنشئ في باريس بعد هذه المستشفيات الإسلامية بقرون؛ حيث كان المرضى يُجْبَرُونَ على الإقامة في عنبر واحد، وذلك بصرف النظر عن نوعية أمراضهم، بل ويُضطرون لنوم ثلاثة أو أربعة، وأحيانًا خمسة من المرضى على سريرٍ واحد، فتجد مريض الجدري إلى جوار حالات الكسور، إلى جوار السيدة التي تلد! كما كان الأطباء والممرِّضون لا يستطيعون دخول العنابر إلاَّ بوضع كمائم على الأنف من الرائحة شديدة العفونة في داخل هذه العنابر! بل كان الموتى لا يُنقلون إلى خارج العنابر إلاَّ بعد مرور أربعٍ وعشرين ساعةً على الأقلِّ من الوفاة! ولنا أن نتخيَّل مدى خطورة هذا الأمر على بقية المرضى[1]!

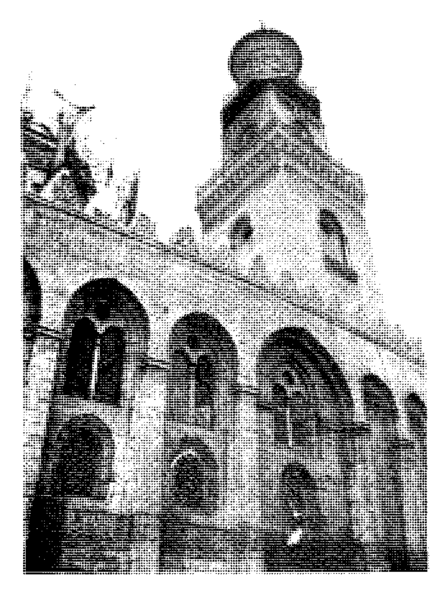
وإذا أردنا أن نستعرض بعضًا من المستشفيات الرائدة في التاريخ الإسلامي، فكان من أعظمها: **المستشفى العضُدي**، وقد أنشأه عضد الدولة ابن بويه عام (٣٧١هـ/ ٩٨١م) في بغداد، وكان يقوم بالعلاج فيه عند إنشائه أربعة وعشرون طبيبًا، تزايدوا بعد ذلك جدًّا، كما كان يضمُّ مكتبة علمية ضخمة، وصيدلية، ومطابخ، وكان يخدم فيه عدد ضخم من الموظَّفِينَ والفرَّاشين، وكان الأطباء يتناوبون على خدمة المرضى؛ بحيث يكون هناك أطباء بالمستشفى أربعًا وعشرين ساعة يوميًّا.

ومن المستشفيات الإسلامية العظمى أيضًا: **المستشفى النوري الكبير** بدمشق، والذي أنشأه السلطان العادل نور الدين محمود، وذلك في سنة (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م)، وكان من

(١) انظر: مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١١٦، ١١٧.

أَجَلِّ المستشفيات وأعظمها، واستمرَّ في العمل فترة طويلة جدًّا من الزمان؛ حيث بقي يستقبل المرضى حتى سنة (١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م) أي قرابة ثمانمائة سنة!

كذلك من أعظم المستشفيات في تاريخ الإسلام: **المستشفى المنصوري الكبير**، الذي أنشأه الملك المنصور سيف الدين قلاوون في القاهرة، وذلك سنة (٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م)، وكان آية من آيات الدنيا في الدقَّة والنظام والنظافة، وكان من الضخامة بحيث إنه كان يُعَالِجُ في اليوم الواحد أكثر من أربعة آلاف مريض.



صورة (٣٣) بيمارستان المنصوري الكبير

ولا ننسى في هذا المضمار **مستشفى مَرَّاكش**، والذي أنشأه المنصور أبو يوسف يعقوب، ملك دولة الموحِّدين بالمغرب، والذي حكم من سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) إلى سنة (٥٩٥هـ/ ١١٩٩م)، وكان بناء هذا المستشفى آية من آيات الإتقان والروعة؛ فقد غُرست فيه جميع أنواع الأشجار والزروع، بل كانت في داخله أربع بحيرات صناعية صغيرة، وكان على مستوًى عالٍ جدًّا من حيث الإمكانات الطبية، والأدوية الحديثة، والأطباء المهرة[1]، لقد كان - بحقٍّ - دُرَّة في جبين الحضارة الإسلامية.

ليس هذا فقط، بل كانت هناك **المستشفيات المتخصِّصة**، التي لا تُعَالِجُ إلاَّ نوعًا مُعَيَّنًا من الأمراض: كمستشفيات العيون، ومستشفيات الجذام، ومستشفيات الأمراض العقلية، وغير ذلك.

وأعجب منه وأغرب أنه كانت توجد في بعض المدن الإسلامية الكبرى أحياء طبية متكاملة؛ فقد حدَّث ابن جبير في رحلته التي قام بها في سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) تقريبًا، أنه

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١١٠-١١٨.

رأى في بغداد - عاصمة الخلافة العباسية - حيًّا كاملاً من أحيائها يشبه المدينَة الصغيرة، يتوسَّطه قصر فخم جميل، تحيط به الحدائق والبيوت المتعدِّدَة، وكان كل ذلك وَقْفًا على المرضى، وكان يَؤُمُّه الأطباء من مختَلَفِ التخصصات، فضلاً عن الصيادلة وطلبة الطب، وكانت النفقة جارية عليهم من الدولة ومن الأوقاف التي يجعلها الأغنياء من الأُمَّة لعلاج الفقراء وغيرهم[1].

* * *

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١٠١.

المبحث الثاني
المرضى والبعد الإنساني عند المسلمين

نريد بعد ما سبق أن نَلْفِتَ النظر إلى بُعْدٍ رائع تميَّزَ به الأداء الطبي عند المسلمين في زمن حضارتهم، ذلكم هو البعد الإنساني، والذي يكمن في احترام الإنسان بصفة عامَّة، والسعي الحثيث لرفع المعاناة والألم والحرج عنه، أيًا كان هذا الإنسان، وأيًّا كانت معاناته.

ولم يكن غريبًا على أطباء المسلمين أن يهتموا بالبُعْدِ الإنساني في تعاملهم مع المريض؛ لأن قوانين التشريع الإسلامي تنطق بهذا النهج الأخلاقي الفريد؛ فالإسلام ينظر إلى المريض على أنه إنسان في أزمة، ومن ثَمَّ يحتاج إلى مَنْ يقف إلى جواره، ويأخذ بيده، ويرفع من معنوياته، ويهدِّئُ من روعه، ويخفِّفُ عن آلامه الجسديَّة، فضلاً عن المعنوية.

فالتشريع الإسلامي يسعى إلى رفع الحرج عن المريض بكل وسيلة، ويخفِّفُ عنه الأعباء إلى أقصى درجة؛ فجعل للمريض رخصة الإفطار في رمضان، وإنْ عَاقَهُ اعتلال صحَّته عن الحجِّ فلا حجَّ عليه، وليس عليه إثم، كما أن المريض الذي لا يستطيع الصلاة على صورتها الطبيعية يُعطى رخصة الصلاة في أوضاع تناسبه جالسًا أو نائمًا، أو حتى بِعَيْنَيْهِ! والمريض الذي يضرُّه الماء في الوضوء يتيَمَّمُ، والذي لا يستطيع الوضوء ولا التيمُّم لسبب ما يُصَلِّي دون أيٍّ منهما، ويُسَمَّى فَاقِدَ الطَّهُورَيْنِ!

حتى في أوقات الجهاد في سبيل الله، رفع التشريع الإسلامي الحرج عن المريض، فلا يجاهد ولا إثم عليه؛ يقول ﷻ: ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1].

بل إن التشريع الإسلامي لم يكتفِ برفع بعض التكاليف، والترخيص في بعض العبادات والفروض، وإنما يحضُّ وبشدَّة على الوقوف إلى جوار المريض، ورفع رُوحه المعنوية إلى أقصى درجة؛ فجعل رسول الله ﷺ زيارة المريض وعيادته في بيته، أو في المستشفى حقًّا له على المسلمين، فقال فيما رواه أبو هريرة ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ

(١) (النور: ٦١).

ستٌّ...». وذكر منها: «وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ»[(١)]. ثم بَشَّر بالجنة نصيبًا لمن عاد مريضًا، فقال فيما رواه أبو هريرة ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً»[(٢)].

وأمر رسول الله ﷺ أن تذكر الخير عند المريض، وأن ترفع من روحه المعنوية، وتُطْمِعَهُ في الشفاء وفي طول العمر، فقد روى أبو سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَى الْمَرِيضِ فَنَفِّسُوا لَهُ فِي الأَجَلِ[(٣)]؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لاَ يَرُدُّ شَيْئًا، وَهُوَ يَطِيبُ بِنَفْسِ الْمَرِيضِ»[(٤)].

بل إن رسول الله ﷺ يرتفع بروح المريض المعنوية إلى السماء عندما يخبره أن هذا المرض هو كفارة لذنوبه، وهو مدعاة لنجاته في الآخرة إن صبر، فقد روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ، وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»[(٥)]. ويقول فيما رواه أنس ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ[(٦)] فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ»[(٧)].

وهكذا ترتفع معنويات المريض المؤمن إلى السماء، ولا يشعر بأنه أصبح كمًّا عاجزًا مهملاً في المجتمع، بل إن الجميع يهتم به ويرعاه.

ولم تكن هذه النظرة الإسلامية الراقية للمرضى المسلمين فقط، بل كانت لأي إنسان مريض مهما كانت ديانته، وذلك انطلاقًا من الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[(٨)]،

---

(١) البخاري: كتاب الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز (١١٨٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب حق المسلم للمسلم (٢١٦٢) واللفظ له.

(٢) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب زيارة الإخوان (٢٠٠٨) وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجه (١٤٤٣)، وأحمد (٨٥١٧)، وابن حبان (٢٩٦١)، وحسنه الألباني. انظر: صحيح الجامع (٦٣٨٧).

(٣) نَفِّسُوا لَهُ فِي الأَجَلِ: أي ارفعوا من أمله في الشفاء وطول الأجل. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٠/ ١٢١، ١٢٢، والمباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٦/ ٢٦٣.

(٤) الترمذي: كتاب الطب (٢٠٨٧) وقال: حديث غريب، وابن ماجه (١٤٣٨)، وابن أبي شيبة (١٠٨٥١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٢١٣)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٠٨.

(٥) البخاري: كتاب المرضى، باب ما جاء في ثواب المرض (٥٣١٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٣).

(٦) بحبيبتيه: أي بعينيه. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٠/ ١١٦.

(٧) البخاري: كتاب المرضى باب فضل من ذهب بصره (٥٣٢٩)، وأحمد (١٢٤٩٠)، وأبو يعلى (٣٧١١)، والطبراني الأوسط (٢٥٠)، والبيهقي: شعب الإيمان (٩٩٥٨).

(٨) (الإسراء: ٧٠).

فالإنسان بصفة عامة مُكرَّم؛ ولذلك نهتمُّ برعايته حين مرضه، وبعلاجه إذا اشتكى ولو لم يكن مسلمًا، وقد زار رسول الله ﷺ غلامًا يهوديًّا عندما مرض[1]، وأفرد البخاري لذلك بابًا خاصًّا في صحيحه فقال: «باب عيادة المشرك».

هذا البُعْدُ الإنساني العميق الذي زرعه فينا الشرع الإسلامي الحنيف جعل الأطباء المسلمين في كل عصور الحضارة الإسلامية يتعاملون مع المريض على أنه إنسان، وليس على أنه (شيء لا إحساس له)، ولا على أساس أنه مصدر للرزق عن طريق أخذ الأجر منه، بل كان التعامل معه دائمًا على أنه إنسان في أزمة، ويحتاج إلى من يقف إلى جواره، وليست المساعدة طبية فقط، ولكن تتعدَّى ذلك إلى المساعدة النفسية والاجتماعية والاقتصادية، وغير ذلك.

وبهذه الروح النبيلة تعامل الأطباء المسلمون مع مرضاهم، فكانت **الخدمة الطبية** الراقية تُقَدَّم للمرضى في الدولة الإسلامية دون تفرقة بين غني أو فقير، ولا بين عربي أو غير عربي، ولا بين أبيض أو أسود، ولا بين حاكم ولا محكوم، ولا بين مسلم أو غير مسلم، ففي معظم الأحيان كان العلاج مجانيًّا للجميع، وكان المرضى ينعمون في نفس المستوى من الخدمة أيًّا كان مستواهم.

ولنطلع معًا على طرف من نظام المستشفيات في الحضارة الإسلامية، والذي يعطي انطباعًا عن البعد الإنساني الذي نقصده.

فبمجرَّدِ دخول المريض للمستشفى يُفحص أوَّلاً بالقاعة الخارجية، فإن كان به مرض خفيف يُكتب له العلاج، ويُصرف من صيدلية المستشفى، وإن كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى كان يُقَيِّد اسمه، ويُدخل إلى الحمام للاغتسال، وتُخلع عنه ثيابه التي دخل بها فتوضع في مخزن خاصٍّ، ثم يُعْطَى ثيابًا جديدة خاصة للمستشفى، ويُدخل إلى القاعة المخصَّصَة لأمثاله من المرضى، ويخصَّص له سرير مفروش بأثاث جيد، ولا يُسمح بوجود مريض آخر معه في نفس السرير مراعاة لنفسيته.

---

(١) انظر: البخاري عن أنس بن مالك: كتاب المرضى، باب عيادة المشرك (٥٣٣٣).

وبعد دخول المريض للمستشفى الإسلامي يُعطى الدواء الذي يُعَيِّنُه الطبيب، كما يُوصَف له الغذاء الموافق لصحَّتِه، وبالمقدار المفروض له، ولم يكن يُضَيَّقُ أبدًا على المرضى في نوع الطعام الذي يأكلونه، بل كان يُقَدَّمُ لهم أطايب الطعام؛ فقد كان غذاء المرضى يحتوي على لحوم الأغنام، والأبقار، والطيور، والدجاج، كذلك لا يُضَيَّقُ عليهم أبدًا في كَمِّيَّات الطعام، بل كانت من علامات الشفاء أن يأكل المريض رغيفًا كاملاً ودجاجة كاملة في الوجبة الواحدة.

فإذا أصبح المريض في دَوْرِ النقاهة أُدْخِل القاعة المخصَّصة للناقهين، حتى إذا تمَّ شفاؤه أُعطِيَ ثيابًا جديدة دون أجر، وليس هذا فقط بل كان يُعْطَى مبلغًا من المال يكفيه إلى أن يصبح قادرًا على العمل! وذلك حتى لا يضطر إلى العمل في فترة النقاهة فتَحْدُث له انتكاسة[(١)]!

ولا تَسَلْ بَعْدُ عن مدى الطمأنينة التي ينعم بها الفقير في المجتمع الإسلامي عندما يعلم أنه إذا مَرِض فسيجد مثل هذا المستوى من الرعاية المجانية دون أن يحتاج إلى إراقة ماء وجهه، أو البحث عن وساطات، أو شفاعات لينال ما يستحقُّ من الاهتمام والعلاج، فضلاً عن مدِّ يده متسوِّلاً ليتمَّ علاجه!

وما أروع توجيه أبي بكر الرازي لتلاميذه أن يكون هدفهم الأول إبراء مرضاهم أكثر من نيل أجورهم منهم، وأن يُعَالِجُوا الفقراء بمثل الاهتمام والعناية التي يُعَالِجُونَ بها الأمراء والأغنياء، وأن يُوهموا المرضى بالشفاء حتى لو كانوا هم أنفسهم لا يعتقدون بذلك؛ فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس[(٢)].

ولم يكن هذا المستوى العالي من الرعاية الصحية مقصورًا على المدن والحواضر الكبرى، بل حظيت كل بقاع الدولة الإسلامية بذات الاهتمام؛ وذلك من خلال المستشفيات المتنقِّلَة التي أشرنا إليها سابقًا، والتي كانت تجوب القرى، والنجوع، والجبال، والمناطق النائية بصفة عامَّة، والشاهد هنا أنه كان يُنظر إلى رعايا الدولة المسلمة – في مجال الرعاية الطبية – نظرة

---

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١١٠.

(٢) عبد المنعم صفو: تعليم الطب عند العرب، أبحاث الندوة العلمية للجمعية السورية لتاريخ العلوم ص٢٧٩.

متساوية بغضِّ النظر عن بيئاتهم، ومستوياتهم الاجتماعية أو الاقتصادية.

بل إن النظرة الإسلامية الرحيمة للمريض تعدَّتْ كل طبقات المجتمع السوية لتشمل **نزلاء السجون** ممن أساءوا لمجتمعهم! فهؤلاء أيضًا كانوا يَجِدُون الرعاية الطبية الكافية؛ فهم بَشَرٌ، ومن أبناء المجتمع على أي حال، وما يَنْزِلُ بهم من الحبس والعقاب إنما هو لإعادة إصلاحهم، لا للقضاء عليهم بالموت البطيء الذي يتعرَّض له نزلاء كثير من السجون في عالم اليوم.

وقد كتب الوزير علي بن عيسى بن الجراح إلى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد: «.. فكَّرْتُ في أمرِ مَنْ في الحبوس (السجون)، وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض؛ فينبغي أن تُفرد لهم أطباء يدخلون إليهم كل يوم، وتُحمل إليهم الأدوية والأشربة، ويطوفون في سائر الحبوس، ويعالجون فيها المرضى»[1].

وما كان لهذا الفيض الإنساني أن يستمرَّ على مرِّ عصور الحضارة الإسلامية لولا ينابيع العطاء المتدَفِّقَة من قلوب أبناء الأُمَّة المسلمة والموازية لدعم الدولة نفسها، ونقصد هنا نظام **الأوقاف الخيرية**، وما كان يقوم به من دَوْرٍ في حُسن رعاية المرضى وإكرامهم؛ فقد كانت مستشفيات راقية بأكملها تعتمد على ريع وقف يرصده أحد المسلمين - بمن فيهم الحاكم نفسه - لتغطية كل احتياجات المستشفى بمرضاه، وأطبائه، ومفروشاته، وأغذيته، ونباتاته الطبية، وأدويته، إلى حدِّ الإنفاق على طلاب الطبِّ المتدرِّبِينَ في هذا المستشفى!

ولعلَّ من أشهر الأمثلة على ذلك المستشفى المنصوري الكبير الذي أسسه في القاهرة الملك المنصور سيف الدين قلاوون سنة (٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م)، وأوقف عليه ما يغطي نفقاته سنويًّا، وقد سبقت الإشارة إليه.

وفي صدد ذِكر الأوقاف الخيرية وأثرها في تغطية الجانب الإنساني في الطبِّ عند المسلمين لا بُدَّ أن نشير هنا إلى بعض الصور المبتكَرَة وغير المسبوقة في التعامل الإنساني مع

---

(١) ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص١٤٨.

نفسية المريض؛ فقد كان رِيع بعض الأوقاف يُخَصَّص لتوظيف اثنين يمرَّان بالمستشفيات يوميًّا، فيتحدَّثَان بجانب المرضى حديثًا خافتًا يَسْمَعُه المريض دون أن يراهما؛ يُوحِيَان إليه من خلال حديثهما بتحسُّن حاله! فيما كان يُعْرَف (بوقف خداع المريض)! وذلك لترتفع معنوياته، وبالتالي يتماثل للشفاء بصورة أسرع[1]!

ولم يكن ذلك البُعْدُ الإنساني الراقي في التعامل مع المرضى سلوكًا فرديًّا يمارسه بعض الأطباء، ولا كان مجرَّد حُبٍّ شعبي للخير والرحمة ينبع من قلوب العامَّة، بل كان سلوكًا عامًّا تتبنَّاه سياسات الدولة، وينتهجه أفراد الأُمَّة حُكَّامًا ومحكومين؛ فكثيرًا ما كان الخليفة أو الأمير يتفقَّد بنفسه المرضى ويُشْرِفُ على حُسْنِ معاملتهم، ويُذكر هنا أن المنصُور الموحدي (ملك دولة الموحدين بالمغرب) كانت له زيارة أسبوعية للمستشفى (المنصوري) بمَرَّاكش بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع؛ يطمئن فيها بنفسه على أحوال المرضى[2].

ومن الجوانب الإنسانية في تعامل الطب الإسلامي مع المرضى ما اشتملت عليه شريعة الإسلام من آداب تحفظ كرامة المريض، وتصون حياءه، وتضمن سير مراحل الفحص والعلاج دون انتهاك لخصوصياته.

ففي الشريعة الإسلامية لا يجوز - مثلاً - كشف عورة المريض إلاَّ لضرورة، وبالقَدْرِ المطلوب فقط في الفحص أو الجراحة، وما إلى ذلك، كما لا يجوز أن يَشْهَدَ فحص المريض أو المريضة شخص غير ذي صفة - وخاصة إذا كان من جنس مختلف - إلى جانب عدم جواز خلوة الطبيب بمريضة من النساء، إلاَّ مع وجود ذي مَحْرم لها، أو وجود امرأة أخرى كالممرضة مثلاً، كذلك راعت المستشفيات في الحضارة الإسلامية الفصل في أقسامها الداخلية بين الرجال والنساء.

وكان من الجوانب الإنسانية في تعامل الطبِّ الإسلامي مع المرضى كذلك، أن الشرع راعى حقوق المريض في العلاج؛ بأن سمح للطبيب الرجل أن يعالج المرأة، والعكس

---

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١١٢.

(٢) المصدر السابق ص١١٦.

كذلك؛ وذلك إن لم يوجد البديل الكفء من نفس الجنس، والذي يستطيع أن يقوم بالمهمة على الوجه الأكمل؛ وذلك حتى لا يفوت على المريض - رجلاً كان أو امرأة - فرصة العلاج الصحيح، بل إن الشرع أجاز كذلك أن يبحث المريض المسلم عن العلاج عند الأطباء غير المسلمين إن تعذَّر وجود من يستطيع علاجه من المسلمين، وذلك حفاظًا على صحة المريض وحياته.

ونختم هذا الفصل بأن المؤسسة الصحية في الحضارة الإسلامية قامت على عاطفة إسلامية خالصة لا مثيل لها في التاريخ، ولا يعرفها الغربيون حتى اليوم، ويكفي أنها جعلت الطبَّ والعلاج والغذاء للمرضى بالمجان، بل كانت تُعْطِي مرضى الفقراء الناقة وغيرها ممَّا يُنْفِق به على نفسه؛ وذلك ريثما يصحُّ تمامًا ويصبح قادرًا على العمل، ومن ثَـمَّ متابعة حياته اليومية، وهي نزعة إنسانية بلغت الذروة في السمو والعالمية.

***

الفصل السادس

الخانات والفنادق[١]

عرفت الحضارة الإسلامية نظام الفنادق منذ أيام الإسلام الأولى؛ فقد أشار القرآن الكريم إلى جواز دخول الأماكن العامة – ومن جملتها الفنادق – دلالة على واقعية الإسلام واجتماعيته؛ فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾[٢]، وقد عَلَّق الإمام الطبري على هذه الآية الكريمة بقوله: «ليس عليكم أيها الناس إثم وحرج أن تدخلوا بيوتًا لا ساكن بها بغير استئذان، ثم اختلفوا في ذلك، أيّ البيوت عنى؟ فقال بعضهم: عنى بها الخانات والبيوت المبنية بالطرق التي ليس بها سكان معروفون، وإنما بُنيت لمارَّة الطريق والسابلة، ليأووا إليها، ويُؤووا إليها أمتعتهم»[٣].

واللافت للنظر حقًّا، أن إنشاء الخانات منذ بواكير هذه الحضارة، ليؤكد على رقي المدنية الإسلامية، واهتمامها بأحوال المسافرين والغرباء، ولما كان ابن السبيل من جملة المستحقين لأموال الزكاة، فقد سعت المؤسسة الإدارية الإسلامية لتقديم كل ما يلزمه من طعام وشراب وسكنى، فكانت الخانات والفنادق من قبيل المصالح المرسلة التي ابتكرتها الشريعة الإسلامية، وتطبيقًا رائعًا تميزت به الحضارة الإسلامية على مدار تاريخها الطويل.

وقد انتشرت الخانات على طول الطرق التجارية بين المدن الإسلامية، وكان أكثر رُوَّادها من التجار وطلبة العلم، فكانت هذه الدور تُقَدِّم الضيافة من الطعام والشراب مجانًا للفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ومن ثَمَّ أُطلق على الخانات التي ظهرت وكانت تُقدِّم الطعام مجانًا دار الضيافة[٤].

وقد كانت هذه الخانات بمنزلة المأوى الحقيقي الذي أعدَّته الدولة أو فاعلو الخير

---

(١) الفندق: الخان، وهي كلمة فارسية الأصل، وبلغة أهل الشام خان من الخانات التي ينزلها الناس مما يكون في الطُّرُق والمَدَائن. ابن منظور: لسان العرب ١٠/ ٣١٣.

(٢) (النور: ٢٩).

(٣) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ١٩/ ١٥١.

(٤) فؤاد يحيى: جرد أثري لخانات دمشق، ص٦٩.

للمسافرين، فكانت تحميهم من حرِّ الصيف وبرودة الشتاء، فقد ذكر سعدان بن يزيد - وهو من علماء القرن الثالث الهجري - أنه التجأ إلى أحد الخانات في ليلة مطيرة فيها رعد وبرق وذلك في عام (٢٦٢هـ)، فوجد الخان قد شُغلت جميع غرفه وأَسِرَّته؛ نتيجة البرد الشديد[١].

وقد كانت هذه الخانات مهيأة بحيث يستطيع طلبة العلم أن يُذَاكروا فيها دون ضوضاء أو ضجيج، فقد ذكر ابن عساكر أن «أبا عمرو الصغير قال: نزلنا بعض الخانات بدمشق قُرب القصر فصلينا العصر، ونحن على أن نُبَكِّر إلى أحمد بن عمير، فإذا الخاني (القائم بأعمال الفندق) آتٍ يعدو ويقول: أين أبو عليٍّ الحافظ؟ فقلتُ: ها هنا. فقال: قد حضره الشيخ زائرًا. فغدوتُ فإذا الشيخ راكب على بغلة في الخان، فنزل عن البغلة، وصعد الغرفة التي نزلنا فيها، وسلَّم على أبي عليٍّ، ورحَّب به، وأظهر الفرح بوروده، وأخذ في المذاكرة معه إلى أن قربت العتمة، ثم قال: يا أبا عليٍّ جمعتَ حديث عبد الله بن دينار؟ فقال أبو عليٍّ: نعم. فقال: أخرجه إليَّ. فأخرجه أبو عليٍّ، فأخذه ووضعه في كفِّه وقام فركب»[٢].

وكان وجود مثل هذه الفنادق عاملاً مساعدًا لطلبة العلم في الذهاب إلى أي قطر من أقطار الدولة الإسلامية، فقد ذكر الذهبي أن علَّامة الأندلس بقي بن مخلد قد أتى إلى بغداد لتعلُّم الحديث من الإمام أحمد بن حنبل - وكان تحت الإقامة الجبرية، عقيب خروجه من السجن في محنة خلق القرآن - ولما أيقن من طول مُقامه في بغداد أجَّر غرفة في أحد فنادقها، فكان يذهب إلى الإمام أحمد كل يوم في هيئة رجل مسكين، فيأخذ منه الحديث والحديثين، فيرجع إلى غرفته في الفندق، حتى سُمح لأحمد بن حنبل بإلقاء دروسه علانية[٣]!

وقد تطوَّر أمر الفنادق في الحضارة الإسلامية؛ إذ لم يقتصر قصَّادها على التجار وطلاب العلم، فوجدنا بعض الخلفاء ينزلون بها في أوقات سفرهم، فقد نزل الخليفة

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٥/ ٣٩.
(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٥/ ١١٥.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٣.

العباسي المعتضد بفندق الحسين قرب مدينة الإسكندرونة (في تركيا الآن) وذلك في عام ٢٨٧هـ أثناء تفقده لأحوال الثغور والمدن الشامية[١].

بل اهتم كثير من الخلفاء بتشييد هذه الخانات والفنادق، حيث كانت تابعة لإدارة الدولة، يُنفق من خلالها على المسافرين والفقراء وطلاب العلم، وقد اشتهر الخليفة المستنصر بالله (ت ٦٤٠هـ) ببنائه لهذه الفنادق، التي كانت تؤوي الفقراء وأبناء السبيل[٢].

وممن اشتهر ببناء الفنادق المجانية الأمير نور الدين محمود؛ فقد نقل أبو شامة في «الروضتين» عن ابن الأثير، أن نور الدين محمود «بنى الخانات في الطرق، فأَمِنَ الناس، وحُفظت أموالهم، وباتوا في الشتاء في كَنٍّ[٣] من البرد والمطر»[٤].

ومما يلفت الانتباه أن بعض النساء قد اهتممن بتشييد الفنادق والخانات، رغبة منهن في طلب الأجر والثواب من الله تعالى؛ فقد بَنَتْ عصمة الدين بنت معين الدين أنر زوجة صلاح الدين المتوفاة عام (٥٨١هـ) فندق عصمة الدين في مدينة دمشق[٥]، كما بنت امرأة أخرى — لم يذكر ابن عساكر اسمها — فندق ابن العنَّازة في دمشق أيضًا[٦].

ولم تكن الفنادق متمركزة في عواصم الأقاليم الكبرى فقط؛ إذ وُجدت في كثير من القرى والأقاليم النائية؛ فقد حصر رسامٌ فرنسي يُدعى سيمون عدد الفنادق الموجودة في مدينة أصفهان - وكان قد زارها في عام (١٠٨٤هـ) - فوجدها ١٦٠٠ فندق[٧].

وقد كانت بعض هذه الخانات تحتوي على قسم خاص لحفظ الأمانات والأموال، فكانت بمثابة البنك في عصرنا الحاضر، وكان القائمون عليها من الرجال والنساء على السواء، ولم يكن يُسمح بِرَدِّ الأمانات والأموال إلا لأصحابها دون غيرهم، وهذا ما

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٦٣٥.
(٢) المصدر السابق ١٣/ ١٨٦.
(٣) الكِنُّ: وِقاء كل شيءٍ وسِتْرُه، والكِنُّ: البيت، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كنن ١٣/ ٣٦٠.
(٤) أبو شامة: الروضتين ص١٢.
(٥) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/ ٣١٩.
(٦) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٢/ ٣٢٠.
(٧) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢٤/ ٤٩٨.

يذكره ابن الجوزي في حوادث عام (٥٧١هـ)، إذ قال: «إن رجلاً من التجار باع متاعًا له بألف دينار، وأنزل المال في خان أنبار (في بغداد) وجاء إلى بيته وليس معه في الدار إلا مملوك له أسود قد اشتراه قبل ذلك بأيام، فقام المملوك في الليل فضربه بسكين في فؤاده، وأخذ المفتاح ومضى إلى خان أنبار، فطرق باب الخان، فقالت الخانية: من أنت؟ قال: أنا غلام فلان، قد بعث بي لآخذ له شيئًا من الخان. فقالت: والله ما أفتح لك حتى يجيء مولاك. فرجع ليأخذ ما في البيت فاتفق أن حارس الدرب سمع صيحة الرجل وقت أن ضُرِبَ بالسكين، فأمسك الغلام، وبقي مولاه في الحياة يومين، فوصَّى بقتل الغلام بعده، فصُلِب المملوك بالرحبة بعد موت مولاه»(١).

كما تميزت بعض هذه الخانات بوجود المطابخ فيها، وقد حرص أصحاب هذه الخانات على استجلاب أفضل الطباخين إليها مقابل أجور محددة، وكان المطبخ يُقَدِّم لكل مسافر يأتي إلى الخان سواء كان مسلمًا أو غير مسلم، حرًّا أم عبدًا، ثلاث أوقيات من الخبز، أي ما يعادل كيلو جرامًا من الخبز، و٢٥٠ جرامًا من اللحمة المطهوة، وطبقًا من الطعام، وغير ذلك، فقد ورد في وثيقة وقف خان «قره طاي» (في عصر السلاجقة): «أن يصرف إلى كل وارد ونازل ومتطرق بالخان المذكور مسلمًا كان أو كافرًا، ذكرًا أو أنثى، حرًّا كان أو عبدًا في كل يوم من الخبز الجيد ثلاث أواقٍ، كل أوقية مائة درهم، وقصعة من الطبيخ، مع أوقية لحم من أي طبيخ طُبِخ»(٢).

ونلاحظ من نصِّ الوثيقة السابق، أن الحضارة الإسلامية كانت حريصة على تطبيق المساواة سواء في الحقوق أو الواجبات، فلم تفرِّق في ذلك فيما بين المسلم وغيره، وفيما بين الحرِّ والعبد، وكذلك فيما بين الرجل والمرأة، كما كان المطبخ يُقَدِّم كل ليلة جمعة حلوى العسل؛ حيث كان يتم توزيعها على جميع المسافرين بصورة متساوية، فقد ورد في وثيقة «قره طاي»: «أن يتخذ بالخان المذكور في كل ليلة جمعة من الحلاوة العسلية ويُفَرِّق على الواردين والنازلين بالخان المذكور من غير امتياز»(٣).

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٦٥.

(٢) فهيم فتحي إبراهيم: الخان في الحضارة العربية الإسلامية على الرابط:
:http://www.arabicmagazine.com/ArtDetails.aspx?id/56

(٣) انظر نص وثيقة خان قره طاي عن:
Turan (Osman) , Celâleddin Karatay, Vkiflari ve Vakfiyeleri, Belleten, Cilt: XII, .Sayi: 45, 46, 47, 48, Türk Tarih Kurumu Basimevi, Ankara, 1948, p. 95- 96

وقد اشتهرت بعض مدن الأندلس بفنادقها الكثيرة والعامرة؛ حيث ذكر الحميري في كتابه «صفة جزيرة الأندلس» أن مدينة ألمرية الأندلسية «فيها ألف فندقٍ إلا ثلاثين فندقًا»[1]، وفي كثرة هذه الفنادق، دليل على العدد الهائل من زوَّار وقُصَّاد هذه المدينَة العريقة.

وقد انتشرت هذه الفنادق بصورة واسعة في الأندلس منذ عهد الدولة الأموية، لكن بعضها كان يحيد عن الآداب العامة، فكان الأمراء يسعون في هدمها؛ لما تُحدثه من فوضى أخلاقية في المجتمع، ففي عام (٢٠٦هـ) «أمر الحكم بن هشام بهدم الفندق الذي كان بالربض؛ وكان متقبله من أهل الإضرار والفسق؛ فهُدم»[2]. ولا شكَّ أن مثل هذه الأفعال الماجنة التي كانت تَحْدُث في بعض الفنادق قديمًا، هي بعينها ما نراه أو نسمع عنه في كثير من فنادقنا الحديثة، ولكن شتان بين الأمرين؛ إذ كان الخلفاء والأمراء يتصدَّوْن لهذه المفاسد بكل حزم وقوة، ويأمرون بإنزال أقصى أنواع العقوبة على هذه الفنادق، فيهدمونها، ولكن الأمر بالنسبة لفنادق هذا العصر عكس ذلك بكثير!

كما اهتم بعض السلاطين بعمارة كثير من الفنادق، ووَقَفَهَا للفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فقد وافق سلطان المرينيين في المغرب أبو يعقوب يوسف المريني (ت٧٠٦هـ) بإعادة ترميم فندق الشماعين بمدينة فاس بعدما خرب، وجعله حبسًا لرُوَّاد جامع المدينَة[3].

وقد انتشرت الخانات والفنادق في عهد الدولة المملوكية بصورة واسعة جدًّا، لكن الجديد الذي أضافته هذه الدولة في مسار الحضارة الإسلامية، أنها أقامت فنادق خاصة للجاليات الصغيرة الموجودة في مصر والشام من التجار والرحالة الغربيين، فقد ذكر المقريزي أن القبارصة الذين هاجموا مدينة الإسكندرية في عام (٧٨٣هـ)، قد أحرقوا كثيرًا من الدور والحوانيت والفنادق، وقال: «إن الملاعين أحرقوا فندق الكيتلانيين، وفندق

---

(١) الحميري: صفة جزيرة الأندلس ص٦٤.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٧٣.

(٣) المقري: نفح الطيب ٥/ ٢٦٥.

الجنويين، وفندق الموزة، وفندق الموسليين»[١]. وهذه الفنادق التي ذكرها المقريزي كانت مخصصة للتجار الأوربيين والإيطاليين؛ مثل تجار مدينَة جنوة الإيطالية؛ مما يُدلل على اهتمام الحضارة الإسلامية بغير المسلمين من تجار أوربا في فترة قرونهم الوسطى.

بل حرصت الدولة على أن تُخَصِّصَ لأصحاب كل مهنة فندقًا خاصًّا بهم؛ فقد كان هناك فندق لتجار الزيت الشاميين، وهو فندق طرنطاي في مدينة القاهرة[٢].

إن وجود الفنادق والخانات منذ فترة مبكرة من تاريخ الحضارة الإسلامية، ليدلل على أهمية البعد الاجتماعي الذي راعته هذه الحضارة في كل تطبيقاتها المادية والمعنوية، بل أضافت هذه الحضارة بُعْدًا تكافليًّا آخر لم تعرفه أي حضارة أخرى؛ حيث جعلت كثيرًا من هذه الفنادق والنُّزُل متاحة بصورة مجانية لجميع الأطياف المجتمعية والإنسانية، فيمكث فيها الإنسان ما شاء الله له أن يمكث، دون أن يُعَكِّر عليه أحدٌ صفو حياته، أو يُنَغِّص عليه مهمته؛ سواء كان تاجرًا، أم طالبًا، أم مسافرًا... ولا ريب أن هذه الصورة الباهرة من تاريخ الحضارة الإسلامية، لمما يؤكد لدينا المرة تلو الأخرى عِظَم العطاء الإنساني الذي قَدَّمَته هذه الحضارة الخالدة!

وبعد هذه الإطلالة السريعة على مجموعة من أعظم وأعرق النظم الإسلامية، فإننا نشعر أن ثمة قيمة ترسَّخت في وجداننا عبر صفحات هذا الباب، إنها إنسانية هذه الحضارة التي قامت على دِعامة لن تنفكّ عنها أبدًا، وهي دِعامة الأخلاق المستقاة من معين ربَّاني لا ينضب أبد الدهر؛ ولذلك فإن البصمة الأخلاقية التي تميزت بها الحضارة الإسلامية قد وجدناها واضحة في كل مؤسساتها، حتى أمست هذه القيم الحضارية الإسلامية منارة تشرق على العالم.

***

---

(١) المقريزي: السلوك ٥/ ١١٤.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٤٤.



الباب السابع

من مظاهر الجمال في الحضارة الإسلامية

من عظمة الحضارة الإسلامية وتكاملها أنها لم تغفل عامل الجمال كقيمة مهمَّةٍ في حياة الإنسان؛ فقد تعاملت معه من منطلق أن الإحساس بالجمال والميل نحوه مسألة فطرية متأصِّلة في أعماق النفس الإنسانية السويَّة، تلك التي تحبُّ الجمال وتنجذب إلى كل ما هو جميل، وتنفر من القبح، وتنأى عن كل ما هو قبيح.

ولا ريب في أن الإبداع الجمالي يُشكِّل بُعْدًا أساسيًّا في الحضارة الإنسانية، فالحضارة التي تخلو من عنصر الجمال، وتنتفي فيها وسائل التعبير عنه، هي حضارة لا تتجاوب مع مشاعر الإنسان، ولا تُشبع رغباته النفسية، والمشتاقة دائمًا إلى كل ما هو جميل.

وفي هذا الباب نستعرض بعض مظاهر الجمال في الحضارة الإسلامية، تلك التي شَكَّلَتِ الإطار العامَّ الذي تَكَوَّنَتْ فيه هذه الحضارة، فصبغتها بالكمال والجلال والصبغة الإنسانية، وذلك من خلال الفصول التالية:

- الفصل الأول: الفنون الإسلامية
- الفصل الثاني: جمال الآلات والمصنوعات
- الفصل الثالث: جماليات البيئة (الحدائق في الإسلام)
- الفصل الرابع: الجمال الإنساني الظاهري
- الفصل الخامس: الجمال الإنساني الأخلاقي والسلوكي
- الفصل السادس: جمال الأسماء والألقاب والعناوين
- الفصل السابع: قرطبة.. نموذج للمدينة الإسلامية الجميلة

الفصل الأول
الفنون الإســـــلامية

تُعْتَبَرُ الفنون بصفة عامَّة مظهرًا مهمًّا من مظاهر الثقافة السائدة في المجتمع، وبصفة خاصَّة فإن الفنَّ الإسلامي يُعَدُّ من أنقى وأدقِّ صور التعبير عن الحضارة الإسلامية، بل مرآة ناصعة للحضارة الإنسانية حيث يُعْتَبَرُ الفنُّ الإسلامي من أعظم الفنون التي أنتجتها حضارات العالم في القديم والحديث، وهو مع ذلك لم يَلْقَ من الدراسة والتحليل والشرح ما هو جدير به، بل إن كثيرًا من الذين كتبوا عنه لم تكن كتاباتهم قائمة بالفعل على المعايير الفكرية والثقافية التي قام عليها الفنُّ الإسلامي، وإنما على معايير أخرى غربيَّة.

وهناك صور وأنواع متعدِّدَة لهذه الفنون التي اصطبغت بالطابع الإسلامي، وميَّزَتِ الحضارة الإسلامية عن غيرها، تتَّضِحُ من خلال المباحث التالية:

- المبحث الأول: فن العمارة
- المبحث الثاني: فن الزخرفة
- المبحث الثالث: فن الخط العربي

المبحث الأول

فن العمـــــارة

للعمارة الإسلامية شخصيتها وطابعها الخاصُّ المميِّز، والذي تتبيَّنُه العينُ مباشرة، سواءٌ أكان ذلك نتيجة للتصميم الإجمالي، أم العناصر المعمارية المميِّزة، أم الزخارف المستعمَلَة.

وقد نبغ المهندس المسلم في أعمال الهندسة المعمارية؛ حيث وضع الرسوم والتفصيلات الدقيقة والنماذج المجسّمة اللازمة للتنفيذ، إلى جانب المقايسات الابتدائية، ولا شَكَّ أن كل هذا قد احتاج منه إلى التعمُّق في علوم الهندسة والرياضة والميكانيكا، تلك التي برع فيها المسلمون كما سبق أن رأينا. وفيما يلي عدد من تقنيات العمارة الإسلامية للوقوف على أهميتها، والتعرُّف على إسهامات المسلمين في استحداثها وتطويرها[1]:

(١) **تقنية القباب**: برع المسلمون في تشييد القباب الضخمة، ونجحوا في حساباتها المعقدة، التي تقوم علي طرق تحليل الإنشاءات القشرية (SHELLS)، وهذه الإنشاءات المعقدة والمتطوِّرة من القباب - مثل: قبة الصخرة في بيت المقدس وقباب مساجد الأستانة والقاهرة والأندلس - تعتمد اعتمادًا كُلِّيًّا على الرياضيات المعَقَّدَة، وكانت هذه القباب تعطي شكلاً جماليًّا رائعًا للمساجد، ويكفي أن تنظر إلى مسجد السلطان أحمد في إستانبول كمثال لهذا الجمال حتى تدرك عظمة الحضارة الإسلامية.

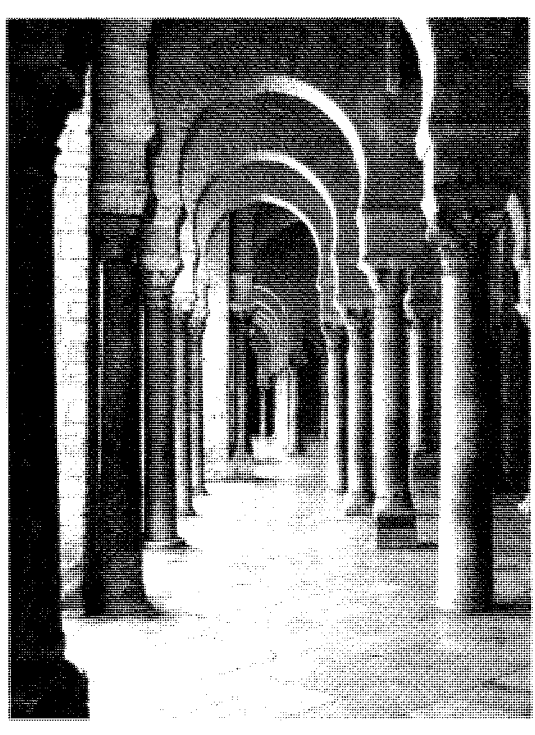


صورة (٣٤) مسجد السلطان أحمد

(١) انظر: أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٣٩-٤٧.

والقباب من أهم مظاهر تطور الحضارة الإسلامية في فن العمارة، فلقد تطوَّرَتْ كثيرًا، واتخذ تصميمها الهندسي أشكالاً مختلفة، ومن أمثلة ذلك قبَّة المسجد الجامع بالقيروان، ومسجد الزيتونة بتونس، والمسجد الجامع بقرطبة، وقد ظهرت آثار هذا التطور بوضوح في العمارة الأوربية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين[1]

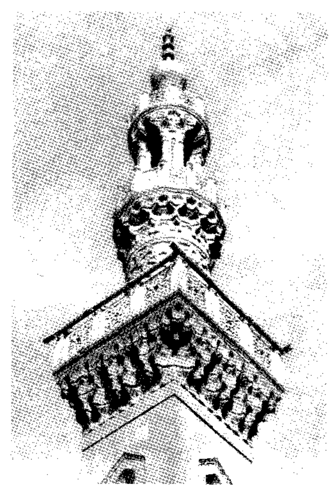
(٢) **تقنية الأعمدة**: كانت **الأعمدة** من أهم الأشياء التي تناولها الفن الإسلامي، وقد اتخذت تيجانًا وعقودًا مدبَّبَة، وروابط خشبية، حتى إنه ظهر ما يُعْرَفُ بعلم عقود الأبنية، وقد أصبحت **أقواس حدوة الفرس** تدلُّ على الفنِّ المعماري الإسلامي، وإن وُجِدَتِ الأقواس قبلاً إلاَّ أنه قد تَغَيَّر شكلها على يد المسلمين.

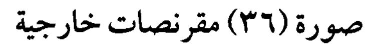


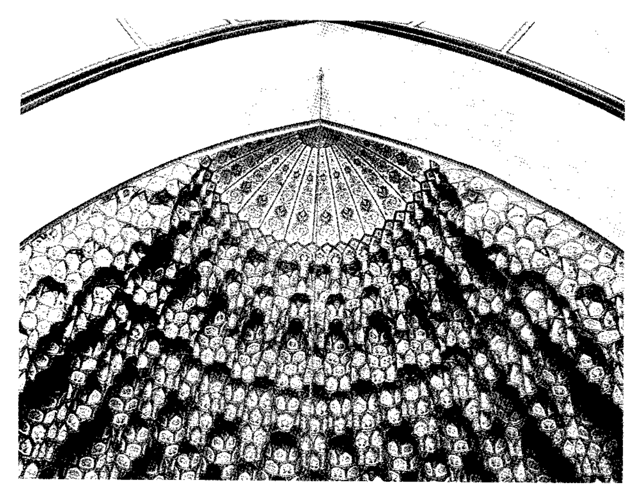
صورة (٣٥) تقنية الأعمدة

(٣) **تقنية المقرنصات**: كذلك كانت **المقرنصات** من أبرز خصائص الفنِّ المعماري الإسلامي، وتعني الأجزاء المتدلِّية من السقف، والمقرنصات منها داخلية وخارجية: انتشرت الداخلية في المحاريب والسقوف، وكانت الخارجية في صحون المآذن وأبواب القصور والشرفات.

(١) انظر: أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٤١.




صورة (٣٦) مقرنصات خارجية


صورة (٣٧) المقرنصات الداخلية (محراب)

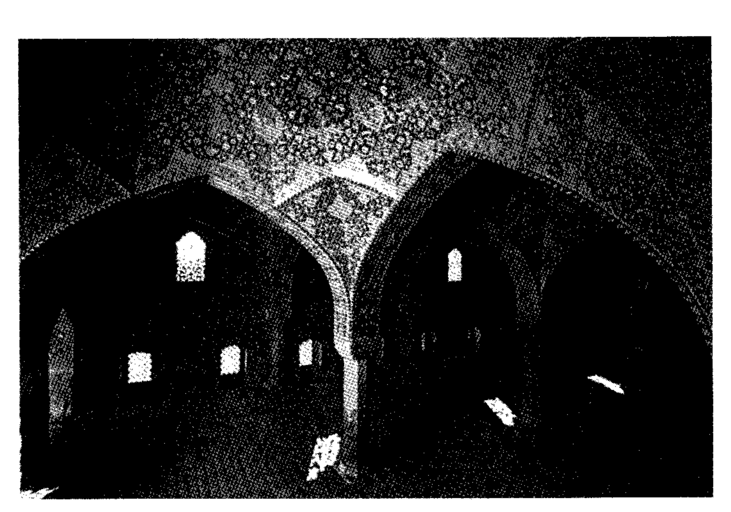
(٤) تقنية المشربيات: كما كان من مظاهر الفنِّ المعماري الإسلامي الظاهرة بناء **مشربيات** البيوت مخرمةً أو مزخرفة، وتسمَّى قمرية إذا كانت مستديرة، أو شمسية إذا كانت غير مستديرة، أو حتى شيشًا، وهي من خشب خُرِطَ كستائر للنوافذ، من فوائدها أنها تُخَفِّفُ حِدَّة الضوء، وتُمَكِّنُ النساء من مشاهدة مَنْ بالخارج دون أن يراهنَّ أَحَدٌ، وقد أصبح ذلك طابع البيوت الإسلامية[١].


صورة (٣٨) المشربِيات

(١) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٢٦٨، ٢٦٩.

(٥) تقنية الصوتيات المعمارية:

أفاد المسلمون من تطبيقات علم الصوتيات (Acoustics) -الذي يَدِينُ بنشأته وإرساء أصوله المنهجية السليمة للمسلمين- في تطوير تقنية الهندسة الصوتية، واستخدامها فيما يُعْرَفُ الآن باسم (**تقنية الصوتيات المعمارية**)، فقد عرفوا أن الصوت ينعكس عن السطوح المقعَّرة، ويتجمَّع في بؤرة محدَّدة، شأنه في ذلك شأن الضوء الذي ينعكس عن سطح مرآة مقعرة، وقد استخدم التقنيون المسلمون خاصية تركيز الصوت (Focusing of sound) في أغراض البناء والعمارة؛ وخاصة في المساجد الجامعة الكبيرة؛ لنقل وتقوية صوت الخطيب والإمام في أيام الجمعة والأعياد؛ مثال ذلك: مسجد أصفهان القديم، ومسجد العادلية في حلب، وبعض مساجد بغداد القديمة؛ حيث كان يُصَمَّمُ سقف المسجد وجدرانه على شكل سطوح مُقَعَّرَةٍ، موزَّعة في زوايا المسجد وأركانه بطريقة دقيقة؛ تضمن توزيع الصوت بانتظام على جميع الأرجاء.



صورة (٣٩) تقنية الصوتيات المعمارية (مسجد أصفهان)

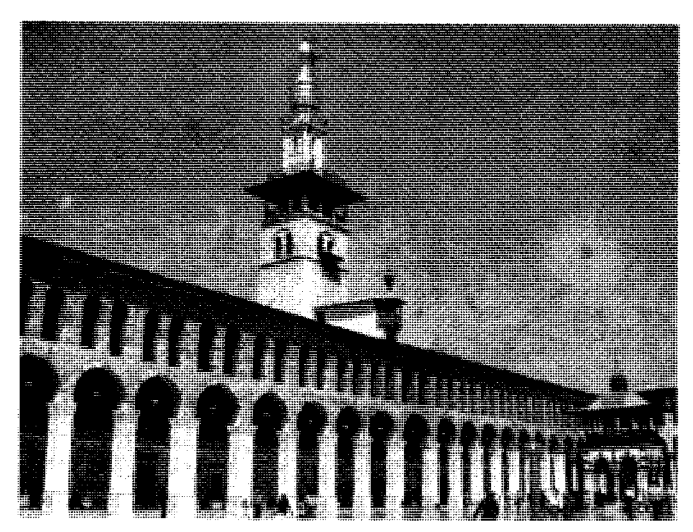
وإن هذه المآثر الإسلامية الباقية حتى اليوم لخير شاهد على ريادة علماء الحضارة الإسلامية في تقنية الصوتيات الهندسية المعمارية، وذلك قبل أن يبدأ العالم المعروف (**والاس ك سابين**[1]) حوالي عام (١٩٠٠م) في دراسة أسباب سوء الصفات الصوتية لقاعة محاضرات في جامعة هارفارد الأمريكية،

(١) والاس كليمنت سابين: ١٨٦٨-١٩١٩م عالم فيزياء أمريكي، أنشأ علم السمعيات المعمارية.

وتتبُّع سلوك الخواصِّ الصوتية للقاعات وحجرات غُرَفِ الموسيقى[(١)].

ولكي نَقِفُ على مدى أهمية تطوير المسلمين لتقنية الصوتيات المعمارية، تكفي الإشارة إلى أن خاصية تركيز الصوت، التي لفتوا الأنظار إلى فوائدها التطبيقية، تستخدم في الحضارة المعاصرة كجزء أساسي من هندسة الصوتيات المعمارية؛ حيث تزوَّد المسارح وقاعات الاحتفال الكبيرة بجدران خلفية مقعَّرة تعمل على ارتداد الصوت وزيادة وضوحه.

(٦) تقنية العقود:



صورة (٤٠) العقد المنفوخ (المسجد الأموي)

تؤكِّد المراجع والدراسات التاريخية في مجال العمارة الإسلامية أن أوَّل ما ظهر من عناصر وأشكال التقنيات الهندسية المعمارية عند المسلمين هو (العقد المنفوخ) الذي اسْتُخْدِمَ في المسجد الأموي بدمشق عام (٨٧هـ/ ٧٠٦م)، وعُمِّمَ استخدامه بعد ذلك؛ بحيث أصبح عنصرًا مميِّزًا للعمارة الإسلامية، وخاصَّة في بلاد المغرب والأندلس، ثم اقتبسه البناة الأوربيون، وأكثروا من استخدامه في بناء كنائسهم وأديرتهم. وكذلك طوَّر المسلمون تقنية **(العقود ثلاثية الفتحات)**، والتي كان مصدرها فكرة هندسية بحتة قائمة على القسمة الحسابية، وهو ما استدلَّ عليه الباحثون من رسم باقٍ على جدار في أطلال مدينة (الزهراء) بالأندلس، وانتشر استعمال هذا النوع من العقود في الكنائس الإسبانية والفرنسية

---

(١) فوربس س. ج وديكسترهوز أ. ج: تاريخ العلم والتكنولوجيا ص٦٨.

والإيطالية. وهناك أيضًا تقنية **العقود المفصصة**، أو المقصوصة، وهي عقود قُصَّت حوافُّها الداخلية على هيئة سلسلة من أنصاف دوائر، أو على هيئة عقد من أنصاف فصوص، ولعلَّ هذا العقد المفصص قد اشْتُقَّ من شكل حافة المحارة، غير أنه اتَّخذَ من العمارة الإسلامية المظهر الهندسي البحت، وأصبح فيها ابتكارًا ظهر أوَّل ما ظهر فيما تبقَّى من الآثار في أوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، واتَّضحت معالمه الهندسية كاملة في بناء قبة المسجد الجامع بالقيروان في سنة (٢٢١هـ/ ٨٣٦م). وقد احتفظ العقد المفصَّص بمظهره الهندسي في تطوُّره بعد ذلك بالرغم من تَعَدُّد أشكاله، ثم تشابكت العقود المفصَّصة في القرون التالية، وازداد عدد الفصوص، وتصاغرتْ وتداخلتْ فيها زُهَيْرَات ووُرَيْدَات، وأصبح شكلها زخرفيًّا جذابًا، حُلِّيَتْ به المآذن والمحاريب.

وإلى جانب هذه الأنواع من العقود ظهرت في العمارة الإسلامية أشكال أخرى منها: **العقود المدبَّبة والصماء والمنفرجة**، وقد انتشر استخدامها في بلاد المشرق والمغرب على السواء، وتُوجد أمثلة منها في العمارة الأوربية؛ فعلى سبيل المثال: انتقل العقد المنفرج إلى العمارة الإنجليزية، وعَمَّ استعماله في القرن السادس عشر الميلادي باسم (العقد التيودوري Tudor arch) بينما سَبَقَتِ العمارةُ الإسلامية إلى استخدامه قبل ذلك بخمسة قرون في مساجد: الجيوشي والأقمر والأزهر بالقاهرة[1].

(٧) **تقنية السدود والقناطر**: ومن الجدير بالذكر أن جماليات العمارة الهندسية الإسلامية امتدَّت لتشمل القناطر المائية والجسور والقنوات، وكانت تقنياتها رائعة التخطيط والتنفيذ؛ تعطي الماء المارَّ في القنوات والأنهار بُعْدًا جماليًّا إضافيًّا عند المشاهدة، وهذا يعني أن العمارة الإسلامية وتقنياتها الهندسية والجمالية كانت مظاهر طبيعية لعصور الازدهار في حضارة الإسلام.

(٨) **تقنية الأسوار**: كان المعمار الإسلامي يعتمد على النواحي التطبيقية لِعِلْمِ الحيل (الميكانيكا)، وقد اتَّضح ذلك في إقامة المساجد الشاهقة، والمآذن السامقة[2]، والقناطر

---

(١) انظر: أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٤١.

(٢) السامقة: الطويلة جدًّا. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سمق ١٠/ ١٦٣.

والسدود الضخمة العظيمة فوق الأنهار؛ كسدِّ النهروان، وسدِّ الرستن، وسد الفرات، وكذا في إقامة سور مجري العيون بالقاهرة أيام صلاح الدين الأيوبي، والذي كان ينقل الماء من فم الخليج على النيل إلى القلعة فوق جبل المقطم، وكانت ساقية تُدَار بالحيوانات تَرْفَعُ المياه لعشرة أمتار ليتدفَّق في القناة فوق السور، وتسير بطريقة الأواني المستطرقة لتصل إلى القلعة.

(٩) تقنية القلاع: كانت القلاع العربية من أهم الإضافات التي أخذها الغرب، كما تشهد بذلك زيجريد هونكه، فلم يكن الغرب يعرف غير التقنية الدائرية في تصميم القلعة، ومنذ أن دخل المسلمون الأندلس، ثم صقلية، ثم حدث الاحتكاك مع المسلمين في الحروب الصليبية، تغيرت النماذج المتبعة في البناء إلى النموذج العربي، الذي يغلب عليه التصميم المربع، المزود في أركانه بأبراج المراقبة والدفاع، وأحيانًا توجد الأبراج في الأضلاع أيضًا[1].



صورة (٤١) قلعة قايتباي

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٤٤٠ وما بعدها.

إن روعة العمارة تعبر عن روعة الحضارة التي أنشأتها، وذلك قانون تاريخي كما يقول ابن خلدون: «إن الدولة والمُلْكَ للعمران بمنزلة الصورة للمادَّة، وهو الشكل الحافظ لوجودها، وانفكاك أحدهما عن الآخر غير ممكن على ما قُرِّرَ في الحكمة، فالدولة دون العمران لا يمكن تصوُّرها، والعمران دونها مُتَعَذِّرٌ، فاختلال أحدهما يَسْتَلْزِم اختلال الآخر، كما أن عدم أحدهما يُؤَثِّرُ في عدم الآخر»[1].

❊ ❊ ❊

(١) ابن خلدون: المقدمة ١/ ٣٧٦، وانظر: عادل عوض: المدينة العربية الإسلامية والمدينة الأوربية، مجلة العلم والتكنولوجيا، معهد الإنماء العربي العدد (٢٧)، ١٩٩٢م، ص٣٢.

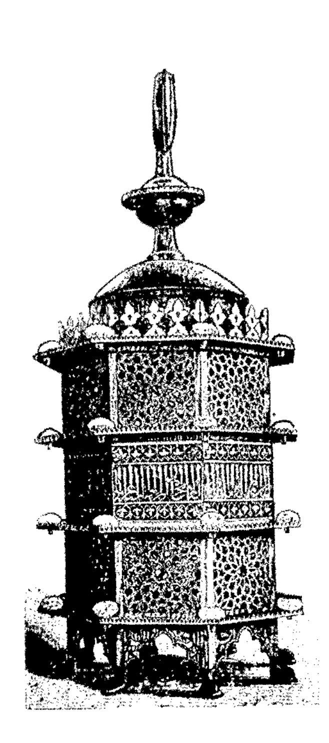
المبحث الثاني

فنُّ الزخرفة

اتجه الفنان المسلم إلى عوالم جديدة بعيدة عن رسم الأشخاص، وبعيدة أيضًا عن محاكاة الطبيعة، وهنا ظهرت عبقريته وتجلَّى إبداعه، وعمل خياله، وحِسَّه المرهف، وذوقه الأصيل، فكان من هذه العوالم عالم الزخرفة.

فإذا كانت صناعة الجمال هي وظيفة الفنِّ الإسلامي، فإن الزخرفة تُعَدُّ واحدة من الوسائل المهمَّة التي تصنع ذلك الجمال؛ فهي العمل الخالص الذي لا يُقْصَدُ به إلاَّ صُنْعَ الجمال، وهنا يلتقي شكلُ العمل الفني بمضمونه لِيُكَوِّنَا وَحدة متماسكة لِصُنْعِ الجمال ظاهرًا وباطنًا، الأمر الذي لا نكاد نجده في أي نوع آخر من الفنون[1].

وقد اتخذت الزخرفة خصائص مميِّزة كان لها عظيم الأَثَرِ في إبراز المظهر الحضاري لنهضة المسلمين، وازدهرت بدرجة عالية، سواءٌ من حيث تصميمها وإخراجها أو من حيث موضوعاتها وأساليبها، واستخدم التقنيون المسلمون خطوطًا زخرفية رائعةَ المظهر والتكوين، وجعلوا من المجموعات الزخرفيَّة نماذج انطلق فيها خيالهم إلى اللانهاية والتكرار والتجدُّد والتناوب والتشابك، وابتكروا المضلَّعَات النجمية وأشكال التوريق، وأشكال التوشح العربي الذي أطلق عليه الأوربيون (الأرابيسك Arabesque)، ولا يزال هذا النسق العربي في الزخرفة يحظى بالاهتمام في



صورة (٤٢) فن الأرابيسك

(١) صالح أحمد الشامي: الفن الإسلامي التزام وإبداع ص١٦٩.

بلدان عديدة منذ ظهر لأوَّل مَرَّة في الزخرفة الفاطمية، وفي مسجد الأزهر، في منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وقد حذق أهل تقنية الزخارف المعمارية الإسلامية صنعةَ النحت المسطَّح والغائر على الخشب، أو الحجارة، أو الرخام، ومهروا في استخدام الموادِّ الملوَّنة، وإجادة النقوش[1].

هذا، وتُعَدُّ العناصر النباتية، وكذا العناصر الهندسية مقوِّمَات أساسية في بناء هذا الفنِّ، تتعاون مع بعضها تارة، وتنفرد كل منهما على حِدَةٍ تارة أخرى، وعلى هذا فهناك نوعان من الزخرفة: الزخرفة النباتية، والزخرفة الهندسية[2].

الزخرفة النباتية:

وتقوم الزخرفة النباتية أو (فنُّ التوريق) على زخارف مُشَكَّلَة من أوراق النبات المختلفة والزهور المنوَّعة، وقد أُبْرِزَتْ بأساليب متعدِّدَة من إفراد ومزاوجة وتقابُل وتعانق، وفي كثير من الأحيان تكون الوحدة في هذه الزخرفة مؤلَّفة من مجموعة من العناصر النباتية متداخلة ومتشابكة ومتناظرة، تتكرَّرُ بصورة منتظمة..



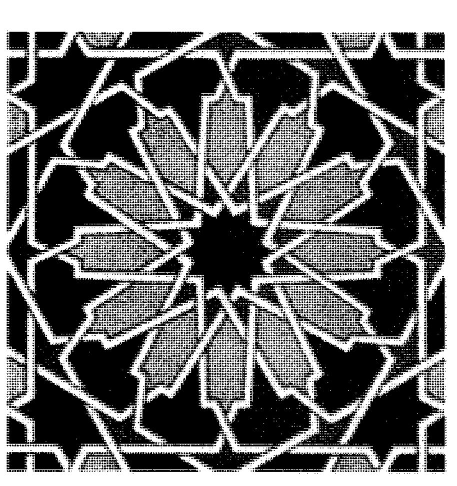
صورة (٤٣) الزخرفَة النباتية

وبإعمال الفنان المسلم خيالَه استطاع أن يبتعد بفنِّه عن تقليد الطبيعة، فجاءت توريقاته عملاً هندسيًّا، أُمِيتَ فيه العنصرُ الحيُّ، وساد فيه مبدأ التجريد، وقد انتشر استعمال هذه الزخارف في تزيين الجدران والقباب، وفي التحف المختلفة (نحاسيَّة وزجاجية وخزفية)، وفي تزيين صفحات الكتب وتجليدها.

(١) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٤٤.
(٢) انظر: المصدر السابق ص١٧٠-١٧٣.

الزخرفة الهندسية:

وهي النوع الآخر للزخرفة الإسلامية؛ حيث برع المسلمون في استعمال الخطوط الهندسية، وصياغتها في أشكال فنية رائعة، فظهرت المضلَّعات المختلفة، والأشكال النجمية، والدوائر المتداخلة، وقد زَيَّنَتْ هذه الزخرفةُ المباني، كما وشحت التحف الخشبية والنحاسية، ودخلت في صناعة الأبواب وزخرفة السقوف؛ مِمَّا يُعَدُّ دليلاً على عِلْمٍ مُتَقَدِّمٍ بالهندسة العملية.



صورة (٤٤) الزخرفَة الهندسية

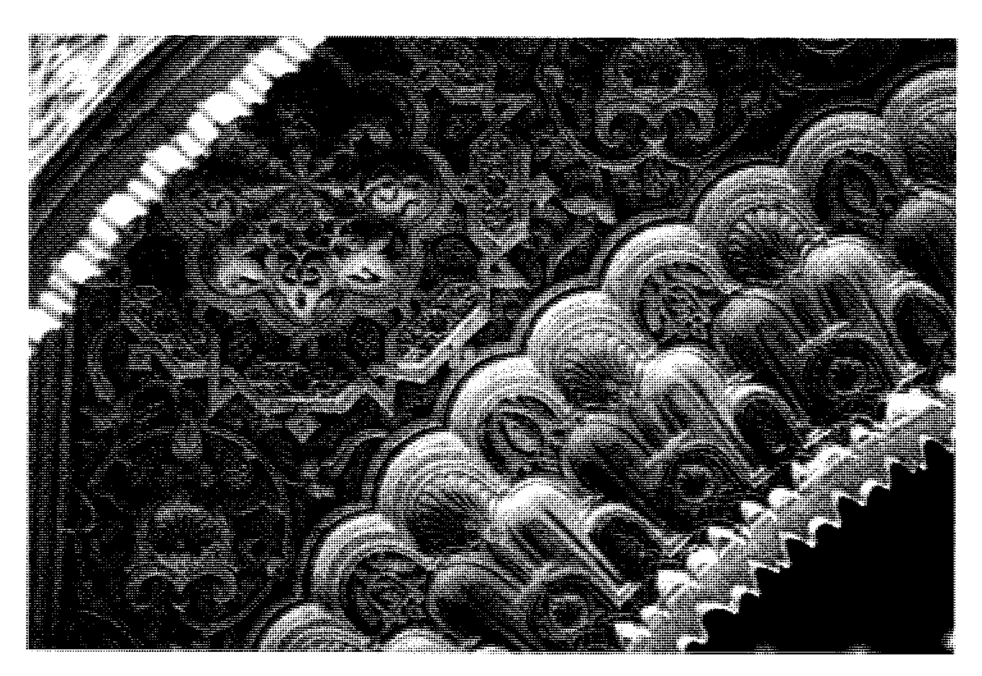
وقد استطاع المسلمون استخراج أشكال هندسية متنوِّعة من الدائرة، منها المسدس والمثمن والمعشر، وبالتالي المثلث والمربع والمخمَّس، ومن تداخُل هذه الأشكال مع بعضها وملء بعض المساحات وترك بعضها فارغًا نحصل على ما لا حصر له من تلك الزخارف البديعة، التي تستوقف العين، لتنتقل بها رويدًا رويدًا من الجزء إلى الكل، ومن كُلِّ جزئيٍّ إلى كُلٍّ أكبر.

وكان همُّ الفنان المسلم وشُغْلُه الشاغل، أن يبحث عن تكوين جديدٍ مُبْتَكَرٍ يتولَّدُ من اشتباكات قواطع الزوايا أو مزاوجة الأشكال الهندسية؛ لتحقيق مزيدٍ من الجمال الرصين، ومن أمثلة الأشكال الهندسية التي استعملها: الدوائر المتماسَّة والمتجاورة، والجدائل والخطوط المنكسرة والمتشابكة.

ومن أبرز أنواع الزخارف الهندسية التي امتازت بها الفنون الإسلامية: الأشكال النجمية متعدِّدَة الأضلاع، والتي تُشَكِّلُ ما يُسَمَّى (الأطباق النجمية)، وقد اسْتُخْدِمَ هذا الضرب من الزخارف في زخارف التُّحَفِ الخشبية والمعدنية، وفي الصفحات المُذَهَّبَة في المصاحف والكتب، وفي زخارف السقوف.

ولقد كان الناقد الفرنسي هنري فوسيون (H. Faucillon) دقيق التعبير عميق

الملاحظة حينما قال: «ما أخال شيئًا يمكنه أن يجرِّد الحياة من ثوبها الظاهر، وينقلنا إلى مضمونها الدفين مثل التشكيلات الهندسية للزخارف الإسلامية؛ فليست هذه التشكيلات سوى ثمرة لتفكير قائم على الحساب الدقيق، قد يتحول إلى نوع من الرسوم البيانية لأفكار فلسفية ومعانٍ رُوحية، غير أنه ينبغي ألاَّ يفوتنا أنه خلال هذا الإطار التجريدي تنطلق حياةٌ متدفِّقة عَبْرَ الخطوط، فتؤلِّف بينها تكوينات تتكاثر وتتزايد، متفرِّقة مَرَّة ومجتمعة مَرَّات، وكأن هناك رُوحًا هائمة هي التي تمزج تلك التكوينات وتُبَاعِدُ بينها، ثم تُجَمِّعُهَا من جديد، فكلُّ تكوين منها يَصْلُح لأكثرَ من تأويل، يتوقَّفُ على ما يُصَوِّبُ عليه المَرْءُ نظرَه ويتأمَّلُه منها، وجميعها تُخْفِي وتكشف في آنٍ واحد عن سِرِّ ما تَتَضَمَّنُه من إمكانات وطاقات بلا حدود»[١].



صورة (٤٥) دقة الزخرفة

ومن أبرز العمليات الفنية في الزخرفة الإسلامية: الترصيع، التكفيت، التلبيس، التعشيق، التطعيم، التجصيص، القرنصة، التزويق، التصفيح، التوشيع. ومن أبرز الموادِّ

(١) ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية ص٣٩.

المستخدمة فيها: الرخام، الجصُّ، الخشب، المعادن، الآجُرّ، الفسيفساء، القاشاني، الخزف.

وعن فنِّ الزخرفة وبيان غايته وخصائصه يقول روجيه جارودي[1]: «إنَّ فنَّ الزخرفة العربي يتطلَّع إلى أن يكون إعرابًا نمطيًّا عن مفهوم زخرفي، يَجْمَعُ بآنٍ واحد بين التجريد والوزن، وإن معنى الطبيعة الموسيقي، ومعنى الهندسة العقلي، يُؤَلِّفان دومًا العناصر المقوّمَة في هذا الفنِّ»[2].

* * *

(١) رجاء جارودي: (١٣٣١هـ-.../ ١٩١٣م-...) فيلسوف فرنسي معاصر تخصص في بحوث الحضارة والتاريخ والأدب وعلوم الإنسان. باحث مرموق ويحظى بمكانة رفيعة، تنقل بين العديد من التوجهات ثم أعلن إسلامه، واشتبك مع السياسة الصهيونية من خلال كتاباته المتعددة.

(٢) روجيه جارودي: في سبيل حوار الحضارات ص١٧٤.

المبحث الثالث

فنُّ الخط العربـــــي

يُعَدُّ فنُّ الخطِّ العربي فنًّا إسلاميًّا خالصًا؛ فهو من صنيع الدين الإسلامي، وله ارتباطه الوثيق بكتابه الكريم، ولم يَسْبِق للكلمة أن كانت فنًّا مرئيًّا في أُمَّة من الأمم قبل نزول القرآن الكريم، وإذا كان لكل أُمَّة من الأمم لغتها، ولها كتاباتها، فإن هذه الكتابات ظَلَّتْ في وظيفتها التعبيرية، باعتبارها رموزًا منطقية لمعانٍ يُرَادُ التعبير عنها، ولكن لم يحدث أن ارتفعت هذه الرموز لتصبح فنًّا جماليًّا، كما حدث للكلمة العربية بعد أن أضفى عليها القرآن الكريم رداء قداسته[1].

يقول الدكتور إسماعيل فاروقي[2]: «لا نجد بين مَنْ ينتمون إلى تلك الثقافات جميعًا -أي: شعوب ما بين النهرين، والعبرانيون، والهندوكيون؛ ومثلهم الإغريق والرومان... بما في ذلك العرب أنفسهم- مَنْ حاول اكتشاف القيمة الجمالية للكلمة المرئيَّة؛ فالكتابة كانت -ولا تزال في الغالب- عملية فَجَّة، ولا يتركَّز حولها أيُّ اهتمام جمالي في ثقافات العالم؛ ففي الهند وفي بيزنطة وفي الغرب المسيحي ظَلَّت الكتابة محصورة في وظيفتها التعبيرية، أي في كونها رموزًا منطقية، وكان دورها تكميليًّا فقط في الفنون المرئية (التشخيصية) في المسيحية أو الهندوكية، بمعنى أنها تُسْتَخْدَم كرمزية منطقية تُعَبِّر عن مضمون العمل الفني... لكن ظهور الإسلام قد فتح آفاقًا جديدة أمام الكلمة كوسيلة للتعبير الفنِّيِّ. حقًّا إن العبقرية الإسلامية هنا لا تُضَارَعُ، إن هذا الخطَّ قد أصبح لونًا من ألوان الأرابيسك، يمكننا إذن أن نتصوَّره عملاً فنيًّا مستقلاًّ، إسلاميًّا خالصًا، بِغَضِّ النظر عن مضمونه الفكري»[3].

ويُؤَكِّد ذلك الدكتور مصطفى عبد الرحيم فيقول: «إن الخطَّ العربي هو الفنُّ الوحيد

---

(١) صالح أحمد الشامي: الفن الإسلامي التزام وإبداع ص١٩٦.

(٢) إسماعيل الفاروقي: (١٣٣٩-١٤٠٦هـ/ ١٩٢١-١٩٨٦م) واحد من أبرز المتخصصين بدراسة الإسلام في العالم، فلسطيني حاصل على الدكتوراه في الفلسفة، درس في أمريكا وباكستان، وكان رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في أمريكا.

(٣) مجلة المسلم المعاصر، عدد (٢٥)، عام ١٤٠١هـ.

الذي نشأ عربيًّا خالصًا، صافيًا نقيًّا، ولم يتأثَّر بمؤثِّرات أخرى... ويقول بعض المستشرقين: إذا أردتَ أن تدرس الفنَّ الإسلامي؛ فعليك أن تتَّجِهَ مباشرة إلى فنِّ الخطِّ العربي»[1].

وقد أجمعت المصادر العربية؛ كالعقد الفريد، وخلاصة الأثر، والبداية والنهاية، والكامل، والفهرست، وصبح الأعشى، وغيرها، بأن الخطَّ العربي لم يَنَلْ عند أُمَّة من الأمم ذوات الحضارة ما ناله عند المسلمين، من العناية به، والتفنُّنِ فيه[2].

فخلال مُدَّةٍ وجيزة استطاع الفنان المسلم أن يجعل للكلمة وظيفة أخرى مرئية، إضافة إلى وظيفتها المسموعة، وما أن وَلَجَتِ الكلمة هذا الميدان الجمالي حتى بدأ التطوُّر يسير بها في خطوات حثيثة، واكبت خطوات فنِّ الزخرفة، بل تَقَدَّمَتْهَا، وكان بين الفَنَّيْنِ تعاونٌ وثيق[3].

ولا أدلَّ على عناية المسلمين بذلك الفنِّ الأصيل والتفنُّن فيه من تَعَدُّد أنواعه وكثرتها؛ فمن ذلك: الخط الكوفي[4] - الخط النسخي - خط الثلث - الخط الأندلسي - خط الرقعة - الخط الديواني - خط التعليق (الفارسي) - خط الإجازة.

وقد تفرَّع عن هذه الخطوط فروعٌ أخرى جعلتْ هذا الفنَّ ثريًّا قادرًا على العطاء، يحمل إمكانية التكيُّف؛ ليُؤَدِّيَ دوره في كل الأحوال والمناسبات؛ فقد تفرَّع عن الكوفي مثلاً: الكوفي المورق - الكوفي المزهر - الكوفي المنحصر - الكوفي المعشق أو المظفر أو الموشح، وتفرَّع عن الخط الديواني: جلي الديواني، وتفرَّع عن خط الثلث: جلي الثلث، وهكذا[5].

وقد عمد الفنان المسلم - بعض الأحيان - إلى إدخال أكثر من خطٍّ في اللوحة الواحدة؛ ممَّا أضفى على عطائه بهاءً وروعة، ودفع هذا الفنَّ إلى التقدُّم والإبداع، وكانت

(١) ملحق «الأنباء» الكويتية، عدد (٥١٧)، تاريخ ١٦/ ٧/ ١٩٨٦م.

(٢) ناجي زين الدين: مصور الخط العربي ص٣١٥.

(٣) صالح أحمد الشامي: الفن الإسلامي التزام وإبداع ص١٩٨.

(٤) هو الخط الذي حمله الفاتحون المسلمون لنشر دينهم وشريعتهم، وكل النسخ الخطية من المصاحف السابقة للقرن الرابع الهجري مكتوبة به، وقد جوَّده علماء الكوفة. انظر: ناجي زين الدين: مصور الخط العربي ص٣٣٩.

(٥) انظر: صالح أحمد الشامي: الفن الإسلامي التزام وإبداع ص١٩٨، ١٩٩.

المنافسة فيه استكمالاً وتحسينًا، بدافع الوصول إلى غاية الجمال[١].

ولم يقف الفنان المسلم في فنِّ الخطِّ عند حدود الحرف وتحسينه، بل قطع شوطًا آخر؛ إذ جعل الحرف نفسه مادَّة زخرفية، فتحوَّلَتْ لوحاتُ الخطِّ إلى لوحات جمالية زخرفية، وإنك لَتَعْجَب من قُدْرَةِ الفنان المسلم على التحكُّم في اللوحة؛ إذ استطاع أن يُحَمِّلَ الحرفَ مهمَّتَيْنِ في آنٍ واحد؛ المهمَّة التعبيريَّة والمهمَّة الزخرفيَّة، ثم جعل من المهمَّة الثانية جلبابًا للمهمَّة الأولى!

ولم يكتفِ الفنان المسلم بما توصَّل إليه في فنِّ الخطِّ من الإبداع الذي بلغ الذروة، بل اتَّجه بالحرف إلى آفاقٍ جديدة؛ حيث أصبح الحرفُ أداة لفنٍّ تشكيليٍّ، ومادَّةً فعَّالةً أثبتتْ قُدْرَتها على العطاء، فما أن تَقَعَ العينُ على اللوحة حتى تَجِدَ نفسها -للوهلة الأُولَى- أمام رسم تشخيصيٍّ لهيئة ما (طائر - حيوان - فاكهة - قِنديل)، فإذا ما تفحَّصَتْهُ وجدَتْ أنَّ التشكيل لم يَكُنْ غير كلمات وأحرف عربية أبدع الفنان إخراجها، وغالبًا ما يكون معناها وثيقَ الصلة بالشكل الظاهر، وهنا يكمن الإبداع[٢].



صورة (٤٦) لوحة خط عربي على هيئة أسد

هكذا كان تراث المسلمين رائعًا في مجال الخط العربي، الأمر الذي جعله فنًّا مميَّزًا للحضارة الإسلامية على امتداد عصورها، وفي كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي.

---

(١) انظر: صالح أحمد الشامي: الفن الإسلامي التزام وإبداع ص١٩٩.

(٢) المصدر السابق ص٢٠٠-٢٠٧.

الفصل الثاني

جمال الآلات والمصنوعات

نعني بجمال الآلات والمصنوعات ما تجلَّى في منتجات المسلمين التي صُنعت بطُرُق آلية، من خلال علوم الهندسة والتقنية من روح جمالية، إذ لم يكتف الصانع المسلم بجعلها تؤدي الوظيفة فقط، بل حرص على أن تكون ذات مظهر جمالي يريح النفس ويسعد القلب.

وذلك في المبحثين التاليين:

- المبحث الأول: الاختراعات العلمية
- المبحث الثاني: إبداعات المصنوعات

المبحث الأول
جماليات الاختراعات العلمية

لم تكن مهارة المسلمين في العلوم التقنية تقف عند حَدِّ إقامة المساجد والمآذن والقباب، والقناطر والسدود، وغيرها فقط، وإنما كان هناك أيضًا ذلك الإبداع الذي ظهر فيه الحسُّ الجمالي للعالِمِ المسلم، وبرزت فيه أيضًا مقدرته على تسخير ذلك النوع من العلوم؛ لتحقيق الراحة وإدخال البهجة والسعادة على القلب.

لقد أبدع علماء الحضارة الإسلامية عددًا من الاختراعات الميكانيكية الصعبة، تلك التي تُؤَدِّي دورها، لكن الصانع الماهر لم يكتف بهذا بل أضاف إليها ما يجعلها تُؤَدِّي معه دورًا جماليًّا آخر لا يَقِلُّ عن سابقه؛ ومن أمثلة ذلك:

الساعات:

ذكر ابن كثير أنَّ أحد أبواب جامع دمشق كان يُسمَّى باب الساعات؛ لأنه عُمل فيها الساعات التي اخترعها الساعاتي المهندس محمد بن علي والد فخر الدين رضوان بن الساعاتي[١]، وكان يُعْلَمُ بها كل ساعة تمضي من النهار، عليها عصافير وحَيَّة من نحاس وغراب، فإذا تمَّت الساعة خرجت الحيَّة فَصَفَّرت العصافير، وصاح الغراب، وسقطت حصاة في الطستِ، فَيَعْلَمُ الناس أنه قد ذهب من النهار ساعة[٢]. وكان لابن الجزري ساعة مماثلة أيضًا[٣].

وفي وصف هذه الساعة يقول ابن جبير أيضًا: «وعن يمين الخارج من باب جيرون، في جدار البلاط الذي أمامه، غرفةٌ، ولها هيئة طاقٍ كبير مستدير فيه طِيقان صُفْر قد فُتِّحَتْ أبوابًا صغارًا على عَدَدِ ساعات النهار، ودُبِّرَتْ تدبيرًا هندسيًّا، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فَمَيْ بازِيَيْنِ مُصَوَّرَيْنِ من صُفْر، قائمين على طَاسْتَيْنِ من صفر تحت كل واحد منهما؛ أحدهما تحت أوَّل باب من تلك الأبواب، والثاني تحت

(١) ابن الساعاتي: رضوان بن محمد بن علي بن رستم، فخر الدين الخراساني، ابن الساعاتي (ت ٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م) طبيب وفيلسوف وشاعر، وأبوه كان مهندسًا في عمل الساعات؛ ولذا سمي الساعاتي، ومولده ووفاته في دمشق. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٧١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١٨٠.

(٣) دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية ص١٦٩

آخرها، والطاستان مثقوبتان، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة، وتبصر البازِيين يمدَّان أعناقَهما بالبندقتين إلى الطاستين، ويقذفانهما بسرعة، بتدبيرٍ عجيب تتخيَّله الأوهام سحرًا، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يُسْمع لهما دويٌّ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بِلَوْحٍ من الصفر؛ لا يزال كذلك عند كلِّ انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلُّها وتنقضي الساعات، ثم تعود إلى حالها الأول. ولها بالليل تدبير آخر، وذلك أنَّ في القوس المنعطِف على تلك الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرَّمة، وتعترض في كلِّ دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة، مُدَبَّر ذلك كلّه منها خلف الطيقان المذكورة، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عمَّ الزجاجة ضوء المصباح، وفاض على الدائرة أمامها شعاعُها، فَلاَحَتْ للأبصار دائرة محمرَّة، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمرُّ الدوائر كلها، وقد وُكِّل بها في الغرفة متفقِّدٌ لحالها، دَرِبٌ بشأنها وانتقالها، يُعِيدُ فتح الأبواب وصَرْفَ الصنج موضعها، وهي التي يُسَمِّيها الناس المِنْجَانة»[1].

هذا، وقد أرسل الخليفة العباسي هارون الرشيد في القرن الثاني الهجري (التاسع الميلادي، حوالي سنة ٨٠٧م) هديةً عجيبةً إلى صديقه شارلمان ملك الفرنجة (فرنسا)، «وكانت الهديةُ عبارةً عن ساعة ضخمة بارتفاع حائط الغرفة، تتحرَّك بواسطة قوَّة مائية، وعند تمام كل ساعة يسقط منها عددٌ مُعَيَّنٌ من الكرات المعدنية بعضها إِثْرَ بعضٍ، بعددِ الساعات فوق قاعدة نحاسية ضخمة، فيُسْمَعُ لها رنين موسيقيٌّ، يُسمَع دويُّه في أنحاء القصر، وفي نفس الوقت يُفتح بابٌ من الأبواب الاثني عشر المؤدِّية إلى داخل الساعة، ويَخرج منها فارسٌ يدور حول الساعة، ثم يعود إلى حيث خرج، فإذا حانت الساعة الثانية عشرة يخرج من الأبواب اثنا عشر فارسًا مرةً واحدةً، ويدورون دورةً كاملةً ثم يعودون فيدخلون من الأبواب فتُغْلَقُ خلفهم.

وهذا هو الوصف الذي جاء في المراجع الأجنبية والعربية عن تلك الساعة التي كانت تُعَدُّ وقتئذٍ أعجوبةَ الفنِّ، وأثارت دهشة المَلِكِ وحاشيته، ولكنَّ رهبان القصر

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص٢٤٠، ٢٤١.

اعتقدوا أنَّ في داخل الساعةِ شيطانًا يُحَرِّكها، فتربَّصُوا به ليلاً، وأحضروا البُلَط وانهالوا عليها تحطيمًا، إلاَّ أنهم لم يجدوا بداخلها شيئًا. وتُوَاصل مراجع التاريخ الرواية فتقول: إنَّ العرب قد وصلوا في تطويرِ هذا النوع من الآلاتِ إلى قياس الزمن؛ بحيث إنه في عهد الخليفة المأمون أهدَى إلى ملك فرنسا ساعةً أكثرَ تطورًا، تُدارُ بالقوَّة الميكانيكية بواسطة أثقالٍ حديديةٍ معلَّقة بسلاسل؛ وذلك بدلاً من القوَّة المائية[1].

وإن هذا ليعني -في بعض ما يعنيه- مدى ما وصلتْ إليه العقلية الإسلامية من تسامٍ في الفكر والإبداع، ذلك الإبداع الذي لم يفصل بين الناحية العمليَّة والناحية الجماليَّة للابتكارات والاختراعات العلميَّة.

الإنسان الآلي!

إذا كان العالم الآن على وشك الدخول فيما أُطْلِقَ عليه (عصر الإنسان الآلي)، وذلك بعد أن حقَّقَتْ تكنولوجيا الإنسان الآلي تَقَدُّمًا سريعًا على مدى السنوات القليلة الماضية، فإنَّ مصادرنا الإسلامية تُشِيرُ إلى أن البداية في ذلك كانت في عصر الحضارة الإسلامية.

وقد كان ذلك على يَدِ عالم الحيل الهندسية بديع الزمان أبي العز إسماعيل بن الرزاز الجزري، الذي عاش في القرن السادس للهجرة؛ فهو أَوَّل مَنِ اخترع الإنسان الآلي المتحرِّك للخدمة في المنزل؛ حيث طلب منه الخليفة أن يصنع له آلة تُغْنِيهِ عن الخدم كُلَّمَا رغب في الوضوء للصلاة، فصنع له الجزري آلة على هيئة غلام منتصب القامة، وفي يده إبريق ماء، وفي اليد الأخرى منشفة، وعلى عمامته يقف طائر، فإذا حان وقت الصلاة يُصَفِّر الطائر، ثم يتقدَّمُ الخادم نحو سيِّده، ويصبُّ الماء من الإبريق بمقدارٍ مُعَيَّنٍ، فإذا انتهى من وضوئه يُقَدِّمُ له المنشفة، ثم يعود إلى مكانه، والعصفور يُغَرِّدُ[2]!

حامل المصحف الإلكتروني!

اكتُشِف حديثًا (عام ١٩٧٥م) في مكتبة لورنيين بفرنسا مخطوطٌ في الحيل النافعة

(١) حقق ذلك سيديو في كتابه (تاريخ العرب)، انظر محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ١/ ٢٢٦.

(٢) عن كتاب الجزري: الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل، وقد ترجم دونالد هيل هذا الكتاب إلى الإنجليزية عام (١٩٧٤م)، ووصفه مؤرخ العلم المعاصر (جورج سارتون) بأنه أكثر الكتب من نوعه وضوحًا، ويمكن اعتباره الذروة في هذا النوع من الإنجازات التقنية للمسلمين. انظر: أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٣١.

بعنوان (**الأسرار في نتائج الأفكار**)، يعود إلى العصر العربي الإسباني، ويحوي أجزاءً مهمَّة حول الطواحين والمكابس المائية، ويشرح أكثر من ثلاثين نوعًا من الآلات الميكانيكية، وساعة شمسية متطوِّرَة جدًّا، يقول جوان فيرنيه أستاذ تاريخ العلوم العربية بجامعة برشلونة: «لقد تأكدتْ نسبة كتاب (الأسرار في نتائج الأفكار) للمؤلف العربي الإسباني أحمد (أو محمد) بن خلف المرادي الذي عاش في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، ويهدف إلى تعليم صُنْعِ لعبٍ ميكانيكية كان الكثير منها قابلاً للاستعمال كساعة مائية». ويُلِحُّ فيرنيه على وجود قَرَابَة بين هذا الكتاب وكتاب آخر ترجمته شميللر إلى الألمانية عام (١٩٢٢م)، كما أنه يُؤَكِّد على أن المهندس المعماري الفرنسي فيلاردوهنكور الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، كان على عِلْمٍ بتقنيات العالِمِ العربي التي تقوم بحركات دائمة[(١)].

وما يهمُّنَا هنا من أمثلة التقنيات المتقدِّمَة التي صوَّرَها كتاب المرادي: «**حامل المصحف**» الموجود في جامع قرطبة، والذي يُتِيحُ تناول نسخة نادرة من القرآن الكريم، وقراءتها دون أن تمسَّهَا الأيدي، إذ ينفتح الحامل بطريقة آلية؛ حيث تُوضَعُ المجموعة المكوَّنَة من الحامل والمصحف على رَفٍّ متحرِّكٍ في صندوق مُغْلَقٍ بالقسم العلويّ من المسجد، وعندما يدار مفتاح الصندوق ينفتح باباه فورًا وآليًّا نحو الداخل، ويصعد الرفُّ من تلقاء ذاته حاملاً نسخة القرآن إلى مكان مُحَدَّدٍ، وفي الوقت نفسه ينفتح حامل المصحف وينغلق بَابَا الصندوق، وإذا أدخل المفتاح من جديد في قفل الصندوق وأُدِيرَ بالاتجاه المعاكس تتوالى الحركات السابقة بالترتيب المعاكس، وذلك بفضل سيور وآليات أُخْفِيَتْ عن الأنظار[(٢)].

بهذه الابتكارات قدَّم المسلمون للعالم آلاتٍ ومصنوعات تعبِّر عن جمال حضارتهم ورقة ذوقهم.

---

(١) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٣٥، ٣٦.

(٢) جوان فيرنيه: الإنجازات الميكانيكية في الغرب الإسلامي، مجلة العلوم الأمريكية، الترجمة العربية، الكويت، أكتوبر/ نوفمبر، مجلد ١٠، ١٩٩٤م، نقلاً عن المصدر السابق ص٣٥.

المبحث الثاني

إبداعات المصنوعات

في شأن الجمال لا يكون لقيمة المصنوع ذاته قدرٌ مؤثر؛ لأنه دراسة للجمال فيه لا لقيمته هو، فقد يوجد في أتفه المنتجات ما يدل على أدق شئون الحياة الشعبية، وما يساعد على تقدير معارف صانعيها الفنيَّة، واحتياجات مبدعيها ومقتنيها.

ويشهد لوبون بأن الفنون الصناعية شائعة بين العرب في كل مكان، وأن الأشياء التي يصنعها العرب صنعوها بروعةٍ تدل على اتّصاف أحقر صناعتهم بالذوق الفني[1].

إن الأنساق اللامتناهية التي تشكل الزخرفة في الفنون الإسلامية توجد في كل مكان، ولا يقتصر ذلك على صفحات القرآن الكريم المزخرفة بأمثلة رائعة من الخط الموشَّى، بل إن نسخة من مجموعة قصص أو أشعار تقدم لخليفة أو أمير تكون مزخرفة بطريقة مشابهة، والزخرفة التي توحي بالسمو لا يقتصر وجودها على المسجد وحده، بل إنها تتجلى في بناء نُزل أو مدرسة أو دار سكنى. كما لا تقتصر الأنساق اللامتناهية على تغطية الكرسي الذي تستند إليه نسخة المصحف في المسجد، بل إنها توجد حتى في الصحن الذي يتناول منه المسلم طعامه، وعلى درع الجندي أو سيفه أو منديل غطاء الرأس، المزخرفة جميعًا بطريقة مماثلة. لذا يكون من المناسب تمامًا أن نَعُدَّ الفن الإسلامي شاملاً بنوع فريد، سائر أنواع الجميل والأشياء المجملة بغض النظر عن الاستعمال الذي صمِّمت من أجله[2].

وانتشار التجميل في المصنوعات الإسلامية مهما قلَّ شأنها من الأمور التي تبدو بجلاءٍ لا يحتاج لعرض في شأن الحضارة الإسلامية.

ولقد كانت بداية هذا الأمر مبكرة، فلقد ورد أن السيف الذي أعطاه الرسول ﷺ أبا دُجانة يوم أُحُد كان مكتوبًا على إحدى صفحتيه:

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٥٠٧

(٢) إسماعيل راجي الفاروقي، ولوس لمياء الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية ص٥٣٩.

في الجبن عارٌ وفي الإقبال مكرمة والمرء بالجبن لا ينجو من القدر[١]

والشعر كان هو السحر الذي يطرب له العربي.

ثم تطورت المصنوعات الإسلامية كلها حتى بلغت ذلك الشأن العجيب البديع مع الانتشار الحضاري للدولة الإسلامية، حتى إن لوبون الذي يبدو مشدوهًا وهو يرصد الفن الإسلامي يتحدث عن الصياغة والحليّ والترصيع فيقول: «بلغ إتقانهم لبعضها مبلغًا يصعب الوصول إلى مثله في زماننا»[٢].

لقد تحولت سائر المصنوعات الإسلامية إلى تحفٍ فنية، السيوف والدروع والرماح والحِراب والخناجر والخوذات وأسطوانات نقل الرسائل، وأثاث البيت من مقاعد ومناضد وصناديق الحلي، وصناديق حفظ الأشياء المختلفة، وأطباق الطعام والأباريق والأكواب والصواني والدويات[٣]، والأبواب والنوافذ، والأثواب والمنسوجات والمفروشات، وأسرجة الدواب ومصابيح المساجد، والمنابر وشمعدانات الشموع وكِفاف[٤] الميزان، والمفاتيح والقفول وحِلَق الأبواب والفئوس، وأدوات الكتابة والأدوات الطبية حتى النارجيلة.. هذا كله إلى جانب المصنوعات التي تُعَدّ الزينة فيها عنصرًا أساسيًّا كالأقراط والعقود والخواتم وفصوص العمائم والخلاخيل، إلى غير ذلك من أدوات الزينة.

ويشهد ول ديورانت بأن استيعاب العرب لفنون من قبلهم كان استيعابًا وليس تقليدًا، أنتجوا به الجديد والأصيل، يقول: «بل كانت تركيبًا بارعًا من أشكال مختلفة لا ينقص من شأنها ما أخذه المسلمون عن غيرهم من الأمم. وتخطى الفن الإسلامي الذي انتشر من قصر الحمراء في الأندلس إلى التاج محل في الهند كلَّ حدود الزمان والمكان، وكان يسخر من التمييز بين العناصر والأجناس، وأنتج طرازًا فذًّا ولكنه متعدد الأنواع، وعبَّر

---

(١) السيرة الحلبية ٢/ ٤٩٧.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٥١١.

(٣) جمع دواة، وهي التي يوضع فيها حبر الكتابة.

(٤) جمع كفة.

عن الروح الإنسانية بأناقة موفورة فيَّاضة لم يَفُقْهَا شيءٌ من نوعها حتى ذلك الوقت»[١].

ويرى مؤلفَا كتاب أطلس الحضارة الإسلامية أن الزينة الإسلامية عنيت من خلال أنساقها اللامتناهية إلى التعبير عن التوحيد، وأن انتشارها في كل شيء كان انعكاسًا للفكرة الإسلامية التي تلزم المسلم بأن يكون كل نشاطه ملتزمًا بالفكر الإسلامي.

ولهذا فإن الفنان المسلم -مثلاً- حين كان يزين صندوقًا بسيطًا من الخشب ليضم أدوات الكتابة، كان يزينها بقطع العاج والصَّدف والخشب الملوَّن حتى تصير المادة الخشبية الأصلية غير مهمَّة في ذاتها بل غير معروفة، فلا يُعرف هل هو خشب البلوط أو الساج أو الماهوجني، ونفس هذا الكلام يصدق على القصور العظيمة التي تختفي فيها مواد البناء الأصلية تمامًا تحت طبقة الزخرفة، وفي هذا تجسُّد الفكرة التي لا تهتم بالقيمة المادية للمواد الأصلية بما يجعل الجمال غير مرتبط بالقيمة المادية، وهذا هو جوهر الفكرة الإسلامية البسيطة والزاهدة في القيمة المادية، وبما يجعل الجمال في حد ذاته قادرًا على إضفاء روعته على أبسط الأشياء وأقلها قيمة مادية، وكل هذا يعطي للجمال أولاً القيمة الأولى والكبرى في وجدان الإنسان[٢].

إن هذه النظرة التي تعبر عن فلسفة الإسلام الفنية هي بحدِّ ذاتها إسهام يجب الوقوف أمامه طويلاً، ورصد تأثيراته العميقة في تشكيل الوجدان الإسلامي والرؤية الإنسانية للكون والحياة والطبيعة والإله.

ويتضح من الصور التالية كيف كان الجمال عنصرًا أساسيًّا ومنتشرًا في جميع المصنوعات الإسلامية، مهما قلَّ شأنها.

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٢٤٠.

(٢) إسماعيل راجي الفاروقي، ولوس لمياء الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية ص٥٤٠ وما بعدها.



صورة (٤٧) فئوس

صورة (٤٨) مفتاح وقفل

صورة (٤٩) سرج

صورة (٥٠) إِبريق

صورة (٥١) إناء

صورة (٥٢) حلي

صورة (٥٣) صحن

صورة (٥٤) كُوب

صورة (٥٥) قنديل

صورة (٥٦) أقواس

صورة (٥٧) أغمدة سيوف

صورة (٥٨) بَاب

الفصل الثالث

جماليات البيئـــــة

لقد استلهم المسلمون من الجمال المكنوز الذي تسيل به آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ، فألهمهم هذا صناعة جنانٍ على الأرض.

كان لا بُدَّ لوصف الجنة الذي تحفل به آيات القرآن ويملأ أحاديث النبي ﷺ أن يشكِّل الحاسة الجماليَّة عند المستمع، ولما كان الإسلام دين عمل، فالمتوقع أن السامع سيحوِّل لذة السماع إلى لذة البناء.

ولقد عُني الإسلام بجمال البيئة بما يجعل تعاليمه في هذا الشأن إضافة أصيلة للحضارة الإنسانية التي لم تهتم - إلا حديثًا- بأمر البيئة ورعايتها وجمالها.

في هذا الفصل نعرض للجمال الذي صنعته الحضارة الإسلامية على البيئة المحيطة بها، تلك التي جعلت الطبيعة حُلوة خضرة نضرة.. تَسُرُّ الناظرين، من خلال المباحث التالية:

- **المبحث الأول: الجمال من القرآن والسنة**
- **المبحث الثاني: انتشار الحدائق في الحضارة الإسلامية**
- **المبحث الثالث: خصائص الحدائق الإسلامية**
- **المبحث الرابع: النافورات**

المبحث الأول

الجمال من القرآن والسنة

لا تقتصر حكمة خلق الأشجار والنباتات والثمار على الفوائد الحيوية المعروفة من كونها غذاء للإنسان والحيوان، أو رئة تتنفس بها البيئة، بل إن الله ﷻ أشار في كتابه الكريم إلى وظيفة أخرى تُؤَدِّيها الأشجار والحدائق في حياة الإنسان ووجدانه، وهي تلك البهجة والنشاط والحيوية التي تبعث في القلب، فقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[1].

وإن تلك الصبغة الجمالية التي تُمَيِّز الطبيعة على اختلاف مُكَوِّناتها ليست إلاَّ تطبيقًا لقاعدة عامَّة أَقَرَّها الله تعالى في كل ملمح من ملامح الكون، كما أَحَبَّ لِعِباده أن يتخلَّقوا بها؛ تلك هي (قاعدة الجمال)! فعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»[2].

ولعلَّ من اللافت للنظر كثرة الحديث عن الشجر والثمار والجنات في القرآن الكريم؛ حيث ورد لفظ شجر بمشتقَّاته في القرآن نحو ٢٦ مَرَّة، كما وردت لفظة ثمر بمشتقَّاتها ٢٢ مَرَّةً، ونبت بمشتقاته ٢٦ مَرَّة، وذُكِرَت الحدائق ٣ مَرَّات، أَمَّا الجنة مفردة ومجموعة فقد وردت ١٣٨ مَرَّة.

بل إن القرآن الكريم عندما يعرض للأشجار والثمار من حيث هي طعام للإنسان والأنعام، يأتي ذلك العرض في سياق لافت لجمال المنظر؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾[3].

---

(١) (النمل: ٦٠).

(٢) مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، وابن حبان (٥٤٦٦)، والحاكم (٦٨).

(٣) (عبس: ٢٤-٣٢).

وإلى جانب إظهار الحكمة الجمالية من وراء خَلْقِ الحدائق بأشجارها وثمارها على هذا النحو البديع، فقد كان لتصوير القرآن الكريم والسُّنَّة المطهَّرة للجنَّة، بما تحتويه من مُتَعٍ حسِّيَّة ومعنويَّة، كان لتلك العوامل مجتمعة أثرٌ قوي في دفع المسلمين لمحاكاة هذا التصوير المثالي في التعامل مع البيئة.

فمن مشاهد الجنة في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾[1].

وغيرها من الآيات القرآنية الكثيرة.

وكذلك كان حديث رسول الله ﷺ المنبع الثاني الذي استقى منه المسلمون رؤيتهم لجمال البيئة؛ فعن أبي هريرة قال: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ: «لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وَمِلاَطُهَا الْمِسْكُ الأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلاَ يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلاَ يَمُوتُ، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُه»[2].

وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ

---

(١) (الرحمن: ٤٦-٧٦).

(٢) أحمد (٨٠٣٠)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح بطرقه وشواهده.

وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلاً، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ فَلاَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا»(٢).

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ الْمُجَوَّفِ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ. فَإِذَا طِينُهُ أَوْ طِيبُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ(٣)»(٤).

وإذ كثرت النصوص القرآنيَّة والنبويَّة الحافلة بهذا الجمال، تم تشكيل الوجدان الإسلامي العام على التطلُّع إلى هذا النعيم، فقدَّم المسلمون للحضارة الإنسانية ما استطاعت أيديهم أن تصنعه محاكاةً لهذه الصورة القرآنية والنبوية الرائعة.

****

---

(١) البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة الرحمن (٤٥٩٨)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين (٢٨٣٨)، واللفظ له.

(٢) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٩)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها (٢٨٢٧).

(٣) مسك أذفر: أي طيب الريح. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة ذفر ٤/ ٣٠٦.

(٤) البخاري عن أنس بن مالك: كتاب الرقاق، باب في الحوض (٦٢١٠)، وأحمد (١٣٠١٢).

المبحث الثاني
انتشار الحدائق في الحضارة الإسلامية

«إنَّ منظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية، وتَأَمُّل هذه البهجة والجمال الناضر الحيِّ الذي يبعثها - كفيلٌ بإحياء القلوب، وتَدَبُّرَ آثار الإبداع في الحدائق كفيلٌ بتمجيد الصانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب، وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليَعْجَز عنه أعظم رجال الفنون من البشر، كما أن تموُّجَ الألوان، وتداخل الخطوط، وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفنِّ في القديم والحديث، فضلاً عن معجزة الحياة النامية في الشجر، وهي السرُّ الأكبر الذي يعجز عن فهمه البشر...»[١].

كان لامتلاء القرآن والسُّنَّة بالصور الباهرة انعكاس ملموس على الحضارة الإسلامية، إذ لم تَخْلُ حاضرة من حواضر الإسلام في المشرق ولا المغرب من الحدائق الرائعة، التي تميَّز بها الحسُّ المعماري الإسلامي؛ منها ما كان في الأندلس، وتركيا، والشام، وفارس، ومصر، وسمرقند، والمغرب، وتونس، واليمن، وعُمان، والهند، وغيرها.

في الأندلس[٢]:

- قرطبة: أنشأ عبد الرحمن الداخل رحمه الله الرصافة، والتي تُعَدُّ من كبرى الحدائق في الإسلام، وكان قد أنشأها على غرار الرصافة التي كانت بالشام، وأسَّسها جدُّه هشام بن عبد الملك رحمه الله، وقد أتى لها بالنباتات العجيبة من كل بلاد العالم، «نقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية، وأودعها ما كان استجلبه يزيد، وسفر رسولاه إلى الشام من النوى المختار والحبوب الغريبة حتى نمت بيمن الجد وحسن التربية في المدة القريبة أشجارًا معتمة، أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الأندلس، فاعترف بفضلها على أنواعها»[٣].

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٥/ ٣٩٠.

(٢) انظر في حدائق الأندلس: سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مبحث الحديقة الأندلسية، جيمس ديكي ٢/ ١٤١١ وما بعدها.

(٣) المقري: نفح الطيب ١/ ٤٦٧.

- **غرناطة**[١]: كان يلتف حول سور غرناطة بساتين وحدائق حتى لكأنها سور آخر[٢]، هذا في خارج المدينَة. أما القصور، فتعتبر حدائق قصر الحمراء أفضل مثال يمكن أن يقدم لحدائق الحضارة الإسلامية. وفي غرناطة كذلك نجد (جنة العريف) التي أقيمت على سفح ربوة، وصمَّمها المسلمون على هيئة مدرَّجات لا يتعدَّى عرضُ أوسعها ثلاثة عشر مترًا، ولا يزيد عددها على ستَّة مستويات، ويلعب الماء دورًا أساسيًّا فيها؛ إذ ينهمر من أعلى الحديقة من عيون تصبُّ في قنوات تمرُّ عَبْرَ الأشجار، بما يدل دلالةً واضحة على التأثُّر بآية ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾[٣][٤].



صورة (٥٩) حديقة أندلسية (غرناطة)

- وحتى لما انتهى العصر الذهبي لقرطبة وبدأ عصر ملوك الطوائف، تصف إكسبيراثيون سانشيز[٥] المشهد عن الحدائق في الأندلس فتقول: «عقب تفسخ الخلافة ونشوء ممالك الطوائف لم يتأخر الحكام الجدد في تقليد عادات الخلفاء المخلوعين، فكثرت تلك الحدائق «التجريبية» في كل قصر من قصور الحكم الجديدة... وكان لكل واحد من تلك البساتين عالم في الفلاحة يشرف عليها»[٦].

وفي الأندلس كانت الحدائق بعدد البيوت، إذ كان في كل بيت حتى الصغير منها

---

(١) انظر في وصف حدائق غرناطة: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ص١١٥ وما بعدها.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ص١١٥.

(٣) (الواقعة: ٣١).

(٤) انظر: يحيى وزيري: العمارة الإسلامية والبيئة ص٢٢٣.

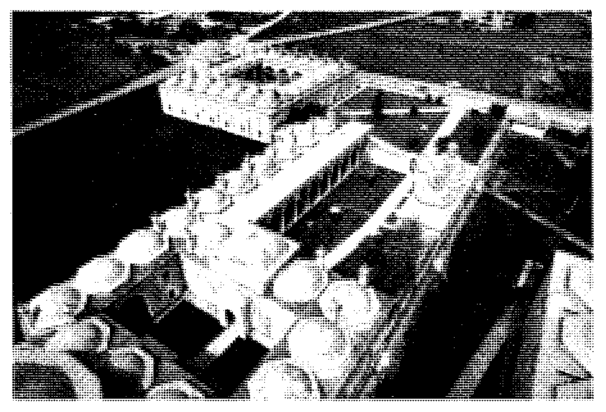
(٥) إكسبيراثيون سانشيز: أستاذة التاريخ الإسلامي في جامعة غرناطة، وباحثة في قسم اللغة العربية في المجلس الأعلى للبحوث العلمية في مدريد.

(٦) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية والإسلامية في الأندلس، مبحث إكسبيراثيون جارثيا سانشيز: الزراعة في إسبانيا المسلمة ٢/ ١٣٧٠.

حدائق، ويعترف جيمس دكي[١] حين حديثه عن الدُّور الصغيرة في غرناطة بأنه «مع أن أغلب تلك الدور صغير إلا أن فيها جميعًا مياهًا جارية وزهورًا وورودًا عبقة وشجيراتٍ ووسائلَ راحة كاملة، تبرهن على أن هذه الأرض عندما كانت في يد الموريين (المسلمين) كانت أكثر جمالاً مما هي عليه اليوم»[٢].

في إسلام بول[٣] (القسطنطينية):

فإذا يمَّمْنَا شطر المشرق الإسلامي الأوسط؛ لنصل إلى حاضرة الخلافة العثمانية، فسنجد أنه بمجرَّد دخول الإسلام إليها أخذت الحدائق في الانتشار في ربوع البلاد، وتميزت الحدائق الأناضولية بأنها كانت تُخطَّط أوَّلاً ثم يُبنى عليها بعد ذلك؛ ولذلك فقد كانت قصور إستانبول تُسَمَّى بـ(الحدائق) على الرغم من وجود القصور داخلها! وكانت هذه الحدائق تُسْتَعْمَل للتسلية، أو الحفلات الرسمية، كما كانت تَطُلُّ غالبًا على ساحل البحر كما في إستانبول.



صورة (٦٠) مُجَمَّع بايزيد (تركيا)

وقد أُدخلت المسطحات الخضراء على التكوين المعماري للمساجد في عصر الخلافة العثمانية بهدف وقايتها من أخطار الحرائق، مثل مسجد السليمانية بإستانبول؛ فقد جرى التعارُفُ على أن النار تشتعل في المنازل التي كانت تُبنى بالخشب، ثم تمتدُّ منها إلى المساجد المجاورة؛ ممَّا حَدَا بالمعماري (سنان) أن يحيط الجامع

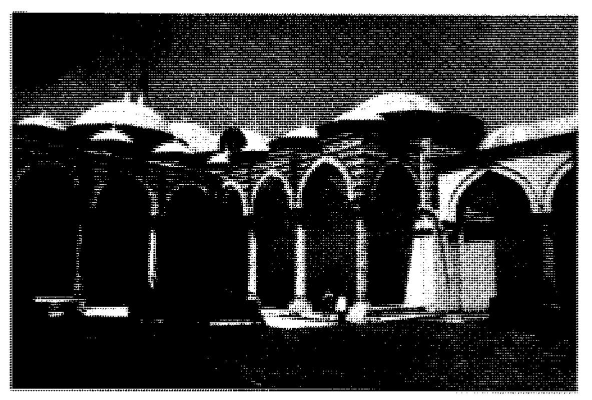
(١) جيمس ديكي: أكاديمي متخصص في تاريخ إسبانيا الإسلامية والشريعة الإسلامية بجامعات مانشستر ولانكستر وهارفارد.

(٢) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مبحث يعقوب دكي بعنوان «غرناطة.. مثال من المدينة العربية في الأندلس» ١/ ١٧٦.

(٣) إسلام بول: وتعني مدينة الإسلام، وهو الاسم الذي أطلقه العثمانيون على القسطنطينية بعد فتحها، وهي اليوم (إسطنبول).

وملحقاته بسور خارجي، بينه وبين التكوين الداخلي للمسجد مساحات كبيرة خالية، غُرِسَتْ بها أشجار باسقة، وأنواع من زهور مختلفة؛ تعزل المسجد عن المنازل المجاورة، وتُحَقِّق في الوقت ذاته قيمة جماليَّة رائعة.

وقد كثر في العهد العثماني أن تُزرع الأشجار في صحن المساجد الكبرى، ومن أمثلة تلك المساجد صحن المسجد النبوي الشريف، ومسجد (بايزيد) بتركيا.



صورة (٦١) حدائق قصر توب كابي

وتعْتَبَرُ حدائق قصر (توب كابي) الذي بدأ بناؤه في عهد السلطان (محمد الفاتح)، وكان مَقَرًّا للسلاطين العثمانيين ما بين القرن العاشر والثالث عشر الهجريين (من السادس عشر إلى التاسع عشر الميلاديِّ)، وكان القصر بحدائقه يُغَطِّي مساحة ٦٩ ألف متر مربع، بمحيط خمسة كيلو مترات، وقد خُطِّطت هذه الحدائق فيه على شكل ممرَّات مكشوفة تحيط بالقصر من الشمال والغرب والشرق، وكان فيها حدائق للفاكهة والخضراوات، ومساحة واسعة تُركت للصيد[(١)].

مصر:

وصف ابن سعيد «بركة الحبش» وهي جزء من الفسطاط (العاصمة الأولى لمصر الإسلامية) فقال: «وكانت (يعني بركة الحبش) في ملك أبي بكر محمد بن علي المادرائي وزير آل طولون بجميع ما تشتمل عليه من المزارع والجنائن خلا الجنان التي في شرقيها، وأظنها الجنان المنسوبة إلى وهب بن صدقة وتعرف بالحبش... والحد الشرقي لهذه البركة ينتهي إلى الفضاء الفاصل فيما بينها وبين جنان الحبش... وفي قبلي بركة الحبش جنان قتادة

---

(١) انظر: يحيى وزيري: العمارة الإسلامية والبيئة ص٢٢٤-٢٢٦.

بن قيس بن حبش الصدفي (وهو) شهد فتح مصر، وبه تعرف الجنان والبركة»[١].

وفي عهد خمارويه بن أحمد بن طولون -عصر الدولة الطولونية- يروي المقريزي ما كانت عليه العاصمة المصرية «القطائع» فيقول: «أقبل على قصر أبيه وزاد فيه، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه فجعله كله بستانًا، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر، ونقل إليه الوادي اللطيف الذي ينال ثمرة القائم، ومنه ما يتناوله الجالس من أصناف خيار النخل، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورود، وزرع فيه الزعفران، وكسا أجسام النخل نحاسًا مذهبًا حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب[٢] الرصاص، وأجرى فيه الماء المدبر، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر إلى فساقي معمولة، ويفيض منها الماء إلى مجارٍ تسقي البستان، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة، يتعاهدها البستاني بالمقراض[٣] حتى لا تزيد ورقة على ورقة، وزرع فيه النيلوفر[٤] الأحمر والأزرق والأصفر...». واستمر المقريزي في وصف تلك البدائع[٥].

بغداد:

لما بنى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد (من ١٤٥هـ - ١٤٩هـ) ونقل إليها الخلافة العباسية، سمى قصره فيها «الخُلد»، وقال الخطيب البغدادي: «إنما سمى قصر المنصور الخلد تشبيهًا له بجنة الخلد، وما يحويه من كل منظر رائق ومطلب فائق وغرض غريب ومراد عجيب»[٦].

وبغداد في عصر العباسيين أعظم مدن الأرض قاطبةً، وهي عاصمة العالم كله حضارة وثقافة وعمارة، وتأتي بعدها مدن كقرطبة والقاهرة والقسطنطينية، ثم تذكر باقي

---

(١) نقلاً عن: أحمد عادل كمال: أطلس تاريخ القاهرة ص٣٥، وهو ينقل عن ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار.

(٢) المزاريب جمع مزراب: وهو أنبوبة من الحديد ونحوه، تركب في جانب البيت من أعلاه لينصرف منها ماء المطر المتجمع. انظر: المعجم الوسيط، مادة زرب ص٣٩١.

(٣) المقراض: المقص وهو ما يقرض به الثوب أو غيره.

(٤) النَّيْلَوْفَر: جنس نباتات مائية فيه أنواع تنبت في الأنهار والمناقع، وأنواع تزرع في الأحواض لورقها وزهرها، ومن أنواعه: اللوطس، أي عرائس النيل، وتسمى البشنين. انظر: المعجم الوسيط ص ٩٦٧.

(٥) المقريزي: الخطط والآثار ١/ ٨٧٢.

(٦) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٧٥.

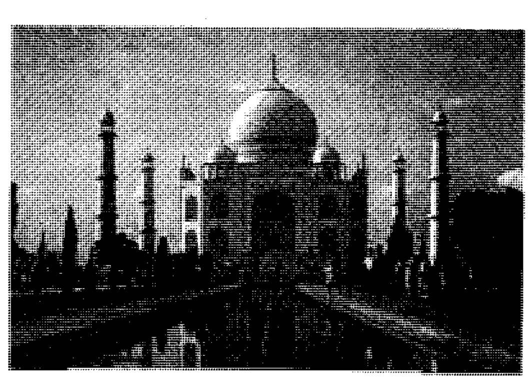
البلاد فيما بعد.

يصفها ياقوت الحموي فيقول: «بغداد جنة الأرض، ومدينة السلام، وقبة الإسلام، ومجمع الرافدين، وغرة البلاد، وعين العراق، ودار الخلافة، ومجمع المحاسن والطيبات، ومعدن الظرائف واللطائف، وبها أرباب الغايات في كل فن، وآحاد الدهر في كل نوع، وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية»[1].

ويصف القزويني حديقة قصر المقتدر فيقول: «ومن عجائبها دار الشجرة من أبنية المقتدر بالله (٢٨٢-٣٢٠هـ)، دار فيحاء ذات بساتين مؤنقة، وإنما سميت بذلك لشجرة كانت هناك من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام أبوابها، ولها من الذهب والفضة ثمانية عشر غصنًا، ولكل غصن فروع كثيرة مكلَّلة بأنواع الجواهر على شكل الثمار. وعلى أغصانها أنواع الطير من الذهب والفضة، إذا هبَّ الهواء سمعت منها الهدير والصفير. وفي جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارسًا، ومثله عن يسار البركة، قد ألبسوا أنواع الحرير المدبَّج مقلَّدِين بالسيوف، وفي أيديهم المطارد يحركون على خط واحد، فيظنّ أن كل واحد قاصد إلى صاحبه»[2].

في الهند:

بلغت الحدائق الهندية أكبر إنجازاتها في ضريح تاج محل الذي شيدة الإمبراطور شاه جيهان لزوجته تاج محل، فحديقة الضريح الفخمة الواسعة مصمَّمة بأسلوب المحاور الرئيسية والفرعية المعروف باسم «تشار باغ»، ومثلها أيضًا حديقة ضريح «اعتماد» في آجرا، فالضريح يقع



صورة (٦٢) حديقة تاج محل

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٤٦١.

(٢) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ١/ ١٢٧.

في أعلى شرفة في مركز الحديقة المربعة، وفي كل جهة من الجهات الأربع يوجد حوض ماء، أمام واجهات الضريح، وتنقسم الحديقة إلى أربعة أجزاء مزروعة بالمسطحات الخضراء والأشجار.

ونفس التصميم يتكرر في ضريح «همايون» في دلهي، حيث يتوسط الضريح الحديقة، وتنقسم الحديقة بالأحواض والقنوات المائية إلى محاور وقطع مربعة[١].

في المغرب:

وفي عهد الموحدين كانت العاصمة مَرَّاكش أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعنابًا وفواكه وجميع الثمرات، وكان من بساتينها: بستان المسرة والصالحية وأنشأهما عبد المؤمن بن علي، والبحائر ومنها البحيرة التي أنشأها يعقوب المنصور والتي طولها ٣٨٠ ذراعًا، على جانبها الواحد أربعمائة شجرة من النارنج، وبين كل شجرتين شجرة من الليمون أو الريحان[٢].

ولم تكن بساتين مَرَّاكش هي الوحيدة بالمغرب، فقد كانت بساتين أخرى بمكناس وفاس والمقرمدة وتازا[٣] وسلا وسبتة[٤].

ويصف العمري ما كان في سبتة من الحدائق فيقول: «وفي بر العدوة أماكن للفرجة متعددة آخذة هكذا بمجامع القلوب، وأزِمَّة الأبصار، ببلونس متنزهة بظاهر سبتة على البحر في نهاية من حسن الوضع وانحدار المياه التي لها على الصخور دويّ والتفاف الأشجار...»[٥].

وفي النهاية فلا تَزِيدُنَا تلك الرحلة الممتعة مع الحدائق في الحضارة الإسلامية إلاَّ يقينًا بعظمة تلك الحضارة، وعظمة ما تركته -إلى اليوم- من معالم للرُّقِيِّ الإنساني والبيئي؛ الأمر الذي يدلُّ دلالةً أكيدة على ذلك الانسجام الكامل بين دين الإسلام وفطرة الإنسان، التي تَسْكُن بطبيعتها إلى اللون الأخضر وتناسق الأشجار والثمار.

---

(١) يحيى وزيري: العمارة الإسلامية والبيئة ص٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) محمد المنوني: حضارة الموحدين ص١٦٢.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٤) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين، ص٤٢٨ وما بعدها.

(٥) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ٣/ ١١٧، نقلاً عن: حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ص٤٢٩.

المبحث الثالث

خصائص الحدائق الإسلامية

يقرر جيمس دكي أن تصميم الحديقة الإسلامية كشأن فن العمارة الإسلامي، لا يمكن حتى مجرَّد وصفه بالمصطلحات الغربية؛ لأنه لا يقع فقط خارج التطور الغربي التاريخي، بل هو نتاج سياق فكري مختلف، ويشهد بأن «الفن الإسلامي لم يقع في يوم من الأيام تحت جاذبية التعارضات الثَّرة التي تقوم عليها (الأنساق) الأوربية»(١).

ولقد استعرض الدكتور يحيى وزيري في كتابه (العمارة الإسلامية والبيئة) (٢) بعضًا من المزايا التي تميزت بها الحدائق الإسلامية، فمنها مثلاً:

١. الاستلهام القرآني والنبوي لوصف الجنة:

كانت الحدائق الإسلامية مستلهمة من الوصف القرآني والنبويِّ للجنة، حتى في تلك التفاصيل الدقيقة مثل الأشجار والمياه والأرائك والمجالس والروائح.

فمن الآيات الكريمة التي استوحى منها المسلمون الموضع النموذجي لاختيار الحدائق والجنات الأرضية قوله ﷻ: **﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**(٣). فقد التفت المسلمون هنا إلى إشارة دقيقة؛ حيث أوضحت الآية الكريمة أن الموقع الأمثل للحدائق والبساتين إنما يكون بالأماكن المرتفعة من الأرض (الربوة)؛ فهذا يُجنِّب الأشجار التقاء جذورها بالمياه الجوفية التي تَحُدُّ من نموِّها، كما أنه يساعد على جودة الصرف والتخلُّص من المياه الزائدة.

وقد بلغ الاهتمام إلى حد أن أحيطت جذوع الأشجار في بعض الأحيان برقائق الذهب، وكان خمارويه بن أحمد بن طولون يعتني بحدائق قصره إلى حد أن كسا جذوع النخيل بالنحاس المذهَّب، وكأن المسلمين قد استلهموا هذا الأسلوب من حديث النبي

---

(١) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مبحث جيمس دكي بعنوان «الحديقة الأندلسية: دراسة في مدلولاتها الرمزية» ٢/ ١٤٣٥.

(٢) انظر: يحيى وزيري: العمارة الإسلامية والبيئة ص٢١٤ وما بعدها.

(٣) (البقرة: ٢٦٥).

ﷺ: «مَا فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ إِلاَّ وَسَاقُهَا مِنْ ذَهَبٍ»(١).

٢. النظرية الفردوسية:

تميَّزَتِ العمارة الإسلامية بما يمكن أن نطلق عليه: (النظرية الفردوسية)، في محاولة لإيجاد حدائق وجنَّات أرضية داخل بيئات تتَّسم بظروف مناخية قاسية، بغرض تحسين وتجميل هذه البيئة، ومع نموِّ الفنون والعمارة الإسلامية وتطوُّرها أصبح الاتجاه في تصميم الحدائق يحاولُ التأنُّق ويبرع فيه؛ لإضفاء تلك البهجة التي وَصَفَ بها القرآنُ حدائقَ الأرض ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾(٢).

٣. كتبت على أبوابها أو جدرانها آيات من القرآن أو من الحديث أو عبارات إسلامية أخرى.

٤. كثرت في البيوت، وكانت في أفنية البيوت الداخلية لتحقق الخصوصية، وتوفِّر البديل المبهج عن الساحات والحدائق والميادين العامة.

٥. وكانت الخصوصية هي أهمُّ ما يميِّز الحديقة في العصر الإسلامي؛ ولذلك أُحيطت الحدائق بالأسوار العالية، أو أشجار النخيل؛ لحجب المناظر الداخلية.

ومن المهم أن نختم بهذه الملاحظة الجوهرية بين النظرة الإسلامية والنظرة الغربية للحدائق، والتي يتضح منها جوهر الفلسفة الإسلامية التي تهتم مع الفائدة بالجمال، وجوهر الحضارة الغربية التي تهتم أكثر ما تهتم بالجانب المادي والوظيفي فقط، هذه الملاحظة لجيمس دكي، وبها فسَّر سبب «قتل تراث البستنة الإسلامي»، قال: «إن طرد الموركسيين كان سيقتل تراث البستنة الإسلامي في إسبانيا حتى ولو لم يتزامن سقوط غرناطة مع تغير الأذواق الذي أحدثه عصر النهضة (في أوربا)، فقد نظر عصر النهضة للحديقة على أنها **مُكَمِّلة لفن العمارة**، بينما مال المسلمون إلى **اعتبار القصر تابعًا للحديقة**، ولم يكن التوفيق بين هاتين النظرتين المتعارضتين تمام التعارض ممكنًا»(٣).

---

(١) الترمذي عن أبي هريرة: كتاب صفة الجنة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في صفة شجر الجنة (٢٥٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٦٤٧).

(٢) (النمل: ٦٠).

(٣) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مبحث جيمس دكي بعنوان «الحديقة الأندلسية: دراسة في مدلولاتها الرمزية» ٢/ ١٤٣٥.

المبحث الرابع

النافورات

تمثل النافورات في الحدائق الإسلامية جزءًا من مهارة المزارع والمهندس والفنَّان المسلم في استخدام المياه في الحدائق.

«لقد جاء استخدام الماء في الحديقة الإسلامية بصورة متنوعة، فقد استخدم على شكل مسطحات مائية مظلَّلة بالأشجار، أو على شكل نوافير تساعد على تحريك سطح الماء، فلا يعمل كسطح عاكسٍ، أو على شكل أنابيب علويَّة تتساقط منها المياه محدثة خريرًا مقبولاً، أو على شكل سلسبيل»[1].

صورة (٦٣) نافورة أندلسية (غرناطة)

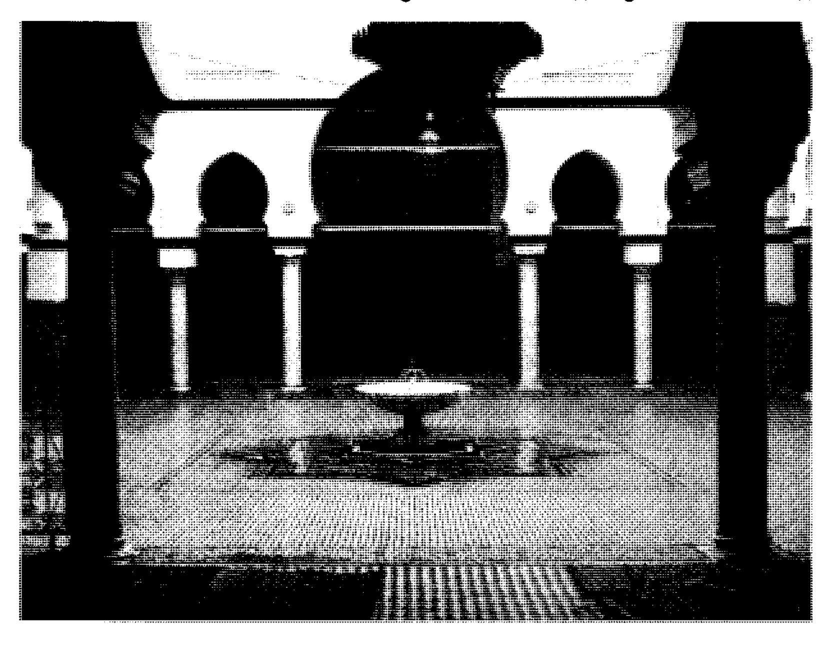
وبإمكاننا بعدما رأينا طرفًا من انتشار وسعة الحدائق على طول المساحة الإسلامية، وبعدما رأينا أن الحدائق انتشرت حتى داخل البيوت، نقول: يمكننا أن نضاعف هذا التخيُّل لنحسب عدد النافورات في كل حديقة، وهو عدد لا يكاد يحصى.

حتى البيوت الفقيرة في المجتمع الإسلامي يصفها ول ديورانت فيقول:

«وكانت بيوت الفقراء وقتئذٍ -كما هي الآن- أبنية مستطيلة الشكل؛ مقامة من اللبن الملتصق بالطين، سقفها خليط من الطين، وأعواد النبات، وغصون الأشجار، وجريد النخل، والقش. وكانت البيوت الأرقى من هذه نوعًا تشتمل على فناء داخلي مكشوف،

(١) يحيى وزيري: العمارة الإسلامية والبيئة ص٢١٧.

ذي فسقية، وشجرة في بعض الأحيان؛ وكانت تحتوي أحيانًا على طائفة من العمد الخشبية، ورواق مسقوف بين الفناء والحجرات»[(١)].



صورة (٦٤) نافورة بساحة مسجد القرويين بالمغرب

وعلى سبيل المثال كان في بلجراد -إبان عصر الخلافة العثمانية- أكثر من ٦٠٠ نافورة عموميَّة[(٢)].

ومنذ أعوام قامت السلطات المغربية بحملة لترميم النافورات القديمة في مدينة فاس، فكان الإحصاء الذي نشر يقول: يوجد في شوارع فاس نحو ٧٠ نافورة تقليدية، وحوالي ٤٠٠ نافورة داخل المساكن والمساجد والمدارس العتيقة. وتشير المصادر التاريخية أن هذه النافورات وجدت في المدينَة العريقة منذ القرن السادس عشر الميلادي، وكان يعتمد عليها كُلِّيًّا للشرب وسقي الحيوانات وريّ البساتين، ويُعتقد أن وجود هذه النافورات ارتبط بنسق شبكة المياه المعقدة في فاس منذ حوالي ١٠ قرون[(٣)].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٢٤١.

(٢) جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٨.

(٣) جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٢.

فلم تكن النافورات إذن مجرد بذخ، لقد كانت وجهًا من فلسفة الحضارة الإسلامية في استعمال المياه التي كانت «مرتبطة بنواحٍ وظيفية والاستمتاع الحسي الروحي»[(١)].

كانت المياه المتدفقة من النافورات -في جنة العريف بغرناطة- توجه بمهارة فائقة حول حافة حوض المياه، فينتج الماء المتدفق تموجات نصف دائرية عندما يتساقط على الحوض المائي، وهذا الأسلوب هو إضافة إسلامية لم تكن موجودة من قبل[(٢)]. ولقد كانت الأحواض المائية تحتوي أحيانًا على أسماك أو أنواع من الطيور كالبط، فكانت النافورات على جوانب هذه الأحواض تمنع وجود الحشرات على سطح الماء، كما استخدمت النافورات أيضًا لإطلاق الرذاذ المائي؛ لتلطيف وترطيب الأجواء بأقل كمية ممكنة من الماء[(٣)].

ويتجلى حسن استغلال المياه في النافورات العمومية التي تجمع بين الأبعاد الرمزية والجمالية والعملية، وأجمل هذه الإبداعات هي التي توجد في ساحات المساجد، ومن أبرز هذه الأمثلة ما كان في بلاد البلقان في ظل الخلافة العثمانية مثل: نافورات مسجد محمد كوسكي باشا، ومسجد هرتدوس باي، ومسجد سنان باي، في كاينينيش، ومسجد سلطان اسمي، في بايتشا، ومسجد مصطفى باشا، في سكوبيا، ومسجد الغازي خسرف بك في سراييفو، ومسجد ألاجا في فوتشا. وتعتبر النافورات من ميزات الكثير من المدن الإسلامية عبر العالم، ولا سيما في البلقان. ومياهها صالحة للشرب، فضلاً عن الوضوء والاستحمام»[(٤)].

وفي الأندلس، وتحديدًا في قصر الحمراء لم تكن نافورة ساحة الأسود أحد المحاور الرئيسية لشبكة المياه التي تغذي القصر فحسب، وإنما كانت قطعة معبرة عن جمال النحت في الحضارة الإسلامية، إذ يحمل صحن النافورة اثنا عشر أسدًا يخرج الماء من أفواهها، وستزداد دهشتنا حين نعلم أن هذه النافورة كانت ساعة، يخرج الماء عند الساعة الواحدة

(١) يحيى وزيري: العمارة الإسلامية والبيئة ص٢١٧.

(٢) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، من مبحث: جيمس دكي بعنوان «الحديقة الأندلسية: دراسة في مدلولاتها الرمزية» ٢/ ١٤٣٣.

(٣) يحيى وزيري: العمارة الإسلامية والبيئة ص٢١٧، ٢١٨.

(٤) عبد الباقي خليفة: الآثار التاريخية في البلقان، تحقيق منشور في جريدة الشرق الأوسط ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٨.

من فم أسد واحد، ثم عند الثانية من فم أسدين، وهكذا عند الساعة الثالثة والرابعة إلى أن يخرج الماء من أفواه جميع الأسود عند الساعة الثانية عشرة، ولكن هذا النظام تعطل حين سقطت الأندلس، وحاول الأسبان معرفة نظامها فأفسدوها[1].

وهكذا كانت النافورات جزءًا بديعًا من الحدائق الإسلامية، ذات وظيفة عمليَّة، وقيمة جماليَّة، وأحيانًا كانت -أيضًا- اختراعًا علميًّا.



صورة (٦٥) نافورة الأسود: ساعة، ومركز شبكة مياه، ومنظر رائع

❊ ❊ ❊

(١) وليد أحمد السيد: انعكاسات فلكية في العمارة العربية الإسلامية، جريدة الجزيرة السعودية ٩/ ١١/ ٢٠٠٢.

الفصل الرابع
الجمال الإنساني الظاهري

خلق الله ﷻ الإنسان زيْنًا جميلاً، وصوَّره في أَحْسَنِ خِلْقَةٍ وأكرم صورة، فقال ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[١]، وقال أيضًا: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[٢]، وقال ﷻ واصفًا الزِّينة والجمال الذي مَتَّع به الإنسان في الأرض: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٣].

وقد جاء الأمر بالتجمُّل والتزيُّن في القرآن الكريم، مع استنكار المواقف الرَّافضة للتمتُّع بما أبدعه الله ﷻ في عالَم الطبيعة ووهبه لعباده، فقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٤].

وحين ينصح الإسلام الإنسانَ بالتجمُّل والتزيُّن، فمعنى ذلك أنه لا يقصد العناية بجمال الهيئة والصحَّة فقط؛ من مثل نظافة الثوب والبدن وغيرهما، وإنما يعني قبل ذلك جمال التخلُّق وجمال التعامل، وهو ما تحقَّق وتكَامَلَ في حضارة الإسلام الإنسانية. فالجمال الإنساني إذن نوعان؛ جمال ظاهري، وجمال معنوي.

في هذا الفصل نعرض لجمال الهيئة والمظهر، من خلال هذه المباحث:

- **المبحث الأول: جمال الجسم**
- **المبحث الثاني: جمال الثوب**
- **المبحث الثالث: جمال البيت والشارع والمدينة**
- **المبحث الرابع: لطائف الذوق**

---

(١) (التين: ٤).
(٢) (الانفطار: ٧، ٨).
(٣) (الكهف: ٧).
(٤) (الأعراف: ٣١-٣٣).

المبحث الأول

جمال الجسم

ليس خافيًا على أحدٍ أن النظافة والطهارة، والعناية بهما، من أَجْلَى مظاهر الحضارة البشرية وأَوْضَحِهَا، وهما في الوقت نفسه من أفضل ما يُعَبِّرُ عن الجمال الحسِّيِّ أو الظاهريِّ.

والحقيقة أن الإسلام جاء بمنهج معجز في ذلك، منهج فيه سلامة الجسد والنفس والمجتمع، بل والإنسانيَّة كلها! إلى الحد الذي يرشد القرآن إلى أن الله ﴿يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1] و﴿يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[2]، «أي: المتنزهين عن الأقذار والأذى»[3].

بل إلى الحد الذي يقرِّر فيه النبي ﷺ أن «**الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ**»[4]، ومما قاله العلماء في الحديث أن «الأجر فيه ينتهي تضعيفه إلى نصف أجر الإيمان»[5].

إنه يجدر أن نلفت النظر إلى أن هذه التوجيهات كانت في الوقت الذي كانت فيه القذارة سمة مميِّزة لحياة الأوربيين، فكان الإنسان لا يغتسل في العام كله إلاَّ مَرَّة أو مَرَّتين[6]! حتى وصل الأمر إلى اعتبار أن الأوساخ التي تَعْلَقُ بالجسم والملبس هي من البركة، ومن الأشياء التي تعطي القوة للأبدان.

في هذا الوقت جاء المنهج الإسلامي يُرشد المسلمين إلى **الطهارة** ووجوب الاغتسال، وإلى استحبابه؛ حيث لا طهارة لأبدانهم إلاَّ بالاغتسال، ولا صلاة لهم إلاَّ بالوضوء، الذي قد يَصِلُ إلى خمس مَرَّات في اليوم.

فالغُسْلُ واجب عند الجنابة، وعند الحيض، وغير ذلك، وهو مُسْتَحَبٌّ في العيدين والإحرام، وغيرهما، واختلف العلماء في وجوبه أو استحبابه يوم الجمعة، والغالب أنه

---

(١) (البقرة: ٢٢٢).

(٢) (التوبة: ١٠٨)

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٨٨.

(٤) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٥٣).

(٥) النووي: المنهاج ٣/ ١٠٠.

(٦) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٥٤.

مُسْتَحَبٌّ؛ قال رسول الله ﷺ كما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «**غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ، وَسِوَاكٌ، وَيَمَسُّ مِنَ الطِّيبِ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ**[(١)]»[(٢)].

بل إنه حدَّد للمسلم فترة زمنية قصوى للفارق بين الغُسْلَيْنِ، فقال ﷺ: «**حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا، يَغْسِلُ فِيهِ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ**»[(٣)].

ووصل بعض الفقهاء بأنواع الغُسْلِ المختلفة إلى سبعة عشر نوعًا من الغُسْلِ؛ للدلالة على أهميته، ودعا الإسلام إلى طهارة الأعضاء المختلفة من الجسم، واهتمَّ بالأعضاء التي تكثر فيها الأمراض، أو يُحْتَمَلُ فيها حدوث الوسخ.

يمكن أن نرتب منهج الإسلام في النظافة عبر ثلاث خطوات: نهي عن القذارة، ثم أمر بالنظافة، ثم استحباب للزينة وهذا فوق النظافة.

وعَلِم المسلمون أن الاستهانة في عدم التطهُّر من النظافة سبب عذاب، إذ أخبر رسول الله ﷺ حين مَرَّ على قبريْنِ فقال لأصحابه يُحَدِّثُهم عن صاحبي هذين القبرين، كما يروي ابن عباس رضي الله عنهما: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»[(٤)].

وحين رأى النبي ﷺ رجلاً لم يهذِّب شعر رأسه ولحيته أشار إليه بيده: أَنِ اخْرُجْ، كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته، ففعل الرجل، ثم رجع، فقال رسول الله ﷺ: «**أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُكُمْ ثَائِرَ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ**»[(٥)].

وكذلك دعا رسول الله ﷺ إلى طهارة ونظافة الأماكن التي يُتَوَقَّع فيها العرق والأوساخ والميكروبات، بل جعل ذلك من سُنن الفطرة؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «**خَمْسٌ**

---

(١) هكذا وقع في جميع الأصول ليس فيه ذكر واجب، وقوله ﷺ: «وَسِوَاكٌ وَيَمَسُّ مِنَ الطِّيبِ»، معناه: ويُسَنُّ السواك ومسُّ الطيب. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٦/ ١٣٥، والمناوي: فيض القدير ٤/ ٥٤١.

(٢) البخاري: كتاب الجمعة، باب الطيب للجمعة (٨٤٠)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٤٦).

(٣) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل... (٨٥٦)، ومسلم في الجمعة باب الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٤٩).

(٤) البخاري: كتاب الوضوء، باب من الكبائر ألا يستتر من بوله (٢١٣)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢).

(٥) رواه مالك في الموطأ برواية يحيى الليثي (١٧٠٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٣).

مِنَ الْفِطْرَةِ: الْـخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ[(١)]، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الإِبِطِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ»[(٢)].

وبلغ من عناية النبي ﷺ أن قال: «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ»[(٣)]. وقال ابن عباس ﷺ: «لَقَدْ كُنَّا نُؤْمَر بالسِّواك، حتى ظننَّا أن سينزل به قرآن»[(٤)].

ولا نعجب بعد ذلك حين تنتشر الحمَّامات في جميع أنحاء بلدان الحضارة الإسلامية، والتي غدتْ جزءًا يُمَيِّز الناحية العمرانية في هذه البلدان.

وقد عقدت المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه مقارنة بين حضارة المسلمين في ذلك الوقت وبين حال أوربا في هذا الصدد، فقالت بأن الفقيه الأندلسي الطرطوشي خلال تجواله في بلاد الفرنجة صادفته أمور تقشعرُّ منها الأبدان، وهو المُسْلِمُ الذي فُرِضَ عليه الاغتسال والوضوء خمس مرات يوميًّا، اسمعه يقول: لن ترى أبدًا أكثر منهم قذارة؛ إنهم لا ينظِّفُون أنفسهم، ولا يستحمُّون إلاَّ مَرَّة أو مرتين في السَّنة بالماء البارد، وأمَّا ثيابهم فإنهم لا يغسلونها بعد أن يرتدوها؛ حتى تُصْبِحَ خِرَقًا بالية مهلهلة. وتُضِيف فتقول: إن مِثْلَ هذا الأمر -من القذارة- لا مجال لأنْ يفهمه العربي المتأنِّق أو يحتمله؛ وهو الذي لم تكن نظافة الجسم وطهارته بالنسبة إليه واجبًا دينيًّا فحسب، وإنما -أيضًا- حاجة ماسَّة تحت وطأة الجوِّ الحار ذاك. ثم ذَكَرَتْ أن مدينة بغداد كانت تزدحم في القرن العاشر للميلاد بآلاف الحمَّامات الساخنة مع الموجين بها، من ممسِّدين[(٥)] ومزيِّنين[(٦)].

ونقول: إن الجو الحار وإن كان ظرفًا يحمل على النظافة إلا أن انعدام الأنهار ومصادر المياه قد يبدو ظرفًا مقبولاً لعدم التشدُّد في هذا النظام اليومي والأسبوعي من النظافة الشاملة، إن أوربا ليست كلها مناطق باردة، وفيها مناطق حارَّة، لكنها في ذات الوقت كانت تعوم على الأنهار المنتشرة فيها طولاً وعرضًا. ومع هذا ظهرت فيها مبادئ تدعو

(١) الاستحداد: هو حلق شعر العانة.

(٢) البخاري عن أبي هريرة: كتاب اللباس، باب قص الشارب (٥٥٥٠)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة (٢٥٧).

(٣) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة (٨٤٧)، وأبو داود (٤٧)، والترمذي (٢٢)، وأحمد (٧٨٤٠).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٧٩٣).

(٥) المسد هو الليف، والممسد هو القائم بالتنظيف بالليف في الحمامات.

(٦) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٥٤.

للقذارة، وتجعل القَذِر في حالة الفخر.

ثم يأتي الإسلام بما بعد النظافة، يأتي بأنواع الزينة.

ولقد أعلن النبي ﷺ أنه يحب الطيب فقال: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**»[١]. وكان من عادته ﷺ إِذَا أُتِيَ بِطِيبٍ لَمْ يَرُدَّهُ[٢]، بل وأوصى ﷺ فقال: «**مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلاَ يَرُدُّهُ؛ فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ طَيِّبُ الرِّيحِ**»[٣].

وعندما صُنعت لرسول الله ﷺ بُردة سوداء ولبسها، فلما عرق فيها وجد ريح الصوف فقذفها[٤].

ولهذا كان من وصف خادم النبي أنس بن مالك رضي الله عنه قوله: «وَلاَ مَسِسْتُ دِيبَاجَةً وَلاَ حَرِيرَةً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلاَ شَمِمْتُ مِسْكَةً وَلاَ عَنْبَرَةً أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[٥].

وبهذا كانت النظافة عند المسلمين أمرًا دينيًّا، يبتغون بتنفيذه الأجر والثواب، ويرون في التمثُّل به اقتداءً بنبيهم ﷺ.

***

(١) النسائي: كتاب عشرة النساء، باب حب النساء (٣٩٤٠)، وأحمد (١٤٠٦٩)، وصححه الألباني برقم (٥٤٣٥) في صحيح وضعيف الجامع الصغير.
(٢) النسائي: كتاب الزينة، باب الطيب (٥٢٥٨)، وأحمد (١٢١٩٧)، وصححه الألباني في التعليق على سنن النسائي.
(٣) مسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب استعمال المسك وأنه أطيب الطيب وكراهة رد الريحان والطيب (٢٢٥٣).
(٤) أبو داود: كتاب اللباس، باب في السواد (٤٠٧٤)، وصححه الألباني في التعليق على أبي داود.
(٥) مسلم: كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي ﷺ ولين مسه والتبرك بمسحه (٢٣٣٠).

المبحث الثاني
جمـــــال الثـــوب

اهتمَّ الإسلام كذلك بما يُلْبَسُ من ثياب؛ فالثياب النظيفة الجميلة تعود بالفائدة على صاحبها وعلى من يعيشون إلى جواره، بل على مَنْ يراه وإن كان لا يعرفه.

وحين تحدث القرآن الكريم عن نعمة الثياب، ذكر أنها تستر العورة وأنها زينة.

ففطرة الإنسان جُبلت على إخفاء العورة، بخلاف الحيوان والطير، وهذه الفطرة بحد ذاتها شيء جميل وإن كان ضروريًّا في ذاته. لما أكل سيدنا آدم من الشجرة هو وزوجته بدت لهما سوءاتهما، فلما انتبها ﴿طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾[1]؛ «مما يوحي بأنها العورات الجسدية التي يخجل الإنسان فطرةً من تعريها، ولا يتعرى ويتكشف إلا بفسادٍ في هذه الفطرة»[2].

إذن، فالثياب فطرة وضرورة مغروسة في نفس الإنسان ويحتاج إليها، فتلك نعمة من الله تعالى، ولكنه سبحانه لفت نظرنا إلى ما فيها أيضًا من نعمة الجمال، ثم إلى جمال الباطن. يقول تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[3].

لقد كان من أوَّل ما نزل من القرآن نجد قول الله ﷻ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[4]، وما أروع أن يكون اهتمام الإسلام -من أَوَّل يومٍ نزل فيه للبشر- بظاهرهم كما يهتمُّ بباطنهم، فهو يقرن التوحيد بنظافة الإنسان فيقول: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[5]، والطهور هنا للثياب بالمعنى الحسيّ وللذنوب والمعاصي كذلك، قال ابن كثير: «وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب، فإن العرب تطلق الثياب عليه»[6].

---

(١) (الأعراف: ٢٢).
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، ٣/ ١٢٦٩.
(٣) (الأعراف: ٢٦).
(٤) (المدثر: ٤).
(٥) (المدثر: ٣، ٤).
(٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٨/ ٢٦٣.

لقد أرشد الله إلى اتخاذ الزينة فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾[1]. وأنكرت الآية من لا يفعل ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[2].

ومن العلماء من بالغ في فهم الآية ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[3] فاشترط أن تغسل النجاسة بماء الورد كما نقل قولهم الإمام الفخر الرازي في التفسير، وقالوا في شرح رأيهم: «أمرنا بالصلاة في قوله: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾[4]، والصلاة عبارة عن الدعاء، وقد أتى بها، والإتيان بالمأمور به يوجب الخروج عن العهدة، فمقتضى هذا الدليل أن لا تتوقف صحة الصلاة على ستر العورة، إلا أنَّا أوجبنا هذا المعنى عملاً بقوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[5]، ولبس الثوب المغسول بماء الورد على أقصى وجوه النظافة أخذ الزينة، فوجب أن يكون كافيًا في صحة الصلاة»[6].

وحين رأى النبي ﷺ رجلاً عليه ثياب متسخة، قال: «**أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَاءً يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ؟!**»[7].

وكان النبي ﷺ يحب الثياب البيضاء ويوصي بها، فيقول: «**الْبَسُوا الثِّيَابَ الْبِيضَ، فَإِنَّهَا أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ**»[8].

وفي سيرة النبي ﷺ موقفان جديران بالتأمُّل: موقف رجل يحب الجمال ويحرص عليه إلى الحد الذي خشي فيه أن يكون ذلك هو الكِبر، وموقف رجل آخر لا يبالي به.

روى ابن مسعود أن النبي ﷺ: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ**

---

(١) (الأعراف: ٣١).

(٢) (الأعراف: ٣٢).

(٣) (الأعراف: ٣١).

(٤) (الأنعام: ٧٢).

(٥) (الأعراف: ٣١).

(٦) الرازي: التفسير الكبير ١٤/ ٢٣٢.

(٧) أبو داود: كتاب اللباس، باب في غسل الثوب وفي الخلقان (٤٠٦٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٣).

(٨) أحمد (٢٠١٦٦، ٢٠٢١٣، ٢٠٢٣١)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (٢١١٥).

الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ[(١)]**، وَغَمْطُ النَّاسِ**[(٢)]»[(٣)].

إنها المعادلة الدقيقة التي وضعها الإسلام، الحرص على الجمال والزينة مع الحرص ألاّ يؤثر هذا على النفس، ألاّ يدفعها للكبر، والكبر أن تنظر إلى الناس من علٍ، أن تتضخم النفس على حساب الآخرين. لا مانع أن تكون عظيم الجمال؛ لأن الله تعالى يحب الجمال، ولكن إيَّاك من ذرَّة من الكبر، ذرة واحدة فقط، قد تحرمك من دخول الجنة.

وفي هذا الأمر ليس هناك ورعٌ أو أخذ بالأحوط يدفع إلى ترك الجمال بالكليَّة. وهنا نتعرض للموقف الثاني الذي يرويه أبو الأحوص عن أبيه قال: «أتيت النبي ﷺ في ثوب دُونٍ. فقال: **أَلَكَ مَالٌ؟** قال: نعم. قال: **مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟** قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: **فَإِذَا آتَاكَ اللهُ مَالاً، فَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ**»[(٤)].

وبهذا يخطّ الإسلام الوسطيَّة بين الإفراط والتفريط، بين الكبر والقبح، فالله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، لكنه يحرمُ من كان في قلبه ذرة من كبر أن يدخل الجنة.

لقد كان النبي ﷺ يلبس أحلى الحُلل، ولقد عرفنا هذا حين ذهب ابن عباس كرسول من علي بن أبي طالب لمحاورة الخوارج الحروريَّة وإقناعهم بالحق، إنه لجدير أن نقف عنده وهو يختار أن يلبس لهذه المهمة أفضل ما لديه من ثياب. روى أبو داود عنه أنه قال: لما خرجت الحرورية أتيت عليًّا ﷺ فقال: ائت هؤلاء القوم. فلبست أحسن ما يكون من حلل اليمن -قال أبو زميل: وكان ابن عباس رجلاً جميلاً جهيرًا- قال ابن عباس: فأتيتهم فقالوا: مرحبا بك يابن عباس، ما هذه الحُلَّة؟ قال: **ما تعيبون عليَّ، لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل**»[(٥)].

ولقد بلغ من العناية بأمر الثياب ونظافتها أن كره النبي ﷺ أن يأتي مسلم إلى الصلاة،

---

(١) بطر الحق: هو دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا.

(٢) غمط الناس: احتقارهم.

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١).

(٤) النسائي: كتاب الزينة، باب الجلاجل (٥٢٢٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤).

(٥) أبو داود: كتاب اللباس، باب لباس الغليظ (٤٠٣٧)، وقال الألباني في التعليق على أبي داود: حسن الإسناد.

وخصوصًا الجمعة، وعليه ثياب متسخة. حتى إنه ليوصي من يعمل في مهنة تتسخ فيها ثيابه أن يخصص أثوابًا نظيفة ليوم الجمعة. قال ﷺ: «**مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوْ اتَّخَذَ ثَوْبَيْنِ لِجُمُعَتِهِ سِوَى ثَوْبَيْ مَهْنَتِهِ؟!**»[(١)].

ويعتبر الفقه الإسلامي الثوب نَجِسًا بمجرَّد وصول شيء من النجاسة إليه؛ كالبول والغائط والدم، ولا تصحُّ الصلاة فيه إلاَّ بعد أن تزول النجاسة؛ حتى لو كانت النجاسة قليلة، قال أَحمد بن حنبل رحمه الله عن الثوب الذي أصابه بول أو غائط: «يُعِيدُ الصلاة من قليله وكثيره». أي من قليل النجاسة أو كثيرها[(٢)].

وكأنما لخص الإمام المناوي تلك القضية لما قال: «وتنظيف الثوب والبدن مطلوب عقلاً وشرعًا وعرفًا... وقد كانت ثياب شيخ الإسلام البرهان بن أبي شريف ﷺ في غاية النقاء والنظافة والبياض إلى حدٍّ لا يبلغه ثياب الملوك في عصره، كأنه مع ثيابه قطعة نور.

والنظافة مما تزيد في العين مهابة، وفي القلب جلالة، وقد تهاون بذلك جمع من الفقراء حتى بلغ ثوب أحدهم إلى حد يذم عقلاً وعُرفًا، ويكاد يُذم شرعًا.. سوَّل الشيطان لأحدهم فأقعده عن التنظيف بنحو «نظِّفْ قلبك قبل ثوبك»، لا لنصحه بل لتخذيله عن امتثال أوامر الله ورسوله وإقعاده عن القيام بحق جليسه، ومجامع الجماعة المطلوب فيها النظافة، **ولو حقق لوجد نظافة الظاهر تعين على نظافة الباطن**، ومن ثَمَّ ورد أن المصطفى ﷺ لم يتسخ له ثوب قَطُّ كما في المواهب وغيرها، قيل: لأنه لا يبدو منه إلا طيب»[(٣)].

❋❋❋

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة، باب اللبس للجمعة (١٠٧٨)، وابن ماجه (١٠٩٦)، وصححه الألباني في التعليق على أبي داود وابن ماجه.

(٢) انظر: مسائل الإمام أحمد ص٤١، وهذا رأي غيره أيضًا من العلماء والفقهاء.

(٣) المناوي: فيض القدير ٢/ ٢٨٥.

المبحث الثالث

جمال البيت والشارع والمدينَة

إن البيت والشارع والمدينَة يمثلون المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، وهذا المحيط تعرفه البشرية اليوم باسم «البيئة».

وإنه من اللافت للنظر أن يجعل الله جمال هذا المحيط من غايات وجود الإنسان في هذه الحياة، قال تعالى على لسان نبيه صالح: ﴿**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾[1]، يقول ابن كثير: «أي جعلكم فيها عُمَّارًا تعمرونها وتستغلونها»[2]. كما «قال زيد بن أسلم: استعمركم: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء مساكن وغرس أشجار. وقيل: ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها»[3].

ولقد ارتبط أدنى أشكال الجمال في الطريق بالإيمان في نفوس المسلمين، فلقد جعل رسول الله ﷺ إماطة الأذى عن الطريق جزءًا من الإيمان، فقال ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً؛ فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**»[4]. وإماطة الأذى عن الطريق تعني تنحية وإبعاد كل ما يُؤْذِي؛ من حجر أو شوكٍ أو غيره.

وكانت إماطة الأذى تساوي أجر صدقة؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**يُمِيطُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»[5].

بل كانت إماطة الأذى مما غفر الله به ذنوب أحد العِباد وأدخله الجنة، وهذا ما أخبر به النبي ﷺ فقال: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**»[6]. وفي رواية ابن ماجه: «**كَانَ عَلَى الطَّرِيقِ غُصْنُ شَجَرَةٍ يُؤْذِي النَّاسَ،**

---

(١) (هود: ٦١).

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٣١.

(٣) أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط ٥/ ٢٣٦.

(٤) مسلم عن أبي هريرة: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٥٨)، وأحمد (٨٩١٣)، وابن حبان (١٦٦).

(٥) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه (٢٨٢٧).

(٦) البخاري: كتاب المظالم، باب من أخذ الغصن وما يؤذي الناس في الطريق فرمى به (٢٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء (١٩١٤).

فَأَمَاطَهَا رَجُلٌ، فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ»[١].

بل كانت إماطة الأذى من أفضل أعمال الأمة بنص حديث رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ»[٢].

ونعجب حين نسمع الصحابي الجليل أبا برزة يسأل النبي ﷺ: فيقول: يا نبي الله، علمني شيئًا أنتفع به. فإذا بجواب النبي ﷺ يكون: «اعْزِلِ الأَذَى عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ»[٣].

ولربما ندهش أكثر حين نسمع وعيد النبي الشديد لمن يخالف هذا، حيث يقول ﷺ: «مَنْ آذَى الْمُسْلِمِينَ فِي طُرُقِهِمْ، وَجَبَتْ عَلَيْهِ لَعْنَتُهُمْ»[٤].

هل ترى؟! سبعة نصوص من السُّنَّة تعني بأمر «إماطة الأذى عن الطريق»، ولم نقصد الاستقصاء، ولا نعرف من الشرائع والمناهج والفلسفات شيئًا وصل إلى هذا الحد في العناية بجمال الطريق. وإذا فرضنا جدلاً أن شيئًا من هذا حدث، فهل يقول قائل: إن إزالة الأذى عن الطريق حينها ستكون بحرصٍ وعناية مَن يرى فيها سببًا لمغفرة الذنوب ودخول الجنة؟!

ونقف قليلاً عند هذه القصة: صحابية لم نعرف من أمرها شيئًا إلا أنها كانت تنظِّف المسجد، افتقدها النبي ﷺ، فسأل عنها، فلما علم أنها ماتت، عاتب أصحابه أنهم استصغروا أمرها ولم يُعلموه، وقال: «أَفَلاَ كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي... دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا. فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا»[٥].

هذه المرأة التي ذكرت في تاريخ الإسلام وخلِّدت في كتب السنن، لم تفعل إلا أنها اعتنتْ بنظافة المسجد، فاستحقت -في المنهج الإسلامي وحده- أن تخلَّد، وأن يعاتب النبي ﷺ فيها أصحابه، وأن يصلِّي عليها بعد موتها.

---

(١) ابن ماجه: كتاب الأدب، باب إماطة الأذى عن الطريق (٣٦٨٢)، وصححه الألباني في التعليق على ابن ماجه.

(٢) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهى عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها (٥٥٣).

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق (٢٦١٨).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٣٠٥١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٢٣).

(٥) البخاري: أبواب المساجد، باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيدان (٤٤٦)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر (٩٥٦)، واللفظ له.

ولقد نهى النبي ﷺ عن قضاء الحاجة في الأماكن التي يرتادها الناس، فقال ﷺ: «**اتَّقُوا اللَّعَّانَيْنِ. قَالُوا: وَمَا اللَّعَّانَانِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ فِي ظِلِّهِمْ**»(١). والمعنى أن الرجل الذي يقضي حاجته في أماكن يمر بها الناس أو يجلسون فيها يجلب لنفسه اللعن، «قال الإمام أبو سليمان الخطابي(٢): المراد باللاعنيْن الأمريْن الجالبيْن للعن، الحامليْن الناس عليه، والداعييْن إليه»(٣).

فإذا كان المكان أشد خصوصية كالمسجد كان الاهتمام به أكبر، إلى حدٍّ قال فيه النبي ﷺ: «**الْبُزَاقُ**(٤) **فِي الْـمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ، وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا**»(٥).

وكان اليهود لا ينظفون ديارهم، فأوصى النبي ﷺ صحابته قائلاً: «**طَهِّرُوا أَفْنِيَتَكُمْ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ لاَ تُطَهِّرُ أَفْنِيَتَهَا**»(٦). وفي رواية: «**نَظِّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ أَنْتَنُ النَّاسِ**»(٧).

وفي هذه الوصية دليل على أن الجمال الإسلامي كان أصيلاً ولم يكن بتأثيرٍ من البيئة الحارَّة، كما اعتقد بعض الباحثين الغربيين، أو من تأثير مناهج أو شرائع سابقة.

وكان الإسلام يحث على صلاة النوافل في البيت؛ فعن جابر ﷺ أنه ﷺ قال: «**إِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ الصَّلاةَ فِي مَسْجِدِهِ، فَلْيَجْعَلْ لِبَيْتِهِ نَصِيبًا مِنْ صَلاتِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ فِي بَيْتِهِ مِنْ صَلاتِهِ خَيْرًا**»(٨). وبهذا كانت البيوت مساجد أخرى صغرى، وكان لا بُدَّ من طهارتها كي تصلح للصلاة، وبهذا أمر النبي ﷺ أُمَّته؛ فعن سمرة بن جندب ﷺ قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتخذ المساجد في ديارنا، وأمرنا أن ننظفها»(٩).

---

(١) مسلم: كتاب الطهارة، باب النهي عن التخلي في الطرق والظلال (٢٦٩).

(٢) أبو سليمان الخطابي: (٣١٩ - ٣٨٨هـ/ ٩٣١ - ٩٩٨م) حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، أبو سليمان: فقيه محدث، من أهل بست في أفغانستان من نسل زيد بن الخطاب من كتبه معالم السنن. انظر: الزركلي: الأعلام ٢/ ٢٧٣.

(٣) النووي: المنهاج ٣/ ١٦١.

(٤) البزاق: هو البصاق.

(٥) البخاري: أبواب المساجد، باب كفارة البزاق في المسجد (٤٠٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهى عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها (٥٥٢).

(٦) الطبراني: المعجم الأوسط ٤/ ٢٣١.

(٧) الترمذي عن سعد بن أبي وقاص: كتاب الأدب، باب النظافة (٢٧٩٩)، وأبو يعلى (٧٩٠)، وحسنه الألباني، انظر: مشكاة المصابيح (٤٤١٣).

(٨) مسلم: كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا... (١٢٩٨).

(٩) أبو داود: كتاب الصلاة، باب اتخاذ المساجد في الدور (٤٥٦)، وأحمد (٢٠١٩٦) واللفظ له، والترمذي (٥٩٤)، وابن ماجه (٧٥٩)، وابن حبان (١٦٣٤) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

كما نهى رسول الله ﷺ أن يبول الإنسان في مكان الاستحمام، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لاَ يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي مُسْتَحَمِّهِ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ فِيهِ**»[1].

فهذه بعض نصوص في شأن النهي عن القذارة، في البيت أو في الطريق.

ولم يكن الأمر نهيًا فقط، بل لقد حثَّ الإسلام على التشجير؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلاَّ كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**»[2]. وفي رواية مسلم: «**وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ... وَلاَ يَرْزَؤُهُ**[3] **أَحَدٌ إِلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ**».

بل أوصى النبي ﷺ بغرس الشجر ولو أَزِف يوم القيامة؛ فعن أنس أيضًا، عن النبي ﷺ قال: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا**»[4].

وليس هناك حثٌّ وتحريض على الغرس والتشجير أقوى من هذا الحديث؛ لأنه يدل على الطبيعة المنتجة والخيِّرة للإنسان المسلم، فهو بفطرته عامل مِعطاء للحياة، كالنبع الفيَّاض، لا ينضب ولا ينقطع، حتى إنه ليظل يعطي ويعمل، حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها، فلو أن الساعة توشك أن تقوم لظلَّ يغرس ويزرع، وهو لن يأكل من ثمر غرسِهِ، ولا أحدٌ غيره سيأكل منه؛ لأن الساعة تدقّ طبولها، أو ينفخ في صُورِها، فالعمل هنا يُؤدَّى لذات العمل؛ لأنه ضرب من العبادة، والقيام بحق الخلافة لله في الأرض إلى آخر رمقٍ[5].

ولقد عُرف تعمير الأرض في الفقه الإسلامي باسم (إحياء الموات). والموات: هي

---

(١) أبو داود: كتاب الطهارة، باب في البول في المستحم (٢٧)، والنسائي (٣٦)، وابن ماجه (٣٠٤)، وأحمد (٢٠٥٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٥٩٧)، ورواه البخاري ومسلم بلفظ: «**لا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ...**».

(٢) البخاري: كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه (٢١٩٥)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع (١٥٥٢).

(٣) يرزؤه: أي يأخذ منه وينقصه.

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٥) القرضاوي: رعاية البيئة في شريعة الإسلام ص٦٣.

الأرض الدارسة الخربة، والتعبير مقتبس من حديث النبي ﷺ: «**مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ**»[1].

فالإسلام من جهةٍ أمَرَ بالنظافة، ونهى عن أشكال وصور القذارة، ومن الجهة الأخرى حثَّ على التشجير والغرس. ولهذا كانت البيوت والمدن الإسلامية في عصور الإسلام الزاهرة قطعةً من الجمال.

* * *

(١) أبو داود: كتاب الخراج، باب في إحياء الموات (٣٠٧٣)، وأحمد (١٤٣١٠)، ورواه البخاري موقوفًا على عمر (٢٣٣٥).

المبحث الرابع
لطائف الذوق

الذوق[١] هو الحاسَّة المعنوية الشفَّافة التي تدعو صاحبَهَا إلى مراعاة مشاعر الآخرين، وأحوالهم، وظروفهم، وهو أدبيَّات التعامل مع الناس، وهو الفنُّ الجميل في العَلاقة مع الآخرين.

والذوق أيضا ظاهري ومعنوي، وهنا نعدِّد بعض مظاهر الذوق الذي جاء به الإسلام، وأوصى به النبي ﷺ، وكان هو فيه القدوة والمثل:

- **جمال الذوق في طريقة المشي والصوت:** قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[٣]. قال ابن كثير: «وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمّه غاية الذم؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ الَّذِي يَعُودُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَرْجِعُ فِي قَيْئِهِ[٤]»[٥].

- **جمال الذوق في عدم إزعاج الآخرين:** قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[٦]. ونزلت هذه الآيات في أناسٍ من الأعراب، الذين وصفهم الله تعالى بالجفاء، وأنهم أجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، قَدِموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد يا محمد، (أي: اخرج إلينا)، فذمَّهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أنَّ من العقل وعلامته استعمال الأدب»[٧].

---

(١) انظر في ذلك عمرو خالد: الصبر والذوق (أخلاق المؤمن)، ص٨٧ وما بعدها.
(٢) (الفرقان: ٦٣).
(٣) (لقمان: ١٨، ١٩).
(٤) البخاري: كتاب الهبة وفضلها، باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصدقته (٢٤٧٩).
(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٦/ ٣٣٩.
(٦) (الحجرات: ٤).
(٧) السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٧٩٩.

- **جمال الذوق في الشارع والطريق:** روى أبو سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ بِالطُّرُقَاتِ». فقالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بُدٌّ، نتحدَّثُ فيها. فقال: «إِذْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ». قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلاَمِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»[١].

- **جمال الذوق في الضيافة والاستئذان:** قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢]. وقال الرسول ﷺ: «الاِسْتِئْذَانُ ثَلاَثٌ، فَإِنْ أُذِنَ لَكَ، وَإِلاَّ فَارْجِعْ»[٣].

- **جمال الذوق في التعامل مع الزوجة:** فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ»[٤]. وروت السيدة عائشة قالت: «كنت أشربُ وأنا حائضٌ ثم أناوله النبيَّ ﷺ، فيضع فاه على موضع فِيَّ فيشرب، وأتعرق العرق وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ، فيضع فاه على موضع فِيَّ»[٥].

- **جمال الذوق في العطس:** فعن أبي هريرة قال: كان إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فِيه، وخفض بها صوته[٦]. وفي الذوق في التعامل مع العاطس، روى أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: عَطَسَ رَجُلاَنِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَشَمَّتَ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتْ الآخَرَ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: «هَذَا حَمِدَ اللهَ وَهَذَا لَمْ يَحْمَدِ اللهَ»[٧].

- **جمال الذوق في التثاؤب:** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

---

(١) البخاري: كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات (٢٣٣٣)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه (١١٤).

(٢) (النور: ٢٧).

(٣) البخاري: كتاب الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثًا (٥٨٩١)، ومسلم: كتاب الآداب، باب الاستئذان (٣٤).

(٤) البخاري: كتاب المغازي، باب حجة الوداع (٤١٤٧)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث (١٦٢٨).

(٥) مسلم: كتاب الحيض، باب جواز غسل رأس زوجها وترجيله... (٣٠٠)، والنسائي (٢٨٢)، وأحمد (٢٥٦٣٥).

(٦) أبو داود: كتاب الأدب، باب في العطاس (٥٠٢٩)، والترمذي (٢٧٤٥)، وصححه الألباني رقم (٤٧٥٥) في صحيح الجامع.

(٧) البخاري: كتاب الأدب، باب الحمد للعاطس (٥٨٦٧)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب تشميت العاطس وكراهة التثاؤب (٢٩٩١).

«التَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ»[١].

- **جمال الذوق في الرائحة:** عن جابر بن عبد الله قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ -يُرِيدُ الثُّومَ- فَلاَ يَغْشَانَا فِي مَسَاجِدِنَا»[٢]. وفي رواية مسلم عن ابن عمر تصريح بأن هذا لأجل الرائحة؛ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ، فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسَاجِدَنَا حَتَّى يَذْهَبَ رِيحُهَا»[٣]. يعني الثوم.

- **جمال الذوق في المصافحة:** عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ: كان إذا صافح رجلاً لم يترك يده حتى يكون هو التارك ليدِ رسول الله ﷺ[٤].

- **جمال الذوق في العودة من السفر:** فلا يدخل الرجل على زوجته إذا عاد من السفر فجأةً حتى لا يرى منها ما يكره؛ فعن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لا تَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلاً، وَلا تَغْتَرُّوهُنَّ»[٥].

- **جمال الذوق في الجلوس:** «نهى أن يجلس الرجل بين الرجلين إلا بإذنهما»[٦].

وهذه بعض مظاهر الذوق التي جاء بها الإسلام، عميقة ودقيقة، وتحفل بتفاصيل قد لا ينتبه لها واضع فلسفة أو تشريع أو قانون على الإطلاق، ولكن هذا هو فرق ما بين الله ﷻ وبين البشر، فكان هو الفرق بين الإسلام وغيره من المناهج والفلسفات، ثم كان الفرق بين حضارتنا وغيرها من الحضارات.

***

---

(١) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣١١٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب تشميت العاطس وكراهة التثاؤب (٢٩٩٤).

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث (٨١٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهى من أكل ثوم أو بصلاً أو كراثًا أو نحوها (٥٦٤)، وهذا لفظ البخاري.

(٣) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهى من أكل ثوم أو بصلاً أو كراثًا أو نحوها (٥٦١).

(٤) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٩٠)، وابن ماجه (٣٧١٦)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٤٨٥).

(٥) الدارمي: باب تعجيل عقوبة من بلغه عن النبي ﷺ حديث فلم يعظمه (٤٤٤)، وأبو يعلى (١٨٤٣)، والحاكم (٧٧٩٨)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٠٨٥).

(٦) أبو داود: كتاب الأدب، باب في الرجل يجلس بين الرجلين بغير إذنهما (٤٨٤٤)، والترمذي (٢٧٥٢)، وأحمد (٦٩٩٩)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٣٨٥).

الفصل الخامس

الجمال الإنساني الأخلاقي والسلوكي

جاءت الحضارة الإسلامية بجماليات في السلوك والأخلاق لم تُعهد في تشريع من قبلُ ولا من بعدُ، وذلك من قبيل حُسن الخُلق، ولين الجانب، وطيب الكلام؛ فكان في التبسُّم صدقةٌ! وفي أدب المعاملات أَجْرٌ! وفي كظم الغيظ والعفو عن المسيئين درجةُ الإحسان وحُبٌّ من الله.

وهذا هو روعة الجمال الأخلاقي الإنساني؛ الذي هو جمال السلوك، وجمال القول، وجمال الإنسانية في الإنسان الآخر، وجمال العَلاقات مع الآخرين.

في هذا الفصل نعرض لهذا النوع من الجمال، من خلال هذه المباحث:

- **المبحث الأول:** التبسم وطلاقة الوجه والكلمة الطيبة.
- **المبحث الثاني:** سلامة الصدر والحب.
- **المبحث الثالث:** حسن الخلق.
- **المبحث الرابع:** لطائف الذوق المعنوي.

المبحث الأول
التبسم وطلاقة الوجه والكلمة الطيبة

التبسُّم.. تلك اللغة الإنسانية العالمية، وذلك النوع من أنواع الجمال الراقي، وذاك السلوك الذي يوحي بالتقبُّل، والصفاء، والانشراح، والودِّ الإنساني.

والتبسُّم كما يقول علماء اللغة: مبادئ الضَّحِك، وهو انبساط الوجه، وبُدُوُّ الأسنان من سرور النفس، ويُستعمل في السرور المجرَّد، نحو قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾[١]. وهو مختصٌّ بالإنسان، وليس يوجد في غيره من الحيوان[٢]؛ فالتبسم من ثَمَّ جمالٌ من جمال الأخلاق والسلوك الإنساني.

ولقد اتَّصف نبي الإسلام ﷺ بالتبسُّم سائر يومه وسائر حياته؛ فكان أكثر الناس تبسُّمًا، وكان يمازح أصحابه ويلاطفهم، ولكنه لا يقول إلاَّ حقًّا، وقد روى عبد الله بن الحارث ﷺ قال: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[٣]. كما روى جرير بن عبد الله ﷺ فقال: «مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلاَ رَآنِي إِلاَّ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي»[٤].

وكان جُلُّ ضحكه ﷺ التبسم، فإذا تبسم يفتر عن مثل حَبِّ الغمام[٥].

ويسجل الإمام ابن القيم وصفه ﷺ في الضحك أنه كان «جُلُّ ضحكه التبسم، بل كلُّه التبسم، فكان نهايةُ ضحكِهِ أن تبدوَ نواجِذُه. وكان يضحكُ مما يُضحك منه، وهو مما يُتعجب من مثله ويُستغرب وقوعُه ويُستندر». ثم يضيف بعد أن سجل الوصف هديه أو فلسفته ﷺ في الضحك، فيقول: «وللضحك أسباب عديدة، هذا أحدها، والثاني: ضحِك الفرح، وهو أن يرى ما يسرُّه أو يُباشره، والثالث: ضحِكُ الغضب، وهو كثيرًا ما يعتري الغضبان إذا اشتدَّ غضبه، وسببه تعجب الغضبان مما أورد عليه الغضبُ، وشعورُ

(١) (عبس: ٣٨، ٣٩).
(٢) انظر: الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، مادَّة (ض ح ك) ٢٧/ ٢٤٩، ٢٥٠.
(٣) الترمذي: كتاب المناقب، باب في بشاشة النبي ﷺ (٣٦٤١)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وأحمد (١٧٧٤٠)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث حسن.
(٤) البخاري: كتاب الأدب، باب التبسم والضحك (٥٧٣٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل جرير ابن عبد الله ﷺ (٢٤٧٥).
(٥) الترمذي: الشمائل ص٢٠.

نفسه بالقدرة على خصمه، وأنه في قبضته، وقد يكون ضحكُه لِمُلكه نفسه عند الغضب، وإعراضِه عمَّن أغضبه، وعدم اكتراثه به»[(١)].

يؤكِّد ذلك ما يرويه أنس بن مالك ﷺ فيقول: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُردٌ نجرانيّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذب بردائه جذبةً شديدة، قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثّرت فيها حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: يا محمد، مُرْ لي مِنْ مال الله الذي عندك. **فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء**»[(٢)].

ولم يكتفِ نبي الإسلام ﷺ بأن يكون قدوة في تحقيق هذا الجمال الإنساني، بل إنه ﷺ دعا إليه وحثَّ عليه؛ فروى أبو ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»[(٣)].

ويعني ذلك أن إظهار البشاشة والبِشْر للآخرين حين لُقياهم فيه أَجْرٌ، كما في الصدقة أَجْرٌ[(٤)].

إنها أفعال بسيطة، سهلة، غير مكلفة ولا مجهدة، ولكنها كأثر السحر في الناس. وهي في الإسلام من «المعروف» الذي هو معنى لكل ما يرضي الله تعالى ورسوله. روى أبو ذر أيضًا قال: قال لي النبي ﷺ: «**لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْـمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»[(٥)]. أي: بوجه طليق، ومعناه سهلٌ منبسط باسمٌ مشرق.

وإن التبسم وطلاقة الوجه أول الطريق للقلوب، ونشر المودة والخير والرحمة بين الناس، بما يصبغ المجتمع بالأمان والإخاء والألفة، ومثل هذا المجتمع هو الذي ينشده الإسلام، وله نزلت الشرائع، ولقد كانت هذه الأشياء البسيطة من الإيمان، وكان المؤمن

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد ١/ ١٨٢، ١٨٣.

(٢) البخاري: كتاب الخمس، باب ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم... (٢٩٨٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء من يسأل بفحش وغلظة (١٠٥٧).

(٣) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب صنائع المعروف (١٩٥٦) وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن حبان (٤٧٤، ٥٢٩)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. والأدب المفرد (٨٩١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٢٩٠٨).

(٤) المباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٦/ ٧٥، ٧٦.

(٥) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء (١٤٤)، وأحمد (١٥٩٩٧)، وابن حبان (٤٦٨).

هو القريب من الناس. قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ، وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ، وَخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ»(١).

والحديث ليس حثًّا على أن يكون المؤمن إلفًا مألوفًا فقط، بل فيه أيضًا التنفير من ضده، أي أنها أمور لا يقبل الإسلام تركها، ولا هي عنده من الزوائد غير الضروريَّة.

وفي الإسلام تكون الكلمة الطيبة لكل الناس ومع كل الناس، قال الله تعالى في معرض الحديث عن أوامره لبني إسرائيل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»(٣).

يقول الحافظ ابن حجر في تعليقه على هذا الحديث: «وحاصله من كان حامل الإيمان فهو متصف بالشفقة على خلق الله قولاً بالخير، وسكوتًا عن الشر، وفعلاً لما ينفع، أو تركًا لما يضر»(٤).

ويكاد الإمام الفخر الرازي يلخِّص مسألة الكلمة الطيبة في تفسيره لآية ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾(٥)، إذ يعتبر كل أدب الدنيا والدين داخل تحتها، يقول: «قال أهل التحقيق: كلام الناس مع الناس إمَّا أن يكون في الأمور الدينية، أو في الأمور الدنيوية.

- فإن كان في الأمور الدينية فإمَّا أن يكون في الدعوة إلى الإيمان وهو مع الكُفَّار، أو في الدعوة إلى الطاعة وهو مع الفاسق.

• أما الدعوة إلى الإيمان فلا بُدَّ أن تكون بالقول الحسن، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(٦). أمرهما الله تعالى بالرفق مع

(١) أحمد (٩١٨٧)، والحاكم (٥٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٦٦٢).
(٢) (البقرة: ٨٣).
(٣) البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٥٦٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت (٤٧).
(٤) ابن حجر: فتح الباري ١٠/ ٤٤٦.
(٥) (البقرة: ٨٣).
(٦) (طه: ٤٤).

فرعون مع جلالتهما ونهاية كفر فرعون وتمرده وعتوه على الله تعالى. وقال لمحمد ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[١].

• وأما دعوة الفسَّاق فالقول الحسن فيه معتبر، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[٢]. وقال أيضًا: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٣].

- وأما في الأمور الدنيويَّة، فمن المعلوم بالضرورة أنه إذا أمكن التوصُّل إلى الغرض بالتلطُّف من القول لم يحسن سواه.

فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخلة تحت قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[٤]»[٥].

وبهذه التعاليم كان على المسلم أن يصبح جميلاً: بسمة، وطلاقة وجه، وكلمة طيبة.

***

(١) (آل عمران: ١٥٩).
(٢) (النحل: ١٢٥).
(٣) (فصلت: ٣٤).
(٤) (البقرة: ٨٣).
(٥) الفخر الرازي: التفسير الكبير ٣/ ٥٦٨.

المبحث الثاني

سلامة الصدر وحب الناس

إن الوصايا الإسلامية بالتبسم وطلاقة الوجه وطيب الكلام اهتمت بأن تخرج هذه الأفعال من صميم القلب، لا عن تصنُّع أو تمثيل أو تكلُّف أو نفاق.

وهنا يفترق الإسلام وتوجيهاته عن غيره؛ لأنه ليس مؤسسة أو شركة ربحيَّة تهتم لكثرة عدد «العملاء»، بل يهتم بانتشار المودَّة والرحمة والسعادة بين الناس.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن سليم الصدر نقي القلب أفضلُ الناس، فقال حين سُئِل: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ**». قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: «**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لاَ إِثْمَ فِيهِ وَلاَ بَغْيَ وَلاَ غِلَّ وَلاَ حَسَدَ**»[1].

وإن الله يغفر للناس إلا من كان في صدره شحناء لأخيه، بهذا أخبر النبي ﷺ لما قال: «**تُفْتَحُ أَبْوابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ ويَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بينهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْناءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا! أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**»[2].

حتى إن أول الناس دخولاً إلى الجنة، الزُّمرة التي طهرتْ قلوبهم؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلاَ يَمْتَخِطُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا**»[3].

وكانت «سلامة الصدر» من وصايا النبي ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ**

---

(١) ابن ماجه: كتاب الزهد، باب الورع والتقوى (٤٢١٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤٨).

(٢) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر (٢٥٦٥).

(٣) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٣)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر... (٢٨٣٤).

الْحَدِيثِ، وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا إِخْوَانًا»[١].

لقد كان من فطرة الله تعالى في خلقه، أن خلقهم على الجمال ومنه سلامة الصدر ﴿**صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[٢]. ولهذا إذا بقيت الضغائن في النفوس، أتعبتِ النفوس ذاتها.

ذلك ما لاحظه الإمام ابن حزم فتعجب منه فقال: «رأيت أكثر الناس -إلا من عصم الله تعالى وقليل ما هم- يتعجلون الشقاء والهم والتعب لأنفسهم في الدنيا، ويحتقبون عظيم الإثم الموجب للنار في الآخرة بما لا يحظون معه بنفع أصلاً؛ من نيَّات خبيثة يضبون عليها من تمنِّي الغلاء المهلك للناس وللصغار ومن لا ذنب له، وتمنِّي أشد البلاء لمن يكرهونه، وقد علموا يقينًا أن تلك النيات الفاسدة لا تعجل لهم شيئًا مما يتمنونه أو يوجب كونه، وأنهم لو صفُّوا نياتهم وحسَّنوها لتعجلوا الراحة لأنفسهم، وتفرغوا بذلك لمصالح أمورهم، ولاقتنوا بذلك عظيم الأجر في المعاد، من غير أن يؤخِّر ذلك شيئًا مما يريدونه أو يمنع كونه. فأيُّ غبنٍ أعظم من هذه الحال التي نبهنا عليها! وأي سعدٍ أعظم من الذي دعونا إليه»[٣].

وأعظم من سلامة الصدر.. الحب للناس جميعًا. وإننا نبصر هذا في شخصية النبي ﷺ فوق سلامة الصدر حبّه للناس جميعًا، وهو حب يبدو جليًّا في ألفاظ بلاغته ﷺ. إنه حين وصف نفسه ومواقف الناس من دعوته قال: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا**»[٤].

إنه تصوير مؤثِّر، إنها لمعركة.. معركة يحاول فيها النبي ﷺ دفع الناس عن الوقوع في

---

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٥٧١٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها (٢٥٦٣).

(٢) (النمل: ٨٨).

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم ١/ ٣٤١، ٣٤٢.

(٤) البخاري: كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي (٦١١٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٢٢٨٤).

النار، ولكنهم يغلبونه فيقعون فيها.

ليست إذن مجرَّد بلاغ، ليست مجرد مهمَّة، ليست مجرد نصيحة.. إنها معركة، النبي ﷺ يحاول ويأخذ بحُجز الناس، وبعض الناس يغلبونه فيقعون فيها.

ويروي البخاري أنه كانَ غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ». فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ. فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»[1].

ما أعظم هذا النبي ﷺ!!

- لما أصيب يوم أُحُد كان يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ»[2].

- والذي كان في أصعب يومٍ مرَّ عليه في حياته أرفق على الناس (الكفار) منهم على أنفسهم؛ روت عائشة رضي الله عنها أنها قالت لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ. فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[3].

- النبي ﷺ الذي شمل حتى الحيوان بهذه العاطفة، حتى صار في العمل الصالح لأي كائن حي (في كل ذات كبد رطبة أجر)؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «بَيْنَا

---

(١) البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٢٩٠).

(٢) البخاري: كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عرض الذمي بسب النبي ﷺ ولم يصرح (٦٥٣٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد (١٧٩٢).

(٣) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى (٣٠٥٩)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥).

رَجُلٌ بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي. فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[1].

بمثل هذه التوجيهات، صنع الإسلام «جمال الباطن»، وجعل من الإنسان كائنًا رقيقًا كنسيمٍ ناعم رطيب، ليس للمسلمين، ولا للناس، بل للكائنات الحيَّة جميعًا.

* * *

(١) البخاري: كتاب المظالم، باب الآبار على الطرق إذا لم يتأذ بها (٢٣٣٤).

المبحث الثالث

حسن الخلق

حسن الخلق هو المعنى الذي بحثت عنه البشرية كثيرًا، وتطلعت إليه منذ ظهور الفلاسفة في القديم، وتخيلوا أن يسود هذا المعنى، فكتبوا مثلاً عن (المدينَة الفاضلة)، ولما بدا لهم أنها حُلم مستحيل، اكتفى العالم الآن أن يسمِّي هذا المعنى بـ (الإنسانية).

ولفظ «الإنسانية» في المعنى الغربي يقترب في القاموس الإسلامي من معنى «الرحمة»، والرحمة كلها ليست إلا جزءًا من حسن الخُلق في الإسلام؛ لأنه أعم من ذلك؛ فمنه الصبر واحتمال الأذى ومساندة الحق، يقول الحارث المحاسبي: «ومن علامة حسن الخلق احتمال الأذى في ذات الله، وكظم الغيظ، وكثرة الموافقة لأهل الحق على الحق، والمغفرة والتجافي عن الزَّلَّة»(١). بل الإمام الغزالي يقول: «وليس حسن الخلق كف الأذى، بل احتمال الأذى»(٢).

ولقد مدح الله تعالى رسوله ﷺ بحُسن خلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٣).

وجعل النبي ﷺ التفاوت في الإيمان بين المسلمين هو حُسن الخلق، حتى إن أحسنهم أخلاقًا هو أكملهم إيمانًا؛ روى البزار عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَإِنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ دَرَجَةَ الصَّوْمِ وَالصَّلاةِ**»(٤).

- ولذلك كان أحبَّ الناس إلى النبيِّ ﷺ وأقربهم منه مجلسًا يوم القيامة أحسنُهم خُلقًا، «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاقًا**»(٥).

- وكان حُسن الخلق أثقل شيء في الميزان يوم القيامة «**مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ**

(١) الحارث المحاسبي: آداب النفوس ص١٥٣.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٢٦٣.

(٣) (القلم: ٤).

(٤) أبو داود: كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأحمد (٧٣٩٦)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (١٥٧٨).

(٥) الترمذي: كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معالي الأخلاق (٢٠١٨)، وابن حبان (٤٨٢)، وصححه الألباني برقم (١٥٣٥) في صحيح الجامع.

أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ»[١].

• وحسن الخلق أكثر شيء يُدخِل الناس الجنة «**أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَأَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ الْفَمُ وَالْفَرْجُ**»[٢].

بل إن النبي ﷺ لخَّص كل مهمته في الدنيا في قوله: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ**»[٣].

«فكأنَّ الرسالة التي خطَّتْ مجراها في تاريخ الحياة، وبذل صاحبها جهدًا كبيرًا في مدِّ شُعاعها، وجمع الناس حولها لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم، حتى يسعوا إليها على بصيرة»[٤].

إن جمال الأخلاق الذي يصبغ الحياة بالجمال، والمعاملات مع الناس بالرحمة والبر والخير، هذا هو المقصد الذي جاء به الإسلام ولقي في سبيله النبي ﷺ كل تلك العذابات والأخطار، وفُرضت لأجله الفروض، وسُنَّت لأجله السنن.

وهذه بعض النصوص القاطعة بهذا المعنى:

- ﴿**إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾[٥].
- ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**﴾[٦].
- ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[٧].
- «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»[٨].

---

(١) الترمذي: كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٣)، وصححه الألباني برقم (٥٧٢١) في صحيح الجامع.

(٢) أحمد (٩٠٨٥)، والبيهقي: شعب الإيمان (٤٧١٨)، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٩٧٧).

(٣) أحمد (٨٩٣٩)، والحاكم (٤٢٢١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢١٣٠١)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٤٥).

(٤) محمد الغزالي: خلق المسلم ص٧.

(٥) (العنكبوت: ٤٥).

(٦) (التوبة: ١٠٣).

(٧) (البقرة: ١٨٣).

(٨) البخاري: كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم (١٨٠٤)، وأبو داود (٢٣٦٢)، والترمذي (٧٠٧).

- ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[١].

- قال رجلٌ: يا رسول الله، إنَّ فلانة يُذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنَّها تؤذي جيرانها بلسانها. قال: «هِيَ فِي النَّارِ». قال: يا رسول الله، فإنَّ فلانة يُذكر من قلَّة صيامها وصدقتها وصلاتها، وإنَّها تصدَّق بِالأَثْوَارِ[٢] من الأَقِطِ[٣]، ولا تؤذي جيرانها بلسانها قال: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ»[٤].

- «لَيْسَ الصِّيَامُ مِنَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ، إِنَّمَا الصِّيَامُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، فَإِنْ سَابَّكَ أَحَدٌ، أَوْ جَهِلَ عَلَيْكَ، فَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ، إِنِّي صَائِمٌ»[٥].

وانظر وتأمَّل كيف يُقَسِم النبي ثلاثًا وعلى ماذا، فعن عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «وَاللهِ! لا يُؤْمِنُ، وَاللهِ! لا يُؤْمِنُ، وَاللهِ! لا يُؤْمِنُ». قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[٦].

وهو هنا لا ينفي الإيمان عمن يؤذي جاره، بل عن الذي لا يأمن جاره من أذاه، إنه تعبير عن حُسن الخُلق لا عن الإيذاء؛ لأن الجار يأمن جاره أو لا يأمنه من مجمل ما يراه منه من أخلاق، والذي قصده النبي ﷺ في هذا الحديث ليس من يؤذي جاره، بل الذي كانت أخلاقه لا تُطَمْئِن جاره فيأمن شروره.

تلك لفتة عظيمة لا يُعرف أن لها سابقًا في التاريخ، ولا في أفكار البشر، ونعم.. إنها دين الله، ووحي السماء.

ورسم النبي ﷺ صورة لرجل من أمته كان يُصَلِّي وينفق ويصوم، ولكن أخلاقه لم

---

(١) (البقرة: ١٩٧).

(٢) الأثوار: جمع ثور، وهي القطعة.

(٣) الأقط: هو اللبن الجاف الجامد.

(٤) أحمد (٩٦٧٣)، والحاكم (٧٣٠٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وابن حبان (٥٨٥٨)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٩٠).

(٥) الحاكم: كتاب الصوم (١٥٧٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. والبيهقي: السنن الكبرى (٨٠٩٦)، وابن خزيمة (١٩٩٦)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٥٣٧٦).

(٦) البخاري: كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه (٥٦٧٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار (٤٦).

تستقم، فأخبر أنه سيأتي يوم القيامة لا ليدخل الجنة بل ليدخل النار، يقول النبي ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْـمُفْلِسُ؟». قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إِنَّ الْـمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1].

إنه لم يحقق المعنى.. الغاية؛ «ربما قدر الطفل على محاكاة أفعال الصلاة وترديد كلماتها، ربما تمكَّن الممثل من إظهار الخضوع وتصنُّع أهم المناسك، لكن هذا وذاك لا يُغْنِيَان شيئًا عن سلامة اليقين، ونبالة المقصد»[2].

بهذا التوجيه، وبهذه التربية صاغت الحضارة الإسلامية جمالاً في الحياة، جمالاً يُعَبِّر عنه علماء الإسلام بقولهم: «الحَسَن الخلق من نفسه في راحة، والناس منه في سلامة، والسيئ الخلق الناس منه في بلاء وهو من نفسه في عناء»[3].

***

(١) مسلم عن أبي هريرة: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨)، وأحمد (٨٠١٦).
(٢) محمد الغزالي: خلق المسلم ص١١.
(٣) الماوردي: أدب الدنيا والدين ص٢٥٢.

المبحث الرابع
لطائف الذوق المعنوي

قلنا: إن الذوق هو تلك الحاسة المعنوية الشفَّافة التي تدعو صاحبَهَا إلى مراعاة مشاعر الآخرين وأحوالهم وظروفهم. وهو أدبيَّات التعامل مع الناس، وهو الفنُّ الجميل في العَلاقة مع الآخرين.

وذكرنا في الفصل السابق بعضًا من مظاهر جمال الذوق الحسي الظاهري، الذي جاءت به حضارة الإسلام، والآن نُعَدِّدَ سريعًا عِدَّة عناوين تُعَدُّ من جمال الذوق المعنوي الأخلاقي في الحضارة الإسلامية؛ فمنها ما يلي:

- **جمال الذوق في عدم إيذاء شعور الآخرين:** فكان الرسول ﷺ يتحاشى أن يواجه الناس بالعتاب المباشر، فكان يقول في ذلك: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ...**»[١]. وروى عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً فَلاَ يَتَنَاجَى رَجُلاَنِ دُونَ الآخَرِ، حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ؛ أَجْلَ أَنْ يُحْزِنَهُ**»[٢].

- **جمال الذوق في احترام الكبير، ورحمة الصغير، وإنزال الناس منازلهم:** فروى عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا**»[٣].

- **جمال الذوق في شكر الناس:** قال ﷺ: «**لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ**»[٤].

- **جمال الذوق في الزيارة:** إن في آية الزيارة شرطين: ﴿**لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا**﴾[٥]، إن من ذوق الإسلام الاستئذان في

---

(١) انظر على سبيل المثال: البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اشترط شروطًا في البيع لا تحل (٢٠٦٠)، ومسلم: كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق (١٥٠٤).

(٢) البخاري: باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة (٥٩٣٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه (٣٨).

(٣) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب رحمة الصبيان (١٩١٩) وقال: هذا حديث غريب. وأبو داود (٤٩٤٣)، وأحمد (٦٧٣٣)، والحاكم (٤٢١).

(٤) أبو داود: كتاب الأدب، باب في شكر المعروف (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وأحمد (٧٤٩٥)، وابن حبان (٣٤٠٧)، وحسنه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٣٠١٤).

(٥) (النور: ٢٧).

الدخول، ولكن هذه الآية تلمس ذوقًا معنويًا، وهو (الاستئناس)، ومعناها أبلغ من الاستئذان فهي تعني الاستكشاف والتعرُّف على رغبة أهل البيت في الزيارة من عدمها، وهو ذوق معنوي فوق ذوق الاستئذان المباشر[١].

- **وذوق آخر في الاستئذان:** وهذا فعله النبي ﷺ حين دعاه أنصاري إلى الطعام، فجاء رجل مع النبي ﷺ، فقال النبي لصاحب البيت: **«إِنَّ هَذَا قَدْ تَبِعَنَا، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ فَأْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ يَرْجِعَ رَجَعَ»**. فقال: لا، بل قد أَذِنْتُ لَهُ[٢].

- **جمال الذوق في مناداة الخادم والعبد:** قال ﷺ: **«لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي. كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلاَمِي وَجَارِيَتِي، وَفَتَايَ وَفَتَاتِي»**[٣].

- **جمال الذوق في اختيار الأسماء:** وكان هناك رجل يسمى أصرم، فقال رسول الله: **«مَا اسْمُكَ؟»** قال: أنا أصرم. فقال رسول الله ﷺ: **«بَلْ أَنْتَ زُرْعَةُ»**[٤]. وجاء رجل إلى النبيِّ فسأله النبيُّ: **«مَا اسْمُكَ؟»** قال: حَزْنٌ. قال النبي: **«أَنْتَ سَهْلٌ»**[٥].

- **جمال الذوق مع الزوجة:** وهذا ذكرنا بعضه من الذوق الظاهري الحسيّ في الفصل السابق، غير أننا هنا نروى موقف النبي ﷺ مع عائشة حين روت له حديث النساء المعروف بحديث «أم زرع»، وهو حديث طويل. ولكن النبي ﷺ استمع إليها ولم يضجر، هذا وهو قائد الدولة الإسلامية الذي يمتلئ رأسه بالقضايا والمعضلات. ثم - وهذا ذوق أكبر - علَّق على الحديث بما تحب أن تسمعه السيدة عائشة فقال لها: **«يَا عَائِشَةُ، كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ، إلا أَنَّ أَبَا زَرْعٍ طَلَّقَ، وَأَنَا لا أُطَلِّقُ»**[٦].

---

(١) انظر: أبو حيان: تفسير البحر المحيط ٦/ ٤٤٥، ٤٤٦.

(٢) البخاري: كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع... (١٩٧٥)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب ما يفعل الضيف إذا تبعه غير من دعاه... (٢٠٣٦).

(٣) البخاري عن أبي هريرة: كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله: عبدي وأمتي (٢٤١٤)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظ العبد والأَمَة (٢٢٤٩).

(٤) أبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الاسم القبيح (٤٩٥٤)، وصححه الألباني في التعليق على أبي داود.

(٥) البخاري: كتاب الأدب، باب اسم الحزن (٥٨٣٦)، وأبو داود (٤٩٥٦)، وأحمد (٢٣٧٢٣).

(٦) الحديث في البخاري: كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل (٤٨٩٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب ذكر حديث أم زرع (٢٤٤٨) - بدون زيادة تعليق النبي، والزيادة صححها الألباني في صحيح الجامع برقم (١٤١).

- **جمال الذوق في قلب المشكلة:** ومنها مراعاته ﷺ لزوجته عائشة حين غارت من طبق طعام جاء للنبي من زوجته أم سلمة؛ يروي البخاري عن أنس قال: كان النَّبيُّ ﷺ عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمَّهات المؤمنين بِصَحْفَةٍ فيها طعامٌ، فضربت الَّتي النَّبيُّ ﷺ في بيتها يد الخادم فسقطت الصَّحْفَةُ فَانْفَلَقَتْ، فجمع النَّبيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ ثمَّ جعل يجمع فيها الطَّعام الَّذي كان في الصَّحفة ويقول: «غَارَتْ أُمُّكُمْ». ثمَّ حبس الخادم حتَّى أُتِيَ بصحفةٍ من عند الَّتي هو في بيتها، فدفع الصَّحفة الصَّحيحة إلى الَّتي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وأمسك المكسورة في بيت الَّتي كَسَرَتْ[1]. فلم ينهرها أمام الخادم ﷺ ولم يواجه غيرتها بعنفٍ، بل لاطفها بقوله: «غَارَتْ أُمُّكُمْ». وتأمل هذا التقدير لها في اختياره لفظ «أمكم»، فلم يقل: غارت الفتاة، أو غارت عائشة، أو ما شابه.

هذا، وهناك غيرها الكثير ممَّا أتت به حضارة الإسلام من جماليات الذوق وجماليات الأخلاق، تلك التي لم تُعهد في تشريع لا من قبلُ ولا من بعدُ، وبقيت دالَّة على إنسانيَّة حضارة الإسلام وجمالها، وعظمة تلك الحضارة.

***

(١) البخاري: كتاب النكاح، باب الغيرة (٤٩٢٧)، وأبو داود (٣٥٦٧)، والنسائي (٣٩٥٥)، وأحمد (١٢٠٤٦).

الفصل السادس

جمال الأسماء والألقاب والعناوين

لما أُشرب المسلمون روح الجمال الإسلامية، ووقرتْ في أرواحهم وفي وجدانهم العام تلك الصفة اللطيفة، كانت منهم تفرُّدات وإضافات، بعضها نقل الحضارة الإنسانية قفزات واسعة، تلك التفردات تسربت إلى تفاصيل الحياة الصغيرة، والصغيرة جدًّا، فخرجت الحضارة الإسلامية إلى الوجود ببعض مظاهرٍ لا تفسر إلا بعامل «الجمال». وذلك ما نعرضه في هذا الفصل من خلال المبحثين التاليين:

- المبحث الأول: جمال الأسماء والألقاب
- المبحث الثاني: جمال العناوين

المبحث الأول

جمال الأسماء والألقاب[(١)]

كان النبي ﷺ حريصًا على أمر الجمال حتى في أسماء من دخلوا الإسلام، ووردت كثير من الروايات الصحيحة والحسنة التي تذكر أن النبي ﷺ إذا لم يعجبه الاسم غيَّره إلى ما هو خير منه؛ فعن ابن عمر «أن النبي ﷺ غَيَّرَ اسْمَ عَاصِيَةَ، وَقَالَ: «**أَنْتِ جَمِيلَةُ**»[(٢)].

وغير اسم زحم بن معبد السدوسي إلى بشير[(٣)]، وكان سيدنا علي ﷺ قد سمَّى الحسن حربًا، فسمَّاه النبي ﷺ (الحسن)، ثم سمَّى الحسين حربًا، فسماه النبي ﷺ (الحسين)[(٤)].

وغيَّر ﷺ اسم أصرم بزرعة، وغير اسم أبي الحكم بأبي شريح، وغيَّر اسم العاص، وعزيز، وعتلة، وشيطان، والحكم، وغراب، وحباب، وشهاب، فسمَّاه هشامًا، وسمَّى حربًا سلمًا، وسمى المضطجع المنبعث، وأرضًا عفرة سمَّاها خضرة، وشِعب الضلالة سمَّاه شعب الهُدى، وبنو الزنية سماهم بني الرشدة، وسمى بني مغوية بني رشدة[(٥)].

وروى البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبيه، أَنَّ جَدَّهُ حَزْنًا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا اسْمُكَ؟**» قَالَ: اسْمِي حَزْنٌ. قَالَ: «**بَلْ أَنْتَ سَهْلٌ**». قَالَ: مَا أَنَا بِمُغَيِّرٍ اسْمًا سَمَّانِيهِ أَبِي. قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: فَمَا زَالَتْ فِينَا الْحُزُونَةُ بَعْدُ[(٦)].

ولقد أرشد ﷺ أمته في أمر الأسماء واختيارها، فقال: «**أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ ﷻ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةُ**»[(٧)].

---

(١) للاستزادة والتوسع ينصح بالرجوع إلى كتاب (حصول المأمول بذكر من غيّر أسماءهم الرسول) لأبي يعلي البيضاوي.

(٢) مسلم: كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن... (٢١٣٩)، وأبو داود (٤٩٥٢)، والترمذي (٢٨٣٨)، وأحمد (٤٦٨٢).

(٣) أبو داود: كتاب الجنائز، باب المشي بين القبور في النعل (٣٢٣٠)، وأحمد (٢٠٨٠٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٤) رواه أحمد (٧٦٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٣)، والبيهقي (١١٧٠٦)، وابن حبان (٦٩٥٨)، وحسنه شعيب الأرناءوط في التعليق على مسند أحمد.

(٥) ابن القيم: زاد المعاد ٢/ ٣٣٤ وما بعدها.

(٦) البخاري: كتاب الأدب، باب تحويل الاسم إلى اسم أحسن منه (٥٨٣٦).

(٧) أبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء (٤٩٥٠)، وأحمد (١٩٠٥٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٨١٤)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

وغيَّر النبي ﷺ أسماء بعض الأماكن، فحين هاجر كان اسم المدينة (يثرب) فغيرها إلى طيْبة[(١)]، وكان يكره الأمكنة المنكرة الأسماء، ويكره العبور فيها، كما مر في بعض غزواته بين جبلين، فسأل عن اسميهما فقالوا: فاضح ومخزٍ، فعَدَل عنهما، ولم يجز بينهما[(٢)].

وأوصى ﷺ إذا بَعث له أحدٌ رسولاً أن يكون حسن الاسم، فقال: «**إِذَا أَبْرَدْتُمْ إِلَيَّ بَرِيدًا؛ فَابْعَثُوهُ حَسَنَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الاسْمِ**»[(٣)].

ولم يلبث التاريخ الإسلامي أن عرفت فيه ألقاب الخلفاء والسلاطين والوزراء والأمراء بشكل يجمع بين الجمال والقوَّة، وقد كان الأمر فيما قبل -عند الإمبراطوريات القديمة- يقتصر على ألقاب السطوة والجبروت التي أريد منها أن تلقي الرعب والفزع.

وقد حرَّم الإسلام مثل هذه الألقاب، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**أَخْنَى الأَسْمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ**»[(٤)].

ولهذا اتخذ الخلفاء والسلاطين ألقابهم على شاكلة المضاف إلى الله، وكان المعتصم بالله وهو العباسي الثامن أول من بدأ بهذا، ثم تسمَّى من بعده بالمتوكل على الله، المستعين بالله، المنتصر بالله، المقتدر بالله، المستنصر بالله، المستعصم بالله، المستضيء بنور الله، الناصر لدين الله... وهكذا.

وظهر في الوزراء والأمراء والعلماء والقادة ألقاب منها: نور الدين، نجم الدين، شمس الدين، ضياء الدين، شهاب الدين، بدر الدين، سيف الدين، صلاح الدين، قلب الدين، حسام الدين، صدر الدين، فخر الدين، عز الدين، ركن الدين... وأمثال هذا.

وبهذا كان الجمال في الأسماء سمةً اتصفت بها الحضارة الإسلامية، وأثبتت أن جمالها تسرَّب إلى كل التفاصيل.

---

(١) البخاري: كتاب التفسير (٤٣١٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها (١٣٨٥).

(٢) ابن القيم: زاد المعاد ٢/ ٣٣٤ وما بعدها.

(٣) الطبراني في الأوسط ٧/ ٣٦٧، وابن حجر العسقلاني: المطالب العالية ١١/ ٦٨٥ (٢٦٥٨)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٢٥٩).

(٤) البخاري: كتاب الأدب، باب أبغض الأسماء إلى الله (٥٨٥٢)، ومسلم: كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك وملك الملوك (٢١٤٣).

المبحث الثاني
جمال العناوين

إن أولى الناس بهذا الدين هم أكثرهم علمًا به، وهم العلماء.

وإننا لنجد في علماء الحضارة الإسلامية إحساسًا فريدًا بالجمال لم يبلغه غيرهم عبر الحضارات الأخرى.

ولا نكاد نعرف عبر البشرية من كتب كتبًا في الفقه أو السيرة أو الحديث أو العقيدة أو التراجم والطبقات، فكانت عناوين الكتب قطعةً من الجمال.

كان أبرز مواطن الجمال في عناوين مؤلَّفات علماء الحضارة الإسلامية هو اهتمامهم بالجمال اللفظيّ، العنوان المسجوع الذي ينقسم فيه العنوان إلى جزأين، يتشابه آخرهما فيعطيان لدى النطق جرسًا محببًا، والأمثلة على هذا كثيرة، نلتقط منها:

(**الصارم المسلول.. على شاتم الرسول**)، هذا عنوان الكتاب الذي ألفه شيخ الإسلام ابن تيمية لبيان حكم من سبَّ رسول الله ﷺ. وألف الإمام ابن القيم كتابًا في أنواع الذنوب وأخطارها كان عنوانه (**الجواب الكافي.. لمن سأل عن الدواء الشافي**). ولما كتب لسان الدين بن الخطيب عن تاريخ غرناطة الأندلسية سمَّى كتابه (**الإحاطة.. في أخبار غرناطة**). ومثله معاصره حكيم التاريخ ابن خلدون الذي سمى تاريخه (**ديوان المبتدأ والخبر.. في تاريخ العرب والبربر.. ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**). وحين وصف المقريزي عمران القاهرة وخططها أعطى للكتاب عنوان (**المواعظ والاعتبار.. بذكر الخطط والآثار**). وتحدث القلقشندي عن النظم والقوانين فكان كتابه (**مآثر الإنافة.. في معالم الخلافة**). وفي شأن شروح كتب الحديث نجد (**فتح الباري.. شرح صحيح البخاري**) للحافظ ابن حجر، ونجد (**المنهاج.. شرح صحيح مسلم بن الحجاج**) للإمام النووي، ونجد (**عون المعبود.. شرح سنن أبي داود**) لشمس الحق العظيم آبادي، ونجد (**تحفة الأحوذي.. شرح صحيح الترمذي**) للمباركفوري.

ونجد في العقيدة وتاريخ النقاش والجدل كتاب الإمام ابن حزم (**الفصل.. في الملل

والأهواء والنحل)، وكتاب حُجَّة الإسلام الغزالي **(الاقتصاد.. في الاعتقاد)**، وكتاب الإمام الأشعري **(الإبانة عن أصول الديانة)**، وكتاب الإمام ابنِ حجر الهيثمي عما وقع في الخلاف بين الصحابة **(تطهير الجنان واللسان.. عن ثلب معاوية بن أبي سفيان.. مع المدح الجليّ.. وإثبات الحق لعليّ)**.

وعلى هذا المنهاج سارت كتب القرون المتعاقبة لعلماء المسلمين في مجالات التأليف المختلفة.

ثم زاد الجمال جمالاً آخر، فرأينا على عناوين المؤلفات ليس جَرْسًا موسيقيًّا فقط بل صورة جماليَّة فيها الذهب والفضة والجواهر والنجوم والشموس والأقمار، والبحار والأنهار والجداول، والشجر والأغصان والثمار. وكل هذه كانت عناوين لكتب تبحث في موضوعات علميَّة وأكاديميَّة بحتة يغلب عليها الطابع الجافّ، ولكنه أثر من تشرّب الروح الإسلامية للجمال، وتسرّب هذا الجمال لأبسط التفاصيل؛ فعلى سبيل المثال:

الذهب والدر والجوهر:

لقد كانت أكبر موسوعة في التاريخ والبلدان -بعد تاريخ الطبري- هي كتاب المسعودي (ت ٣٤٦هـ) فكان عنوانها **(مروج الذهب ومعادن الجوهر)**. وكان تفسير الإمام الثعالبي بعنوان **(الجواهر الحسان في تفسير القرآن)**. وأفرد الإمام ابن عبد البر كتابًا مختصرًا في مغازي النبي ﷺ فكان **(الدرر في اختصار المغازي والسير)**. ولما كتب محيي الدين بن أبي الوفاء كتابًا عن أعلام المذهب الحنفي سماه **(الجواهر المُضيّة في طبقات الحنفية)**. وأرَّخ المؤرخ في العصر المملوكي أَبو بكر الداوداري تحت عنوان فخم **(كنز الدرر وجامع الغرر)**، ثم كتب الإمام ابن حجر عن أعلام القرن الثامن الهجري فجعل عنوان الكتاب **(الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)**. ولما فسر الإمام السيوطي القرآن سمَّى تفسيره **(الدر المنثور في التفسير بالمأثور)**. وكتب ابن العماد الحنبلي في التاريخ كتابًا سماه **(شذرات الذهب في أخبار من ذهب)**. وبمثل هذا نجد **(اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة)** للسيوطي، و**(الدر المصون في علم الكتاب المكنون)** للسمين الحلبي في علوم القرآن، و**(كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال)** لعلاء الدين المتقي الهندي،

و(**كنز الدقائق**) لأبي البركات النسفي في المذهب الحنفي، وكذلك (**اللؤلؤ والمرجان.. فيما اتفق عليه الشيخان**) لمحمد فؤاد عبد الباقي.

النور والسماء والأفلاك:

كتب القلقشندي موسوعة في الأدب والتاريخ والسياسة والنظم فسماها (**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**). ولما كتب ابن تغري بردي كتابًا في التاريخ سماه (**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**). وكان (السراج المنير) هو عنوان التفسير الذي ألفه شمس الدين الشربيني للقرآن الكريم. وكتب أبو حفص سراج الدين النشار في علم قراءات القرآن الكريم كتابًا سماه (**البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة**). وبذل الإمام ابن الملقن جهدًا في تخريج الأحاديث والآثار الموجودة في كتاب الإمام الرافعي في المذهب الشافعي (الفتح العزيز في شرح الوجيز)، فكان هذا الجهد بعنوان (**البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير**). وشرح الإمام شمس الدين المارديني «الورقات» التي كتبها إمام الحرمين الجويني في أصول الفقه فكان كتابه (**الأنجم الزاهرات على حل ألفاظ الورقات**). وحين حقق الإمام ابن الكيال الرواة الذين رُموا بالاختلاط من الموصوفين بالثقة جعل كتابه بعنوان (**الكواكب النيرات في معرفة من رمي بالاختلاط من الرواة الثقات**). ونظم الإمام السيوطي أصول الفقه في شعر، وسماه (**الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع**)، وله أيضًا (**البدور السافرة في أمور الآخرة**). ونختم هذا الجزء بهذا العنوان القشيب الذي جعله الإمام السفاريني لكتابه في العقيدة (**لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**).

البحار والأنهار وجداول المياه:

كثيرًا ما وُصفت غزارة العلم بالبحر في حضارتنا الإسلامية، وكثيرًا ما تردد في كتب التراجم والطبقات (فلان.. بحر العلوم) أو (يتفجر العلم من جوانبه) وما شابه هذا، أو قيل: «نبع العلوم» أو «منهل العلم» في مثل هذه التشبيهات التي تمتزج بالصور الطبيعية لإخراج المعنى. وكثيرًا ما عُبِّر عن الكتاب بمثل هذه العناوين التي نلتقط منها:

كتب الإمام إبراهيم بن محمد الحلبي كتابًا في المذهب الحنفي فأعطاه عنوانًا بديعًا

(ملتقى الأبحر)، ثم جاء شيخي زاده فشرحه فكان عنوان الشرح (**مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر**). وسمى الإمام ابن جماعة كتابه في علم الحديث (**المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي**). وأرّخ ابن تغري بردي لتراجم أعلام عصره في كتاب سماه (**المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**). وقد شرح الإمام ابن نجيم الحنفي كتاب (كنز الدقائق) في المذهب تحت عنوان (**البحر الرائق شرح كنز الدقائق**). وفسر الإمام أبو حيان الأندلسي القرآن فكان العنوان (**البحر المحيط**)، وبنفس العنوان كتب الإمام الزركشي كتابًا في أصول الفقه. وطبع تفسير الشيخ الشنقيطي بعنوان (**العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير**). وللإمام السمرقندي تفسير آخر للقرآن بعنوان (**بحر العلوم**).

الرياض والأزهار والثمار:

كتب الإمام ابن حبان في الوعظ والرقائق كتابه (**روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**)، ولما كتب الإمام السهيلي عن سيرة النبي ﷺ وشمائله سمَّى كتابه (**الروض الأنف**). وللإمام ابن الجوزي كتاب في الوعظ أيضًا سماه (**بستان الواعظين ورياض السامعين**)، وكتب شهاب الدين أبو شامة عن تاريخ الدولة النورية والصلاحية فسمَّى كتابه (**الروضتين في أخبار الدولتين**). وحين كتب الإمام النووي كتابًا حاول فيه جمع واستقصاء فضائل الإسلام وآدابه سماه (**رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**)، ثم كتب مرة أخرى كتاب (**روض الطالبين**) في فقه المذهب الشافعي. وكتب الحميري تاريخ الحميري بعنوان (**الروض المعطار في خبر الأقطار**). وفي الرقائق ألف الإمام ابن القيم كتاب (**روضة المحبين ونزهة المشتاقين**)، وفي الرقائق أيضًا كتب الإمام ابن الجزري كتابه (**الزهر الفاتح في من تنزه عن الذنوب والقبائح**). وعن الخضر عليه السلام كتب الحافظ ابن حجر مؤلفًا سمّاه (**الزهر النضر في أخبار الخضر**). وكتب السيوطي كتابًا سماه (**الروض الأنيق في فضل الصديق**). وفي تاريخ مدينة مكناسة بالمغرب ألف ابن غازي كتابًا سماه (**الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**)، ثم كتب ابن إياس تاريخًا فسماه (**بدائع الزهور في وقائع الدهور**)، وألف المقري في تاريخ الأندلس فكان كتابه (**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**). وفي القرن الثاني عشر الهجري كتب محمد بن عيسى بن كنان عن قوانين الخلافة

والسلاطين فسمَّى كتابه (**حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين**). وهذا كتاب (**الروضة الندية شرح الدرر البهية**) في فقه المذهب الزيدي للقنوجي. وخطَّ الأستاذ سيد قطب تفسيره فجعله (**في ظلال القرآن**).

وهكذا.. من مثل هذا كثير كثير، وهذه الكثرة تفيد ما يقترب من الإجماع، وتعطي اليقين في تلك الحاسة الجماليَّة التي اكتسبها رجال الحضارة الإسلامية، ألهمهم إيَّاها قبسٌ من جمال الكتاب والسُّنَّة.

❊ ❊ ❊

الفصل السابع

قرطبة.. نموذج لمدينة إسلامية جميلة

«إن قرطبة التي فاقت كل حواضر أوربا مدنيةً أثناء القرن العاشر (الميلادي) كانت في الحقيقة محطَّ إعجاب العالم ودهشته، كمدينة فينيسيا في أعين دول البلقان، وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينَة التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعمائة حمام عمومي؛ فإن أدركت الحاجة حُكَّام ليون، أو النافار، أو برشلونة إلى جرَّاحٍ، أو مهندس، أو معماري، أو خائط ثياب، أو موسيقي فلا يتجهون بمطالبهم إلا إلى قرطبة»[١]. هذا هو وصف أحد الغربيين لمدينة قرطبة الأندلسية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وهو جون براند ترند.

فامتدادًا لحضارة إسلامية إنسانية -علمًا، وقِيَمًا، ومجدًا- بزغ نجم مدينة **قرطبة، كشاهدٍ حيٍّ على ما وصلت إليه حضارة المسلمين وعزِّ الإسلام** في ذلك الوقت من التاريخ، وهو منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، يوم أن كانت أوربا تغطُّ في جهل عميق.

قرطبة.. ذلك الاسم الذي طالما كان له جرس مُعَيَّنٌ، ووقع خاصٌّ في الأذن الإسلامية، بل وفي أذن كل أوربي آمن بالنهضة والحضارة الإنسانية، يقول المقري: قال بعض علماء الأندلس:

بِأَرْبَعٍ فَاقَتِ الأَمْصَارَ قُرْطُبَةٌ ... مِنْهُنَّ قَنْطَرَةُ الْوَادِي وَجَامِعُهَا
هَاتَانِ ثِنْتَانِ وَالزَّهْرَاءُ ثَالِثَةٌ ... وَالْعلمُ أَعْظَمُ شَيْءٍ وَهْوَ رَابِعُهَا[٢]

وسنتعرف على قرطبة.. المدينَة الجميلة.. من خلال المباحث التالية:

- **المبحث الأول: لمحة جغرافية وتاريخية**
- **المبحث الثاني: بعض مظاهر الحضارة في قرطبة**
- **المبحث الثالث: قرطبة.. المدينَة العصرية**
- **المبحث الرابع: قرطبة في عيون العلماء والأدباء**

---

(١) جون براند ترند: إسبانيا والبرتغال، دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام بإشراف أرنولد، ص٢٧.

(٢) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١/ ١٥٣، والأبيات من بحر البسيط.

المبحث الأول
لمحة جغرافية وتاريخية

هي مدينة تقع على نهر الوادي الكبير، في الجزء الجنوبي من إسبانيا، وقد أرَّخت لها موسوعة المورد الحديثة فقالت: «أسسها القرطاجيون فيما يُعتقد، وخضعت لحكم الرومان والقوط الغربيين»[1]. وقد قام بفتحها القائد الإسلامي الشهير طارق بن زياد، وذلك سنة (٩٣هـ/ ٧١١م). ومنذ ذلك العهد بدأت مدينة قرطبة تخطُّ لنفسها خطًّا جديدًا، وملمحًا مهمًّا في تاريخ الحضارة؛ فبدأ نجمها في الصعود كمدينة حضارية عالمية، لا سيما في عام (١٣٨هـ/ ٧٥٦م)، عندما أسس عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) الدولة الأموية في الأندلس، وذلك بعدما سقطت في دمشق على أيدي العباسيين.

وفي عهد عبد الرحمن الناصر (أول خليفة أموي في الأندلس) ومن بعده ابنه الحكم المستنصر، بلغت قرطبة أوج ازدهارها، وقمة ريادتها وحضارتها، خاصةً أنه اتخذها عاصمة لدولته الفتية، ومقرًّا له كخليفة للمسلمين في العالم الغربي، وقد جعل منها منبرًا للعلوم والثقافة والمدنية، حتى غدتْ تنافس القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في قارتها، وبغداد عاصمة العباسيين في المشرق، والقيروان والقاهرة في إفريقيا، وحتى أطلق عليها الأوربيون: «جوهرة العالم».

وقد شمل اهتمام الأمويين بقرطبة اهتمامهم كذلك بنواحي الحياة المختلفة فيها؛ من زراعة وصناعة، وبناء الحصون، ودور الأسلحة، وغيرها، وقد شقُّوا الترع، وحفروا القنوات، وأقاموا المصارف، وجلبوا للأندلس أشجارًا وثمارًا لم تكن تُزْرَع فيها.

***

(١) موسوعة المورد الحديثة (١٩٩٥).

المبحث الثاني
بعض مظاهر الحضارة في قرطبة

في السطور التالية نَتَعَرَّفُ على بعض مظاهر الرقي والحضارة التي تميَّزَتْ بها الأندلس عامَّة، ومدينة قرطبة خاصَّة؛ لنقف على الإسهامات الإسلامية في مسيرة الإنسانية.

١) قنطرة قرطبة:

كان من المعالم المهمَّة في قرطبة (قنطرة قرطبة)، والتي تقع على نهر الوادي الكبير، وقد عُرفت باسم: (الجسر)، وأيضًا: (قنطرة الدهر)، وكان طولها أربعمائة متر تقريبًا، وعرضها أربعين مترًا، وارتفاعها ثلاثين مترًا(١)!

وقد شهد لها ابن الوردي والإدريسي بأنها «القنطرة التي عَلَتِ القناطرَ فَخْرًا في بنائها وإتقانها»(٢).

كان عدد أقواسها سبع عشرة قوسًا، بين كل قوس والآخر اثنا عشر مترًا، وسعة القوس الواحد اثنا عشر مترًا، وكان عرضها حوالي سبعة أمتار، وارتفاعها عن سطح ماء النهر بلغ خمسة عشر مترًا(٣).

إن هذه الأبعاد كانت لقنطرة بنيت في بداية القرن الثاني الهجري (١٠١هـ)، أي منذ ألف وأربعمائة عام، على يد السمح بن مالك الخولاني الذي كان والي الأندلس من قبل عمر بن عبد العزيز، أي في وقت لم يكن فيه الناس يعرفون من وسائل الانتقال إلا الخيل والبغال والحمير، ولم تكن وسائل وأساليب البناء على المستوى المتطور حينئذٍ؛ مما يجعل هذه القنطرة بهذا الشكل واحدة من مفاخر الحضارة الإسلامية.

٢) مسجد قرطبة:

يعتبر الجامع الكبير من أهم معالم قرطبة وآثارها الباقية إلى اليوم، وهو يُسمى

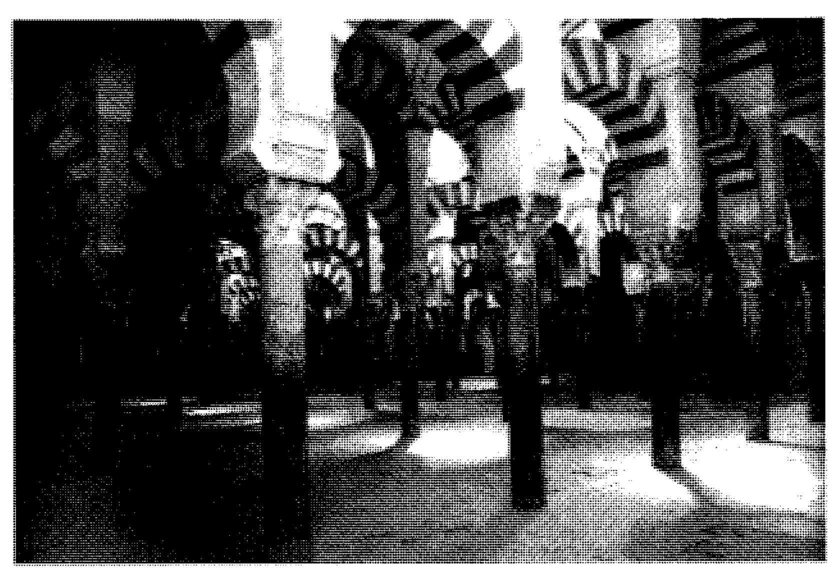
---

(١) القياسات القديمة كانت بوحدات الشبر والذراع والباع، والشبر يساوي ٢٣ سنتيمتر تقريبًا، والذراع يساوي نصف متر تقريبًا. انظر: محمد رواس قلعجي وحامد صادق قنيبي: معجم لغة الفقهاء ١/ ٢٥٦، ٢/ ٤٨.

(٢) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص١٢، والإدريسي: نزهة المشتاق ٢/ ٥٧٩.

(٣) المقري: نفح الطيب ١/ ٤٨٢٠.

بالإسبانية Mezquita (وتنطق: ميتكيتا)، وهي تحريف لكلمة (مسجد). وقد كان أشهر مسجد بالأندلس (على اعتبار أنه الآن كاتدرائية)، ومن أكبر المساجد في أوربا! وقد بدأ بناءَه عبد الرحمن الداخل سنة (١٧٠هـ/ ٧٨٦م)، ومن بعده ابنه هشام الأول، وكان كل خليفة جديد يضيف لهذا الجامع ما يزيد في سعته وتزيينه؛ ليكون أجمل المساجد في مدينة قرطبة، ومن أكبر المساجد وقت وجوده.



صورة (٦٦) سواري (أعمدة) مسجد قرطبة

وفي وصف لهذا الجامع يقول صاحب الروض المعطار: وبها (بقرطبة) الجامع المشهور أمره الشائع ذكره، من أَجَلِّ مساجد الدنيا كبرَ مساحة، وإحكامَ صنعة، وجمالَ هيئة، وإتقانَ بنية، تَهَمَّم به الخلفاء المروانيون، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميمًا إثر تتميم، حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حُسْنِه الوصف، وليس في مساجد المسلمين مثله تنميقًا وطولاً وعرضًا؛ طوله مائة باع وثمانون باعًا، ونصفه مسقَّف ونصفه صحن بلا سقف، وعدد (أقواس) مسقَّفه أربع عشرة قوسًا، وسَوَارِي مسقفه بين أعمدته وسَوَارِي قببه صغارًا وكبارًا مع سَوَارِي القبلة الكبرى وما يليها ألف سارية، وفيه مائة وثلاث عشرة ثُرَيَّا للوقيد، أكبر واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلُّها تحمل اثني عشر مصباحًا، وجميع خشبه من عيدان الصنوبر

الطرطوشي[(١)]، ارتفاع الجائزة[(٢)] منه شبر في عرض شبر إلاَّ ثلاثة أصابع، في طول كل جائزة سبعة وثلاثون شبرًا، وبين الجائزة والجائزة غلظ الجائزة، وفي سقفه من ضروب الصنائع والنقوش ما لا يشبه بعضها بعضًا، قد أُحكم ترتيبها وأُبدع تلوينها بأنواع الحمرة، والبياض، والزرقة، والخضرة، والتكحيل، فهي تروق العيون، وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها، وسعة كل بلاط من بلاط سقفه ثلاثة وثلاثون شبرًا، وبين العمود والعمود خمسة عشر شبرًا، ولكل عمود منها رأس رخام وقاعدة رخام.

ولهذا الجامع قِبْلَةٌ يعجز الواصفون عن وصفها، وفيها إتقان يبهر العقول تنميقها، وفيها من الفسيفساء المُذَهَّب والبِلَّوْر مما بعث به صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله... وفي جهتي المحراب أربعة أعمدة: اثنان أخضران، واثنان زُرْزُوريَّان[(٣)]، لا تُقَوَّم بمال، وعلى رأس المحراب خَصَّة[(٤)] رخام قطعة واحدة مسبوكة منمَّقة بأبدع التنميق من الذهب واللاَّزَوَرْدِ وسائر الألوان، واستدارت على المحراب حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريب، ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله صنعةً؛ خشبه أبنوس، وبَقْس، وعود المجمر، يقال: إنه صُنِعَ في سبع سنين، وكان صناعة ستة رجال غير مَنْ يخدمهم تصرفًا!

وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطُسُوت[(٥)] ذهب وفضة وحسك[(٦)]، وكلها لو قيد الشمع في كل ليلة سبع وعشرين من رمضان، وفي هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله؛ فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان ﷺ الذي خَطَّه بيمينه، وفيه نقطة من دمه، ويُخْرَجُ هذا المصحف في صبيحة كل يوم، يتولَّى إخراجه قَوْمٌ من قَوَمة الجامع، وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش، وله كرسيٌّ يُوضَعُ

---

(١) نوع من أنواع الخشب.

(٢) الجائزةُ من البيت: سهم البيت، أي الخشبة التي تَحْمِل خشب البيت. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة جوز ٥/ ٣٢٦.

(٣) الزُّرْزُور: طائر من رتبة العصفوريات وهو أكبر قليلاً من العصفور، له ريش بنفسجي مائل إلى الخضرة، أو بريق أرجواني فاتح، أو هو حَجَرٌ أبيض رِخْوٌ، ومنه حُمْرِى أو أَصْفَرَ. وله بريق معدني.

(٤) لعل المقصود كتلة رخام.

(٥) جمع طَسْت.

(٦) الحَسَكُ: من أدوات الحرب، ربما أُخذ من حديد فأُلقي حول العسكر، وربما أُخذ من خشب فنصب حوله. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حسك ١٠/ ٤١١.

عليه، فيتولَّى الإمام قراءة نصف حِزبٍ فيه، ثم يُرْفَعُ إلى موضعه.

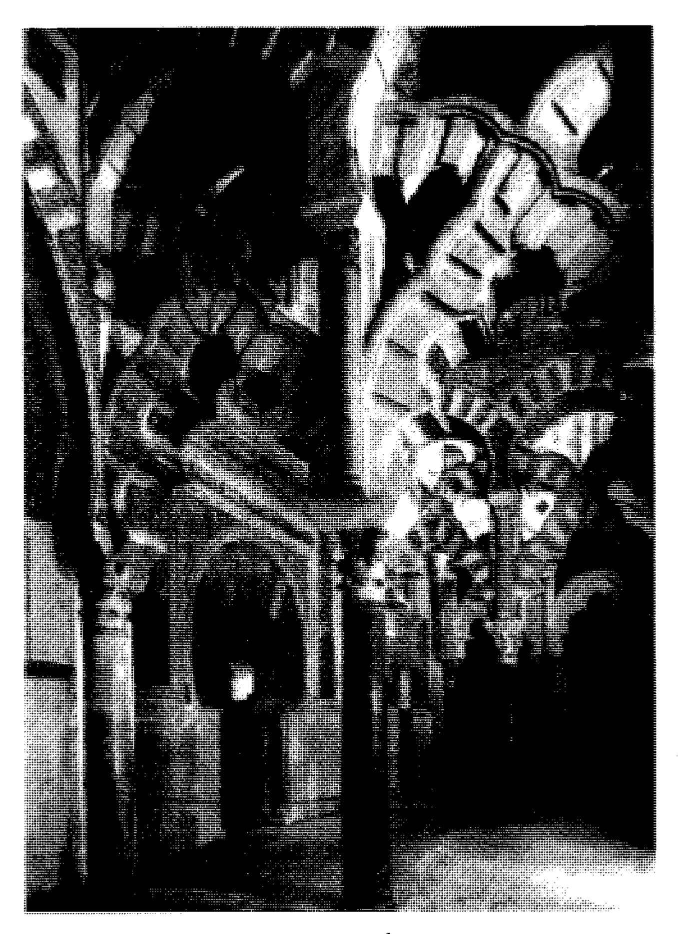
وعن يمين المحراب والمنبر باب يُفْضِي إلى القصر، بين حائطي الجامع في ساباط[1] مُتَّصِل، وفي هذا الساباط ثمانية أبواب، منها أربعة تنغلق من جهة القصر، وأربعة تنغلق من جهة الجامع، ولهذا الجامع عشرون بابًا مصفَّحة بصفائح النحاس وكواكب[2] النحاس، وفي كل باب منها حلقتان في غاية الإتقان، وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفصِّ المُتَّخَذِ من الآجُرِّ الأحمر المحكوك، وأنواع شتَّى وأصناف مختلفة من الصناعات والتنميق.

وللجامع في الجهة الشمالية الصومعة (المئذنة) الغريبة الصنعة، الجليلة الأعمال، الرائقة الشكل والمثال، ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بالذراع الرشاشي[3]؛ منها ثمانون ذراعًا إلى الموضع الذي يقف عليه المؤذن، ومن هناك إلى أعلاها عشرون ذراعًا، ويصعد إلى أعلى هذا المنار بدرجين: أحدهما من الجانب الغربي، والثاني من الشرقي، إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا إلاَّ إذا وصلا الأعلى، ووجه هذه الصومعة مُبَطَّن بالكَذَّان[4] منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة، بصنعة تحتوي على أنواع من التزويق والكتابة.

وبالأوجه الأربعة الدائرة من الصومعة صَفَّان من قِسِيّ (أقواس) دائرة على عقد الرخام، وبيت له أربعة أبواب مغلقة يبيت فيه في كل ليلة مُؤَذِّنَان، وعلى أعلى الصومعة التي على البيت ثلاث تفاحات ذهبًا واثنتان من فضة وأوراق سَوْسَنِيَّة، تَسَعُ الكبيرة من هذه التفاحات ستين رطلاً من الزيت، ويخدم الجامع كله ستُّونَ رجلاً، وعليهم قائم ينظر في أمورهم[5].

---

(١) السَّاباطُ: سَقيفةٌ بين حائطين أو بين دارين، ومن تحتها طريق نافذ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة سبط ٧/ ٣٠٨.
(٢) كواكب جمع كوكب: اللمعان والبريق للمعدن، وقيل: الكوكب المسمار. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة كوكب ١/ ٧٢٠، والزبيدي: تاج العروس، مادَّة ككب ٤/ ١٥٨.
(٣) الذراع الرشاشي: هو ثلاثة أشبار. انظر: الحِميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ١/ ٥٥.
(٤) الكذَّان: الحجارة الرِّخْوة النَّخِرة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة كذذ ٣/ ٥٠٥، ومادَّة كذن ١٣/ ٣٥٧.
(٥) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ١/ ٤٥٦، ٤٥٧.



صورة (٦٧) الأقواس في ساحة المحراب

وبقريبٍ من ذلك يصفه ابن الوردي في كتابه (خريدة العجائب وفريدة الغرائب). وقد كانت ساحته تملؤها أشجار البرتقال والرمان؛ ليأكل منها الجائعون والقادمون إلى المدينَة من شتى البقاع! ومما يُحْزِن له القلب وتَدمع له العين أن هذا المسجد العظيم المهيب قد تَحَوَّل عقب سقوط الأندلس إلى كاتدرائية، وأصبح تابعًا للكنيسة، مع احتفاظه باسمه، وتَحَوَّلَتْ مئذنته الشاهقة إلى برج تنتصب فوقه أجراس الكنيسة لإخفاء طابعها الإسلامي، كما لا يزال يعلو جدرانه المنيعة نقوشٌ قرآنية تعكس عبقرية فنيَّة نادرة، وهو الآن من أشهر المواقع التاريخية في العالم كله.

٣) جامعة قرطبة:

لم يقتصر دور مسجد قرطبة على العبادة فقط، وإنما كان أيضًا **جامعة علميَّة** تُعَدُّ من أشهر جامعات العالم آنذاك، وأكبر مركز علمي في أوربا، ومن خلاله انتقلت العلوم العربية إلى الدول الأوربية، وعلى مدى قرون، وكان يُدرس في هذه الجامعة كل العلوم، وكان يُختار لها أعظم الأساتذة، وكان طلاب العلم يَفِدُون إليها من الشرق والغرب على السواء؛ مسلمين كانوا أو غير مسلمين. وقد احْتَلَّتْ حلقات الدرس والعلم أكثر من نصف المسجد، وكان للشيوخ راتبٌ جيد ليتفرَّغُوا للدرس والتأليف، وكذلك خُصِّصَتْ أموال للطلاب، ومكافآت ومعونات للمحتاجين؛ وهو الأمر الذي أثرى الحياة العلميَّة بصورة ملحوظة في ذلك الوقت وفي تلك البيئة، واستطاعت قرطبة أن تُخْرِجَ للمسلمين وللعالم الجمَّ الغفير من العلماء، وفي جميع مجالات العلوم، وكان منهم: الزهراوي (٣٢٥-٤٠٤هـ/ ٩٣٦-١٠١٣م) أشهر جَرَّاح، وطبيب، وعالم بالأدوية وتركيبها، وهناك أيضًا ابن باجه، وابن طفيل، ومحمد الغافقي (أحد مُؤَسِّسِي طبّ العيون)، وابن عبد البر، وابن رشد، والإدريسي، وأبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الأزدي، والقاضي القرطبي النحوي، والحافظ القرطبي، وأبو جعفر القرطبي، وغيرهم كثير.

* * *

المبحث الثالث

قرطبة.. المدينَة العصرية

للحال التي رأينا، وللحياة التي شاهدنا لا غَرْوَ أن تُصْبِحَ قرطبة (منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، وكأنها مدينة عصرية، تضارع المدن العالمية في الألفية الثالثة! وكيف العجب وقد انتشرت المدارس لتعليم الناس، وانتشرت المكتبات الخاصَّة والعامَّة، حتى صارت هي أكثر بلاد الله كُتبًا، وحتى غَدَتْ مركزًا ثقافيًّا ومجمعًا علميًّا لكل العلوم وفي شتى المجالات، وقد كان الفقراء يَتَعَلَّمُون في مدارس بالمجَّان على نفقة الحُكَّام أنفسهم؛ ولذا فليس عجيبًا أن نعلم أن جميع أفراد الشعب كان قد عرف القراءة والكتابة، **ولم يُوجَدْ في قرطبة شخص واحد لا يجيد القراءة والكتابة**[1]، في حين لم يَكُنْ يعرفها أرفع الناس في أوربا، باستثناء بعض رجال الدين!

وجدير بالذكر أن هذه النهضة العلمية والحضارية في مدينة قرطبة في ذلك الوقت، واكبها أيضًا نهضة إدارية؛ وذلك من خلال عدد من المؤسسات والنُّظُمِ الرائدة في الحكم؛ منها: الإمارة والوزارة، وقد تطوَّرَتْ أنظمة القضاء والشرطة والحِسْبة، وغيرها، وواكبتها أيضًا نهضة صناعية عظيمة؛ إذ تطورت فيها الصناعة كثيرًا، واشتهرت صناعات؛ مثل: صناعة الجلود، وصناعة السفن، وآلات الحرث، والأدوية، وغيرها، وكذلك استخراج الذهب والفضة والنحاس[2]!

أمَّا إذا نظرنا إلى الحياة المدنية والعصرية فيها، فنراها مُقَسَّمَة إلى خمس مدن، وكأنها خمسة أحياء كبرى، يقول المقري: «وبين المدينَة والمدينَة سور عظيم حصين حاجز، وكل مدينة مستقلَّة بنفسها، وفي كل منها من الحمامات، والأسواق، والصناعات... ما يكفي أهلها»[3].

كما تميزت قرطبة -كما يذكر ذلك ياقوت في معجم البلدان- بأسواقها الممتلئة بكافَّة

(١) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام ص٩٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٥/ ٢١٨.

(٣) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١/ ٥٥٨.

السلع، وكان لكل مدينة سوقٌ خاصٌّ بها[١].

ومن المقري نذكر بعض إحصائيات عن عمران قرطبة:

المساجد: انتهت مساجد قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل إلى ٤٩٠ مسجدًا، ثم زادت بعد ذلك إلى ٣٨٣٧ مسجدًا.

البيوت الشعبية: ٢١٣٠٧٧ بيتًا.

بيوت النخبة: ٦٠٣٠٠ بيت.

الحوانيت (المتاجر وما شابه): ٨٠٤٥٥ حانوتًا.

الحمامات العامة: ٩٠٠ حمام.

الأرباض (الضواحي): ٢٨ ضاحية[٢].

وهذه الأرقام كانت تزيد وتنقص باختلاف الأحوال السياسيَّة، وباختلاف روايات المؤرخين، غير أنها اختلافات على «مدى» الفخامة والجلالة والجمال، لا على أصل وجودها وتحقُّقِهَا.

وكان عدد سكان قرطبة في عهد الدولة الإسلامية زُهاء خمسمائة ألف نسمة[٣]! والجدير بالذكر أن عدد سكان قرطبة حاليًا يبلغ ٣١٠,٠٠٠ نسمة تقريبًا[٤]!

* * *

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٣٢٤.

(٢) المقري: نفح الطيب ١/ ٥٤٠ وما بعدها.

(٣) محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ص١٩.

(٤) موقع ويكيبيديا، الرابط: http://ar.wikipedia.org.

المبحث الرابع

قرطبة في عيون العلماء والأدباء

وقد طَرَقَ قرطبة في حدود سنة (٣٥٠هـ/ ٩٦١م) ابن حوقل، التاجر الموصلي، فقال يَصِفُها: «وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس لها في المغرب شبيهٌ في كثرة الأهل وسعة الرقعة، ويقال: إنها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كذلك فهي قريبة منها. وهي حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشرعان في نفس السور إلى طريق الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن أعالي البلد مُتَّصِلَة بأسافله من رُبُضِهَا[1]، وأبنيتها مشتبكة محيطة من شرقيها وشماليها وغربها وجنوبها، فهو إلى واديها، وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع، ومساكن العامَّة برُبُضِها، وأهلها متموِّلون[2] مُتَخَصِّصُون[3]»[4].

بل إن سكان قرطبة قد تميَّزُوا خاصَّة بأنهم أشراف الناس وعلماؤهم، وأرفعهم مكانةً! يقول في ذلك الإدريسي: «ولم تخلُ قرطبة قَطُّ من أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وتُجَّارها مياسير لهم أموال كثيرة وأحوال واسعة، ولهم مراكب سَنِيَّة وهممٌ عَلِيَّة»[5].

ويقول الحِميري: «قرطبة: قاعدة الأندلس، وأُمُّ مدائنها، ومستقرُّ خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تُذْكَر، وهم أعلام البلاد وأعيان الناس، اشتهروا بصحَّة المَذْهَبِ، وطيب المكسب، وحُسن الزيِّ، وعلوِّ الهمَّة، وجميل الأخلاق، وكان فيها أعلام العلماء وسادات الفضلاء»[6].

ويصفها ياقوت أيضًا فيقول: «مدينة عظيمة بالأندلس وَسَط بلادها، وكانت سريرًا لِمَلِكِهَا وقصبتها[7]، وبها كانت ملوك بني أمية، ومَعْدِن الفضلاءِ، ومنبع النبلاءِ

---

(١) الرُّبُض: جماعة الشجر الملتفّ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة ربض ٧/ ١٤٩.

(٢) تَمَوَّلَ الرجل: صار ذا مالٍ. انظر: الرازي: مختار الصحاح، مادَّة مول ص٦٤٢.

(٣) اختصَّ فلانٌ بالأمر، وتخصَّص له: إذا انفرد به. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة خصص ٧/ ٢٤.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٣٢٤.

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٢/ ٥٧٥.

(٦) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص٤٥٦.

(٧) قَصَبةُ البَلَد: مَدينَتُه، ووسطه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة قصب ١/ ٦٧٤، والزبيدي: تاج العروس، مادَّة قصب ٤/ ٤٣.

من ذلك الصُّقْع[(١)]»[(٢)].

ويحكي أبو الحسن بن بسَّام عنها قوله: «كانت منتهى الغاية، ومركز الراية، وأُمَّ القرى، وقرارة أهل الفضل والتُّقَى، ووطن أُولِي العلم والنُّهى، وقلب الإقليم، وينبوعَ مُتَفَجّر العلوم، وقبة الإسلام، وحضرة الإمام، ودار صوب العقول، وبستان ثمرة الخواطر، وبحر دُرَرِ القرائح؛ ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر؛ وبها انتشأت التأليفات الرائقة، وصُنِّفَتِ التصنيفات الفائقة؛ والسبب في ذلك -وتبريز القوم قديمًا وحديثًا هنالك على مَنْ سواهم- أن أُفُقَهُمْ القرطبيّ لم يشتمل قطُّ إلاَّ على أهل البحث والطلب، لأنواع العلم والأدب. وبالجملة فأكثر أهل بلاد هذا الأفق -يعني قرطبة خاصةً والأندلس عامَّة- أشراف عرب المشرق افتتحوها، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها؛ فبقي النسل فيها بكل إقليم، على عرقٍ كريم، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر»[(٣)].

ويَصِفُها وأَهْلَهَا ابن الوردي في خريدة العجائب فيقول: «وأهلها أعيان البلاد، وسراة الناس في حسن المآكل والملابس والمراكب وعلو الهمَّة، وبها أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وأجِلاَّء الغزاة وأمجاد الحروب». ثم قال بعد أن وصف مسجدها وقنطرتها: «ومحاسن هذه المدينَة أعظم من أن يحيط بها وصف»[(٤)].

كانت هذه هي إحدى مُدُن الحضارة الإسلاميَّة التي ساهمت في تَقَدُّم مسيرة الإنسانية، ودفع عجلتها إلى الأمام. والحقيقة أن قرطبة ليست الوحيدة في ذلك، ولو كان حديثنا عن بغداد، أو دمشق، أو القاهرة، أو البصرة، أو غيرها وغيرها، لكان على نفس الدرجة من العجب أو أشدَّ، ولا غَرْوَ! فهذه حضارة المسلمين، أعظم حضارات الدنيا، ودُرَّة الجبين في تاريخ الإنسانية الطويل.

***

(١) الصُّقْعُ: ناحيةُ الأَرضِ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة صقع ٨/ ٢٠١.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٣٢٤.

(٣) أبو الحسن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١/ ٣٣.

(٤) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص١٢.



أثر الحضـــارة الإسلامية
فى الحضارة الأوربية

خلود الحضارات إنما يكون بمقدار ما تُقَدِّمُه في تاريخ الإنسانية في مختلف نواحي الفكر والعلوم والأخلاق من آثار خالدة، وإذ قد علمنا الدور العظيم الذي قَدَّمَتْهُ وأسهمت به الحضارة الإسلامية في تاريخ التقدُّم الإنساني، فبإمكاننا هنا استجلاء واستقراء هذه الآثار فيما وصلتْ إليه أوربا، أو النهضة والحضارة الأوربية؛ إذ إن ما أنجزته تلك الحضارة الأوربية كان بتأثيرٍ من الحضارة الإسلامية التي كانت سابقة عليها، ولا غَرْوَ، فإن التاريخ الأوربي الحديث إنما هو الامتداد الطبيعي لتاريخ عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، لم يفصل بينهما فاصل، ولعلَّ بيان ذلك كما في الفصول التالية:

- **الفصل الأول: معابر الحضارة الإسلامية إلى أوربا**
- **الفصل الثاني: مظاهر تأثُّر الحضارة الأوربية بالحضارة الإسلامية**
- **الفصل الثالث: شهادات المنصفين الغربيين في تقدير الحضارة الإسلامية**

الفصل الأول

معابر الحضارة الإسلامية إلى أوربا

في اتِّصال الحضارة الإسلامية بالغرب الأوربي المسيحي خلال العصور الوسطى - والتي كانت تمرُّ خلالها أوربا بفترة ظلام دامس- يكاد يُجْمِعُ المؤرِّخُون أن هذا الاتصال تَمَّ من طرق ثلاثة رئيسية، اختلفت فيما بينها من حيث النشاط وكَمِّيَّة المنقول الثقافي؛ وهذه المعابر كما في المباحث التالية:

- المبحث الأول: الأندلس
- المبحث الثاني: صقلية
- المبحث الثالث: الحروب الصليبية

المبحث الأول

الأندلس

وهي معبر الحضارة الإسلامية الرئيسي، والجسر الأهمُّ في عملية انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا، وذلك في شتَّى المجالات العلمية، والفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، وقد بقيت الأندلس -وهي جزء من أوربا- مُدَّة ثمانية قرون (٩٢-٨٩٧هـ/ ٧١١-١٤٩٢م) منبر إشعاع حضاري خلال وجود المسلمين فيها، وحتى أثناء ضعفها السياسي، وظهور دول ممالك الطوائف، وذلك بوساطة جامعاتها، ومدارسها، ومكتباتها، ومصانعها، وقصورها، وحدائقها، وعلمائها، وأدبائها، حتى غدتْ محطَّ أنظار الأوربيين التي كانت على صلات وثيقة ومستمرَّة ببلدانهم[١].

فما إن استقرَّ المسلمون في إسبانيا حتى تَفَرَّغُوا للعلم، وانصرفوا إلى العناية بالعلوم والآداب والفنون، وقد فاقوا في ذلك ما وصل إليه إخوانهم في المشرق من تَقَدُّمٍ، وابتكروا الجديد والعظيم في كل العلوم؛ وهو ما أتاح لأوربا موردًا عَذْبًا ظَلَّت تنهل منه منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي حتى النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر.

يقول جوستاف لوبون (Gustav Lebon): «ولم يَكَدِ العرب يُتِمُّونَ فتح إسبانيا حتى بدءوا يقومون برسالة الحضارة فيها؛ فاستطاعوا في أقلَّ من قرن أن يُحْيُوا مَيِّتَ الأرضين، ويُعَمِّرُوا خراب المدن، ويُقيموا فخم المباني، ويُوَطِّدُوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، **ثم شرعوا يتفرَّغون لدراسة العلوم والآداب، ويُتَرْجِمون كتب اليونان واللاتين، ويُنْشِئُون الجامعات التي ظَلَّتْ وحدها ملجأً للثقافة في أوربا زمنًا طويلاً**»[٢].

وقد كان لسياسة التسامح الإسلامي أثرها العظيم في نفوس أهل الذِّمَّة؛ من اليهود والنصارى؛ حيث أقبل المستعربون الإسبان على تعلم اللغة العربية واستخدامها في حياتهم، بل فَضَّلُوها على اللاتينية، كما تتلمذ كثير من اليهود على أساتذتهم العرب.

---

(١) هاني المبارك وشوقي أبو خليل: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية ص٥١، ٥٢.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٢٧٣.

وقد نشطت حركة الترجمة عن العربية نشاطًا كبيرًا، وخاصة في مدينة طليطلة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وكانت الترجمة تتمُّ من العربية إلى الإسبانية، ومن ثَمَّ إلى اللاتينية، أو من العربية إلى اللاتينية مباشرة، ولم تقتصر الترجمة على مؤلَّفات العلماء العرب في كل مناحي المعرفة فحسب، وإنما شملت المؤلَّفات الإغريقية الكبرى التي كانت قد تُرْجِمَتْ في المشرق قبل ذلك بقرنين؛ فتُرْجِمَتْ بعضُ مؤلَّفات اليونانيين مثل: كتب جالينوس، وأبقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وإقليدس، وغيرهم.

وكان من أشهر مترجمي طليطلة: جيرارد الكريموني ويسمَّى الطليطلي، قَدِمَ إلى طليطلة من إيطاليا سنة (١١٥٠م)، وتُنْسَبُ إليه ترجمة ما يقرب من مائة كتاب، بينها واحد وعشرون كتابًا طِبِّيًّا، منها المنصوري للرازي، والقانون لابن سينا، ويبدو أن بعضها من إنتاج تلاميذه بإشرافه، وبعضها بالاشتراك مع غيره خاصَّة (غالب GALIPUS) وهو مستعرب.

وقام بالترجمة كذلك في القرن الثاني عشر إسبانيون، وآخرون قدموا إلى إسبانيا، ثم أنشأ ألفونسو العاشر ملك قشتالة (١٢٥٢-١٢٨٤م) عددًا من مؤسَّسات التعليم العالي، وشجع الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وأحيانًا إلى اللغة القشتالية[١].

يقول سارتون: «حَقَّقَ المسلمون -عباقرة الشرق- أعظم المآثر في القرون الوسطى، فكُتِبَتْ أعظمُ المؤلَّفات قيمة، وأكثرها أصالة، وأغزرها مادَّة باللغة العربية، وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغةَ العلم الارتقائية للجنس البشري، حتى لقد كان ينبغي لأي كائن إذا أراد أن يُلِمَّ بثقافة عصره وبأحدث صُوَرِهَا أن يَتَعَلَّم اللغة العربية، ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلِّمين بها، وأعتقد أننا لسنا في حاجة أن نُبَيِّنَ منجزات المسلمين العلمية في الرياضيات، والفيزياء، وعلم الفلك، والكيمياء، والنبات، والطبِّ، والجغرافيا»[٢].

---

(١) انظر: محمود الجليلي: تأثير الطب العربي في الحضارة الأوربية، الرابط:
http://www.islamset.com/arabic/aislam/civil/civil1/algalely.html

(٢) حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا ص٨، وانظر: أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ص١١٠، ١١١.

وعن مكانة قرطبة خاصَّة في انتقال الحضارة الإسلامية يقول جوان براند تراند جون: «إن قرطبة التي فاقت كل حواضر أوربا مدنيةً -أثناء القرن العاشر- كانت في الحقيقة محطَّ إعجاب العالم ودهشته، كمدينة فينيسيا في أعين دول البلقان، وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينَة؛ التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعمائة حمَّام عمومي؛ فإنْ أدركتِ الحاجةُ حُكَّام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جَرَّاحٍ، أو مهندس، أو معماري، أو خائط ثياب، أو موسيقي **فلا يتَّجِهُون بمطالبهم إلاَّ إلى قرطبة**»[١].


صورة (٦٨) ليوبولد فايس (محمد أسد)

ويؤكِّد المفكر ليوبولد فايس[٢] أثر قرطبة في التدشين لعصر النهضة قائلاً: «لسنا نبالغ إذ قلنا: إنَّ العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه لم يُدَشَّن في مدن أوربا، ولكن في المراكز الإسلامية؛ في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة»[٣].

وحول الأندلس بصفة عامَّة كمَعْبَر لاتصال الحضارة الإسلامية بالغرب وانتقالها إليه تقول زيجريد هونكه: «ولم تكن جبال البرانس لتمنع تلك الصلات، ومن هنا وجدت الحضارة العربية الأندلسية طريقها إلى الغرب»[٤].

وتضيف قائلة: «وقد حمل مشعل الحضارة العربية عَبْرَ الأندلس ألوفٌ من الأسرى الأوربيين، عادوا من قرطبة وسرقسطة، وغيرها من مراكز الثقافة الأندلسية، كما مثَّل تجار ليون وجنوا والبندقية ونورمبرج دور الوسيط بين المدن الأوربية والمدن الأندلسية، واحتكَّت ملايين الحجاج من المسيحيين الأوربيين في طريقهم إلى سنتياجو بالتُّجَّار العرب والحجاج المسيحيين القادمين من شمال الأندلس، كما ساهم سيل الفرسان، والتجار،

(١) جون براند تراند: إسبانيا والبرتغال، دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام بإشراف (أرنولد) ص٢٧.
(٢) ليوبولد فايس: (١٩٠٠ - ١٩٩٦م) نمساوي يهودي الأصل، درس الفلسفة والفن في جامعة فيينا ثم اتجه للصحافة فبرع فيها، وغدا مراسلاً صحفيًّا في الشرق العربي والإسلامي، أسلم وتسمى باسم محمد أسد.
(٣) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص٤٠.
(٤) زيجريد هونكه: شمس العرب ص٣١.

ورجال الدين المتدفِّقين سنويًّا من أوربا إلى إسبانيا في نقل أسس الحضارة الأندلسية إلى بلادهم، وحمل اليهود من تُجّار، وأطباء، ومتعلِّمِينَ ثقافة العرب إلى بلدان الغرب، كما اشتركوا في أعمال الترجمة بمدينة طليطلة، ونقلوا عن العربية عددًا كبيرًا من القصص والأساطير والملاحم»[1].

وهكذا كانت الأندلس مركزًا مهمًّا من مراكز الحضارة الإسلامية، وكانت من أهمِّ معابر انتقالها إلى أوربا.

* * *

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب ص٥٣٢.

المبحث الثاني

صقليـــــــة

كانت صقلية كذلك من أهمِّ معابر الحضارة الإسلامية إلى أوربا، ومعها -أيضًا- جنوب إيطاليا؛ وقد فتح المسلمون بالرمو عاصمة صقلية سنة (٢١٦هـ/ ٨٣١م)، وظَلُّوا يحكمونها حتى سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) أي ما يقارب ٢٦٠ سنة، طُبِعَتْ فيها الحياةُ في صقلية بالطابع العربي الإسلامي؛ حيث اهتمَّ المسلمون خلالها بالعمران، وإدخال مظاهر الحضارة إليها؛ من مساجد، وقصور، وحمامات، ومستشفيات، وأسواق، وقلاع، ودخلت فيها صناعات مهمَّة؛ مثل: الورق، والحرير، والسفن، واستخراج المعادن، فتقدَّمت العلوم والفنون بها، ووفد طلاب العلم من أوربا إليها، فتَحَوَّلت بعد ذلك إلى مركز مهمٍّ من مراكز انتقال التراث الإسلامي إلى الغرب، وبدأت فيها حركة ترجمة من العربية إلى اللاتينية، شبيهة بتلك التي قامت في الأندلس.

وعلى الرغم من أن الحكم الإسلامي للجزيرة قد انتهى في أواخر القرن الحادي عشر، إلاَّ أن الحضارة الإسلامية فيها استمرَّت في ظِلِّ رعاية خلفائهم النورمان، الذين عاش في كنفهم العديد من العلماء المسلمين؛ أمثال العالم الجغرافي محمد الإدريسي، الذي رسم لروجر الثاني (١١٣٠- ١١٥٤م) خريطة للعالَمِ المعروف في عصره على دائرة فِضِّيَّة مسطَّحة، كما ألَّف له كتاب: (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، الذي يصف هذه الخريطة، ويُعَلِّق المستشرق الروسي كراتشوفسكي[1] على هذا العمل في كتابه: (تاريخ الأدب العربي الجغرافي) بقوله عن روجر: «وتكليفُه عالمًا عربيًّا بالذات وَضْعَ وَصْفٍ للعالَمِ المعروف آنذاك لدليلٌ ساطع على تفوُّق الحضارة العربية في ذلك العهد، وعلى اعتراف الجميع بهذا التفوُّق، وقد كان بلاط النورمان بصقلية نصف شرقي، هذا إذا لم يكن أكثر من النصف»[2].

---

(١) كراتشوفسكي: مستشرق روسي ولد في مارس ١٨٨٣م، درس اللغات الكلاسيكية اليونانية واللاتينية، بدأ بتعلم اللغة العربية بنفسه. التحق بكلية اللغات الشرقية في جامعة سان بترسبرج، ودرس التاريخ الإسلامي على يد المستشرق بارتولد.

(٢) نقلاً عن: مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٢٨، وانظر في قصة تأليف (نزهة المشتاق) للإدريسي، كذلك زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٤١٦، ٤١٧.

فقد جذبت الثقافة الإسلامية الجديدة الأوربيين، واستمرَّ تأثيرها في أثناء الحكم النورماندي فكانت حياة البلاط في صقلية -خاصة في عهد روجر الثاني وفردريك الثاني- تَتَّسم بالرفاهة والأبهة التي قُصِدَ بها أن تُقَارِبَ قرطبة، واتخذ المَلِكَان الملابس وطريقة الحياة العربية، وكان لحُكَّام صقلية النورمانديين مستشارون وموظَّفُون من العرب والمسلمين، وانضمَّ تحت لوائهم علماء من بغداد وسوريا، والأكثر من ذلك أن يتخذ ثلاثة من ملوك النورمان في صقلية ألقابًا عربية؛ حيث حمل روجر الثاني لقب «المعتز بالله»، وحمل وليام الأول لقب «الهادِي بأمر الله»، وحمل وليام الثاني لقب «المستعز بالله» وقد ظهرت هذه الألقاب في نقوشهم[1].

وكان فردريك الثاني (١١٩٤- ١٢٣٠م) قد تُوِّجَ إمبراطورًا للإمبراطورية الرومانية المقدَّسة سنة (١٢٢٠م)، ولكنه آثر السكن في صقلية، وكان له اهتمام خاصٌّ بالعلوم، وشَجَّعَ المناقشات العلمية والفلسفية، وهو الذي أسس جامعة نابولي سنة (١٢٢٤م)، وكان فيها عدد كبير من المخطوطات العربية، وانتشرت الثقافة العربية الإسلامية في جامعات أوربا، بما في ذلك باريس وإكسفورد، وتمَّتْ ترجمة عدد من الكتب من العربية إلى اللاتينية، ومن المترجمين إسطيفان الأنطاكي سنة (١١٢٧م)، وأدلرد الإنجليزي[2] حوالي سنة (١١٣٣م)[3]، ثم مايكل سكوت[4] الذي ترجم الكتب للملك فردريك الثاني، ومن بينها كتب ابن رشد.

وقد اهتمَّ ملك نابولي تشارلز الأول بترجمة الكتب الطِّبِّيَّة العربية إلى اللغة اللاتينية، وأقام مؤسسة تضمُّ المترجمين الفعليين؛ مثل: فرج بن سالم، وموسى من سالرنو، وكذلك النُّسَّاخ والمصلحون، وتمَّتْ ترجمة كتاب (الحاوي) للرازي، و(تقويم الأبدان) لابن جزلة.

وكانت صقلية مُهَيَّأة لنقل الفكر القديم والمعاصر، فكان فيها المُتكَلِّمُون بالعربية

---

(١) عزيز أحمد: تاريخ صقلية ص٧٦.

(٢) أدلرد الإنجليزي: هو أدلرد أوف باث (١٠٧٠-١١٢٥م) ولد في مدينة باث ونسب إليها وطلب العلم في تور والأندلس وصقلية، وعند عودته لإنجلترا عين معلمًا للأمير هنري، الذي أصبح فيما بعد الملك هنري الثاني.

(٣) نجيب العقيقي: المستشرقون ١/ ١١١.

(٤) مايكل سكوت: (١١٧٥ - ١٢٣٥م) اسكتلندي باحث ورياضي وطبيب ومنجم وترجم عددا من أعمال أرسطو من العربية والعبرية، ودرس مع العرب في الأندلس وعمل في صقلية في بلاط الإمبراطور فردريك الثاني.

واليونانية من سكانها، وبعض المثقفين الذين عَرَفُوا اللاتينية؛ فقد كانت تابعة إلى الإمبراطورية البيزنطية وفيها بعض المعالم الثقافية اليونانية، وقد سَهَّل وجود اللغات الثلاث جنبًا إلى جنب انتقال المعرفة العربية كثيرًا، وقبل هذا كانت مدرسة سالرنو مركزًا لتدريس الطبِّ ما يَقْرُب من ثلاثمائة سنة (٩٠٠-١٢٠٠م)، وتقع جنوب إيطاليا، وعلى صلة قوية بصقلية، وأهمُّ ما في تاريخها هو قسطنطين الإفريقي من أصل عربي؛ وُلِدَ بتونس، وازدهر من سنة (١٠٦٥ إلى ١٠٨٥م)، وترجم عددًا كبيرًا من الكتب الطبية من العربية إلى اللاتينية، ويُنْسَبُ إليه أربعون أثرًا؛ منها: كتاب (كامل الصناعة الطبية) (الكتاب الملكي) لعلي بن عباس (ت ١٠١٠م)، وكتب لابن الجزار، وإسحاق بن عمران، وإسحاق بن سليمان، وثلاثتهم من موطنه الأصلي تونس.

ولقد أغفل قسطنطين ذكر أسماء المؤلفين الأصليين لبعض الكتب العربية؛ ولذلك تعليلاتٌ مختلفة، ولكن ذلك لا يُقَلِّل من أهميته؛ باعتباره أَوَّل مُتَرْجِم أدخل العلم الإسلامي إلى أوربا، وسبب انتعاش مدرسة سالرنو، وكانت اللغة العربية من بين لغات التدريس فيها، ولقد عاصرت هذه المدرسة كبار الأطباء والمؤلفين العرب المسلمين؛ فعاصرت الرازي (ت ٩٢٥م)، وابن الجزار (ت ٩٧٥م)، وعلي بن عباس (ت ١٠١٠م) [1].

يقول الأستاذ كويل يونج في صقلية: «وكانت صقلية ميدانًا للتلاقي الحُرِّ بين لغات اليونان واللاتين وعرب البربر ومعارفهم، وكانت النتيجة نشوء ثقافة مختلطة، كان لها -بفضل تشجيع روجر الثاني وفردريك الثاني- نصيبٌ كبير في نقل أحسن ما في المدنيَّة الإسلامية إلى أوربا عن طريق إيطاليا، فقد صارت بالرمو في القرن الثالث عشر مثل طليطلة في القرن الثاني عشر مركزًا عظيمًا للترجمة ونَقْلِ الكتب العربية إلى اللاتينية» [2].

كما احتفظ النورمان بأصحاب المهن من المسلمين لثقتهم الكبيرة فيهم [3]، واحتفظوا كذلك بنفس النظم الإدارية المالية التي كان يستخدمها المسلمون، بدايةً من ديوان

---

(١) انظر: محمود الجليلي: تأثير الطب العربي في الحضارة الأوربية، الرابط:
http://www.islamset.com/arabic/aislam/civil/civil1/algalely.html

(٢) نقلاً عن مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٢٨.

(٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص٢٩٨.

التحقيق[١] وديوان المعمور[٢] وانتهاءً بديوان الفوائد[٣]، وكانت سجلات هذه الدواوين تُكتب بالعربية[٤].

وفي مجال الفنون العسكرية حرص النورمان على تجنيد العديد من المسلمين، فكان ذلك مجالاً خصبًا لانتقال مهارات القتال، بل والصناعات الحربية مثل المجانيق وأبراج الحصار[٥].

وهكذا كانت صقلية وجنوب إيطاليا مَعْبَرًا ثانيًا مهمًّا من معابر انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا.

* * *

(١) هو ديوان الإدارة المالية للجزيرة.
(٢) وهو ديوان ينبثق من ديوان التحقيق، ويختص ببيت المال (الخزانة).
(٣) وهو ديوان يختص بتسجيل بيع الأراضي.
(٤) ل. جينواردي: الدفاتر النورمانية ١/ ١٥٩-١٦٤.
(٥) عزيز أحمد: تاريخ صقلية ص٧٧ بتصرف.

المبحث الثالث

الحروب الصليبية

وهي حروب استمرَّت قُرابة قرنين من الزمان، ابتداءً من نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي سنة (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م)، وحتى سقوط آخر معقل للصليبيين في أيدي المماليك سنة (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م). وتُعَدُّ هذه الفترة من أهمِّ نقاط الاتصال، أو نقاط التأثُّر والنقل والاقتباس؛ فعلى الرغم من أن الصليبيين قَدِمُوا إلى المشرق الإسلامي طُلاَّبَ حَرْبٍ لا طُلاَّبَ عِلْمٍ، إلاَّ أنهم تأثَّرُوا بحضارة المسلمين، ونقلوا ما استطاعوا نقله من إنجازاتهم إلى أوربا، التي كانت تعاني من تَخَلُّفٍ وانحطاط.



صورة (٦٩) جُوستاف لوبون

يقول جوستاف لوبون: «كان اتصال الغرب بالشرق مُدَّةَ قرنين من أقوى العوامل على نُمُوِّ الحضارة في أوربا... وإذا أراد المرء تَصَوُّر تأثير الشرق في الغرب وَجَبَ عليه أن يتمثَّل حال الحضارة التي كانت عليها شعوبها المتقابلة؛ فأمَّا الشرق فكان يتمتَّع بحضارة زاهرة بفضل العرب، وأمَّا الغرب فكان غارقًا في بحر من الهمجية»[1].

وفي هذا الصدد فإن المقريزي يذكر[2] أنه لما غادر الإمبراطور فريدريك الثاني القدس إلى عكا في طريق عودته إلى بلاده سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)؛ بعث إلى الكامل الأيوبي بمسائل أَشْكَلَتْ عليه في الهندسة والرياضيات -وكان الكامل يُحِبُّ العلم، ويُدْنِي إليه العلماءَ، ويمتحنهم ويُغْدِقُ عليهم- فعرض الملك الأيوبي تلك المسائل على أَحَدِ علماء دولته وهو الشيخ علم الدين قيصر -وهو عالم رياضي ومهندس- ثم أرسل الكامل جوابها إلى فريدريك، ومن هذه المسائل التي طرحها الإمبراطور:

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٣٣٤.
(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٣٥٤.

- لماذا تبدو الرماح على غير استقامتها إذا غُمِر جزء منها في الماء؟
- لماذا يرى ضِعاف البصر خيوطًا تبدو كالذباب أو البعوض أمام العين[(١)]؟

فالأوربيون الذين جاءوا إلى البلاد الإسلامية في موجات متلاحقة، وَلَغَتْ في سفك الدماء، وخاضت في دماء الأبرياء، بدون رحمة أو شفقة، حتى إذا جُوبهت بالجند المسلمين رأت سيوفًا مُعَلَّمة، وقلوبًا مُؤَدَّبَة، ونفوسًا رحيمة، ليست من رسالتها الاستعباد والقهر والظلم، فرأى الصليبيون المساواة والعدل والإخاء؛ فثاروا على نظام الإقطاع وامتهان الإنسان عندهم، وأنكروا تَسَلُّطَ الكنيسة وجبروتها، وكافحوا انتقال الثروة إلى أيدي بعض الأمراء وسماسرة الملوك، واغترفوا ما وجدوه من عِلْمٍ وفنٍّ وحضارة، فانتقل إليهم كثيرٌ من الصناعات، والنباتات، والعقاقير، والأصباغ، وفنّ العمارة والهندسة، وبناء الحصون والقلاع، كما انتقل كثير من التقاليد الإسلامية في الملبس والمأكل وفي الأُسْرَةِ إلى أوربا، ورجع الصليبيون وكأن صاعقة كهربائية نَبَّهَتْهُم إلى سوء حالتهم، وجهالة فكرهم، وضآلة مجتمعهم؛ فانتفضوا يبحثون عن العلم والمعرفة، ويبغون الإصلاح الاجتماعي، والتقدُّم الفكري والصناعي والخُلُقِيِّ[(٢)].

يقول جوستاف لوبون: «إن تأثير الشرق في تَمْدِين الغرب كان عظيمًا جدًّا بفعل الحروب الصليبية، وإن ذلك التأثير كان في الفنون والصناعات والتجارة أشدَّ منه في العلوم والآداب، وإذا ما نظرنا إلى تَقَدُّم العَلاقات التجارية باطِّرَاد بين الغرب والشرق، وإلى ما نشأ عن تحاكِّ الصليبيين والشرقيين من النموِّ في الفنون والصناعة - تجلَّى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحُّش، وأَعَدُّوا النفوس إلى التقدُّم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوربا تعوِّل عليها، فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم»[(٣)].

***

(١) انظر: عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية ص٩٨.
(٢) انظر: توفيق يوسف الواعي: الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ١/ ٥٣١، ٥٣٢.
(٣) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٣٣٩.

الفصل الثاني
مظاهر تأثُّر الحضارة الأوربية بالحضارة الإسلامية

من اللافت للنظر في تعاقب الحضارات أنَّ اللاحِقَ يبني على السابق ويَقُومُ عليه، وليس هناك من حضارة تبدأ من الصفر، ومن هنا فقد كان لحضارة الإسلام عظيم الأثر في صرح الحضارة الأوربية الحديثة، التي جاءت لاحقة عليها، وقد جاء تأثير الحضارة الإسلامية في أوربا شاملاً ميادين كثيرة، ومهيمنًا على جوانب متعَدِّدَة، حتى عمَّ مستويات الحياة الأوربية جميعًا، ونال أكثر المجالات والأنظمة؛ وفي مُقَدِّمَتها العقيدة، والجوانب العلمية، واللغوية، والأدبية، والتشريعية، والاجتماعية، والسياسية، وغيرها.

وفي المباحث التالية يمكن إدراك هذه الآثار:

- **المبحث الأول: في ميدان العقيدة والتشريع**
- **المبحث الثاني: في مجال العلوم**
- **المبحث الثالث: في مجال اللغة والأدب**
- **المبحث الرابع: في مجال التربية والمعاملات**
- **المبحث الخامس: في مجال الفنون**

المبحث الأول
في ميدان العقيدة والتشريع

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد وَسَطَ مجتمع وعالَمٍ يَعِجُّ بالشِّرْكِ والوثنية، فأفرد التوحيد لله، ونزَّهَهُ عن التجسيم والنقص، وحرَّر الإنسان من عبودية غيره سبحانه، ولم يجعل بينه وبين الله واسطة ولا كهنوتية.. وما إن اطَّلَع العالم بعد ذلك، وخاصَّة عصر النهضة في الحضارة الأوربية، على تلك العقيدة الصافية، حتى «أصبح أهل كل دين يُؤَوِّلون ما في نظامهم الديني من شِرْكٍ، أو مظاهر شِرْكٍ ووثنية، ورسومها وتقاليدها، ويلوون بذلك ألسنتهم، ويجتهدون في التعبير عنه وشرحه بما يقرب إلى التوحيد الإسلامي ويُشبهه»[١].

يقول أحمد أمين: ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام؛ من ذلك أنه في القرن الثامن الميلادي/ الثاني والثالث الهجريين، ظهرت في سبتمانيا[٢] حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسس، وأن ليس للقسس حقٌّ في ذلك، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده في غفران ما ارتكب من إثم، والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار، فطبيعيٌّ أن لا يكون فيه اعتراف.

وكذلك ظهرت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية متأثِّرة في ذلك بالإسلام؛ ففي القرنين الثامن والتاسع للميلاد ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل، فقد أصدر الإمبراطور الروماني (ليو الثالث) أمرًا سنة (١٠٨هـ/ ٧٢٦م) يُحَرِّم فيه تقديس الصور والتماثيل، وأمرًا آخر سنة (١١٢هـ/ ٧٣٠م) يَعدُّ الإتيان بهذا وثنية، وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع.

ووُجِدَتْ كذلك طائفة من النصارى شرحت عقيدة التثليث بما يَقْرُب من الوحدانية، وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام[٣].

ويمكن لمن يُطَالِع تاريخ أوربا الديني وتاريخ الكنسية النصرانية أن يلتمس تأثير الإسلام العقلي في نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسقفي السائد، أمَّا دعوة (لوثر) الإصلاحية الكبيرة، فقد كانت -على عِلاَّتها- أبرزَ مظهرٍ للتأثُّر بالإسلام وبعض

---

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص١٠٥.

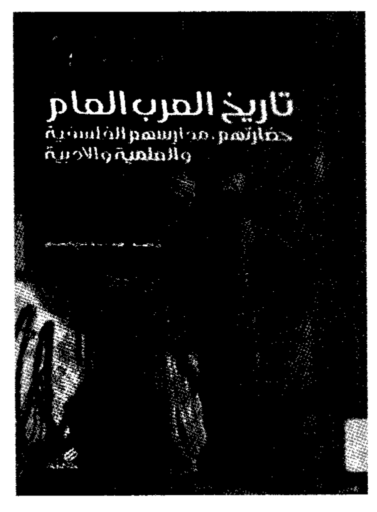
(٢) سبتمانيا: مقاطعة فرنسية قديمة في الجنوب الغربي لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط.

(٣) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام ١/ ٣٨١، ٣٨٢.

عقائده كما اعترف المؤرخون[١].

فكانت العقيدة الإسلامية إذن -بوضوحها ونقائها- مؤثِّرَة غاية التأثير في عقائد كثير من غير المسلمين، وأدَّتْ إلى تصحيح الكثير والكثير من المفاهيم التي انحرفت مع مرور الوقت في كل بقاع العالم.

أما في ميدان القوانين والتشريع، فقد كان لاتصال الطلاب الغربيين بالمدارس الإسلامية في الأندلس وغيرها أثر كبير في نقل مجموعة من الأحكام الفقهية والتشريعية إلى كُلٍّ لغاتهم، ولم تكن أوربا في ذلك الحين على نظام مُتْقَنٍ ولا قوانين عادلة، حتى إذا كان عهد نابليون في مصر ترجم أشهر كتب الفقه المالكي إلى اللغة الفرنسية، ومن أوائل هذه الكتب (كتاب خليل) الذي كان نواة القانون المدني الفرنسي، وقد جاء متشابهًا إلى حدٍّ كبير مع أحكام الفقه المالكي[٢].



صوة (٧٠) غلاف كتاب سيديو

يقول العلامة سيديو[٣]: «والمذهب المالكي هو الذي يستوقف نظرنا على الخصوص لِمَا لنا من الصلات بعرب إفريقية، وعهدت الحكومة الفرنسية إلى الدكتور بيرون في أن يُتَرْجِمَ إلى الفرنسية كتاب (المختصر في الفقه) للخليل بن إسحاق بن يعقوب المتوفَّى سنة (٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م)»[٤].

بل إن الحضارة الإسلامية شاركت في قوانين أوربا ذاتها؛ وفي ذلك يقول المؤرِّخ الإنجليزي (ويلز[٥]) في كتابه: (ملامح تاريخ الإنسانية): «إن أوربا مَدِينَـةٌ للإسلامِ بالجانب الأكبر من قوانينها الإدارية والتجارية»[٦].

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص١٠٦.

(٢) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٤٤.

(٣) سيديو: (١٢٢٣ - ١٢٩٢ هـ/ ١٨٠٨ - ١٨٧٥م) مستشرق فرنسي. مولده ووفاته بباريس، ومن آثار سيديو العربية، نشره كتاب (جامع المبادئ والغايات في الآلات الفلكية) لعلي المراكشي، مع ترجمة فرنسية.

(٤) سيديو: تاريخ العرب العام، تعريب عادل زعيتر ص٣٩٥.

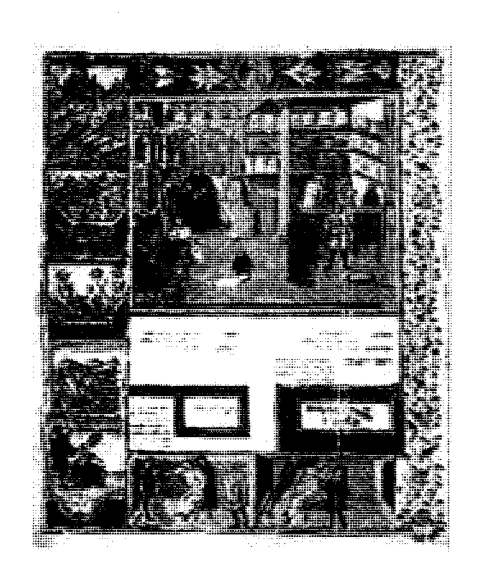
(٥) ويلز: هربرت جورج ويلز (١٨٦٦ - ١٩٤٦م) أديب، مفكر، صحفي، عالم اجتماع ومؤرخ إنجليزي. يعتبر من مؤسسي أدب الخيال العلمي.

(٦) نقلاً عن محمد عثمان عثمان: محمد في الآداب العالمية المنصفة ص٧٦.

المبحث الثاني
في مجال العلوم

كان تأثير المسلمين في الغرب في مجال العلوم؛ من طب، وصيدلة، ورياضيات، وكيمياء، وبصريات، وجغرافيا، وفلك، وغيرها، من أبلغ مظاهر التأثير في الحضارة الأوربية؛ حتى اعترف كثير من الغربيين المنصفين بأن المسلمين ظَلُّوا أساتذة أوربا مدَّة لا تقل عن ستمائة سنة!

وقد كان من صور هذا التأثير القيام بترجمة كتب علماء المسلمين أكثر من مَرَّة، والتعويل عليها كمصادر أساسية، وكُتب عُمَدٍ طيلة عدَّة قرون للتدريس في الجامعات الغربية؛ فيوم أن كان الطبُّ -على سبيل المثال- قد بلغ القمَّة عند المسلمين، كانت الكنيسة الأوربية تمنع العلاج؛ لأن المرض (عقاب من الله)! وقد عرفوا بعدها الطبَّ والعلاج عن طريق ترجمة كتب ابن سينا والرازي وغيرهما، فتُرْجِمَ - على سبيل المثال لا الحصر- كتاب (القانون) في الطب لابن سينا في القرن الثاني عشر، وطُبع عدَّة مرات؛ ليكون أساسًا للدراسات في جامعات فرنسا وإيطاليا[1]!



صورة (٧١) نسخة مترجمة من كتاب القانون

وقد ذكرت مجلة بريد اليونسكو عام (١٩٨٠م) أن كتاب (القانون) في الطب لابن سينا، بَقِيَ يُدَرَّس في جامعة بروكسل حتى سنة (١٩٠٩م)، وتابع المقال تعليقًا للكاتب أوسلر[2] يقول: لقد عاش كتاب (القانون) مدَّة أطول من أي

(١) انظر: جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٩٠.

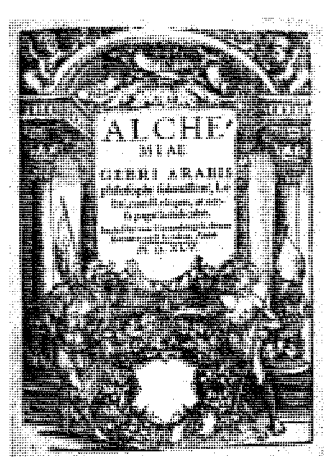
(٢) أوسلر: السير ويليام أوسلر طبيب كندي. ويعتبر واحداً من أعظم رموز الطب في العصر الحديث ووُصف بأنه أبو الطب الحديث. وكان أخصائي علم أمراض ومعلم ومُشخص أمراض ومثقفًا ومؤرخًا.

كتاب آخَرَ كمرجعٍ أوحد في الطبِّ، ولقد وصلت عدد طبعاته إلى خمس عشرة طبعة في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر. ويضيف أوسلر: أن ابن سينا مَكَّن علماء الغرب من الشروع بالثورة العلميَّة في مجال الطبِّ، والتي بدأت فعلاً في القرن الثالث عشر، وبلغت مرحلتها الأساسية في القرن السابع عشر(١).

ومثل (القانون) تُرجم أيضًا كتاب (الحاوي) وكتاب (المنصوري) للرازي، وذلك في نهاية القرن الثالث عشر، وتخليدًا واعترافًا بفضله أَطْلَقَتْ جامعة برنستون الأمريكية اسم الرازي على أكبر أجنحتها.

هذا، وقد أثَّرت أبحاث أبي الريحان البيروني في الثِّقَلِ النوعي في الحضارة الغربية أيَّما تأثير، وكان الخازني مِفْتَاحًا علميًّا بالنسبة لتورشللي في البحث في وزن الهواء وكثافته، والضغط الذي يُحْدِثُه، وقد اخترع الخازني ميزانًا لوزن الأجسام في الهواء وفي الماء، ظَلَّتْ أوربا تستعين به حتى القرون الوسطى، إضافةً إلى استعانة أوربا بدقَّة موازين المسلمين في مجال الوزن النوعي، وثِقَلِ الهواء، وآلات الروافع، والجاذبية.

وأمَّا كتاب الخازني (ميزان الحكمة) فقد استفاد منه علماء الغرب أيَّما استفادة؛ حيث تُرْجِمَ من العربية إلى لغات مختلفة كثيرة.



صورة (٧٢) الترجمة اللاتينية لكتاب جابر بن حيان

وتُرجمت كذلك كُتب لجابر بن حيان والحسن بن الهيثم والخوارزمي، وظَلَّتْ مَرْجِعًا لأوربا قرونًا!

يقول العلاَّمة المستشرق سيديو: وإذا بحثنا فيما اقتبسه اللاتين من العرب في بدء الأمر وجدنا أن جربرت الذي أضحى بابا باسم سافستر الثاني أدخل إلينا بين سنة (٣٥٩هـ/ ٩٧٠م) وسنة (٣٦٩هـ/ ٩٨٠م) ما تَعَلَّمَه في الأندلس من

(١) مجلة بريد اليونسكو، عدد أكتوبر، عام ١٩٨٠م.

المعارف الرياضية، وأن أوهيلارد الإنجليزي طاف بين سنة (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) وسنة (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م) في الأندلس ومصر فتَرْجَم من العربية كتاب (الأركان) لإقليدس، الذي كان الغرب يجهله، وأن أفلاطون التيقولي ترجم من العربية كتاب (الأُكَر) لثاذوسيوس، وأن رودلف البروجي ترجم من العربية كتاب (الجغرافيا في المعمور من الأرض) لبطليموس، وأن ليونارد البيزي ألَّف حوالي سنة (٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) رسالة في الجبر الذي تَعَلَّمه من العرب، وأن كنيانوس النبري ترجم عن العرب في القرن الثالث عشر كتاب إقليدس ترجمة جيدة شارحًا له، وأن فيتليون البولوني ترجم كتاب (البصريات) للحسن بن الهيثم في ذلك القرن، وأن جيرارد الكريموني أذاع في ذلك القرن أيضًا علم الفلك الحقيقي المتين بترجمته (المجسطي) لبطليموس، و(الشرح) لجابر... إلخ، وفي سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) أَمَرَ الأذفونش القشتالي بنشر الأزياج الفلكية التي تحمل اسمه، وإذا كان روجر الأول قد شجَّع على تحصيل علوم العرب في صقلية ولا سيما كتاب الإدريسي، فإن الإمبراطور فردريك الثاني لم يَبْدُ أقلَّ حضًّا على دراسة علوم العرب وآدابهم، وكان أبناء ابن رشد يُقِيمُون ببلاط هذا الإمبراطور؛ فيُعَلِّمُونَه تاريخ النباتات والحيوانات الطبيعي[1].

ويبدو واضحًا من كلام سيديو أن المسلمين لم ينقلوا علومهم فقط للأوربيين، بل ساهموا وبقوة في أن يعرف الأوربيون تاريخ أجدادهم الإغريق الذين كانوا بمعزلٍ تام عنهم.

وهكذا كان التأثير في كل أنواع ومجالات العلوم.

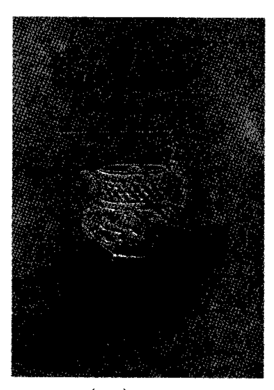
وبالنسبة إلى أثر الصناعات الإسلامية في أوربا -والتي تدخل تحت علوم عِدَّة- فكان هناك **صناعة الورق** التي كان للمسلمين الفضل في نشرها على مستوى العالم آنذاك، ولولا هذه الصناعة لَمَا تَقَدَّمَت العلوم، ولا نَشَطَتْ حركة التدوين، ولَمَا تَمَدَّنَتْ أوربا.

فقد نقل المسلمون عددًا من أسرى الصين إلى سمرقند حوالي منتصف القرن الثامن الميلادي، وكان بينهم مَنْ يُتْقِنُ صناعة الورق، فظهرت على أيديهم صناعة الورق،

(١) نقلاً عن مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٤٢.

وازدهرت في سمرقند، ثم أُدْخِلَتْ عليها تحسينات؛ حيث أصبح الكتان والقطن المادَّة الأساسية في صناعته، فظهر الورق الناعم وهو أجود أنواع الورق، ولَـمَّا كان ورق البردي غالي الثمن عَظُمَ الإقبال على شراء الورق الجديد، حتى إن الخليفة العباسي المنصور - المعروف بحُبِّه للتوفير وعدم الإسراف- أَمَرَ دوائر دولته بعدم استخدام ورق البردي، والاكتفاء بالورق العادي لرخص ثمنه[١].

وظهرت مصانع الورق في بغداد في عهد الرشيد، ثم ظهرت في دمشق وطرابلس، ثم في فلسطين ومصر، وانتقلت صناعة الورق إلى المغرب ومنه إلى صقلية والأندلس، حتى تعرَّف الغرب على هذه الصناعة، التي هي في الحقيقة إحدى دعائم الثقافة والحياة الرُّوحية، وبذلك فتح المسلمون عصرًا جديدًا لم يَعُدِ العْلِمُ فيه وَقْفًا على طبقة مُعَيَّنة من الناس، بل غدا -كما تقول زيجريد هونكه- مَشاعًا للجميع، ودعوة لكل العقول لأن تَعْمَلَ وتُفَكِّر[٢].



صورة (٧٣)
غلاف كتاب شمس العرب

وقد كان السائحون، والزوار، والحُجَّاج، والتجار، وطلاب العلم يأتون من بلدانهم في أوربا قاصدين برشلونة وبلنسية؛ حيث كان يُصْنَع الورق الناعم -كما ذكر الإدريسي- ليعودوا وقد حملوا كميات من هذا الورق، الذي لا مثيل له في العالم إطلاقًا[٣].

تقول زيجريد هونكه: إن بناء المطاحن (مطاحن الورق) كان اختصاصًا عربيًّا حَقَّقَه العرب أنفسهم، ومنحوا أوربا كل أنواع المطاحن المائية والهوائية[٤].

وغير صناعة الورق هناك كذلك **الإبرة المغناطيسية** (البوصلة)، والتي يُعزى اختراعها عند بعض الأوربيين إلى الإيطالي فلافيو جيويا، وفي ذلك تَرُدُّ زيجريد هونكه

---

(١) انظر: زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٤٦، وهاني المبارك وشوقي أبو خليل: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية ص٥٧.

(٢) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٤٦.

(٣) المصدر السابق ص٤٤.

(٤) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٤٥.

فتقول بأن هذا الإيطالي «قد عرف هذه الآلة عن طريق العرب (المسلمين)»[١].

فقد «اختلف الباحثون في أن العرب هم أوَّل من استعملها، أم اقتبسوها من الصين... فسيديو يُنْكِرُ على الصينيين استعمال بيت الإبرة، مع أنهم لم يزالوا إلى عام (١٨٥٠م) يعتقدون أن القطب الجنوبي من الكرة الأرضية سعيرٌ يتلظَّى، وهو يؤكِّد أن العرب (المسلمين) هم أوَّل من استعملها، ويؤيِّدُه في قوله سارتون، ويؤكِّد الجميع استعمال العرب لها، ونَقْلَ أوربا بيت الإبرة عن طريق العرب»[٢]. ولا جدال في تأثير هذه البوصلة في حياة الأوربيين بصفة عامَّة.

***

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٤٧.

(٢) أنور الرفاعي: الإنسان العربي والحضارة ص٤٨٧.

المبحث الثالث
في مجال اللغة والأدب

تأثَّر الغربيون -وخاصة شعراء الإسبان- بالأدب العربي تأثُّرًا كبيرًا؛ فقد دخل أدب الفروسية، والحماسة، والمجاز، والتخيلات الراقية البديعة إلى الآداب الغربية عن طريق الأدب العربي في الأندلس على الخصوص؛ يقول الكاتب الإسباني المشهور أبانيز: «إن أوربا لم تكن تعرف الفروسية، ولا تَدِين بآدابها المرعية، ولا نخوتها الحماسية قبل وفود العرب إلى الأندلس، وانتشار فرسانهم وأبطالهم في أقطار الجنوب»[١].

فقد كان لابن حزم الأندلسي وكتابه الشهير «طوق الحمامة» تأثير كبير على شعراء إسبانيا وجنوب فرنسا بعدما امتزجت الجالية الإسلامية بالجالية المسيحية، فكانت العربية لغة البلاد ولغة الأوساط الراقية، وفي كثير من الإمارات المسيحية الإسبانية كان الشعراء المسيحيون والمسلمون يلتقون في بلاط الأمير، ومن أمثلة ذلك ما كان يحدث في بلاط سانكو الذي كان يضم ثلاثة عشر شاعرًا عربيًّا واثني عشر شاعرًا مسيحيًّا وشاعرًا يهوديًّا، كما عثر على مخطوطة ترجع إلى عصر ألفونس العاشر ملك قسطلة توجد بها لوحة تمثل التقاء شاعرين جوالين يغنيان معًا على العود، أحدهما عربي والآخر أوربي، والأكثر من ذلك أن شعراء أوربا في ذلك الوقت كانوا يجيدون نظم الشعر العربي؛ لذلك يقول هنري مارو: «إن التأثير العربي على حضارة الشعوب الرومانية لم يقف عند حد الفنون الجميلة فقط التي كان التأثير فيها واضحًا، وإنما امتد كذلك إلى الموسيقى والشعر»[٢].

ويَدُلُّنَا -كذلك- على مدى تأثُّرِ الأدباء الغربيين بالعربية وآدابها في تلك العصور ما نقله لنا دوزي[٣] في كتابه عن الإسلام من رسالة ذلك الكاتب الإسباني (الغارو) الذي كان يأسى أشدَّ الأسى لإهمال لغة اللاتين والإغريق والإقبال على لغة المسلمين، فيقول: «إن أرباب الفطنة والتذوُّق سَحَرَهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية، وجعلوا

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٤٢.
(٢) أحمد درويش: نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي ص١٩٤، ١٩٥.
(٣) دُوزِي: رينهارت بيتر آن دُوزي (١٢٣٥ ـ ١٣٠٠هـ/ ١٨٢٠ ـ ١٨٨٣م) مستشرق هولندي، من أصل فرنسي بروتستانتي المذهب، مولده ووفاته في ليدن.

يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها، وساء ذلك معاصرًا كان على نصيب من النخوة الوطنية أوفى من نصيب معاصريه، فأسف لذلك مُرَّ الأسف، وكتب يقول: إن إخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم، ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون، ولا يفعلون ذلك لإدحاضها والردِّ عليها؛ بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح، فأين اليوم -من غير رجال الدين- مَنْ يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والإنجيل؟ وأين اليوم مَنْ يقرأ الإنجيل وصحف الرسل والأنبياء؟ واأسفاه! إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يُحْسِنُونَ أدبًا أو لغةً غير الأدب العربي واللغة العربية، وإنهم ليلتهمون كُتب العرب، ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان، ويَتَرَنَّمُون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية، في حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون من الإصغاء إليها؛ مُحْتَجِّينَ بأنها شيء لا يستحقُّ منهم مؤنة الالتفات. فيا للأسى! إن المسيحيين قد نَسُوا لغتهم، فلن تجد فيهم اليوم واحدًا في كل ألف يكتب بها خطابًا إلى صديق، أمَّا لغة العرب فما أكثر الذين يُحْسِنُون التعبير بها على أحسن أسلوب، وقد يَنْظِمُونَ بها شعرًا يَفُوقُ شعر العرب أنفسهم في الأناقة وصحَّة الأداء»[1].

وعن تأثير اللغة العربية في اللغات الأوربية يقول ديتر ميسنر[2]: إن تأثير العربية لغة الطبقة العليا في اللغات المحكية في شبه الجزيرة الأيبيرية قد أضفى على اللغات القشتالية والبرتغالية والقطلونية مكانة متميزة بين اللغات الرومانسية... ولم تقتصر التأثيرات العربية على شبه الجزيرة الأيبيرية وحسب، بل إنها كانت واسطة لنقلها إلى لغات أخرى كالفرنسية[3].

ولا حاجة بنا إلى أن نذكر ما دخل اللغات الأوربية على اختلافها من كلمات عربية في مختلف نواحي الحياة؛ حتى إنها لتكاد تكون كما هي في العربية؛ كالقطن، والحرير الدمشقي، والمسك، والشراب، والجرة، والليمون، والصِّفر، وغير ذلك ممَّا لا يُحْصَى. وحَسْبُنَا في هذا المقام قول للأستاذ ماكيل: «كانت أوربا مَدِينَةً بأدبها الروائي إلى بلاد

---

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٤٣.

(٢) أستاذ فقه اللغات الرومانسية في جامعة سالزبرج.

(٣) ديتر ميسنر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ص٦٥١ (بتصرف).

العرب، وإلى الشعوب العربية الساكنة في النجد العربي السوري؛ تدين بأكبر قسم، أو بالدرجة الرئيسية لتلك القوى النشيطة التي جعلت القرون الوسطى الأوربية مختلِفَة رُوحًا وخيالاً عن العالم الذي كان يخضع لرُوحه»[١].

وقد تأثَّرت القصَّة الأوربية في نشأتها بما كان عند العرب من فنون القصص في القرون الوسطى؛ وهي المقامات وأخبار الفروسية ومغامرات الفرسان في سبيل المجد والعشق، وكان لألف ليلة وليلة بعد ترجمتها إلى اللغات الأوربية في القرن الثاني عشر أثرٌ كبير جدًّا في هذا المجال؛ حتى إنها طُبِعَتْ منذ ذلك الحين حتى الآن أكثر من ثلاثمائة طبعة في جميع لغات أوربا؛ حتى لَيَرَى عددٌ من النُّقَّاد الأوربيين أن رحلات جليفر التي أَلَّفها سويفت، ورحلة روبنسون كروزو التي أَلَّفها ديفوه مَدِينَةٌ لألف ليلة وليلة ولرسالة حي ابن يقظان للفيلسوف العربي ابن طفيل[٢].

وفي سنة (١٣٤٩م) كتب بوكاشيو حكاياته المسَّماة بالصباحات العشرة؛ والتي حذت حذو ألف ليلة وليلة، ومنها اقتبس شكسبير موضوع مسرحيته (العبرة بالخواتيم)، كما اقتبس لسنج الألماني مسرحيته (ناتان الحكيم). وكان شوسر إمامُ الشعرِ الحديث في اللغة الإنجليزية أكبرَ المقتبسين من بوكاشيو في زمانه، فقد لقيه في إيطاليا، ونَظَمَ بعد ذلك قصصه المشهورة باسم (حكايات كانتربري)[٣].

أمَّا دانتي فيُؤَكِّد كثير من النقاد أنه كان في (القصة الإلهية) التي يَصِفُ فيها رحلته إلى العالم الآخر متأثِّرًا برسالة الغفران للمعري، ووصف الجنة لابن عربي، ذلك أنه أقام في صقلية على عهد الإمبراطور فريدريك الثاني، الذي كان مولعًا بالثقافة الإسلامية ودراستها في مصادرها العربية، وقد دارت بينه وبين دانتي مساجلات في مذهب أرسطو، كان بعضها مُسْتَمَدًّا من الأصل العربي، وكان دانتي يَعْرِف شيئًا غيرَ قليل من سيرة النبي ﷺ، فاطَّلَعَ منها على قصة المعراج والإسراء، ووَصْفِ السماء[٤]، كما تقول **زيجريد هونكه**:

---

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٤٤.
(٢) جاك ريسلر: الحضارة الإسلامية ص٢٢٣.
(٣) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٤٤.
(٤) مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية ص٢٦٣-٢٦٥.

«يبدو الشبه كبيرًا بين دانتي وبين ابن عربي؛ فقد أخذ دانتي عنه تشبيهاته بعد ما يقرب من مائتي عام»[1].

أمَّا الشاعر بترارك فقد عاش في عصر الثقافة العربية بإيطاليا وفرنسا، وطَلَبَ العلم في جامعتي مونبيليه وباريس، وكلتاهما قامتا على مؤلَّفَات العرب وتلاميذهم في الجامعات الأندلسية[2]؛ لذلك يقول لقومه: «يا عجبًا! استطاع سيسرون أن يكون خطيبًا بعد ديموستين، واستطاع فرجيل أن يكون شاعرًا بعد هوميروس، فلِمَ قُدِّر علينا ألاَّ نؤلف بعد العرب، لقد تساوينا نحن والأغارقة وجميع الشعوب وسبقناهم أحيانًا خلا العرب، فيا للحماقة! ويا للضلال! ويا لعبقرية إيطاليا الناعسة الخامدة!»[3].

هكذا كانت الحضارة العربية الإسلامية الجذوة التي أضاءت ربوع الإنسانية في مجال اللغة والأدب.

***

---

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٥٢١.

(٢) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٤٤.

(٣) سيديو: حضارة العرب ص٥٦٩.

المبحث الرابع

في مجال التربية والمعاملات

إن الاقتباس في مجال العلوم والفنون والشعر يظل ملموسًا وواضحًا؛ لأنه تأثيرٌ ماديٌّ بحت يمكن رصده بوضوح ودقة، أما التأثير الاجتماعي والإنساني (التربية والمعاملات) فيُرصد بأقل من هذا الوضوح، وكلما كان المشهد الزمني أوسع كان التطور الاجتماعي أكثر وضوحًا، كما أن القضايا الاجتماعية مرتبطة عادة بالثقافة والفلسفة والدين، وهي ما زالت ميادين صراع بين الإسلام والغرب حتى الآن؛ ولهذا أعرضنا -في هذا المبحث- عن ذكر كثيرٍ من المقارنات، فقد وجدنا بالفعل أن كثيرا مما أقرَّه الإسلام لم تصل إليه الحضارة الغربية حتى الآن؛ لما بقي من اختلاف في الرؤية والتصوُّرات والفلسفات، فنحن نبحث هنا جوانب ما تم من تأثُّرٍ بالحضارة الإسلامية.

يقول جوليفه كستاو في كتابه قانون التاريخ: «أوربا مَدِينةٌ بالهواء النافع الذي تمتعت به في تلك العصور للأفكار العربية، فقد انقضت أربعة قرون ولا حضارة فيها غير الحضارة العربية، وعلماؤها هم حملة لوائها الخفاق»[1].

إنه وبعملية منطقية جدًّا، يمكن عزو أي تطور في المشهد الحضاري الغربي المعاصر عن المشهد في الحضارة الرومانية إلى ذلك العصر الوسيط، عصر الحضارة الإسلامية.

قدمنا في الباب الثاني نماذج من هذه الإسهامات التي أضافتها الحضارة الإسلامية في الحقوق والحريات والتربية والمعاملات، ونرصد هنا تأثير هذه الإسهامات في الحضارة الغربية.

في سنة ٨٩٠م حين أراد أذفونش (ألفونسو) الكبير أن ينتدب مؤدبًا لابنه وولي عهده، استدعى اثنين من مسلمي قرطبة حرصا على تهذيبه، إذ لم يجد في النصارى إذ ذاك كفؤًا لهذه المهمَّة[2].

---

(١) جوليفه كستاو: قانون التاريخ، نقلاً عن: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ص٥٤٤.

(٢) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ص٥٤٨.

وحين فتح المسلمون الأندلس، فضّل البعض أن يهاجر إلى فرنسا على ألاّ يقيم في ظل الحكم الإسلامي، وبهذا الشأن يروي توماس أرنولد[١] طبيعة المعاملة التي تلقاها المسيحيون الذين رضوا بالعيش في ظل الدولة الإسلامية ويقارنها بالمعاملة التي تلقاها مَن هاجروا، فيذكر «أن أولئك الذين هاجروا إلى الأراضي الفرنسية لكي يعيشوا تحت حكم المسيحيين لم يصبحوا في الحقيقة أحسن حالاً من إخوانهم في الدين الذين خلفوهم وراء ظهورهم (يقصد من رضوا بالعيش في ظل الحكم الإسلامي). وفي سنة ٨١٢م تدخل شارلمان لحماية المنفيين الذين لحقوا به عند ارتداده عن إسبانيا من عنت موظفي الإمبراطورية واضطهادهم إياهم. وبعد ثلاث سنين لم ير لويس التقي بُدًّا من إصدار مرسوم آخر لتحسين حال هؤلاء المنفيين الذين لم يلبثوا أن لجئوا -برغم هذا- إلى الشكوى ثانيًا من الأشراف الذين اغتصبوا أراضيهم التي خصصت لهم. ولم يمضِ وقت طويل على محاولة القضاء على هذه المساوئ حتى عمت الشكوى من جديد، ولم تجد هذه المراسيم والأوامر الملكية التي صدرت لتحسين حال هؤلاء المنفيين الناعسين. وسوف نصادف في العصور المتأخرة في الجالية الإسبانية التي فرت من الحكم الإسلامي طبقة محتقرة عوملت معاملة سيئة، ووضعت نفسها تحت رحمة بني جنسهم من المسيحيين»[٢].


صورة (٧٤) تومَاس أرنولد

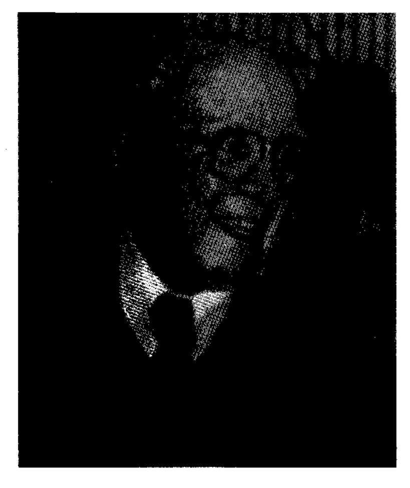
ومما يؤكد أن التعامل مع المسلمين قد هذَّب طباع المسيحيين ما يرويه أرنولد أيضًا أن أزيدور -وهو مؤرخ من الأندلس- «شدَّد النكير على الفاتحين المسلمين»، ولكنه «دوَّن مسألة زواج عبد العزيز بن موسى بن نصير من أرملة الملك لذريق، دون أن يذكر كلمة

(١) توماس أرنولد: مؤرخ إنجليزي شهير، (١٨٦٤ - ١٩٣٠) من أعاظم المستشرقين البريطانيين، وكان عميدًا لمدرسة اللغات الشرقية بلندن سنة ١٩٠٤م، ومن أشهر أعماله كتاب (الدعوة إلى الإسلام).

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١٥٩.

واحدة يستنكر فيها هذا الفعل»[١]. ويضيف أرنولد: «هذا إلى أن كثيرين من المسيحيين قد تسمَّوا بأسماء عربية، وقلدوا جيرانهم المسلمين في إقامة بعض النظم الدينية، فاختتن كثير منهم، وساروا وَفق رسوم (المسلمين) في أمور الطعام والشراب»[٢].

وكان الصليبيون الذين احتلوا بلاد الشام في الحروب الصليبية مثالاً للتعصب، حتى إن مونتجمري وات[٣] يتعجب فيقول: «ومن الغريب أن يُصدق الرُّحَّال المشتركون في الحروب الصليبية أن دينهم دين سلام»[٤]، ولكن حالهم بعد امتزاجهم بالمسلمين يرويه ول ديورانت فيسجِّل «أن الأوربيين الذين استوطنوا هذين البلدين (سوريا وفلسطين في الحروب الصليبية) قد تزيَّوْا شيئًا فشيئًا بالزِّيّ الشرقي... وزاد اتصالهم بمن يعيشون في تلك المملكة من



صوة (٧٥) مونتجمري

المسلمين، فقلَّ بذلك ما بين الجنسين من تنافر وعداء؛ فأخذ التجار المسلمون يدخلون بكامل حريتهم إلى البلدان المسيحية[٥]، ويبيعون أهلها بضاعتهم، وكان المرضى من المسيحيين يفضِّلون الأطباء المسلمين واليهود على الأطباء المسيحيين، وأجاز رجال الدين المسيحيون للمسلمين أن يَؤُمُّوا المساجد للعبادة، وأخذ المسلمون يعلِّمون أبناءهم القرآن في المدارس الإسلامية القائمة في أنطاكية وطرابلس المسيحيتين»[٦]. وإن هذا ليس ناشئًا بالطبع عن سماحة أصلية، فلقد رأينا كيف تعامل الصليبيون في إسبانيا مع المذاهب

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١٦٠.

(٢) المصدر السابق ص١٦٠.

(٣) مونتجمري وات: (١٩٠٩-٢٠٠٦م) مستشرق إنجليزي متخصص في الدراسات الإسلامية، وعميد لقسم الدراسات العربية في جامعة (أدنبرا) وصاحب العديد من المؤلفات في الفلسفة الإسلامية، ومقارنة الأديان، والتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.

(٤) مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص١٠٢.

(٥) يقصد المناطق التي سيطر عليها الصليبيون من الشام، أما هي فليست بلادهم على الحقيقة.

(٦) قصة الحضارة ١٥/ ٣٤.

المخالفة، فضلاً عن الأديان المخالفة بعد هذا الوقت بخمسة قرون في إسبانيا.

وأما معاملة صلاح الدين الأيوبي للصليبيين بعد تحريره لبيت المقدس، فلها مع الغرب تقديرٌ خاص واعتراف خاص أيضًا:

فنجد مكسيم رودنسون[١] يسجِّل قائلاً: «أثار العدو الأكبر صلاح الدين إعجابًا واسع الانتشار بين الغربيين؛ فقد شنّ الحرب بإنسانية وفروسية برغم قلة من بادلوه هذه المواقف، وأهمهم ريتشارد قلب الأسد»[٢].

ويقول توماس أرنولد: «ويظهر أن أخلاق صلاح الدين الأيوبي وحياته التي انطوت على البطولة، قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرًا سحريًّا خاصًّا، حتى إن نفرًا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية، وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين»[٣].


صورة (٧٦) ول ديورَانت

كما يسجل ديورانت تعجُّب المؤرِّخين المسيحيين من عظمة صلاح الدين: «كان صلاح الدين مستمسكًا بدينه إلى أبعد حد، وأجاز لنفسه أن يقسو أشد القسوة على فرسان المعبد والمستشفى؛ ولكنه كان في العادة شفيقًا على الضعفاء، رحيمًا بالمغلوبين، يسمو على أعدائه في وفائه بوعده سموًّا جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامي -«الخاطئ» في ظَنِّهم- رجلاً يصل في العظمة إلى هذا الحد»[٤].

إنه وبعد ثلاثة عشر قرنًا من شعار الإسلام «أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، وَأَنَّهُ لا

---

(١) مكسيم رودنسون: مستشرق فرنسي، من أهم المتخصصين في تاريخ الأديان. وضع العديد من الكتب حول الإسلام والعالم العربي، منها محمد، والرأسمالية والإسلام، والماركسية والعالم الإسلامي، وعظمة الإسلام.

(٢) مكسيم رودنسون: الصورة الغربية والدراسات الغربية والإسلامية ص٤١.

(٣) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١١١.

(٤) قصة الحضارة ١٥/ ٤٥.

فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، وَلا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى»[١]، يقوم إبراهام لنكولن بتحرير العبيد في منتصف القرن التاسع عشر وفي ظروف عصيبة، وبمقاومة شرسة من المنتفعين بطبقة العبيد إلى الحد الذي كاد فيه يتراجع، غير أنه أصدر التشريع مع ملاحظة أنه نفسه لم يكن مؤمنًا بالمساواة بين الأعراق.

ويجدر أن نقول: إن التمييز العنصري في المعاملة ما زال موجودًا حتى الآن في أوربا على مستوى التعاملات، خصوصًا في بلاد مثل فرنسا وألمانيا.. يذكر لوبون: «أن العرب يتصفون بروح المساواة المطلقة وفقًا لنُظمهم السياسية، وأن مبدأ المساواة الذي أعلن في أوربا -قولاً لا فعلاً- راسخٌ في طبائع الشرع (الإسلامي) رسوخًا تامًّا، وأنه لا عهد للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التي أدَّى وجودها إلى أعنف الثورات في الغرب ولا يزال يؤدي»[٢].

وإنه وبعد أربعة عشر قرنًا من شعار الإسلام بأن معاملة الأسرى ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾[٣]، ووصية النبي ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»[٤]؛ تأتي اتفاقية جنيف لمعاملة الأسرى في عام ١٩٤٩م لتتحدث عن حقوق الأسرى، ولم تصل بعدُ إلى حقوق الأسرى في الإسلام.

ونفس الحال بالنسبة لاتفاقية جنيف بشأن معاملة المدنيين أثناء الحرب التي وقعت في ١٢ من أغسطس ١٩٤٩م بعد أربعة عشر قرنًا من قوله ﷺ: «اغْزُوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تُمَثِّلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[٥]. ومن قول أبي بكر ﷺ: «لا تعصوا، ولا تغلوا، ولا تجبنوا، ولا تهدموا بيعةً، ولا تعزقوا نخلاً، ولا تحرقوا زرعًا، ولا تجشروا[٦] بهيمة، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تقتلوا شيخًا كبيرًا، ولا صبيًّا صغيرًا، وستجدون أقوامًا قد حبسوا

(١) أحمد (٢٣٥٣٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير (١٤٤٤٤)، والبيهقي: شعب الإيمان (٤٩٢١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٣٩١.

(٣) (محمد: ٤).

(٤) الطبراني: المعجم الكبير (٩٧٧)، والمعجم الصغير (٤٠٩)، وقال الهيثمي: إسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد (١٠٠٠٧).

(٥) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٦) جَشَّرَ دوابَّه: أخرجها إلى الرعي ولا تروح. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة جشر ٤/ ١٣٧.

أنفسهم للذي حبسوها، فذروهم وما حبسوا أنفسهم له»[1].

وكذلك نفس الأمر فيما يختص بالطلاق، من بعد أن نادى به الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا، صدرت القوانين المدنية في أوربا والتي تسمح بوقوع الطلاق (صدر القانون المدني في بريطانيا عام ١٩٦٩م).

وإنه ليبدو في غاية الوضوح والجلاء تأثر الإعلان العالمي الخاص بالقضاء على التميز ضدَّ المرأة بما جاء في الشريعة الإسلامية، وتكاد العبارات الخاصة بحقها في التملك والميراث والأهليَّة القانونية تكون نسخةً مما كُتب في الفقه الإسلامي، وقد صدر هذا الإعلان عام ١٩٦٧م.

وهذا بعد أن شهد الغرب -وفي أزمان متأخرة- وقائع غريبة كالمرأة التي استثقلت الكنيسة تكلفة معيشتها فباعتها بشلنين (عام ١٧٩٠م)، وظلت المرأة حتى أوائل القرن التاسع عشر (عام ١٨٠٥م) يملك زوجها أن يبيعها وبثمن محدد (٦ سنتات)، وحين باع أحد الإنجليز زوجته عام ١٩٣١م، وجد محاميًا يدافع عنه بقانون ما قبل ١٨٠٥م، ثم عاقبته المحكمة بالسجن عشرة أشهر.

ولم تحصل المرأة على حقها في تملك عقار إلا في أواخر القرن التاسع عشر (عام ١٨٨٢م)، واعتبرت المرأة قاصرًا في فرنسا -مع المجنون والصبي- حتى عام ١٩٣٨م[2].

* * *

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢/ ٧٥.

(٢) انظر: د. عبد الودود شلبي: في محكمة التاريخ ص٦٠ وما بعدها.

المبحث الخامس

في مجال الفنون

عن طريق معابر اتصال الحضارة الإسلامية بالغرب الأوربي -والتي ذكرناها سابقًا- انتقلت الأساليب المعمارية والزخرفية، ومعظم أساليب الفنون التطبيقية الأخرى إلى بلاد الغرب، وبَدَا تأثير الفنون الإسلامية واضحًا جليًّا في الحضارة الغربية، «فتُشِيرُ عددٌ من الحقائق إلى المصدر الإسلامي لكل من الفكرة والشكل في كثير من الفنون التشكيلية الأوربية»[(١)].

ومِمَّا يُثِيرُ الشفقة إضافة بعض الفنانين الغربيين أشكال الفنِّ الإسلامي إلى أعمالهم بطريقة تكميلية أو زخرفية، دون معرفة بما تحتويه معاني الكلمات عند نقل أشكال حروف الكتابة العربية، أو إدراكٍ لمعنى مفهوم الزخرفة عند الفنان المسلم، فكُلُّ ما في الأمر أنهم نقلوا الشكل دون المحتوى، بطريقة تدلُّ على انبهارٍ من الخارج بملامح الأشكال الزخرفية[(٢)].

وفي هذا الإطار يستشهد جوستاف لوبون بالخطِّ العربي فيقول: «وقد بلغ الخط العربي من الصلاح للزينة ما كان رجال الفنِّ من النصارى في القرون الوسطى وفي عصر النهضة يُكثرون من استنساخ ما كان يقع تحت أيديهم اتِّفَاقًا من قطع الكتابات العربية على المباني المسيحية تزيينًا لها، سائرين في ذلك مع الهوى، وقد شاهد مسيو لُنجبرْيه ومسيو لافوَا وغيرهما الشيء الكثير منها في إيطاليا، ومِمَّا شاهده مسيو لافوا في مكان الأمتعة من كاتدرائية ميلانو بابٌ مبنيٌّ على طراز رسم البيكارين يحيط به إفريزٌ حجريٌّ مؤلَّف من كلمة عربية مكرَّرة عدَّة مرَّات، وكتابةٌ عربية حول رأس المسيح المُصَوَّر فوق أبواب القديس بطرس التي أَمَرَ بإنشائها البابا أوجين الرابع، وخطوط كوفية طويلة على قميص القديس بطرس والقديس بولس»، ثم يتابعُ فيقول: «ومن دواعي أسفي عدم ترجمة هذا الكاتب لهذه الكتابات، فلعلَّ الكتابة التي حول رأس المسيح هي كلمة: (لا إله إلا الله

---

(١) ديونيسيوس آجيوس، وريتشارد هيتشكوك: التأثير العربي في أوربا في العصور الوسطى ص٦٤.

(٢) انظر: إيناس حسني: أثر الفن الإسلامي على التصوير في عصر النهضة ص١٢٠.

محمد رسول الله)!»[١].

هذا، وإذا كانت الزخرفة العربية الإسلامية قد أثَّرَتْ كثيرًا في منهج ورؤية العديد من الفنانين الأوربيين؛ فإن الخطَّ العربي -وهو واحد من أهمِّ نتاجات الفنِّ العربي الإسلامي، بما في أشكاله من تنوُّع وتعدُّد غني، وبإمكان زخرفته بصور عديدة- قد أَثَّر كثيرًا في رؤية وأعمال عديد من فناني أوربا؛ فقد امتدَّ تأثيره منذ جاءت الحروب الصليبية واحتكَّ الأوربيون بالعرب، فأثارهم وأُعجبوا به؛ لِمَا وُجِدَ فيه من غِنًى شكلي، فاستخدموه في أعمالهم الفنِّيَّة؛ حيث كان جيوتو من أوائل الفنانين الذين استخدموه في لوحاتهم، وكذلك المصوِّر الفلورنسي فليوليبي، الذي استخدم الكتابة العربية كزخرفة على ثياب الأشخاص التي يرسمها في القرن الخامس عشر، وقد استفاد الفلورنسي أيضًا فيريكيو من الخطِّ العربي في زخرفة لوحة تبجيل الملوك المحفوظة في فلورنسا[٢].

وهكذا استطاع الفنُّ الإسلامي بمقوِّمَاته الجمالية الخصبة أن يؤثِّر في كثير من مفاهيم الأوربيين، من خلال التأثير في أعمال العديد من الفنانين الأوربيين؛ حيث إنهم قد وَجَدُوا في ملامحه مَعِينًا لا ينضب في أعمالهم الفنية، واكتشافَ أشكالٍ جديدة ذات ملامح وإيقاعات حيوية، موازية في حيويتها لوفرة الحركة والإيقاع الموجودة في التراكيب الأرابيسكية وخطوط الكتابة العربية.

وبعد هذا التطواف المتعجّل، وفي نهاية هذه الرحلة السريعة، يَحِقُّ لنا أن نَتِيهَ فخرًا على البشرية بذاك الإسهام الرائع، وتلك التأثيرات الخالدة لحضارتنا؛ حضارة الإسلام، تلك التي أنارت جنبات الإنسانية على طول مسيرتها، بعد ظلام دامس وحالك.

***

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٥٣١.

(٢) إيناس حسني: أثر الفن الإسلامي على التصوير في عصر النهضة ص١٢٩.

الفصل الثالث

شهادات المنصفين الغربيين في تقدير الحضارة الإسلامية

يحاول الكثير من الغربيين التقليل من شأن الحضارة الإسلامية ودورها في تقدم الحضارة الإنسانية ورقيها، فمنهم مَنْ يزعم أن المسلمين كانوا مجرَّد نَقَلَةٍ عن القدماء، ومنهم مَنْ يدَّعِي أن هذه الحضارة لا تستحقُّ كل هذه العناية؛ ناسبين الفضل فقط إلى اليونانيين والرومان، وأنهم وحدهم أساتذة الغربيين، متخطِّينَ بذلك دورَ المسلمين، وأنه لا فضل لهم في شيء، كما أن منهم مَنْ يحاوِل أن يُقَلِّلَ من تأثير حضارة المسلمين؛ مدَّعين أنهم برعوا في أصناف من العلوم لا تحتاج إلى فكر وإعمال عقل؛ كالتاريخ والجغرافيا، وما عدا ذلك اقتبسوه ونقلوه عن غيرهم، دون كثير نقد أو تصويب أو إضافة!

والحقيقة أن هذا هو حال الحاقدين والجاحدين من خصوم المسلمين، والجاهلين مكانة المسلمين ودورهم في مسيرة الإنسانية؛ يُعَضِّد ذلك ما كان من حال صنف آخر غير هؤلاء؛ مستشرقين ومؤرِّخين أبصروا ما للمسلمين من فضل عظيم وإسهام بارز في الحضارة الإنسانية؛ فآثروا الحقَّ، واعترفوا به، ونسبوا الفضل لأهله، وأَلَّفُوا في ذلك كتبًا ودراسات كثيرة منصفة، تُشِيدُ بفضل المسلمين الذي لا يمكن إنكاره، وأَثَرِهم الذي لا يمكن جحوده، حتى كان منهم مَنْ قال: «**إن الوقت قد حان للتحدُّث عن شعب قد أَثَّرَ بقوَّة في مجرى الأحداث العالمية، ويَدِينُ له الغربُ، كما تَدِينُ له الإنسانية كافَّةً بالشيء الكثير**»(١).

وفي هذا الفصل يمكننا أن نستقرئ بعضًا ممَّا اعترف به هؤلاء المنصفون من المستشرقين، الذين بهرتهم أصالة الحضارة الإسلامية، ودورُها البارز، وفضلها العظيم في مسيرة الإنسانية وفي إرساء حجر الأساس للحضارة الأوربية الحديثة، وهي أعظم من أن تُحْصَى، وأكثر من أن تُسْتَقْصَى. ونستطيع أن نُصَنِّفَ تلك الشهادات حسب أكثر الإسهامات كما يلي:

- **المبحث الأول: شهادات المنصفين في ميدان العلوم**
- **المبحث الثاني: شهادات المنصفين في ميدان الأخلاق**
- **المبحث الثالث: شهادات المنصفين في ميدان الفكر**

---

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص١١.

المبحث الأول

شهادات المنصفين في ميدان العلوم

لعلَّ ميدان العلوم هو أكثر الميادين التي أدلى فيه المنصفون الغربيون بدَلْوِهِمْ؛ ولعلَّ ذلك راجع في الأساس إلى عاملين مهمَّيْنِ؛ يكمن الأوَّل منهما في عظمة إسهامات المسلمين والحضارة الإسلامية في هذا المجال، ويكمن العامل الثاني في الردِّ على المتعصِّبِينَ والشعوبيين الذين يُنْكِرُونَ أي إبداع وابتكار للعقل المسلم، وهو ما يتجسَّد في العلوم التجريبية؛ كالميكانيكا، والهندسة، والفلك، وغيرها.

وهذه شهادات المنصفين الغربيين في ذلك:

يقول المؤرخ الأمريكي بريفولت: «ليس ثمة مظهر واحد من مظاهر الحضارة الأوربية إلاَّ ويعود فيه الفضل للمسلمين بصورة قاطعة»[1]!

وتقول زيجريد هونكه: «لقد طوَّر العرب بتجاربهم وأبحاثهم العملية ما أخذوه من مادَّة خام عن الإغريق، وشكَّلوه تشكيلاً جديدًا، فالعرب -في الواقع- هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمي الحقَّ القائم على التجربة... إن العرب لم يُنْقِذُوا الحضارة الإغريقية من الزوال ونَظَّمُوها ورتَّبُوهَا ثم أَهْدَوْهَا إلى الغرب فحسب؛ إنهم مُؤَسِّسُو الطُّرُقَ التجريبية في الكيمياء، والطبيعة، والحساب، والجبر، والجيولوجيا، وحساب المثلثات، وعلم الاجتماع، وبالإضافة إلى عددٍ لا يُحْصَى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مُخْتَلَفِ فروع العلوم -والتي سُرق أغلبها ونُسب لآخرين- قدَّم العرب أثمن هدية؛ وهي طريقة البحث العلمي الصحيح، التي مَهَّدَتْ أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتَسَلُّطِهِ عليها اليوم»[2].

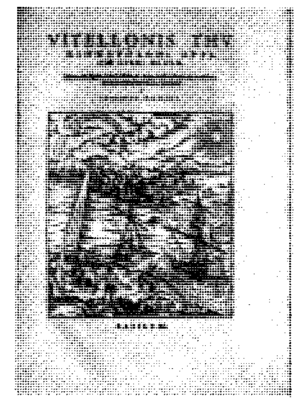
وتضيف هونكه قائلةً: «والواقع أن روجر باكون، أو باكوفون فارولام، أو ليوناردو دافنشي، أو جاليليو، ليسوا هم الذين أَسَّسُوا البحث العلمي؛ إنما السابقون في هذا المضمار كانوا من العرب، والذي حَقَّقَهُ ابن الهيثم -الخازن كما هو معروف عند الأوربيين- لم يكن

(١) رويلت بريفولت: بناء الإنسانية، نقلاً عن أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج ٤/ ٧١٠.

(٢) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٤٠١، ٤٠٢.

إلاَّ عِلْمَ الطبيعة الحديث، بفضل التأمُّلِ النظري والتجربة الدقيقة»[١].

وتقول كذلك: «كان الحسن بن الهيثم أحد أكثر مُعَلِّمِي العرب في بلاد الغرب أثرًا وتأثيرًا... لقد كان تأثير هذا العربي النابغة على بلاد الغرب عظيم الشأن؛ فسيطرت نظرياته في علمي الفيزياء والبصريات على العلوم الأوربية حتى أيامنا هذه، فعلى أساس كتاب (المناظر) لابن الهيثم نشأ كلُّ ما يتعلَّق بالبصريات ابتداء من الإنكليزي (روجر بيكون) حتى الألماني (فيتلوا)، وأمَّا ليوناردو دافنشي الإيطالي مخترع آلة (التصوير الثقب)، أو الآلة المعتمة، ومخترع المضخَّة والمخرط وأوَّل طائرة -ادعاءً- فقد كان متأثِّرًا تأثيرًا مباشرًا بالعرب، وأوحت إليه آثار ابن الهيثم أفكارًا كثيرة، وعندما قام (كبلر) في ألمانيا خلال القرن السادس عشر ببحث القوانين التي تَمَكَّنَ (جاليليو) بالاستناد إليها من رؤية نجوم مجهولة من خلال منظار كبير؛ كان ظِلُّ ابن الهيثم الكبير يجثم خلفه، وما تزال حتى أيامنا هذه المسألة الفيزيائية الرياضية الصعبة التي حَلَّها ابن الهيثم بواسطة معادلة من الدرجة الرابعة مُبَرْهِنًا بهذا على تَضَلُّعِهِ البالغ في علم الجبر، نقول: ما تزال المسألة القائمة على حسب موقع نقطة التقاء الصورة التي تعكسها المرآة المحرِقَة بالدوائر على مسافة منها ما تزال تُسَمَّى بـ(المسألة الهيثمية)؛ نسبة إلى ابن الهيثم نفسه»[٢].



صورة (٧٧) ترجمة لاتينية لكتاب ابن الهيثم

ويقول فلورين كاجوري: في كتابه (تاريخ الفيزياء): «إن علماء العرب والمسلمين هم أول مَنْ بدأ ودافع بكل جدارة عن المنهج التجريبي، فهذا المنهج يُعْتَبَرُ مفخرةً من مفاخرهم، فهم أول مَنْ أدرك فائدته وأهميته للعلوم الطبيعية، وعلى رأسهم ابن الهيثم»[٣].

---

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص١٤٨، ١٤٩.

(٢) المصدر السابق ص١٥٠.

(٣) انظر: علي عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية ص٣٠٣.

ويقول ماكس فانتيجو: «كل الشواهد تؤكِّد أن العلم الغربي مَدِينٌ بوجوده إلى الحضارة العربية الإسلامية، وأن المنهج العلمي الحديث القائم على البحث والملاحظة والتجربة، والذي أَخَذَ به علماء أوربا، إنما كان نتاج اتِّصَال العلماء الأوربيين بالعالَمِ الإسلامي عن طريق دولة العرب المسلمين في الأندلس»[١].

ويقول دانييل بريفولت: «ومنذ عام (٧٠٠م) بدأت إشراقة الحضارة العربية الإسلامية تمتدُّ من شرقي المتوسط إلى بلاد فارس شرقًا وإسبانيا غربًا، فأُعِيدَ اكتشافُ قسمٍ كبير من العِلْمِ القديم، وسُجِّلَتِ اكتشافاتٌ جديدة في الرياضيات، والكيمياء، والفيزياء، وغيرها من العلوم... وفي هذا المجال، كما في غيره، كان العرب مُعَلِّمِينَ لأوربا، فساهموا في نهضة العلوم في هذه القارَّة»[٢].

ويقول الباحث الألماني الدكتور بير بورمان: «إن إنجازات المسلمين في العالم واضحة جليَّة في كل شئون العلوم والثقافة، بل إن إنجازاتهم في مجال الطبِّ لا يستطيع أحد إنكارها، وهذا هو ما دفعني إلى تأليف كتاب بعنوان: (الطب الإسلامي في القرون الوسطى)». وقال أيضًا: «دفعني لتأليف هذا الكتاب أنني كمسيحي ألماني أَدِينُ بالفضل في جزء من ثقافتي للثقافة الإسلامية، وهذا ما أُحاول توضيحه وتأكيده، رغم محاولات البعض طمس الدور المهمِّ الذي لعبه المسلمون في أوربا والعالم، ولقد عكفتُ أنا وزميلتي الباحثة (إيميلي سافاج سميث)[٣] على رصد إنجازات المسلمين في مجال الطبِّ في القرون الوسطى». وأضاف قائلاً: «إن المستشفيات الإسلامية كانت عبارةً عن أوقاف إسلامية، وكانت تُقَدِّم الخدمة الطبية لكل الناس بصرف النظر عن ديانتهم؛ فهناك اليهود، والمسيحيون، والصابئة، والزرادشتيون، وغيرهم، فكان المستشفى الإسلامي يعالج الجميع؛ وهذا يعني تسامحًا إسلاميًّا كبيرًا مع غير المسلمين». وعن أهمِّ الأمراض التي أسهم فيها المسلمون بعلم جديد، قال: «الكثير من الأمراض، إلا أن

---

(١) ماكس فانتيجو: في كلمة له أمام مؤتمر الحضارة العربية الإسلامية المعقود في جامعة برنستون في واشنطن عام (١٩٥٣م). انظر: شوقي أبو خليل، هاني المبارك: دور الحضارة العربية والإسلامية في النهضة الأوربية ص١٢٥.

(٢) دانييل بريفولت: نشأة الإنسانية ص٨٤.

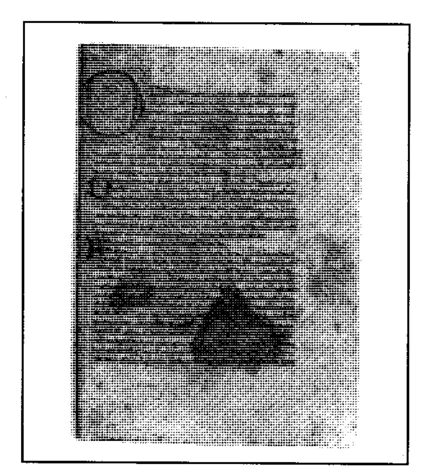
(٣) إيميلي سميث: هي إيميلي سافاج سميث مؤرخة بريطانية وخبيرة بكلية سانت كروس بجامعة إكسفورد البريطانية.

أخطرها هو مرض المالنخوليا»[١].

ويقول ول ديورانت: «يكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علمًا من العلوم؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة، والتجارِب العلمية، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر فيه اليونان -على ما نَعْلَمُ- على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة»[٢].

ويقول دونالد ر. هيل: «لقد اعْتُبِرَ الرازي بحقٍّ واحدًا من المؤسِّسِينَ الرئيسيين للكيمياء الحديثة؛ بفضل مقارنته المنهجية وإصراره على ضرورة العمل التجريبي»[٣].

وهناك تصريح آخر له جاء فيه: «عرف المسلمون جدولة الأوزان النوعية قبل الأوربيين بكثير، وبدأ الاهتمام الشديد بهذا الموضوع في أوربا إبَّان القرن السابع عشر الميلادي، وبلغ ذروته في عمل روبت بويل (ت ١٦٩١م) الذي عَيَّنَ الوزن النوعي للزئبق -على سبيل المثال- بطريقتين مختلفتين، تعطيان المقدارين (١٣,٧٦)، و(١٣,٣٥٧)، وكلاهما أقلُّ دقَّة من القيمة التي سجَّلَها الخازني، الذي كانت معظم نتائجه دقيقة تمامًا»[٤].



صورة (٧٨) ترجمة لاتينية لكتاب الخوارزمي

ويقول جوستاف لوبون: «تتألَّف من كتب جابر موسوعةٌ علمية، تحتوي على خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره، وتشتمل هذه الكتب على وَصْفِ كثير من المركَّبات الكيميائية التي لم تُذْكَر قبله؛ كماء الفضة (الحامض النتري)، الذي لا نتصوَّرُ علم الكيمياء بغيره»[٥].

---

(١) حوار له بجريدة الأخبار المصرية بتاريخ ١٣/ ٤/ ٢٠٠٧م.

(٢) انظر: أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص٣٥٦.

(٣) انظر: دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا ص١٠٢

(٤) المصدر السابق ص٩٨.

(٥) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٧٥.

ويقول **فلورين كوجوري** المؤرِّخ المشهور في العلوم: «إن العقل ليندهش عندما يرى ما عَمِلَهُ العرب والمسلمون في علم الجبر؛ فلقد كان كتاب الخوارزمي في حساب الجبر والمقابلة مَنْهَلاً نهل منه علماء المسلمين وأوربا على السواء، واعتمدوا عليه في بحوثهم، وأخذوا عنه كثيرًا من النظريات؛ لذا يحقُّ القول بأن الخوارزمي هو واضع علم الجبر على أُسُسِه الصحيحة»[(١)].

ويقول **جوان فرينيه**: «وإذا نحن تحرَّينا الدقَّة نجد أن أُصُولَ التطوُّر العلمي للرياضيات عند المسلمين تبدأ مع القرآن الكريم؛ وذلك فيما ورد في القرآن من الأحكام المعقَّدة في تقسيم الميراث، ويُعَدُّ الخوارزمي أَوَّل رياضي مسلم، ونحن مَدِينُونَ له بمحاولة وضع تنظيم منهجي باللغة العربية لكل المعارف العلمية والتقويم، كما نَدِينُ له باللفظ الإسباني (غوارزمي)، الذي يعني الترقيم (أي الأعداد ومنازلها والصفر)، وكان الجبر هو الميدان الثاني الذي عَمِلَ فيه الخوارزمي، وهو فرع من الرياضيات لم يكن حتى ذلك الوقت موضوعًا لأية دراسة منهجية جادَّة»[(٢)].

ويقول **درابر**: «ومن عادة العرب[(٣)] أن يُرَاقِبُوا ويمتحنوا، وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائطَ للقياس، وممَّا تجدر ملاحظته أنهم لم يستندوا فيما كتبوه في الميكانيكيات والسائلات والبصريات إلى مجرَّد النظر، بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان، بما كان لديهم من الآلات؛ وذلك ما هَيَّأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء، وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتبخير، ورفع الأثقال... ففُتِحَ لهم بذلك بابُ تحسين عظيمٍ في قضايا الهندسة وحساب المثلثات»[(٤)].

ويقول **ديفيد يوجين سمث** في كتابه (تاريخ الرياضيات) في المجلد الثاني منه: «يَدَّعُون أن قانون الرقَّاص هو مِنْ وَضْعِ جاليليو، إلاَّ أنَّ ابن يونس لاحظه وسبقه إليه؛ حيث إن الفلكيين العرب يستعملون الرقَّاص لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد». وأضاف جورج سارتون في

---

(١) انظر: علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٦٤.

(٢) جوان فرينيه: الرياضيات والفلك والبصريات، دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام إشراف (شاخت)، و(بوزورث) القسم الثالث ص١٦٨.

(٣) يجب ملاحظة أن لفظ العرب عند كثير من المستشرقين يُطْلَقُ ويُقْصَدُ به المسلمون، كما هو الحال هنا.

(٤) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ١/ ٢٢٧، ٢٢٨.

كتابه (المدخل إلى تاريخ العلم): «إن ابن يونس يُعْتَبَرُ بلا شكٍّ من عمالقة القرن الحادي عشر الميلادي، وأعظم فلكي ظهر في مصر، وهو مكتشف الرقَّاص»[(١)].

ويقول جوتيه: «إن العرب عَلَّمُونَا صُنْعَ الكتاب، وعَمَلَ البارود، وإبرةَ السفينة؛ فعلينا أن نُفَكِّرَ ماذا كانت نهضتنا لو لم يكن من ورائها هذه الآثار التي وصلتنا من المدنيَّة العربية؟»[(٢)].

ويقول سنيوبوس: «ولقد جمعت العرب وقَرَّبَتْ جميع الاختراعات والمعارف المأثورة عن العالم القديم في الشرق (كاليونان وفارس والهند والصين)، وهم الذين نقلوها إلينا، ودخل كثير من الألفاظ في لغتنا؛ وهي شاهدة بما نقلناه عنهم، وبواسطة العرب دخل العالَمُ الغربي الذي كان بربريًّا في غمار المدنية. فإذا كان لأفكارنا وصناعتنا ارتباطٌ بالقديم؛ فإن جماع الاختراعات التي تجعل الحياة سهلة لطيفة قد جاءتنا من العرب، وأخذ الأوربيون من العرب صُنْعَ الجوخ في جملة ما أخذوا من الصنائع، وكان أهل بيزا الإيطاليون ينزلون مدينة (بجاية) في الجزائر؛ فتَعَلَّمُوا منها صُنْعَ الشمع، ومنها نقلوه إلى ديارهم وإلى أوربا»[(٣)].

ويقول ريسون: «إن استبحار عمران العرب مع سرعة انتشار سلطتهم في المعمور عرَّفنا إلى مكانة المدنيَّة العربية، فكانت هذه الحضارة الباهرة في القرون الوسطى مزيجًا من المدنيَّة البيزنطية والفارسية، وقد تمَّ هذا المزيج المدني بأمرين: عشق العرب التجارة وغرامهم بالعمران، وأصبحوا لذكائهم الوقَّاد ولما غُرِسَ فيهم من حُبِّ الاطّلاع على كل شيء يخوضون غمار العلوم الطبيعية والرياضية، ولهم المِنَّةُ على جميع الأمم بأرقامهم العربية، وباستنباطهم فنَّ الجبر والمقابلة وتهذيبهم الهندسة»[(٤)].

أمَّا الموسوعة البريطانية فتقول: «والحقُّ أن كثيرًا من أسماء الأدوية وكثيرًا من مُرَكَّبَاتها المعروفة حتى يومنا هذا، وفي الحقيقة المبنى العامّ للصيدلة الحديثة -فيما عدا التعديلات الكيماوية الحديثة بطبيعة الحال- قد بدأه العرب»[(٥)].

---

(١) انظر: علي عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية ص٣٠٢.

(٢) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ١/ ٢٢٦.

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٣٣، ٢٣٤.

(٤) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ص٢٣١.

(٥) الموسوعة البريطانية ١٨/ ٤٦ الطبعة الحادية عشرة.

المبحث الثاني
شهادات المنصفين في ميدان الأخلاق

الأخلاق نابعة من الدِّينِ، ولا أخلاق دون وازعٍ ديني يحثُّ عليها، ويدعو إلى التحلِّي بفضائلها، ويُنَفِّر من مساوئها، ولعلَّ أكثر شهادات المنصفين في ميدان الأخلاق في الحضارة الإسلامية كان للدين الإسلامي بعمومه نصيبٌ كبيرٌ منها.

وهذه بعض شهادات المنصفين الغربيين في ذلك:

يقول جلين ليونارد: «يجب أن تكون حالة أوربا مع الإسلام بعيدة من كل هذه الاعتبارات الثقيلة، وأن تكون حالة شكرٍ أَبَدِيٍّ، بدلاً من نكران الجميل الممقوت والازدراء المهين، فإنَّ أوربا لم تعترف إلى يومنا هذا -بإخلاص صادق وقلب سليم- بالدَّيْن العظيم المدينَة به للتربية الإسلامية والمدنية العربية، فقد اعترفَتْ به بفتورٍ وعدم اكتراث؛ عندما كان أهلها غارقين في بحار الهمجيَّة والجهل في العصور المظلمة فقط. ولقد وصلت المدنيَّة الإسلامية عند العرب إلى أعلى مستوى من عظمة العمران والعلم؛ فأحيت المجتمع الأوربي وحفظته من الانحطاط، ولم نعترف -ونحن نرى أنفسنا في أعلى قمَّة من التهذيب والمدنيَّة- بأنه لولا التهذيب الإسلامي، ومَدَنِيَّة العرب وعِلْمهم وعظمتهم في مسائل المدنية، وحُسن نظام مدارسهم، لكانت أوربا إلى اليوم غارقةً في ظلمات الجهل»[1].

ويقول المؤرخ الإنجليزي ويلز: «كل دين لا يسير مع المدنية في كل أطوارها فاضربْ به عُرْضَ الحائط، وإن الدين الحقَّ الذي وَجَدْتُه يسير مع المدنية أينما سارت هو الإسلام... ومَنْ أراد الدليل فليقرأ القرآن وما فيه من نظراتٍ ومناهج علمية، وقوانين اجتماعية؛ فهو كتاب دِينٍ، وعِلْمٍ، واجتماع، وخُلُقٍ، وتاريخٍ، وإذا طُلِبَ منِّي أن أُحَدِّد معنى الإسلام فإني أُحَدِّدُه بهذه العبارة: (الإسلام هو المدنية)»[2].

---

(١) محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية ص٨٢.

(٢) عبد المنعم النمر: الإسلام والمبادئ المستوردة ص٨٤.

ويقول بريفولت: « ولم يكن بيكون إلاَّ رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوربا المسيحية، وهو لم يَمَلَّ قطُّ من التصريح بأن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحقِّ[(١)]... ولقد انبعثت الحضارة الإسلامية انبعاثًا طبيعيًّا من القرآن، وتميَّزَتْ عن الحضارات البشرية المختلفة بطابع العدل، والأخلاق، والتوحيد، كما اتَّسَمَتْ بالسماحة، والإنسانية، والأخوَّة العالمية»[(٢)].

ويقول جوستاف لوبون: «إنَّ حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوربية الوحشيَّة في عالم الإنسانية؛ فلقد كان العرب أساتذتنا... وإن جامعات الغرب لم تَعْرِف لها موردًا علميًّا سوى مؤلَّفات العرب، فهم الذين مَدَّنُوا أوربا مادَّةً وعقلاً وأخلاقًا، والتاريخ لا يعرف أُمَّة أنتجت ما أنتجوه... إن أوربا مَدِينَة للعرب بحضارتها... وإن العرب هم أَوَّل مَنْ عَلَّم العالم كيف تتَّفِقُ حُرِّيَّة الفكر مع استقامة الدِّينِ... فَهُم الذين علَّموا الشعوب النصرانية، وإن شئتَ فَقُلْ: حاولوا أن يُعَلِّمُوها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان... ولقد كانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأُولَى أرقى كثيرًا من أخلاق أمم الأرض قاطبةً»[(٣)].

ويقول أندرو ديكسون وايت[(٤)]: «إن معاملة المجانين في العالم الإسلامي -منذ عصر عمر وما بعده- كانت أرحم بكثير من الوضع الذي ساد في طول العالم المسيحي وعرضه مدَّة ثمانيةَ عشرَ قرنًا من الزمان؛ كان المجانين يُعْتَبَرون خلالها ممسوسين تَقَمَّصَتْهُم الشياطين؛ ومن ثَمَّة تعرَّضوا لأقصى ضروب التنكيل والوحشية».

ويقول أيضًا: «إن الراهب جون هوارد لاحظ في القرن الثامن عشر ما لاحظه غيره من الرُّهبان والرَّحالة الأوربيين في ذلك العصر وقبل ذلك، أنَّ المسلمين قد وفَّروا كثيرًا من الوسائل الرحيمة للمجانين، لم يَرَ هؤلاء لها مثيلاً في أراضي أوربا المسيحية. والحقُّ أن المسلمين هم الذين نَبَّهُوا إلى ضرورة بذل الجهود -التي بدأت في أوربا ابتداءً من القرن

---

(١) دانييل بريفولت: بناء الإنسانية، نقلاً عن أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج ٤/ ٧١٠.
(٢) انظر: عبد المعطي الدالاتي: ربحت محمدًا ولم أخسر المسيح ص١٢٨.
(٣) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٢٦، ٢٧٦، ٤٣٠، ٥٦٦.
(٤) أندرو ديكسون وايت: (١٨٣٢ - ١٩١٨م) دبلوماسي أمريكي وكاتب، يعتبر من أفضل مؤسسي جامعة كورنيل.

الثامن عشر - لمعاملة المجانين معاملة رحيمة»[١].



صورة (٧٩) جوَاهر لال نهرو

ويقول رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو[٢] في كتابه (Discovery of India): «إن دخول الغزاة الذين جاءوا من شمال غرب الهند، ودخول الإسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند؛ إنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوكي، إنه قد أَظْهَرَ انقسام الطبقات واللمس المنبوذ، وحُبُّ الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند. إن نظرية الأُخُوة الإسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها، ويعيشون فيها، أَثَّرَتْ في أذهان الهندوس تأثيرًا عميقًا، وكان أكثر خضوعًا لهذا التأثير البؤساء الذين حَرَّمَ عليهم المجتمع الهندي المساواة والتمتُّع بالحقوق الإنسانية»[٣].

ويقول البروفسور هوكينج: «إن الشغف بالعلم والتعطُّشِ الدائم لارتياد مناهله، صفات امتاز بها هؤلاء العرب؛ وهي التي تمدُّ عبقرياتهم بالقوَّة المبدعة الخلاَّقة؛ يعشقون الحُرِّيَّة ويتطلَّعُون دومًا إلى المُثُلِ العليا بدون تعصُّب ولا تَزَمُّتٍ... ولسوف نرى عندما تزول اللفحة المحرقة التي أصابت العرب وخدَّرت نفوسهم، أن عناصر الثروة العلمية الكامنة، والشجاعة الفكرية الخابية، سوف تنطلق من عِقَالها، وتتحرَّر من أَسْرِهَا؛ ليعودوا سريعًا لاحتلال مكانتهم على الأرض، والدليل على قولي هو ما كان من انطلاقة العرب في نهضتهم الأولى، وما تركوه للأجيال من تراث علمي وآثار خالدة»[٤].

***

(١) انظر: A. D. White: A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom Vol. 11/123.

(٢) جواهر لال نهرو: (١٨٨٩ - ١٩٦٤م) يعد أحد زعماء حركة الاستقلال في الهند، وأول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال.

(٣) نقلاً عن أبي الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص١٠٧.

(٤) مبادئ السياسة العالمية ص٢٥، نقلاً عن محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عن المسلمين. ص١٩.

المبحث الثالث

شهادات المنصفين في ميدان الفكر

الفكر -كما رأينا من قبلُ- من دعائم الإيمان بهذا الدِّينِ، وهو من الركائز التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، فهو كتاب الله المنظور، والذي هو عبارة عن الكون كُلِّه، وقد طالب الكِتَابُ المقروء (القرآن الكريم) بالنظر في هذا الكِتَابِ المنظور من خلال آيات كثيرة... والعجيب أن يأتي بعد ذلك مَنْ يُنْكِرُ اهتمام الإسلام والحضارة الإسلامية بالفكر وإعمال العقل!

ومن ثَمَّ كانت هذه شهادات المنصفين الغربيين في الرَّدِّ على ذلك:

يقول أتيين دينيه[(١)]: «إلى الفيلسوف المسلم ابن رشد -الذي عاش في الأندلس (١١٢٠-١١٩٨م)- يرجع الفضل في إدخال حُرِّيَّة الرأي -التي يجب أن لا نخلط بينها وبين الإلحاد- في أوربا، وتحمَّس أحرار الفكر في العصر الوسيط الأوربي لشروحه لأرسطو، وكانت هذه الشروح مصبوغة بصبغة إسلاميَّة قوية. ويمكن أن نعتبر بحقٍّ أن التيار الفكري الذي نشأ عن هذا التحمُّس لابن رشد كان أصل التفكير المنطقي الحديث، فضلاً عن كونه من أصول الإصلاح الديني»[(٢)].

وتقول زيجريد هونكه: «إن سيلاً عرمًا من نتاج الفكر العربي، وموادَّ الحقيقة والعلم قد نَقَّحَتْهُ أيدٍ عربية، ونَظَمَتْه وعَرَضَتْه بشكل مثاليٍّ قد اكتسح أوربا... وفي مراكز العلم الأوربية لم يكن هناك عالِمٌ واحد من العلماء إلاَّ ومَدَّ يديه للكنوز العربية هذه؛ ليغرف منها ما شاء الله له أن يغرف، وينهل منها كما ينهل الظمآن من الماء العذب... ولم يكن هناك كتاب واحد من بين الكتب التي صدرت في أوربا آنذاك إلاَّ وقد ارتوتْ صفحاته بالرِّيِّ العميم من الينابيع العربية، وأَخَذَ عنها إيماءاته، وظهر فيه تأثيرها واضحًا كل الوضوح، ليس فقط في كلماته العربية المترجمة، بل وفي محتواه وأفكاره»[(٣)].

وتقول أيضًا: «إن هذه القفزة السريعة المدهشة في سُلَّمِ الحضارة -التي قفزها أبناء

---

(١) أتيين دينيه: (١٨٦١- ١٩٢٩م) مستشرق فرنسي ورسام وكاتب ذو شهرة عالمية.

(٢) أتيين دينيه: محمد رسول الله ص٣٤٣.

(٣) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٠٥، ٣٠٦.

الصحراء، والتي بدأت من اللاشيء- لهي جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني. وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحِقَة التي جعلتْ منهم سادة للشعوب المتحضِّرَة لَفَريدة من نوعها؛ لدرجة تَجْعَلُهَا أعظم من أن تُقارَن بغيرها، وتدعونا أن نقف متأمِّلِينَ: كيف حدث هذا؟!» [1].

ويقول المسيو سيديو: «لم يشهد المجتمع الإسلامي ما شهدته أوربا من تحجُّر العقل، وشلِّ التفكير، وجدب الرُّوح، ومحاربة العلم والعلماء، ويذكر التاريخ أن اثنين وثلاثين ألف عالم قد أُحرِقوا أحياءً! ولا جدال في أن تاريخ الإسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر، بل كان المسلمون منفردين بالعلم في تلك العصور المظلمة، ولم يَحْدُثْ أن انفرد دِينٌ بالسلطة، ومنح مخالفيه في العقيدة كل أسباب الحرية كما فعل الإسلام» [2].

ويقول كارادي فو: «إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق (للتحرُّر) من أحابيل البربرية وأغلالها، ووصلوا إلى قمَّة نشاطهم (الذي استمرَّ حتى القرن الخامس عشر) في القرنين التاسع والعاشر. ومن القرن الثاني عشر فصاعدًا، كانت مَرَّاكش والشرق الأوسط محطَّ أنظار كل غربي يميل إلى العلم ويتذوَّقه، وفي هذه الفترة شرع أبناء أوربا يُتَرْجِمُون آثار العرب، كما كان العرب قد ترجموا آثار الإغريق» [3].

ويقول الكاتب الفرنسي موريس بوكاي في كتابه (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم): «ونحن نعلم أن الإسلام ينظر إلى العلم والدين كتوءَمَيْنِ، وأن تهذيب العلم كان جزءًا من التوجيهات الدينية منذ البداية، وأن تطبيق هذه القاعدة أدَّى إلى التقدُّم العلمي العجيب في عصر الحضارة الإسلامية العظمى، التي استفاد منها الغرب قبل نهضته» [4].

وفي مجال تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية في عقليَّة الشعب الهندي ودياناته يقول

---

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٥٤.

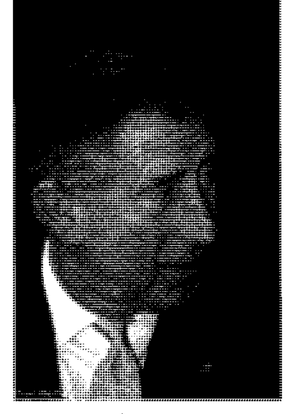
(٢) عن حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا ص٨٣.

(٣) كارداي فو: الفلك والرياضيات بحث منشور بكتاب تراث الإسلام بإشراف (أرنولد) ص٥٦٤.

(٤) نقلاً عن وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى ص١٤.

سفير الهند في مصر سابقًا باني كار: «من الواضح المُقَرَّرِ أن تأثير الإسلام في الديانة الهندكية كان عميقًا في هذا العهد (الإسلامي)، إن فكرة عبادة الله في الهنادك مدينة للإسلام، إن قادة الفكر والدين في هذا العصر وإن سَمَّوْا آلهتهم بأسماء شتَّى قد دَعَوْا إلى عبادة الله، وصَرَّحُوا بأن الإله واحد، وهو يستحقُّ العبادة، ومنه تُطْلَبُ النجاة والسعادة. وقد ظهر هذا التأثير في الديانات والدعوات التي ظهرت في الهند في العهد الإسلامي كديانة (Bhagti)، ودعوة (كبير)»[1].

وبعد أن يستعرض المؤرخ الفرنسي العلاَّمة سيديو أغلب وجوه الحضارة الإسلامية ينتهي إلى أن يقول: «وهكذا تجلَّى تأثير العرب في جميع فروع الحضارة الأوربية الحديثة»[2].



صورة (٨٠) الأَمير تشارلز

وبعدُ؛ فهذه أقوال ومرويات المنصفين من المستشرقين والمؤرِّخين الغربيين على فضل وأثر الحضارة الإسلامية.. وأختمُ هذا الباب بمحاضرة ألقاها الأمير تشارلز -وَلِيُّ عهد بريطانيا- في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية تحت عنوان: (الإسلام والغرب) جاء فيها حرفيًّا:

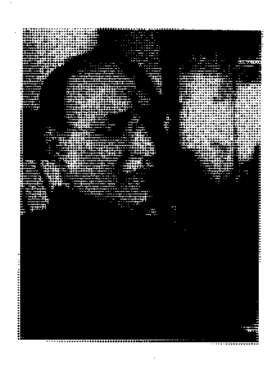
«إذا كان هناك قَدْرٌ كبير من سوء الفَهْم في الغرب لطبيعة الإسلام، فإن هناك -أيضًا- قدرًا مساويًا من الجهل بالفضل الذي تَدِينُ به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامي... فإسبانيا في عهد المسلمين لم تَقُمْ فقط بجمع وحفظ المحتوى الفكري للحضارة اليونانية والرومانية، بل فَسَّرَتْ تلك الحضارة وتَوَسَّعَتْ بها، وقَدَّمَتْ إسهامات مهمَّة من جانبها في كثير من مجالات البحث الإنساني في العلوم، والفلك، والرياضيات، والجبر -الكلمة نفسها عربية- والقانون، والتاريخ، والطب، وعلم العقاقير، والبصريات، والزراعة، والهندسة المعمارية، لقد كانت قرطبة في القرن العاشر أكثر المدن تحضرًا في أوربا. كما أن كثيرًا من المزايا التي تفخر بها أوربا العصرية جاءت أصلاً من

(١) A Survey of Indian. History p. 132.

(٢) سيديو: تاريخ العرب العام ص٣٨١.

إسبانيا في أثناء الحكم الإسلامي؛ فالدبلوماسية، وحرية التجارة، والحدود المفتوحة، وأساليب البحث الأكاديمي، وعلم الإنسان، وآداب السلوك، وتطوير الأزياء، والطب البديل، والمستشفيات جاءت كلها من تلك المدينَة العظيمة.

وفوق ذلك، فإن الإسلام يمكن أن يُعَلِّمَنَا طريقةً للتفاهم والعيش في العالم؛ الأمر الذي فقدته الديانة المسيحية؛ ممَّا أَدَّى إلى ضعفها، ويكمن في جوهر الإسلام حفاظُهُ على نظرة متكاملة للكون؛ فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادَّة، إن هذا الشعور المهمُّ بالوحدانية والوصاية على الطابع القدسي والرُّوحي للعالم من حولنا شيء مهمٌّ يمكن أن نَتَعَلَّمه من جديد من الإسلام»[1].



صورة (٨١) جورج سَارتون

ومن شاء التوسُّع في أثر الحضارة الإسلامية في نهضة أوربا الحديثة فليراجع الباب السادس من (تاريخ العرب العام) لسيديو، وهو تحت عنوان (وصف الحضارة العربية)، وكذا الباب الخامس بفصوله العشرة من كتاب (حضارة العرب) لجوستاف لوبون، وأيضًا كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) لزيجريد هونكه، وهو كله في إقرار فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية، ولينظر أيضًا إلى قائمة المصادر والمراجع التي جمعها العلاَّمة جورج سارتون لكتابه (مقدمة في تاريخ العلوم).

ولعلَّ ذلك وغيره الكثير يُدَلِّلُ بشكلٍ لا يقبل الجدل والشكَّ على ما انطوت عليه الحضارة الإسلامية من أصالة وازدهار وتفوُّق، وما اختصَّت به من شمول وتطوُّر، وما تميَّزَتْ به من واقعية وانفتاح، وما بدا من إسهامٍ عظيم في ركب الحضارة الإنسانية، ثم ما كان من أساس للحضارة الغربية الحديثة!

ولعلَّ الوقت قد حان لنستذكر تلك الحقائق، آملين الإفادة منها للنهوض من جديد.

---

(١) محاضرة: (الإسلام والغرب) والتي ألقاها في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية في السابع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٩٣م، وقد وزعت السفارة البريطانية بدمشق النصَّ المترجم، ثم طُبِعَ على نفقة الأمير تشارلز في كتيب صغير.

وبعد..

بعد هذه الرحلة السريعة في أعماق التاريخ الإسلامي، وبين دروب حضارتنا الرائعة، لا بُدَّ لنا من وقفة وتساؤل.. ماذا عسانا فاعلين بعد هذه المعرفة؟ وما هو دورنا كمسلمين غيورين على أُمَّتِهم، حريصين على حاضرها ومستقبلها؟

لعلَّ أول هذه الأدوار أن نفهم بشكل عملي أن فلاح هذه الأمة ونجاحها هو في اتباع القرآن والسنة، وليس هذا كلامًا عاطفيًّا خاليًا من أدلة، كما أنه ليس كلامَ منعزلين لا يعرفون شيئًا عن واقعهم، إنما هو كلام العقل والمنطق والحجة والبرهان.. لقد رأينا في صفحات هذا الكتاب التفوُّق الحضاري الإسلامي في كل مجالات الحياة، ولم يكن هذا التفوُّق محدودًا في محراب الصلاة، أو في ساحات الجهاد، إنما رأيناه في كل صغيرة وكبيرة من حياة الإنسان، لقد نجحت التجرِبة الإسلامية نجاحًا غير مسبوق، ونحن على يقين أنه أيضًا غير ملحوق؛ إنه مثال فريد أَبْدَع في العقيدة والفكر، وفي الفنون والآداب، وفي العلوم والتجارِب، وفي الأخلاق والقيم، وفي النظم والمؤسسات، وفي السلام والحروب.. وهذه التجربة المتميزة بُنِيَتْ في كل مراحلها على قواعد جلية من القرآن والسُّنَّة.

فإذا أردنا عودة إلى هذا النسق الباهر من الحياة فلا بديل عن الشريعة، ولا خيار في دين الله، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا﴾[1]، ولعلنا نلحظ أن الضلال المبين الذي جاء في الآية هو عكس الحضارة، وهو حالة التيه والضياع، ومرجعها في الأساس عصيان الله ورسوله، أي ترك الكتاب والسُّنَّة، وهذا الفهم يؤيِّده قول الرسول الكريم ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ، وَسُنَّتِي»[2].

وهكذا فإن أول أدوارنا هو عودة صادقة غير متكلفة إلى الدين بمفهومه الشامل، وهي عودة ستكفل لنا الهداية بعد الضلال، والقيادة بعد التبعية، والحضارة بعد الهمجية،

---

(١) (الأحزاب: ٣٦).

(٢) رواه مالك في الموطأ: كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر (١٥٩٤)، والبيهقي: السنن الكبرى (٢٠٨٣٣)، والدارقطني (٤٦٦٥)، والحاكم (٣١٩)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٥٢٤٨).

كما ستكفل لنا فوق سعادة الدنيا سعادة الآخرة، وصدق ربي إذ يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

أمَّا الدور الثاني بعد هذه الجولة فهو أن نبذل جهدًا كافيًا لمعرفة أصولنا وجذورنا.. فلا يكفي في هذا الصدد كُتَيِّب صغير، ولا وريقات معدودة، بل لا يكفي في ذلك مجلد من المجلدات، أو سفر من الأسفار.. إننا نحتاج ببساطة إلى تفريغ أوقات - بل أعمار - لقراءة هذا التاريخ المجيد، ودراسة مراحله وكل جوانبه، لقد فتحنا صفحات معدودة جدًّا في هذا الكتاب، ونحتاج أن نغوص بعده في التراث الهائل الذي تركه لنا العلماء المخلصون، والمفكرون الأجلاء، نحتاج أن نقرأ في أبواب الأسرة، والحقوق، والسياسة، والفكر، والاقتصاد، والقضاء، والفنون، والجمال، وغير ذلك من أبواب وفصول.. نحتاج أن نتعرف على أعلامنا الأفذاذ، وأسلافنا الأمجاد، وكيف كانت حياتهم، وكيف فهموا الدين، وكيف ساسوا به الدنيا؛ إن التاريخ يحوي كنوزًا لا حصر لها، وثروات لا تنتهي، وإذا كان هذا الكلام صحيحًا في وصف كل تاريخ، فهو في حق تاريخ الإسلام أصحُّ وأدقُّ وأعمق.

ثم إن الدور الثالث الذي يعقب ذلك هو نقل هذا التاريخ بكل ثرواته إلى العالمين، فأبناء العالم يجهلون قصتنا وحضارتنا، بل إنهم يعرفون عنَّا أمورًا مُزَوَّرة، وتاريخًا مشوَّهًا، وهذا بالتبعية يقود إلى توجُّس وخيفة، ويقود كذلك إلى استهزاء وسخرية، بل قد يقود إلى حرب وعدوان.. والإنسان بطبعه عدوٌّ ما يجهل، فلماذا نجلب عداء الدنيا بجهلهم حقيقتنا؟ بل حتى إن لم نجد منهم العداء والكراهية، ألسنا مُطَالَبِينَ بدعوتهم إلى دين الإسلام، وتوضيح الخير الذي فيه؟

إن الرسالة الإسلامية الخالدة لم تنزل لأهل الجزيرة العربية فقط، إنما نزلت من يومها الأول للعالمين.. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2]، وقال رسول الله ﷺ:

---

(١) (النحل: ٩٧).
(٢) (الأنبياء: ١٠٧).

«**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»[١]. وهذا المفهوم يتطلَّب مِنَّا حركة دؤوبة في الكون؛ لحمل هذا الدين الخالد وهذه الحضارة الراقية إلى العالمين، كما يحتاج مِنَّا أن نَرُدَّ عن تاريخنا الشبهات، ونُزِيل عنه المنكرات، ونُبرز للإنسانية ما قَدَّمْنَاه لها، ونُوَضِّح للبشر ما أسهمنا به في حياتهم، وعندها سيعلم الجميع أن سبب هذا الرقي هو هذا الدين الجليل، وفي هذا دعوة ما بعدها دعوة، وتغيير لأفكار أهل الأرض، وانظروا إلى ما قاله بودلي[٢] - مثلاً - بعد أن درس الحضارة الإسلامية، وعرف قصة الإسلام.. يقول في انبهار: «كانوا (أي المسلمين) كالغيث الذي يخصب المكان الذي ينزل فيه، وإن عصر الإحياء في أوربا ليرجع إلى أحفاد صحابة محمد ﷺ، الذين حملوا مشعل الثقافة؛ حيث كانت أوربا غارقة في ظلمات العصور الوسطى»[٣].

إن هذه الشهادة عظيمة من عدة وجوه: فهي تمدح الخير الذي يتصف به المسلمون، كما أنها تشكر عملهم وثقافتهم وحضارتهم، وفوق ذلك تصف حركة المسلمين بالخير إلى كل مكان، وذلك بعد أن فقهوا الدور المنوط بهم كأمة تحمل الرسالة الخاتمة، ثم إنه يصف بتجرُّد الحضارات الأخرى بالقياس إلى حضارة المسلمين، وأكثر من كل ذلك وأعمق فإنه ينسب هذا الفضل إلى رسول الله ﷺ، الذي عَلَّم صحابته كل هذه الأصول والقيم والعلوم، فانتقلت منهم بالتبعية إلى أبنائهم وأحفادهم.

إنها شهادة قيمة رائعة.. وخاصة أنها تتناسق مع ما ذكره رسول الله ﷺ إذ قال: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ**[٤] **قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ**[٥] **أَمْسَكَتِ**

---

(١) البخاري عن جابر بن عبد الله: كتاب التيمم (٣٢٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) رونالد فيكتور بودلي R.V.C. BODLLY: مستشرق بريطاني، رائد التحق بالجيش البريطاني عام ١٩٠٨م، وتدرج في رتبه إلى أن وصل إلى رتبة كولونيل، عمل في وحدة الجيش البريطاني بالعراق، ثم في شرقي الأردن عام ١٩٢٢م، ثم مستشارًا لسلطنة مسقط عام ١٩٢٤م، كان أول من عبر الربع الخالي، وكشف عن أسراره المجهولة عامي ١٩٣٠، ١٩٣١م. عندما ترك الخدمة الحكومية ذهب ليعيش بين عرب الصحراء، وكتب كثيرًا عن الصحراء وعن الشرق، وأشهر كتبه (الرسول، حياة محمد)، وهو مترجم للعربية، وأعمال أخرى منها: The Wind in the Sahara و soundless Sahara وغيرها.

(٣) ر. ف. بودلي: الرسول، حياة محمد ص١٤٧.

(٤) نقية: المراد بها القطعة الطيبة. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١٧٦.

(٥) أجادب: جمع جَدَب، وهي الأرض الصلبة التي لا ينضب منها الماء. المصدر السابق.

السَّمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ؛ فَشَرِبُوا، وَسَقَوْا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً، وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ...»(١).

ولكن سل نفسك.. كيف كان سيشهد هذه الشهادة بغير دراسة ولا علم؟! وسل نفسك أيضًا: ويا ترى كم من غير المسلمين عرف ما عرفه بودلي؟!

أليس من الممكن أن تصبح هذه الشهادة شهادات؟!

و أليس من الممكن كذلك أن تصبح أمثال هذه الشهادات مِفتاحًا إلى قلوب وعقول غير المسلمين؟!

إن هذا الفهم يُحمِّلنا مسئولية كبرى، وأمانة عظمى، وهي أن نتحرَّك بهذا الدين إلى كل العالمين، فنحن أتباع الرسول الخاتم ﷺ، وحُمِّلْنا من بعده أمانة التبليغ، «فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»(٢). «فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ»(٣).

أمَّا آخر ما أحب أن أشير إليه في خاتمة هذا الكتاب، هو أن نحمد الله كثيرًا على أنه خلقنا مسلمين، إن لنا الفخر والمجد أبد الدهر أن حملنا هذا الدين، وأن صرنا أتباعًا لسيد المرسلين، وخير البشر أجمعين ﷺ، كما أنَّ لنا الفخر أبد الدهر أن جعل الله ﷻ لنا هذا التاريخ المضيء، وهذه الحضارة النقية، وإنه آن الأوان أن نرفع رءوسنا عالية، وأن نباهي الخلق أجمعين بأننا - والحمد لله - مسلمون!

إنني آسف كثيرًا عندما أرى بعض الشباب المسلم يتوارى من القوم؛ لكي لا يُعرف أنه مسلم، وقد يحاول التشبه بالغربيين أو الشرقيين، ولو في لباسهم، أو لغاتهم، أو حتى ألعابهم ولهوهم، ويريد أن ينسلخ من جلده، وأن يهرب من واقعه.

---

(١) البخاري عن أبي موسى: كتاب العلم، باب فضل من علم وعلَّم (٧٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم (٢٢٨٢).

(٢) البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (١٦٥٤).

(٣) أبو داود: كتاب العلم، باب فضل نشر العلم (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦) وقال: هذا حديث حسن. وابن ماجه (٢٣٠)، وأحمد (١٦٧٨٤)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٤٠٤).

آسف كثيرًا عندما أرى هذا الواقع المرير، وأُدرك منذ الوهلة الأولى أن هؤلاء الشباب لا يعرفون شيئًا عن تاريخهم، ولم يقرءوا صفحة عن حضارتهم، وإلا لتبدَّل الحال، وتغيَّر الوضع.

إن المُحْبَطِين لا يُغيِّرون، والقانطين لا يُصْلِحون..

ولن نُعيد هذه الحضارة الذهبية إلا بنفس أَبِيَّة، ورُوح معنوية عالية، وعِزَّة غير متكبِّرة، وقوة غير باغية..

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَعِزًّا
وَكِدْتُ بِأَخْمُصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا

...

دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي
وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا[١]

هذه هي الروح التي يمكن أن تحمل هذه الرسالة، وهذه هي النفس التي تليق بهذه الحضارة، ولا نشكُّ في أن عودة المسلمين لصدارة العالم ستصبح أمرًا واقعًا، وسيراها الأقربون والأبعدون، ولكن كل ما نتمنَّاه أن نكون من المشاركين في بناء هذا الصرح العظيم.. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾[٢].

وَنَسْأَلُ الله ﷻ أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين

أ. د. راغب السرجاني

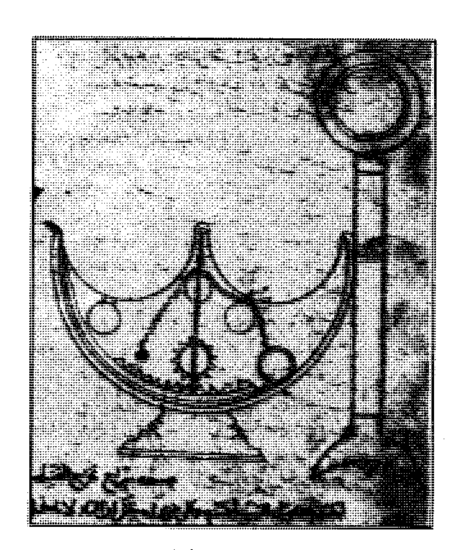
---

(١) الأبيات للشاعر محمد الهلالي.
(٢) (الإسراء: ٥١).

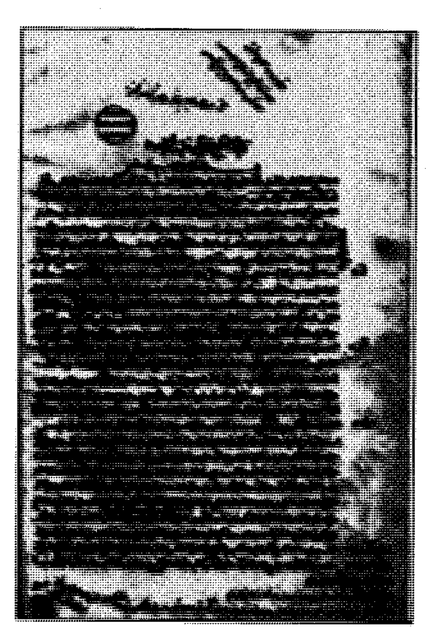
ملحق

الصور الملونة

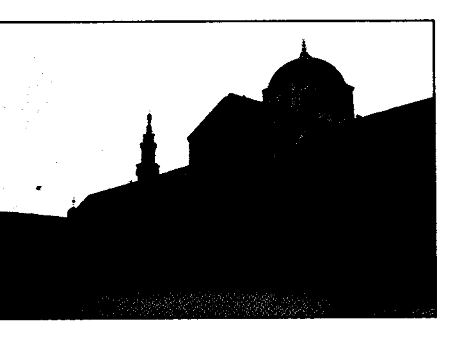




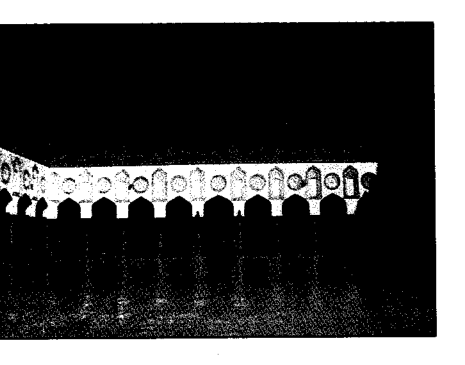
صورة رقم (١)
كتاب الحيل لأولاد موسى بن شاكر



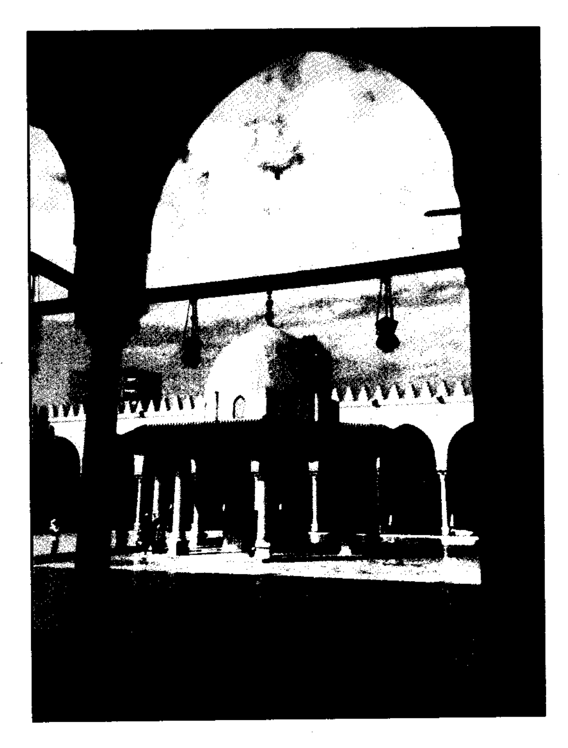
صورة رقم (٢)
كتاب شرح تشريح القانون لابن النفيس



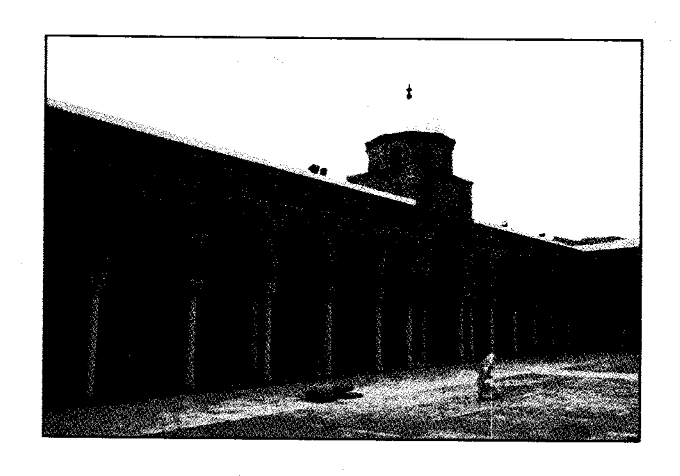
صورة رقم (٤)
المسجد الأموي بدمشق



صورة رقم (٥)
المسجد الأزهر



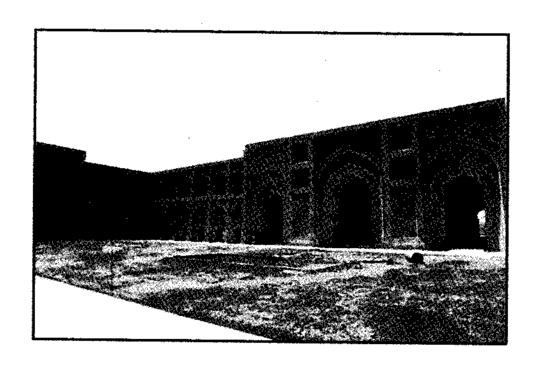
صورة رقم (٣)
مسجد عمرو بن العاص



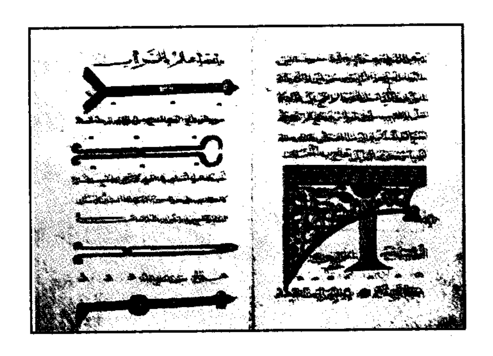
صورة رقم (٦)
مسجد الزيتونة



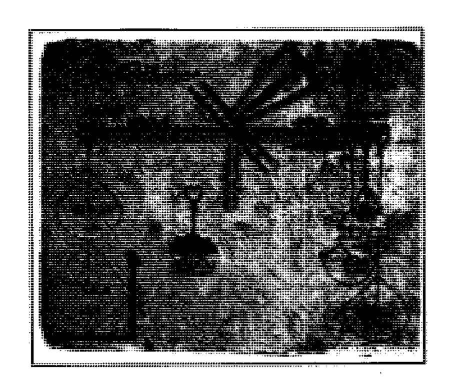
صورة رقم (٧)
مسجد القرويين



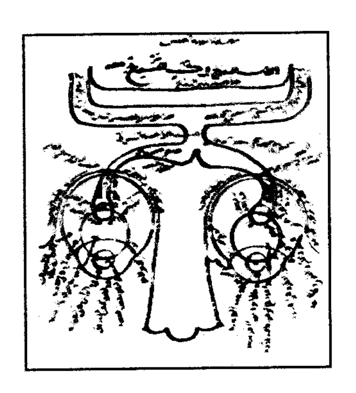
صورة رقم (٨)
المدرسة المستنصرية



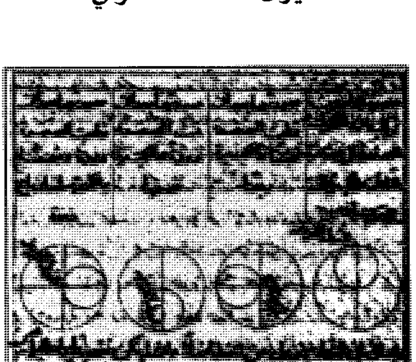
صورة رقم (٩)
صفحة من كتاب التصريف



صورة رقم (١٠)
ميزان الحكمة للخازني



صورة رقم (١١)
تشريح العين لابن الهيثم



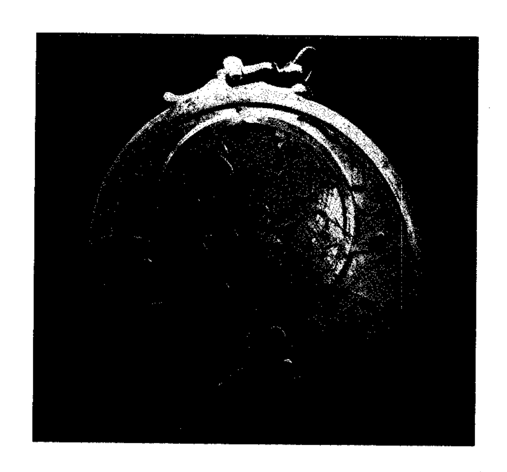
صورة رقم (١٢)
كتاب لنصير الدين الطوسي



صورة رقم (١٣)
خريطة العالم للإدريسي



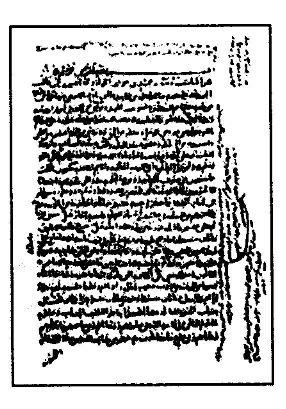
صورة رقم (١٤)
خريطة العالم - لبيري رايس



صورة رقم (١٥)
الأسطرلاب



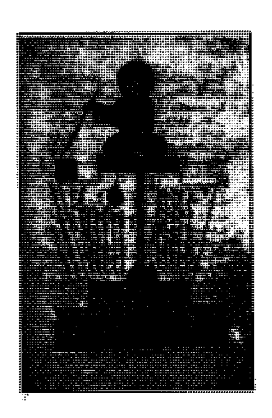
صورة رقم (١٦)
كتاب السّر السّار - لجابر بن حيان



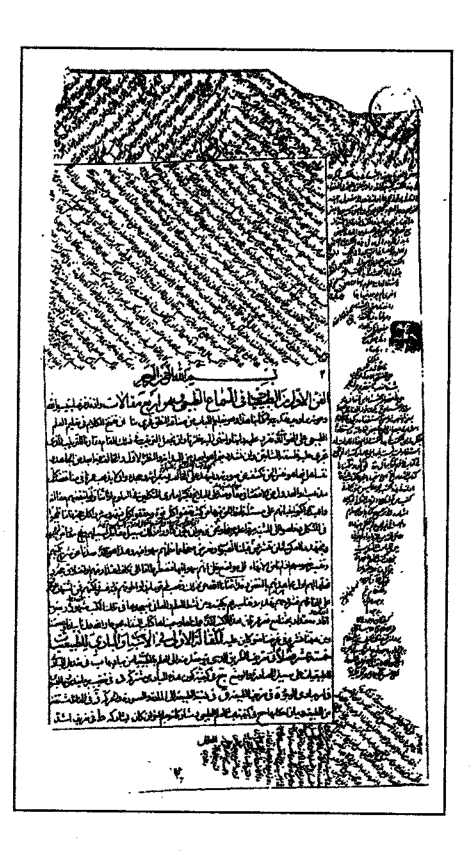
صورة رقم (١٨)
كتاب الجبر للخوارزمي



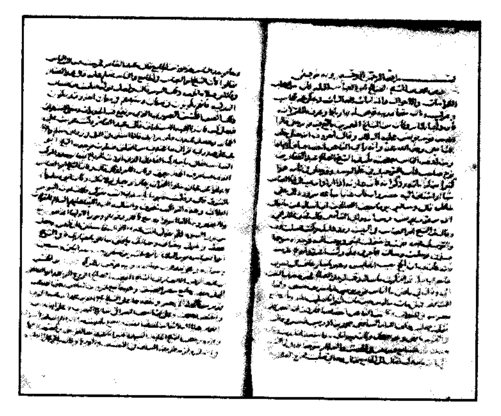
صورة رقم (١٧)
(كتاب ابن البيطار



صورة رقم (١٩)
الساعة المائية لابن الرزاز الجزري

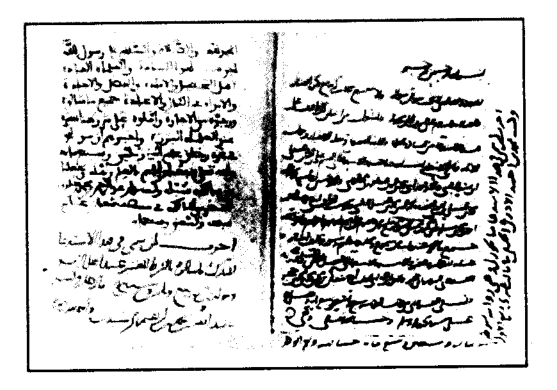


صورة رقم (٢٠)
الشفاء لابن سينا

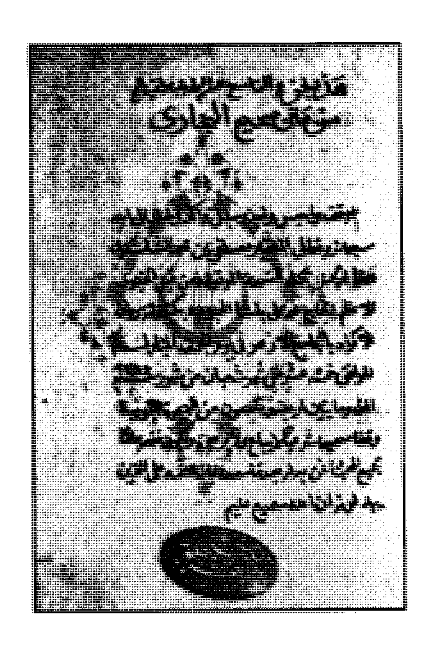


صورة رقم (٢١)
كتاب طبقات الشافعية للسبكي

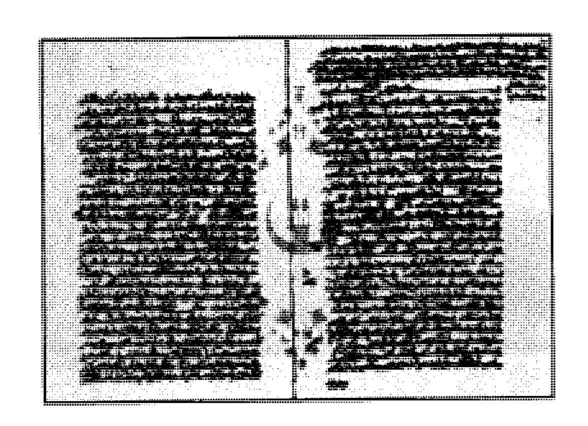
صورة رقم (٢٢)
ديوان المتنبي



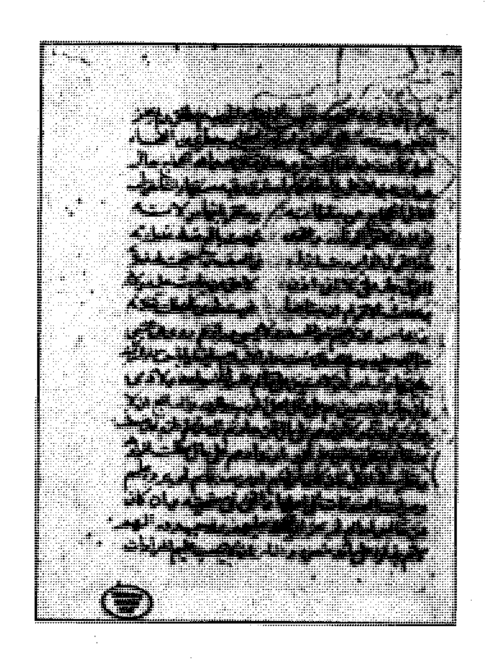
صورة رقم (٢٣)
كتاب ابن خلدون



صورة رقم (٢٤)
صورة من كتاب البخاري



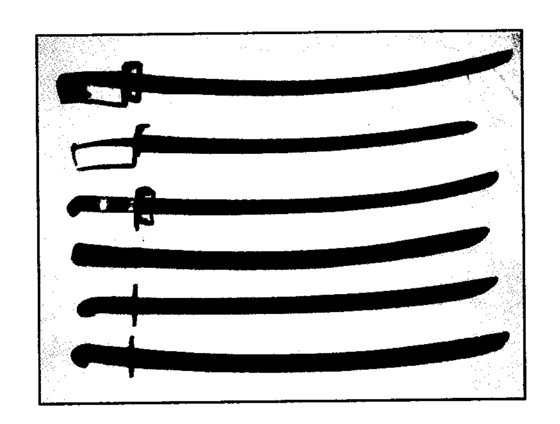
صورة رقم (٢٥)
الرسالة للإمام الشافعي



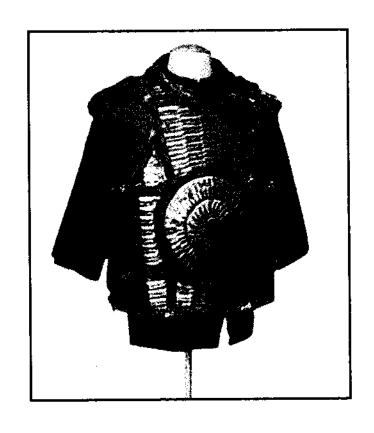
صورة رقم (٢٦)
الأحكام السلطانية للماوردي



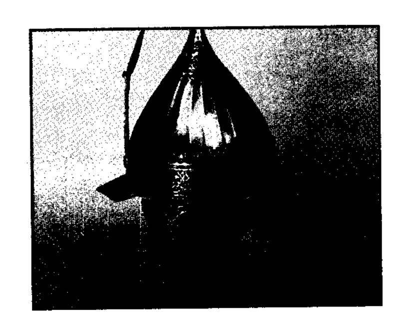
صورة رقم (٢٧)
حمام زاجل



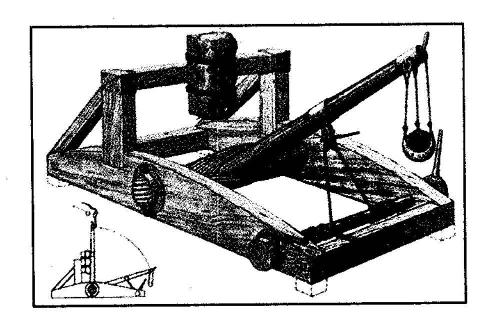
صورة رقم (٢٨)
السيوف



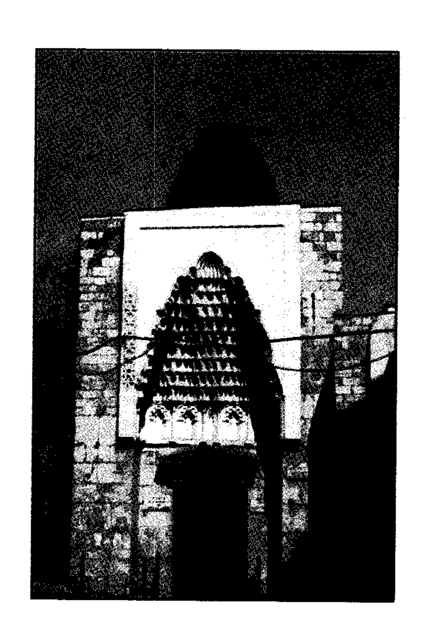
صورة رقم (٢٩)
ملابس عسكرية



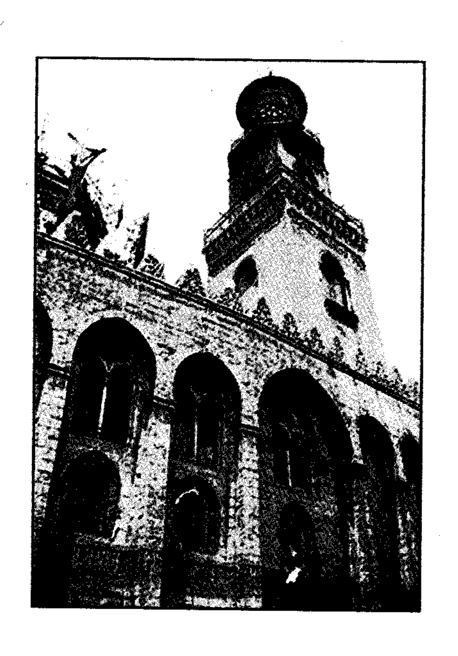
صورة رقم (٣٠)
خوذة



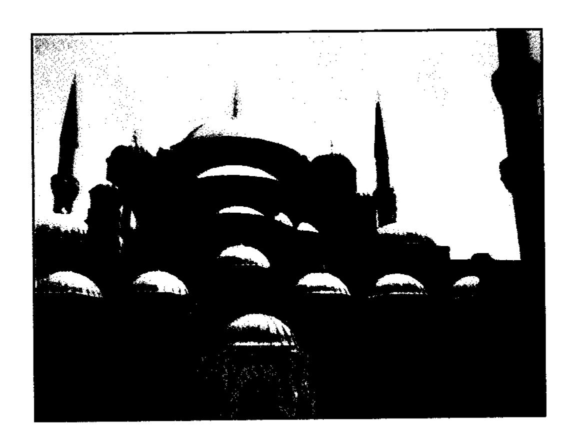
صورة رقم (٣١)
نموذج للمجانيق



صورة رقم (٣٢)
البيمارستان النوري في دمشق



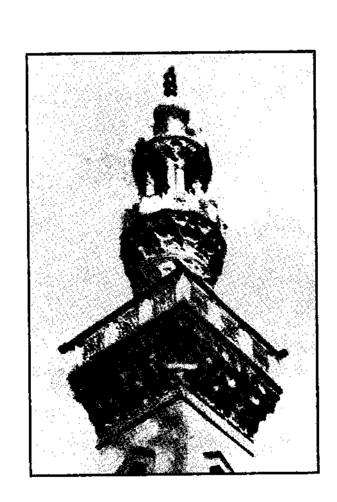
صورة رقم (٣٣)
بيمارستان المنصوري الكبير



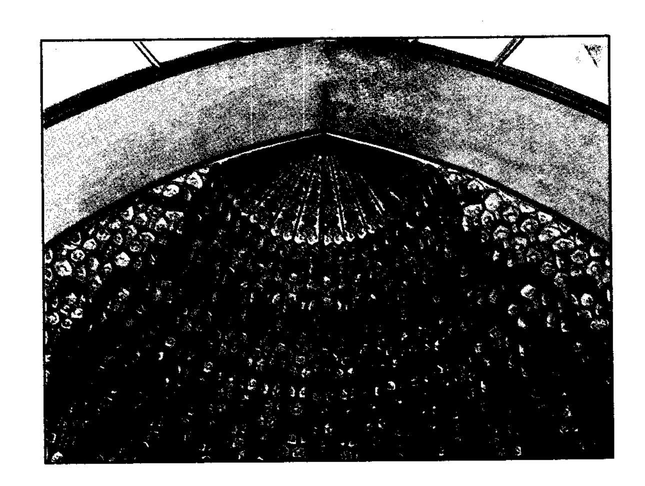
صورة رقم (٣٤)
مسجد السلطان أحمد



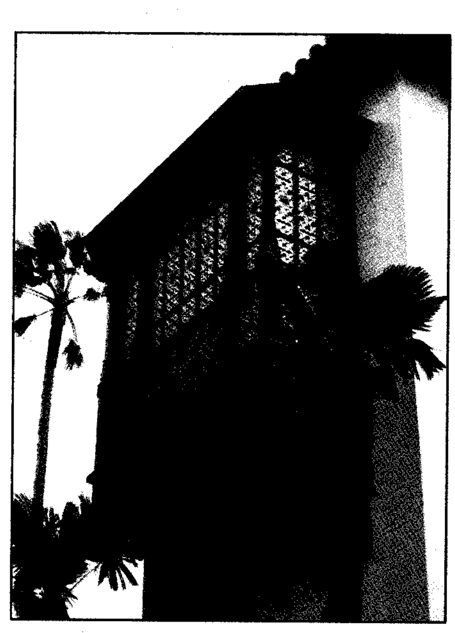
صورة رقم (٣٥)
تقنية الأعمدة



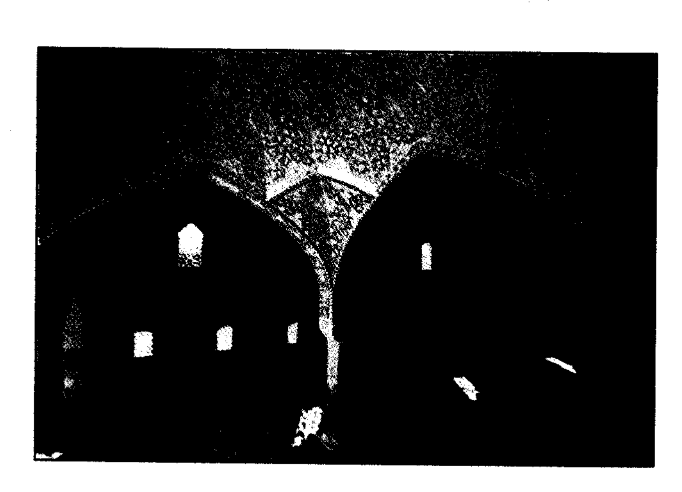
صورة رقم (٣٦)
مقرنصات خارجية



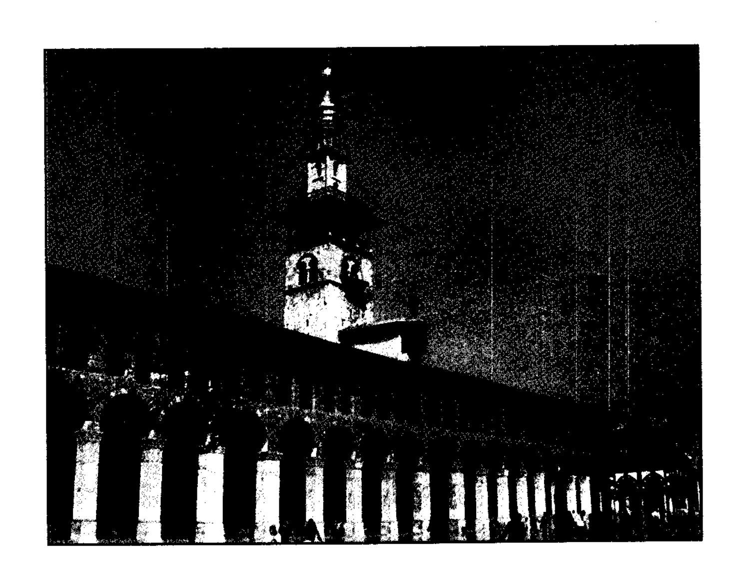
صورة رقم (٣٧)
المقرنصات الداخلية (محراب)



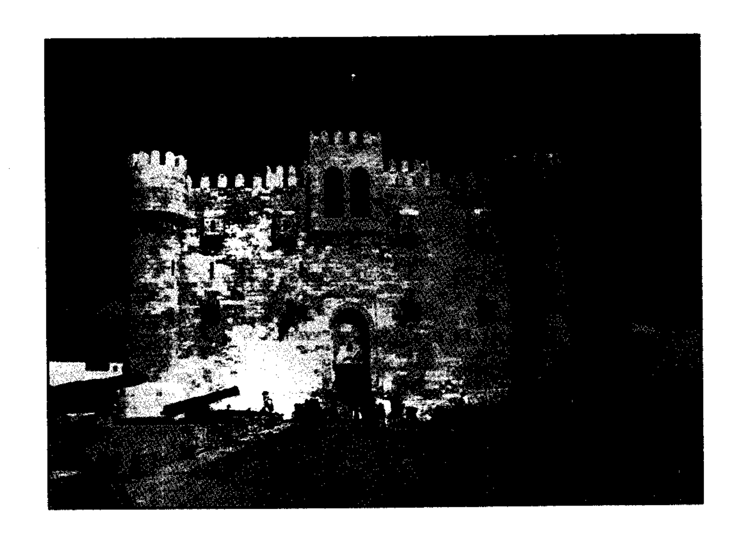
صورة رقم (٣٨)
مشربيات



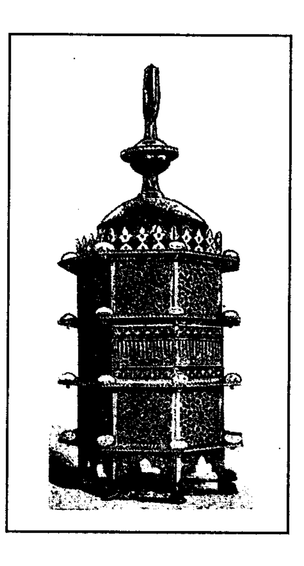
صورة رقم (٣٩)
تقنية الصوتيات المعمارية مسجد أصفهان



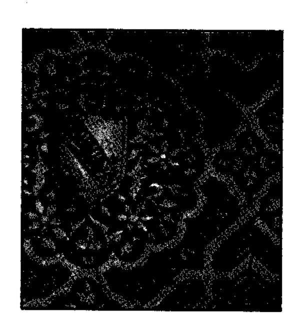
صورة رقم (٤٠)
العقد المنفوخ المسجد الأموي



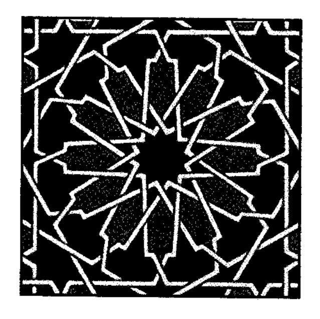
صورة رقم (٤١)
قلعة قايتباي



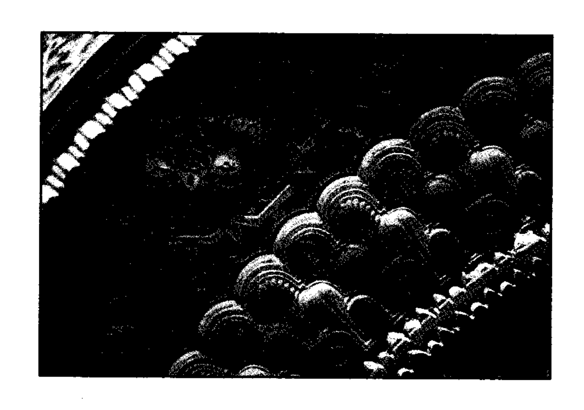
صورة رقم (٤٢)
فن الأرابيسك



صورة رقم (٤٣)
الزخرفة النباتية



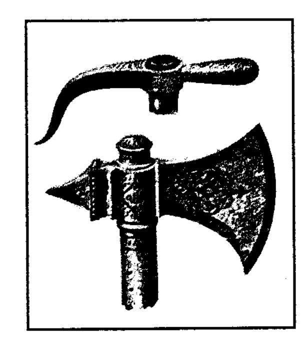
صورة رقم (٤٤)
الزخرفة الهندسية



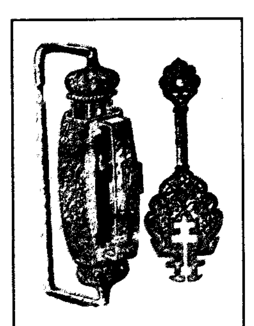
صورة رقم (٤٥)
دقة الزخرفة



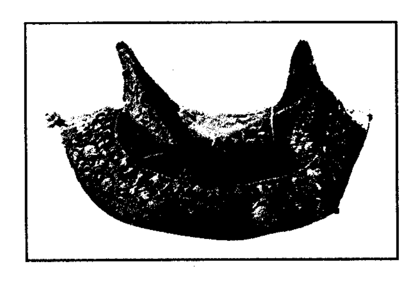
صورة رقم (٤٦)
لوحة خط عربي على هيئة أسد

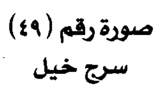


صورة رقم (٤٧)
فئوس

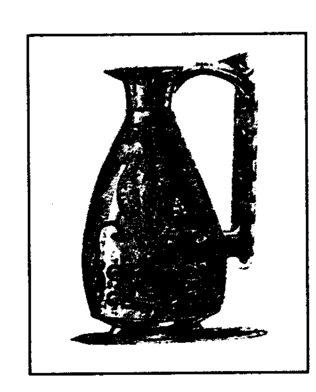


صورة رقم (٤٨)
مفتاح وقفل





صورة رقم (٤٩)
سرج خيل



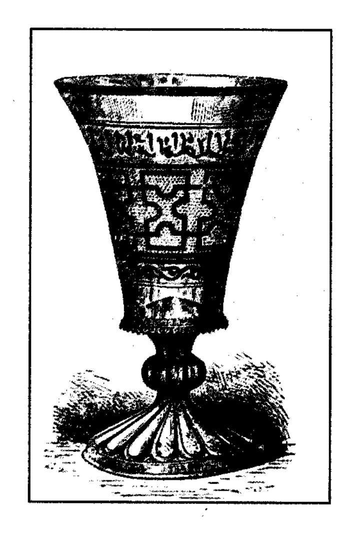
صورة رقم (٥٠)
إبريق



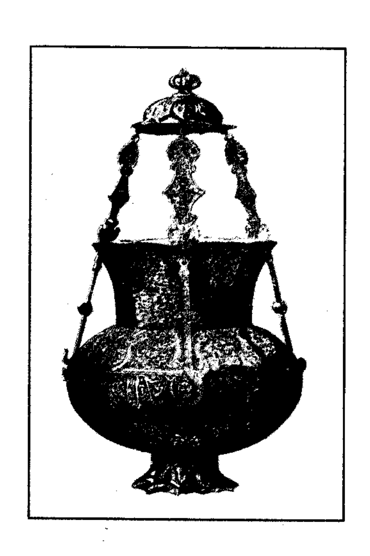
صورة رقم (٥١)
إناء



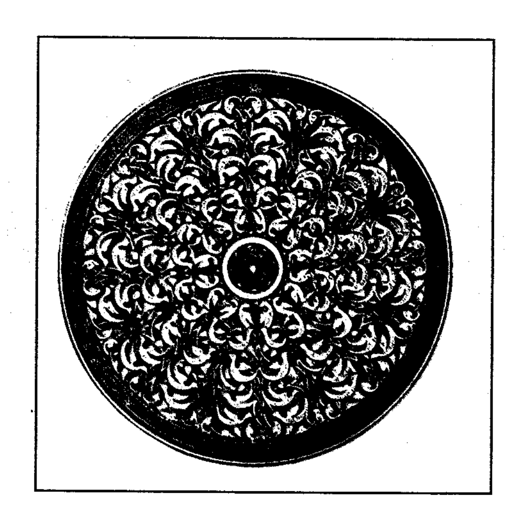
صورة رقم (٥٢)
حلي



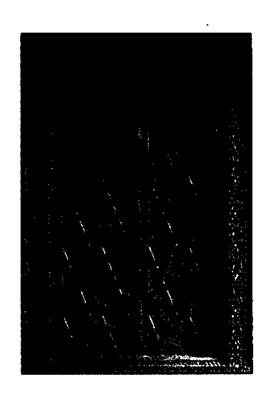
صورة رقم (٥٣)
كوب



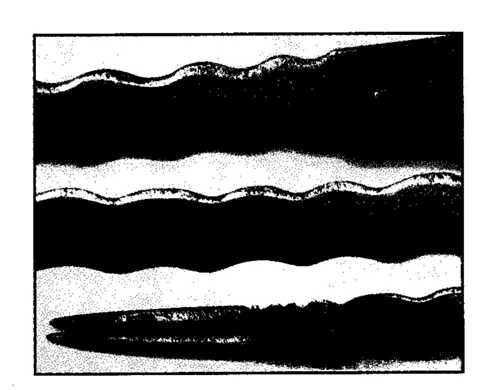
صورة رقم (٥٤)
قنديل



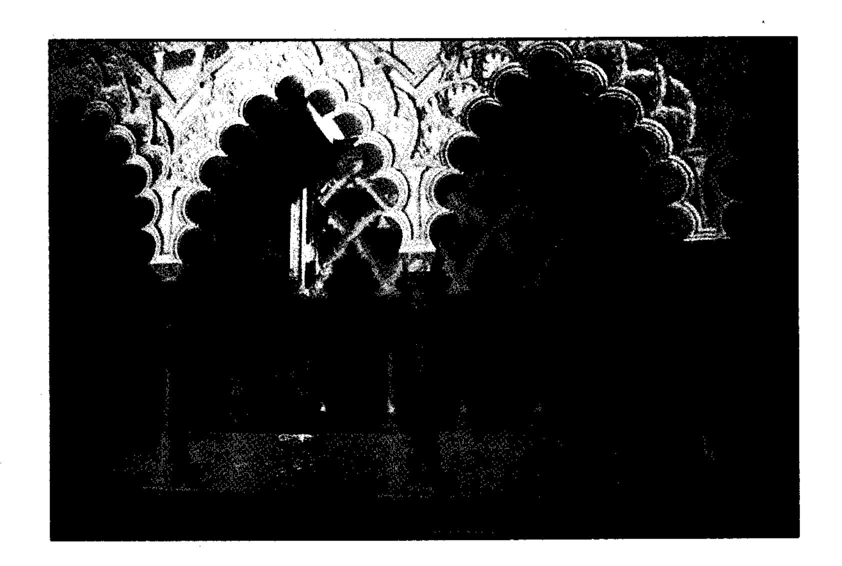
صورة رقم (٥٥)
صحن



صورة رقم (٥٧)
باب

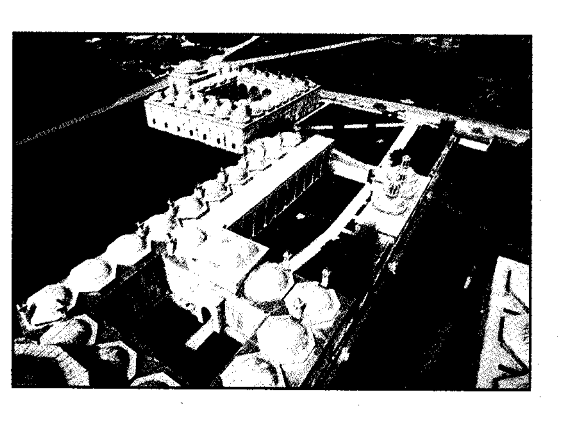


صورة رقم (٥٦)
أغمدة سيوف

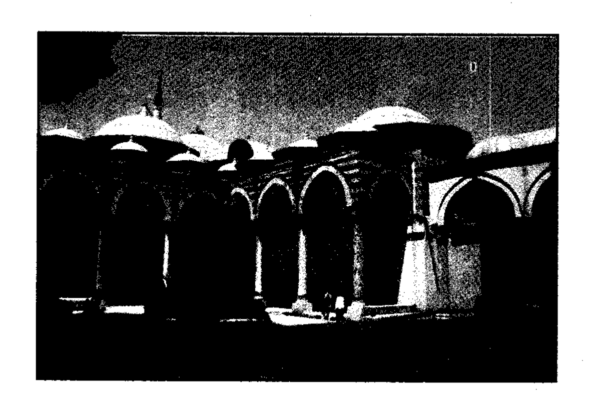


صورة رقم (٥٨)
أقواس في قصر سرقسطة

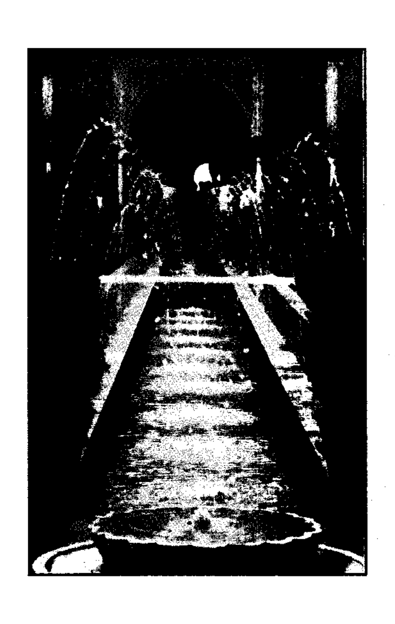
صورة رقم (٥٩)
حديقة أندلسية - غرناطة

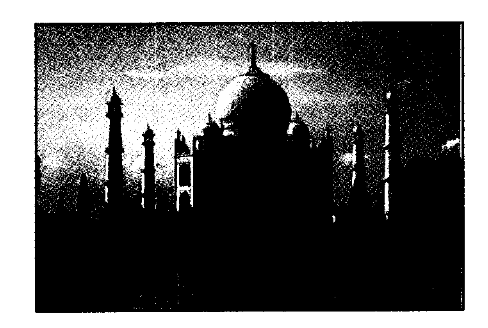


صورة رقم (٦٠)
مجمع بايزيد الثاني



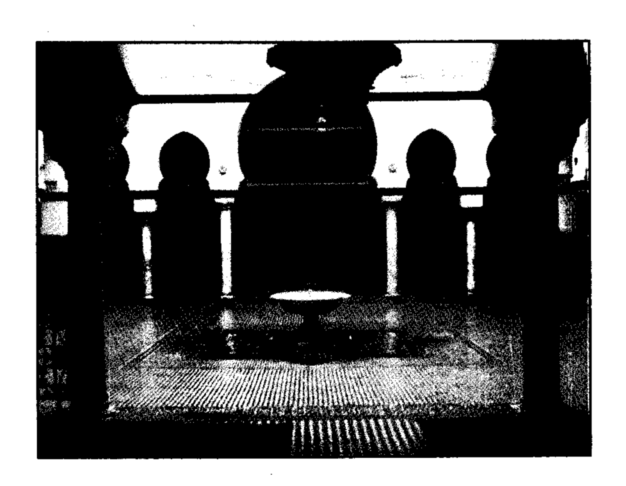
صورة رقم (٦١)
حدائق قصر توب كابي - تركيا



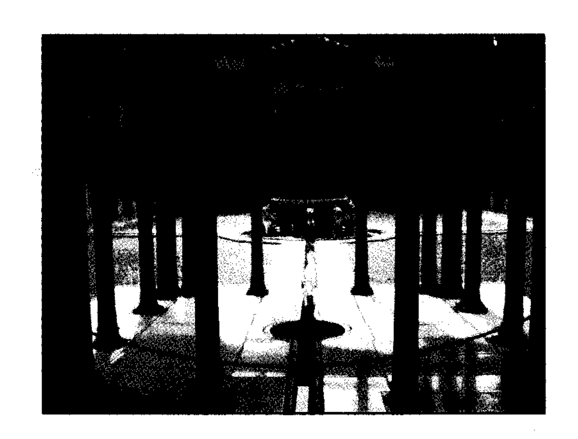


صورة رقم (٦٢)
حديقة تاج محل

صورة رقم (٦٣)
نافورة أندلسية - غرناطة



صورة رقم (٦٤)
نافورة بساحة جامع القرويين بالمغرب



صورة رقم (٦٥)
نافورة الأسود - ساعة ومركز شبكة مياه ومنظر جميل



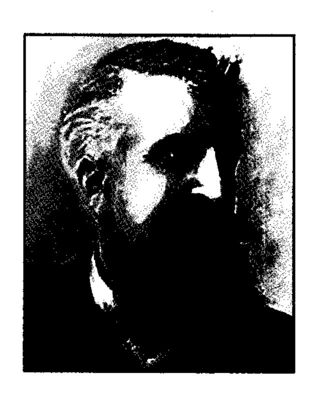
صورة رقم (٦٦)
سواري -أعمدة- مسجد قرطبة



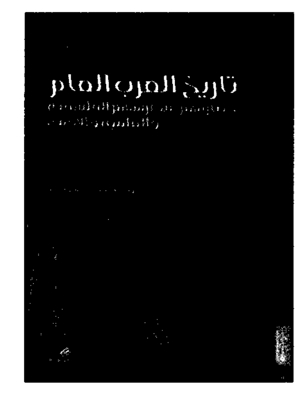
صورة رقم (٦٧)
الأقواس في ساحة المحراب



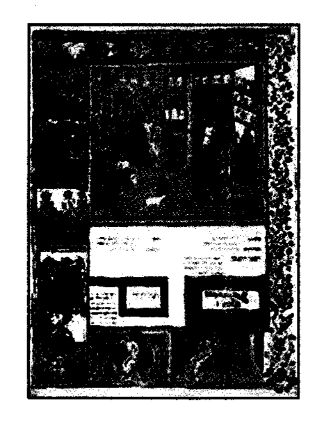
صورة رقم (٦٨)
ليوبولد فايس



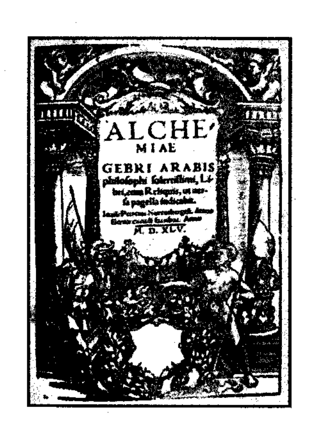
صورة رقم (٦٩)
جوستاف لوبون



صورة رقم (٧٠)
غلاف كتاب سيديو



صورة رقم (٧١)
نسخة مترجمة
من كتاب القانون



صورة رقم (٧٢)
الترجمة اللاتينية
لكتاب جابر بن حيان

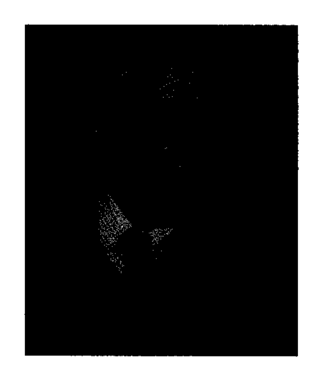




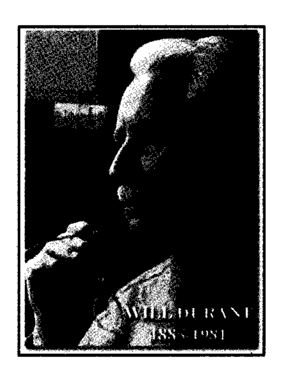
صورة رقم (٧٣)
كتاب شمس العرب تشرق على الغرب



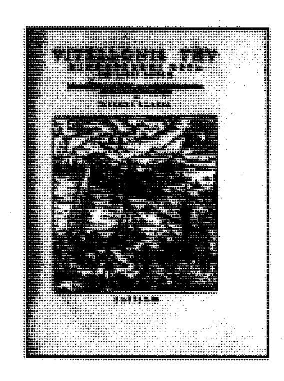
صورة رقم (٧٤)
توماس أرنولد



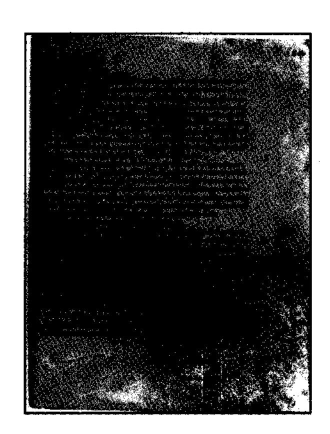
صورة رقم (٧٥)
مونتجمري وات



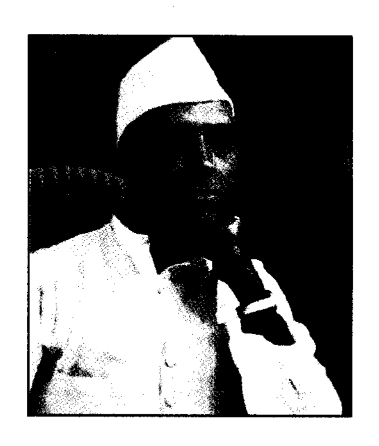
صورة رقم (٧٦)
ول ديورانت



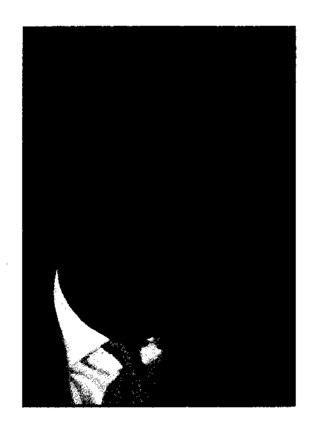
صورة رقم (٧٧)
ترجمة لاتينية لكتاب ابن الهيثم



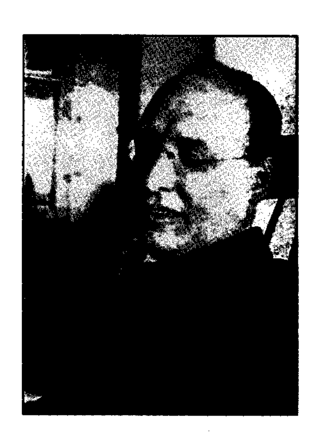
صورة رقم (٧٨)
ترجمة لاتينية لكتاب الخوارزمي



صورة رقم (٧٩)
جواهر لال نهرو



صورة رقم (٨٠)
الأمير تشارلز



صورة رقم (٨١)
جورج سارتون